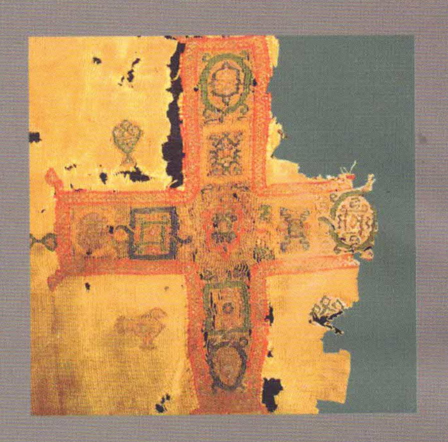
الهيئة العامة لقصور الثقافة



تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

2

إعداد و تحقيق:
عبد العزيز جمال الدين

لم يكن ابن المقفع آخر المؤرخين المصريين، لكنه ومخطوطته كانا الأشهر فى هذا السياق، وقد تعاقب من بعده من الآباء والرهبان المصريين من عكفوا على استكمال هذا التأريخ حتى بداية القرن العشرين. وبجهد الباحث المجد عكف المحقق المصرى عبد العزيز جمال الدين على جمع هذه المخطوطات وتحقيقها والتعليق عليها، موضحاً ما كتب فيها وما كتب فى التاريخ الرسمى الشهير، ليضع أمامنا عملاً قل أن نجده فى الثقافات الحديثة، لنقف أمام وجهتى نظر للتاريخ متأملين كيفية عمل الفعل البشرى فى تسجيل الأحداث حسب الانتماء الثقافى، وليفتح الباب على مصراعيه أمام العاملين فى مجال البحث التاريخى ليعيدوا التأمل فى آلية ومسار واحدة من أهم عمليات التدوين الذى حكم مخيلة البشر فى رؤيتهم لماضيهم التليد.

وزارة الثقافة



السعر: سبعة جنيهات

تصميم الغلاف: أحمد اللباد

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

الجزء الثاني

وزارة الثقافة



مطبوعات
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• تاريخ مصر
من خلال مخطوطة
تاريخ البطاركة (الجزء الثانى)
• إعداد وتحقيق:
عبدالعزيز جمال الدين
• طبعة:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2012م
17x 24 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• رقم الإيداع: ٢٦٤٢/ ٢٠١٢
• الترقيم الدولى: 978-977-704-939-9
• المراسلات:
باسم / المشرف العام
على العنوان التالى: 16 أ شارع
أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947897
التجهيزات والطباعة:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى
حتى نهاية القرن العشرين

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

إعداد وتحقيق

عبد العزيز جمال الدين

الجزء الثانى

من أندرونيكوس حتى بنيامين الأول البطرك ٣٨ (٦٢٢-٦٦١م)

اندرونيكوس البطرك
[٦١٦ / ٦٢٢م(*)
وهو السابع والتلتون من العدد

(*) يرى الفريد تبلر أن مدته كانت من ديسمبر ٦١٦ إلى ٣ يناير ٦٢٣.

فلما تنيح انستاسيوس اجلسو على الكرسى إنسان عالما شماسا من كتبه الانجيليون بتولا كاتب اسمه اندرونيكوس، وكان غنيا جدا يحب الصدقه، مقدما فى الشعب محبا للرحمه لا يفتر من الاعطا وكان اهله مقدمى المدينه حتى انهم ولو ابن عمه ديوان اسكندريه. ومن اجل قوة سلطانه

فى تواريخ الغزو الفارسى لمصر

مما يشك فيه أن نستطيع اليوم أن نعرف على سبيل البت تاريخ الحوادث المتصلة بالفتح الفارسى لمصر فقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن ذلك الحادث كان بعد سنة ٦١٦ للميلاد. ويقول (جلزر)، وقد كتب رسالة غزيرة العلم عن هذا الأمر (Leontius Von" "Neopolis صفحة ١٥١) إن الاسكندرية لا يمكن أن يكون فتح الفرس لها قبل سنة ٦١٩ وهو يخالف فى ذلك رأى (فون جوتشمت) الذى يذهب إلى أن ذلك الحادث كان قبل ذلك بسنة أو سنتين.

والحجج التى يوردها(جلزر) هى كما يلى: أن تيوفانز يجعل الفتح الفارسى فى سنة ٦١٦، ويقول ابن العبرى إنه كان فى السنة السابعة من حكم هرقل آخذا ذلك عن البطريق ميخائيل إذ يقول(طبعة بيت المقدس صفحة٢٩٣) إن شاه ـ ورز غزا مصر فى السنة السابعة من حكم هرقل ويذهب ايزيدور.Roncalli,chron.Minالجزء الثانى٤٦١) إلى أن الفتح كان فى سنة ٦١٦، ويقول الطبرى إن مفاتيح الاسكندرية أرسلت إلى كسرى فى السنة الثامنة والعشرين من حكمه أى سنة ٦١٧ ـ سنة ٦١٨،، وهو فى ذلك يثبت التاريخ الذى سبق أن روى عن ميخائيل،،.

ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أن السنة السابعة من حكم هرقل هى من أكتوبر سنة ٦١٦ إلى

وتقدمته لم يقدرو الهراطقه يخرجونه من اسكندريه الى الديارات كما كان تقدم [لمن] قبله بل جلس فى قلايته فى بيعه الانجيليون ايامه كلها.

وكان قد قام فى الفرس ملك اسمه كسرى فجمع امة كبيره وجا[ء] بقوه عظيمه على جيش الروم فاهلكهم واباده‍م وافناهم وتسلط على ارض الروم وارض الشام وسبى ارض فلسطين ودميا [دمياط] وارض مصر وداسهم كما تدوس البقر الاندر، وجمع اموالهم وكلما

أكتوبر سنة ٦١٧ فى حين أن السنة الثامنة والعشرين من حكم كسرى تقع فى منتصف سنة ٦١٧ إلى منتصف سنة ٦١٨، ولا يقع أى جزء منها فى سنة ٦١٦؛ وعلى ذلك فليس الاتفاق واضحا بين خبر الطبرى وخبر ميخائيل وفوق ذلك أن ابن العبرى (أو أبا الفرج) يذكر بوضوح فى موضع آخر«His.Dyn.»(طبعة بوكوك) صفحة ٩٩ أن فتح الفرس لبيت المقدس كان فى السنة الخامسة من حكم هرقل وهو فى ذلك يناقض نفسه كما فعل فى مواضع كثيرة.

ويقول(جلزر) فوق ذلك إن (فون جوتشمت) قد بين بيانا دقيقا (Kleine Schriften» الجزء الثالث صفحة ٤٧٣ وما بعدها) أن غزوة الفرس لا يمكن أن تكون وقعت قبل سنة ٦١٧ لأن،، المراجع السورية تدل على أن زيارة أثناسيوس الأنطاكى للبطريق انستاسيوس المونوفيسى بالاسكندرية كانت فى سنة٦١٦،، فى حين أن المعروف أن البطريق الذى كان على ولاية الدين عند ما فتح الفرس الاسكندرية كان أندرونيكوس. وفوق ذلك لقد كان (نيقتاس) هو المساعد على توحيد الكنستين وصاحب الفكرة فى هذا كما يقول ابن العبرى وقد هرب نيقتاس مع حنا الرحوم عند مقدم الفرس. ويذهب (فون جوتشمت) إلى أن وفاة أنستاسيوس كانت فى ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦، وقد أقام خلفه أندرونيكوس فى المدينة ويقول (جلزر) إن هذا يدل دلالة واضحة على أن الاسكندرية كانت على الأقل فى أول ولاية أندرونيكوس

كان لهم الى خزاينه، وكان لكترة محبته فى المال
يقتل انسانا على دينار واحد وعلى ما مقداره تلته
دنانير لانه كان كتير الشعب لا يعرف الله بل كان
يعبد الشمس. فلما اخذ مصر وتسلط جعل
اهتمامه ان يفتح المدينه العظمى اسكندريه وكان
هناك ستماية دير عامرة بهاناتون مثل ابراج الحمام،
وكانو مستغنين بطرين بلاخوف من كترة نعمتهم
ويفعلون افعال الهزوا[ء]، وكان جيش الفرس قد
احاط بهم من غربى الديارات ولم يبق لهم ملجا

للبطرقة (آخر سنة ٦١٦) لا تزال تحت حكم الروم. وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون فتح الفرس قبل صيف سنة ٦١٧، كما يذهب اليه (فون جوتشنت).

وانا نرى على وجه الإجمال أن تواريخ (فون جوتشمت) صحيحة على أنها لا تخلو من الصعوبة. وأقل اعتراض هو أنه ليس من الثابت أن السنة التى يوردها المؤرخون السوريون تتفق مع سنة ٦١٦ وذلك لأن هؤلاء المؤرخين ولو أنهم يتبعون التقويم اليونانى أو (السلوقى) فى تاريخهم يختلفون عنه عادة فى حسابهم بسنة إذ يجعلون بداه من سنة ٣١١ قبل الميلاد بدلا من سنة ٣١٢ (راجع Tresor de Chronolgie المجموعة ٣٦). وعل ذلك فمن المحتمل أن يكون الدليل المستند إلى الكتاب السوريين أميل إلى سنة ٦١٥ لا إلى سنة ٦١٦، وفى هذه الحالة يتفق ذلك التاريخ مع ما جاء فى (الديوان الشرقى) إذ يذهب إلى أن زيارة أثناسيوس لمصر كانت فى السنة التى فتح الفرس فيها بيت المقدس عنوة. وفوق ذلك يقول كاتبنا المصرى ساويرس إن وفاة البطريق المصرى أنستاسيوس فى كيهك (١٨ ديسمبر) من سنة ٣٣٠ للشهداء أنظر ص٥٥٠ المتن العلوى، وقد أخطأ(رينودو) إذ ذهب إلى أن ذلك يوافق سنة ٦١٤ لأن كيهك يقع فى سنة ٦١٣ وهذه الأخبار لا يمكن التوفيق بينها ولكن لا يمكن على الأقل أن نجعل فتح بيت المقدس فى سنة ٦١٣.

على أنه يجدر بنا أن نذكر أدلة سوى هؤلاء من المؤرخين السوريين إذ من المعلوم أنه توجد

فقتلو جميعهم بالسيف الا قليلا منهم اختفو فخلصو. وجميع ما كان هناك من المال والاوانى نهبوه الفرس واخربو الديارات الى الان، ولما وصل الخبر الى اسكندريه فتحو ابواب المدينه. وراى الوالى الفارسى مقدم الحرب النايب عن الملك كسرى فى منامه شخصا فى الليل يقول له فى منامه: سلمت هذه المدينه لك وبنا[ء]ها وكلما فيها فاياك ان توذيها بل لا تبق اهلها فيها لانهم منافقوا الدين. ويدعون [الفرس] مقدمهم بلغتهم

نسخ مخطوطة سورية من الإنجيل تاريخها فى القرن السابع وقد كتبت فى دير الهانطون بقرب الإسكندرية كتبها توما الهركلى وبولص التلوى، وأمر بكتابتها البطريق اثناسيوس نفسه وهو فى زيارته لمصر. وكانت هذه المخطوطات جزءا من مراجعة شاملة للنص السوريانى على النص اليونانى نص (philoxenus) فتاريخ هذه المخطوطات ذو أهمية عظمى.

«ومن المعلوم أن توما الهركلى أتم ترجمته لنص العهد الجديد إلى السوريانية فى سنة ٩٢٧ من التاريخ اليونانى» وسنة ٩٢٧ هذه إن لم تكن موافقة لسنة٩٢٦ المعتادة كانت من ابتداء أكتوبر سنة ٦١٥ إلى أكتوبر ٦١٦؛ وتوجد أيضا نسخة مخطوطة أخرى (سوريانية ذات ست روايات) فى المتحف البريطانى (Add.Mss.144,376) وقد كتب فيها أنها تمت فى السنة عينها سنة ٦١٥ ـ ٦١٦ والنسخة الخطية للكتاب الثالث للملوك مؤرخ فى شباط سنة ٩٢٧ وذلك يوافق فبراير سنة ٦١٦، ونسخة الكتاب الرابع للملوك كتب بها ما يدل على أن بولص وأثناسيوس كانا يقيمان فى السكندرية فى سنة ٩٢٨ وهى تقع بين أكتوبر سنة ٦١٦ وأكتوبر سنة ٦١٧ وهذا يحدد وقت زيارة البطريق السورى فى خريف سنة ٦١٦؛ وقد ذكر فى نسخة أخرى خطية من النسخ السريانية ذات الروايات الست وجدت فى ميلان تاريخ تمامها كان فى سنة ٩٢٨ وذلك فى سنة ٦١٦ ـ ٦١٧، ففى كل هذه النسخ الخطية ذكر دراسة علمية تجرى فى سلام فى دير الهانطون مدّة سنتين بين سنة ٦١٥و٦١٧، وهذا يحدّد عرضا وقت زيارة

السلار اى الامير، فلما اخذ السلار ملكهم، وهو الذى بنى فى اسكندريه الايوان الذى يدعى تراوس، وهو الان يسمى قصرا فارسيا، وتفسيره بيت الملك، جعل بمكره امرا فامر كل شاب فى المدينه من ابن تمان عشره سنه الى خمسين سنه ان يخرجو ياخذون عشرين دينارا كل واحد، فاجتمع جميع شباب المدينة وكتب اسما هم يظنون انهم ياخذون العطيه التى وعدهم بها، فلما علم ان جميعهم قد خرج ولم يبق احد منهم امر

البطريق السورى ويجعلها فى أكتوبر سنة ٦١٦ لأن مضيفة البطريق القبطى توفى فى ديسمبر من ذلك العام. وقد كان حساب تلك التوار يخ على حسب ما اعتاده الناس من التاريخ بالحساب اليونانى على أننا إذا ذهبنا إلى أن حساب تلك التواريخ كان على حسب التاريخ السورى الخاص كان لزاما علينا أن نجعل وقت تلك الزيارة فى سنة ٦١٥ ـ ٦١٦ وأن نجعل العمل من سنة ٦١٤ الى سنة ٦١٦، فاذا ذهبنا هذا المذهب وقع الاتفاق بين قولنا وبين قول ابن العبرى إذ يقول فى كتابه (تاريخ الكنائس ـ صفحة ٢٦٧ ـ ٩) «إن أثناسيوس ذهب إلى الاسكندرية وكان بطريقها أنستاسيوس وعقد معه وفاقا واتحادا ووقع هذا الاتحاد بين كنيستنا السورية وكنيسة مصر فى سنة ٩٢٧ من التاريخ اليونانى» (وهى من أكتوبر سنة ٦١٥ إلى أكتوبر سنة ٦١٦) إذ أن ابن العبرى لا يتبع الطريقة السورية التى تخالف التاريخ المعتاد. ولا يمكن التوفيق بين وجوه هذا الخلاف إلا إذا سرنا على طريقة أخرى فى حساب التاريخ ولما كان سريان بابل خاصة هم الذين قدّموا حسابهم على التاريخ اليونانى بسنة لم يكن بعيدا أن يكون توما الهركلى وبولص التلوى قد سارا على تلك الطريقة وإذن يقع الاتفاق بين الديوان الشرقى وبين النسخ الخطية من الانجيل وأبى الفرج وكل هؤلاء يجعلون تاريخ توحيد الكنيستين فى أكتوبر سنة ٦١٥ ويلوح لنا أن هذا حل عادل قريب إلى الأذهان.

ونرى أنه لا يزال من الضرورى أن نجعل وفاة البطريق القبطى فى ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦ وليس فى سنة ٦١٥ وذلك لأننا لا نجد طريقة أخرى نجعل بها ولاية خليفته أندرونيكوس توافق

جيشه ان يحيط بهم ويقتلهم الجميع بالسيف، فكان عدد من قتل ثمانين الف رجل. ولما فعل هذا عاد الى الصعيد ، وكان فى مدينة نقيوس التى هى ابشدى قوم فاعلموه حال الرهبان الذين فى الجبال والمغاير وتقديرهم سبع ماية راهب وان الحصن يجمعهم وان افعالهم ذميمه من كثرة ما عندهم من النعم، فلما سمع السلار خبرهم ارسل جيشه فاحاط بهم فلما اشرقت الشمس دخلوا فقتلو

التواريخ المعروفة فى مدّتها وفى تاريخ انتهائها فإن مدتها معروفة بأنها كانت بضعة أيام وست سنوات آخرها ٨ طوبه (٣ يناير). فإذا قلنا إن يوم ٣ يناير من سنة ما هو تاريخ وفاة أندرونيكوس وبدء ولاية بنيامين لم نجد سنة فيها كل الشروط المطلوبة إلا سنة ٦٢٣، فمن جهة لا شك فى أن أندرونيكوس شهد بدء غزوة الفرس، ونرى أنها كانت فى أواخر سنة ٦١٦؛ ومن جهة أخرى لا شك فى أن هذا البطريق كان حيا فى أول أمر الاسلام، فإن الديوان الشرقى يجعل مدة ولاية أندرونيكوس بين سنة ٦١١ ـ ٦١٧، ولكنه يذكر بعد ذلك« أن فى مدته علا أمر المسلمين» وذلك فى يولية سنة ٦٢٢، ويوافق على هذا مكين إذ يجعل اختيار بنيامين فى السنة الأولى للهجرة سنة ٦٢٢ ـ ٦٢٣ وشهادة أبى صالح كذلك واضحة صريحة فإنه يذكر أن أندرونيكوس كان بطريقا «فى أول ظهور المسلمين فى السنة الثانية عشرة من حكم هرقل» (طبعة Butler, Evetts صفحة ٢٣١) وهذا التواتر فى الأدلة على أن تاريخ ولاية بنيامين كان فى شهر يناير سنة ٦٢٣ برهان قوى لا يكاد شئ يقف له. وأما (Le Quien) فإنه يتبع تاريخ ساويرس إذ يقول إن ولاية أندرونيكوس كانت من سنة ٦١٩ ـ ٦٢٢.

فإن تم لنا إثبات أن وفاة أندرونيكوس كانت حوالى ٣ يناير سنة ٦٢٣ وأن مدة ولايته كانت ست سنوات تزيد قليلا أولها ١٨ ديسمبر، ويخيل إلينا أننا قد أثبتنا ذلك، كان أول ولايته فى سنة ٦١٦، وكانت وفاة أنستاسيوس فى ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦، وهذا التاريخ يوافق

جميعهم بالسيف ولم يبق واحد منهم. وفعل هذا السلار من البلايا كثيرا لانه ما كان يعرف الله، والزمان يضيق عن ذكر افعاله.

فلما كمل البطرك اندرونكوس ست سنين فى بطركيته وقاسى هذه الامه وراى هذه الامور الصعبه التى لقيها وصبر عليها تنيح ومضى الى الرب بسلام كامل وهو ضابط الامانه المستقيمه امانة اباية [آبائه] فى التامن من طوبة.

ما أثبته (فون جوتشمت) (راجع Kleine Schriften.ii صفحة ٤٧١ ـ ٤).

ولقد ساقنا هذا الكلام إلى الاستطراد والبعد عما كنا فيه من ذكر النسخ المخطوطة من الانجيل التى كتبت فى دير الهانطون ولكن من الضرورى أن نعود إلى ذكرها.

فهذه النسخ المخطوطة تدل على:(١) أن توما الهركلى كان يعمل فى الترجمة مدة سنتين على الأقل قبل زيارة البطريق السورى.(٢) أن الزيارة نفسها يغلب أن تكون وقعت فى أكتوبر سنة٦١٥(٣) أن بولص التلوى بقى يعمل مدة ثلاثة أشهر على الأقل بعد الزيارة أى إلى يناير سنة٦١٦ وهنا تقوم صعوبة إذ ذكر عرضا أن أثناسيوس ذهب مع خمسة من الأساقفة السوريين، فى حين أن سياق قول ابن العبرى يدل دلالة قاطعة على أن توما الهركلى طرد من أسقفيته فى(مابوج) وهرب الى مصر لاجئا. ولا موضع للشك فى أن توما وبولص كانا فى مصر وقت تلك الزيارة ولا فى أن ثلاثة أساقفة آخرين إما جاءوا مع أثناسيوس، وإما طردوا ولجأوا إلى مصر هاربين من فتح الفرس لفلسطين.

ولدينا عبارة صريحة ذكرها حنا مسكوس وهى أن أساقفة كثيرين هربوا إلى مصر لا جئين، ولكن الأقرب إلى الاحتمال أن هؤلاء العلماء السوريين بمقامهم فى الاسكندرية واتصالهم الناشئ من ذلك بالبطريق القبطى قبل زيارة بطريق أنطاكية، قد مهدوا السبيل إلى الاتحاد الرسمى الذى تم سريعا بعد اجتماع البطريقين.

وبعد فقد بقى جزء واحد من الدليل الذى يمكن أن نستخلصه من هذه النسخ المخطوطة وذلك أنه من أكبر الأمور دلالة أن كل الكتب الأخرى من الانجيل التى تنسب إلى بولص التلوى ليس بينها كتاب واحد يذكر فيه تاريخ. وآخر تاريخ هو كما بينا أول سنة ٦١٦، ويلوح لنا أنه ليس من المقبول عقلا أن يقال إن العمل مع ذلك قد تم فى الدير نفسه دير الهانطون فى الظروف نفسها، وأن نجعل غزوة الفرس على ذلك فيما بعد سنة٦١٦، بل إن الأمر على عكس هذا فان هؤلاء العلماء السوريين الذين رأوا أو سمعوا بما أحدثه الفرس من التخريب العظيم ببلادهم كان لابد لهم أن ينزعجوا عند أول نبأ يصلهم عن مقدم الفرس إلى مصر، وإنه لمن أقرب الأمور أن يكونوا قد هربوا فى البحر فى صيف سنة٦١٦ ومعهم رهبان دير الهانطون بما معهم من ثمين المتاع، ومن ذلك النسخ المخطوطة اليونانية للكتاب المقدس. ولكنا بغير أن نأخذ بهذا الرأى نرى دوننا رأيا آخر محتملا فى تفسير ما كان، وهو يتفق مع استمرار العمل فى مصر. ويدفعنا ذكر ذلك إلى القول فى أمر أهمل إهمالا عجيبا، ويجمل بنا على ذلك أن نؤكده بعض التأكيد، فان من عادة الكتاب الذين كتبوا عن هذا العصر أنهم دائما يذكرون فتح الفرس كأنه حادث واحد يجعلون له تاريخ سنة واحدة.ومعنى هذا أنهم «يعجزون عن أن يميزوا بين غزوا مصر وبين فتح الاسكندرية». وهذان الحادثان لابد كان بينهما سنة على الأقل. ومما لاشك فيه أن الكتاب القدماء كانوا أحيانا يذكرون لفتح الفرس تاريخ أحد الحادثين وأحيانا يذكرون له تاريخ الحادث الآخر. وهذه الحقيقة تفسر كثيرا مما يسود ذلك الأمر من الخلط والاختلاف.

ويمكننا أن تقول إنه قد صار من المدلل عليه أن الفرس يكونوا قد ساروا إلى مصر فى أول سنة ٦١٦، ولئن قلنا إنهم كانوا يستطيعون أن يدخلوا فى حرب جديدة عقب فتح بيت المقدس فانه ليس من المحتمل أن يقدموا على عبور الصحراء فى فصل الصيف. فيمكن على ذلك أن نذهب الى أن سيرهم الى مصر بدأ فى خريف سنة ٦١٦، وأن جيشهم فتح الفرما ونهب الأديرة فيها قبل آخر تلك السنة. ثم كان عليهم بعد ذلك أن يسيروا الى منفيس والى فتح الحصن المنيع حصن بابليون، وأن يحاربوا الروم فى طريقهم على فرع النيل الغربى مارين بمدينة نقيوس، (ونعلم أنهم فعلوا ذلك)، حتى يبلغوا الإسكندرية. ونعرف كذلك أنهم قضوا وقتا طويلا فى حصار المدينة قبل أن تسلمها اليهم الخيانة. ولا يمكن أن يكون ذلك قد استغرق أقل من سنة. وعلى ذلك فمن المحال أن نجعل فتح الاسكندرية قبل آخر سنة ٦١٧، أو أول ٦١٨، على أى مذهب من مذاهب التاريخ.

وعلى ذلك فمن السهل أن نقول إن العلماء السوريين بقوا فى عملهم فى دير الهانطون حتى قربت جيوش الفرس ثم هربوا الى المدينة، وكان الهرب منها فى البحر ممكنا فى كل وقت، وبهذا كان يمكنهم أن يبقوا سنتين آخرين قد تكونا كافيتين لاتمام عملهم.

حسبنا ما ذكرناه عن المراجع السورية ولكن يجدر بنا أن نتنبه إلى أن تلك الحجة التى ساقتنا الى القول إن شتاء سنة ٦١٧ ـ ٦١٨ وهو الوقت الذى لا يمكن أن تكون الإسكندرية قد فتحت قبله تسوقنا كذلك إلى اتفاق دقيق مع التاريخ الذى ذكره الطبرى، وهى كذلك تسوقنا إلى قريب من الاتفاق مع ماذهب اليه فون جوتشمت ولو أننا سلكا مسلكا مخالفا لما سلكه وكانت الحقائق التى بنينا برهاننا عليها فيها شئ من التضارب مع حقائقه. فقد ذهب إلى« أن الإسكندرية كانت فى ديسمبر سنة ٦١٦ لاتزال مع الروم وأنه لا يمكن أن يكون الفتح الفارسى قد وقع قبل صيف سنة٦١٧»(إذا كان يقصد بقوله«الفتح الفارسى» فتح الإسكندرية)، والطبرى يتجاوز هذا التحديد قليلا إذ يقول إن مفاتيح الاسكندرية لم ترسل إلى كسرى قبل الشتاء، وإنا نتفق معه فى هذا الرأى. فنقول على ذلك إجمالا إن التواريخ كانت كما يلى:

(١) فتح بيت المقدس كان فى آخر مايو سنة ٦١٥.

(٢) زيارة أثناسيوس للاسكندرية كانت فى أكتوبر سنة ٦١٥.

(٣) سير الفرس إلى مصر كان فى خريف سنة ٦١٦.

(٤) موت البطريق القبطى« فى ١٨ ديسمبر سنة٦١٦.

(٥) فتح بابليون « فى ربيع سنة ٦١٧.

(٦) فتح الاسكندرية « فى آخر سنة ٦١٧.

(٧) إخضاع مصر جميعها « فى سنة ٦١٨.

ولعلنا نقول فوق ذلك إن فتح الصعيد لا يمكن أن يكون قد تم قبل شتاء سنة ٦١٨ بزمن طويل، لأننا نعرف من ورقه بردى قبطية مؤرخة أن (أرسنويه) أو الفيوم كانت لا تزال فى ملك الروم فى التاسع من يونيه سنة ٦١٨ Corpus Papyrorum Raineri) الجزء الثانى صفحة ٢٢Koptische Texte (ed.j.krall.) ولكنا نقول على وجه الاجمال إن هذا البيان يدل على أنه قد وقعت بين فتح بيت المقدس وتمام فتح مصر مدّة ثلاث سنوات وهو يوافق كل الموافقة ما ذكره أبو الفرج (طبعة Pococke).

وهذا النظام يمكننا من أن نقول إن بعث حنا الرحوم لمساعدة بيت المقدس كان فى شتاء ٦١٥ ـ ٦١٦ فان من بعثهم ذهبوا عن طريق البر وما كانوا ليستطيعوا ذلك لو كانت جيوش الفرس فى طريقها إلى مصر . وعلى ذلك يكون هروب حنا الرحوم مع نيقتاس فى خريف سنة ٦١٦، إذا كانا قد هربا عندما جاءهما نبأ غزوة الفرس. على أن قول Leontius يفيد أنهما هربا قبيل فتح الاسكندرية أى بعد ذلك التاريخ بعام ولكنا فوق كل هذا نرى أن هذا النظام فى التاريخ يتفق مع تأريخ مؤرخى العرب فى ذكرهم تاريخ حياة البطارقة، وفى ذكرهم مدة احتلال الفرس لمصر، وهذه المدة كما يقول جلزر كانت عشر سنوات وهو حق.

وأما البطارقة القبط فنرى أن تواريخهم كما يلى:

(١) انستاسيوس من يونيه ٦٠٤ الى ١٨ ديسمبر سنة ٦١٦.

(٢) اندرونيكوس« ديسمبر سنة ٦١٦ إلى ٣ يناير سنة ٦٢٣.

(٣) بنيامين« يناير سنة ٦٢٣ إلى يناير سنة ٦٦٢.

وأما البطارقة الملكانيون فتاريخهم كما يلى:

(١) تيودور قتل فى سنة ٦٠٩.

(٢) حنا الرحوم من سنة ٦٠٩ إلى سنة ٦١٦ أو سنة ٦١٧ .

(٣) جورج من سنة ٦٢١ إلى سنة ٦٣٠ أو سنة ٦٣١

(٤) قيرس من سنة ٦٣١ إلى سنة ٦٤٢

فاذا نحن اتبعنا (جلزر) فيما ذهب إليه معتمدا على حجة واحدة وهو Thomas) Presbyter) من أن اتحاد الكنيستين المصرية والسورية قد وقع فى سنة ٦١٨ وجب علينا أن نغير كل نظامنا فى تتابع تواريخ بطارقة القبط ووجب علينا فوق ذلك أن نجعل ولاية بنيامين على الأقل فى سنة ٦٢٥ فى حين أن المؤرخين المصريين يكررون أن ولايته بدأت فى سنة ٦٢٢ـ ٣ وهى سنة هجرة النبى وظهوره.

وأما نحن فنرى أن هذا الاتفاق برهان قاطع ولو لم يكن لدينا برهان غيره على تاريخ ولاية بنيامين. ولكنه من أسهل الأمور أن نورد براهين كثيرة من المؤرخين المصريين على تنفيذ قول من قال إن ولايته كانت فى سنة ٦٢٥.

وأما احتلال الفرس لمصر مدة عشر سنوات فقد ذهب(جلزر) إلى أن تلك المدة انتهت

[٣٧: اندرونيكس ٦١٦ / ٦٢٢م]

سنة ٦٢٩ أى بعد سنة على الأقل من صلح هرقل وشيرويه. ولكنا نرى ثلاث حجج قوية تنقض ذلك الرأى:

(١) أن القصد من كل خطة هرقل فى سنة ٦٢٢ والسنوات التى بعدها كان تخفيف ضغط الفرس عن عاصمته وعن مصر، وانه لمن أقرب الأمور أن تكون مصر قد أخليت بسبب هذا الضغط منذ ربيع سنة ٦٢٧ حتى ولو لم يقم على ذلك برهان ومدة هذا تكون عشر سنوات تزيد قليلا منذ أول الغزو كما قلنا.

(٢) ولو لم يكن الأمر كما ذكرنا فقد ذكر سبيوس أن شيرويه فى صلح فبراير سنة ٦٢٨ رضى أن يخلى فى الحال كل ما كان يملكه من بلاد الروم وأخرج جيوشه منها.

(٣) أن النبى محمدا بعث رسله إلى الأمراء فى صيف سنة ٦٢٧ أو خريفها على الأكثر كما روى الطبرى لأنه يذكر أن الرسل الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن حجزوا هناك بضعة أشهر حتى أتت أنباء موت الملك وكان موته فى فبراير سنة ٦٢٨ ولا شك فى أن النبى عند ما بعث رسوله إلى مصر كانت مصر قد عادت إلى دولة الروم وكان يحكمها والى هرقل« المقوقس» كما يسمونه خطأ.

وليس اعتماد (جلزر) على (نيقفوروس) مما يدعم اتخاذه تاريخ سنة ٦٢٩ فإن نيقفوروس يقول« إن سار باروس بعد أن سمع بموت كسرى وشيرويه وقباذ وهر مزداس رجع من بلاد الروم» ثم قال« ولما تم الصلح أعاد سار باروس مصر وسائر بلاد الشرق إلى الروم وأخرج منها مسالح الفرس وبعث بالصليب ـ واهب الحياة إلى الامبراطور» ولكن الشاه ـ ورز لم يصر ملكا باتفاقه مع هرقل إلا فى آخر سنة ٦٢٩ على الأقل (Journal Asiatique 1866 صفحة ٢٢٠) فى حين أنه من المؤكد أن هرقل استعاد الصليب فى سنة ٦٢٨ وفوق ذلك إن نيقفوروس نفسه قال بعد أن ذكر عدة حوادث أخرى إن الصليب أخذه هرقل بعد ذلك إلى بيت المقدس ثم أعاده إلى القسطنطينية وتلقاه فيها البطريق سرجيوس« وقد كان حدوث ذلك فى الخمسة عشرة سنة الثانية (أى فى سنة ٦٢٩). وإذا كان لنا أن نستخلص شيئا من هذا الخبر المفكك استخلصنا أن الفرس خرجوا من مصر قبل استعادة الصليب أى قبل سبتمبر سنة ٦٢٨، ولكن ذلك الخبر لا يدل على شئ سوى أن نيقفوروس هذا شاهد غير عدل لا يعول على قوله».

والحقيقة هى أن مدة احتلال الفرس وهى السنين العشر يمكن أن يعد أولها: إما عند دخول

الفرس إلى مصر، وإما من أول فتح الاسكندرية، وإما من إتمام فتح مصر إلى أسوان ويختلف مدى تلك المدة باختلاف الوقت الذى يعتبر الابتداء منه.

ولقد سعينا فى هذا التعليق أن نظهر أن كثيرا من الخلط ناشئ عن إغفال التمييز بين غزو مصر وفتح مصر فهما معنيان غير مترادفين وحادثان لم يقعا فى وقت واحد.

ولذلك الخلط سبب آخر وهو إغفال التفريق بين السنة الميلادية (التى أولها أول شهر يناير) وبين السنة اليونانية من تاريخ الاسكندر (التى أولها سبتمبر)، وهى تقع فى جزأين من سنتين من سنى الميلاد. وفوق ذلك سبب ثالث وهو إغفال الانتباه إلى طريق حساب السنة اليونانية عند السوريان فانها أحيانا تختلف عن التاريخ اليونانى المعتاد بسنة وفيها تبدأ السنة فى أول أكتوبر بدل ابتدائها فى أول سبتمبر. والسبب الأخير فى الخطأ يصح لنا أن نذكره وهو الاعتماد فى حساب التواريخ على أساس غاية فى الضيق. ويحدث هذا من طريقين: إما بالمبالغة فى تضييق الفترة التى يستمد الدليل منها، وإما بتضييق المجال الذى يستمد من الدليل فإنه لا يكفى أن نبحث فى تواريخ فترة نحو عشر سنوات أو اثنتى عشر ة سنة ثم ننتهى من ذلك المبحث إلى نهاية بغير أن ننظر ما ينشأ عن ذلك من النتائج أعنى بغير أن ننظر إلى علاقة هذه التواريخ بما قبلها وبما بعدها من التواريخ ونتحقق من أن ما ينشأ عن ذلك من النتائج يخرج ثابتا بعد التمحيص والنقد. ويجمل كذلك أن نذكر أننا إذ نعالج هذه الحوادث التى وقعت فى القرن السابع نعتمد على مراجع تاريخية مختلفة الأنوا ع كثيرة العدد ففيها اليونانى والأرمنى والسريانى والعربى والمصرى وفى كل منها شئ يجب الرجوع إليه، وليس من العدل أن نضع نظاما للتاريخ نستمده من طائفة أو اثنين من هؤلاء الكتاب بغير أن نأبه كما ينبغى بالآخرين. وانا ونحن نكتب هذا نشعر أعمق الشعور بالصعاب التى تحيط بمثل هذا السعى الى التوفيق بين المراجع التى قد تكون فى الحقيقة كما هى فى الظاهر غير قابلة للتوفيق.

ويجمل بنا أن نقول إننا وإن اختلفنا مع (جلزر) نفعل ذلك وفى نفوسنا كل الاعجاب بمؤلفه النفيس الغزير العلم الدقيق البحث. ولسنا ندعى أن نظام التاريخ الذى وضعناه خال من الصعاب، ولكنا قد ندعى أننا قد وضعناه على أسس واسعة وأنا قد وفقنا به بين عدد عظيم من مراجع كل منها منفصل عن الآخر كل الانفصال ومباين له أكبر المباينة(*).

(*) انظر: الفريد.ج. بتلر: فتح العرب لمصر . ترجمة: : محمد فريد أبو حديد. مكتبةالاسرة. القاهرة ١٩٩٩.

بنيامين [الأول] البطرك
٦٢٢/ ٦٦١م(*)
وهو الثامن والتلتون من العدد

(*) يرى الفريد بتلر ان مدته من يناير ٦٢٣ إلى يناير ٦٦٢.

وكان قبل نياحة الأب أندرونيكوس [اندرونيكو] بسنة واحدة أخ خايف مومن اسمه بنيامين فى دير يعرف بدير كنوبوس [كانوب(*)] أتى اليه فى ذلك الوقت(*) واوى فيه الى شيخ قديس اسمه ساونا، لان هذا الدير لم تخربه الفرس معما [مع ما] أخربوه لأنه كان فى شرقى بحرى المدينة

(*) كانوب: قرب ابوقير الحالية.

(*) كان ذلك فى آخر سنة ٦٢١م كيهك سنة ٣٣٧ ش قبيل عيد الميلاد.

- -

استيلاء العرب على مصر

كانت البلاد كلها عند ذلك تحت يد قيرس (المقوقس) يصرفها كيف شاء، ولم يتحرك القبط بطبيعة الحال عندما عاد جند الروم الى البلاد بعد انسحاب القوات الفارسية منها ولكنهم وجدوا بعد قليل أن حكم الفرس إن لم يكن مما يحب ويرغب فيه فإن حكم الروم الجديد لم يكن حدثا يحمدونه ويفرحون من أجله. فقد وجدوا فيه أنواع العقاب وصنوف العذاب، فكأنهم وقد خرجوا من حكم الفرس الى حكم الروم قد رفع عنهم التعذيب بالسياط ليحل بهم تعذيب آخر من لسع العقارب. إذ بينما كان غزاة الفرس بعد أن استقر بهم الأمر فى البلاد لا يحولون على الأقل بين القبط وبين التدين بما يشاءون من الدين، جاء قيرس (المقوقس) فعول على أن يحرمهم تلك الميزة الكبرى وينزعها من أيديهم. وابتدأ الاضطهاد الأعظم عند ذلك. ويتفق المؤرخون جميعا على أنه بقى مدة عشر سنوات أى أنه بقى كل مدة ولاية قيرس رياسة الدين. فان اكبر الظن أن مجمع الاسكندرية كان فى شهر أكتوبر من سنة ٦٣١، وقد بدأ عهد الاضطهاد بعد ذلك بشهر واحد أو بشهرين. ولا يشك أحد فى فظاعة ذلك الاضطهاد وشناعته، فقد جاء فى كتاب مؤرخنا (ساويرس) «لقد كانت هذه السنين هى المدة التى حكم فيها هرقل والمقوقس بلاد مصر، وقد فتن فى أثنائها كثير من الناس لما نالهم من عسف الاضطهاد والظلم، ومن شدة العذاب الذى كان يوقعه هرقل بهم، لكى يحولهم

[اسكندريه]، وكان ثاونا حافظا لها، وهذا الأخ بنيامين هو من أهل البحيرة ومن ضيعة تعرف برشوط(*)، وكان قد رغب في الرهبنة والزهد ورفض والديه وكلما كان لهم، وكانو أغنيا جدا، ومضى الى الدير فالبسه الشيخ القديس ثاونا اسكيم الرهبنة ورباه بخوف الله، حتى أن الذى حل بالكبير بولس حل به مثله لان بولس تربى باورشليم عند رجل اسمه عمالائيل، فرفعته همته ونعمة السيد المسيح حتى صار اوفى وافضل من

(*) صحح هذا الاسم صالح كامل نخله في كتابه «البابا بنيامين الاول» ص ٣١ وذكر أن اسمها بيرشوط نقلاً عن كتاب «تاريخ البطاركة لأسقف فوه» حيث يذكر ان البابا بنيامين من بلدة بيرشوط من اعمال البحيرة.

على رغمهم عن مذهبهم إلى مذهب خلقيدونية. فكان يعذب بعضهم ويعد البعض أحسن الجزاء ويمكر بالبعض ويخدعهم» وقد جاء في ترجمة (بنيامين) أن أخوه كان ضمن ممن عذبوا ثم قتل غرقا. وكان تعذيبه بأن أوقدت المشاعل وسلطت نارها على جسمه، فأخذ يحترق «حتى خرج شحم كلاه من جنبه وسال على الارض»، ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه، فخلعت أسنانه ثم وضع في كيس مملوء من الرمل وحمل في البحر حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطئ، ثم عرضوا عليه الحياة إذا هو آمن بما أقره مجلس (خلقيدونية)، فعلوا ذلك ثلاثا وهو يرفض في كل مرة، فرموا به في البحر فمات غرقا. وقال الكاتب الذى كتب ترجمة حياة بنيامين «ولم يغلبوا هذا المجاهد (مينا) بل غلبهم بصبره المسيحى» (انظر المتن العلوى ص٥٧٤).

واليك دليلا آخر جاء في ترجمة حياة صمويل (القلمونى)[1] وقد كتبت تلك الترجمه في أيام (قيرس). وجاء فيها وصف جلى لما فعله (قيرس) نفسه من الأفاعيل في هذا الاضطهاد، ولهذا كان لنا العذر اذا نحن نقلنا هنا بعض ما جاء فيها في شئ من الإفاضة. تصف القصة أن البطريق (قيرس) جاء الى الدير فوجده خلاء ممن فيه إلا من خازنه، فقبض عليه وجلده

(١) نشر هذه الترجمة (اميلنو) في "Mon pour servir This. de TEg. Chert. aux IVe -VIIe Siecles" (Mem Miss Arch. Franc. an (aire)
الجزء الرابع وصفحة ٧٧٤ وما بعدها.

معلمه دفعات كثيره، وكذلك هذا بنيامين كان يعذب نفسه بالنسك ولا ينام ليله يكون فيها اجتماع في البيعه. وكان أكثر قراته في انجيل(*) يوحنا المغبوط لانه حفظه. فنظر في بعض الليالي في منامه رجلا منيرا وقف به وقال له: افرح يا بنيامين الخروف المتواضع والراعي معا الذى يرعى القطيع الناطق الذى للسيد المسيح. فلما سمع هذا الكلام اضطرب وقلق ثم، انه فرح بما انعم به عليه من السما وقام مسرع فاعلم اباه ثاونا فصدق

(*) كان انجيل يوحنا أشهر الاناجيل في مصر.

وأخذ يسأله، فقال له الخازن: «لقد جمع صمويل الزاهد رهبان الدير وخطب فيهم فأطال ووصفك بالكفر وبأنك يهودى من أتباع (خلقيدونيه)، ولا تؤمن بالله، وبأنك لست أهلا لأن تقيم الصلاة ولا أن يعاملك المؤمنون. فلما سمع الرهبان قوله هذا هربوا قبل مقدمك» فلما سمع الكافر الفاسق ما قاله الخازن ثارت ثائرته وعض شفتيه من الغيظ وسب الخازن والدير ورهبانه ومضى عنه. قال كاتب الترجمة «ولم يعد للدير بعد ذلك الى يومنا هذا»[1].

(١) هذا القول يدل على أن النسخة الأصلية المخطوطه قد كتبت قبل موت قيرس في سنة ٦٤٢ فقد مات صمويل في قلمون بعد أن تنبأ بقدوم العرب وانتهاء غزوتهم بنصر المسيحيين (الجريدة الأسيوية ١٨٨٨ صفحة ٣٨٤) ومن هذا نستنتج أن تاريخ حياته كتب في أول الغزو وقبل أن يظهر العرب أى أنه كتب في أوائل سنة ٦٤٠ وكانت تواريخ الحياة تكتب عادة وتلقى بصفتها مديحا بعد موت قديس عظيم أو رجل كبير من أهل الدين فلنا أن نقول إن صمويل مات سنة ٦٣٩ ويقول (Pereira) إنه قيل إن صمويل لقى في قلمون رجلا آسمه جريجور اسقف قيس وان ساويرس يذكر مقابلة بين رجل اسمه جريجور اسقف قيس وبين البطريق حنا السمنودى (سنة ٦٨٠ ـ ٩٠).
وان البطريق اسحق بعد اختياره واقرار عبدالعزيزله دخل الاسكندرية في سنة ٦٨٥ وكان معه عند ذلك رجل اسمه (جريجور) أسقف قيس وهذا التاريخ الأخير يجب أن يكون سنة ٦٩٠ بدل سنة ٦٨٥ ولكن هذا التصحيح يقوى حجة (بريرا) وهى أن هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين اسمهم (جريجور) إذا كانوا شخصا واحد كما تدل عليه الأدلة وإذا كان صمويل قد مات سنة ٦٣٩ وجب علينا أن نقول إن جريجور بقى على الأسقفية أكثر من خمسين سنة وليس هذا بمستحيل بالطبع ولكنا بدل أن نقول إن موت صمويل كان بعد هذا التاريخ نقول إنه من الجائز أن يكون بمصر في ذلك الوقت =

الشيخ قوله فى هذه الرويا لكنه قال له: لا تطيح
يا ولدى فان الشيطان اراد بهذا ان يهلكك بالكبريا
فامض الان واستيقظ لنفسك ولا تعثر بالمجد الفارغ
لان هو ذا لى فى هذا الدير خمسون سنه ما رايت
شيا من هذا ولا قال لى احد انه راى مثل هذا.
فسكت بنيامين وقبل قول معلمه وكانت النعمة
تتزايد عنده يوما بعد يوم من عند الله سبحنه وكان
جميع كلامه وتقلباته بتايد سماوى. وكان الشيخ
ساونا وكلمن يعرفه يبهتون عن نعمة الله التى عليه

فلما ذهب رجع الإخوان إلى ديرهم آمنين، وأما الكاوخيوس (المقوقس) ذلك البطريق الدعى فقد ذهب إلى الفيوم والغيظ يأكل قلبه، ودعا هناك اصحابه وأتباعه وأمرهم أن يأتوا له بالعابد (الأبا صمويل) مكتوف اليدين من خلاف، وأن يضعوا فى عنقه طوقا من الحديد، وأن يدفعوا به كما يدفع باللصوص. فذهبوا إلى الدير الذى كان فيه وقبضوا عليه.

وذهب صمويل مستبشرا فى صحبة الله وهو يقول «سأمنح إن شاء الله اليوم الشهادة بأن يسفك دمى فى سبيل المسيح»،ثم جعل يسب المقوقس لا يخشى شيئا. وأدخله الجنود عليه، فلما رأى المقوقس ذلك الولى أمر جنده أن يضربوه حتى سال دمه كما يسيل الماء ثم قال له: «صمويل أيها الزاهد الشقى. من ذا أقامك رئيسا للدير وأمرك أن تعلم الرهبان أن يسبونى ومذهبى؟» فقال له العابد (الأبا صمويل) «إن البرفى طاعة الله وطاعة وليه البطريق (بنيامين) وليس فى طاعتك والدخول فى مذهبك الشيطانى ـ يا سلالة الطاغوت وأيها المسيخ الدجال» فأمر (قيرس) جنده أن يضربوه على فمه وقال: «لقد غرك يا صمويل أن رهبانك يجلونك ويعلون من شأن زهدك ولهذا تجرأت وقويت نفسك. ولكنى سأشعرك أثر سبابك

= رجلان اسمهما جريجور كما قد كانت عند ذلك مدينتان كل منهما اسمها قيس واحدة منها على ساحل البحر المتوسط والأخرى عند البهنسا فى الجنوب.
(أنظر كتاب كاترمير "Mem Geog et His" (صفحة ١٤١ و٣٣٧ من الجزء الأول) وقال أبو صالح إن جريجور أسقف قيس أنشأ كنيسة فى حلوان (صفحة ١٥٦).

وظنوا انه قد اختل حتى ان الشيخ ساونا اخذه
ومضى الى الاب اندرونيكوس [اندرونيكوا] البطرك
وشرح له حاله. فقال: قدمه لى لاسمع كلامه.
فلما دخل إليه سجد بين يديه فراى الاب
اندرونيكوس البطرك نعمة المسيح عليه فسأله
بسكون ان يعلمه ما شهده، فاعترف وقال صفة
الحال. فامسكهما البطرك تلك الليلة فلما كان
بالغداة طلب ساونا ان ياذن لهما فى المضى الى
ديرهما بسلام. قال له البطرك اندرونيكوس: اما

- -

للعظماء إذ سولت لك نفسك ألا تؤدى لى ما ينبغى عليك أن تؤديه لعظيم رجال الدين وكبير جباة المال فى أرض مصر» فأجابه صمويل «لقد كان إبليس من قبل كبيرا على الملائكة ولكن كبره وكفره فسقا به عن أمر ربه. وهكذا أنت أيها الخادع (الخلقيدونى) فان مذهبك مذموم وانك أشد لعنة من الشيطان وجنوده» فلما سمع المقوقس ذلك امتلأ قلبه بالغيظ على ذلك الولى وأومأ إلى الجند أن يقتلوه.

وقصارى القول أن ذلك الكافر أراد أن يقتل الولى ولكن حاكم الفيوم خلصه من يديه، فلما رأى قيرس أن صمويل نجا منه أمر به أن يطرد من جبل نكلون[١].

وقد جاء مثل هذا الخبر فى الترجمة الأتيوبية لحياة (الأبا صمويل) وقد جاء فيها ذكر رجل اسمه (مكسميانوس) وأنه أتى الى دير صمويل فى الصحراء ومعه مائتا جندى وأنه أعطاه كتابا يؤمر فيه بالإيمان بمذهب خلقيدونيه فمزقه صمويل ورمى به من باب الكنيسة وهو يقول «ليس لنا من رئيس إلا بنيامين ولعنه الله على ذلك الكتاب الكفار الذى جاء من الامبراطور

(١) كانت نكلون وهى بالعربية (النقلون) فى جوار قلمون على ساعتين الى الجنوب الغربى من مدينة الفيوم وأما الدير المسمى دير الخشب فقد وصفه أبو صالح وذكره متصلا بدير القلمون وقد وصفه كذلك المقريزى ولكن الظاهر أنه اندثر من زمن وقد جاء فى Bulletin) الجزء الاول صفحة ٧٢ d' Arch. Or. de L'Institut Franc (l'Arch. Or.) أن دير النقلون فى الجبل شرق كوم بشا وأن دير القلمون عند سفح الجبل فى مدخل الفيوم وأنه كان فيه اثنتا عشرة كنيسة.

انت فامض بسلام، وأما هذا الأخ بنيامين فليس هو لك من الان بل الرب قد اصطفاه ليكون له خادما. وللوقت اخذه وقسمه قسا وصار عنده مساعدا له فى البيعه وملكه على الكل، وفرح به اندرونيكوس فرحا عظيما، ولما دنت وفاته أوصى بأن يكون بعده، فلما تنيح جعلو بنيامين المذكور بطركا على الكرسى الإنجيلى.

ومكثو الفرس بعد ذلك ست سنين اخر ملوك [لـ] مصر وأعمالها. ثم أن هرقل مقدم البطاركة

الرومانى ولعنة الله على مجمع خلقيدونيه وكل من آمن بما أقره» فضرب صمويل حتى ظن أنه مات ثم غودر ولكنه عاد الى نفسه وسار الى القلمون حيث عاد لمحادثه لقيرس وما أعقبها كما أسلفنا وصفه.

واذا كان مثل هذا العسف يجرى فى الصحارى فما بالنا بما كان يحدث للقبط فى بلاد مصر السفلى والصعيد ـ فلقد كان حظ من يأبى منهم أن يتخلى عن عقيدته أو ينازع قيرس فى أمره أن يجلد ويعذب أو يلقى به فى السجن أو يلقى الموت.

فكانت تقام أساقفة للملكانية فى كل بلد من مصر حتى انصنا[١] من بلاد الصعيد فى حين كان قسوس القبط يقتلون أو يشردون فى أنحاء الأرض يلتمسون فيها ملاذا.وكان السعى حثيثا غير منقطع وراء بنيامين، ولكن لم يعثر عليه فى مكان.وقد جاء فى كتاب مؤرخنا (ساويرس) أنه كان يتنقل من دير محصن الى آخر. وجاء فى ترجمة حياة شنوده[٢] ما يفهم

---

(١) كانت (انصنا) وهى (أنتنويه) عند ذلك عاصمة (التيبانيد) وكانت تجاه هرموبولس مجنا الى الشمال من لاكوبولس (وهى سيوط) فالظاهر أن سلطان قيرس لم يكن عظيما فى جنوب سيوط.

(٢) جاء ذكر ما وقع بين بنيامين وقيرس على صورة نبوءة ويجدر بنا أن نذكر ذلك هنا «سيخرج الفرس من مصر ثم سيقوم «الدجال» (وهو الاسم المعتاد للمسيخ المفسد) وسيذهب أمام إمبراطور الروم بعد أن يحصل منه على الرياستين رياسة الدنيا ورياسة الدين سيدخل مصر ويملك أرضها وملحقاتها وسيحفر الخنادق ويبنى الأسوار حول المدن فى الصحراء وسيخرب الشرق والغرب وسيحارب الراعى أكبر =

من قبل فوكا الملك الكافر اخذ المملكه وصرف اهتمامه لقتال الفرس وبنعمة السيد المسيح سار اليهم فقتل كسرى ملكهم الكافر وأخرب مدينته وجعلها بريه وحمل نعمتها وسبيها بفرح الى قسطنطينيه. فلما ملك الأرض اقام الولاه فى كل موضع وانفذ واليا الى ارض مصر يدعى قيرس ليكون بطركا ووالى معا، فلما وصل الى اسكندرية اعلم الاب بنيامين ملاك الرب به وامره ان يهرب، فقال له الملاك: اهرب انت ومن معك

منه أن بنيامين لجأ الى دير الأنبا شنوده وهو الدير العظيم المعروف بالدير الأبيض، على أن هذه الرواية تختلف عما تواتر من الأخبار عن أنه إنما لاذ بدير فى الصحراء قريب من (قوص). ولعل الدير الأبيض كان مع قوة حصونه ومنعة أسواره العظيمة غير كفيل بحماية بنيامين مدة طويلة لقربه من النيل، فى حين أنه كان يستطيع أن يجد ملاذا آمنا لا تصل إليه أيدى أعدائه فى جبال صحراء قوص، وما بها من المغاور الكثيرة والكنائس المنقورة فى الصخور.

وليس من العجيب أن يفتتن كثيرون ممن لم يستطيعوا الهجرة و الهرب وأن يخضعوا لما شاء قيرس منهم، فقد كان حكمه حكم إرهاب. واذا كان القبط لم تخمد نفوسهم فما كان لشعب بأجمعه أن يستشهد فى سبيل الدين. فدخل جماعة من الأساقفة فى المذهب الجديد مذهب عدوهم ومن هؤلاء أسقف (نقيوس)[1] واسمه (قيرس) وأسقف الفيوم (فكتور)، ولا شك أن عدواهم انتقلت الى سواهم. أما من لم يستطع الهرب من الناس والخروج الى الصحراء وكان مع ذلك غير راضى عن ترك مذهبه فقد لجأ الى التقية، وأظهر غير ما يبطن.

= أساقفة الاسكندرية والوالى على دين المسيحيين فى أرض مصر وسيهرب منه ذلك الراعى الى أرض (تيمان) حتى يعود الى ديرك وهو حزين متألم وعند ما يعود الى هناك سأعيده الى حاله وأرجعه الى عرشه».

(١) تذكر النسخة المخطوطة فى المتحف البريطانى لكتاب (ساويرس) «قيرس أسقف (سفنوش)» ولكن نسخة القاهرة المخطوطة تذكر (نقيوس) وهذا حق. وأما المقريزى فاته يذكر بطوس بدل (قيرس).

هاهنا لان شدايد عظيمة تنزل عليكم لكن تعز، فما يقيم هذا الجهاد الا عشر سنين، واكتب الى جميع الاساقفه اللذين فى كرسيك ليخفو [ليختفوا] حتى يجوز غضب الرب. فدبر الاب بنيامين المعترف المقاتل بقوه ربنا يسوع المسيح حال البيعه ورتبها، وتقدم الى الكهنه والشعب وأوصاهم بالتمسك بالامانه المستقيمة حتى الى الموت. ثم كتب الى ساير اساقفة كورة مصر بان يخفو من قدام التجربة الاتيه. وبعد هذا خرج من طريق

حتى لقد بقيت فى الاسكندرية ذاتها بقية من القبط فى سنى الاضطهاد العشر، مع أنهم لم يكن لهم بها إمام من مذهبهم اللهم إلا قس واحد من أهل مريوط اسمه (أجاتو)، وكان كل يوم يخاطر بحياته فى سبيل دينه. فكان يخفى نفسه فى لباس نجار ويسير فى أنحاء المدينة فى النهار يحمل على ظهره كيسا قد وضع فيه آلاته وعدته، فاذا ما جاء الليل ذهب الى الكنيسة كى يقيم شعائر العبادة لإخوانه القبط. وقد صار هذا القس فيما بعد أكبر أصدقاء بنيامين وخلفه بعدموته على ولاية الدين.

وروى أن دير (مطرا) ويسمى بدير (البسقوبيون) نجح فى مقاومة (قيرس)، وكان ذلك الدير فى الاسكندرية أو قريبا منها، وكان السبب فى أنه بقى على عهده لم يتغير أن كل رهبانه كانوا مصريين خلصا ليس فيهم غريب واحد[1].

والظاهر أن المصريين سعوا مرة الى التخلص من (قيرس) مع ما كانوا عليه من الصبر والاحتمال الطويل، فقد أثار حفيظتهم ما رأوه من فعله، واذ تارة ينهب أوانى كنائسهم الثمينة لا يرقب فيها إلا ولا ذمة، وتارة يضربهم أو يسجنهم. فاجتمع أتباع الطريقة (الجايانية) فى كنيسة (دفاشير) بقرب مريوط، وتامروا على قتل ذلك الظالم. ولكن سمع بهذا الاجتماع (ضابط) رومانى اسمه (أودوقيانوس) وهو أخو (دومنتيانوس)، وكان عدوا شديد العداوة

(١) ساويرس نسخة المتحف البريطانى المخطوطة صفحة ١٠٧ (الكتاب ١١). (انظر كذلك المتن العلوى ص٥٨٨، ٥٨٩ من كتابنا هذا.

مربوط وهو ماش على رجليه ليلا ومعه اثنان من تلاميذه حتى وصل الى (المنى) ومن هناك مضى الى وادى هبيب. وكان الرهبان هناك قليلا، لانه عقيب الخراب الذى كان فى ايام دميانوس البطرك وكانت البربر لا تدعهم يكترون هناك. ثم انه خرج من الديارات بوادى هبيب ومضى الى الصعيد واقام مخفيا هناك فى دير صغير فى البريه الى كمال العشر سنين كما قال له ملاك الرب وهى السنين التى كان فيها هرقل والمقوقس(*) مسلطين على ديار مصر.

(*) المقوقس: لاحظ انه ذكره باسم قيرس فى ص٥٦٩.

للقبط، فأرسل جندا وأمرهم أن يذهبوا الى المتآمرين فيقتلوهم. فكان ذلك وقتل الجنود بعضهم وجرحوا منهم البعض بسهامهم، وقطعوا أيدى طائفة منهم بغير أن يسمعوا منهم شهادة أو يقوموا معهم بشئ يشبه القضاء، وبذلك قضى على المكيدة ونجا قيرس من الخطر[١].

وقد. أوردنا هذه القصص جمعيها لكى ندل بها دلالة واضحة على شدة الاضطهاد وعنفه. وانه ليخيل للانسان أنه من المستبعد أن يبقى مثل هذا الاضطهاد عشر سنوات، ولكن هذا هو الحق الذى لا مراء فيه فقد جاء فى ديوان (حنا النقيوسى) ما يأتى: «وظل قيرس الى ما بعد موت هرقل عندما عاد الى مصر» (وذلك فى سنة ٦٤١ بعد نفيه من البلاد أو غيابه عنها فترة)، «لم يذهب عنه حقده على عباد الله ولم يمتنع عن اضطهادهم بل زاد قسوة على قسوة»، وقد جاء مثل هذا القول فى كتاب (ساويرس) عن هرقل إذ قال: «وكمثل الديب الخاطف كان يأكل القطيع الناطق ولا يشبع، وهذا الشعب المبارك هم التاودوسيون[٢]. ولكن

(١) حنا النقيوسى صفحة ٥٦٦ ويقول زو تنبرج بحق أن الفقرة التى بها هذا الخبر خارجة عن موضعها فان هذه الحادثة كانت قبل غزوة المسلمين. انظر ما قاله أميلنوفى (دفاشير) (Geog Copte) صفحة ١٢٢.

(٢) أنظر المتن العلوى ص٥٧٤. هذا القول عجيب وهو يدل على أنه فى أيام (ساويرس) كان القبط لا يزالون يسمون أنفسهم (التاودوسيون) وأن لفظ «القبط» فى الحقيقة كان مرادفا للفظ «تاودوسيين» وكان «الجيانيون»
=

ولعظم البـلا والضـيق والعـذاب الذى انزله بالارتدكسيين لكى يدخلو فى الامـانة الخلقدونيـه ضل جـماعـة منهم لا يحـصى عـددها، قـوم منهم بالعذاب وقوم بالهدايا والتشريف، وقوم بالسؤال والخدا ع. حتى ان قـيـرس اسقف نيـقـيـوس وبقطر اسـقف الفـيـوم وكـتـيـرا مـتلهم خـالفـو الامـانة الارتدكسيه لانهم لم يسمعو وصية الاب المغبوط بنيـامين ولـم يخـفـو كـغـيـرهم فـصـادهم بسنارة ضـلالته فضلو بالمجمع الخلقدونى الطمث. وظفر

ما كـان الاضطهـاد إلا ليزيد من استطاعوا مقاومتـه إيمانا على إيمانهم، بدل أن يفتنهم عنه ويقضى عليـه. فكانت الشدائد تتوالى بمذهب القبط والمصائب تفتك بأصحابه، ولكنه ظل قويا لم تلن قناته، وبقى أكثر الناس على إيمانهم ثابتين أقوياء. ولكن حد ذلك البطش كان قد بلغ نفوسهم فثلمهـا وجعل الداء ينخرفى جراحهم مدة ظلم تلك السنوات العشر وظلامها فكان ذلك سببـا فى ضيـا ع كل أمل فى عودة السـلام والوفاق بين الطائفتين المتنازعتين، إذا استفحل الأمر واستمر مرير العداوة والكراهة لسلطان الدولة البيزنطية ودينها جميعا.

مسير العرب الى مصر

الظاهر أنه بعد أن سلم البطريق (صفر ونيوس) الشيخ مدينة بيت المقدس سار عمر بن الخطاب الخليفة وعمرو بن العاص القائد وذهبا كلاهما نحو الشمال. وقد ارسل عمرو مددا للعرب المحاصرين لقيصريه[1]، أما عمر فقد أقام فى دمشق. ولعل عمراً قد أفضى اليه برأيه

= طائفة صغيرة فى وقت قيرس ومع ذلك فالأستاذ (Bary) عندما ذكر تولية قيرس يقول إن «أول عمل قام به هو أن يستميل اليه الطائفه الكبرى طائفه التاودوسيين أو (الفطار تولاتربين) أنظر كتابه (Later Rom Emp) (الجزء الثانى صفحة ٢٥١).

(١) أنظر كتاب "Conquête de la Syrie" De Goeje صفحة ١٣٠، وقد جاء فى ابن خلدون وابن الأثير أنه «لما أخذ عـمر بيت المقدس سار عمرو الى مصر» ولكن البلاذرى وهـو أسبق منهما وأثبت يقـول إن مـسير عـمرو كـان عند حصار قيصرية وهـو يروى رواية يفـهم منها أن عـمرا سـار بغير =

هرقل بالمغبوط مينا اخى الاب بنيامين البطرك فنزل
عليه بلايا عظيمه واشعل فى جنبيه المشاعل حتى
خرج شحم كلاه من جنبه وسال على الارض،
وقلع اضراسه واسنانه باللكم لاعترافه بالامانه،
وامر ان يملا جوالق [جوال] رملا ويجعل القديس
مينا فيه ويغرق فى البحر. وكان هرقل الكافر قد
اوصاهم وقال: ان قال احد ان مجمع خلقدونيه
حق خلوه، ومن قال انه ضلال وكذب غرقوه فى
البحر. ففعلو ذلك ورموه فى البحر وهم يمسكون

فى فتح مصر منذ كانا فى بيت المقدس، ولكن الخليفة رأى أن وقت ذلك الفتح لم يحن بعد. فلما ظهر العرب وانتهت الحرب أو كادت عاد عمرو الى عرض رأيه، وجعل يبين للخليفة ما كانت عليه مصر من الغنى وما كان عليه فتحها من السهولة، وقال له إنه ليس فى البلاد ما هو أقل منها قوة[١] ولا أعظم منها غنى وثروة.

فبعث له عمر بن الخطاب بكتاب مع (شريك بن عبده)[٢] يقول له فيه إنه قد رضى بغزو مصر، وتقدم اليه أن يجعل الأمر سرا وأن يسير بجنده إلى الجنوب سيرا هينا. فسار عمرو بن العاص فى الليل فى جيش صغير من الخيل يرافقه المداد كبيرة من بدو الشام وسيناء ولم يحدث له حدث حتى صار عند الحدود بين مصر وفلسطين، وسار بعد ذلك حتى صار عند رفح[٣] وهى على مرحلة واحدة من العريش أرض مصر.

= علم عمر، وروى رواية أخرى أن عمرا كان فى مسيره مؤتمرا بأمر الخليفة، ويروى المقريزى الروايتين معا.

(١) أخذنا هذا عن معجم البلدان لياقوت (الجزء الثالث صفحة ٨٩٣).

(٢) جاء اسمه ذاك فى المقريزى إذا قال. «ويقال إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب الى عمرو بن العاص بعد ما فتح الشام أن اندب الناس الى المسير معك الى مصر فمن خف معك فسر به وبعث به مع شريك بن عبده».

(٣) وقد جاء فى النص العربى للواقدى أن عمراً «ترك الصحراء وجعل الحصون التى فى طريقه الى مصر عن يمينه وهى رفح والعريش والعداد والبقارة والفرما.

الجوالق واخرجوه من البر مقدار سبع غلوات وقالو له قل أن مجمع خلقدونية جيد لا غير ونحن نخليك فلم يفعل، وفعلو هذا به تلت دفعات فلما لم يفعل غرقوه. ولم يغلبو هذا المجاهد مينا بل غلبهم بصبره المسيحى.

ثم ان هرقل اقام اساقفه فى بلاد مصر كلها الى انصنا، وكان يلى اهل مصر بلايا صعبة وكمثل الديب الخاطف كان ياكل القطيع الناطق ولا يشبع. وهذا الشعب المبارك هم التاودوسيون.

غادر العرب العريش وما حولها من بساتين النخيل وساروا فى الطريق إلى الغرب بعيدين عن البحر، فإن الطريق بعد العريش تسلك قطعة من الصحراء تتخللها بعض عيون وقرى، وهى الطريق القديمة المؤدية الى مصر وكانت فوق ذلك فى كل الأوقات طريق التجار وأهل الأسفار والحاج تتردد عليها القوافل بين آسيا وأفريقيا. وقبل أن تبلغ الطريق مدينة الفرما ببضعة أميال تنحدر إلى الشمال الغربى فتقتحم الكثبان وهى التلال المتحركة من الرمال ولم يلق العرب احدا من جنود الروم حتى اقتربوا من المدينة.

ومدينة (بلوز) اسمهابالقبطية (برمون) ويسميها العرب (الفرما) وكانت على نهد من الأرض على نحو ميل ونصف من البحر، وكان لها مرفأ لعله كان متصلا بالمدينة بخليج يجرى من البحر. وكان فرع من النيل اسمه الفرع (البلوزى) يصب فى البحر بقربها. وكانت مدينة قديمة قوية الحصون بها كثير من آثار المصريين القدماء كما كان بها كنائس وأديرة، وكان لها شأن كبير إذ كانت مفتاح مصر من الشرق تشرف على طريق القادم من الصحراء، وتملك ناصية البحر ويجرى اليها فرع من النيل يؤدى الى مصر السفلى. ومع كل ذلك فالظاهر أنها لم تكن منيعة فإن الفرس وقد كانوا مبرزين فى فنون الحصار لم يعانوا مشقة كبرى فى فتحها، ولعلهم دكوا أسوارها وخربوا حصونها كما خربوا كنائسها.

وليس لنا علم بعدد جندها ولكن من الواضح أن حاميتها كانت تهبط اليهم من حصنها

وفى تلك الايام راى هرقل مناما وقيل له انه ستاتى عليك امة مختونة وتغلبك وتملك الارض، فظن هرقل انهم اليهود فامر ان تعمّد جميع اليهود والسامره فى جميع الكور التى تحت سلطانه.

ومن بعد ايام يسيرة ثار رجل من العرب من نواحى القبله من مكه ونواحيها اسمه محمد فرد عباد الاوثان الى معرفة الله وحده، وان يقولو ان محمد رسوله. وكانت امته مختونة بالجسد لا بالناموس، ويصلون الى الجهة القبليه مشرقين الى

بين حين وحين لقتالهم. واستمرت الحرب متقطعة مدة شهر، ويقول أحد المؤرخين[1] بل شهرين، ثم خرج اليهم جنودها مرة ليقاتلوهم ولما عادوا لائذين الى مدينتهم تبعهم العرب فملكوا الباب قبل أن يقتحموه، وقد روى المقريزى وأبو المحاسن أن قبط الفرما ساعدوا العرب أثناء الحصاره.

فلما ملك العرب الفرما صار فى أيديهم معقلا يؤمن لهم الطريق المؤدية الى بلادهم، ويضمن لهم سبيل الرجوع اذا نزلت بهم هزيمة. وقد فطنوا بعد فتح الفرما الى ماهم مقبلون عليه من الأمر الخطير اذا أتيح لهم فتح حصن بابليون والاسكندرية العظيمة، ولابد أن يكون عمرو قد أدرك أنه لن يستطيع شيئا اذا لم يوافه عمر بن الخطاب بما وعده من الامداد. ولكنه فى نفس الوقت قام بتجنيد كل من صادفه من البدو فى سيناء والصحراء الشرقية والغساسنة والانباط الذين كانوا يقيمون فى هذه المناطق تحت وعود الاسلاب والغنائم فأصبحت له عدة كبيرة إلى جانب الامدادات التى وصلته من الحجاز. سار عمرو من الصالحية أو (القصاصين) الى الجنوب فاجتاز تلال وادى الطميلات فى موضع قريب من مكان اشتهر اليوم بوقعة كانت فيه وهى وقعة التل الكبير ١٨٨٢. فلما خرج من الوادى لم يبق دونه إلا سير هين حتى يبلغ بلبيس.

(١) جاء فى ياقوت أن المدة كانت شهرين وأما ابن بطريق والمقريزى وسواهما فيقولون انها كانت شهراً.

موضع يسمونه الكعبه. وملك دمشق والشام وعبر الاردن وسادها. وكان الرب يخذل جيش الروم قدامه لجل امانتهم الفاسدة والحروم التى حلت بهم لجل مجمع خلقدونية من الابا الأولين. فلما راى هرقل ذلك جمع جميع جيشه من مصر الى حدود اسوان. ومكث يدفع القطيعه [الجزيه] التى سال حتى يقررها على نفسه وعلى جميع جيوشه تلات سنين للمسلمين. وكانو يسمون المقرر البقط، أى أنه بقط روسهم، الى ان دفع لهم معظم ماله.

ويقال أنه فى ذلك الوقت جاءت جماعة عليها أحد الأساقفة، وانهم فاوضوا عمرا فى ذلك الوقت. ويقول الطبرى فوق هذا إن عمرا طلب الى القبط أن يساعدوا المسلمين لما كان بينهم وبين العرب من قرابة فى النسب إذ تجمعهم (هاجر). ولكن قائد الحامية الرومانية للمدينة الذى يسميه العرب أرطبون وصحة اسمه (أريطيون) هو نفسه حاكم بيت المقدس[١]، وكان قد هرب الى مصر قبيل تسليم المدينة لعمر بن الخطاب. هاجم جيش العرب ولكن الدائرة دارت عليه فهزم وتمزق جيشه. غير أن العرب لبثوا عند بلبيس مدة شهر حدث فى أثنائه قتال كثير وقتل من العرب فيه عدد ليس بالقليل، ويقال إن الروم خسروا ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير.

وصار عمرو بعد ذلك على مسيرة يوم من مفترق فرعى النيل، فمر بمدينة (هليوبولس) سائرا على جانب الصحراء ثم هبط الى قرية على النيل إسمها (أم دنين) وكانت إلى الشمال من حصن (بابليون)، وموقعها اليوم فى قلب (القاهرة)[٢]. وكانت فى أم دنين حامية قوية،

(١) ظاهر فى الاسم تحوير (أريطيون) إلى (ارطبون). وقد ذكر أبو المحاسن الاسم الصحيح.

(٢) نظن أنه ليس من شك من أن هذا الموضع الذى يسميه العرب (أم دنين) هو الذى يسميه (حنا النقيوسى) (تونديس) فانه إذا أزيل الحرف الأول منها وهو دليل على المؤنث فى اللغة القبطية صار التشابه بين الاسمين عظيما. قد جاء فى ياقوت والمقريزى أن (أم دنين) هى المقس على الضفة الغربية=

ومـات كـثـيـر من الناس من التـعب الذى كـانوا يقاسونه.

فلمـــا تمت عـــشـــر سنين من مملكة هرقل والمقـوقس وهو يطلب بنيـامين البطرك وهو هارب منه من مكان الى مكان مختفيا فى البيع الحصينه، انفذ ملك المسلمين [عـمر بن الخطاب] سـريه مع امير من أصحابه يسمى عمرو بن العاص فى سنة تلتمايه وسبع وخمسين لديقليديانوس قاتل الشهدا، فنزل عـسكر الاسـلام الى مـصر بقـوة عظيـمـة فى

ولهذا كان فى استطاعة الجيش الرومى الأكبر الذى فى الحصن أن يهبط فى أى وقت شاء إلى العرب ثم يعود إذا شاء إلى حصنه آمنا وراء أسواره العظيـمة. ومضت على ذلك أسابيع عدة فى مناوشة وقتال خفيف.

ولكن مهما كان من أمر القتال وشدته فقد أتم العرب ما قصدوا اليه وأخذوا (أم دنين)، فملكوا بذلك منزلا على النيل جعلوا فيه حامية منهم، واستطاع عمرو أن يأخذ من السفن ما يكفى بقية جنده لاجتياز النهر.

وقعة هليوبولس

سار عمرو بمن معه الى الجنوب بعد أن عبروا النهر سالمين، وكان سيرهم بجوار المزارع حتى بلغوا (ممفيس). وكانت تلك المدينة القديمة قد اضمحل أمرها منذ بناء الاسكندرية ـ

= للخليج (خليج تراجان) وعلى نهر النيل ويقول المقريزى إنها كانت ميناء مصر فى وقت الفتح. ومن المعلوم أن المقس كان فـى الموضع الذى فيـه اليوم حديقة الأزبكية وقـد كـان النيل عند ذلك يجـرى بجوار حصن بابليون ودير (أبى سيفين) فكان مجراه إلى شرق المجرى الحالى بكثير وكان بعد مروره بالكبش يتجه شمالا الى ذلك الموضع (المقس) وعلى ذلك فقد كان الحصن الرومانى (تنونديس) هناك قرب الأزبكية ومعه ميناء مصر ومراسيها وكان هناك ميدان القتال الذى حدث. وليس من العجيب أن يكون النيل قد غير مجراه هكذا فى مدة اثنى عشر قرنا وإن ابن دقماق لا يترك فى ذلك الأمر شكا.

اليوم الثانى عشر من بوونه وهو السادس من يونيو من شهور الروم. وكان الامير عمرو قد هدم الحصن واحراق المراكب بالنار واذل الروم وملك بعض البلاد وكان مجيه للبريه، فاخدو الخيل للجبل حتى وصلو الى قصر مبنى بالحجاره بين الصعيد والريف يسمى بابلون فضربو خيمهم هناك حتى ترتبو لمقاتلة الروم ومحاربتهم، ثم انهم سمو ذلك الموضع اعنى القصر بلغتهم بابلون الفسطاط وهو اسمه الى الان. وبعد قتالهم تلت

ولم يبق منها اليوم باق ـ على أنها كانت فى وقت غزوة العرب لا تزال اطلالها ماثلة فى الموضع الذى كانت فيه عاصمة لدولة الفراعنة، وكانت فيها مساكن عدة لاتزال آهلة. وكانت فى الجانب الآخر من النيل مدينة نما أمرها وزاد سكانها حتى لقد كان يطلق عليها اسم ممفيس[1] أحيانا، وتلك هى مدينة مصر، وكان أكثرها الى جنوب حصن بابليون. ولعل العرب رأوا عند ذلك لأول مرة وهم فى الجانب الغربى للنيل مصر واضحة تشرف عليها صروح حصن بابليون سامقة فوق ماء النهر من وراء جزيرة الروضة.

وأما سيرهم إلى الفيوم فليس لدينا علم بين بوصفه. وكان حاكم مدينة بيوم (الفيوم) اسمه (دومنتيانوس) وأما حاكم الإقليم فاسمه (تيودوسيوس)، وكان عند ذلك مع حاكم الاسكندرية (أنستاسيوس) فى بعض بلاد مصر السفلى بقرب (نقيوس)، ووكل أمر الدفاع عن الإقليم الى (حنا)[2] قائد كتيبة (الخفر)، وهى كتيبة من أهل البلاد. وكان تحت إمرته رجل آخر اسمه

---

(١) قال اليعقوبى إن «مدينة ممفيس متهدمة» وقد كانت المدينة التي حول قصر الشمع محلة مصرية قديمة فقد وجدت بها آثار فرعونية وكان عند الباب الجنوبى للحصن تمثال مصرى معروف ووجدت حجارة فى أسوار الحصن عليها نقوش هيروغليفية وكان اسم المدينة «مصر» ولكن كالظاهر أن «مصر» و«منف» كانا يستعملان مترادفين فى بعض الأحوال فقد قال عبداللطيف «وتوجد الآثار التى بمصر القديمة وهذه المدينة بجوار الجيزة التى وراء الفسطاط وكانت مسكن الفراعنة ومقر ملوكهم».

(٢) جاء فى بعض المصادر القديمة أن حنا هذا هو حنا حاكم برقة أو برقينه ولدينا ما يحملنا على الظن أنه كان مرسلا من قبل هرقل ولقدكان هو بعينه «قائد الرديف» الذى أتى بنص المذهب الجديد موفدا =

دفعات غلبو المسلمون الروم، فلما راى ريسا المدينة هذه الامور مضو الى عمرو واخذو امانا على المدينة ليلا [لئلا] تنهب. وهذا العهد الذى اعطاهم اياه محمد ريسهم سموه الناموس [العهد](*) يقول فيه: كورة مصر و مدينتها تستقر مع اهلها [متى] دفع الخراج لكم وان تعهد لسلطانكم عاهدوهم ولا تظلموهم. ومن لا يرضى ذلك ويخالفكم انهبوهم وايسروهم. فلذلك مسكو ايديهم عن الكوره واهلها واهلكو جنس الروم وبطرقهم

(*) العهد هو النص القرآني القائل: ﴿قاتلوا الَّذين لا يُؤْمنُون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحرِّمُون ما حرَّم اللَّهُ ورسُولُهُ ولا يدينُون دين الْحقِّ من الَّذين أُوتُوا الْكتاب حتَّىٰ يُعْطُوا الْجزْية عن يدٍ وهُمْ صاغرُون﴾ [التوبة: ٢٩].

(حنا الماروسى). وقد وضع الجنود عند ثغور الفيوم التى يدخل الى الاقليم منها، وحرست حراسة حسنة، وأقام الروم ربيئة لهم فى حجر اللاهون[١] ليرصد العدو ويعرف أخباره ومسيره، ويحمل أنباء ذلك الى (حنا) وكان مقيما قرب شاطئ النهر. ثم أرسلت سرية من الفرسان والرماة الى العرب لتحول بينهم وبين السير، ويلوح لنا أن جنود العرب لم يقووا على أن يخلصوا ممن لاقاهم من الروم، فعدلوا الى جانب الصحراء وجعلوا يستاقون الغنائم، فأخذوا منها عددا عظيما، وضمّ إليه العديد من بدو هذه المناطق. وما زالوا كذلك حتى بلغوا مدينة البهنسا[٢] ففتحوها عنوة وقتلوا من وجدوا بها من رجال ونسوة وأطفال. ثم سمع عمرو بأن (حنا) كان يسير وراءه فى قلة مع خمسين من فرسانه يرقبون سيره، فبعث به عمن كان وراءه من جنده ثم كر عليه مباغتا. فلما رأى (حنا) ذلك وأن الخطر محدق به أراد أن يعود

= من (سرجيوس) الى (قيرس) وهو الذى حمل مع هذا النص الصليب الذى جاء ذكره فى (حنا النقيوس).

(١) إذا أردت معرفة أخبار هذا الموضع فارجع الى كتاب الدكاترة "Hunt & Grenfell" وهو "Fayoum Towns and their Papyri" (صحفة ١٣ شكل١٨) واللاهون على بحر يوسف على نحو عشرة أميال من مدينة الفيوم وكانت عند مدخل الوادى الذى بين الجبال المحيطة بكوره (أرسنويه) وكانت موضعا ذا شأن فى الأمور الحربية للدفاع عن الاقليم.

(٢) البهنسا المقصودة هنا هى فى كورة الفيوم بالطبع وليست البهنسا المعروفة التى فى موضع المدينة القديمة "Oxyrhynchus" فقد كانت تلك على بعد خمسين ميلا الى الجنوب من بعد بهنسا الفيوم.

المســـمى مـــاريانوس. ومن سلم منهم هربو الى اسكندريه واغلقو ابوابها عليهم وتحصنو فيها.

وفى سنة تلتمايه وستين لديقلاديانوس فى شهر دكنبريوس [ديسمبر] من بعد ان ملك عمرو مصر بتلت سنين ملكو المسلمــون مــدينة اسكندريه وهدمو سورها واحرقو بيعا كتيرا بالنار وبيعة مارى مرقس التى هى مبنية على البحر حيث كان جسده موضوعا هناك وهو الموضوع الذى مضى اليه الاب البطرك بطرس الشهيد قبل استشهاده وبارك فيه وسلم اليه القطيع الناطق كما تسلمه.

سريعا إلى عسكره فى (أبويط)[١] وهى واقعة على النيل على مسافة قليلة من موضعه، فكان يسير بجنوده فى الليل ويكمنون بالنهار فى النخيل والآجام، ولكن عمرا علم بمكمنه إذ دله عليه أحد شيوخ البدو، فحاصره ومن معه وقتلهم فلم يدع منهم أحدا. فقتل فى ذلك (حنا) قائد الكتيبة ووكيله لأن العرب لم يتخذوا منهم أسرى وكان هذا دأبهم طوال طريقهم منذ دخولهم مصر.

فلما بلغ القائد (تيودور) نبأ هذه النكبة بكى وأعول، ثم هب بعد ضياع الوقت فحشد من دونه من الجنود وبعث بهم صعدا فى النهر إلى جزيرة (لكيون)، ثم أسرع (انستاسيوس)و (تيودوسيوس) بالعودة من (نقيوس) إلى حصن (بابليون) ليساعدوا من به، وأرسلوا من الحصن سرية جعلوا عليها قائدا اسمه (ليونتيوس) إمدادا للعسكر فى (أبويط). فلما بلغ (ليونتيوس) مضرب العسكر فى (أبويط) وجد المصريين حيال العرب، ووجد أن (تيودور) قد لاذ بجنوده فى مدينة الفيوم، يخرج منها بين حين وحين فيهوى إلى العرب فى البهنسة يقاتلهم.

(١) بين أميلنو فى كتاب (Geog Copte) (صفحة٣) أن هناك موضعين باسم (أبويط) والمدينة المقصودة هنا لابد أن تكون فى مديرية بنى سويف فى الوقت الحالى وهى قرية من (بوصير كوريدوس) فى الشرق من حجر اللاهون.

فاحرقو هذا الموضع وما حوله من الديارات. وكانت اعجوبه عند خرق البيعه المذكوره فعلها الرب، وذلك أنه احد ريسا المراكب وهو ريس مركب الدوكس سانوتيوس(*) تسلق ونزل الى البيعة واتى الى التابوت فوجد الثياب قد اخذت لانهم ظنو ان فى التابوت مالا، فلما لم يجدو شيا اخذوا الثياب من على جسد مارى مرقس وبقيت عظامه فيه، فلما جعل ريس المركب يده فى التابوت وجد راس القديس مرقس واخدها وعاد

(*) كان سانوتيوس من كبار المؤظفين البيزنطيين الذين تعاونوا مع عمرو بن العاص وذلك بقيادته للأسطول البحرى الذى واكب سير الحملة العسكرية التى كانت بقيادة عمرو بن العاص فى تقدمه نحو بنتابولس (برقه).

ولاشك أن العرب لم يستطيعوا فتح مدينة الفيوم، وأنهم عادوا أدراجهم إلى الشمال منحدرين مع النهر، وكان (تيودور) قد أمر بالبحث عن جثة (حنا) وكانت قد ألقيت فى النهر، فانتشلها الناس فى شبكة، ثم حنطت ووضعت على سرير وحملت فى النيل الى حصن (بابليون) تحيط بها آيات الحزن، ومن ثم بعثوا بها إلى هرقل[١].

وكان أول سير عمرو إلى الفيوم نحو أول شهر مايو، و قضى فى غزوته بضعة أسابيع أضاعها. ولعل قدوم أمداد المسلمين التى بعث بها عمر بن الخطاب كان فى السادس من شهر يونيه، وكان عدتها ٤ آلالف جندى، والتقى الجميع قريبا من هليوبولس، كان الأمير على المدد الزبير بن العوام. ثم جاء فى عقبه كتيبتان كل منهما من أربعة آلاف رجل، فكان جميع من جاء من الأمداد اثنى عشر ألفا[٢]. وقد علم الروم أن النيل يعلو فى مجراه العميق فى وسط الصيف، ولهذا أرادوا أن يناجزو المسلمين بمن اجتمع منهم قبل أن يفيض النهر، ولكنهم

(١) وهذا الحادث يدل على أن حنا كان موفدا من قبل الامبراطور نفسه لغرض معين وكان (تيودور) بغير شك يعتمد على مقدرة حنا فى الحرب ولذلك اهتم اهتماما عظيما لموته.

(٢) اختلف الرواة فى عدد الأمداد فقال ابن عبدالحكم إنها كانت ٤٠٠٠، وقال البلاذرى ١٠,٠٠٠ أو ١٢,٠٠٠، وقال ياقوت ١٢,٠٠٠، وأورد المقريزى نقلا عن الكندى خيرا رواه يزيد أن جيش عمرو كان ١٥,٥٠٠ وتفصيل ذلك أن جيشه الأول كان ٣,٥٠٠ ثم زاد ١٢,٠٠٠، وقال السيوطى على اليقين إن الإمداد جاء أرسالا الى أن بلغ ١٢,٠٠٠ وهذا مارآه المقريزى. وقال أن كتيبة منها كانت مع الزبير =

الى مركبه ولم يعلم به احدا وخباها فى الخن فى قماشه. فلما ملك عمرو المدينة ورتب امورها خاف الكافر والى اسكندريه(*) وهو كان واليها وبطركها من قبل الروم ان يقتله عمرو فمص خاتما مسموما فمات لوقته.

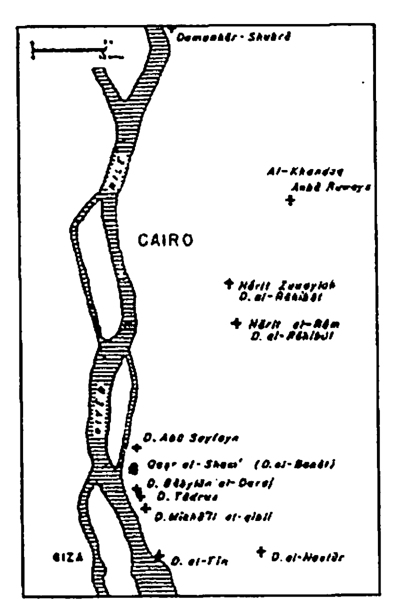
(*) يذكر بتلر أن هذا الوالى هو (قيرس). انظر ص٦٤٣.

فأما سانوتيوس الدوكس المومن فإنه عرف عمرا سبب [اختفاء] الاب المجاهد بنيامين البطرك وانه هارب من الروم خوفا منهم، فكتب عمرو بن

عجزوا كل العجز عن أن يحولوا دون اجتماع جيوش المسلمين المتفرقة، مع أنهم كانوا يملكون حصن بابليون وكان نهر النيل فى يدهم، وعادوا إلى حامية (أم دنين) فملكوها. فلو كان عندهم علم بالحرب وحزم فى الرأى لا ستطاعوا أن يمنعوا عمرا من العبور إلى الجانب الشرقى، فكانوا يجعلونه بذلك فى معزل عمن جاء يمده، ولعلهم كانوا يستطيعون بذلك القضاء عليه.

ولكنهم لم يفعلوا ذلك مع كل ما لديهم من ميزة عليه، واستطاع عمرو أن يعبر النهر إما عنوة وإما على غرة منهم. وأغلب الظن أنه عبر النهر فى موضع أسفل من موضع(أم دنين) الى الشمال منها، لأن ترعة (تراجان) كانت عند ذلك مطمومة منذ أهمل أمر حفرها، ولم تكن لتعوق سير العرب حتى فى وقت فيض النيل. وكان عمرو وقد علم بأن أمداد المسلمين

= وعددها ٤,٠٠٠، وهذا يفسر السبب الذى جعل مؤرخى العرب يقولون إن الامداد كلها كانت ٤,٠٠٠ ومن العجيب أن (حنا النقيوسى) يقول إنها كانت ٤,٠٠٠ ويزيد على ذلك أن قائدها كان اسمه (والواريا) وكان أسود وهو من الهمج ولا نستطيع أن نعرف الاسم المقصود، على أنه قد كان منهم قائد أسود وهو عبادة بن الصامت، والمقداد بن الأسود، ومسلمة بن مخلد كان على ألف رجل وان الزبير مثلهم . وانه لا يوجد نوع من الخلط إلا وقع فيما كتبه العرب وعلى ذلك فليس عجيبا أن نرى المقريزى يؤجل وصول الامداد وهى ١٢,٠٠٠ مع الزبير ـ الى الوقت الذى كان العرب يحاصرون فيه حصن بابليون.



العاص الى اعمال مصر كتابا يقول فيه: الموضع الذى فيه بنيامين بطرك النصارى القبط له العهد والامان والسلامة من الله فليحضر امنا [آمناً] مطمينا [مطمئنا] ويدبر حال بيعته وسياسة طايفته. فلما سمع القديس بنيامين هذا عاد الى اسكندريه بفرح عظيم بعد غيبة تلت عشره سنه، منها عشر سنين لهرقل الرومى الكافر، وتلت سنين قبل ان يفتحو المسلمون اسكندريه، لابسا اكليل الصبر

سائرة فى طائفتين ميممة شطر (عين شمس) وهى (هليوبولس)، وعلم أن مقامه فى الجانب الغربى خطر والحق أنه فزع خوفا من أن يفطن الروم إلى الأمر فيحولوا بينه وبين الاتصال بالمدد الذى جاء به الزبير، ولكن (تيودور) ضيع الفرصة على عادته، فلم يضرب الضربة القاضية، واستطاع عمرو أن يسير للقاء المدد ويبلغ عسكر المسلمين فى هليوبولس.

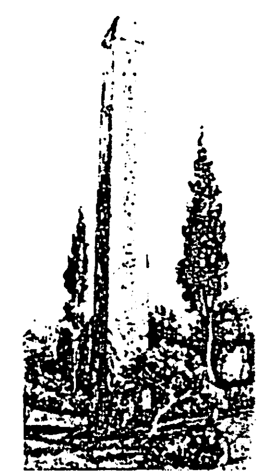
كانت هليوبولس فى الأزمنة القديمة إحدى مدن مصر الكبرى واسمها (أون). وكان أسمها لا يزال باقيا يطلقه القبط عليها فى القرن السابع، ويفيد ذلك الاسم معنى (مدينة الشمس). ولا شك أن اليونان أخدوا ذلك المعنى فجعلوا اسمها عندهم (هليوبولس). وقد احتفظ العرب كذلك بذلك المعنى فجعلوا اسم الموضع (عين شمس)[١]. وكانت هذه المدينة معروفة بعظمة آثارها كما كانت معروفة بأنها قبلة لأهل العلم وكعبة للدين. ولما زارها (سترابو) قبل ذلك الوقت بستة قرون كان الناس هناك يدلونه على المواضع التى كان أفلاطون يتلقى فيها العلم من قبل. على أن الزمن عند ذلك كان قد غير المدينة وجرت صروفه وحروبه وحصاراته ذيل العفاء على أكثر معابدها وتماثيلها، فلما أتى العرب لم يكن باقيا من مجدها

---

(١) الظاهر أنه قد غلب الاسم الجديد (المطرية) على الاسم القديم(عين شمس) والموضع معروف للسياح من أجل شجرة العذراء والعين التى استراحت الأسرة المقدسة بجوارها.

وشدة الجهاد الذى كان على الشعب الارتدكسى من الاضطهاد من المخالفين.

فلما ظهر فرح الشعب وكل المدينه واعلمو بمجيه سانوتيوس الدوكس المومن بالمسيح، الذى كان قرر مع الامير عمرو حضوره واخذ له منه الامان، فمضى لذلك الامير وعرفه بوصوله فامر باحضاره بكرامة واعزاز ومحبه، فلما راه اكرمه وقال لاصحابه وخواصه: ان فى جميع الكور التى



مسلة سنوسرت الأول بمدينة آون (هليوبوليس: عين شمس = المطريه). وهى المسلة الوحيدة الباقية من المسلات المائة التى كانت ترتفع فى سماء أون.

القديم إلا قليل من أسوار مهدمة، وتماثيل (لأبى الهول) قد دفن نصفها تحت الثرى، وعمود واحد مما يعرف (بالمسلة) ولا يزال باقيا إلى اليوم ذكرى من ذلك العالم الغابر.

وكانت المدينة على نهد من الأرض، يحيط بها قديما سور غليظ ولم يكن لها خطر فى الحرب فى ذلك الوقت، ولكنها كانت تستطيع المدافعة، وكان فيها ماء كثير، وتصلح لإمداد الجيش بالمؤونة، ولهذا اتخذها عمرو مقرا وجعل يتجهز منها لما هو مقبل عليه من القتال. وقد وصفنا فيما سلف من قولنا مقدم (تيودور) الى حصن بابليون وأنه جعل يحشد فيه الجنود من بلدان مصر السفلى، ولكن لعله ما أتم حشد الجيش الذى كان يستطيع به قتال العرب والخروج به الى عين شمس حتى كانت الأمداد التى بعث بها عمر بن الخطاب قد بلغت عمرو بن العاص، فأصبح بها أميرا على جيش عدته خمسة عشر ألفا، من بينهم طائفة من أكبر فرسان العرب[1] هذا غير الاعداد الوفيرة من البدو الذين انضموا للجيش العربى منذ دخوله مصر ولسنا نعرف عدد الجيش الذى حشده الروم إلا بالظن والحدس.

---

(١) ذكر ابن الحكم كما جاء فى كتاب أبى المحاسن الأسماء الاتية للزعماء العرب الذين شهدوا فتح مصر: عمرو وابنه عبدالله والزبير وعبدالله بن عمرو سعد بن أبى وقاص (وهذا مختلف فيه) وخارجة بن حذافة وقيس بن أبى العاصى السهمى والمقداد بن الأسود وعبدالله بن سعد بن أبى سرح ونافع بن عبد قيس الفهرى وأبو رافع وابن عبدة وعبدالرحمن وربيعة ابنا شرحبيل بن حسنة ووردان مولى عمرو. ومن=

ملكناها الى الان ما رايت رجل الله يشبه هذا.
وكان الاب بنيامين حسن المنظر جدا جيد الكلام
بسكون ووقار. ثم التفت عمرو اليه وقال له:
جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر احوالهم واذا
انت صليت عليّ حتى امضى الى المغرب والخمس
مدن واملكها مثل مصر.

واعود اليك سالما بسرعه فعلت لك كلما
تطلبه مني. فدعا له القديس بنيامين واورد له كلاما

كانت خطة عمرو أن يجعل الروم يخرجون اليه فيقاتلونه فى السهل وهم بعيدون عن حصن بابليون، فلما أحس (تيودور) من نفسه القوة جعل يناجز العرب، وسار اليهم بجيوشه نحو (هليوبولس)، وكانت على مسافة ستة أميال أو سبعة عن عسكر العرب. وكان على الخيل (تيودوسيوس) و(انستاسيوس)، ولكن أكثر الجمع كانوا رجالة بعضهم رماة وبعضهم يحملون الرماح. وكانت عيون البدو القاطنين بصحراء المنطقة قد أسرعت فحملت الى عمرو ما عزم عليه الروم، فاستطاع أن يوجه جنوده إلى مواضعهم ويعبئهم للقتال. فسار هو من هليوبولس مع أكثر الجمع من العرب للقاء الروم، ولكنه أرسل تحت الليل كتيبتين: إحداهما الى (أم دنين)، والأخرى وعليها خارجة بن حذافة الى مكان واقع الى الشرق، ولعله كان فى ثنية الجبل[1] بقرب الموضع الذى فيه اليوم قلعة القاهرة حيث كانت توجد آثار

=الأنصار: عبادة بن الصامت ومحمد بن مسلمة وأبو أيوب خالد بن يزيد وأبو الدرداء عويمر بن عامر ويسمى عويمر بن يزيد. وقد آتى نفس الكاتب بأسماء أخرى ممن شهد الفتح.

(١) ولعل هذه هى الحادثة التى ذكرها المقريزى فى غير موضعها حيث يقول إن عمرا أرسل ٥٠٠ فارس بقيادة (خارجة بن حذافة) وأمرهم أن يكمنوا فيهبطوا على العدو اذا خرج من بين الأديرة قال: «فساروا بالليل ودخلوا مغاير بنى وائل قبل الصباح» فلما بدأت الوقعة بعد الفجر نزلوا على مؤخرة الروم بغتة وأكملوا ما بدأ من اضطرابهم واختلال أمرهم.

حسنا اعجبه هو والحاضرين عنده فيه وعظ وربح كثير لمن يسمعه، واوحى اليه باشيا وانصرف من عنده مكرما مبجلا.

وكلما قاله الاب الطوبانى للامير عمرو بن العاص وجده صحيحا لم يسقط منه حرف واحد. فلما جلس هذا الاب الروحانى بنيامين البطرك فى شعبه دفعة اخرى بنعمة المسيح ورحمته فرحت به كورة مصر كلها وجذب اليه اكثر الناس الذين اضلهم هرقل الملك المخالف، وكان يجذبهم

لبعض المعابد المصرية. فكان سير الروم على ذلك بين هذين الكمينين من العرب وكان عمرو قد أمرهما أن يهبطا على جانب جيش الروم ومؤخرته اذا ما سنحت لهم الفرصة[1] وخرج الروم من بين البساتين والأديرة التى كانت الى الشمال الشرقى من الحصن وانتشرو فى

(١) يقول (زوتنبرج) إنه لا يستطيع فهم الموقعة نظرا للمسافات التى بين هذه المواضع وقد أخطأ بجعل تنونديس (أم دنين) إلى جنوب بابليون بدل أن يجعلها فى شماله. ولا شك أن (حنا النقيوسى) جعلها أبعد الى الشمال الغربى ولهذا يقول إن المكان الآخر فى شمال بابليون ولكنا فيما عدا الاعتراضات الأخرى لو وضعنا كمين عمرو فى جنوب بابليون لجعلنا خطته فى منتهى الجهالة فى حين تكون كتيبة أخرى من جيشه فى الشمال ومعظم جيشه فى هليوبولس وفوق ذلك كان حصن بابليون ومعسكر الروم يسدان الطريق الذاهب الى الجنوب. ولو قلنا إن عمرا ذهب الى لقاء العدو ولم يبق فى عسكره لانتظاره هناك لذهب الاعتراض ببعد المسافة. ولقد نسى (زوتنبرج) فوق هذا أن النيل كان يجرى فى موضع شرق مجراه الحالى بكثير. فاذا نحن وضعنا كمينا عند (أم دنين) (الأزبكية) وآخر عند القلعة أو الجبل الأحمر صارت خطة الموقعة واضحة ولنا كلمة أخرى فقد كا نت هليوبولس قديما تغطى مساحة أكبر مما يمكن تصوره اليوم هذا واضح ليس فقط من الأطلال الباقية بل من شهادة ابن دقماق إذا يقول صراحة « وكانت عين شمس فى الزمن الماضى مدينة عظيمة متسعة متصلة بمصر القديمة التى فى موضع الفسطاط فى الوقت الحاضر» (الجزء الخامس صفحة ٤٣) ومعنى هذا أنه لابد قد كانت المسافة بين أرباض المدينتين قصيرة على أن أرباضهما كانت عبارة عن منازل وكنائس متفرقة.

للرجوع الى الامانه المستقيمه بسكينة ووعظ
وملاطفه وتعزيه، وكتير من هرب الى الغرب
والخمس مدن خوفا من هرقل الملك المخالف فلما
سمعو بظهورر راعيهم عادو اليه بفرح ونالو اكليل
الاعتراف، وكذلك الاساقفه الذين خالفو امانته
دعاهم ان يعودو الى الامانة الارتدكسيه فمنهم من
عاد بدموع غزيره ومنهم من حيا [يستحى] من
الناس ان يشهر عندهم بانه كان مخالفا للامانه
فبقى على كفره الى ان مات.

السهل[1] وكان ذلك فى الصباح الباكر ولم يكن عندهم علم بمكيدة عمرو بل رأوا

(١) يظهر لمن يطلع على هذا الوصف الذى وصفنا به موقعة عين شمس أنها على اختلاف كبير مع ماجاء فى الطبرى فقد جاء فى الطبرى: (١) أن الوقعة كانت بعد فتح حصن بابليون. (٢) أن المقوقس كان مع جيش القبط فى عين شمس وقد أز مع السير الى مصر.(٣) أن جيش عمرو سار الى أبواب عين شمس. (٤) أن جيش القبط تشتت عند أول صدمة وخسر عددا عظيما بين قتيل وأسير. (٥) أن العرب غنموا غنيمة عظيمة وأرسلوا الأسرى الى المدينة . وانه ليكون من الإسراف أن نكذب خبرا مثل هذا الخبر المفصل ولكنا فوق ما نشعر به من ضرورة الأخذ بما جاء فى كتاب حنا الذى كان قريبا من ذلك العهد يظهر لنا أن الطبرى قد أخطأ خطأ وصف البلاد فان وصفه للوقعة صحيح ولكنها لم تكن وقعة عين شمس والدليل على هذا: (١) ترتيب الحوادث فان هذه الوقعة لايمكن أن تكون بعد فتح مصر فى حين أن مواقع أخرى يمكن أن تقع بعد ذلك وقد وقعت فعلا بعد فتح مصر . (٢) الطبرى نفسه يكشف عن خطئه بوصفه عين شمس بأنها كانت «مدينة عظيمة فى بلاد القبط وأنها واقعة فى الغرب» ومعنى هذا إما أن يكون أنها فى غرب النيل أو فى غرب مصر السفلى، ولكن عين شمس لايمكن أن توصف بأحد هذين الوصفين وعلى ذلك فالظاهر أن ا لوصف السابق انما هو وصف بعض المواقع التى كانت فيما بين بابليون واسكندرية وقد وقعت فى الغرب وسيأتى ذكر هذا فيما يلى.
وقد كانت غلطة الطبرى سببا فى خلط كثير من مؤرخى العرب مثل ابن الأثير وابن خلدون (وقد كان الطبرى غريبا عن مصر لا يعرف كثيرا من وصف بلداتها) وهذا مثل جديد من الأمثلة الدالة على ما يجده الانسان من الخلط فى وصف حوادث هذا ا لعصر من التمحيص والمقارنة ولكنا نرى أن هناك سببا بسيطا فى مثل هذا الخطأ الذى يقع فيه المؤرخين العرب فانا اذا وجدنا أن ابن الأثير يذكر أن قوّاد العرب حاصروا عين شمس ويقول إن (الزبير) تسورها (وسنرى أنه انما تسور قصر الشمع) نجد أنفسنا حيال خلط شبيه بما سبق ذكره وسبب كل ذلك اسم (بابليون) فان العرب أو بعضهم فهموا ذلك الاسم على أنه باب ال (أون) أو (باب أون) هى عين شمس (الاسم العربى لهليوبولس) ومن =

ومن بعــد ذلك ســار عــمــرو من اسكندرية وعــسكره وســار مـعـه الدوقس ســانوتيــوس المحب للمسيح.

وفى تلك الليلة راى الاب [بنيـامين] فى منامـه انسانا منيرا لابسا ثياب التلاميذ وهو يقول له: يا حبيب اعـمل لى عندك موضعـا اقيم فيه فى هذا اليوم لاننى احب موضعك، وكان الموضع الذى فيه البطرك موضعا طاهرا بلا دنس فى دير يعرف بدير مطرا الذى هو البــسـقـوبيـون، لان ســاير البـيع

أنه كان يسير اليهم فى جمعه آتيا من هلبوبولس. ثم حدث اللقاء بعد ذلك ولعله كان فى مكان وسط بين معسكرى الروم والعرب عند الموضع الذى اسمه اليوم (العباسية). وكانت كل من الطائفتين موقنة بأن ذلك اليوم سيكون يوم الفصل فى أمر مصر، فكانت كل تقاتل قتال المستميت. فلما حمى وطيس القتال وعض الناس على النواجذ أقبلت كتيبة خارجة تهوى من مكمنها فى الجبل، كأنما هى عاصفة تجتاح مؤخرة الروم. فلما رأى الروم أنهم قد أخذوا بين جيشين من عدوهم، وقع الفشل فى صفوفهم، واتجهوا بعض الاتجاه الى يسارهم نحو (أم دنين)، فلقيهم الكمين الآخر فظنوا أنه جيش عربى ثالث. فانتثر نظامهم وحلت بهم الهزيمة، ففر وا لا يلوون على شئ يطلبون النجاة من سيوف العرب فاستطاع الأقل منهم أن يبلغ الحصن برا فيلوذ به، وكثير منهم ساقهم الفزع الى النهر فنزلوا فى السفن وعادوا الى الحصن، ولكن طائفة كبيرة هلكت. واستولى العرب بعد انتصارهم على (أم دنين) مرة أخرى،

= هنا نشأ الخطأ بين المكانين فان البلاذرى يذكر أن الفسطاط كانت عند الفتح أسمها (أيون). وقال المؤرخون بعد ذلك أن اسمها كان (اليون) وأخذوا ذلك اللفظ على أن معناه (أون) وهى (عين شمس) فبنى على هذا الخطأ أنه قد حوصرت عين شمس ونقلت الحوادث من بابليون اليها. وفى رأينا أن لم يسبق أحد هذا التفسير يفسر كثيرا من الصعاب التى نلقاها فى تواريخ العرب وقد أسئ فهم اللفظ الرومانى (بابليون) فصار فى صور متعددة مثل (باب اليون) ومدينة (ليون) و(قصر اليون) و(لونها) و(أيون).

والديارات التى للعدارا والرهبان تنجست من هرقل المخالف عند الزامهم بامانة خلقدونيه، الا هذا الدير وحده فان الذين فيه اقوام اقويا كتيرا مصريون وجميعهم أهل ليس بينهم غريب فلم يقدر يميل قلوبهم اليه، ولجل ذلك لما عاد بنيامين من الصعيد نزل عندهم لحفظهم الامانة الارتدكسية وانهم لم يحيدو عنها.

فلما أراد [ت] المراكب التى فيها زاد العسكر(*) وتقاله وحوايج الدوكس سانوتيوس

(*) كانت هذه المراكب تحت قيادة سانتوس تحمل زاد ومؤن خاص بجنود عمرو بن العاصى المتقدمين نحو مدن بنتابولس فى شمال أفريقيا.

وقد قتل فى الوقعة كل من كان بها من الجنود إلا ثلاثمائة. ولاذ كل من نجا من الروم بحصن (بابليون) وأغلقوا عليهم الأبواب، ولكنهم منذ علموا بما أصاب اخواتهم الروم من القتل حملهم الخوف على أن يتركوا الحصن فساروا فى النهر الى (نقيوس) على فرع رشيد حيث توجد حامية بيزنطية قوية.

ولكن النصر أفاد العرب فوائد جمة، فقد أصبحت مدينة مصر فى قبضة يدهم بغير قتال، وكانت من قبل يحميها الجيش الذى فى الحصن، وأصبحوا يملكون ناصية شاطئ النهر من ناحيتى الحصن وشرقه بين البساتين والكنائس، وذلك هو الموضع الذى صار يعرف بالفسطاط فيما بعد. وقد صارجيش العرب بعد ذلك النصر كافيا لحصار (بابليون) لا يعوقه عائق من التضييق عليه، بعد أن قضى على جيش الروم فلم تبق منه إلا الفلول التى لاذت بالحصن أو هامت على وجهها فى بلاد مصر السفلى. ولما بلغت أنباء نصر العرب الى الفيوم غادرها من بها من الحاميات البيزنطية ، فخرج (دومنتيانوس) عند ما علم بذلك من المدينة فى الليل وسار الى (أبو يط)، ثم نزل فى النهر بجنوده وجد هاربا الى (نقيوس) حيث الحامية البيزنطية، ولم يخبر أهل (أبو يط) بما كان منه من ترك الفيوم لأعدائه لا يدافع عنها أحد. ولما بلغ نبأ (دومنتيانوس) وهربه الى عمرو بن العاص بعث كتيبة من جنده عبروا النهر، وفتحوا مدينتى (الفيوم) و(أبويط)، وأحدثوا فى أهلها مقتلة عظيمة وأصبح ذلك الإقليم تحت الحكم الاسلامى منذ ذلك الحين.

الموَمن واصحابه تقلع وقف المركب الذى لخاصته ولم يقدر يقلع فاجتمع إليه جمع كتير فظنو انه قد وحل، فربطو فيه لبانات [حبال] وجروه بجهدهم فلم يتحرك بالجملة فمضو الى الدوكس واعلموه ذلك لانه كان ركب مع الامير، فتعجب جدا وارسى المركب الذى الامير عمرو فيه وعاد منه الدوكس ومعه جمع كتير فلما وصل الى المركب راى عنده خلقا كتيرا لا يحصى عددهم وهم لا يقدرون يحركونه، فقال لهم: اديرو مقدم هذا

ولما قضى عمرو بذلك على كل مقاومة له من الفيوم وخلص له أمرها، أرسل جنوده الى موضع اسمه (دلاص)[1]، رآه أصلح المواضع للنزول من النهر الى ذلك الإقليم، وأصبح العرب بذلك الى حين سادة النهر.

غير أن الروم كانوا لا يزالون يملكون جزيرة الروضة وهى جزيرة ذات حصون تتصل بحصن بابليون، تسير بينهما السفن والقوارب، وبقيت الأسفار على ذلك فى النهر على عادتها يكاد لا يعوقها عائق، لأن العرب لم يكونوا من أهل البحار إذا لم يحذقوا بعد تسير السفن، وكانوا فى شغل مما هم فيه من القتال والفتح فى الأرض. وعاد عمرو فأمر جرائد الخيل بالعودة اليه، وكان أنفذهم يجمعون الغنائم خلال البلاد بعد وقعة عين شمس، ثم أمر (أباقيرس)[2]

---

(١) كانت (دلاص) على الضفة الغربية للنيل فى جنوب (ممفيس) وهى الى شرق مدينة الفيوم وهى بالقبطية (تيلوج) وباليونانية (نيلوبولس).

(٢) وهذا هو (أبا كيرى) الذى جاء ذكره فى ديوان حنا صفحة ٥٥٩) وقد حار (زوتنبرج) فى ذلك الاسم فقال «وليس من المؤكد أن يكون هذا للفظ علما على شخص» ولكن كل شك قد زال عند كشف وثائق (قرة باسك) "Papyras Erzherzog Rainer: Fuhrer durch die Ausstellung" ورقم ٥٥١ منها هو خطاب من خارجة المشهور كتبه الى (أبا قيرس) حاكم (هرقليوبولس مجنا). ورقم ٥٥٨ منها مكتوب باليونانية والعربية بتاريخ ٢٥ أبريل ٦٤٣ وهو من عبدالله بن جابر الى (كريستوفوروس) و(تيودوراكيوس) ابنى (أبا قيرس) عينه. وهذا الخطاب الأخير أقدم وثيقة إسلامية فى مصر أن لم يكن أقدم ما فى العالم.

المركب الى المدينة. فلما اداروه للدخول الى المدينة
جرى اليها مثل السهم. فقال لهم: جروه الى برا
فجروه حتى انتهى الى مكانه الاول فوقف ولم
يتحرك، ثم اعادوه الى داخل فجرى، وعادو جروه
الى برا فوقف هكذا تلت دفعات، فعند ذلك قال
الدوكس لريس المركب: اصعد اليّ بقماش النواتيه
افتشه لكى انظر ما هو واعرف السبب الذى
اوجب وقوف هذا المركب دون جميع هذه
المراكب كلها: فخاف الريس الذى كان اخذ راس

حاكم دلاص أن يمد المسلمين الذين كانوا بالفيوم بالسفن لينتقلوا فيها من الجانب الغربى الى الجانب الشرقى، وكان يقصد بذلك أن يفتح كل إقليم مصر وهو الإقليم الذى كان يلى مفترق فرعى نهر النيل.

ولعل وقعة عين شمس كانت فى النصف الأول من شهر يوليه سنة ٦٤٠، وقضى العرب فى فتح الفيوم نحو أسبوعين. وعلى ذلك لم يبدأ فتح مصر السفلى (الدلتا) قبل شهر أغسطس. وكان عمرو يطمع أن يبسط يده الى هناك قبل أن يحول فيض النيل بينه وبين ذلك. وأما ماكان من أمر (جورج) حاكم إقليم مصر فأما أن يكون قد وقع فى الأسر عند فتح مدينة مصر أو أنه أذعن للعرب وخضع لأمرهم. فالحق أن الرهبة من العرب أخذت عند ذلك بقلوب الناس فى كل البلاد، ولا سيما ما كان منها على كثب من سيوفهم، اللهم إلا المواضع ذات الحصون.

غير أن مصر السفلى كانت تشقها الترع الكثيرة وكانت بعض هذه الترع لا يمكن اجتيازه خوضا، فجاء الأمر الى (جورج) أن يقيم قنطرة على الترعة عند قليوب، وقال حنا النقيوسى: «وأخذ الناس يساعدون المسلمين» وانه لمن سوء الحظ أن قول الأسقف هنا ليس بالواضح البين. غير أنا اذا قرنا ذلك القول مع سائر ما جاء فى ديوانه رأينا أن معناه لا يزيد على أن الناس قاموا بتلك المساعدة إذا أمروا بها، أى أنها لم تكن مساعدة الراغب المختار بل

القديس مرقس الانجيلى فطرح نفسه على رجلى الدوكس واعترف له بما فعله وان الراس مخبا فى قماشه فصعدو بقماشه من الخن فوجدو الراس فيه، فمضو بسرعة واعلمو الاب بنيامين بالخبر على جليته فركب لوقته واخذ معه جماعة من الكهنة واتى الى الدوكس وحدثه بالمنام الذى راه فى ليلته. فقال جميعهم: حقا ان هذه راس القديس مرقس الانجيلى. وفى الوقت الذى جا فيه بينامين البطرك الى المركب واخد الراس الطاهره

عمل المجبر المضطر. وفى الحق أنا لو أنعمنا النظر لرأينا فى قول الأسقف نفسه ما يدل على ذلك دلالة واضحة فانه بعد أن قال إن العرب فتحوا المدينتين الكبيرتين (أتريب) و (منوف) وملكوا ريفهما وبسطوا سلطانهم على إقليم مصر كله، قال«انهم لم يكفهم هذا بل أمر عمرو أن يؤتى بالحكام من الروم مجموعة أيديهم فى الأصفاد وأرجلهم فى القيود، ثم أخذ من الناس أموالا عظيمة وضاعف عليهم الجزية، وأمرهم أن يأتوا له بالأعلاف لخيله وظلمهم ظلما كثيراً» وليس من العجيب أنه بمثل هذه الشدة قضى على كل مقاومة وجعل الناس لا يعصون له أمرا.

على أن مدينة (نقيوس) ـ وكانت على الفرع الغربى للنيل ـ بقيت بنجوة من العرب بعد أن أخذوا (أتريب) و(منوف)، وذلك لأنها كانت ذات حصون قوية وأسوار منيعة، فما كانت لتؤخذ حتى يحاصرها العرب حصارا تاما، ولم يستطع العرب ذلك عندئذ إذ كانوا لا يملكون العدة للحصار ولا يتسع لهم الوقت له. وعلى ذلك بقيت (نقيوس) كأنها حلقة تصل من كانوا بحصن (بابليون) بمن كانوا فى الاسكندرية. غير أن كبار الروم الذين كانوا فيها لم يستطيعو ا البقاء بها عندما جاءتهم أنباء فتوح العرب وفوزهم، فهاجروا الى العاصمة ولم يتركوا فى المدينة إلا (دومنتيانوس) فى قلة من الناس للدفاع عنها، وبعثوا الى (داريس) فى سمنود يأمرونه أن يحفظ ما عنده من البلاد التى بين فرعى النيل. وعند ذلك زاد الخوف

واطلقه فاقلع المركب لوقته اقلاعا مستقيما، فعلم
هو والدوكس وجميع الشعب صحة الخبر وشاهدو
هذه الأعجوبة ومجدو الله ودفع الدوكس للبطرك
مالا كتيرا وقاله له: ابن بيعه القديس مارى مرقس
واساله السلامة لنا. وعاد الاب البطرك الى المدينة
والراس فى حضنه يحملها والكهنه قدامه بالقرا
[القراءة] والتسبيح كما يشاكل [يستاهل]
استقبال تلك الراس الشريفة الجليله، وصنع تابوتا
من خشب الساج وقفلا عليه وجعل الراس فيه،

وذعر الناس، وغلب الرعب كل بلاد مصر، فأخذ الخلق يفدون افواجا من كل حدب الى الاسكندرية تاركين أرضهم وبيوتهم وما فيها من زرع وضرع ومتاع.وبذلك خرج أهل مصر من عهد المقوقس (قيرس) واضطهاده الذى عصف بهم عشر سنين الى عهد آخر من الخوف والفزع.

ولكن عمرا لم يكن عند ذلك ليستطيع أن يسير الى الشمال فى أثر تلك الأفواج الهاربة، فان النيل كان اخذا فى مده يعلو به الماء علوا سريعا فى أواخر شهر أغسطس، فأصبحت البلاد لايمكن السير فيها، وكان فوق ذلك لا يريد أن يخلف وراءه ذلك الحصن العظيم حصن (بابليون) بغير ردء من جنوده يدرأ عنه، واذا هو شاء أن يجعل من جنوده ردءا كان لابد له أن يخلف جانبا عظيما من جيشه ، فلا يبقى له بعد ذلك من الناس من يقدر بهم على فتح الاسكندرية. فلم يكن له مفر من أن يعمد بعد ذلك الى فتح حصن (بابليون).

حصن بابليون

بقى من حصن بابليون الى نحو أوائل القرن العشرين مايدل على ماكانت عليه هيئته وعظمة خطره. وكان الفضل للقبط فى حفظ تلك البقية إذا أجتمعت لهم كنائس عدة فيه منذ أول عهد المسيحية، لأنهم وجدوا وراء أسواره منعة لهم فى أيام المحنة والشدة، وكانت كل

وكان ينتظر زمانا جيد فيه السبيل الى بناء بيعه.
وكان اهتمامه ليلا ونهارا فى اعادة اعضا البيعه
التى تفرقت فى ايام هرقل، لا يشغله شى عن ذلك
وهو ممتلى من الامانه ومن الروح القدس ونعمة
الروح القدس التى كانت مع اتناسيوس الرسولى
كانت معه فى كلامه وافعاله، وعلى يديه
وبصلواته تراف الرب على شعبه، وبطلبته بدت
عمارة ديارات وادى هبيب والمنى. وكانت اعمال
الارتدكسيين الصالحة تنمو، وكانت الشعوب

أسوار الحصن للقبط إلا ما كان منها للملكانيين وهو موضع كنيسة (مارجرجس)، وإلا ما كان منها لليهود وهو موضع يعتهم.

وقد سبب اسم (بابليون) ارتباكا كبيرا لكتاب العرب، وبقى ذلك الاسم الى اليوم ولكنه لايطلق على الحصن نفسه، فاسمه الآن «قصر الشمع» بل يطلق على دير صغير على مسافة قليلة من الحصن نحو الجنوب وهو (دير بابليون). وكان اسم الحصن باللغة القبطية فى وقت الفتح (بابلون ـ آن ـ خيمى) ومعناه (بابليون مصر) فكان من السهل تحريفه فى اللغة العربية لأن أول جزء منه «باب» ويمكن أن يفهم أن الجزء الثانى منه مضاف الى الأول. ومهما يكن من أمر العرب وتحريفهم لاسم الحصن فقد ظل كتاب أوربا فى القرون الوسطى يطلقون على ذلك الموضع اسم (بابليون) وليس اسم مصر، وحفظوا تلك التسمية الى ما بعد بناء القاهرة، فصاروا يطلقون على مدينة مصر اسم (بابليون) ويسمون حاكمها (سلطان بابليون).

وبعد فلنا كلمة أخرى فانه لم يرد لنا إلا القليل من أخبار ما كان فى داخل الحصن من البناء فى وقت حصار عمرو له، ولكنا نعرف أنه قد كان به مقياس للنيل بقيت آثاره الى أيام المقريزى[1] وكذلك نعرف أن بعض مابقى به الى اليوم من الكنائس كان عند ذلك قائما

(١) وقال عن ديرالبنات فى قصر الشمع «وكان هناك مقياس النيل قبل الاسلام ولا تزال توجد آثار منه الى يومنا هذا» (نقله أبو صالح عن الخطط فى ذيل الكتاب صفحة ٣٢٥).

فرحين مثل العجول الصغار اذا حل رباطهم واطلقو على لبان أمهاتهم.

فلما عاد عمرو الى مصر خرج منها الى معونه كبيرهم وانفذ الى مصر عوضه رجل يسمى عبدالله بن سعد(*) فوصل ومعه خلق كثير وكان محبا للمال فجمع له بمصر أهرا. وهو أول من بنى الديوان بمصر وامر ان يستخرج [يجمع] فيه جميع خراج الكوره.

(*) هو عبدالله بن سعد ابنى أبى سرح ات: ٦٥٧م] كان قد صحب عمرو بن العاصى عند غزو مصر ثم تولى مصر سنة ٢٥هـ= ٦٤٥م= ٣٦٢ قبطية: بعد عزل عمرو بن العاصى، فأستمر ١٢ سنه، مات بعسقلان فجأة بعد أن انضم إلى معاوية سنة ٦٥٧م = ٣٧هـ.

تصلى به جنود الروم، نضرب لذلك مثل الكنيسة الكبرى كنيسة (أبو سرجة)، ولعل منها كذلك كنيسة (المعلقة) نراها اليوم بعد أن مضى عليها من الدهر ثلاثة عشر قرنا[١].

حصار حصن بابليون وفتحه

عاد عمرو منذ أوّل شهر سبتمبر إلى حصن بابليون وجهز نفسه لكى يضيق عليه الحصار، وكان العرب قد غنموا بعض آلة الحرب فى غزاة الفيوم ومن حصن تراچان فى منوف.

(١) الظاهر أنه لا محل للشك فيما يخص أبا سرجة. على أنه عندما كتبنا كتاب «Coptic Churches» لم نجرأ على أن نذهب إلى أن شيئا من هذه الأبنية قديم مثل هذا القدم وقد ذكر (أبو سرجة) حوالى سنة ٦٩٠ فى كتاب أميلنو «Vie du Pat. Isaac» صفحة ٤٦ ونعلم كذلك من القطعة التى وجدت عن حياة بنيامين أنه كان عند الفتح أسقف لحصن بابليون وأسقف لحلوان وهذا دليل قوى على كثرة عدد الكنائس فى هذه الجهة، وقد كتبت لوحة ذكر فيها أن المعلقة قد افتداها القبط من عمرو. على أن الكنيسة وان وجدت يشك الانسان فى أنها كانت على ما هى عليه الآن فوق الباب الرومانى فان الأسوار الخارجية ليست رومانية فى شىء وجزء من الكنيسة قائم على أسوار بناؤها يجعل استعمال الباب غير ممكن وعلى ذلك فهى مبنية بعد الفتح العربى وقد أخطأ الواقدى إذ قال إن (دير بولص) وهو قصر الشمع وبه المعلقة ودير بولص الذى ذكره وهو لا بدّ الدير الصغير الواقع خارج الحصن واسمه (دير بولص) قائم على غور بين الأطلال التى فى جنوب الحصن.
وتوجد بالحصن بيعة لليهود كانت فى الأصل كنيسة مسيحية ترجع إلى ما قبل الفتح وهى ذات دلالة عظمى. ولقد هدمها اليهود حديثا ليقيموا محلها مكانا آخر لعباداتهم وقد هدم اليهود كذلك جانبا عظيما من السور.

وحدث فى ايامه غلا عظيم لم يحدث مثله من زمان اكلوديس الملك الكافر والى ايامه، وانحدر كلمن فى الصعيد الى الريف فى طلب الغله وكان الموتى مطروحين فى الشوارع والأسواق مثل السمك الذى يرميه الما [ء] على البر لا يجدون من يدفنهم، واكلو بعضهم بعضا. ولو لم يتراف الرب بكثرة رحمته وصلاة ابينا بنيامين القديس ويزول ذلك الغلا بسرعة كان قد فنى كل يوم من الناس ربوات لا يحصين. لكن الرب قبل صلاة

ولا خلاف بين مؤرّخى العرب أجمعين فى أن المقوقس كان بالحصن عند ابتداء الحصار، وكان تيودور كذلك بالحصن قبل وقعة عين شمس. ولا ندرى اذا كان قد حضر الوقعة بنفسه أم لم يحضرها، ولعله كان هناك ثم لحق بالهاربين بعد الهزيمة ولاذ بالاسكندرية. وعلى ذلك كان (قيرس) القائد الأكبر فى الحصن وهو خليفة هرقل على مصر، ولكن القائد الذى كان يدبر أمر الجنود هو من يسميه العرب (الأعيرج) ولعل ذلك تحريف منهم لأسم (جورج). ولو كان الأمر كذلك لكان هذا الرجل خلاف الحاكم (جورج) الذى أمره عمرو أن يقيم له جسرا على ترعة قليوب. وكان فى الحصن كل الجنود التى كانت تحت إمره جورج تبلغ الخمسة آلاف أو الستة آلاف لا يمكن أن تزيد على ذلك كثيرا، وكان بالحصن كثير من الأزواد والذخائر من كل نوع، وكان قد اجتمع به عدد عظيم من غير الجند من أهل مدينة مصر والأديرة المجاورة، ولكن أغلب الظن أن هؤلاء أخرجوا عن طريق النهر ليوسعوا على الجنود. ويجدر بنا هنا أن نذكر أن كل الكنائس التى كانت فى داخل الحصن كانت تؤمها قسوس على المذهب (الخلقيدونى) أو الملكانى، ولم يبح لأحد هناك أن يتعبد على غير ذلك المذهب، فان قيرس كان لا يزال على عهده العدوّ الأكبر لمذهب القبط، وبقى على ذلك إلى آخر أمره. وإن فى وجوده بالحصن لأقوى دليل إذا احتاج الأمر إلى دليل على أنه لم يبق بالحصن من

البطرك ورحم شعبه واشبعهم من خيراته وافتقد ميراته بصلاحه، كما هو مكتوب: ان اعين الكل اليك ناظره ترجوك لتعطيهم طعامهم فى حينه واذا اعطيتهم يعيشون ومن الطيبات يشبعون.

وكان القديس بنيامين معه انسان مملو نعمة وحكمه وديع مثل الحمام اسمه اغاتون كان قسا فى الكنيسة وهو من اهل مريوط وكان فى زمان هرقل يتزيا بزى العلمانيين فى مدينة اسكندريه

القبط إلى من أزالهم الاضطهاد عن عقيدتهم. بل إن الروم أساءوا الظن ببعض هؤلاء فوضعوهم فى السجن وأنزلوا بهم فيه نكالا فظيعا.

ومن ذلك نعرف أن مؤرّخى العرب ومن قال قولهم إنما يمسخون الحقيقة ويقلبونها قلبا إذ يقولون إن جند الحصن أو كل من كان به كانوا من القبط. فان القبط لم يكونوا فى شيء من القتال ولا الجيوش، وكان الاضطهاد فى مدّة السنوات العشر قد شطر مذهبهم وفرقهم، فكان منهم من ذهبوا أفرادا وجماعات فهربوا الى الجبال والكهوف أو أووا الى الصحراء أو لاذوا بالأديرة الحصينة فى الصعيد. وأما أقباط مصر السفلى وبابليون والاسكندرية فقد اضطروا الى الدخول فى مذهب الدولة ولم يغن عنهم شيئا ما كان فى قلوبهم من كره لما دخلوا فيه. وقد كتب مؤرّخو العرب بعد الفتح بقرون فكانوا يذكرون جيوش المصريين وقوّاد المصريين لا يميزون بين القبط والروم، فكثرت من ذلك زلاتهم وعظم خلطهم.

كان المقوقس آمنا الى حين فى قصره المنيع تحيط به مياه النيل. ولكن ما كانت تلك الحال لتبقى فان الماء فى الخندق كان لابد له أن يهبط بعد حين.

فما مضى شهر من الحصار حتى جمع (قيرس) من وثق بهم من رؤوس الحرس ودعا معهم أسقف بابليون الملكانى، واستشارهم سرا فى الأمر وبسط لهم رأيه. وكان ذلك فى أوائل شهر

ويطوف فى الليل يثبت الارتدكسيين المختفين
ويقضى حوايجهم ويعطيهم من السراير المقدسة.
واذا كان بالنهار حمل على كتفه قفة فيها [الآت]
النجارين ويظهر أنه نجار يعطيهم من السرار
ويصبرهم ويعزيهم. فمكث هكذا عشر سنين إلى
حين ظهور المسلمين فلما عاد المغبوط بنيامين الى
كرسيه بسلام جعله معه مثل ابنه فى تدبير البيعه
المقدسه. ولحق الاب المغبوط بنيامين مرض فى
رجليه معما [مع ما] انتهى إليه من الشيخوخه،

أكتوبر سنة ٦٤٠ ؛ وقال لهم إن الدورة فى الحرب كانت عليهم فقضى أعداؤهم على أكبر جيوشهم، ثم أتوا لحصارهم بما لا قبل لهم به، من قوم أكثر منهم عددا وأشدّ فى الحرب بأسا. وقال إنه لا يتوقع أن يأتى اليهم مدد يرفع عنهم الحصر قبل مضى أشهر، وإذا كان الحصن يستطيع المقاومة والصبر وهو أمر لاشك فيه، فان عقبى الحرب كانت كذلك لا شك فيها، وما كانت تلك العقبى إلا وبالا عليهم. ومنذ كان الأمر كذلك كان خيرا لهم أن يفدوا أنفسهم بالمال فيعطوا اعداءهم منه ليرحلوا عنهم، فاذا هم استطاعوا ذلك وأمكنهم أن يبعدو العرب عن البلاد بمال يبذلونه لهم كان فى ذلك كل الخير، إذ يخلصون مصر فتعود الى دولة الروم.

رأى المجتمعين على أن يذهب قيرس وأصحابه تحت ستار الليل إلى جزيرة الروضة بغير أن يحس بهم أحد، ويبعثوا الى قائد العرب بما أرادوا فيفاوضوه ولم يطلع على الأمر مطلع(١).

ولما بلغ جزيرة الروضة أرسل إلى عمرو جماعة كان منهم أسقف (بابليون) فلقيهم عمرو وبعد أن قراء رسالتهم قال لهم: «ليس بينى وبينكم إلا احدى ثلاث خصال إما أن دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا وان أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيبتنا وهو أحكم الحاكمين».

---

(١) جاء فى المقريزى أن الآراء مختلفة فى وجود (جورج) مع المقوقس ويقول السيوطى إنه بقى فى الحصن أوّلا ثم لحق بالمقوقس.

فاقام بهذا المرض سنتين حتى سالوا [سألوا] فيه القديسون ان يخرجه الله من سجن هذا العالم المملو احزانا وان ينقله اليهم فى الموضع الذى لا حزن فيه ولا كابه، والمملو فرحا فى كورة الاحيا، فقبل دعاهم واخذ اليه تلتة أشخاص وهم اتناسيوس الرسولى، وساويرس، وتاودسيوس البطاركه. فحضرو نياحته وكانو قدام نفسه الشريف والملايكه المقدسون يحملونها على اجنحتهم الطاهره صاعدين بها الى السما بالمجد

فاجتمع عند ذلك المقوقس بصحابه فقالوا: «أما الأمر الأوّل فلا نجيب إليه أبدا فلن نترك دين المسيح إلى دين لا نعرفه» وبذلك أبوا شرط الإسلام فلم يبق إلا الجزية عن يد وصغار أو الحرب. قالوا: «فانا إذا أذعنا للمسلمين ودفعنا الجزية لم نعد أن نكون عبيدا والموت خير من هذا».

مالت نفس المقوقس (قيرس) إلى الاذعان؛ فقد كان وقع فى قلبه أن المسلمين لابد منتصرون فذهب ذلك بجرأته وقوّة نفسه. ولكن المسيحيين لم يكونوا جميعا على ما كان عليه بطريق الاسكندرية الرومى، ويلوح لنا أن (جورج) قائد جنود الحصن أتى عند ذلك فلحق بالمجتمعين، ولقى المقوقس من أصحابه عزما شديدا على القتال ورفض ما كان يراه من الإذعان. وهنا ينسدل ستار على الحوادث كما يحدث فى كثير من الأحيان فى تاريخ هذا العصر. فلم يبق لنا إلا أن نتلمس ما كان ونتحسس أخباره من وراء ذلك الستار.

ويظهر لنا أن كبار الروم عندما اختلف رأيهم على قبول شروط العرب أو رفضها طلبوا أن يهادنهم العرب شهرا ليروا فيه رأيهم، فأجابهم عمرو جوابا قاطعا إذ قال إنه لن يمهلهم أكثر من أيام ثلاثة. غير أن عمل المقوقس لم يلبث أن ذاع بين الناس، فلما رجع أصحابه إلى الحصن عائدين من الروضة إذا بالناس قد ثار ثائرهم على المقوقس، وأبى جند الإمبراطور إلا القتال، وظهر أمر الذين كانوا يأبون الإذعان، واستقر الأمر على هذا سريعا، فما انتهت أيام

والكرامه واصوات التسبيح والتمجيد بين ايديها حتى وصلت الى كورة القديسين كما يدخل العريس الى خدره والملك الى قصره، فمضى الى تسبيح مالكه، بعد ان اتم جهاده واكمل سعيه وحفظ امانته ولم يهلك واحدا من قطيع رعيته، فى التامن من طوبه بعد ان كان بطركا تسعا وتلين سنه وهو حافظ الامانه لابس اكليل النفى من عند السيد المسيح الذى له المجد مع الاب الرحوم وروح القدس المحيى امين وذلك كما راى فى تكريز بيعة القديس الجليل أبو مقار الذى بنيت فى وطا



حصن بابليون.
نسيفساء من فترة الاحتلال البيزنطى.

الهدنة الثلاثة حتى أخذ أهل الحصن يتجهزون للخروج إلى المحاصرين يناجزونهم، ولم يبعثوا ردا إلى عمرو. وفيما كان عمرو فى اليوم الرابع بعد انتهاء الهدنة يفكر فيما يصنع إذا بالروم قد خرجوا اليه فوق قناطرهم، غير أن العرب تواردوا اليهم منذ نذروا بهم فتكاثروا عليهم، فما استطاعوا إلا أن يتراجعوا حتى دخلوا إلى الحصن بعد أن قتلت منهم مقتلة عظيمة.

أما المقوقس فانه مازال رأيه من الاذعان والتسليم للعرب مستقرا فى قلبه. ورأى فى انهزام الروم فرصة له إذ أن من عصوه ونبذوا رأيه احتكموا إلى السيف. ورأى المقوقس وهو خليفة الامبراطور على مصر أن النصر على هؤلاء العرب لن يتأتى له، وزادته تلك الهزيمة الجديدة يقينا أنه لن يستطيع طرد العدوّ من البلاد. ثم رأى من كانوا يعصون رأيه وينادون بالقتال قد ضعفت نفوسهم، فلم يلق منهم بعد عصيانا، وأذعنوا له مرغمين جاهمين، على أن يعيد الكرة على عمرو فيبعث إليه فى أمر الصلح.

فعقد الصلح على أن يبعث به إلى الامبراطور فاذا أقره نفذ، وأخذ قيرس على نفسه أن يبعث به إلى هرقل. واتفق الروم والعرب على أن تبقى الجيوش حيث هى إلى أن يجئ رد هرقل، ولا سيما الحصن فقد اتفقا على أن يبقى مع الروم إلى أن يقرّ هرقل الصلح.

ولقد احتار المؤرخون فى موقف المقوقس من الغزو العربى ولم يتمكنوا من كشف حقيقة

الصخرة فيما بين القلالى، ورأى القديس ابو مقار فى وقت التكريز وهو قايما بين اولاده بفرح عظيم وخاطبه السارافيم [الملاك] من اجله وقال له: هذا ابو مقار اب البطاركه والاساقفه. وراى ايضا يد السيد المسيح المخلص فى وقت التكريز يمسح الهيكل بالميرون المقدس. وكانت اعجوبه فى ذلك النهار، وهو أن واحد ارخن وله ولد عليل فحضر به الى البيعة المقدسة لياخذ بركة الاب القديس ابو مقار، فظهر القديس للصبى وشفاه من مرضه. وحدث الاب البطرك بجميع ما راه وان السارافيم

موقفه، حتى ان بتلر فى كتابه «فتح العرب لمصر» اتهمه بالخيانة وبانه كان قد وطد نفسه على تسليم مصر للعرب.

ونحن هنا لا يمكننا، بعد استقراء الاحداث، إلا أن نطرح وجهة نظرنا فى هذا الأمر، فنقول: ان المقوقس، وهو من الجند القوقازى المرتزق والذى تمكن من الوصول إلى أرفع المناصب الدينية فى بلاده، وقع عليه اختيار الامبراطور هرقل ليحكم مصر جامعاً فى يده السلطتين الدينية والإدارية للتوفيق بين مذهب الكنيسة القبطية ومذهب الكنيسة البيزنطية، معتقدا أن تركيز السلطتين فى يد المقوقس سوف يسمح له بإحكام يده على مصر خاصة وانها كانت خارجة فى التو من تحت يد الاحتلال الفارسى.

ولكن المقوقس رغم كل هذه المجد الذى منحه له الامبراطور فى مصر كان يطمع فيما هو أكثر من ذلك، خاصة وان الظروف المحيطة بمصر والفوضى التى كانت تعم الامبراطورية وهجوم العرب على الشام واستيلائهم عليها كشفت له عن مدى ضعف الامبراطورية من هنا اتت المقوقس فكرة ان يمالئ العرب ويستقل بمصر عن الامبراطورية البيزنطية ويقبل بحماية العرب فى مقابل أن يُسهل لهم احتلال مصر. والشواهد على ذلك كثيرة منها:

١ـ انه صاحب فكرة تسليم العرب لمصر ودفع الجزية.

اخبر أبينا الاب بنيامين بانتقاله فى مثل ذلك النهار الذى هو التـامن من طوبه وكـان كـذلك صـلاته تكون مـعنا امين] . قـال انبـا اغـاتون: ان الذين عقولهم فى السما يضوون بمجد الله الذى هو ابو النور ومـحبـة الله الروحـانيـة تكون فـيـهم كـمـا هو مكتوب. دوقو وانظرو ان الرب طيب. كذلك الاب بنيامين البطرك معلم الارتدكسيه الذى عرف تفسير الكتب وسكن البريه وظفر بسراير كتيره لانه اقما [قمع] جسده وقطع شهواته لاجل محبة السيد المسيح الاهنا الذى هو فوق الكل، فاما انا الخاطى

٢ـ انه ظل قائماً بمصر رغم عزله من الامبراطور حتى توفى بالاسكندرية ممنيا نفسه بجنى ثمار تحالفه مع العرب.

٣ـ انه حـاول فى أخر ايامه اصـلاح عـلاقتـه مع القبط لهـدفين، الأول قبـولهم له كـحـاكـم، والثانى قبولهم له كبطرك، بعد القضاء على بنيامين الذى كان مختفيا من الساحة منذ حوالى عـشـر سنوات، خاصـة وانه كـان من دعـاة التـوفـيق بين الكنيـسـة القـبطيـة والكنيـسـة البيزنطية. وهذا سر قول سعيد بن بطريق (وهو البطريرك افتيخوس الملكى) فى تاريخه ، بان المقوقس كان يعقوبيا فى الباطن ولكنه كان فى الظاهر ملكيا.

٤ـ كما لا نستبعد أن العرب قبلوا بذلك فى وقتها كما حدث وقبلوا من الحاكم الفارسى على اليـمن الذى قـبل بحكم اليـمن تحت سلطة العـرب مـقـابل ان يجـمع لهم الجـزية من اليمنيين.

سـافـر المقـوقس عند ذلك مـسـرعـا فى النهـر حـتى بلغ الاسكندرية، وبادر بأن بعث إلى الامبراطور كتبا يبين فيها ما كان منه، ويعتذر عنه بأن الحاجة ألجاته إلى ما لجأ اليه من صلح العرب، ويسأله أن يقرّ الصلح حتى يكفى مصر شر الحرب ووبالها. وليس بعجيب أن يكون هرقل قد حار فى أمر تلك الكتب التى جاءته من المقوقس، فانها لا تبين إذا كان الصلح خاصا بحصن بابليون، أو أنه كان صلحا على ترك بلاد مصر جميعها حتى الاسكندرية للعرب، ولا

اغاتون فكنت ولد الاب بنيامين وعرفت كثيرا من فضايله لملازمتى معه، وقال لى ما راه من السر العظيم ظاهرا فى تكريز الهيكل المقدس الذى للأب الجليل ابى مقار بوادى هيب وما رتبه من القوانين والطقوس. فمن ذلك قوله لى: لما كنت فى مدينتى اسكندريه ونجيت زمانا بسلامه وخلاص من الاضطهاد ومن محاربة المخالفين، وحضر يوم عيد ميلاد السيد المسيح فى التامن والعشرين من كيهك ونحن مجتمعون فى بيعة السيد الطاهره مرتمريم ام النور التى تدعى «اسطوا

تبين هل يبقى العرب فى البلاد بعد أخذ الجزية، أو يرحلون عنها. فهل كان معنى ذلك الصلح نزع مصر من دولة الروم وإسلامها لأعداء المسيحية؟ لقد كان الامبراطور منذ شهور يلوم قوّاده ولا سيما (قيرس) خليفته على مصر لأنهم فرطوا فى الأمر، حتى استطاعت فئة قليلة من العرب أن ترفع ألويتها فى مصر وتغلب جيوش الدولة. فاذا به وقد بعث اليه بصلح ليس يدرى هل معناه رشوة العدوّ بمال يأخذه على أن يخرج عن تلك البلاد، أم معناه إسلامها له فيبقى ذلك العدوّ سيد الأرض يجبى له خراجها ويتنعم بقمحها وبخيراتها. عجب الامبراطور ولم يدر ما الذى أدّى إلى ذلك الاذعان وعزم على أن يدعو (قيرس) المقوقس ليحاسبه على ما كان منه فى مصر.

فبعث اليه رسالة يأمره فيها بأن يأتى اليه على عجل. ولعل ذلك كان فى وسط نوفمبر. ولم تكن الرسالة مما يطمئن اليه القلب. ولعل المقوقس قد أحس بما أجرم وخشى العاقبة منذ جهز فى نفسه ما يقوله لمولاه إذا هو حاسبه. فلم يكن لأحد سواه علم بما أدّى من أمانته وما أختان منها، ولا بما اتبع من أوامر مولاه بنصها أو بالمقصود منها. ولكن هرقل ثارت ثائرته وعظم غيظه واتهم المقوقس بأنه خان الدولة وتخلى للعرب عنها. ثم حكم عليه بأنه مرتكب جرم، ما كان دونه إلا الموت جزاء ذنبه. ثم شرع يقرعه ويؤنبه على ما كان منه قائلا إنه لم

انجالون» قد عملنا صلوات كتيره بمحضر من جماعة الكهنه ومقدمى المدينه وجميع الشعب الكبار والصغار لنعيد للسيده العدرا التى ولدت الله الكلمه المتجسد بالحقيقة فى العالم رب الارباب وملك الملوك الذى يحق له المجد مع الاب والروح القدس الاله الواحد، ونعيد ايضا فيه للسيد المسيح الابن الوحيد الذى تجسد وصار انسانا وولدته الطاهره العدرا فى بيت لحم يهودا مسيحا واحدا غير مفترق، فرايت رهبان قد دخلو الى وسط الشعب ومنهم كهنه من برية القديس ابى مقار

يكن أكثر غناء من بعض فلاحى مصر، ونعته بالجبن والكفر وأسلمه الى حاكم المدينة فشهره وأوقع به المهانة ثم نفاه من بلاده طريدا.

ولابد أن رفض الامبراطور للصلح كان فى هذه الأثناء قد بلغ العرب وهم فى حصار الحصن، قرب نهاية عام ٦٤٠؛ وانتهى بذلك أمر الهدنة وعاد القتال، وكان النيل عند ذلك يهبط سريعا وهبطت بهبوطه المياه التى فى الخندق، وكلما هبطت خبت معها آمال من فى الحصن إن لم تخب شجاعتهم. فلما فرغ الخندق من مائة استعاض الروم عنه بأن رموا فى قاعة حسك الحديد، وجعلوا ذلك الحسك كثيفا عند مدخل أبواب الحصن ولابد قد كان المسلمون لقاء ذلك يسعون إلى طم الخندق وهدم جوانبه فيه حتى ينفذوا منه.

غير أننا لا نعلم إلا قليلا مما كان فى أثناء ذلك الحصار، فلا نجد غير ذكر الترامى بالالات والضرب بالدبابات وخروج جنود الحصن إلى العرب وهجوم العرب على من بالحصن، ولكن يلوح لنا أن العرب لقوا شيئا من المساعدة فى ذلك الحصار من جماعة لعلهم من أهل الفيوم بعد فتحها، وكانوا أحابيش من الحزبين الأخضر والأزرق فكانت عصبة من الحزب الأخضر يقودها(ميناس)، وأخرى من الأزرق يقودها (كزماس بن صمويل) تعبران النهر ليلا إلى الروضة فتنهبان فيها، أو تهبطان على ما قد يكون بالنهر من سفن الروم أثناء عبورها إلى الحصن أو

وعليهم سكينه ووقار كأنهم من الملايكه فلم يقدرو
يصلون لى من كثرة الشعب، فتقدم الى احد
الكهنه وعرفنى بدخولهم فقلت له: قد رايتهم.
وامرته فاستدعاهم فلما دنوا منى استعلمت منهم
سبب مجيهم ووصولهم. فقالو: جينا اليك
قاصدين نسال ابوتك بمطانوه من اجل الله ان
تتكلف مشقه الطريق الى الدير فى الجبل المقدس
وادى هبيب مسكن ابينا ابى مقار الكبير لتكرز
البيعه الجديده التى بنيت له فى وطا اسفل الصخره
فيما بين القلالى لن [لأن] كثيرا من الشيوخ

رسوّها إلى جانب الباب الحديدى، فكانت هذه الغزوات تؤذى حامية الحصن أذى كبيرا وتنقص من هيبة الروم وسلطانهم فى النهر.

ولما مضى الشتاء قل خروج الروم من الحصن وقتالهم للمسلمين، فى حين كثر هجوم المسلمين على الحصن وزاد شدَة، واشتدّت وطأة القتال على الروم وخارت قواهم عن الدفاع. على أن حصونهم مازالت على عهدها لم يصدع الحصار منها إلا قليلا. ثم فتك المرض بأهل الحصن[1] فقل عددهم ولم يأتهم المدد، يتطلع حراسهم وهم فوق صروحهم إلى ما حولهم من الآفاق فلا يجدون أثرا يلوح من رماح الروم ودورعهم طالعا من بين قباب الأديرة البيضاء التى تملأ السهل فى شمال الحصن.

وكان النهر عند ذلك قد هبط وجفت الأرض، وإذا كان ثم أمل فى قدوم جيش من الروم لإمداد الحصن فقد كان ذلك وقته وتلك فرصته.

ومر اليوم بعد اليوم ولا شئ يبشر أهل الحصن ولا كتاب يدخل إلى قلوبهم الرجاء. فلم تبلغهم إلا أنباء سوء وشوم. فقد بلغهم نبأ غضب هرقل على المقوقس، ونقضه لأمر الصلح

---

(١) جاء ذكر هذا المرض فى كتاب ياقوت ولنا أن نصدّق هذا الخبر مع أنه مقرون بخبر آخر لا يمكن تصديقه وهو أن عدد الذين قتلوا داخل الحصن بسهام المسلمين كان ١٢,٣٠٠.

والضعفا سكان قلالى بعيده من الما [ء] ويتعبون
اذا صعدو الى فوق، وانعم علينا يا ابانا وتحمل
التعب لتاخذ الابا الرهبان بركتك لانهم كلهم
مشتهون لنظر قدسك. فلما سمعت هذا منهم
قلت لهم بمسكنتى بفرح: اترى حقا يجعلنى الله
مستحقا لهذا الامر. فاقامو حتى كملنا العيد ذلك
اليوم وغده الذى هو تسعة وعشرون يوما من
كيهك، ثم قلت لك يا اغاتون ولقزما الكاتب
رفيقك: اهتمو لنا بحاجات المسير الى وادى هبيب
لنتبارك من الاب ابى مقار ومن الاخوه الرهبان.

وحكمه عليه بالنفى، ولكن لم يبعث الامبراطور أحدا من جنوده اللذين كان بهم معجبا، ولم تغن عن الحصن شيئا أوامره التى بعث بها إلى فؤاده.

غير أن الروم المحاصرين مازالوا يعللون النفس بالآمال إلى أن سمعوا يوما تكبيرا عاليا فى عسكر المسلمين، وذلك فى أوائل شهر مارس سنة ٦٤١. فلما استطلعوا الأمر عرفوا أن هرقل قد مات. فخارت عند ذلك نفوسهم [١]» وحسبنا بقوله هذا دليلا على ما أحدثه موته من الأثر فى جند مصر. وأما العرب فقد زادهم نبأ موته شدّة وجرأة وضاعف من همتهم فى فتح الحصن.

ولكن قد بقى الحصن بعد ذلك شهرا لا يسلم، فلما أبطأ الفتح قيل إن الزبير أقبل مع جماعة يقودهم لفتح الحصن بعد أن أعدّ لذلك الأمر عدّته. وكان الخندق قد طم جزء منه استعدادا للهجوم، ولم يعق العرب عن ذلك دفاع أهل الحصن، وكانوا يفتك بهم اليأس والمرض. ولكن ساعة الهجوم بقيت سرا: فلما جاء وقتها أقبل الناس سراعا تحت جنح

(١) عن السيوطى وهو يأتى بالتاريخ المخطئ أى سنة ١٩ للهجرة ثم يذكر التاريخ الصحيح رواية عن الليث وهو عام ٢٠ للهجرة(٦٤١ للميلاد) وقد مات هرقل فى ١١ فبراير سنة ٦٤١ أى قبل بدء حصار الاسكندرية بشهور ويخطئ المقريزى نفس الخطأ ولكنه يقول«واستأسدت العرب عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الاسكندرية».

ففعلنا ذلك وقدمنا مسيرنا فى اليوم التانى من طوبه
فلما وصلنا الى تروجه تلقانا أهلها بفرح عظيم،
ثم وصلنا برية المنى التى لابا اسحق عند جبل
برنوج ففرحو بنا ايضا الاخوه الذين هناك واقمنا
يومين وودعونا وسار بعضهم معنا ليدلونا على
الطريق الموديه الى البريه والى الجبل، وكانو
قديسين فضلا، فوصلونا الى غايه بريه جبل
النطرون، ثم توجهنا الى دير برموس،
ومكسيموس، ودوماديوس. ونزلنا بيعة القديس
ايسيدورس واقمنا هناك يوما واحدا، ومضوا الاخوه

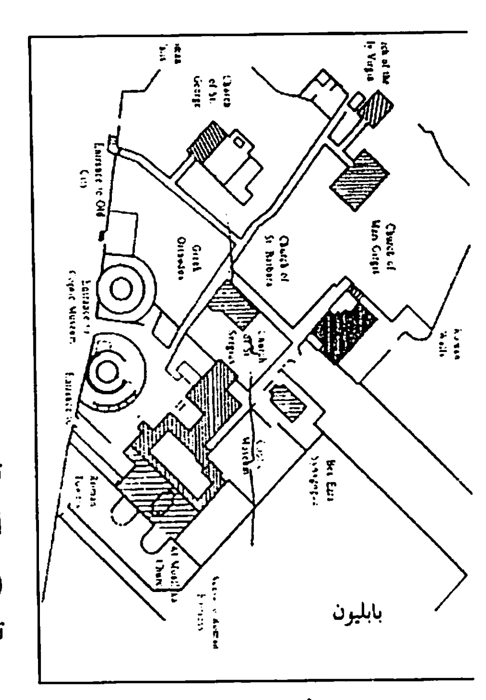
الليل(١)، ووضع الزبير سلما على السور ولم يفطن اليه أحد(٢)، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر وسيفه في يده.

وهكذا اجتمع كبار جند الروم على عجل فى أول الصباح الباكر فسألوا عمرا الصلح،

(١) اليعقوبى هو المؤرخ الرحيد الذى يذكر أن الهجوم كان بالليل.

(٢) ليس من السهل أن نعرف فى أى موضع وضع سلم العرب فان المقريزى وأبا المحاسن يذكران أنه كان بقرب الموضع الذى كان معروفا فى أيامهما باسم«سوق الحمام» ويقول ياقوت إنه كان بقرب الموضع الذى بنى فيما بعد«بيت أبى صالح الحرانى» بقرب حمامات «أبى نصر السراج» بجوار السو ق المتقدم الذكر. ويقول ابن بطريق إنه كان بجوار سوق الحمام ثم يقول إنه كان فى الجانب الجنوبى من الحصن وهو تفصيل يتفق مع ما قاله البلاذرى فان هذا المؤرخ بعد أن وصف مجئ الزبير وهو بالطبع آت من الشمال يقول إنه وضع السلم على«الجانب الآخر» أى الجنوبى ولكن الموضع المسمى«سوق الحمام» كان فى الغالب جزءا من مدينة الفسطاط وقد زالت الآن زوالا تاما والظاهر لنا أن الهجوم كان على مقربة من الركن الجنوبى الغربى من الحصن ولا تزال الأسوار هناك قائمة.
ولا شك فى هذه الحادثة فى نظرنا فالبلاذرى يذكر أنه عند اختطاط الفسطاط بنى الزبير لفسه بيتابها فورثه ابنه وقال انه لا يزال فيه السلم الذى صعد عليه الحصن(وذلك فى القرن التاسع). ويقول ياقوت إنه يقال إن سلم الزبير كان محفوظا فى منزل بسوق وردان حتى احترق المنزل فى سنة ٣٩٠(حوالى سنة ١٠٠٠ للميلاد).
ويذكر ياقوت سلما آخر ويقول إن شرحبيل بن جحيرة المرادى صعد عليه فى موضع بقرب«شارع الزمارين» ولكن هذه الدلالة قد ضاعت مع مدينة الفسطاط.

الرهبان الذين كانوا اتونا الى مدينة اسكندرية فاعلموا رهبان دير أبى مقار بوصولنا وبقى عندنا اتنان من كهنتهم مع الاخوه الذين صحبونا من المنيا، فخرج إلينا بعض الرهبان وتوجهنا فى اليوم السابع من طوبه الى بقية الديارات وتباركنا منها، وتوجهنا الى دير القديس أبى مقار فلما قربنا منه تلقانا رهبان شباب بزعف [سعف] النخل فى ايديهم وبعدهم شيوخ فى ايديهم مجامر البخور وجماعة الكهنة يقررون مثل الملايكة متشبهين بمن تلقى السيد المسيح من أورشليم يوم الشعانين.



وعرض (جورج) قائد الجند فى الحصن أن يسلم على أن يأمن كل من هناك من الجند على أنفسهم. فقبل عمرو منهم الصلح وخالفه الزبير خلافا شديدا فى ذلك، وقال له إنه كان على وشك أن يفتح الحصن عنوة، وقال «لو صبرت قليلا لنزلت من السور إلى داخل الحصن ولكان الأمر على ما نشتهى». ولكن عمرا لم يلتفت إلى ما قاله وكتب عهد الصلح على أن يخرج الجند من الحصن فى ثلاثة أيام، فينزلوا بالنهر ويحملوا ما يلزم لهم من القوت لبضعة أيام، وأما الحصن وما فيه من الذخائر وآلات الحرب فيأخذ العرب كل ذلك[1] ويدفع أهل المدينة للمسلمين الجزية.

(١) كان من أصعب الأمور أن تؤلف قصة لفتح بابليون فان خبر صعود الزبير أسوار الحصن جاءت أوّلا من ابن عبدالحكم ولكن مؤرّخى العرب غيروها وبدلوا فيها حتى خرجوا بها إلى حدّ السخف فيقول المقريزى إن الروم قد هربوا عندما سمعوا صياح المسلمين وفتح الزبير الباب فدخله العرب فخاف المقوقس وعرض الصلح ودفع الجزية. على أن المقوس لم يكن هناك عند ذلك وليس من المعقول أن يفاوض فى الصلح لو فتح الحصن عنوة. وقد روى أبوالمحاسن القصة على هذه الصورة عينها والسيوطى مثلهما فى الخلط فانه يذكر أن المسلمين لما دخلوا الحصن أرسل المقوقس إلى عمرو يعرض عليه الصلح ولكن الرواية التى ذكرناها هنا مأخوذة عن الطبرى وانها لواضحة وقريبة إلى الذهن فلسنا نتردّد فى قبولها ولو أن ذلك المؤرّخ قد خلط فى كثير من أخبار الغزو. ويجدر بنا أن نذكر أن المؤرّخين متفقون على أن مدّة الحصار كانت سبعة أشهر فى حين أنهم يختلفون فى ذكر التسليم ويخلطون بينه وبين تاريخ الصلح الذى عقده (قيرس) ولم يقره الامبراطور. وعلى ذلك يجعل ذلك التاريخ فى وقت فيضان النيل.

وجعلو يعطون ضعفى ما لا استحقه. وكان معهم
المعلم الكبير بسيليوس أسقف نيقيوس فمجدنى
السيد المسيح إذ جعلنى مستحقا دفعة اخرى ان
انظر هذه البـــرية الجليلة وهولا الأبا والاخـــوه
القديسين واظهار الامانة الأرتدكسيه وخلصنى من
اضطهـاد المخـالفين ونجى نفـسى من التنين العظيم
المطغى الطارد لى لجل الأمانة المستقيمة، ووهبنى
ان أشاهد اولادى دفعة اخرى وهم محيطون بى.
ثم ســاير جـميع الكهنه والاخـوه الرهبان امامى
الى ان دخـلت الـبيعه المسيحيه المستجده

وكانت حملة العرب الأخيرة على الحصن فى يوم الجمعة السابق لعيد الفصح وذلك فى السادس من أبريل سنة ٦٤١ وكان خروج الروم منه فى يوم الاثنين وهو عيد الفصح. وفى مدّة تلك الأيام الثلاثة جمع الروم السفن من جزيرة الروضة ووضعوا فيها المؤونة وأخذوا فى التجهز للهبوط فى النيل إلى مصر السفلى (الدلتا) والاسكندرية.

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن كبار الروم لم يتعظوا بما كان ولم ترق قلوبهم لما نزل بهم من ذهاب أمر المسيحيين فى مصر، ولم تقع فى نفوسهم حرمة ليوم الفصح الذى خرجوا فيه، فبقيت فى صدورهم العداوة والشحناء المذهبية لم يذهب منها شىء. وقد ذكرنا من قبل أنهم سجنوا فى أوّل الحصار كثيرا من القبط الذين كانوا فى الحصن، وذلك لأنهم أبوا أن يتركوا دينهم أو لأنهم رابهم منهم أمر. فلما جاء يوم الفصح الذى كان فيه الخروج من الحصن جعله الروم يوم وقعة ونقمة من هؤلاء المسجونين التعساء، فسحبوهم من سجونهم وضربوهم بالسياط وقطع الجند أيديهم، أمرهم بذلك كبيرهم (اودوقيانوس). ولا عجب مع هذا أن نجد حنا النيقوسى يسبهم فى ديوانه حانقا ويسميهم «أعداء المسيح الذين دنسوا الدين برجس بدعهم وفتنوا الناس عن إيمانهم فتنة شديدة لم يأت بمثلها عبدة الأوثان ولا الهمج، وعصوا المسيح وأذلوا أتباعه. فلم يكن فى الناس من أتى بمثل سيناتهم ولو كانوا من عبدة الأوثان».

فـصـرت كـانى قـد دخلت الفـردوس مـجـمع الملايكه ومــســرة القــديسين ومــوضع راحــة الصــديقين. واذكنا بغـداة اليـوم التـامن من طــوبة فـقلت: ايتـونى بالقس أغـاتون الذى تعب مـعى عـلى الأمانة فى زمان الشدايد الـتى لحقتنى عند مطاردة المــقوقس عدو الحق لضعفى، فلما اتيتنى قلت لك: يا ولدى اخــرج الكتب التى تصلح للتكريز. فاخـرجتهـا لى ثم بدأنا الصلاة ومعى أبا باسيليوس اسقف نقيوس وكل الكهنة محيطون بى وجميع الرهبان كما قد رأيت، فبينما انا كذلك إذ

مصر السفلى
(أو أسفل الارض)
فى القرن الرابع الهجرى أو العاشر الميلادى

الموقع التقريبى للبلاد التى لا يعرف موقعها بالضبط

رايت شيخا على وجهه نور عظيم وضو ساطع فشخصت اليه وتاملته وقلت فى نفسى هذا يصلح ان يجعل اسقفا ليرعى شعبا كتيرا، فان اراد الرب إذا خلا كرسى جعلته عليه لن [لأن] هذا الشخص رجل قديس يصلح لهذا الأمر. فبينما انا مفكر فى هذا إذ رأيت سارافيم قد ظهر لى وله ستة اجنحة وهو قايم الى جانبى فقال لى: يا اسقف لماذا انت مفكر فى هذا الشيخ هذا أبو مقار أبو البطاركة والأساقفة والرهبان الذين فى هذه البرية قد حضر لتكريز هذه البيعة. فبهت اليه

ويصف الأسقف المصرى أنين أولئك الأسرى الذين مثل بهم وبكاءهم إذ يساقون مطرودين من الحصن يشيعهم السباب. وأنه ليس بغريب مع ذلك من مثل الأسقف المصرى أن يقول إن فتح الحصن للمسلمين لم يكن إلا عقابا من الله على ما فعله الروم من الأفاعيل فى القبط، ولو أن مثل هذا القول ليس مما يصح فى الأذهان. على أن ذلك الأمر له معنى إذ يدل على ما كان بين شيعتى المذهبين المسيحيين من عداوة لا تحل عقدتها، بقيت فى قلوبهم لم تخب ولم تخمد نارها مع ما ظهر من ثمار اختلافهم وعواقب تخاذلهم من فوز الاسلام وعلوّ أمره.

السير الى الاسكندرية

انتهى حصار بابليون فى اليوم التاسع من أبريل سنة ٦٤١ بعد أن لبث سبعة أشهر، وهذا أمر قد ورد جليا فى أخبار العرب. على أن جل مؤرّخيهم إن لم يكونوا كلهم يخلطون الصلح الأخير الذى سلمت به الروم الحصن بعد أن نفى المقوقس من مصر، بالصلح الذى حدث قبل ذلك فى أوان الفيضان بعد بدء الحصار ببضعة أسابيع، وهو الذى عقده المقوقس ولم يقرّه الامبراطور.

ولكن الصلح الذى أبرم عند بابليون لم يكن إلا عهدا حربيا، ولم يكن عقدا سياسيا. فقد رضى فيه عمرو بأن يشترى الحصن ويدفع ثمنا له تأمين من كانوا فيه، وخروجهم منه بغير أن يسلموا أو يدفعوا الجزية، وانما دفع الجزية من بقى. وإذ كان ذلك العهد لا يمس إلا مدينة

وتاملتــه وهو قــايم بين اولاده بفــرح عظيــم وكــان صوت ذلك السارافيم يطن فى مسامعى وقد خفت منه. ثم قال لى : ان سلكوا اولاده الطريق المستقيم الذى سلكه فسيدخلون معه الى موضع الملك ويفرحون معه، ومن خالف وصاياه لم يكن له معهم نصيب بل يطرد من القطيع و لا يكون له معه ميراث. فقال له القديس أبو مقار: تختم يا سيدى عل اولادى بهذا القول لانه إذا وجد فى العنقود حبه واحده لا يتلف لان بركة الله فيه فانا ايضا اومن بالمسيح حبيب نفسى انه إذا وجد فى

مصر والحصن فقد كانت الجزية قليلة ومؤقتة، فقال مؤرّخ إنها كانت دينارا لكل من جنود العرب ولباسا[(١)]، وكانوا فى أشدّ الحاجة إليه.

ولكن هذا الصلح أحدث فى دولة الروم أثرا كبيرا، مع أنه لم يكن إلا صلحا مقصورا على جماعة صغيرة. وسبب ذلك مكانة ممفيس أو بابليون ، فإنها وإن لم يبق لها المحل الأوّل فى البلاد إذ مضى عليها زمن طويل وليست هى عاصمة البلاد، كانت لا تزال ذات شأن عظيم إذ كانت باب إقليم الصعيد وإقليم مصر السفلى. وكان حصنها منيعا لا يكاد ينال، فإذا هو وقع فى يد عدوّ دانت له بلاد الصعيد جميعا وهابته بلاد مصر السفلى فى الشمال. ولسنا ندرى ماذا كان قوّاد الروم يصنعون طول مدّة الشتاء وما الذى حملهم على أن يخلوا ما بين المسلمين وبين الحصن حتى استطاعوا على مر الزمن أن ينزلوا من فيه. ولكنا نعلم حق العلم أن الروم ضعفت قوّتهم وخارت عزيمتهم عندما فتح العرب ذلك الحصن، فى حين أن العرب زادوا قوّة وجرأة، وأصبح فى يد عمرو ملك الفرما وبلبيس وأتريب وعين شمس. فكان باسطا سلطانه على الجانب الشرقى كله من مصر السفلى، فلما دان له الحصن صار سلطانه ثابتا

(١) يذكر المقريزى حديثا لابن وهب نقلا عن عبدالرحمن بن شريح جاءت فيه هذه العبارة وهى قريبة الى الأذهان. وكانت الملابس عبارة عن جبة وبرنس وعمامة وخفين فاذا قلنا إن عدد العرب كان عند ذلك قد نقص الى ١٢,٠٠٠ أمكن أن نفسر ما ذكره بعض الكتاب من أن الجزية قد بلغ قدرها ١٢,٠٠٠ دينار ويخطىء من يقول إن هذا هو مجموع الجزية التى فرضت على مصر جميعها وسبب ذلك أن اسم مصر يطلق كما هو حادث فى كثير من الأحوال على القطر كله فيسمى باسم المدينة.

اولادى وصية واحدة وهى المحبه بعضهم لبعض او
يرفعون اعينهم الى السما الى السيد المسيح ولو
دفعة واحده فى كل يوم فالرب لا ينساهم من
رحمته بل ينجيهم من عذاب الجحيم الابدى لان
الرب محب البشر قد جعل للخاطى التوبه وليس
يريدى موت الخاطى الى ان يرجع ويتوب فيقبله .
فلما سمعت كلام القديس أبى مقار مع السارافيم
عرفت محبته لولاده. وتفسير اسم الاب ابى مقار
«المكرم من الله ومن الناس الطوبانى» هذا هو
«الشبكه» التى تجمع من كل جنس الى ملكوت

على مجمع النهرين، وجمع فى يده أزمة وادى النيل الأوسط، وتم له بذلك الشطر من فتح مصر.

وكان عمرو شديد الرغبة فى أن يسير جنوده نحو الاسكندرية، بعد أن طالت مدّة إقامتهم بالعسكر فى مصر. وكان يعرف أنه لن تمرّ ثلاثة أشهر حتى يكون النيل قد أخذ يعود إليه مدّة وفيضه، فكان الوقت دونه غير متسع وفى ضياعه مضيعة وخسارة، فأرسل الى عمر بن الخطاب يصف له ما كان ويستمدّه. على حين شرع يدبر أمر المدينة التى فتحها وما حولها من إقليمها. وأخذ يرمم بناء الحصن وجعل فيه قوة مسلحة من المسلمين عليهم خارجة بن حذافة السهمى. وما كان أعظم سرور عمرو إذ رأى نفسه على ظهر جواده مرة أخرى يسير مع جيشه إلى الاسكندرية وقد جعلوا الحصن وراء ظهورهم وساروا نحو الشمال يتبعون شاطىء الفرع الغربى للنيل.

ولا شك أن أول ما قصد اليه عمرو فى سيره نحو الإسكندرية كان مدينة نقيوس (شمشير الحالية)، وكانت مدينة [1] ذات شأن عظيم وحصنا ذا منعة وقوّة، وهى على الشاطىء

---

(١) إن اسم وردان الذى لا يزال محفوظا فى قرية على الجانب الغربى للنيل إذا أضفنا إليه ما جاء فى المقريزى من الأخبار بدا لنا أن عمرا سار أوّلا على الجانب الغربى للنيل فى مسيرة إلى نقيوس . حقا إن هذا الطريق كان قليل العقبات وأسهل سيرا من الأرض التى بين فرعى النيل وهى تعترضها الخلجان والترع ما دام عمرو واثقا من أنه يستطيع عبور النيل عند العتريس أو بنى سلامة. وقد قال المقريزى «وكان عمرو حين=

الله اعنى الاب ابا مقار تلميذ الله، الرب، فقلت بحيث يسمعنى من هو قريب منى: طوباك يا ابا مقار وطوبى لطقسك وطوبى لولادك اذ استحقو ان تكون لهم شفيعاقويا امام موضع حكم الله محينا اذ اتى ملكنا والاهنا يسوع المسيح فى ظهوره التانى ليجازى كل احد كاعماله، بالحقيقة يا ابا مقار السفينه العظيمه الحامله الانفس الكتيره المودية بها الى مينا السلامه والخلاص والشفيع لجميعنا كما قال داود فى مزمرره: طوبى للرجل الذى لم يسلك فى موامرة المنافقين وفى طريق

الشرقى لفرعى النيل الغربى الذى هو فرع رشيد، على مسيرة يوم من حصن بابليون، وعلى ساعتين من مدينة منوف، وكانت منوف إذ ذاك فى ملك العرب. وكانت نقيوس فوق عظمتها مدينة قديمة بها الآثار الجليلة من أيام الفراعنة، وكانت مقر أحد كبار رؤوس الدين المسيحى، ولها مكانة حربية كبرى فى حفظ الطريق بين حصن بابليون والاسكندرية. فكان لابد للروم أن يجتمعوا هناك مرة أخرى للقاء العرب.

والظاهر أن عمرا ابتدأ سيره أولا على الضفة الغربية للنهر من ناحية الصحراء، ففيها مجال أوسع لخيله لا يعوقها هناك ما يعترض مصر السفلى من الترع الكثيرة. وكان الروم على توقع أن يفعل ذلك فلا قوّة هناك، وكان أوّل ما التحموا بجيشه عند مدينة قديمة معروفة وهى (طر نوتى) أو (طرنوط)، أو كما يسميها العرب (الطرانة). وكان فى تلك المدينة فرضة يعبر النيل عندها فى الذهاب الى الاسكندرية، وفيها كذلك بدء الطريق المؤدّية الى أديرة القبط فى صحراء وادى النطرون. فكان لابد للروم على ذلك من أن يقفوا وقفة فى الدفاع عنها.

=توجه إلى الإسكندرية خرب القرية التى تعرف اليوم بخربة وردان واختلف علينا السبب الذى خربت لأجله. فحدّثنا سعيد بن عفير أن عمرا لما توجه إلى نقيوس عد إلى وردان لقضاء حاجته عند الصبح فاختطفه أهل الخربة فغيبوه ففقده عمرو وسأل عنه وقفا أثره فوجدوه فى بعض دورهم فأمر باخرابها وإخراجهم منها (وقيل كان أهل الخربة رهبانا كلهم فغدروا بقوم من صحابة عمرو ووجه اليهم وردان فقتلهم وخربها فهى خراب إلى اليوم).

الخاطين لم يقف، وعلى مجالس المستهزين لم يجلس(*). انت المجاهد بالحقيقة الملك، طوباها البطن التى حملتك وولدتك في العالم، اذكرنى يا قديس الله الحقيقى. فقلت لى أنت يا أغاتون وقال لى اسقف نيقوس: لمن تخاطب يا أبانا فقلت لكما انا اخاطب ابا مقار ابا هذا الجبل لانه زمان كلام وزمان سكوت. وانا صعدت الى الهيكل وقلت صلاة الميرون وتناولته لا نقط على الهيكل المقدس، وسمعت صوتا يقول: تأمل يا اسقف، فلما نقطت الميرون على الهيكل رأيت يد السيد

(*) انظر المزمور الأول.

فقاتلوا العرب هناك[1] وأبلوا بلاء حسنا غير أنهم انهزموا واستطاع عمرو أن يستأنف السير الى مدينة نقيوس.

وقد مر بنا أن مدينة نقيوس على الشاطىء الشرقى للنهر على مقربة من الموضع الذى تتصل فيه بالنيل الترعة التى بين أتريب ومنوف. وكان عمرو لا يستطيع أن يتركها على جانبه ويسير عنها، إذ هى حصن منيع. فعبر النهر اليها حتى إذا ما فتحها عاد الى الغرب وواصل السير، وكانت تلك فرصة دون القائد الرومانى (تيودور) إذا أراد المناجزة، ولكنه لم يغتنمها فلم يخرج للعرب بنفسه فى عامة جيشه، بل أرسل القائد الجبان الضعيف (دومنتيانوس) ليذود عن نقيوس، وبعث معه كتيبة ضعيفة. وكان عند (دومنتيانوس) كثير من السفن قد أعدّها لكى يدافع بها عن المدينة، أو لكى يهبط بها على جيش عمرو فى أثناء عبوره للنهر، وكان عمرو لابدّ له من عبور النيل اذا فتح المدينة، واذا هو فشل ولم يفتحها كان أغلب الظن أنه يحاول العبور. غير أن قائد الروم عندما رأى المسلمين على كثب منه خانه جنانه، وترك

(١) قد ذكر ياقوت هذه الوقعة وقال إن عمرا حارب الروم فى وقعة عند (طرنوط). وقد أخطأ المقريزى خطأ غريبا فى ذلك الأمر فانه عندما ذكر سير عمرو من بابليون الى الاسكندرية قال (الجزء الأول صفحة ١٦٣ طبعة بولاق) «فلم ير أحدا حتى بلغ مريوط فلقى فيها طائفة من الروم» ثم قال بعد بضعة اسطر من ذلك إن عمرا بقى فى مريوط فى حين كانت طلائعه عند كوم شريك! ويمكن أن يصحح ذلك الخطأ بأن نجعل (طرنوط) محل (مريوط) وهو الصحيح. وهذا الخطأ يوضح لنا نوع الخطأ الذى يضلل التاريخ من جراء تحريف الكتاب أو النساخ الذين يجهلون وصف البلاد.

المسيح المخلص على الهيكل تمسح الهيكل فنالنى لذلك خوف عظيم ورعده كما رايتنى ولم تعلم انت ولا الحاضرون سبب ذلك ولا ما رايته وسمعته. ثم قلت مع الاب يعقوب: ان هذا الموضع مخوف وهذا بيت الله بالحقيقة وهذا هو باب السما وموضع راحة العلى. قال اغاتون القس: فى هذا الوقت نظرنا اليه وهو كالنار ووجهه يشرق بالنور فلم يستطع احد منا يكلمة بلفظة بل كنا باهتين له. فقال الأب: بنيامين: هذه مظلة الاب

جيشه وسفنه ولاذ فى سفينة هاربا نحو الإسكندرية. فلما رأى الجنود أن قائدهم يفرّ عنهم ذلك الفرار وضعوا سلاحهم وهبطوا إلى الترعة سراعا[1]، وقد أذهلهم الخوف، يريدون أن يقتحموها أو يبلغوا السفن فيها. ولكن عدوى خوفهم أعدت نوتية السفن فلم يأبهوا لشىءإلا سلامتهم، فحلوا سفنهم مسرعين وهبطوا بها إلى الشمال يطلبون النجاة، فعمد كل منهم الى قريته. وعند ذلك طلع العرب على جنود الروم وهم فى الماء بغير سلاح فقتلوهم عن آخر، فلم ينج منهم إلا رجل اسمه (زكريا) بدت منه شجاعة عظيمة عند ذلك، ولعل نجاته كانت لما بدا منه من الشجاعة. ثم دخل العرب المدينة من غير مقاومة إذ لم يكن فيها جندى واحد يقف فى سبيلهم، ومع ذلك فقد أوقعوا بأهلها وقعة عظيمة.

ثم انتشروا فيما حول نقيوس من البلاد فنهبوا فيها وقتلوا كل من وجدوه بها، فلما دخلوا مدينة (صوونا) وجدوا بها (اسكوتاوس) وعيلته وكان يمت بالقرابة الى القائد (تيودور)، وكان مختبئا فى حائط كرم مع أهله، فوضعوا فيهم السيف فلم يبقوا على أحد منهم. ولكن يجدر بنا أن نسدل الستار على ما كان فإنه لا يتيسر لنا أن نسرد كل ما كان من المسلمين من المظالم بعد أن أخذوا جزيرة نقيوس فى يوم الأحد وهو الثامن عشر من شهر (جنبوت) فى السنة الخامسة عشرة من سنى الدورة» ويقع ذلك التاريخ فى اليوم الثالث عشر من شهر مايو سنة ٦٤١.

(١) هذا الوصف يدل على أن الترعة كانت فى شمال نقيوس ويثبت أن موضع نقيوس هو شبشير.

والابن والروح القدس ودار الهيكل تلت دفعات وهو يقول الليلويا. ثم زمر مزمور [٨٤] قايلا: ما احب مساكنك يارب القوات تاقت نفسى واشتاقت الى ديار الرب... مذابحك يا رب القوات ملكى والهى. وكمل قول المزمور إلى اخره، فلما كمل تكريز القبه خرج الى البيعة يكرز حيطانها وعمدها ثم عاد وجلس فى القبه فقال لنا: لقد مضى بى اليوم الى فردوس رب الصباوت وسمعت اصواتا لاينطق بها ولا تخطر على قلب

وقد كانت نقيوس معقلا من معاقل الدين القبطى، ولا شك أن أناس كانوا مع ما نزل بهم من الاضطهاد لا يزالون على عقيدتهم يضمرونها فى قلوبهم، ولو أظهروا الخروج منها تقية لما نالهم من عسف قيرس. وكان العرب فى وقعتهم لم يفرقوا بين قبطى ورومى، وليس فيما وصلنا من أخبار ذلك لفظ واحد يدل على أن القبط كان لهم شأن آخر فى معاملة العرب. وكذلك ليس من شك فى أن الشقاق والاضطراب قد دهما البلاد واجتاحاها كما يجتاح الطاعون الأرض، فلم يمض طويل زمن حتى عمت الفوضى واندلع لهيب الحرب الأهلية بين أهل مصر. فكان ذلك ضغثا على أبالة فانقسمت مصر السفلى الى حزبين: حزب مع الروم، وحزب يريد أن يتفق مع العرب. ولسنا ندرى اذا كان الفارق بين ذينك الحزبين فارقا من جنس أو من مذهب أو من تشيع سياسى. على أننا نرجح الرأى الأخير.

ولما فتحت مدينة نقيوس[١] وتفرّقت السفن الرومانية التى كانت بالنيل هناك، أصبح الطريق خاليا من العقبات دونهم اذا شاءوا السير الى الاسكندرية. وكان جيش الروم عند ذلك يقوده (تيودور) ويتراجع به شيئا فشيئا نحو تلك العاصمة.

وسار عمرو يدفع العدوّ أمامه، ولعله سار إلى الشمال الغربى على جانب الترعة التى تلى الصحراء حتى بلغ الدلنجات، ومنها سار إلى الشمال فى أتجاه دمنهور. فوجد الروم يعترضون

(١) لا يعرف المؤرّخون العرب شيئا عن هذا الحادث وهم يمرّون عيه بغير ذكر شىء عنه. وأما موقعة نقيوس التى جاء ذكرها فى كتاب ياقوت فهى الموقعة التى حدثت فى أثناء ثورة منويل.

بشر كما قال الرسول بولس الحكيم فصدقونى
يااخوه فانى رأيت اليوم مجد المسيح قد ملا هذه
القبه ونظرت بعينى الخطيتين الكف المقدس،يد
السيد يسوع المسيح المخلص العالية، تمسح ما يده
[مائدة] هذا الهيكل المقدس، وشاهدت اليوم
السارافيم والملايكه وريسا الملايكه وجميع قوات
العلى القديسات يسبحون الاب والابن والروح
القدس فى هذه القبه، ورايت ابا البطاركة
والاساقفه ومعلمى البيعة الارتدكسيه قايما فيما

سبيله عند سنطيس[١]، وهى على ستة أميال فى جنوب دمنهور. ووقعت هناك وقعة شديدة انهزم فيها الروم وتقهقروا أمام العرب. ولم يحاولوا أن يقفوا لعدوّهم فى دمنهور أو يملكوها، بل تدافعوا نحو الشمال فانتهى بهم الانهزام الى الطريق الأعظم المؤدّ إلى الاسكندرية، فعبروا الترعة وكانت عند ذلك لا يكاد يوجد بها شيء من الماء، ثم ساروا حتى أظلهم حصن (كريون) بعد مسيرة نحو عشرين ميلا. وكانت مدينة (كريون) آخر سلسلة من الحصون بين حصن (بابليون) والإسكندرية وكان لها شأن عظيم فى تجارة القمح سوى ما كان لها من خطر عظيم فى الحرب، إذ كانت تشرف على الترعة التى عليها جل اعتماد الإسكندرية فى طعامها وشرابها. ولكن حصونها لم تكن فى المنعة على مثل ما كان عليه حصن بابليون ولا ما كان عليه حصن نقيوس، مع أن الروم رمّموا حصونها وزادوها قوّة. ومهما يكن من الأمر فقد عوّل (تيودور) على أن يقف هناك وقفته الأخيرة، ولم يكن فى وسعه أن يختار مكان أليق من ذلك. فكانت حصون المدينة تساعد الجنود وتشدّ أزرهم، وكان جنوده أكثر عددا من العدوّ،

---

(١) جاء اسم هذا الموضع فى المقريزى هكذا (سلطيس) وجاء ذلك الاسم فى ترجمة ابن بطريق هكذا (Salstan) وهو تحريف ظاهر وقد قال (Weil) عند ذكره ذلك الاسم سلطيس انه لابد أن يكون (سمياتيس) أو كما زعم (Ewald) أنه (سنطيس) ولا شك أن الاسم الأخير هو الصحيح وسنطيس قرية كبيرة فى نحو منتصف المسافة بين كريون وكوم شريك.

بيننا هاهنا فى وسط الاخـوة اولاده بفـرح، اعنى الاب ابا مقار الكبير. حقا ان هذا الهيكل تحت كرسى ضباط الكل هذا الهيكل هو الذى ذكره اشعيا النبى اذ قال: يكون لله بارض مصر مذبح ودكه وخمس قرى يتكلمن بالكنعانيه، قوموا الان يا اولادى نكمل القداس ونغتنم بركة الابا ونمجد الله تعالى. قال اغاتون القس، قال لى الاب البطرك: فلما كملت الخدمه الالهية وقربت الكهنه رأيت ايضا نعمه عظيمه لا يجب ان اخفيها عنك،

وكانت الترعة تحميهم من بين أيديهم، وكان الطريق من ورائهم يفضى الى الاسكندرية ومن السهل عليهم حفظه.

وقد قاتل جنود الروم فى هذا الوقت قتالا شديدا حتى شهد بذلك مؤرخو المسلمين أنفسهم، ولم يخذلهم ما أصابهم من قبل من النكبات من سقوط بابليون ونقيوس فى يد عدوّهم، ولا ما حل بهم من خيانة بعض قوّادهم أو جباتهم. ولم يكن الروم فى قلة إذ أتتهم الأمداد من وراء البحر من (قسطنطينية)، وكان قائدهم (تيودور) غير متهم فى شجاعته ولا إقدامه فى القتال، غير أنه لم يكن قائدا ذا رأى فى الحرب. وقد عرف الناس جميعا فيما يحيط بذلك الموضع كما عرف الجنود الذين كانوا بالاسكندرية أن ذلك اليوم، يوم كريون، له ما بعده، فأتت الكتائب تترى من كل مكان الى لواء الروم من سنطيس ومن مدائن أبعد منها، مثل (خيس) و(سخا) و(بلهيب)[1]. ولم تكن تلك الوقعة قتال يوم انجلى عن مصير (كريون)، بل كان قتالا شديدا استمر بضعة عشر يوما.

(١) نقلنا هذا عن البلاذرى (صفحة ٢١٠) وهو يجمع القبط والروم فى معركة كريون. أما سخا فهى بين فرعى النيل على نحو عشرين ميلا فى الشمال الغربى من سمنود ولا نستطيع أن نجد موضعا فى خرائط مصر الحديثة يشبه اسم بلهيت (أو بلهيب كما جاء فى ياقوت وهو أصح) الموضع كان معروفا وحدثت فيه ثورة للقبط سنة ١٥٦ هجرية وقد بحث كاترمير فى موضعها وهو يبين أن ابن حوقل يجعلها على ست (ساكات) الى الشمال من سنديون على نهر النيل عند ملتقى فرع صغير بفرع رشيدفاذا جعلنا (الـ (ساك) نحو ميل وربع كانت بلهيب (كما جاء فى كاترمير) على مقربة من (منطوبس كما يسميها هو)=

فلما تقدم. الشيوخ الى القربان رأيت دخان بخور يصعد كالعطر من افواههم حتى ظننت ان كل واحد من اوليك الابا الرهبان يحمل بخورا عند تقدمه الى القربان، ثم انفتح سقف البيعه فصعد منه ذلك العطر وتاملت افواههم ودعاهم عند دنوهم من القربان فرأيت الكلام يخرج من أفواههم والبخور يخرج من أفواههم صاعدا الى السما فتحققت حينيذ [حينئذ] انه دعاهم وصلاتهم التى يقولونها عند اخذهم السراير

ولكن الفتح أبطأ عليهم . ويلوح لنا أن تلك الوقعة لم تكن نصرا لاحدى الطائفتين بل تساوت فيها الكفتان، ولكن مؤرّخى العرب يقولون إنها كانت نصرا عظيما للمسلمين. ومهما يكن من الأمر فلا شك فى أن المسلمين لاقوا نصرا بعد قتالهم فى تلك الأيام العشرة، وذلك أنهم استطاعوا أن يفتحوا مدينة كريون وحصنها وهزموا الروم عنها. ولا نستطيع أن نقول شيئا عما حدث بعد ذلك فى ارتداد تيودور. فلا ندرى أكان ارتداد جنوده انهزاما لا يلوون فيه على شىء حتى بلغوا أبواب الاسكندرية، أم كان تقهقرا وئيدا فى نظام. على أن ديوان (حنا النقيوسى) يشتم منه بأن التقهقر كان وئيدا وهو قول لا يتهم صاحبه.

ولابدّ قد خسرت الطائفتان كلتاهما فى ذلك القتال بين الطرانة وكريون خسارة كبرى.

ولما فتح العرب كريون خلا أمامهم الطريق الى الاسكندرية.

=ولكن الاسم الموجود على خريطة الدومين هو (مطوبس) ومن الظاهر أن بلهيب كانت على الجانب الغربى للنهر وليست على الشرقى وقد زال الفرع الصغير من زمن طويل وصار موضعه مستنقعا ولكن هناك قرية صغيرة اسمها (ديبى) فى الموضع المطلوب ولعل هذا الاسم صدى للاسم القديم (بلهيب) وهى عند ثنية النهر على نحو عشر أميال أو اثنى عشر ميلا الى جنوب رشيد وقد أخطأ ميلنو اذ قال إن الملتقى الذى ذكره ابن حوقل كان قديما عند مدينة (ديروط) فان ديروط قريبة من (سنديون) ولو أنها على الناحية الأخرى من النهر ولعل أميلنو لم يحسن قراءة كاترمير. وكانت خيس فى جوار دمياط، ويذكر ياقوت (فرطا) أو (قرطا) بين البلاد التى قاومت عمرا ثم يقول ان عمرا صالح (بلهيب).

المقدسة التى هى جسد ودم الرب يسوع المسيح الطاهر. ورأيت الملايكه يتسلمون صلواتهم تلك ويصعدونها امام كرسى الرب، فمن عظم داعهم وصلواتهم قلت حقا ان هذه المنارة الذهب التى عليها المصباح والجوهره الثمينه وكوكب الصبح المشرق المضى على كل المسكونه، سبحت بتسبحة التلتة فتيه حنانيا، عزاريا، وميسايل، التى قالوها فى اتون النار الموقد: مبارك انت يارب الاه ابابنا ومسبح وممجد الى الابد ومبارك بالحقيقة

مضى عند ذلك أكثر شهر يونيه ولم يكن قائد العرب بالرجل الذى يخادع نفسه عن المدينة ويعلل نفسه باستطاعة فتحها عنوة. فقد علم حق العلم أنه لن يستطيع أخذها بالهجوم، وإنما كان واثقا من شيء واحد، وهو أن أصحابه إذا خرج لهم العدوّ وناجزهم القتال صبروا وثبتوا وغلبوه، وإن كان أكثر منهم عددا. وعلى ذلك عوّل على أن يخلف فى عسكره جيشا كافيا للرباط، وأن يسير هو مع من بقى من الناس فيضرب بهم فى بلاد مصر السفلى، قبل أن يتعذر[١] على المسلمين السير بها إذ كان فيض النيل يقترب أوانه. وكان الروم قد هاجروا من حول الإسكندرية فصارت قصورهم البديعة ومنازلهم الجليلة فيما وراء أسوار المدينة فينا للعرب، فغنموا منها غنيمة عظيمة وهدموا كثيرا منها ليأخذوا خشبها وما فيها من حديد، وأرسلوا ذلك فى سفن بالنيل إلى حصن (بابليون).

ولم تكن السرية التى سار بها عمرو بن العاص فى مصر السفلى سرية كبيرة، فما كان يتوقع كيدا كبيرا ولا قتالا شديدا اللهم إذا عند البلاد المحصنة، ولم يكن فى الوقت متسع لحصارها لو شاء. وكان عمرو إنما يريد جمع الاسلاب والغنائم لنفسه وجنوده ومن سار معهم من البدو وغيرهم ثم القفول الى (بابليون)، ولكنه أحب أن يعلم أهل مصر السفلى بقربه

(١) لعلنا لا ينبغى أن نمرّ على عبارات مؤرّخى العرب فى قبط هذا العصر بغير أن نقول كلمة فيه. فقد قال ابن عبدالحكم إن القبط ساعدوا العرب فى كل ما احتاجوا اليه وان رؤساء القبط حفظوا الطر ق وأقاموا لهم الجسور وفتحوا الأسواق فى سيرهم الى الاسكندرية.

الرب الاه هولا القديسين الذين استقامة العالم بهم وبامثالهم هذا مجمع الملايكة ومينا كل الانفس الذين هربو الى الله منجى كل الانفس. ثم مجدت وشكرت الرب يسوع المسيح الذى جعلنى مستحقا ان اشاهد ما رأيت. ولما نمت فى تلك الليله رايت وقد وقف امامى رجل منير وقال لى: استيقظ يا أسقف وقم لترتب قوانين هذه البيعة وهذه القبة معا ليحترز كل احد فى سلوكه فيها من قس وشماس بصبر تام وسكون صالح لأن

ويشعرهم شوكته. فسار إلى كربون ومن ثم الى دمنهور ثم سار إلى الشرق يجوس خلال الإقليم الذى يعرف اليوم باسم الغربية، حتى بلغ (سخا). وكان ذلك الموضع الى شمال المدينة الحديثة (طنطا) على نحو اثنين وعشرين ميلا منها، وقد ظل الى ما بعد ذلك الوقت بزمن طويل وهو قصبة الإقليم، وكان موضعا حصينا. ولم يفلح عمرو فى تحقيق ما كان يريده من النزول على تلك المدينة بغتة وأخذها على غرة، ورأى العرب أنفسهم مرة أخرى وقد عجزوا عن أخذ مدينة تحيط بها الأسوار وتكتنفها المياه. فساروا نحو الجنوب ولعلهم اتبعوا (بحر النظام) حتى بلغوا (طوخ) وهى على نحو ستة أميال فى الشمال الغربى من موضع (طنطا). ومن (طوخ) ساروا الى (دمسيس)[1]، وقد ارتدوا كذلك عن هاتين القريتين ولم يستطيعوا فتحهما ولم يجد أهلهما مشقة فى صد العرب. ويرد مع هذه الأخبار ذكر غزوة للقرى التى على فرع النيل الشرقى، قيل إن العرب قد بلغوا فيها مدينة دمياط، ولعل تلك الغزوة كانت على يدى سرية عمرو فى هذا الوقت نفسه. ولم يكن من أمرها غير إحراق المزارع، وقد أوشكت أن ينضج ثمرها، فلم تفتح شيئا من المدائن فى مصر السفلى. ولنذكر أن العرب

(١) طوخ: يوجد فى مصر السفلى على الأقل ست قرى بهذا الاسم: طوخ الا كلام فى الدقهلية، وطوخ دلكه، وطوخ بلفطه، وطوخ طنبشا فى المنوفية، وطوخ الملك فى القليوبية، وطوخ مزيد فى الغربية؛ ولعل الأخيرة هى المقصودة هنا نظرا لموضعها. وأما (دمسيس) واسمها الآن (ميت دمسيس) فعلى نحو تسعة أميال الى شرق طوخ مزيد وهى على الجانب الشرقى لفرع دمياط.

المسيح ربنا وجميع ملايكته هاهنا، واكتب هذه القوانين تذكارا لهذه البيعه المقدسه الى الابد لأنه سياتى جيل معوج يحبون مجد الناس اكثر من مجد الله، ويدوسون هذا الموضع المقدس التى اعطاها لشعبه بالذهب ويقاومون القوانين الرسوليه، فمن اراد ان يكون له ميراث فى هذا الموضع المقدس وهو بلا مخافة من الرب ولا تجرب نفسه بديا . و يبدل مجد هذا الموضع المقدس الجليل المكروم ويكون عنده مثل مواضع البهايم فى

قضوا فى عملهم فى هذا الإقليم اثنى عشر شهرا إلى ذلك الوقت. وبعد تلك الغزاة التى أوقع وأحرق فيها عمرو البلاد وغنم منها عاد إلى حصن (بابليون) ومن معه.

تسليم الاسكندرية

حدث فى أثناء غياب قيرس فى منفاه أن ثارت بمصر فتنة بين الناس، يتقد لهيبها بين حين وحين، فثار القتال مرة بين أهل كورة مصر وأهل الكور التى فى الشمال، ثم عاد السلام بينهم بعد أحداث كثيرة، وما كاد الأمر يستقر حتى استعر القتال فى العاصمة ذاتها. وكان كبار الروم أحزابا وشيعا، تباعد بينهم الإحن ويغرى بينهم التحاسد. وكان حرص كل من الحزبين الأخضر والأزر ق على القتال فيما بينهم أعظم من حرصهم على حرب العدوّ الرابض عند أبواب مدينتهم. فكان (دومنتيانوس) الذى أسلم الفيوم و(نقيوس) يناصب (ميناس) العداء وينافسه فى التطلع الى القيادة العامة فى الجيش، وكان (ميناس) يحقد على (أودوقيانوس) أخى (دومنتيانوس) لما كان منه من شنيع الأفاعيل بالقبط الذين كانوا فى حصن بابليون فى يوم عيد الفصح المشهور، وكان (تيودور) لا يزال غاضبا على (دومنتيانوس) لما كان من جبانته فى الهروب من (نقيوس) تاركا جيشه ومتخليا عن واجبه. وأنه لمن العجيب أن يبقى (دومنتيانوس) فى منصبه لم يؤاخذ أو يقتص منه بالقتل، فليس غضب رئيسه عليه بالجزاء الوفاق على ما جناه. ولعله لم ينج مما كان يحق عليه من القصاص إلا لمحاباة الامبراطورة له ولقرابته من قيرس إذ كان صهرا له بزواجه من اخته. على أن (دومنتيانوس) لم يرع فى

دخـوله اليــه ، فـهــولا الذين هم هكذا قلوبهم كقلوب البهايم لا يقرون ولا يفهمون وجميعهم قد زاغ ورذل، وهمتهم فى بطونهم ومجدهم بخزى وهم يجرون على بطونهم مثل الحيات وينفخون ويلدغون المرئين [البشر] شتامين مبغضين لأخونهم متطلعين للمأكل والمشارب كالبهايم التى لا فهم لها ومشابهتها، والبيعة الرسولية تفرزهم فلا(*) يصعد قس الى هذا الهيكل الا بعد ان يلبس بلينه اولا قبل ان يحمل البخور عليه، ولا يتقرب فيه

(*) قانون بيعة أبو مقار وهو من سبعة مواد.

(قيرس) إلا ولا صداقه، ولم يحفظ له جميلا، إذ كان لا يظهر له إلا ازدراء وحقدا غلب عليه عقله. وكان معه الحزب الأزرق، فاتخذ من رجاله عصبة استعان بها فى نضاله، فلما رأى (ميناس) ذلك استعد له بمثل عدّته فاتخذ من الحزب الأخضر له عصبة.

وفيما كان الأمر على هذا التحرّج المخطر، نزل الى الاسكندرية رجل اسمه (فيليادس) وكان حاكم الفيوم وأخا (لجورج) وهو سلف (قيرس) على بطرقة المذهب الملكانى. وكان (ميناس) قد أحسن الى (فيليادس) ولكنه أساء جزاءه، وكان (فيليادس) فوق هذا مقارفا للخيانة إذ كان يضع يده فى الأموال العامة، وكان الجند يكرهونه كراهة تعدل حبهم (لميناس). ولم يمض زمن طويل حتى اشتدّ الأمر وتأزمت الأزمة، ففيما كان (ميناس) يوما يصلى باخوانه الأقباط فى الكنيسة الكبرى كنيسة (قيصرون)، إذ ثار أهل المدينة بفليليادس يرديون قتله. ولكنه فرّ منهم ولجأ الى منزل صديق له فاختبأ فيه، فذهب الثائرون الى بيته فنهبوه وأحرقوه، وكانوا من الحزب الأخضر، وعند ذلك أخرج (دومنتيانوس) اليهم عصبته من الحزب الأزرق، والتقت العصبتان فى قتال شديد فى طرق المدينة فقتل منهم ستة وجرح كثييرون، ولم يستطع (تيودور) أن يقضى على الفتنة إلا بعد مشقة وعناء. وبعد أن انتهى الأمر أعيد الى (فيليادس) ما سلب منه، وعزل (دومنتيانوس) من مرتبته فى الجيش. ولكن يلوح لنا أنه أعيد فيما بعد الى ما كان عليه، وذلك بعد أن أمر (تيودور) بالعودة الى القسطنطينية. فالحقيقة أن (دومنتيانوس) كان مع عداوته لقيرس يرى رأيه فى السياسة، وكانا كلاهما سواء

كاهن ولا شماس إلا بعد لباسه البرنس او بلينا. ولا
يتكلم قس ولا شماس فى هذه القبة المقدسة
بكلام فارغ ولا يجلس فيها ليقرا كتابا من الكتب،
من قاوم هذا القانون يكون محروما. [و] أى
كاهن أو راهب دخل إلى هذه القبه من غير أن
يكون مرسوما لخدمه هذا الهيكل فليكن محروما.
[و] أى كاهن من كهنة هذا الموضع يدخل بكاهن
غريب من كهنة مصر او ريس الى هذه القبه
الاسكنا المقدسه لاجل مجد الناس فليكن محروما

فى تقريب الامبراطورة والحظوة عندها، وكان كلاهما يشير عليها ويزين لها رأى الإذعان للعرب.

ولنذكر هنا أن (حنا النقيوسى) يصف نضال الأحزاب فى الاسكندرية وكأنما يقرّ بانه عاجز عن إدراك أسبابه. فان سياق قوله يدل على أن منشأ ذلك النضال كان بعضه من عدوات خاصة، وبعضه كان من أثر الشيع السياسية. على أنه يذكر بعد ذلك أن بعض الناس يذهبون الى أن اشتداد ذلك النضال واستعار لهبه إنما يرجع الى اختلاف المذاهب الدينية. ولكنه لا يوضح الأمر ولا يجلو الظلمة عن حقيقة النضال، فلا ندرى أكان بين (المونوفيسيين) و(الملكانيين)، أم كان بين (الملكانيين) و(المونوثيليين)، أم بين اليهود والمسيحيين، فالحق أن الأمر مشكل لا يستبين المرء فيه وجها للرأى، ولكنا إذا ذكرنا أن كثيرين من أهل مصر السفل والصعيد أتوا الى الاسكندرية لائذين، وإذا ذكرنا أن (حنا النقيوسى) يروى لنا خبر اجتماع القبط بكنيسة (القيصرون) للصلاة[1]، إذا ذكرنا ذلك أمكن أن نقول إن عدد القبط فى الاسكندرية زاد فى ذلك الوقت زيادة كبرى، وأنهم استطاعوا أن يتنسموا شيئا من نسيم الحرية وأن يعود الى نفوسهم شىء من القوّة منذ غاب المقوقس عنهم فى منفاه، وارتفع عنهم عسفه واضطهاده. فلعلهم عند ذلك شعروا من أنفسهم بالقوّة فرموا سهمهم مع الرامين، يناصرون من أحبوا ويحاربون من كرهوا ويلقون بدلوهم فى مياه الإسكندرية، التى كانت

(١) ما كان ليصف أية صلاة أخرى غير الصلاة القبطية بقوله «اجتماع المؤمنين».

[و] أى انســان اســتطال ودخل الى هذه القــبــه المقدسه يخرجه الرب يسوع المسيح خارجا. واى انســان يتـعـدى ليكون له نصـيب فى هذا الموضع المقــدس بمال او هدية فليكن هو وكلمن [كل من] يساعده على دخوله اليه لاجل مجد الناس لا سـيـمـا ان كـان معـروفـا بالشـر والتـجـبـر مـرذولين. اعلمو يا اخوتى ان نصيب يعقوب لا يكون لواحد من هولا والقـوه السـاكنه فى هذا الموضع والهيكل المقــدس لا ترضى بشى من هذه الامــور بل يكون

تضطرم من عداوة الأحزاب ونضالها. وإن تعجب فعجب أن يقرأ الإنسان نبأ نزول المقوقس بالاسكندرية فى ذلك الصـباح من شـهـر سبتـمبـر، وأن أهل المدينة ملكهم الفرح فـخرجـوا «يظهـرون سرورهـم ويشكرون الله على عـودة بطريق الإسكندرية[1]»، وتوافـد الناس من كل جانب يحيونه ويكرمونه من رجال ونسـاء كبارا وصغارا، فما كنت تسمع كلمة مخالف ولا همسة خوف. ولكن ما كان للقبط أن يدخل الى قلبهم فرح بمقدم (المقوقس)، بل ما كان لهم أن يبقى أمل فى قلوبهم من وراء عودته. ولا يسعنا على هذا إلا أن نذهب الى نتيجة من هذا القول، وذلك أن القبط ما كانوا فى الاسكندرية مهما بلغ عددهم إلا فئة قليلة ضائعة بين أهله الكثيرين لا يحس أحد بها.

(١) هذه كلمات الدكتور شارل فى ترجمته للنص الأتيوبى. وليس أدل من هذا الوصف لعودة قيرس على نقاء ضمير حنا النقيوسى وقلة تحيزه ولقد كان من السهل عليه أن يصف مقابلة الناس له بالفتور أو أن يغفل ذكرها ولكن حنا يصفها بأنها كانت بحفاوة عظيمة وأن السرور لم يكن سرورا بمقدم قيرس شخصه بل بمقدم «بطريق الاسكندرية» صفحة ٥٧٤ ومن العجيب أن أميلنو يعلق على ذلك القول تعليقا يلوم فيه الكاتب على وصفه فيقول «وفيما عدا ذلك فانى فى عجب عظيم من حنا النقيوسى وهو الأسقف اليعقوبى اذ يصف قيرس بأنه بطريق الاسكندرية وهو الذى كان يجب عليه أن يذمه ويلعنه فى حين أن (بنيامين) وهو البطريق الحقيقى فى نظره كان فى ذلك الوقت طريدا فى الصعيد (حياة البطريق القبطى إسحاق صفحة ٧١ XX) ولكنا نرى أن صراحة حنا تزيد من ثقتنا فيه واعتمادنا على أخباره كمؤرخ.

متواضعا طاهرا وديعا تاما فى جميع الخصال المرضيه، كما شهد المعلم بولس فى قوله على هذه الرتبه اذ يقول ماهو ثابت فى مكاتبته الجليلة ، ثم قال لى الشخص المضى: لا استحق ان يخاطبنى خروجك يابنيامين من هذا العالم الذى هو مفارقة نفسك لجسدك يوافق يوم تكريز هذه البيعة، وتمضى الى السيد المسيح الذى تحبه لتستريح فى يروشليم السماويه مدينة المنتخبين مع جميع المختارين فقلت له: يا سيدى ارجو أن يجعلنى الله



أما قيرس فانه عمد قبل أن تصحو المدينة ويذيع بين أهلها نبأ مقدمة، فذهب سرا مع (تيودور) الى دير رهبان (التبنيسى) ولعله كان قريبا من الموضع الذى نزل فيه من البحر[1]. وأمر باقفال باب الدير، وأنفذ الى (ميناس) يدعوه للحضور الى الدير، فلما جاء جعله (تيودور) قائد حامية المدينة وعزل (دومنتيانوس) عن تلك القيادة، فأسرع أهل المدينة الى إخراجه منها. وكانت عودة قيرس فى مثل اليوم الذى أقيم فيه الاحتفال بإعلاء الصليب، وقصد بذلك أن يعيد الى نفوس جند الروم ما ضاع من قوتها، وقد بذل الجهد فى الانتفاع بتلك الذكرى ما وجد الى ذلك سبيلا. ولنذكر أنه عندما بعث حنا قائد الشرطة الى مصر وقد وجهه إليها هرقل يحمل المذهب الدينى الشهير الى (قيرس) حمل معه الى البطريق صليبا من أجل الصلبان شأنا، لعله كانت فيه قطعة من الصليب الأعظم نفسه، وقد أودع هذا الأثر الثمين فى دير رهبان (تبنيسى). فلا عجب اذا حمله (قيرس) فى موكبة الى الكنيسة العظمى كنيسة (القيصرون)، التى أقيمت فيها صلاة التحية. وقد فرشت النمارق فى طريق ذلك الموكب من الدير الى الكنيسة، وكانت الرايات والألوية من الحرير تخفق فوق رأس (قيرس) إذ

---

(١) كان (تبنيسى) موضعا على عشرة أميال من (تنتيروس) وهى (دندرة فى الصعيد) وكان مقرّ أخوة طائفة (الباخوميين). ولقد كانت هذه الطائفة قبطية محضة ولكن الدير الذى كان فى الاسكندرية استولى عليه قيرس وجعله للمكانيين والا فان من فيه من الرهبان لابد كانوا بين الألوف الكثيرة التى نزعها الاضطهاد من مذهب القبط.

مستحقا لما قد ذكرته ويقبلنى انا العبد الخاطى
واصير اليه فى اليوم المذكور ومبارك سيدى يسوع
المسيح حبيب نفسى وروحى لان رحمته سابغه
على. وعند هذا غاب عنى السارافيم. وقال انا
بنيامين البطرك: لا تظنوا يا اخوتى انى كتبت هذه
الحروم على الجيل بل كتبتها لاجل انه سياتى جيل
اخر فى اخر الزمان يستحق ما كتبته على ما
اخبرنى به السارافيم الذى خاطبنى، فيجب لكل
مومن ان يحذر اتباع مجد الناس ويعمل ما

يسير بين عبق البخور وترتيل الأناشيد، وازدحمت طرق المدينة العظمى بالناس على سعتها حتى ركب بعضهم بعضا، ولقى الحبر الأعظم مشقة كبرى فى السير فى ذلك الزحام الى الكنيسة. ولكن الموكب سار على أى حال سيرا وئيدا حتى بلغ (المسلتين) المصريتين القديمتين فمرّ بينهما ثم سار فى فناء ذى أروقة الى أن بلغ باب كنيسة قيصرون فولجه داخلا.

ولما أن صار فى الكنيسة أقام الصلاة وجعل عيد الصليب وإعلاءه موضوع خطبته كما ينبغى له، وكانت الكنيسة الشرقية فى ذلك الوقت ولا تزال إلى وقتنا هذا تحتفل بهما معا. وإنه لمعنى جليل ذلك المعنى الذى جعله (قيرس) قطبا لخطبته، معنى يخلع على قائله رونقا إذا أعوزته الفصاحة، فما بالك بقيرس وهو رب البيان والبلاغة.

ولكن لم تنته تلك الصلاة إلا على كدر ونحس. فإن المصلين أقبلوا بعد الخطبة على الصلاة فقرأ الشماس بدل ما كان يجب عليه قراءته من الأناشيد فى ذلك اليوم مزمورة أخرى فيها اشارة لرجعة البطريق، يريد بذلك أن يتملقه ويهننه. فلما سمع الناس ذلك ضجوا قائلين إنه قد خالف السنن وتطيروا به على البطريق. وجاء فى تلك القصة أنهم قالوا إن البطريق لن يشهد عيدا للفصح بعد ذلك. ولا شك أنهم قد رأوا عليه تغيرا واعتلالا إذ كان النفى قد أسقم جسمه، وكان السير فى الزحام ذلك اليوم قد أتعبه، ثم أجهدته بعد ذلك

يضاهي مجد الله ويحبه من كل قلبه وانت يا ولدى اغاتون القس اكتب عندك تاريخ هذا التكريز واذكرنى به فى كل وقت وكل يوم لأذكر قول السارافيم فيه لى ان فيه يكون خروجى من هذا العالم الذى هو التامن من طوبه اللى كان فيه تكريز البيعة المقدسة على اسم القديس ابى مقار ابينا.

ونذكر ايضا اعجوبة كانت فى اليوم المذكور،

- -

الخطبة وما بذل فيها. ولابد فوق كل ذلك أن وجهه كان ينم عما كان فى قلبه من أشجان تجيش به فتمزقه، فقد كان يرى الناس من حوله يثقون به ويرفعون ذكره ويرونه نصيرا لهم ومعينا فى محنتهم، وكانوا جميعا عند ذلك قد طهرت قلوبهم وامتلأوا إيمانا بالصليب حتى ليجاهدون فى سبيله ويلقون النصر على وعده، ولكن فيما كانوا والآمال تطلع عليهم وتملأ نفوسهم، كان الحبر الأعظم يحس فى نفسه وكسا و وهنا ويشعر فى قلبه الوخز الأليم، إذ كان مقبلا على خيانتهم بعد قليل، لقد كان فى مقامه ذاك بين شجون شديدة تنتابه، ولا غرابة أن ينم مظهره الكليل على ما كان يثقله ويهزهز نفسه العاتية، وأن يرى الناس فى أمارات وجهه أمارات الموت.

قضى قيرس مدة قصيرة بعد مقدمة يعالج طائفة من أمور الدين والدولة كان لابد له من الاسراع بمعالجتها فى الاسكندرية، وفى الحق أن القبط تنفسوا الصعداء منذ رحل عنهم قيرس ومنذ انقطعت الصلة بين سلطات الروم وبين أجزاء كبيرة من بلاد مصر. ولكن (قيرس) لم ينس بعد عودته ما كان فى قلبه من الحفيظة على ديانة القبط، فكان يرضى بالإذعان للعدوّ وإسلام البلاد له ومصالحة من لا يؤمنون بدين المسيح، ولكنه ما كان ليمضى بأن يسالم القبط.

وانه لمن العجيب أن يرى المقوقس جدوى فى العودة إلى اضطهاده وعسفه. فلعله كان

وذلك انه كان بمدينة نقيوس ارخن عظيم مقدم
كانت عادته ان يدخل كل وقت الى الديارات
المقدسه بوادى هبيب فحضر يوم تكريز بيعة ابى
مقار ومعه ولد له كان مبتليا وظهرت منه ايضا ايه
عظيمه ظاهره من الاب المغبوط ابى مقار الذى هو
ابو الجبل المقدس بوادى هبيب وعز جميع
البطاركه والاساقفه والرهبان والمعلمين فى جميع
المسكونة، الذى روايح بخور اعماله وحسن افعاله
قد ملا الاقليم، واضا [ء] مصباحه على كلمن

يتستر وراء ذلك ليدارى عن أهل الاسكندرية حقيقة أغراضه وهى إسلام بلاد مصر جميعها للعرب. ولا شك فى أنه كان فى ذلك ينفذ أمرا من مليكه، ولكن أى أمر! لقد كان أمرا غصبه من مليك لا حول له ولا طول، وتوصل إليه بالخداع والدناءة، حتى أنه لم يستطع أن يظهره لكبار قادة الدولة فى الاسكندرية، ولا أن يعلنه للناس. فخرج وحده ذاهبا إلى حصن (بابليون)، أو لعله قد استصحب جماعة من قسوسه كانوا على علم بسره، وكان النيل عند ذلك مرة أخرى فى أوان فيضه[1]، وذلك فى أواخر شهر أكتوبر بعد عام من صلح بابليون الذى لم يتم، إذ مزقه الامبراطور الشيخ (هرقل) فى غضب وحنق. وكان عمرو بن العاص عند ذلك قد عاد منذ قليل إلى (بابليون). بعد أن فتح بلاد الصعيد أو على الأقل بلاد مصر الوسطى كما يستريح بأصحابه فى أوان فيض النيل. وفيما كان هناك فى ذلك الحصن وافاه (قيرس)، وقد جاءه يحمل عقد الإذعان والتسليم. فرحب به عمرو وأكرم وفادته، ولما علم منه ما جاء من أجله من أمر الصلح قال له «لقد أحسنت فى الشخوص الينا». فقال البطريق له إن الناس قد عوّلوا على دفع الجزية لكى تقف رحى الحرب.

---

(١) اذا علمنا أن المقوقس فاوض العرب مرتين فى أوان فيضان النيل اتضح لدينا سبب الخلط الذى وقع فيه العرب بين حصار بابليون وحصار الاسكندرية ورأينا فى ذلك عذرا لهم.

ياتى اليه، وكانت عادة هذا الارخن ان يحضر الى الدير فى كل وقت فى اعـيـاد الميـلاد والغطاس والفـصح، فـحـضـر فى يوم التكريز وولده معـه وسلمه لراهب قديس ومعه غلام يخدمه، فلما كمل التكريز والقداس وتقرب الشعب كان ولد الارخن نايما فى البيعه المقدسه فصرخ فى النوم حتى ارعب الناس الحاضرين من صراخة، فقوى ذلك الراهب قلبه وتقدم الى الصبى وانبهه فلما استيقظ تامله الجمع فاذا هو عوفى وكانه كما

فتح بلاد الساحل الشمالى

أمضى عهد الصلح فى (بابليون) فى يوم الخميس الثامن من شهر نوفمبر من سنة ٦٤١، وكان لابد له من إقرار إمبراطور الروم كما كان لابد له من إقرار خليفة المسلمين عمر، وكان فى مدّة الهدنة وهى أحد عشر شهرا متسع يكفى لذلك وما يلزم له من الرسوم، ثم عاد قيرس مسرعا الى الاسكندرية يحمل معه كتاب الصلح.

وكان أوّل ماعنى به أن يرسل شروط الصلح الى (تيودور) وهو القائد الأعلى، ثم الى قسطنطين وهو قائد الحرس، ومن أعجب الأمور أن (تيودور) لم تكن له يد فى مفاوضة الصلح ولم يحضر كتابته فى (بابليون)، مع أنه كان حاكم المدينة من قبل الإمبراطور. والحقيقة أن كل ما يمس (تيودور) محير مدهش، فلسنا ندرى من أمره شيئا حتى لنجهل هل كان قد علم بعزم (قيرس) فى تسليم المدينة للعرب قبل أن ينفذه. فاذا كان قد علم بذلك فلابد إنه قد غير رأيه وأصبح من أشياع الصلح مع العرب. وأما إذا كان غير عالم بذلك فمن أعجب الأمور أن يسارع الى الموافقة على أمر لا يمكن أن نصفه إلا بأنه كان تسليما شائنا.

على أنه من المعلوم ما كان عليه (تيودور) من العجز فى قيادة الحروب وضعف الرأى فيها، فموافقته على الصلح على ذلك لا قيمة لها، وحكمه فى أمر الحرب مدافع لا يعتمد عليه.

ولد جديد فى يومه هذا فمجدو الله لهذه الاعجوبه العظيمة التى كانت. قال الاب بنيامين البطرك القديس: فلما فرغت من القربان استدعيت الارخن والد الصبى واستعلمت منه حال ولده فاخبرنى بمرضه وجميع ما حل به، ثم استدعيت الصبى وقلت له يا ولدى اشرح لى ما رايته فى منامك ولا تخف عنى شيا منه . فقال الصبى: بينما انا نايم رايت رجلا طويلا شيخا بلحية خفيفه نازله على صدره وهو يعصر جسمى بيديه فصرخت من الوجع، ثم انه امسك بيده طرف

ومهما يكن من الأمر فان (قيرس) عندما أحس بأنه مهد السبيل الى اعلان الأمر فى الاسكندرية، دعا كبار قواد الجيش وعظماء رجال الدولة، ولما انعقد عقدهم جاءوا وعليهم (تيودور) و(قسطنطين)، حتى إذا مثلوا بين يدى البطريق (قيرس) جعل يبين لهم ما تضمنه الصلح من شروط بما أوتى من فصاحة وبراعة، ويسهب فى ذكر الضرورة التى استوجبت عقده وما فيه من مزايا، فما زال حتى فاز بما أراد من حمل سامعيه على الإيمان بقوله، ولكنه كان فوزا ما أشأمه.

وبهذا خطا (قيرس) خطوة جديدة فى سبيل إنفاذ خطته فى الإيقاع بمصر، على أنه ما كان ليستطيع أن يبقى خطته فى ستر الخفاء بعد ذلك طويلا، فعلم الناس بما كان ولكن علمهم لم يأت عن قالة قالها (قيرس)، ولا إشاعة تردّدت وذاعت بينهم، بل علموا بالأمر بغتة وقد فجأهم طلوع فئة من العرب على المدينة فدقت الأبواق إيذانا بمقدمهم، وأسرع الناس من كل جهة ليقفوا فى أماكن الدفاع من الاسوار والحصونا، ولكن العرب ساروا على خيلهم لا يلوون على شيء ولا يعبأون بالضجة. وجاء قواد الروم عند ذلك بعد أن كانوا قد قضوا على حماسة الجنود وإقدامهم، فجعلوا يهدئون من روع الناس وينادون فيهم أن لا جدوى فى القتال ولا أمل من ورائه. وقبل أن يقترب العرب حتى يصيروا على مدى رمى المجانيق أبصرهم الناس وهم يحملون أعلام الهدنة والسلام، فأشير إليهم بعلامة الرد فاقتربوا، حتى إذا ما صاروا

ثوبى واصعد من راسى فرايت جميع وجعى وجراحى ملتصقه بتوبى وقد انقلعت معه عن جسمى، وقال لى تقو يا ولدى هو ذا قد عوفيت، فلما انتهى هذا الاب الراهب قمت وانا معافى، هذه قضية حالى يا سيدى الأب. فشاهدته انا بنيامين بعينى فى ذلك اليوم وقد برى [الصبى]. فمجدت السيد يسوع المسيح الذى اظهر لى قواته وعجايبه على يد القديس ابى مقار الذى يعافى



- -

بحيث يسمعون ويسمع منهم أفضوا الى جنود الروم بما كان. وما كان أشدّ عجبهم ودهشتهم مما علموا، إذ عرفوا عند ذلك أن العدوّ لم يأت ليقاتلهم بل أتى ليحمل الجزية التى اتفق عليها مع (قيرس) المقوقس فى عقد الصلح الذى طلبه من العرب وكتبه معهم على تسليم المدنية. فهاج الناس وثار ثائرهم لما سمعوا وذهبوا غير مصدّقين حتى أتوا قصر البطريق، فاطلع عليهم منه بعد لأى، وكان الخطر فى تلك اللحظة محدقا بحياته إذ تهافت الناس إليه يريدون أن يحصبوه.

غير أن كبر سنه وعلو مكانته خذلا الناس عنه، وحمياه من الخطر. فأشار الى الناس إشارة فهدأوا، ثم استطاع الكلام واستعان بما أوتى من بلاغة وفصاحة على تخفيف جنايته وتهوين خيانته فى مقالته التى قالها بين الناس. وجعل يبرر ما كان منه قائلا إنه إنما اضطر إلى ركوب الصعب اضطرارا إذ لم يكن بد منه، وما قصد إلا مصلحة قومه وفائدة أبنائهم فان العرب قوم لا يقوم لهم شيء إلا غلبوه، وقد أراد الله أن يملكوا أرض مصر، فما كان للروم إلا أن يصالحوهم، فانهم إن لم يفعلوا جرت الدماء فى طرق مدينتهم ونهبت أموالهم وقتلوا، ومن بقى منهم حيا خسر ما كان يملك وضاع أمره. ولكن الصلح حقن دماءهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وديانتهم.

النفوس والاجساد بشفاعته عند الله الذى صار مينا
لخلاص العالم. فطوبى لجبل النطرون الذى استحق
أن يكون فيه ابو مقار شفيعا، ولجميع من ياوى
اليه، ايها الجبل الذى سر الله به ايها الجبل الذى
جمع اليه هولا المصطفون الذين يضوون فيه اكثر
من نور الشمس نهارا وتصعد صلواتهم كالنار
المشتعله. ايها الجبل الذى اثمرت فيه الثمار
الروحانية تلتين وستين ومايه، ايها الجبل الذى

بهذا استطاع (قيرس) مرة أخرى أن يفوز برأيه المشئوم، فإذا بالناس وقد عادوا إلى رأى الجيش ورضوا بالتسليم والنزول بمدينتهم العظيمة للعرب، على شرط العقد الذى تم. وجعل الثائرون يتلاومون على ما اقترفوا من الوثوب والحنق على ذلك الحبر الطاهر، فى حين كان يسعى جهد طاقته ليحول بينهم وبين الهلاك على يد الغزاة. وأخذوا يجمعون قسط الجزية التى فرضت عليهم وزادوا عليها مقدارا كبيرا من الذهب، ووضع ذلك المال فى سفينة خرجت من الباب الجنوبى الذى دخل منه الترعة وذهب قيرس بنفسه ليحمله الى قائد المسلمين.

وبذلك تم فتح الإسكندرية، وإذا حسبنا تاريخ ذلك وجدنا أن أداء ذلك القسط الأول من الجزية قد يكون فى أوّل المحرّم من سنة احدى وعشرين من الهجرة، وذلك هو اليوم العاشر من ديسمبر من عام ٦٤١. وليس فى مصادر التاريخ ما يثبت ذلك التاريخ وينص عليه صراحة، ولكن الرواية التى تناقلها العرب تجعل فتح المدينة فى ذلك اليوم. ولعل منشأ تلك الرواية كان عمن حضر ذلك اليوم وشهد إذعان أهل الإسكندرية بحملهم أوّل قسط من جزيتهم، ومع ذلك فإن مؤرّخى العرب يجعلون أوّل المحرّم فى يوم الجمعة مع أن أوّل المحرّم لم يقع فى يوم جمعة فى ذلك العام ولا فى عام قريب منه إلا فى عام ٦٤٥. وعلى ذلك يكون لنا أن نقول إن الرواية لا يمكن أن تكون صحيحة فى كل أجزائها، بل لقد تكون كلها غير صحيحه. ولكنا نتردّد فى الأمر ونحمل أنفسنا على القول إنها لابد أن يكون لها أساس من الحقيقة، لأنها

يملح الانفس ويردها من الخطيه وينقيها بالتوبة
فتبيض كالثلج، انت الجبل الحقيقى الذى تجتمع
فيه الملوك والاغنيا والفقرا ليخدموا الله فيك، أنت
جبل الملح بالحقيقة المملح الأنفس الذى تثبت
بالخطيه والأثم انت الذى جعلت اللصوص معلمين
وشهدا وصالحين ، فليدعو الان بغير ملل بين
يدى سيدنا يسوع المسيح ان يتبتنا على الأمانه
الارتدكسيه فى بيعته المنيره لنفتخر نحن جميع بنى

رواية من أثبت الروايات فى أخبار الفتح العربى. وعلى أى حال فانه من المفيد أن نوجه الأنظار إلى اتفاق عجيب آخر يلوح من خلال ما اختلط من تواريخ ذلك العصر، ولعله يفيدنا فى بيان أسباب ذلك الخلط بعض التبيين، وذلك أن بعض مؤرخى العرب يقرر أن فتح الإسكندرية لم يقع إلا بعد ثلاث سنين من دخول جيش عمرو فى مصر، فى حين أن طائفة سواهم تقول إن فتح حصن بابليون وفتح الإسكندرية وقعا كلاهما فى عام واحد وهو العام العشرون من الهجرة. ومع ما يظهر من الخلاف بين الطائفتين نقول إن كلاهما على الحق، فقد سلم حصن بابليون فى شهر أبريل من عام ٦٤١ ، وسلمت الاسكندرية فى شهر نوفمبر من ذلك العام، وكلا التاريخين واقع فى سنة عشرين. ومن جهة أخرى قد دخل عمرو فى أرض مصر فى عام ٦٣٩ من الهجرة، ولكن جيشه لم يدخل الاسكندرية إلا بعد ثلاث سنوات من ذلك، أى فى شهر أكتوبر من عام ٦٤٢ عندما انقضت مدّة الهدنة وهى أحد عشر شهرا. وأنه لما يسر النفس أن تفوز بكشف الحقيقة من وراء هذا الغطاء من خلاف يخمرها.

وماذا عسانا نقول فى هذا الصلح العجيب فليس فى طاقتنا أن نملك أنفسنا ونلزم القصد فى القول اذا ما أردنا أن نصف فعلة المقوقس، وما أتاه ذلك البطريق من حرصه المدهش فى كل وقت من أوقات القتال مع المسلمين على أن يسرع بالاذعان والتسليم لهم. فليس مرّ

المعموديه فى كل زمان بها ونساله ان ينجينا من شدايد المتولين علينا ومكر الصياد عدو الحق الشيطان الاركون الشرير. والمجد لله الاب والابن والروح القدس والقدره والعظمه الان وكل أوان والى دهر الداهرين أمين.

كمل بعون الله الجزء الاول من كتاب سير البطاركة بالمدينة العظمى اسكندريه خلفا مارى مرقس الانجيلى رزقنا الله بركة صلواته وصلواتهم

الأيام بمستطيع أن يمحو عن ذكره وصمة جنايته، والقصد الى تضييع أمرها بعد أن لطخته من قبل جريرة حمقه وقسوته فى اضطهاد القبط مدّة أعوام عشرة.

وانا نعيد هنا ما سبق لنا قوله أن الاسكندرية كانت من المنعة بحيث لا تكاد تنالها قوّة عمرو ومن جاء معه من الجنود، فكان طول أسوارها نحو تسعة أميال أو عشرة، ثلاثة منها مما يلى البحر وأكثر ما بقى منها تحميه الغياض والبحيرات والترعة. وإذ كان العدوّ لا يستطيع أن يقترب إلا من جزء يسير من تلك الأسوار فقد كان من السهل على جند المدينة أن تجعل همها دفع حملاته على هذا الجزء. وإن العرب لو استطاعوا إسكات ما على الأسوار من المجانيق القوية المربعة، وقدروا على الاقتراب منها، لما أمكنهم أن يصدعوا الأسوار بما لديهم من الوسائل وما كان أقلها وأضعفها. وانا لا نكاد نعرف فى تاريخ الاسكندرية أنها أخذت مرة عنوة بغير أن يكون أخذها بخيانة من داخلها.

فمن ذلك نرى أن ذلك الصلح الذى عقده قيرس لم تكن ثمت من ضرورة فى الحرب تدعو اليه، ما دامت أساطيل الروم تسيطر على البحر، والعرب بعد أبعد الناس عنه لا يمرّ بخاطرهم أن يتخذوا فيه قوة. قد يقول قائل إن فتح بابليون قد أوهن الروم وإن جنودهم امتلأ رهبة من العرب منذ رأوا أنهم لم يصبروا على لقائهم فى موطن من المواطن منذ ابتدأت

الحرب، وإن الجيش الرومانى كان لا يثق فى قواده ولا يرى منهم إلا الجبانة والعجز. وهذا كله صحيح لا شك فيه. ولكن كان فى الاستطاعة تغيير الحال بأن ترسل جنود غير تلك الجنود وقوّاد غير أولئك القوّاد لا تزال فى جنانها شدّة وفى قلوبها قوّة، غير أن ذلك لم يسع اليه أحد. فإن الدولة منذ مات عنها هرقل لم تجد حاكما يلم شعثها ويصرف أمورها ويحملها على سبيلها. وكان أهل الاسكندرية شيعاً وطوائف، تقطع ما بينهم الأحقاد والأطماع، فما كانت تخلو من هيعة أو وثبة. وجاء بعد ذلك موت هرقل فزاد الحال سوءا إذ شطر حكومة قلب الدولة شطرين ليس بينهما إلا الشحناء والعداوة. فالحق أن موته «كسر شوكة الروم» كما قال المؤرخ العربى، ولكنه كسرها كسرا أبلغ مما قصده ذاك المؤرخ، فان الدولة أغفلت بعده همها الأكبر وهو الدفاع عن حياتها. فشغلها دسائس (مرتينه) ومكائد (قلنتين) فتركت مصر تجرى فى قضائها، وكانت الاسكندرية إذ ذاك قطب الحوادث يدور عليها أمر مصر ومصيرها، فلم تجد فى الدولة من يأخذ بيدها، ولو وجدت نصيرا يمدّها لنجت من عدوّها ولناجزته بعد ذلك على سواء حتى تخرجه من أرض مصر.

ولا نزال نسائل النفس عن السبب الذى حمل أهل الاسكندرية على قبول ذلك الصلح، والمبادرة الى الرضى عن قيرس بعد أن كانوا قد وثبوا به وأرادوا أن يحصبوه لما رأوا من خيانته. فقد كانوا معروفين بالنزق والتقلب فى الأحوال، ولكنهم لم يكونوا صادرين عن نزق فى انصرافهم عن دولتهم وصدوفهم عنها ورضائهم بالاذعان لحكم العرب. وليس ثمت إلا رأى واحد فوق ما سبق لنا ذكره نفسر به ما كان منهم، وذلك أنهم كانوا قد سئموا من كثرة ما أصابهم من الحدثان وكرهوا فسادا الحكم الذى أثقل كواهلهم مدّة أربعين عاما، وقالوا فى أنفسهم لعلنا نجد فى حكم العرب قرارا واطمئنانا نأمن فيه على ديننا فلا نكره على شىء فيه وعلى أموالنا فلا تتحمل من الخراج والجزية إلا قدرا نطيقه.

ومنذ كان شعور المصريين الوطنى ضئيلا كان تأثرهم بما يمس أموالهم شديدا. ولعل ما كان الناس يتوقعونه من العرب من تخفيف حمل الضرائب كان من أكبر العوامل على فوز المسلمين فى فتوحهم جميعها. وأما فى الإسكندرية فلعل هذا الأمر كان أعظم الأمور أثرا. على أن ما طمع فيه أهل الإسكندرية من تخفيف هذه الأحمال لم يتحقق لهم بل خاب أملهم خيبة ما كان أمرها.

أقرّ الامبراطور عهد الصلح ولعل ذلك كان آخر ما أتاه فى حكمه، إذ انتهى فى ذلك الشهر عينه وهو نوفمبر، ويلوح لنا أن عمرو بن العاص كتب شروط ذلك الصلح وأفضى بها إلى أهل مصر، وكانت تلك الشروط تعدهم بالأمن على أنفسهم وأموالهم وذمتهم وكنائسهم وصلبانهم. ولكن المقاومة لم يخب لهبها ولم يخذلها ما كان من تسليم الإسكندرية العظمى، ولا ما وعد به عمرو من الشروط الحسنة. فقد بقيت بعض البلاد فى شمال مصر السفلى (الدلتا) ترفع لواء مقاومة الغزاة العرب ولا ترضى بالتخلى عنه، مع أن فتح الإسكندرية كان قد قضى على الأمل كله فى دولة الروم، وأصبح بعدها من أشدّ الحماقة أن تصر طائفة على القتال وتأبى الدخول فيما دخل فيه سائر الناس من العهد. فكان لابد للعرب من فتح تلك البلاد حتى يتم لهم الأمر، وكان عمرو قد فرغ مما يشغله ويستطيع السير إليها فى أى وقت شاء.

ولاسيما ما كان منها على شاطىء البحر المتوسط إذ أبت أن تدخل فيما دخل فيه الناس من العهد. وكان لعمرو أن يسير اليها إذا شاء فيقاتلها ولو كان ذلك فى مدّة الهدنة، ويلوح لنا أنه قد وجه لقتالها جيشا فى ربيع سنة ٦٤٢ ؛ ومن العسير أن نصف ما كان من سير جيش العرب لا سيما وأن حنا النقيوسى لا يذكر شيئا من أمر القتال فى هذه المدة، فلابد لنا من الاعتماد على مؤرّخى العرب وما جاء فى أخبارهم، ومن أشق الأمور فهمها أو الربط بين أجزائها.

فلا نجد مع هذا ندحا من أن نلجأ الى التصوّر والحدث، فنقول إن جيش العرب لابد قد سار من كريون نحو الشرق على ساحل النهر. وكان فى الاقليم الذى كان يعرف بالحوف الغربى مدينة اسمها (إخنا) ليست بعيدة عن الاسكندرية. وكان حاكمها اسمه (طلما) فأتى اليه كتاب من عمرو يعرض عليه فيه شروط الصلح الذى صالح عليه (قيرس)، ولكنه لم يقنع بما جاءه فى ذلك الكتاب، فأرسل الى عمرو يطلب الاجتماع به، فسأله عن مقدار الجزية. فلم يطق قائد العرب احتمال هذه المراجعة وأشار إلى كنيسة قريبة وقال «لو أعطيتنى من الركن الى السقف ما أخبرتك إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم». ولابدّ أن (طلما) كره هذا الرد وعزم على ألا يذعن، وعلى ذلك سار المسلمون إلى (إخنا) وما لبثوا أن أرغموها على التسليم لهم. وقد أخذوا منها أسارى كثيرة وبعثوا بهم الى الخليفة عمر فى المدينة، مع أن تلك القرية سلمت إليهم صلحا بعقد وعهد. وقد حدث

مثل ذلك لمدينة (بلهيب)[١]، وكانت مدينة منيعة فى جنوب رشيد تبعد عنها بضعة أميال. والظاهر أن عمرا أتاه هناك رد الخليفة عمر باقرار صلح الإسكندرية.

ويذكر مع صلح (إخنا) صلح آخر عقد مع (قزمان) ـ ولعله قزماس ـ حاكم رشيد وصلح مع (حنا) حاكم البرلس[٢]. ويلوح لنا أن العرب ساروا من بعد البرلس على شاطىء البحر حتى بلغوا دمياط[٣] ولم يقف لهم حاكم المدينة (حنا)، وأصبح العرب بفتح دمياط مسيطرين على منافذ النيل إلى البحر جميعا. ثم فتحت (خيس) فى الإقليم المعروف بالحوف بقرب دمياط[٤] وأكبر الظن أن سلطان العرب صار يمتد عند ذلك على كل بلاد مصر السفلى، اللهم إلا بلادا قليلة كانت فى الجزائر التى فى رقارق بحيرة المنزلة الفسيحة.

وكانت الأرض التى تغطيها مياه تلك البحيرة الى ما قبل الفتح العربى بقرن واحد

(١) يسمى البلاذرى هذا الموضع بلهيت وهذا خطأ نقله أبو المحاسن والسيوطى ولكن ياقوت يذكر الاسم الصحيح.

(٢) كانت رشيد بالطبع مشرفة على مدخل فرع النيل الغربى وبلهيب مشرفة على المجرى الذى بين فرع رشيد والاسكندرية وكانت البرلس مدينة على مصب الفرع السبنيتى للنيل ولا تزال المدينة وإقليمها محتفظين بهذا الاسم الى اليوم مع أن فرع النيل السبنيتى قد طم منذ زمن طويل وتكون من ذلك بحيرة لا يحجزها عن البحر إلا قطعة ضئيلة من الرمل وقد ذكر المقريزى أسماء البلاد اخنا والبرلس ورشيد مجتمعة.

(٣) جاء فى البلاذرى ذكر فتح دمياط فقال إن البعث الذى أرسل الى تنيس ودمياط وتونة ودميره وشطا ودقهلة وبنا وبوصير كان أميره عمير بن وهب الجمحى وانه أقرب من الاحتمال أن يكون عمرو قد وكل قيادة هذا البعث الى أمير نائب عنه ولا يذكر البلاذرى أى قتال بل يقول إن عمير صالح أهل تلك البلاد على شروط الصلح العام الذى صالح عليه عمرو.

(٤) يختلف مؤرّخو العرب كثيرا فى أسماء البلاد التى قاومت العرب فيذكر البلاذرى بلهيت (وهى بلهيب) والخيس وسلطيس فى موضع ويذكر فى موضع آخر كما رأينا أسماء البلاد سخا وبلهيت والخيس وسلطيس ويقول إنها ساعدت الروم فى وقعة سنطيس ويضم ياقوت الى هذه البلاد مدينة (فرطا) ويقول إن عمرا بعد أخذ الاسكندرية أسر أهل تلك البلاد وبعث بهم الى المدينة ويعين ياقوت موضع الخيس ويذكر المقريزى عقود صلح مكتوبة مع إخنا ورشيد والبرلس وسلطيس ومسيل وبلهيب وكذلك يقول السيوطى، وأما الخيس فيجب أن تكون المدينة التى يصفها ياقوت بأنها فى الحوف الغربى وأن الذى فتحها خارجة بن حذافة وقد وصف الحوف الغربى بأنه بقرب دمياط وهذا غير صحيح، فى حين أن الحوف الشرقى كان مما يلى الشام.

لاتضارعها فى بلاد مصر كلها أرض أخرى فى جودة هوائها وخصبها وغناها، إلا إذا قلت بلاد الفيوم فقد تكون عدلا لها. وكانت أرضها ترويها ترع لا تنضب مياهها تأتى من النيل، فكانت تنبت نباتا يانعا من القمح والنخيل والأعناب وسائر الشجر. غير أن البحر طغى عليها فاقتحم ما كان يحجزه من كثبان الرمل، وكانت المياه تزيد طغيانا عاما بعد عام حتى عمت السهل الوطىء كله، ولم يبق فوق وجهها إلا عدد من الجزائر بعد أن أكلت المياه ما كان هناك من حقول وقرى، فلم ينج منها إلا ما كان عاليا لا تناله المياه. وأعظم مانجا من قرى تلك الأرض مدينة (تنيس) الشهيرة، وكانت مدينة لها شىء من الاتساع والكبر، وكانت ذات بناء جميل تجود بها صناعة المنسوجات الدقيقة. وكانت فى البحيرة التى تخلفت مدائن أخرى اشتهرت ببراعة صناعها فى النسيج مثل (تونه) و(دميرة) و(دبيق)، ولكن لم تبلغ إحداها مبلغ (تنيس) إذ كانت تضارع دمياط وشطا فى دقة منسوجاتها وجودة أنواعها فما كان فى البلاد كلها غير (تنيس) و(دمياط) ما يستطيع أن يخرج ثوبا من الكتان النقى يبلغ ثمنه مائة دينار. وقد ذكر المسعودى فى تاريخه أن ثوبا صنع هناك للخليفة من عرض واحد بلغ ثمنه ألف دينار. وكان مصنوعا من خيوط الذهب مخلوطة باليسير من رقيق الكتان. وقد ورد فى الأخبار كذلك أن تجارة (تنيس) مع العراق وحده بلغت من عشرين ألف دينار الى ثلاثين ألفا فى السنة الواحدة، ولكن ذلك كان قبل أن تقضى عليها الضرائب الفادحة.

كانت تنيس على جزيرة[1] فسيحة وكانت تصل اليها من الجنوب ترعة اسمها بحر الروم، ولعلها كانت بقية فرع النيل التنيسى الذى كان يبلغ (الصالحية). وكان الاتصال كذلك سهلا فى الماء بينها وبين الفرما، أو على الأقل بينها وبين (الطينة) وهى ثغر الفرما على ساحل البحر. وقيل إن (تنيس) كان لا يزال بها الى القرن العاشر آثار قديمة سوى ما كان بها من المساجد

(١) يزعم كاترمير أن اسم هذه المدينة مشتق من اللفظ اليونانى (تيسوس) وقد أضيفت فى أوّله علامة التأنيث القبطية فاذا صح ذلك كان لابد أن تلك البلاد غمرت من زمن بعيد قبل القرن السادس وفى الحق أن (كاسيان) وكان فى مصر فى سنة ٣٩٠ ـ سنة ٣٩٧ للميلاد يقول على وجه البت أن تنيس يحيط بها من جميع جهاتها بحر أو مناقع ملحة حتى أن أهلها كانوا يعتمدون كل الاعتماد على البحر فى الانتقال من مكان إلى مكان وكانوا يأتون بالطين فى السفن إذا أرادوا أن يوسعوا أرضا ليبنوا عليها بناء. وقد دمرت (تنيس) فى سنة ١٢٢٧م على عهد الملك الكامل الأيوبى فلم يبق منها إلا الاطلال ولاتزال الجزيرة تعرف بهذا الاسم عينه ولا تزال عليها آثار قديمة.

وعدّتها مائة وستون، تزين كلا منها مئذنة عالية، وما كان بها من الكنائس وعدّتها اثنتان وسبعون كنيسة. وكان بها من الحمامات ستة وثلاثون، وكانت لها أسوار حصينة فيها تسعة عشر بابا مصفحة بالحديد الثقيل. وقيل إن الموتى فى الجزائر الأخرى كانت تحمل فى الماء الى جزيرة (تنيس) لتدفن بها والظاهر أن هذه الموتى كانت تحنط هناك. وقد زارها بعد ذلك بقرن الرحالة الفارسى (ناصرى خسرو) فى عام ١٠٤٧ للميلاد فعجب مما رآه من ثرائها ورواج أسواقها فهو يذكر أنه كانت بها عشرة آلاف متجر وخمسون ألفا من الناس. وكانت فى مراسى جزيرتها ألف سفينة ولم يكن بها شىء من الزرع بل كانت تعتمد فى كل أقواتها على تجارتها. وكان النيل اذا علا وفاض طرد ما حول الجزيزة من مياه البحر الملح، وملأ بالماء العذب ما كان فيها من الصهاريج ومخازن الماء الدفينة فى الأرض، وكانت تلك كافية لشرب الناس طول الحول. وقد بلغت منسوجات القبط البديعة ذات الألوان شأنا عظيما لم تبلغه فى وقت من الأوقات. فكان للسلطان مناسج خاصة به تنسج فيها الأثواب له وحده. وكان الثوب لعمامته تبلغ نفقته أربعة آلاف دينار، ولكن الأثواب التى كانت تصنع للسلطان لم تكن مما يعرض فى الأسواق. وقد طلب إمبراطور الروم أن يأخذ (تنيس) ويعوض عنها بمائة مدينة من مدائن دولته ولكنه لم يجب الى ذلك. وكان مما يصنع فى تلك المدينة سوى هذه الأثواب الملكية نوع من الأثواب اسمه (بوقلمون)، وكان من الحرير المتغير اللون، وكانت لمعته زاهية حتى قيل انه كان يبدو فى ألوان متغيرة فى كل ساعة من ساعات النهار. وكانت صناعة السلاح المتخذ من الصلب من الصناعات التى كادت تبلغ فى تنيس مبلغ منسوجاتها، فكانت على ذلك مدينة من أعجب المدائن وأعظمها شأنا.

ويروى فى القصص أن حاكم (تنيس) كان فى وقت الفتح العربى رجلا من العرب النصارى [الغساسنة] اسمه (أبو طور)، وأنه خرج لقتال المسلمين على رأس عشرين ألفا من القبط والروم والعرب، فلقيهم فى سيرهم إلى (تنيس) بعد أن فتحوا دمياط، فناجزهم فى مواطن كثيرة قبل أن يظفر العرب ويهزموا جيشه ويأخذوه أسيرا. ومنذ تم لهم ذلك فتحوا المدينة وغنموا أموالها وقسموها ثم ساروا إلى (الفرما). ولم يجد المسلمون ما يحبب إليهم المقام فى هذه المدينة ولا فى أشباهها من الجزائر التى كانت فى وسط هذه البحيرة تساورها أمواجها الزرقاء مثل (تونه) و(بورا)و(دبيق). وعلى ذلك نستطيع إن نقول إن هذه الجهات

ظلت على دينها النصرانى زمنا طويلا بعد ذلك لا يكاد يمسها دين الاسلام[1]، ثم قضى عليها وزالت أخبارها من التاريخ وكان ذلك فى وقت نستطيع أن نعينه.

كانت جزيرة (تنيس) مكشوفة للغزو من البحر على أنها كانت محصنة فيها رباط قوى، وأمر صلاح الدين باخلائها فى سنة ١١٩٢، لإنه كان يشك فى ولاء أهلها من القبط ثم جاء الملك الكامل فى سنة ١٢٢٧ فهدم حصونها وأسوارها التى كانت تحميما من البحر حتى تركها أطلالا.

وتتصل بفتح هذه الجهات قصة أخرى يجدر بنا أن نشير إليها فإن المقريزى عند ذكره مدينة شطا يصفها بأنها مدينة بين (تنيس) و(دمياط).

وتذكر القصة أن العرب عندما حاصروا دمياط وفتحوها خرج إليهم حاكمها (شطا) ومعه ألفان من الناس، فأظهر إسلامه، وقد كان من قبل عاكفا على درسه والنظر فيه زمنا طويلا. ثم إن ذلك الرجل لما رأى أن العرب أبطأ عليهم فتح (تنيس) جمع جيشا من البرلس ودميره وأشمون طناح وجهزه ولحق بامداد المسلمين الذين بعث بهم عمرو، ثم سار حتى التقى بالعدوّ وأظهر من الشجاعة وحسن البلاء ما يظهره الأبطال، وقتل بيده اثنى عشر رجلا من فرسان أهل (تنيس) وشجعانهم، ومازال يقاتل حتى قتل فى ذلك اليوم، ودفن فى ظاهر المدينة، ويقول المقريزى إن قبره لا يزال معروفا يزوره الناس من كل أنحاء البلاد المجاورة ليتبركوا به فى يوم مقتله، وهو يوم النصف من شهر شعبان.

---

(١) ذكر فى سنة ٨٢٤ للميلاد أن (ديونيسيوس) بطريق أنطاكية ساقته الرياح وهو فى السفينة الى ميناء (تانيس) وقيل إنه قد خرج اليه منها ٣٠,٠٠٠ من المسيحيين للترحيب به فرحين وقد رحب به بطريق الإسكندرية وجماعة من الأساقفة وقالوا إنه لم يأت إلى مصر بطريق من بطارقة أنطاكية منذ أيام ساويرس ولكن ديونيسيوس كان أحفظ منهم للتاريخ فذكرهم بزيارة أثنا سيوس وكانت فى أوائل القرن السابع وقال لهم إنه قد تم عند ذلك الاتحاد الرسمى بين الكنيستين (أنظر ابن العبرى الجزء الأول فصل ٣٦٠) والمقصود بميناء تانيس لابد أن يكون الميناء الذى عند مصب الفرع التانيسى للنيل وهو بالطبع أقرب الى تنيس منه الى مدينة تانيس وهى أبعد منها فى داخل الجزيرة والاسم العربى الآن صان أو صان الحجر وأثر موضع الميناء لا يزال موجودا على الشاطىء بين الفرما وبورسعيد.

انقضاء حكم البيزنطيين بمصر

كانت بلاد الصعيد قد تم فتحها ولا سيما إلى حدود إقليم (طيبة) قبل أن تخبو نيران الحرب في بلاد مصر السفلى بزمن طويل، وأخرج الروم من بلاد وادى النيل فى عام ٦٤١ حتى لم يبق منهم فيه إلا قليل، فلا تذكر الأخبار شيئا من القتال فى هذا الاقليم بعد ذلك. ولنا أن نقول إن بلاد الصعيد أذعنت للعرب بغير قتال بعد فتح الإسكندرية.

وفى هذه الايام مات قيرس بالاسكندرية وقد ذكر حنا النقيوسى وفاته فى موضعين: فقال فى الأوّل إنه «أثقلته الهموم فمرض بالدوسنطار يا ومات منها». وقال فى الثانى إنه «بكى بدمع لا ينقطع خوفا من أن يصيبه ما أصابه من قبل وذلك هو النفى وفيما كان غريقا فى حزنه مات كما جرت به سنة العالم» ولكنه فى موضع منهما يوصف بأن أكثر ما أصابه من الحزن كان لرفض العرب شفاعته فى أمر المصريين. وليس من سبب يحملنا على أن نشك فى شيء مما جاء فى هذا الوصف لآخرته، على أنه في رواية قبطية يرجع عهدها إلى أيام مؤرخنا ساويرس[1] وهى تصف موته وصفا آخر. فتقول «إن عمرا لما أخذ الإسكندرية واستقر الأمر على يديه فى المدينة خاف الحاكم أن يقتله عمرو، وكان ذلك الحاكم رجلا سيء الظن يلى أمر الدنيا والدين معا فى المدينة، فلما بلغ منه الخوف جعل فى فمه خاتما مسموما فمات من ساعته». على أننا نعرف أن المقوقس لم يخش عمرا خشيته من الإمبراطور، ولكن القصة أظهرت فى سياق عجيب وتأليف بديع أنه كان يخاف خوفا شديدا، وأن ذلك عجل بموته. بقى شيء آخر مما له اتصال بقصة موت قيرس ويجدر بنا ذكره، فقد رأينا أن عمرو بن العاص كان يشتد فى وقت الفتح شدّة عظيمة فى معاملة المصريين، ولهذا نجد المؤرخ القبطى يذكره كلما ذكره بالتقبيح والاستهجان على ما أثقل به قومه من الأحمال. ولهذا فإنه عند وصف الأيام الأخيرة من حياة البطريق نراه يقول إن «عمرا لم تكن فى قلبه رحمة بالمصريين ولم يرع العهد الذى عقده معهم إذ كان رجلا من الهمج». ونراه فى موضع آخر يصف ما وقع وصفا مفصلا فيحكى قصة رجل اسمه (ميناسى) كان هرقل اختاره حاكما لمصر السفلى فأقرّه العرب فى مكانه، وكان رجلا غرا جاهلا يكره المصريين كرها شديدا. ويذكر رجلا آخر اسمه (شنوده) أو (سنيوتيوس) أقرّه العرب على حكم الريف و(فيلوخينوس) أقروه على حكم

---

(١) نسخة المتحف البريطانى صفحة ١٠٦ وفى نسختنا هذه ص٥٨٢، أنظر كذلك كتاب حياة «الأنبا صمويل» صفحة ٥٨ وقد أقتبس فيه من تقويم حياة القدّيسين.

(أركاديا) وهى الفيوم. ويصف المؤرخ القبطى هؤلاء الثلاثة بأنهم كانوا يكرهون المسيحيين ويوالون أعداءهم ويثقلون كاهلهم بالأحمال الباهظة. وكان القبط يكرهون على أن يحملوا للعرب مؤونة لدوابهم وطعاما لأنفسهم كثيرا من اللبن والعسل والفاكهة والخص وسوى ذلك من الأشياء فوق ما كانوا يؤدّونه من الطعام المعتاد وهو الضريبة التى كانوا يأخذونها من ثمار الأرض. وكان القبط يؤدّون كل ذلك تحت ظل خوف لا اطمئنان معه.

وهذا الوصف له شأن كبير من وجهين: الأول أن هؤلاء الحكام الثلاثة الذين سماهم المؤرخ كانوا أكبر حكام مصر بعد حاكم الإسكندرية، وكانوا من الروم الملكانيين أتباع قيرس، ولم يكن بهم عطف على القبط لا فى دينهم ولا فى دنياهم، وهذا يدل على أن الذين دخلوا فى الإسلام لم يكونوا كلهم من القبط فإن بعض من أسلم من كبراء القوم كانوا من الروم، وأما الوجه الثانى فهو أنه قد ثبت أن عمرو بن العاص كان يعامل المصريين قبل فتح الإسكندرية وبعدها أشدّ المعاملة.

لم يبق بعد ما ذكرنا إلا قليل من القول فى وصف الشهور الستة التى مرت على الإسكندرية بين موت قيرس وبين دخول جنود العرب فيها. فإننا لا نعرف شيئا أكيدا من حوادث هذه المدّة إلا اختيار خلف للمقوقس بطريقا للمذهب الملكانى، ولم يحدث ذلك إلا بعد أن مضى نيف وثلاثة أشهر على موت المقوقس. ففى الرابع عشر من شهر يوليه فى عيد القديس (تيودور) ألبس الشماس بطرس لباس البطرقة، وجلس على العرش الذى خلا من آخر بطارقة الإسكندرية تحت حكم الروم. ولعل ذلك الابطاء كان لاستشارة القسطنطينية، أو لعله كان لتردّد أهل الدين فى قبول تلك الولاية بعد أن انشقت الولاية الدينية فى مصر عن السلطة الدينية فى الامبراطورية، وأصبح أمرها مخوفا مضطربا، مع أن أهل مصر كانوا قد أخذوا يعرفون بطلان أحلامهم التى كانوا يمنون بها أنفسهم من الاطمئنان إلى حكومة العرب واستقرار الأمور معها، وثبوت ما يطلب منهم فيها من ضرائب لا تزداد عليهم. إذ جاء أن أهل البلاد جميعا كانوا يئنون من شقائهم فى حكم العرب، وكان أجل المصاب ما أصاب مدينة الإسكندرية من ذلك، فقد فسد حال التجارة التى كانت تدر الخير على أهلها، وخرج منها جماعة من أغنياء أعيانها وتجارها عوّلوا على الهجرة والنزوح عنها؛ فصار عبء الضرائب والجزية التى فرضها العرب الى كواهل من بقى فى المدينة من الناس فأبهظها، وأخذ الناس

يحسون ما فى دخول العدوّ فى بلادهم من ذل لهم وتضييع لملتهم، ولم تجدهم فى ذلك ألفاظ معسولة وأقوال ناعمة كان قيرس يزجيها إليهم.

فكان الهم والغم يظلان المدينة فى الأسابيع الأخيرة من مدّة الهدنة، وكان كثير من المنازل قد خلا من أهله، وهدأت ضجة الارتحال من مراسى المدينة بعد أن تحملت سفن يتلو بعضها بعضا بالنازحين من الروم ومتاعهم وأثاثهم، وسارت بهم إلى الشمال إلى حيث لا عودة، ولم يبق إلا أسطول كبير يتجمع فى مرفأ الإسكندرية ليحمل من بقى من جنود الروم. والظاهر أن الذى كان يقوم على ترحيل جنود الروم من بلاد مصر السفلى اثنان من القادة وهما (تيودور) الذى أصبح حاكم مصر بعد موت قيرس، و(قسطنطين) الذى أصبح القائد الأعلى لجيش بيزنطه بعد (تيودور)، وكانا يقومان بما يقومان به بالاتفاق مع العرب. وكان النيل عند ذلك قد أخذ يزداد، وصارت الترع صالحة لسير السفن ونقل الأشياء، ولهذا السبب وقع الاختيار على ذلك الوقت لخروج الروم. فما أن حل حتى ركبت بقية جيش بيزنطه فى السفائن مع (تيودور) و(قسطنطين)، وهبطوا نحو الإسكندرية. وعند ذلك أطلق سراح من كان فى يد العرب من الرهائن الذين أودعوهم حصن بابليون، أو لقد ذهب العرب بهم حتى لحقوا بأصحابهم فى العاصمة.

دار الفلك دورته وعاد عيد الصليب، وكان من عجائب المقدور أن اتفق فى ذلك اليوم الرابع عشر من سبتمبر من العام المنصرم مجىء المقوقس رئيس الأساقفة الخائن فى رجعته الى مصر، ثم عاد اليوم بعد عام ليشهد آخر مشهد من زوال ظل السلطان البيزنطى عن مصر. فكانت صلاة إعلاء الصليب تتردّد أصداؤها فى الكنيسة، فى حين كانت السفن تتجهز آخر جهازها فى الميناء ويؤذن لها بالسير. فما طلع اليومى الثالث بعد هذا وهو اليوم السابع عشر من سبتمبر حتى كان أسطول (تيودور) يحل قلاعه ويرفع مراسيه ويسير إلى قبرص بمن كان عليه من فلول جيش الروم يرفرف عليهم الأسى.

فتح پنتاپولس

ما أن أمن العرب على مصر ولما ينقض فيها القتال كله، حتى عوّل قائدهم على إنفاذ حملة الى پنتاپولس، حتى اذا ما انقضت تلك الهدنة ودخل العرب الاسكندرية لم يبق عليه إلا

أن يقيم للمدينة وحدها نظامها. ولو كان الأمر غير ذلك لما استطاع عمرو أن ينفذ حملته الى بلاد المغرب بعد مثل ذلك الزمن القصير من فتح العاصمة، فانه أنفذه فى تاريخ لا يمكن أن يقع بعد أوّل عام ٦٤٣[١] بزمن طويل.

لقد كان فى القرن السابع سلسلة من المدائن والمنازل على الطريق بين الاسكندرية و(قيرين)، وأن أكثر الطريق كان فى أرض خصبة ذات زرع. واذا قلنا إن السير فى ذلك الطريق كان سهلا على جند الروم فانه كان نزهة لفرسان العرب خاصة وانه صحبهم فى البحر اسطول بحرى محمل بالمؤن والعتاد تحت قيادة الدوكس سانوتيوس.، ولم يلقوا فى سيرهم هذا كبير كيد، فلا يذكر أنه قد وقع قتال حتى بلغ العرب (برقة). والظاهر أنها سلمت لهم صلحا، على أن تدفع للعرب ثلاثة عشر ألف دينار جزية معلومة كل عام[٢].

وقد جاء فى شروط ذلك الصلح شرطان عجيبان: الأوّل أنه أبيح لأهل برقة أن يبيعوا أبناءهم ليأتوا بالجزية المفروضة، والثانى أنه كان عليهم أن يحملوا الجزية الى مصرحتى لا يسمح بدخول جباة الجزية الى بلادهم، ولعل المشترى هنا كان العرب انفسهم.

وسار عمرو بعد فتح برقة الى طرابلس وكانت أمنع حصونا وأعز جيشا، فقد كانت بها

---

(١) جاء فى ابن الأثير (الجزء الثالث صفحة ١٩) أن غزو برقة كان فى سنة ٢٢ للهجرة (أى من ٣٠ نوفمبر سنة ٦٤٢ الى ٢٠ نوفمبر سنة ٦٤٣) وجاء فى الكتاب نفسه (صفحة ٣٨) ذكر التاريخ الصحيح لوفاة عمر وهو أجدر بالتصديق من ياقوت وابن خلدون إذ يذكر أن الغزوة كانت فى سنة ٢١ للهجرة. وقد ذكرنا فى موضع آخر أن ذلك الخلاف قد يكون ناشئا عن أن عمرا بدأ سيره بعد أوّل السنة الهجرية بزمن يسير. ولقد أرسلت بلا شك سرية أخرى الى بنتابولس فى سنة ٢٥ للهجرة ولكن كلتا الغزوتين مميزة عن الأخرى على الأقل فى ابن الأثير. والأمر ليس فيه شبهة من الشك لأن الغزوة الثانية تتفق كل الاتفاق مع ترتيب تاريخ الحوادث المعروفة فى حين أننا لو ذهبنا الى أن المقصود هو الغزوة الأولى لحدث اضطراب فى نظام حوادث أخرى معروفة التاريخ وفوق ذلك فان ابن بطريق يفيدنا هنا فائدة كبرى فانه يقول «إن عمرا فتح طرابلس للغرب فى سنة ٢٢ للهجرة فى السنة الثانية والعشرين من حكم هرقل والسنة العاشرة من خلافة عمر» فأما تاريخ هرقل فيجب علينا إغفاله لأن (ابن بطريق) لا يفتأ يخطىء فى ذكره ولكن سنة ٢٢ للهجرة تتفق مدّة نصف عام مع السنة العاشرة من خلافة عمر فقد بدأت خلافته فى ٢٤ يوليه سنة ٦٣٤ فالسنة العاشرة من خلافته تبدأ فى أوائل الصيف من عام سنة ٦٤٣ فى حين أن سنة ٢٢ للهجرة تنتهى فى نوفمبر سنة ٦٤٣ ولعل فتح مدينة طرابلس كان فى مايو أو يونيه من ذلك العام.

(٢) يتفق ابن الأثير وياقوت وابن خلدون فى أن عمرا صالح على هذه الشروط ولكنهم لا يذكرون قتالا.

حامية كبيرة من الروم، فأقفلت أبوابها وصبرت على الحصار الذى وضعه العرب عليها بضعة أسابيع لم يأتها إمداد من البحر حتى اذا ما كاد جيشها يهلك من جهد القتال وشدّة الجوع، عرف العرب أن المدينة كانت غير محصنة من قبل البحر، وأنهم يستطيعون النفوذ اليها من هناك. فدخل جماعة منهم بين أسوار المدينة والبحر وقاتلوا عدوّهم من هناك، فذعر المدافعون عن المدينة وحملوا ما استطاعوا حمله من متاعهم وأسرعوا الى السفن وحلوا قلوعها، وفى أثناء ذلك ترك الحرّاس الأبواب ودخل عمرو بجيشه الى المدينة.

سار عمرو مسرعا كما اعتاد السير فطلع بغتة على مدينة سبرة [زراره حاليا]، وهاجمها فى أوّل الصباح، وأخذ الناس على غرة إذ كانوا يظنون أن العرب لا يزالون فى شغل فى حصار طرابلس. ولهذا فتحت المدينة عند أوّل حملة حملوها عليها، وكان أخذها عنوة. فاعمل فيها العرب النهب وكان هذا ختام تلك الحرب السريعة، فعاد عمرو الى برقة وجاءت اليه من بدو البربر قبيلة لواته فدانت له، وهى جل من كان يسكن تلك البلاد. فلما تم له ذلك عاد بجيشه الى مصر ومعه عدد عظيم من الأسرى ومقدارى كبير من الغنائم.

ولعل عودة عمرو إلى حصن بابليون كان فى صيف سنة ٦٤٣، وكان جسر النيل قد أعيد هناك فيما بين الروضة وبابليون على الشاطئ وبينها وبين الجيزة على الشاطئ الغربى .ولكن الشاطئ الغربى ومدينة منف التى كانت عليه كانا عرضة للغارات المباغتة من القبائل الصحراوية الضاربة فيما وراء الأهرامات، فأمر عمرو ببناء قلعة فى الجيزة تدفع المغيرين من قبلها، وتمكن للعرب فى جانب النيل الآخر، فيكون سلطانهم مبسوطا على الضفتين معا. فتم ذلك قبل حلول شهر نوفمبر من ذلك العام.

أصبح السلام سائدا عند ذلك فى كل بلاد مصر السفلى وبلاد وادى النيل الى حدوده الجنوبية عند أسوان، ولكن النوبه كان عند ذلك قذى فى عين حكام مصر، وهو لا يزال كذلك فى كل العصور، وذلك لأن قبائله لا يسهل قيادها. وكانت فى جبالها أو صحرائها لا ترضى بدين المسيح بدلا ولا تحب الدخول فى الإسلام، ولا تزال تنظر الى بلاد مصر ذات الخيرات أنها غنيمة لها كما كانت لآبائها وأجدادها لا تدع الاغارة عليها. وقد أرسل عمرو الى بلاد النوبة جيشا يغزوها ولكنه لم يستطع أن يهزم أهلها بل اضطرّ للعودة، بعد أن لحقت به خسارة عظيمة مما أصاب الناس من سهام رماة النوبة الذين سماهم العرب بعد ذلك رماة

الحدق. وبقى القتال بعد ذلك ينشب بين حين وحين مدّة بضع سنين الى أيام خلافة عثمان، فعقد صلح مع أهل النوبة على أن يدفعوا كل عام جزية من العبيد الى والى مصرى، وشرط لهم العرب أن يرسلوا اليهم خلعة ومؤونة. ومن ذلك يظهر أن الصلح كان صلح ندين إذ لم يكن الوقت قد حان لفتح بلاد النوبه.

إعادة بنيامين

لما مات البطريق الرومانى (قيرس)، ورحلت عن مصر جيوش الروم التى كان سلطانه يعتمد عليها، حدث تغير كبير فى حال الأحزاب الدينية، فقد أقيم خلف لبطريق الرومان فى الإسكندرية ليقوم على ولاية أمر المذهب الملكانى، ولكن ولايته كانت لا تتعدّى أسوار المدينة، وذهب عنه سلطانه وانفض من حوله كثير من أتباعه. ولكن بطريق القبط كان لا يزال على اختفائه طريدا يضرب فى أنحاء الصعيد، ويهيم على وجهه فيه. فكان يخيل إلى الناس أن مذهبه قد بات صريعا لا تكاد الحياة تدب فيه، مما أصابه من الوطء والعسف فى محنته التى تطاولت به مدّتها نحو عشر سنوات على يد قيرس الذى كان لا يعرف الرحمة، ولا تخطر على قلبه هوادة. وقد أصبحت مصر بعد وليس دينها دين المسيح، إذ وضعت عليها حماية الاسلام تعلو أحزابها جميعا، وأصبح سيفه بينها فيصلا حائلا. فأدّى ذلك الى تنفس الناس فى عباداتهم واختيار ما يشاءونه فى تدينهم، فلم يكن بالمسلمين اهتمام لمنازعات الأحزاب فى شأن مجمع خلقيدونية، واختلافها فى صدق ما أقرّه ذلك المجمع أو كذبه، وأصبح القبط فى مأمن من الخوف الذى كان يلجئهم إلى إنكار عقيدتهم أو إخفائها تقية ومداراة. فعادت الحياة إلى مذهب القبط فى هذا الجوّ الجديد، وما لبث أن صار مذهب الكثرة الذى يحق له أن يكون مذهب الأمة السائد. وقد قضى عمرو بن العاص بأنه كذلك، وأنفذ قضاءه بأن كتب أمانا لبنيامين وأقرّ عودته.

وقيل إن الذى حدا بعمرو إلى المبادرة بهذا الأمر ما أبلغه إياه رجل اسمه سنوتيوس (أو هو شنودة)، وكان من قبط مصر، إلا أنه كان مع ذلك من بين قواد جيش الرومان[١]. ولكن الموضع الذى كان به (بنيامين) كان مجهولا لا يعلم به أحد، ولا يعرفه (شنودة) نفسه. وعلى

(١) ساويرس النسخة الخطية بالمتحف البريطانى صفحة ١٠٦ سطر ١٠ وص٥٨٢ من كتابنا هذا، وأكثر الحقائق التى أوردناها هنا مأخوذة عن ذلك المصدر.

ذلك كان لابد من كتابة أمر الأمان على هيئة كتاب لا تخصيص فيه، وكانت صورته كما يلى:

«أيما كان بطريق القبط بنيامين نعده الحماية والأمان وعهد الله فليأت البطريق إلى هاهنا فى أمان واطمئنان ليلى أمر ديانته ويرعى أهل ملته». وليس بالمستبعد أن يكون سعى (شنودة) هذا كان فى الوقت الذى جاء فيه رهبان وادى النطرون إلى عمرو يظهرون له الطاعة لحكيم المسلمين. فقد روى المقريزى نقلا عن بعض مؤرخى المسيحيين أن سبعين ألفا من الرهبان خرجوا من تلك الأديرة للقاء عمرو بن العاص، وكان كل منهم يحمل فى يده عصا. فلما دانوا له بالطاعة أعطاهم كتابا لا شك أنه كان (عهد أمان)، ولعله كان العهد الذى نذكره الآن وهو عهد بنيامين[١].

ولم يلبث عهد الأمان أن بلغ بنيامين فعاد من مخبئه ودخل إلى الاسكندرية دخول الظافر، وفرح الناس برجوعه فرحا عظيما بعد أن بلغت مدة غيابه ثلاثه عشر عاما منذ هجر مقرّه وهرب إلى الصحراء الغربية عند مقدم (قيرس). ومن هذه المدة عشر سنين وقع فيها الاضطهاد الأكبر والثلاث الباقية كانت فى مدّة حكم المسلمين[٢]. وكان بنيامين فى كل هذه المدة يتنقل خفية بين أصحاب مذهبه، أو يقيم مختبئا فى أديرة الصحراء.

ولما أبلغ شنودة عمرو بن العاص مقدم بنيامين أمر عمرو باحضاره إليه، وأمر بأن يقابل بما يليق به من الترحاب والتكريم.

وجعله أميرا على قومه لا يدافع فيهم أمره، وجعل له ولاية أمر دينهم.

ولقد كان لعودة بنيامين أثر عظيم فى حل عقدة مذهب القبط وتفريج كربته، إن لم تكن عودته قد تداركت تلك الملة قبل الضياع والهلاك، إذ لم يكن قبط مصر فى وقت من

(١) ذكر المقريزى ذلك الخطاب ويقول إنه لا يزال موجودا فى وادى النطرون. ويذكر كتابا آخر من عمرو عن خازن الأقاليم الشمالية ويقول إنه محفوظ فى دير مقاريوس ولا يذكر ساويرس شيئا عن الوفد بل يكتب أنه كان «سينوتيوس القائد المؤمن الذى سعى فى عودة اليطريق وحصل له على الأمان من قائد المسلمين». وقد جاء ذكر وجود هذا الخطاب فى دير مقاريوس فى كتاب اميلنو (Hist. des Monastéres de la Basse Egypte)

(٢) اتفق المؤرّخون فى مدّة نفى بنيامين وتقسيمها فيقول ساويرس إنه رجع بعد «غياب ثلاثة عشر عاما: عشرة منها فى حكم هرقل، وثلاثة فى حكم المسلمين» أن عودة بنيامين كانت قرب الخريف من سنة ٦٤٤ أى فى آخر سنة ٢٤هـ.

الأوقات أشدّ حاجة منهم فى ذلك الوقت إلى ذى رأى حصيف وخلق متين يقودهم ويلى أمرهم، فقد كان منهم من خرجوا من عقيدتهم وهم ألوف، ورضوا باتباع مذهب (خلقيدونيه) خوفا من اضطهاد قيرس. ولاشك أن الخروج من الدين كرها أو خوفا لا يكون فى مبدأ أمره حقيقيا، ولكن لقد مضى على ذلك الأمر عشر سنين واعتاد الناس السير على ما دخلوا فيه، وما كان بناء عشر سنين ليتهدّم فى لحظة ويزول. ولقد كان أشدّ خطرا على القبط من كان يخرج منهم إلى الاسلام.

ولم يكن من اليسير أن يعاد من خرج من المسيحية إلى حظيرتها بعد أن قطع أسبابها، فان ذلك كان لا رجاء فيه. ولكن الأمر كان على غير ذلك فى أكثر من اضطر إلى اتباع مذهب الملكانيين خوفا أو كرها. وقد كان لعودة بنيامين إلى عرش الإسكندرية وأبنائها رنة طرب فى قلوب أهل مصر جميعا، فعاد جل العامة إلى راعيهم القديم والفرح يملؤهم، «ونالوا أكليل الاعتراف»[١]. ونادى البطريق المطارنة الذين اتبعوا مذهب الدولة أن ارجعوا إلى سابق عهدكم وملتكم، فعاد بعضهم يذرفون الدمع السخين ندما، ولكن قيل إن واحدا منهم أبى أن يعود حتى لا يلحقه العار خوف أن تعرف عنه الردّة الأولى. ولعل الكثيرين كانوا مثله فى هذا. ومهما يكن من الأمر فقد نما أمر القبط وزاد اتباع ملتهم. وكان هم بنيامين فى أوّل الأمر أن «يقدح فكره ليلا ونهارا فى أمر رعيته وارجاع من ضل منهم فى أيام هرقل». فلما أن تم له جمع قومه ولم شعثهم اتجهت همته إلى إصلاح ما تهدّم من الأديرة، ولا سيما ما كان منها فى وادى النطرون، وقد لحقها من التخريب فى أوائل القرن السابع ما لم تعد معه إلى سابق عهدها.

وقد استطاع أن يجد ما يلزم لذلك الإصلاح من المال، ثم أتمه على ما أراد. وقد وصف (ساويرس) ما يتصل بهذا الأمر من الحوادث وصفا شائقا فقال إن جماعة من الرهبان وفدوا إلى الاسكندرية حتى دخلوا بيعة السيدة الطاهرة مرتمريم ام النور التى تدعى «اسطوا انجالون»[٢]، وكان بنيامين عند ذلك يصلى بالناس صلاة عيد الميلاد. فطلبوا إليه أن يذهب

---

(١) ساويرس ص٥٨٧ من كتابنا هذا.

(٢) اللفظ المستعمل هو (Stoa Angelion) وهو نقل عن اللفظ اليونانى ويشير إلى الكنيسة التى اسمها الانجيليون ولعل هذا دليل على أن اسم (Angelion) أصح من (Euangelion). انظر ص ٦٠٣ من كتابنا هذا.

معهم ليبارك الكنيسة الجديدة التي بنيت في الصحراء بوادى النطرون وهى كنيسة القدّيس (أبى مقار)، فأجابهم بنيامين إلى ما طلبوا وسافر معهم الى (المنى) و(جبل البرنوج) حتى بلغ (دير البراموس)، وذهب بعد ذلك من هناك لزيارة الأديرة الأخرى. وجاء في اليوم الثانى من شهر يناير إلى (دير مقاريوس)، فلقيه هناك المعلم الأكبر (بازل) مطران نقيوس، ورحب به فى موكب حملت فيه بين يديه المباخر وسعف النخيل. وفى اليوم التالى وهو الثامن من شهر طوبة احتفل بمباركة الكنيسة واتفقت له عند ذلك - كما قال ساويرس - آيات وكرامات لا محل لذكرها هنا. ولعله من المستحسن أن نذكر هنا كلمات (بازل) الذى شكر الله على ما أولى البطريق من زيارة الصحراء المباركة مرة ثانية، وأن يرى من فيها من الآباء المقدّسين والأخوة الطيبين الأبرار، ويشهد بها شعائر الدين القويم. ثم شكر الله على أن أنجاه من الكفرة وحفظ قلبه من ذلك الطاغية الأكبر الذى شرده، فعاد إلى أبنائه يراهم ملتفين حوله مرة أخرى[1].

وان هذا القول لا ينم عن قوم يشعرون بأنهم فى قيد الذل، بل ينم عمن يبتهج بالنجاة والخلاص. وقد جاء فى غير هذا الموضع من كتاب الكاتب عينه ما يؤيد هذا المعنى ويوافقه. قال على لسان بنيامين «كنت فى بلدى وهو الاسكندرية فوجدت بها أمنا من الخوف واطمئنانا بعد البلاء، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم»[2]. وقد وصف قومه بأنهم «فرحين مثل العجول الصغار إذا حل رباطهم واطلقوا على لبان أمها تهم[3]».

ثورة الاسكندرية بقيادة منويل

ظهر بعد أن فتح مصر لم يتم، فان الحرب بعد أن ظن الناس أنها قد وضعت أوزارها، عادت جذعة، إذ جاء الروم يسعون سعى المستميت أن يسترجعوا ما فقدوه من ملكهم، ولا يسعنا إلا أن نصف هذا السعى ولو على وجه الايجاز.

وقد أخطأ عمر بن الخطاب فى أنه كان مع عماله جميعا على سوء الظن يتوقعون منه العزل والمحاسبة، فقتل لبضعة أيام بقيت من ذى الحجة من عام ٢٣ للهجرة، ودفن فى غرة المحرم من عام ٢٤ للهجرة ٧ نوفمبر سنة ٦٤٤، وفى ذلك اليوم أختير عثمان خليفة له. على

---

(١) ساويرس ص٥٨٤ متن ساويرس العلوى.

(٢) نفس الكتاب نفس الصفحة.

(٣) انظر ص ٥٩٥ متن ساويرس العلوى.

أن عمر وإن أخطأ فى بعض أمره فقد كان عثمان الذى جاء بعده يعزلهم. وكان من آخر ما أتاه عمر فى حياته أن قلل من سلطان عمرو بن العاص، وذلك بأنه ولى عبدالله بن سعد بن أبى سرح حكم الصعيد والفيوم، وجعل اليه جباية الخراج. فأتم عثمان ما شرع فيه عمر بان عزل ابن العاص عن ولاية مصر، وجمع ولايتها جميعا لعبدالله بن سعد.

الذى يصفه الطبرى بأشنع الصفات فيقول عنه: «لم يكن فى وكلاء عثمان أسوأ من عبدالله والى مصر». وكانت ولايته هذه فى وقت ساء فيه حكم الولاة وثارت ثورة الناس عليهم وعلى الخليفة لجورهم فى الحكم. والظاهر أن من وصف عبدالله وصفا حسنا إنما يدل على سخافته وحماقته، وليس لوصفه قيمة فى التاريخ فانه لا مراء فيما ارتكبه فى مصر من الظلم. وقد ولاه الخليفة قصدا لكى يزيد فى جباية الجزية، وإن لدينا من الأسباب ما يحملنا على أن نقول إن عبدالله قد جعل أوّل همه زيادة الضرائب على أهل الاسكندرية، إذ لا شك أنهم كانوا عند ذلك يرزحون تحت عبء ثقيل من الضرائب. ولقد كان من أثر هذا العبء الثقيل أن جماعة من زعمائهم أنفذوا كتبا إلى الامبراطور (قسطانز) فى قسطنطينية، يسألونه أن يخلصهم من ظلم المسلمين. وقالوا له إن الاسكندرية ليس فيها إلا حامية ضعيفة لا تقوى على دفع جيش رومانى.

فأثرت هذه الكتب فى الامبراطور، إذ أنه لم ينس ما أصابه فى عزته وما لحق دولته من الضرر من ضياع مصر، فأمر بإعداد قوّة عظيمة وتكتم أمرها كتمانا شديدا. وكان الروم الى ذلك الحين لا يزالون على سلطانهم فى البحر غير مدافعين ولا معاندين.

لم يكن للعرب فى الوقت الذى نصفه الآن سفن تأتيهم بأنباء أسطول الروم الذى بعث به الامبراطور بقيادة منويل للاستيلاء على الاسكندرية. فما فجأ العرب إلا أسطول عظيم يدخل ميناء الاسكندرية فى عدّة ثلثمائة سفينة، وألقى فيها مراسيه غير مدافع[١]. ولم يكن

---

(١) اختلفت المصادرة على عادتها فى هذا الأمر فقال ابن خلدون إن الأسطول بقى بعيدا عن الشاطى لأن المقوقس منع الروم أن ينزلوا بالأرض ولكن المقوقس كان قد مات طبعا. وقال ابن عبدالحكم ان الأسطول رسا فى الاسكندرية وإن الروم الذين كانوا فى المدينة انضموا الى جنود الامبراطورية. وأما غيرهما من مؤرخى العرب فيقولون بوضوح إن الروم أخذوا المدينة وقتلوا حاميتها.

بالمدينة إلا ألف رجل من العرب للدّفاع عنها، فغلبهم الروم وقتلوهم جميعا إلا نفرا قليلا منهم استطاعوا النجاة، وعادت بذلك الاسكندرية الى ملك الروم. بعد أن كانوا قد سافروا فى البحر ورحلوا عن مصر، فأخذوا العرب على غرة وهم متفرّقون، فملكوا المدينة مرة ثانية، ولبثوا يحكمونها بعد ذلك حينا قصيرا. وليس ثمت من حقيقة لهذه الرواية فانما منشؤها خطأ فى التأويل، وذلك أنهم خلطوا بين فتح الاسكندرية فى المرّة الأولى وفتحها فى المرّة الأخيرة، ومزجوا بين وصفى الحادثين. فهم يقولون مثلا إن فتح الاسكندرية كان فى المرّة الأولى عنوة وجعلوا بناء روايتهم كله على أنها فتحت عنوة، فى حين أنا قد بينا بيانا واضحا لا نزاع فيه أن فتح الاسكندرية فى المرّة الأولى كان صلحا، وأن العرب جعلوا لأهلها هدنة مدّتها أحد عشر شهرا، ثم دخلوا بعد ذلك الى المدينة مسالمين، وظلوا بعد ذلك على ملك المدينة لا يحدث لهم حدث حتى جاء منويل فى بعثه[1].

وقد اتفق مؤرّخو العرب اتفاقا يقل مثله على أن استرجاع الروم لمدينة الاسكندرية قد وقع فى أوائل السنة الخامسة والعشرين للهجرة وذلك نحو آخر سنة ٦٤٥ للميلاد[2]. ولكنهم لم يتفقوا مثل هذا الاتفاق فى ذكر المكان الذى كان فيه عمرو بن العاص عند ذلك فإذا صحت

(١) نثبت هذه القصة من قول السيوطى إذ قال «لما هزم الله الروم وفتح الاسكندرية وهرب الروم فى البر والبحر خلف عمرو بن العاص بالاسكندرية ألف رجل من أصحابه ومضى عمرو ومن معه فى طلب من هرب من الروم فى البر فرجع من كان هرب من الروم فى البحر الى الاسكندرية فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب منهم» (حسن المحاضرة صفحة ٧٣) ولكنى هذا خلط ناشىء من مؤلف يجمع الأخبار وهو يجهل ترتيبها التاريخى الصحيح وهذا الحادث ليس إلا ترجيع ما حدث فيما بعد فى أيام غزوة منويل ونقول كذلك إن هذا الخبر الذى يذكر فيه نزول الروم على الاسكندرية مرتين يرد فى كتاب ابن بطريق وهذا دليل بغير شك على أن كلا المؤلفين نقل عن مصدر واحد وهو مصدر فاسد فاذا ما قام الدليل كما فعلنا من قبل على أن فتح الاسكندرية الأوّل كان صلحا نقضت هذه القصة من أساسها فجمل القول أن القصة لا يقوم عليها دليل صحيح وهى تعارض حقائق قام البرهان عليها وثبتت بغير شك ولا يذكر حنا النقيوسى شيئا عنها وعلى ذلك يجب علينا أن نبعدها عن حقائق التاريخ.

(٢) ذكر البلاذرى هذا التاريخ ثم ذكر احتمال أن يكون ذلك سنة ٢٣ هجرية. وأما ابن الأثير فانه يذكر أن ذلك كان سنة ٢٥ للهجرة ويتفق معه فى ذلك ياقوت وأبو المحاسن. وأما المقريزى فانه يذكر أن فتح الروم للاسكندرية كان سنة ٢٤ هجرية وأن فتح العرب لها وقع سنة ٢٥ للهجرة. وذكر ذلك أبو المحاسن وقال إن هزيمة الروم كانت فى ربيع الأول وهو يوافق يناير سنة ٦٤٦ ولكن هذا لا يكاد يترك وقتا كافيا لحوادث ذلك القتال.

رواية الطبرى، وروايته جديرة بالتصديق، كان عمرو عند ذلك فى مكة[1] معزولا، فلما جاءت أنباء هذه الثورة أمر بأن يعود إلى قيادة الجيش بمصر. وعلى أى حال فالظاهر أنه عزل قبل مجىء الروم، ولم يلتفت خلفه العاجز إلى حماية البلاد فأهمل تحصينها، حتى بدا عجزها واشتدّ خللها. ولم يقف جيش (منويل) عند الاسكندرية بعد أن ملكها وخلصت له، بل سار إلى ما يليها من بلاد مصر السفلى ينهب فيها ويغصب القمح والخمر والأموال من أهل قراها، لا يدافعه مدافع. والظاهر أن الروم لم يعبأوا بمن تودّد إليهم، فكان جندهم أينما حل أو سار فى البلاد يعامل الناس معاملة أعداء قد فتحت بلادهم.

غير أن القبط كانوا على وجه الاجمال لا يرجون خيرا من وراء رجوع سلطان الروم، إذ كانت ذكريات قيرس وعسفه لا تزال منقوشة على قلوبهم، وكانوا غير ساخطين على ما هم فيه مع ما أخذ يظلهم عند ذلك من خوف العرب وظلمهم، إذ كانت لهم طمأنينة على دينهم ودنياهم ما كانوا ليحتفظوا بها إذا عاد حكم الروم. ولسنا نعلم علم اليقين أبقى البطريق بنيامين عند ذلك فى الاسكندرية أم هرب قبل مجىء جيش الروم، على أننا نرجح هروبه وغيابه عن العاصمة فى ذلك الوقت. والأدلة على ذلك قوية، ولكن لا شك فى أنه وقف مع قومه من القبط يشدون أزر العرب ويساعدونهم ويظهرون لهم الود حافظين بذلك عهدهم الذى تعاهدوا عليه فى صلح الاسكندرية.

(١) انظر الطبرى طبعة (Zotenberg) الجزء الثالث صفحة ٥٥٩ قال إنه فى أول السنة الخامسة والعشرين للهجرة أخذ عثمان فى عزل عمال عمر ولكنه لما سمع بثورة الاسكندرية جعل عمرا (يسافر الى مصر) وهذا يفيد أن الفتح الثانى كان بعد أول سنة ٦٤٦ بمدّة طويلة. ويذكر البلاذرى أن عمرا عزل من الولاية فى سنة ٢٥ للهجرة وحل محله عبدالله بن سعد. وقال النواوى إن استعماله كان فى تلك السنة ولكن ابن الأثير يذكر أن ذلك كان فى سنة ٢٦ للهجرة. وأما ابن عبدالحكم فانه عند ذكر الثورة يقول إن عثمان كان قد عزل عمرا فى ذلك الوقت وقد نقل عنه المقريزى هذا!! (الخطط الجزء الأول). وقال المقريزى فى موضع آخر عند ذكر ولاة الفسطاط يذكر عبدالله ابن سعد إن منويل الخصى هاجم الاسكندرية فطلب الناس من الخليفة أن يستعمل عمرا لقتال الروم وبالاجمال يظهر أنه من الثابت أن عمرا قد عزل قبل الثورة ولكنه ليس من الجلى إذا كان قد ترك مصر. فأما ابن بطريق فانه يذكر صراحة أنه كان لا يزال فى مصر. وأما أبو المحاسن فانه يقول إن عثمان أزال عنه أعباء الولاية حتى يفرغ لقتال منويل.

وفيما كان الروم يتمتعون بما فى مصر من ملاذ ويضيعون الفرصة على عادتهم فى تضيع ثمين الفرص إذا ما سنحت لهم، عاد عمرو إلى قيادة جيش العرب فى بابليون. وقد دعاه العرب لذلك وألحوا فيه منذ رأوا أنه رجل داهية لا يدانيه مدان فى مكيدة الحرب، ولا يثق الناس فى أحد ثقتهم فيه لما اعتادوا من النصر على يديه، وشعروا بأنهم فى أشدّ الحاجة إليه فى ذلك الوقت العصيب الذى لم يأت عليهم وقت أشدّ منه منذ غزوا بلاد مصر. ولو لم يضع الروم وقتهم فى بلاد مصر السفلى بل ساروا لا يلوون على شيء قاصدين إلى الفسطاط لما بعد عليهم أن يهزموا عبدالله ويأخذوا حصن بابليون، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل تهاونوا حتى استطاع عمرو أن يحضر إلى مصر ويجهز جيشه بها، ولم يكن من رأى عمرو أن يسرع فى أمره وهذا غير ما كان يراه خارجة بن حذافة الذى كان عند ذلك قائد حامية حصن بابليون، إذ كان يرى أن التأخر ضارّ بالمسلمين مصلح لأمر الروم، وأشار على عمرو أن يبادر إلى العدوّ قبل أن يأتيه المدد أو يثب أهل مصر جميعها وينتقضوا على العرب. ولكن عمرا كان يرى خلاف ذلك فقال: «لا ولكن ادعهم حتى يسيروا إلىّ فإنهم يصيبون من مروا به فيخزى الله بعضهم ببعض».

وعلى هذا سار الروم على مهل حتى استدرجوا إلى نقيوس، وهناك لقيتهم طلائع العرب. ولعل جيشهم كان إذ ذاك خمسة عشر ألفا. ولم يذكر التاريخ هل استولى الروم على مدينة نقيوس، غير أنه يذكر أنه قد وقع قتال شديد بين الجيشين تحت أسوار حصنها فيما يلى الخليج أو النهر الذى يجرى قرب المدينة.

ولما قتل قائد الفرقة البيزنطى فى المعركة رجع القتال بين الناس واشتد، وانتهى أمره بهزيمة جيش منويل، وفرّ الروم لا يلوون على شيء نحو الاسكندرية. فبلغت فلول جيشهم العاصمة والعرب فى آثارهم، فأقفل الروم الأبواب واستعدّوا للحصار. وكان عمرو فى أثناء سيره فى بلاد مصر السفلى يلقى مساعدة من قرى القبط حيث سار، فكانوا يأتون إليه بمن يقيم له الجسور ويقدّمون له ما كان فى استطاعتهم تقديمه بعد ما حل بهم من نهب الروم وغصبهم. فلما بلغ جيش العرب أسوار الاسكندرية ورأى عمرو ما عليه المدينة من المنعة اشتد به الألم لأنه رأى أنه أخطأ فى ترك أسوارها قائمة، ولم يجعل بها من الجند حامية قوية، وحلف لئن أظفره الله بها ليهدمن أسوارها حتى تكون مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان. وجعل عسكر العرب فى الجانب الشرقى من المدنية وهو الجانب الذى كان الحصار منه ممكنا، وقيل إنه فتح

المدينة بخيانة من داخلها، كما وقع لها فى حصار دقلديانوس. فقد قيل أنه كان فى الاسكندرية بواب اسمه (ابن بسامة)، سأل عمرا أن يؤمنه على نفسه وأهله وأرضه ويفتح له الباب، فأجابه عمرو إلى ذلك[١].

ومهما يكن من الأمر فقد أخذ العرب المدينة عنوة ودخلوها يقتلون ويغنمون ويحرقون حتى ذهب فى الحريق كل ما كان باقيا على مقربة من الباب فى الحى الشرقى، ومن ذلك كنيسة القدّيس مرقص. واستمر القتل حتى بلغ العرب وسط المدينة، فأمرهم عمرو أن يرفعوا أيديهم، وبنى مسجد فى الموضع الذى أمر عمرو فيه برفع السيف وهو «مسجد الرحمة». وقد لاذت طائفة من جند الروم بسفنهم فهربوا فى البحر، ولكن كثيرا منهم قتل فى المدينة. وكان منويل بين من قتل، وأخذ العرب النساء والذرارى فجعلوهم فيئا.

وكان هذا الفتح الثانى فى صيف سنة ٦٤٦، وكان عنوة بالسيف، وبهذا يكون بين الفتح الأول والفتح الثانى فروق تميز بين وقت وقوع كل منهما وحوادثه. ولكن من سوء الحظ أن كتاب العرب لم يفرّقوا بين الفتحين، وإنه لمن أصعب الأمور وأشدّها استعصاء أن يعيد باحث الى الحوادث نظامها فى كل من الحالين، إذ يجد بعضها داخلا فى بعض مختلطا به اختلاطا من كل وجه. وإنا نرى أن هذا الوصف موضع لذكر حادثة قد وضعت فى غير موضعها فى وصف الفتح الأوّل فنشأ عن ذلك خلط عظيم، وتلك الحادثة هى الزيارة التى قيل إن المقوقس زارها لعمرو ليعرض عليه فيها أمورا عجيبة. ولا شك أن المقوقس قد مات منذ زمن طويل غير أن العرب كانوا يطلقون ذلك اللقب خطأ على أشخاص عدّة، فقد سموا به الحاكم الذى كتب اليه النبى كتابه قبل فتح العرب لمصر، ثم أخطأوا فسموا به بعد الفتح بطريق القبط بنيامين. وعلى ذلك فإنا اذا قرأنا أن المقوقس جاء إلى عمرو فى وقت الحصار ووعده أن يساعده على شروط ثلاثة، كان لابدّ لنا أن نعزو تلك القصة الى (بنيامين)، وما كان منه عند ثورة الاسكندرية واستيلاء منويل عليها.

وفى هذا الوقت إذن نرى أن القبط يمالئون العرب راغبين وهم على عهد معهم، وما زالوا على ذلك حتى هزم الروم وتشتت شمل جيشهم، وفتحت الاسكندرية مرة أخرى.

(١) جاء هذا الخبر فى كتاب السيوطى ويظهر أنه يذكر ذلك مع الفتح الأوّل ولكنه مخطيء فى ذلك على أن القصة قد تكون وقعت فى الفتح الثانى وهذا الخلط بين حوادث الفتحين الأول والثانى لا دواء له.

فى تواريخ غزو العرب لمصر

ما أكثر الصعاب التى تعترض الانسان اذا عالج مسألة التواريخ فى ذلك العصر حتى ليخيل الينا أن الوصول إلى الحقيقة فيها يكاد يكون مستحيلا فليس على الكاتب فيها أن يقابل مسألة واحدة بل عليه أن يقابل عدّة مسائل متشابكة متداخلة يلوح للأنسان أنه اذا حل عقدة منها فى ناحية دعا ذلك إلى تعقد جديد فى ناحية أخرى ولكن المستر (E.W.Brooks) قد عمل كثيرا على تسهيل الأمور فان مقاله الغزير العلم فى ذلك الموضوع بمجلة (Byzantinische Leitschrift ١٨٩٥ صفحة ٤٣٦ ـ ٤٥) يمكن أن يقال أنه أخرج تواريخ ذلك العصر من حيز الظن وجعله قائما على أساس علمى فبحثه يجب أن يكون أساس أى دراسة سواء أكانت دراسة للتواريخ أم كانت لترتيب الحوادث فى ذلك العصر.

والمراجع اليونانية لا قيمة لها كما دل على ذلك المستر بروكس فلا يذكر تيوفانز ولا نيقفوروس فتح الاسكندرية ولو أن الأخير يذكر أن هرقلوناس أعاد قيرس إلى بطرقة الأسكندرية بعد موت أخيه من أبيه قسطنطين فى مايو سنة ٦٤١ وهذا يفيد أن المدينة لم تكن عند ذلك قد فتحت ولا قربت من الفتح وتاريخ نيقفوروس ينتهى إلى سنة ٦٤١ ولا يبدأ بعد إلا من سنة ٦٦٨ ولكن نيقفوروس وتيوفانز لا يوثق بهما فيما يتعلق بأوّل جزء من تاريخ الفتح فتاريخهما ملئ بالمتناقضات وكلاهما يخلط فى ترتيب الحوادث خلطا لابد أن يؤدى فعلا إلى تضليل المؤرّخين الذين يعتمدون عليهما تضليلا كبيرا.

وأما مؤرّخو السوريين والأرمن فيلوح أنهما لا يفضلون اليونانيين فمثلا اليشع النصيبى (نسخة المتحف البريطانى الخطية ٧ ـ ١٩٧ صفحة ٢٩، وقد نقل عنها المستر بروكس) يجعل فتح الاسكندرية فى سنة ٢٠ للهجرة (ديسمبر ٦٤٠ ـ ديسمبر ٦٤١). وأما أبو الفرج فانه لا يذكر شيئا إلا ما ذكره عن القصة المعروفة قصة إحراق مكتبة الاسكندرية. وكذلك سبيوس فانه لا يذكر شيئا.

وأما المؤرّخون العرب فانهم مثل اليونانيين فى إغفال ذكر الحوادث والخلط والتناقض، ولكن لا يخلو درس كتبهم من فائدة.

ابن عبد الحكم ـ نقل عنه(Weil) فى كتاب(Geschichte der Chalifeu) وهو يقول إن عمرا كان عند العريش فى يوم الأضحى أى عاشر ذى الحجة سنة ١٨ للهجرة.(١٢ ديسمبر ٦٣٩). ويذكر أن حصار الاسكندرية بقى تسعة أشهر بعد موت هرقل. ونقل السيوطى عن ذلك المؤرّخ أنه قال إنه بعد فتح مصر أرسل عمرو جرائد الخيل إلى القرى والمدائن التى فى جوار مصر وبقيت الفيوم لا يعرف العرب عنها شيئا مدّة سنة.

البــلاذرى ـ يذكر أن غزوة مصر كانت فى سنة ١٩ للهجرة(وهى تبدأ فى ٢ يناير سنة ٦٤٠) ويذكر أن وقعة عين شمس وغزوة الفيوم كانتا بعد فتح حصن بابليون. ويقول إن عمرا سار إلى الشمال أى إلى الاسكندرية فى سنة ٢١ للهجرة(١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ ـ ٢٩ نوفمبر سنة ٦٤٢) بعد أن مكث مدّة فى حصن بابليون وإنه فى الساعة عينها عام الرمادة كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو يأمره بارسال الجزية بالبحر، ويذكر كذلك عبارة أن مصر قد فتحت فى سنة ٢٠ للهجرة. وقد جرت العادة أت تفهم معنى«مصر» على أنها القطر المصرى كله فى حين أن المقصود بها هنا بغير شك مدينة مصر(أو منفيس) التى سبقت الفسطاط.

ابن قتيبة ـ يذكر أن وقعة(باب اليون) قد انتصر فيها عمرو فى سنة ٢٠.

الطبــرى ـ يذكر أن الأمر بفتح مصر بلغ عمرا فى أوائل سنة ٢٠ للهجرة(أواخر شهر ديسمبر سنة ٦٤٠). ويذكر أن فتح بابليون كان على وجه التعيين فى ربيع الثانى من السنة عينها(من ٢٠ مارس ـ ١٧ أبريل سنة ٦٤١) وإن بين هاتين العبارتين لتناقضا فانه من المحال أن يكون حصن بابليون قد فتح بعد ثلاثة أشهر من ورود الأمر إلى عمرو وهو فى فلسطين بأن يغزو مصر، ولكن لقد عززت المراجع الأخرى صحة التاريخ الثانى، وعلى ذلك فالتاريخ الاوّل لا بد من أوائل سنة ٢٠. وقع الاتفاق تقريبا على تاريخ أوّل الفتح بين ابن عبد الحكم والبلاذرى والطبرى. وفى الحقيقة نرى أنه من المؤكد أن الطبرى لا بد قد كتب سنة ١٩ لأنه عند ما ذكر خبر وفاة عمرو قال إنه قضى أربع سنوات على ولاية مصر فى مدة عمر بن الخطاب. وكانت وفاة عمر فى سنة ١٩ للهجرة وإنه لا يعقل أن يقال إن مدّة ولايته تبدأ قبل ابتداء الغزوة.

وقد ذكر الطبرى أيضا أن الاسكندرية سلمت بعد حصار خمسة أشهر وأن الثورة(التى نسميها ثورة منويل) كانت فى أوائل سنة ٢٥ للهجرة.

أوتيكيوس ـ أوتيخا (وهو ابن بطريق) وأما عبارة أوتيكيوس فهى كما يلى:

فتحت الفرما (وهى بلوز) بعد حصار شهر وفتح حصن بابليون بعد حصار سبعة أشهر وخرج المقوقس من الحصن فى وقت الفيضان وحدثت ثلاث وقعات بين بابليون والاسكندرية وفتحت(المدينة العظمى) فى يوم الجمعة مستهل شهر المحرم من سنة ٢٠ للهجرة وهى السنة العشرون لحكم هرقل والثامنة من خلافة عمر.

ثم تلا ذلك فتح برقة وفتحت طرابلس سنة ٢٢ للهجرة فاذا كان يقصد بيوم الجمعة من محرم أوّل يوم فى ذلك الشهر من سنة ٢٠ وافق ذلك يوم ٢١ ديسمبر سنة ٦٤٠ ولكن أوّل يوم فى المحرّم من السنة الثامنة لخلافة عمر كان يوافق العاشر من ديسمبر سنة ٦٤١ ولم يقع أى هذين اليومين فى يوم الجمعة والتاريخ الأوّل لا يقع إلا فى السنة الحادية والثلاثين من حكم هرقل وكان هرقل قد توفى قبل ذلك التاريخ. وحسبنا هذا من ابن بطريق.

ساويرس ابن المقفع ـ يذكر أن «أنفذ ملك المسلمين سرية مع امير من اصحابه يسمى عمرو بن العاص فى سنة ٣٥٧ لديقليديانوس قاتل الشهداء فنزل عسكر الاسلام إلى مصر فى قوّة عظيمة فى ١٢ بؤونه يوافق ٦ يونيه. ويذكر المقريزى على وجه التعيين أن القبط يذكرون أن تاريخ فتح (الحصن) هو ١٢ بؤونه. ويذكر ساويرس أيضا أن المسلمين فتحوا الاسكندرية فى سنة ٣٦٠ للشهداء (وهدموا أسوارها) وهذه الاضافة تدل على أنه يقصد الفتح الثانى بعد ثورة منويل أنظر: ص ٥٧٨.

أبو صالح ـ لا يزيد على ما نعرف إلا قليلا فانه يذكر نقلا عن كتاب الجناح أن عمرا فتح مصر فى ١٩ للهجرة(٢ يناير ـ ٢٠ ديسمبر سنة ٦٤٠) وأنه عسكر خارج موضع اسمه «جنان الريحان» (صفحة ٧٣). ويقول أيضا إن عمرا فتح مصر فى غرة المحرّم من عام ٢٠ للهجرة وينقل(أو يسئ نقل) التاريخ الذى ذكره ساويرس.

ياقوت ـ هذا كاتب عظيم الشأن وهو يذكر أن عمرا طلب إلى الخليفة عمر أن يأذن له فى فتح مصر سنة ١٨ للهجرة(من ١٢ يناير سنة ٦٣٩ ـ ٢ يناير سنة ٦٤٠) وأن الروم لقوا عمرا

أوّل مرة فى مصر عند الفرما واستمر القتال شهرين وبعد ذلك لم يلق العرب أى مقاومة حتى بلغوا بلبيس ثم قاتلوا الروم هناك مدّة شهر قتالا متصلا. ثم ساروا سيرا سهلا الى أم دنين أو المقس وبقوا هناك يقاتلون نحو شهرين.

ومعنى هذا أن القتال استمر ستة أشهر من أوّل الغزوة مع حساب المدّة اللازمة للسير وهذا يوصلنا بدقة عظيمة من ١٢ ديسمبر الى ٦ يونيه.

وقال ياقوت: إن عمرا عند ذلك أرسل يطلب الامداد وإن فتح الحصن كان مدّة فيضان النيل أى فى سبتمبر أو بعد ذلك بقليل على أن ذلك الكاتب يقول بعد صفحة أو قريبا من ذلك إن فتح بابليون كان فى يوم الجمعة أوّل المحرّم من سنة ٢٠ للهجرة(٢١ ديسمبر سنة ٦٤٠) وهو التاريخ الذى يذكر عادة أن الاسكندرية قد فتحت فيه وفى هذا ما فيه من التضليل. وقد قال ياقوت بعد ذلك إن عمرا سار إلى الاسكندرية فى ربيع الأوّل من سنة ٢٠ للهجرة(٢٠ فبراير ـ ٢٠ مارس سنة ٦٤١) ـ ولعل هذا تحريف وأنه يقصد ربيع الثانى ـ ثم قال إن عمرا لما بلغ الاسكندرية حاصرها مدّة ستة أشهر وقال فى موضع آخر إن فتح الاسكندرية كان فى سنة ٢٠ (وآخرها ٩ ديسمبر سنة ٦٤١) وإن عمرا صالح أهل برقة سنة ٢١ للهجرة(١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ ـ ٢٩ نوفمبر سنة ٦٤٢).

أما(ابن خلدون): فانه ذكر أن عمرا استأذن فى فتح مصر عقب فتح بيت المقدس وأن ذلك كان فى سنة ٢١ للهجرة وأن عمرا سار الى أفريقية(برقة) فى سنة ٢١ نفسها!

وأما (المقريزى): فقد أفاض فى القول فقد كرر أن عمرا كان عند العريش فى يوم الأضحى. وأنه قضى شهرا فى الفرما وأن المقوقس خرج من الحصن فى مدة فيضان النيل وأن مدّة الفيضان كانت لم تنقض عند ما فتح العرب الحصن. ولكنه روى عن الكندى أنه قال إن عمرا سار إلى الاسكندرية بعد فتح حصن بابليون وأن ذلك كان فى ربيع الأول سنة ٢٠ للهجرة. وروى عن آخر أن ذلك كان فى جمادى الثانية(أوّل ربيع الأوّل فى ٢٠ فبراير، أوّل ربيع الثانى فى ٢٠ مارس وأوّل جمادى الأولى فى ١٧ أبريل سنة ٦٤١، وأوّل جمادى الثانية فى ١٨ مايو والتاريخ الصحيح هو جمادى الأولى كما سنرى). وقال إن موت هرقل كان فى سنة ١٩ للهجرة وهو غير صحيح. ويقول المقريزى إن ذلك شجع المسلمين فضيقوا الحصار

على الحصن، ولكنه روى عن الليث تاريخا أخر وهو سنة ٢٠ للهجرة وهو الصحيح وقال إن فتح الاسكندرية كان بعد موت هرقل تسعة أشهر وخمسة أيام وانه كان فى يوم الجمعة أوّل المحرّم سنة ٢١ للهجرة(١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ ولكن ذلك اليوم كان يوم اثنين). ويذكر الليث أن الفتح الأوّل كان فى سنة ٢٢ للهجرة (وأوّلها ٣٠ نوفمبر سنة ٦٤٢) ويورد المقريزى أسماء جماعة من المؤرخين روى عنهم تواريخ لها علاقة بالفتح وهم يختلفون بين سنة ١٦ وسنة ٢٦ للهجرة. ويقول بعد ذلك إن الأرجح أن سنة ٢٠ هى الصحيحة وهى التى يقبلها أكثر المؤرخين.

أبو المحاسن ـ ينقل عن الذهبى أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو يأمره بغزو مصر فى سنة ٢٠ للهجرة(أوّلها ٢١ ديسمبر سنة ٦٤٠). وينقل عن ابن الحكم أن حصار بابليون بقى سبعة أشهر. أما هو فيذكر أن فتح مصر(ولعله يقصد بها مدينة مصر: كان فى أوّل المحرم سنة ٢٠ للهجرة. وينقل عن ابن كثير والواقدى وأبى معشر أن فتح مصر كان فى ذلك العام نفسه ويذكر الواقدى أن فتح الاسكندرية كان فى السنة نفسها. أما أبو معشر فيذكر أنه كان فى سنة ٢٥ للهجرة. وأما سيف فانه يذكر أن مصر والاسكندرية فتحتا فى سنة ١٦ للهجرة وأن ولاية عمرو على مصر تبدأ فى سنة ٢٠ للهجرة.

السيوطى ـ بعد أن ذكر نقلا عن الليث أن موت هرقل كان فى سنة ٢٠ للهجرة قال إن حصار الاسكندرية استمر تسعة أشهر بعد ذلك إلا أنه ابتدأ قبل وفاة هرقل بخمسة أشهر ولكنه قال مع ذلك إن فتح الاسكندرية كان فى أوّل المحرّم سنة ٢٠ للهجرة وهذا سهو لأن السيوطى يذكر بعد صفحات من هذا أن فتح الاسكندرية الأوّل كان فى سنة ٢١ للهجرة وأن الفتح الثانى كان فى سنة ٢٥ للهجرة وينقل عن القضاعى نقلا عن ابن قتيبة أن عمرا عاد من الاسكندرية(إلى بابليون) فى ذى القعدة سنة ٢٠ للهجرة(أكتوبر ـ نوفمبر سنة ٦٤١).

وحسبنا هذا من المراجع العربية الكبرى. وإن ما بينهم من الخلاف عظيم ومن الواضح أنه لايمكن التوفيق بينهم فيه ولكن من السهل أن نعين بعض أسباب هذا الخلط الذى يقع فيه هؤلاء الكتاب جميعا وهو الذى ضلل المؤرّخين المحدّثين وحيرهم، فلعله ليس فى التاريخ عصر فى مثل قصر تلك المدّة وفيه مثل هذا العدد الكبير من المساقط التى يقع فيها من أراد البحث

فى ترتيب التواريخ، فان دوننا هنا عصرا مدّته ثلاث سنوات وهى مثل مدّة الفتح الفارسى. ويذكر لنا من غير تدقيق تاريخ واحد على أنه تاريخ الفتح، ولكن يقصد به أحيانا مدينة مصر (وهى منفيس بقرب بابليون من الجنوب) وأحيانا يقصد به القطر المصرى وهذا مما يؤسف له.

وعلى ذلك فذكر «فتح منفيس» فى كثير من الأحيان لا يمكن التفريق بينه وبين «فتح بلاد مصر» ثم إن فتح حصن بابليون كان حادثا مخالفا لفتح مدينة مصر فى حين أن هذين الموضعين قريبان كل القرب وكان لا مناص من الخلط بين حوادثهما ثم إن الاسكندرية لم تفتح مرة واحدة بل مرتين. وقد وجد المؤرخون حتى أقدمهم من الذين كتبوا بعد الفتح بمائتى عام أن أخبار الفتح غير جلية وقد نسى ترتيب الحوا دث فيها، وعلى ذلك فنحن أميل إلى أن نعدّ أخطاءهم وتناقضهم أمرا يؤسف له وأنه ليس عجيبا ولا غير متوقع.

ولكن قد أشرق على تاريخ فتح العرب وترتيب حوادثه نور جديد لم يسبق للناس عهد به وذلك من كتاب حنا الأسقف القبطى لمدينة نقيوس وقد كان حاضرا تولية البطريق اسحق فى سنة ٦٩٠ للميلاد ولعله قد ولد قريبا من وقت الفتح، ولكن لا بد له أن يكون قد سمع أخبار ذلك الفتح ممن شهده فشهادته على ذلك ذات قيمة كبرى فيما يشهد فيه. حقا إن بعض أجزاء ذلك التاريخ ناقصة لا ذكر لها فى ذلك الكتاب وهو أمر يؤسف له، كما أن أجزاء أخرى منه قد دخلها كثير من المسخ وتغيير الترتيب فلا نكاد نستبين لها معنى، ولكن مع كل ما فى النسخة الخطية الأثيوبية قد جاء فيها بعض تواريخ جديدة تسترعى النظر بدقتها العظيمة وهذه التواريخ بمثابة معالم ثابتة نستطيع أن نستدل بها على نظام علمى فى ترتيب التواريخ.

لقد رأينا فيما سلف أن كتاب حنا قد أغفل فيه ذكر كل ما يتعلق بمدّة الفتح الفارسى وهذا النقص يبدأ من استيلاء هرقل إلى ما بعد ذلك بثلاثين عاما أى من حوالى سنة ٦١٠ إلى حوالى سنة ٦٤٠، ولا يرد فيه ذكر لدخول العرب إلى مصر وأوّل استئناف لذلك التاريخ بعد ذلك هو عند ما علم (تيودور) قائد جيوش الروم فى مصر بهزيمة (حنا) قائد فرقة الخفر فى الفيوم وموته. وذكر بعد ذلك أن جيوش الروم اجتمعت عند حصن بابليون وقد عوّلت على أن تلقى العرب قبل أوان فيضان النيل والنيل يبدأ مدّه فى أواسط الصيف ويبلغ ذروته فى

الاعتدال الخريفى، وعلى ذلك يمكن أن نقول إن وقعة هليوبولس كانت فى (يوليه) أو فى (أغسطس) فإذا نحن اتبعنا قول ابن عبد الحكم أو البلاذرى أو الطبرى فى أن دخول العرب كان فى سنة ٦٤٠، وكان أوّل إمداد جيش العرب أبصرها الروم من بروج حصن بابليون فى ٦ يونيه وهو اليوم الذى قام الدليل من قول ساويرس وغيره على أنه كان من أثبت الأيام ذكرا عند القبط، على أنه لم يكن يوم حادث خطير من حوادث الفتح. والمستر بروكس محق بغير شك فى أنه اعتبر البابين الرابع عشر بعد المائة والخامس عشر بعد المائة من تاريخ حنا فى غير موضعهما فعنوان الباب الخامس عشر بعد المائة هكذا«كيف استولى المسلمون على مصر فى السنة الرابعة عشرة من الدورة القمرية واستولوا على حصن بابليون فى السنة الخامسة عشرة» فى حين أنه مما يؤسف له أن الوصف الذى يصدق عليه هذا العنوان ساقط من الكتاب. وقد ورد فى الفصل السادس عشر بعد المائة أن موت هرقل كان فى«السنة الحادية والثلاثين من حكمه فى الشهر المصرى(يكاتيت) وهو يوافق الشهر الرومانى(فبراير) فى السنة الرابعة عشرة من الدورة وهى سنة ٣٥٧ للشهداء». وقد جاء فى الباب السابع عشر بعد المائة«أن فتح(نقيوس) كان فى يوم الأحد الذى بعده (١٨ جنبوت) فى السنة الخامسة عشرة من الدورة». وقد قال المستر(بروكس) متبعا فى ذلك رأى(زوتنبرج) إن تاريخ هرقل هو التاريخ الوحيد بين هذه التواريخ الذى يمكن أن نفحصه وهو مذكور فى ذلك الكتاب فى منتهى الدقة فانا نعلم أن هرقل قد مات فى ١١ فبراير سنة ٦٤١ وقال إن هذه الحقيقة دليل قوى على أننا يمكن أن نعتبر التواريخ الأخرى صحيحة دقيقة. ولكن كلا هذين المؤرخين وجد نفسه مضطرا بعد هذا القول إلى أن يظهر أن التواريخ الأخرى صحيحة بعض الصحة لا كل الصحة، فقال المستر بروكس فى عرض ذكره سنى الدورة التى ورد ذكرها فى عنوان الباب الخامس عشر بعد المائة«ولا تظن أننا نستطيع أن نثق ثقة كبرى بهذه التواريخ»(صفحة ٤٣٩) ثم أظهر بعد ذلك أن يوم(١٨ جنبوت) الواقع فى يوم الأحد لم يكن فى السنة الخامسة عشرة من سنى الدورة كما قال حنا. وقصارى قوله هو أن الواجب أن نغير التاريخ الذى ذكره حنا وهو (١٣ مايو سنة ٦٤٢) فجعله(١٣ مايو سنة ٦٤١). ومعنى هذا أن نبرهن على خطأ جزء من قول(حنا النقيوسى).

وبعد فإنا نجرأ أن نقول إن هذا الرأى لا حاجة بنا اليه ولا ضرورة تدعو اليه. فإن الخطأ إنما نشأ من خطأ فى فهم ما قصده حنا بقوله«سنى الدورة» فان ناقديه أخذوا ذلك على أن المقصود منه سنى الدورة التى ابتدعها قسطنطين(وكل منها خمسة عشر عام)، ولكن حنا نفسه يسميها بوضوح (الدورة القمرية) وليس يقصد دورة قسطنطين. حقا إن التأريخ بتلك الدورة القسطنطينية كان فى عصر حنا غير مهمل بل كان لا يزال مستعملا فى مصر ولكن المقصود هو أن الدورة لم تكن مستعملة فى التاريخ المدنى ولكن ما دام التاريخ بدورة قسطنطين كان غير شائع فى مصر فقد كان حنا معذورا كل العذر فى أنه يعمد إلى التاريخ بالتقويم الدينى الخاص بالكنيسة وقد كان على تمام الإلمام به إذ كان رجلا من علماء الأساقفة، وعلى ذلك فانا موردون ما جاء فى كتابه فيما يلى:

(١) فتح مدينة مصر فى السنة الرابعة عشرة من سنى الدورة.

(٢) موت هرقل فى السنة الرابعة عشرة من الدورة فى ١١ فبراير سنة ٦٤١.

(٣) فتح حصن بابليون فى السنة الخامسة عشرة من الدورة فى الاثنين(الفصح) أى فى ٩ أبريل سنة ٦٤١.

(٤) فتح نقيوس فى السنة الخامسة عشرة من الدورة فى ١٣ مايو سنة ٦٤١ ويظهر من هذا البيان أنه إذا كان قد نقل ما كتبه حنا على حقيقته كانت سنة الدورة التى يؤرّخ بها تتغير فيما بين ١١ فبراير ٩ أبريل، وهذا هو الأمر الواقع بالدقة فان الدورة القمرية الديونيسية كان أوّلها ٢٣ مارس(راجع كتاب(S.Butcher) فى(Ecclesiastical Calendar) صفحة ٧٣وكتاب(Handy - book of Dates)تأليف Bond صفحة ٢١٨) والسنة الرابعة عشر من الدورة تقع ما بين ٢٣ مارس سنة ٦٤٠، و٢٢ مارس سنة ٦٤١ وكذلك السنة الخامسة عشرة فانها تبدأ من ٢٣ مارس سنة ٦٤١ وتنتهى فى ٢٢ مارس ٦٤٢، فاذا صح رأينا هذا ثبت أن تواريخ هذا المؤرّخ تزداد زيادة عظمى.

ويجدر بنا أن نزيد على هذا أن الدورة القسطنطينية التى كانت تستعمل فى مصر قبل الفتح كانت قد صارت لا قيمة لها فى التاريخ إذ أنها كما دل عليه «Wilcken» فى كتابه(Hermes) ١٩ صفحة ٢٩٣ وما بعدها) بدل أن تبدأ من شهر توت وهو أوّل السنة

المصرية فتكون بذلك متفقة مع أوّل سنة من سنى التقويم كانت تبدأ أحيانا من أوّل حكم الامبراطور الحاكم وأحيانا أخرى من أيام أخرى مختلفة من أيام الصيف متبعة فى ذلك نظاما لا يستطيع أحد أن يفهمه وهو نظام أشبه شئ بالفوضى المطلقة ولهذا كان الأجدر بنا أن نحمد كاتبا قديرا مثل حنا على أنه استعمل تاريخا ثابتا لا يطعن أحد قيمته.

على أنه قد وردت عبارة أخرى فى تاريخ حنا وذكر فيها تاريخ سنة من سنى الدورة يخيل إلى من يراها أن رأينا الذى ذكرناه غير صحيح فقد جاء فى الباب الحادى والعشرين بعد المائة قوله«وفى السنة الثانية من الدورة القمرية جاء حنا من دمياط. وساعد المسلمين كيما يمنعهم من تخريب المدينة» وهذه السنة يكون أوّلها ٢٣ مارس سنة ٦٤٦، وآخرها ٢٢ مارس سنة ٦٤٧، وعلى هذا فلا بد أن يكون هذا الحادث قد وقع بعد ثورة منويل ولم يذكر عن تلك الثورة لفظ واحد فى كل تاريخ حنا ومع ذلك فانا نرى أن ذلك التاريخ صحيح لأن وجود فجوة أخرى فى آخر ذلك الكتاب أمر غير مستغرب فاذا نحن لم نذهب إلى هذا الرأى واعتبرنا أن المقصود هو السنة الثانية من الدورة القسطنطينية كان التاريخ المقصود هو عام(٦٤٣ ـ ٤) ولكن هذا فى حكم المستحيل إذ لم يرد أى خبر عن حادث وقع فى ذلك العام يمكن أن يحدو بالعرب إلى تخريب الاسكندرية فى حين أنه قد جاء فى كل الأخبار أن ثورة منويل وعودة الروم الى الاسكندرية كانتا حوالى نوفمبر سنة ٦٤٥ ولم تهزم جيوشه إلا بعد عدّة أشهر ولا يكاد يشك فى أن فتح العرب للاسكندرية ثانية وقع بعد ٢٣ مارس سنة ٦٤٦، ونعلم كذلك أنه عند الفتح الثانى للمدينة أحرق جانب كبير فيها وهدم عمرو جانبا من الأسوار فلا يبعد أن يكون قد فكر فى تخريب المدينة كلها. وفوق ذلك يظهر أن(زوتنبرج) أغفل فى ترجمته كلمة ذات شأن فانه قال فى ترجمته «وبعد أن استولى(عمرو) على الاسكندرية جفف الترعة التى توصل الماء الى المدينة» فى حين أن الدكتور شارل يقول فى ترجمة هذه العبارة عينها «ولما استولى عمرو على مدينة الاسكندرية كان كثيرا ما يجفف الترعة» وهذه الكلمات تدل على أن الكاتب كان وهو يكتب هذه العبارة التى ورد فيها ذلك التاريخ يسبح بفكره فيما بعد الفتح الأوّل للمدينة بمدّة طويلة وسنرى أن ذلك الفتح الأوّل كان فى سنة ٦٤٢، وعلى ذلك يكون التاريخ الذى نحن بصدده يوافق رأينا فى أن المقصود

هو التاريخ بالدورة الديونيسية القمرية، ولهذا نجرأ على أن نعدّ هذا الرأى لا وهن فيه ولا وجه للطعن.

نقبل الآن على ذكر تاريخ من أهم التواريخ على أنه تحيط به عقد يحار المرء فيها وذلك هو تاريخ عودة البطريق قيرس الى الاسكندرية من قسطنطينية فقد دعاه هرقل حوالى نصف نوفمبر سنة ٦٤٠ بعد أن صالح العرب على تسليم بابليون ذلك الصلح الذى لم يتم ويلوح أنه نفى عند ذلك ثم أعاده قسطنطين الثالث خلف هرقل الى الحظوة وكان عازما على أن يعيده الى مصر فعاجلته المنية بعد أن حكم مائة يوم فمات ذلك الامبراطور فى مايو سنة ٦٤١، وخلفه على الملك هرقلوناس ولكن ثورة فلتين فى ذلك الصيف نفسه عملت على أن يشرك أخوه من أبيه معه فى الحكم وهو قنسطانز. وقريبا من ذلك الوقت أرسل قيرس الى مصر ومعه الامداد وقد كان فى (رودس) فى أوائل سبتمبر ـ ولعله كان يأخذ ما كان فى دار الصناعة البحرية(الترسانة) من الذخائر وكان(تيودور) قائد جيوش مصر فى رودس كذلك وخلع بيعة الامبراطورة(مرتينة) إذ حرضه على ذلك فلنتين وأراد أن يسافر الى بنطابولس ولكنه نزل الى الاسكندرية مع قيرس فى فجر يوم ١٧ (مسكرم) أو(توت) وهو عيد الصليب أى فى ١٤ سبتمبر.

هذا ما يمكن أن نستخلصه من تاريخ حنا الذى تغيرت معالمه تغيرا يؤسف له وهذه الأخبار يعززها ما جاء فى تاريخ نيقفوروس إذ يقول إن(قيرس) أعاده هرقلوناس الى مصر، ولكنا الآن آتون الى خبر من تلك الأخبار التى كتبت بعد حدوث حوادثها على صورة النبوءة وهى كثيرة فى تواريخ القبط وهى تستلزم أن تكون عودة قيرس فى عيد الفصح فقد روى حنا أنه بعيد عودته أقيم احتفال فى الكنيسة العظمى كنيسة القيصرون فى عيد الفصح واختار القمص للصلاة ترتيلا غير ما كان يجب أن يختاره لذلك اليوم أى المزمورة التى مطلعها «وهذا هو اليوم الذى جعله الله» الخ(راجع المزمورة الثامنة عشرة بعد المائة ٢٤ـ ٢٦) وقد عدّ هذا التغيير فألا سينا وذاعت كلمة قالها القسوس وهى أن قيرس لن يشهد بعد ذلك اليوم عيدا آخر للفصح. فلما مات قيرس بعد ذلك فى يوم الخميس المقدس(٢٥ مجابت) أى قبل عيد الفصح التالى بثلاثة أيام تذكر الناس النبوءة وقالوا إنها قد تحققت. وقد قال المستر بروكس

بوضوح مقنع إن يوم (٢٥ مجابت) أو (فامنوت) يوافق ٢١ مارس، وليس ٢ أبريل، كما زعم زوتنبرج فى حسابه، ثم قال إن عيد الفصح فى سنة ٦٤٢ كان فى يوم ٢٤ مارس من ذلك العام وانه فى ذلك العام وحده قد وقع يوم الخميس المقدّس فى (٢٥ مجابت) وعلى ذلك «فقد ثبت تاريخ وفاة قيرس ثبوتا لا شك فيه وأنه كان يوم الخميس ٢١ مارس من سنة ٦٤٢» وينتج من ذلك أن يوم الفصح الذى ذكر فى ذلك الخبر أن قيرس قد عاد فيه كان يوم الفصح من عام ٦٤١ وهو يوم ٨ أبريل.

فاذا أجملنا ما قاله حنا كان كما يلى:

(١) نزل قيرس فى مصر فى ١٤ سبتمبر بعد موت هرقل أى سنة ٦٤١.

(٢) أنه أقام عيد الفصح سنة ٦٤١ وهو يوم عودته.

(٣) أنه مات فى ٢١ مارس سنة ٦٤٢.

وهذه الأخبار ظاهرة التناقض ولا يشك زوتنبرج فى أن قيرس نزل فى أرض مصر فى يوم ١٤ سبتمبر. ويرى أنه من الغريب أن تقام صلاة بمناسبة عودته بعد سبعة أشهر منها ولكنه مع ذلك قبل هذا الأمر الغريب هذه الغرابة وجعل موت قيرس فى سنة ٦٤٣، وأما المستر بروكس فانه يرى رأيا آخر فانه برهن برهانا قاطعا على أن قيرس مات فى يوم الخميس الذى قبل عيد الفصح من سنة ٦٤٢ ثم برهن على أن زوتنبرج مخطئ فيما ذهب اليه من أن عوده (تيودور) وعودة (قيرس) كانتا فى وقت واحد وجعل عودة قيرس كانت بعد وفاة قسطنطين الثالث وما يعززها من قول نيقفوروس، ولكنه يميل إلى أن يقول إن كتاب حنا قد داخله شى من الخطأ فى ذلك الموضع ثم يقول فى ختام حجته «وأما البت فى مسألة عودة قيرس وأنها كانت قبل عيد الفصح من عام ٦٤١ فأمر يجب أن يبقى موضعا للنظر والبحث، وأما ما قصده حنا فلا شك عندنا فى أنه كان يقصد أن يقول إن قيرس قد عاد فى ذلك الوقت المذكور وانه لمن المحتمل أن التاريخ قد غير قصدا لادخال ذكر النبوءة».

ولسنا نوافق على هذه الآراء كل الموافقة فان التاريخ الذى ذكر زوتنبرج أن قيرس قد مات فيه لا يؤيده شئ. هذا من جهة أخرى فانا نرى أن المستر بروكس مخطئ فى قوله إن عودة

قيرس لم تقع مع عودة تيودور فى وقت واحد وإن عودة تيودور كانت وحدها فى ١٤ سبتمبر من سنة ٦٤١ ، ويقول المستر بروكس إن هذين الحادثين «منفصلان كل الانفصال» ولكن نص الكتاب فيه ما يلى:

«فدخل الاسكندرية (تيودور) فى ليلة السابع عشر من شهر(مسكرم) فى عيد الصليب وخرج أهل الاسكندرية أجمعين من نساء ورجال وهم بين شبان وشيب ليلقوا البطريق قيرس وهم فرحون يشكرون الله على عودة بطريق الاسكندرية، وصحب تيودور البطريق خفية إلى كنيسة (التبيونيسيين) وأقفلا الباب وراءهما» وإنا إزاء هذا القول لا يسعنا إلا أن نرى أنه من المحال أن يكون هذان الرجلان قد أتيا فى وقتين متفرقين أو أنه عندما أتى (تيودور) كان قيرس قد مضى عليه فى الاسكندرية خمسة أشهر أو يزيد وفوق كل ذلك فانا لو قلنا إن قيرس قد عاد فى يوم الفصح من سنة ٦٤١ لنشأت من ذلك صعاب أخرى، فأوّل شئ يجب علينا أن نكذب كل ما ذكره حنا عن حوادث القسطنطينية بعد موت هرقل أو على الأقل أن نكذب كل نصيب قيرس من تلك الحوادث، كما أنه يجب أن نكذب ما جاء فى كتاب(نيقفوروس) وفوق كل ذلك يجب علينا أن نكذب عبارة أخرى فى كتاب حنا وهى فى منتهى الوضوح فانه ذكر بعد وصفه للصلاة فى القيصريون أن قيرس عاد (حينذاك) إلى بابليون والمستر بروكس يقبل هذا القول ويضيف إليه أن حصن بابليون. «كان قد صار قبل ذلك بقليل الى يد العرب» إذ أنه قد فتح كما برهن هو على ذلك. فى ٩ أبريل سنة ٦٤١ غير أنه عاد فى الصفحة التالية لذلك فقال إن تسليم الاسكندرية.الذى اتفق قيرس عليه مع عمرو فى بابليون وهو بغير جدال القصد الذى قصد اليه من زيارته لحصن بابليون قد حدث فى الشهر الذى بين ١٢ أكتوبر و١٠ نوفمبر من سنة ٦٤١، فكيف لنا أن نوفق بين هاتين العبارتين وفوق ذلك فانا نعرف من كتاب حنا ومن سواه من المراجع أن عمرا غادر حصن بابليون عقب فتحه فكان فى مدينة نقيوس فى ١٣ مايو فلم يكن فى فترة مقامه بالحصن متسع لزيارة قيرس ومفاوضته ثم أننا اذا قلنا إن تاريخ تسليم الاسكندرية كان فى تلك الفترة كنا بذلك عاملين ـ كما لا بد أن يقرّ المستر بروكس ـ على نقل التواريخ من مواضعها واضطرابها.

وعلى ذلك فانا إذا وافقنا زوتنبرج على أن قيرس نزل بأرض مصر مع تيودور فى يوم الصليب أى فى يوم ١٤ سبتمبر سنة ٦٤١ وأذا وافقنا المستر بروكس على أن قيرس مات فى

يوم خميس العهد التالى أى فى يوم ٢١ مارس سنة ٦٤٢ كان لا بد لنا من التوفيق بين قولنا هذا وبين ما جاء فى كتاب حنا وانا نستطيع أن نجد المفتاح الذى يفتح لنا ما استغلق من هذا الأمر بدرس ما جاء بذلك الكتاب فإنا إذا فحصنا ما جاء به اتضح لنا من خلاله أن العيد الذى أقيمت فيه الصلاة بمناسبة عودة قيرس ورتلت فيه المزمورة التى فى غير موضعها لم يكن عيد الفصح بل كان عيد إعلاء الصليب أى العيد الذى نرى أن قيرس نزل الى أرض مصر فى يومه وذلك لأسباب أوّلها أن الخبر يذكر لنا صراحة أن الخطبة التى خطبها قيرس كانت كلها عن الصليب الذى أحضره اليه القائد حنا قبل منفاه وسار بذلك الموكب من دير التبيونيسيين وكل هذه التفاصيل تكون لا موضع لها اذا كان المقصود هو عيد الفصح وهى كلها فى موضعها الصحيح إذا كان المقصود هو يوم الصليب المقدّس وفوق ذلك فقد ذكر أن قيرس جاء من دير التبيونيسيين الى كنيسة القيصرون لحضور الاحتفال بعيد الفصح المزعوم، كما قد ذكر قبل ذلك بأسطر أن تيودور قد عاد عقب نزوله الى البر الى دير التبيونبسيين فى صحبة قيرس وإذا كان ذلك الحادث قد وقع فى يوم عيد الفصح حقيقة لما كان لوجوده فى دير التبيونيسيين فى ذلك الوقت معنى فى حين أنه اذا كان المقصود هو عيد الصليب كما نرى نحن كان الوجود بالدير حينئذ ضرورة من ألزم الضرورات إذ يكون قيرس عندما نزل الى البر ذهب الى الدير ثم ذهب من هناك فى موكب الى كنيسة القيصرون. ثم إن المزمورة «هذا هو اليوم الخ» هى التى كانت تستعمل«فى الأعياد السيدية وكامل أيام الفطر» ولسنا نستطيع أن نعرف اذا كان استعماله فى الترتيل فى الصلاة يدل دلالة واضحة على أن اليوم المقصود هو يوم الفصح أو هو يوم آخر. وانا نرى على وجه الاجمال أنه لا شك فى أن تلك الصلاة التى حضرها قيرس عند عودته كانت صلاة عيد الصليب أى أن عودته كانت فى يوم ١٤ سبتمبر سنة ٦٤١.

ولكن اذا كان الأمر كذلك فما القول فى النبوءة؟ وجوابنا على ذلك يتناول أمرين:(١) أن تلك النبوءة تبقى على مالها من القيمة فاذا كانت قد قيلت فى وقت صلاة عيد الصليب كان المقصود منها عيد الصليب الذى بعده أو كان المقصود منها يوم الفصح المقبل وقد صحت على كلا الحالين.(٢) أن التفسير المقبول عقلا هو أن قيرس عندما عاد رأى الناس عليه أمارات المرض أو التغير وأولوا حادث الترتيل بما أحسوه من التطير فى نفوسهم فقد كانت عبارة

النبوءة كما يلي «إنه لن يشهد عيدا آخر للفصح» فلما مضت بضع سنين على ذلك أصبحت وفاته قبيل عيد الفصح قطب تلك القصة فحوّرت عبارتها بعد أن نسيت تفاصيل الحادث الذى حدث وعزى أصل النبوءة الى يوم عيد الفصح ما دامت وفاة قيرس قد وقعت قبل يوم عيد الفصح الذى بعده. وذلك تجوز لم يراع معه ترتيب التواريخ والحوادث وعلى ذلك قد كان من الطبيعى أن تزاد على عبارة حنا العبارة الآتية «فى يوم عيد القيامة» وذلك فى موضع يظهر فيه هذا القول غريبا فى غير موضعه. وهذه العبارة بغير شك زيادة من بعض النساخ أدخلها على النص الأصلى واذا نحن حذفناها زالت كل أسباب الحيرة واتضح سياق الحوادث واستبان بعد أن كان مختلطا خفيا.

وتسير عبارة حنا بعد ذلك سيرا طبيعيا فانه بعد يوم الصليب بقليل ذهب قيرس الى بابليون يطلب لقاء عمرو وقد أثبت ابن قتيبة أن عودته من غزوته فى الدلتا كانت فى ذى القعدة من سنة (١٢ أكتوبر ـ ١٠ نوفمبر سنة ٦٤١) وهى الغزوة التى لم يتم فيها شيئا من الفتح. وهذا معناه أن ذهاب قيرس الى بابليون كان نحو آخر أكتوبر وعلى ذلك لا يمكن أن نجعل تاريخ الصلح فى ١٧ أكتوبر كما يزعم المستر بروكس فان عمرا اذا كان قد عاد الى بابليون فى أوائل ذى القعدة (وهو أمر لم يذكر) كان لابد من مضى أيام عدّة قبل أن يستقر الأمر على شروط الصلح ولهذا لا نرى أن الصلح قد تم قبل آخر ذى القعدة. ونرى فى الحقيقة أن الصلح الذى اتفق قيرس مع عمرو عليه قد وقع فى ٨ نوفمبر على وجه التعيين وقد كان من شرط هذا الصلح أن تباح مدّة هدنة قدرها أحد عشر شهرا وكان على جنود الروم أن تجلو عن الاسكندرية فى أثنائها. وقد اختار المستر بروكس لذلك تاريخ ١٧ أكتوبر لأن هذا التاريخ يقع قبل يوم ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ بأحد عشر شهرا إذ أنه يزعم أن ذلك التاريخ الأخير هو يوم إخلاء الاسكندرية للعرب. ولكن ليس ثمت من سبب يحدو بنا الى أن نقول إن جيش الروم قد بقى فى الاسكندرية الى آخر يوم من أيام الهدنة، إذ كانوا قد تجهزوا قبل ذلك للسفر. وإنا اذا حسبنا مدّة الهدنة بالشهور العربية من يوم ٨ نوفمبر كانت نهايتها يوم ٢٩ سبتمبر. وأما المستر بروكس فانه يؤكد أن تاريخه (أى ١٧ أكتوبر) «يتفق كل الاتفاق مع ما ذكره ابن عبد الحكم من أن الحصار استمر تسعة أشهر بعد موت هرقل» وكانت وفاة هرقل فى يوم الأحد ١١ فبراير سنة ٦٤١ فاذا نحن عددنا المدّة بالحساب العربى وقع آخر أجل الهدنة فى شهر

نوفمبر ـ ولكن المقريزى قد ذكر أن فتح الاسكندرية كان بعد موت هرقل بتسعة أشهر وخمسة أيام، واليوم الحادى عشر من شهر فبراير سنة ٦٤١ يوافق يوم ٢٣ صفر فاذا حسبنا تسعة أشهر وخمسة أيام من هذا التاريخ بلغ بنا الحساب يوم ٢٨ ذى القعدة وهو يوم الخميس ٨ نوفمبر.

هذا ما نراه التاريخ الصحيح. وقد لاحظ المستر بروكس أن الصلح لا يمكن أن يكون قد وقع بعد نوفمبر لأن قيرس عند عودته من بابليون الى الاسكندرية طلب من تيودور أن يحمل ذلك الصلح الى الامبراطور هرقل (أى هرقلوناس) وقد كانت وفاته فى انتهاء هذا الشهر (نوفمبر) ولكن من الأمور التى تستحق البحث أن نرى هل مؤرّخو العرب إذ يوردون المدة الصحيحة بين وفاة هرقل الأوّل وتسليم الاسكندرية يجعلون وفاته فى يوم ١١ فبراير أو فى ١١ مارس، فقد ذكر تيوفانز وقيدرينوس خطأ أن وفاته كانت فى ١١ مارس ولعل هذا قد ضلل مؤرخى العرب فانه من العجيب أننا إذا حسبنا مدّة الأشهر التسعة والأيام الخمسة بادئين من ١١ مارس (أو ٢٢ ربيع الثانى) بلغ الحساب بنا يوم ٢٧ من ذى الحجة (أى ٧ ديسمبر) وهذا اليوم السابع من ديسمبر كان يوم جمعة وهو قريب من أوّل المحرم (١٠ ديسمبر) الذى ثبت فى أخبار العرب أنه كان يوم فتح الاسكندرية.

وبعد فقد برهن المستر بروكس برهانا قويا على أن التواريخ الباقية الى الآن من التواريخ التى ذكرها حنا إذا فسرت على حقيقتها تنص على أن ولاية البطريق بطرس خلف قيرس على بطرقة الملكانيين كانت فى ١٤ يوليه سنة ٦٤٢ وعلى أن الروم أخلوا الاسكندرية فى السابع عشر من سبتمبر من ذلك العام نفسه (صفحة ٤٤٣) ويجدر بنا أن نزيد على هذا أن عودة بنيامين من منفاه فى الصعيد كانت فى سنة ٦٤٤ ولعلها كانت أقرب الى نهاية العام منها الى أوّله.

ولكنا مضطرون إلى أن نخالف المستر بروكس فى أمر أو أمرين فى رأيه ذاك فانه ينقل عن (ابن بطريق) وابن عبد الحكم ومكين أنهم اتفقوا على أن مدة حصار الاسكندرية كانت أربعة عشر شهرا وعلى ذلك جعل بدأ ذلك الحصار فى أواخر أغسطس من سنة ٦٤٠، وكذلك ينقل عن (ابن بطريق) أن حصار بابليون بقى سبعة أشهر، ولما كان فتح بابليون قد وقع فى ٩

أبريل سنة ٦٤١ كان أوّل الحصار فى أوائل شهر سبتمبر سنة ٦٤٠ وعلى ذلك يكون العرب قد حاصروا المعقلين فى وقت واحد تقريبا وذلك أمر غير ممكن من الوجهة الحربية المحضة فان عمرا لم يكن معه فى وقت من الأوقات جند كاف لحصار الحصنين معا وفوق ذلك ليس ثمت مؤرخ يدعم حجة المستر بروكس فيما ذهب اليه بل إن المراجع كلها تنقض رأية فان حنا نفسه يقول إن عمرا غادر حصن بابليون بعد فتحه فى ٩ أبريل سنة ٦٤١ وإنه فتح نقيوس بعد ذلك بشهر وأذا نحن أرخنا سقوطها بشهر جمادى الأولى وهو وسط بين ربيع الأوّل الذى ذكره الكندى وياقوت وبين جمادى الثانية وهو الذى ذكره المؤرخ الذى نقل عنه المقريزى كان ذلك موافقا كل الموافقة لما جاء فى كتاب حنا. وسار جيش عمرو بعد فتح نقيوس إلى الشمال وانه لمن الغريب أن يكون قد حاصر الاسكندرية فى آخر شهر يونيه أو فى أوائل شهر يوليه من عام ٦٤١ ومن هذا الوقت تبدأ مدّة الحصار الأربعة عشر شهرا وليس من شهر أغسطس ولا من شهر سبتمبر سنة ٦٤٠ ذلك إذا أردنا الأخذ بما جاء فى تواريخ ابن بطريق (اوتيكيوس) وابن عبد الحكم ومكين. أى أن مدة الأربعة عشر شهرا يجب أن تحسب من تاريخ الصلح الذى كان فى سنة ٦٤١.

هذه النتيجة تفضى بنا إلى اتفاق يكاد يكون تاما مع ما جاء فى الطبرى إذ يقول إن مدّة الحصار كانت خمسة أشهر (قبل التسليم) : وإذا حسبنا ما بين أوّل يولية و٨ نوفمبر كان ذلك تمام أربعة أشهر ونصف من الشهور العربية ويلوح أن هذا الاتفاق يعزز التاريخين اللذين أخدناهما وهو فى نفس الوقت يبين لنا سبب ذلك الاختلاف الكبير بين المؤرخين فى تقدير مدة الحصار. فمن الواضح أن بعضهم بدا حسابه من أوّل وقوف العرب دون الاسكندرية إلى معاهدة التسليم وبعضهم حسب المدّة إلى وقت إخلاء الروم للمدينة فعلا، والظاهر أن عبارة السيوطى التى نقلناها آنفا فيها خلط بين ما جاء فى الطبرى وما جاء فى أوتيكيوس وهى خطأ واضح وأما اليعقوبى والبلاذرى وابن خلدون وسواهم من المؤرخين فانهم يذكرون أن مدة الحصار كانت ثلاثة أشهر وظاهر أنهم يقصدون أنه قد مضت ثلاثة أشهر من الحصار قبل معاهدة الصلح فاذا أضفنا إلى تلك المدة مدة الهدنة وهى أحد عشر شهرا رجعنا إلى أن المدة بين أول مجىء العرب أمام المدينة ودخولهم فيها كانت أربعة عشر شهرا. ومن ذلك يتضح أن

هذه الأخبار وإن ظهر عليها شيء من الاختلاف يمكن التوفيق بين مواضع الخلاف فيها أو التقريب بينها تقريبا يسترعى الأنظار.

وكذلك نخالف ما ذهب إليه المستر بروكس من أن «فترة الأشهر الأحد عشر قضاها عمرو فى غزو بنطابولس» (يقصد مدة الهدنة) فانا نسلم بأن نص عبارة كتاب حنا كما هى تساعد على الأخذ بهذا الرأى وذلك لأن الفقرة القصيرة التى ذكرت فيها هذه الغزوة جاءت قبل ذكر موت قيرس مباشرة، ولكن قد جاء ذكر موت قيرس فى موضع آخر بعد ذلك وظاهر أن ذلك الباب ممسوخ الترتيب فلا يمكن أن تقوم حجة على ترتيب أخباره. وإن الأسباب الحربية بغير شك كانت تمنع عمرا من أن يغامر بالقيام بغزوة بعيدة قبل أن يملك الاسكندرية وهى القاعدة الوحيدة التى كان يمكن أن تبدأ منها مثل هذه الغزوة. وأما ابن الأثير فانه يورد قولا قاطعا فى ذلك التاريخ فيجعل تلك الغزوة فى سنة ٢٢ للهجرة. وأما سواه من مؤرخى العرب فإنهم مهما اختلفوا فى ذلك التاريخ متفقون على أن فتح برقة إنما كان بعد سنة من تملك الاسكندرية(راجع ابن بطريق وياقوت) وعلى هذا فانا جعلنا تاريخ غزوة بنطابولس فى الشتاء الذى أعقب إخلاء الاسكندرية. وقد بدأت السنة الثانية والعشرون للهجرة فى ٣٠ نوفمبر سنة ٦٤٢ فاذا كانت الغزوة قد وقعت بعد أوّل السنة بقليل كان ذلك إيضاحا سهلا لما وقع فيه مؤرّخو العرب من الاختلاف بين سنة ٢١ وسنة ٢٢ للهجرة.

ولسنا نشك فى أن عمرا كان كثير الأعمال فى بابليون ولعله كان يتجهز لاتمام فتح الصعيد أو إخضاعه وقد كان بغير شك يستعد لإعادة حفر قناة تراجان فقد جاء فى البلاذرى أن عام القحط فى بلاد العرب كان سنة ٢١ للهجرة (وأوّلها ١٠ ديسمبر سنة ٦٤١). وجاء فى تاريخ ابن الأثير أن عمرا أرسل فى ذلك العام القمح إلى المدينة فى الخليج الذى حفره ولعل ذلك كان فى أغسطس أو سبتمبر من عام ٦٤٢.

وما كان حفر ذلك الخليج بممكن إلا فى الشتاء فى وقت انخفاض النيل كما أنه ما كان سير السفن فيه ممكنا فى غير فصل الصيف عند فيضان النيل وكان عمرو فى شتاء (سنة ٦٤٠ ـ ١) مقبلا على حصار حصن بابليون مشتغلا به فلم يكن من الممكن حفر ذلك الخليج إلا فى شتاء (سنة ٦٤١ ـ ٢) كما يفهم من تاريخ ابن الأثير وقد جاء فى ذلك التاريخ

عينه أن تاريخ غزو عمرو لبرقه كان على وجه التعيين فى سنة ٢٢ للهجرة وهى تبدأ من يوم ٣٠ نوفمبر ٦٤٢ وتنتهى فى يوم ٢٠ نوفمبر سنة ٦٤٣ وعل ذلك فإنا موردون التواريخ الآتية:

(١) كان جيش عمرو فى العريش فى ١٢ ديسمبر سنه ٦٣٩ وقد ذكر هذا اليوم فى كتاب ابن عبد الحكم، ولكن البلاذرى والطبرى وياقوت ومكين يكادون يتفقون فى إيراد تاريخ الغزوة.

(٢) فتح الفرما حوالى ٢٠ يناير سنة ٦٤٠ وقد اتفق ابن بطريق وياقوت وغيرهم على أن المدينة فتحت بعد حصار شهر واحد.

(٣) غزوة عمرو لاقليم الفيوم فى مايو سنة ٦٤٠ ولا يذكر هذا التاريخ غير حنا النقيوسى وحده.

(٤) وصول إمداد العرب فى ٦ يونيه سنة ٦٤٠ وهذا مأخوذ من ساويرس ولكنه مشكوك فيه.

(٥) وقعة هليوبولس فى يوليه سنة ٦٤٠ وقد تبع ذلك فتح مدينة مصر.

(٦) بدء حصار حصن بابليون بدأ فى سبتمبر سنة ٦٤٠ وهذا يتفق عليه ابن عبدالحكم وابن بطريق (اوتيكيوس).

(٧) معاهدة قيرس المقوقس التى رفضها هرقل فى أكتوبر سنة ٦٤٠.

(٨) تسليم حصن بابليون فى ٩ أبريل سنة ٦٤١، وقد جاء ذكر هذا اليوم فى كتاب حنا النقيوسى وهذا اليوم هو تاريخ«فتح مصر» أو بعبارة أصح تاريخ فتح مدينة مصر وأوثق المؤرخين يجعلون ذلك فى سنة ٢٠ للهجرة، كما ذكر المقريزى ومن بين هؤلاء الثقاة ابن قتيبة وابن بطريق وياقوت وأبو المحاسن وأبن كثير والواقدى وأبو معشر الخ على أنهم لا يتفقون جميعا فى قصدهم من عبارة«فتح مصر» فبعضهم يعنى بها فتح حصن بابليون وبعضهم يقصد بها فتح الاسكندرية، ولكن الطبرى يجعل فتح بابليون فى ربيع الثانى من سنة ٢٠ للهجرة (٢٠ مارس ـ ١٧ أبريل سنة ٦٤١)، وعلى ذلك فهو متفق كل الاتفاق مع ما جاء فى كتاب حنا النقيوسى.

(٩) فتح نقيوس فى ١٣ مايو سنة ٦٤١.

(١٠) الهجوم على الإسكندرية فى آخر يونية سنة ٦٤١.

(١١) عودة قيرس فى ١٤ سبتمبر سنة ٦٤١.

(١٢) تسليم الاسكندرية فى ٨ نوفمبر سنة ٦٤١.

(١٣) حفر خليج تراجان فى شتاء (سنة ٦٤١ ـ ٢).

(١٤) موت قيرس فى ٢١ مارس سنة ٦٤٢.

(١٥) ولاية خلف قيرس فى ١٤ يوليه سنة ٦٤٢.

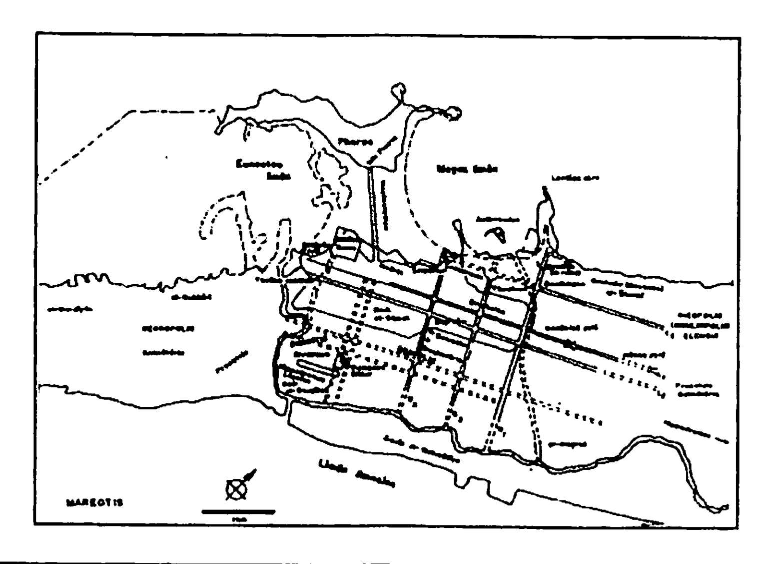
(١٦) إخلاء الروم للاسكندرية فى ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢.

(١٧) غزوة بنطاپولس (برقه) فى شتاء (سنة ٦٤٢ ـ٣).

(١٨) عودة بنيامين فى خريف سنة ٦٤٤.

(١٩) ثورة منويل فى أواخر سنة ٦٤٥.

(٢٠) فتح العرب الثانى للاسكندرية فى صيف سنة ٦٤٦.



فى تواريخ بطاركة مصر بعد بنيامين فى القرن السابع

قد اضطرتنا معالجة المسائل التى لها علاقة بتاريخ الفتح العربى الى أن نشير أحيانا إلى خلفاء بنيامين وإن فى إثبات تواريخهم لشأنا يذكر فيما نحن فيه وليس أقل هذه المسائل شأنا إثبات التاريخ الذى كتب فيه حنا النقيوسى كتابه واثبات ذلك لا يكون إلا من طريق غير مباشر كما هى العادة، ولكن ذلك الاثبات قائم على الأكثر على اثبات التاريخ الذى تولى فيه البطريق اسحق إذ كان حنا أحد من شهدوا الاحتفال بتوليته. وكان اسحق البطريق الثالث بعد بنيامين وكان البطريقان المتوسطان بينه وبين بنيامين هما أغاثيون (أجاثو) وحنا السمنودى. ويلوح لنا أنه من الممكن أن نثبت تاريخ تولية اسحق على وجه الدقة، ولهذا نرى أن خير طريق نسكله هو إثبات هذا التاريخ ثم الرجوع منه الى التواريخ السابقة.

والمرجع الأكبر لنا فى استمداد الأخبار هو الكتاب القبطى «حياة اسحق» وقد نشره مع ترجمة له العلامة أميلنو فى كتاب (His.du patr. Copte Isaac) وقد أظهر ذلك الكاتب فى مقدّمته القيمة أن تلك الوثيقة القبطية لا تذكر سوى أن اسحق توفى فى التاسع من هاتور (وهو يوافق ٥ نوفمبر وليس ٦ نوفمبر كما ذكر هناك).

قال الكاتب «وقد اقتصرت كل الأخبار التاريخية على ذكر ذلك التاريخ ومعنى ذلك أنها لا تفيدنا بشئ مطلقا» ولكن مكين يذكر فى تاريخه أن تاريخ وفاة اسحق سنة ٦٩ للهجرة ومن ذلك يستخلص أميلنو أن اسحق مات فى ٦ نوفمبر سنة ٦٨٨، وأما فون جوتشمت فانه يذكر أن وفاته كانت فى الخامس من نوفمبر سنة ٦٩٢.

على أن أميلنو قد أخطأ الصواب إذ قال إن الوثيقة القبطية لا تذكر شيئا آخر من الأخبار التى تحدّد التواريخ إذ أنه قد أغفل عبارة لها شأن كبير فقد جاء فى تلك الوثيقة أن اسحق قد احتفل بولايته فى ٨ كيهك «وكان ذلك يوم أحد» وهو اليوم اللائق بهذا الاحتفال ـ ولم يقع يوم ٨ كيهك حوالى هذا العصر فى يوم أحد إلا فى سنة ٦٨٤ وسنة ٦٩٠، فأما سنة ٦٨٤ فانه من المحال أن تكون هى المقصودة وعلى ذلك فان اسحق قد احتفل بتوليته فى (٨ كيهك ـ الموافق ٤ ديسمبر سنة ٦٩٠) وعلى ذلك فهذا هو التاريخ الذى شهده حنا النقيوسى. وقد

قال ساويرس فى مدّة ولاية اسحق أقوالا مختلفة فى النسخ المخطوطة المختلفة فهو يجعلها بين سنتين وتسعة أشهر وبين ثلاث سنوات، ولكنا إذا علمنا أن اسحق قد مات فى ٥ نوفمبر وإذا قلنا إنه توفى فى الخامس من نوفمبر سنة ٦٩٣ كانت مدة ولايته سنتين وأحد عشر شهرا وهى المدّة التى ذكرها المقريزى.

وقد يكون من السهل أن تقرأ مقدّمة أميلنو كلها ثم نظهر السبب فى أنه أخطأ الخطأ كله فى اثبات تاريخ ميلاد اسحق إذ يجعل ذلك التاريخ قبل الفتح العربى. ويجعل اسحق فى نحو الثمانية عشرة من عمره فى وقت ذلك الفتح (ويذكر أن الفتح كان سنة ٦٤٠) فهو يجعل تاريخ ميلاده سنة ٦٢٢ وقد ساقه الى هذه النتيجة على الأخص ما ذكر من أن اسحق كان فى صباه ملحقا بقريب له اسمه (Meneson) وكان هذا القريب ناموسا لجورج حاكم أرض مصر وهذا اللقب عجيب إذ يظهر كيف بقيت الألقاب اليونانية مستعملة فى مصر بعد الفتح العربى ولسنا نشك لحظة فى أن تلك الألقاب قد بقيت فى مصر بعد ذلك الفتح فقد جاء فى الوثيقة عينها ذكر عامل لقب بلقب (Augustal) وأنه كان متصلا اتصالا مباشرا مع «ملك العرب» «عبدالعزيز». وقد ذكر اسمه قبل ذلك ببعض صفحات فوجود هذا اللقب على ذلك لا يدل على أن اسحق قضى صباه تحت حكم الروم. والحق أنه قد ثبت أنه هرب فى الصحراء وكان بعد لا يزال فى سن الصبا وكان ذلك بعد الفتح إذ أنا نجد أهله بعد ذلك بقليل يستشيرون بطريقا قبطيا فى الاسكندرية فى أمره.

وليس من الممكن أن يكون هذا قد وقع بين سنة ٦٣١ ـ سنة ٦٤٤ إذ لم يكن ثمت فى الاسكندرية بطريق قبطى وقتئذ كما أنه ليس من الممكن أن يقع هذا قبل سنة ٦٣١ إذ قد ذكر عنه عقب هروبه أنه حادث قسيسا من قسوس الريف.

وقد جاء فى ذلك الخبر «أنه قد شهد الكثيرون أن ذلك القس كان من القدّيسين أهل الايمان وأنه كان ممن أحضر بين يدى قيرس فحكم عليه بأن يجلد عدّة جلدات لأنه أظهر إيمانه» وهذا القول يدل على أن مدة الاضطهاد التى أنزله قيرس كانت قد انقضت وهى بين سنة ٦٣١ ـ ٦٤١، وعلى ذلك فان لجوء أهل اسحق الى البطريق كان ولابدّ بعد سنة ٦٤٤، وعلى ذلك نقول إن البطريق كان بنيامين.

وليس ثمت من دليل يدل على تاريخ لجوء أهل اسحق الى البطريق وفى أى عشرة من عشرات السنين كان ولا ندرى أكان حوالى سنة ٦٥٠ أو حوالى سنة ٦٦٠ أو حوالى سنة ٦٧٠ على أننا نميل الى ترجيح التاريخ الأوّل وذلك لأننا نهتم أكبر الاهتمام بالعبارات المتكررة التى تنص على صبا اسحق إذ ذاك ونحن فى ذلك نخالف ما ذهب اليه أميلنو فانه مثلا لا يجد صعوبة فى تأويل معنى (Jeune Garcon) (صبى صغير) على أنه كان رجلا متوسط السن مع أن هذا اللفظ قد ورد نقيضا للفظ«الهرم» فإذا ذهبنا الى أن ذلك التاريخ المقصود كان حوالى سنة ٦٥٧ كان ميلاد إسحق حوالى سنة ٦٤٠ وكانت سنة عند وفاته ثلاثا وخمسين سنة وقد كان البطريق الوحيد الذى ذكر حنا النقيوسى اسمه هو(حنا السمنودى) وهو الذى رشح إسحق لولاية الدين بعده.

ويجدر بنا أن نزيد على هذا أن أميلنو إذا كان مصيبا فيما ذهب اليه من ترتيب التواريخ أى أن ميلاد إسحق كان فى سنة ٦٢٢ فان مدّة الاضطهاد الأكبر وهى بين سنة ٦٣١ وسنة ٦٤١ تقع إذ كانت سنّ إسحق بين التاسعة والتاسعة عشرة ولكنا قدّمنا أنه لم يكن للقبط إذ ذاك بطريق فى الاسكندرية كما يستلزمه ذلك الخبر فى حين أننا إذا ذهبنا كما فعلنا إلى أن مولد إسحق كان حوالى سنة ٦٤٠ وأنه هرب الى الصحراء حوالى سنة ٦٥٧ استوْى لنا القول وأصبح طبيعيا فان بنيامين قد عاد إلى الاسكندرية قبل بثلاث عشرة سنة، وكانت هذه المدّة فى الحقيقة أكثر مدّة صبا إسحق.

وبعد أن أثبتنا تاريخ الاحتفال بولاية إسحق وموته نقول إن سابقه حنا السمنودى توفى فى أوّل كيهك (٢٧ نوفمبر) من احدى السنين بعد أن ولى أمر الدين تسع سنين، وعلى هذا تكون وفاته فى ٢٧ نوفمبر سنة ٦٩٠ ولكن ذلك لو صح يوجب علينا أن نسلم أن الاحتفال بتولية إسحق حدث بالضبط بعد أسبوع من موت سلفه فى حين أن تاريخ حياته القبطى يحتوى على ذكر مفصل لما وقع من الخلاف فى المدّة التى كانت ولاية الدين فيها شاغرة بعد موت سلفه وما وقع من المسعى لتولية رجل آخر اسمه (جورج) إذ ادعى أنه الذى وقع عليه الاختيار الصحيح على أن كبير الشمامسة أمر أن لا يولى (جورج) حتى جاء أمر من قبل الحاكم العربى فاجتمع الأساقفة عنده فى بابليون ليعرضوا عليه الأمر، فلما فحص تاريخ

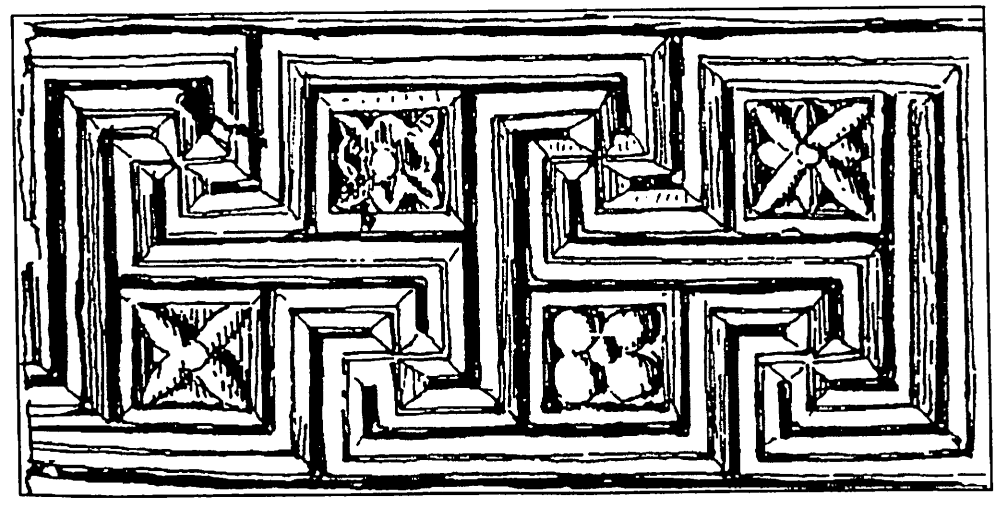
(جورج) فى حياته الماضية وجد أنه لم يكن على ما يجب أن يكون عليه وقد جاء الناس من جميع البلاد ليسمعوا حكم «عبدالعزيز» فى ذلك الأمر فلما حكم بما أرادوا من إحقاق أمر إسحق طربوا ورقصوا جميعا وعم السرور البلاد من بابليون الى الاسكندرية ومن الجلى أن ذلك لابد يحتاج إلى وقت طويل فنحن مضطرون إلى القول إن وفاة حنا السمنودى كانت فى أوّل كيهك (٢٧ نوفمبر) سنة ٦٨٩ مع أننا نقول إن الاحتفال بتولية إسحق كان فى ٨ كيهك سنة ٦٩٠ أو بقول آخر إن ولاية الدين بقيت شاغرة مدّة عام وهذا الاستنتاج يؤيده ما جاء فى الديوان الشرقى إذ جاء فيه أن حنا مات فى أوّل كيهك وكان ذلك يوم السبت، وقد رأينا أن يوم ٨ كيهك كان فى سنة ٦٩٠ يوم أحد فيكون أوّل كيهك من ذلك العام يوم أحد أيضا ولكن أوّل كيهك كان يوم السبت كما هو المطلوب فى عام سنة ٦٨٩.

فاذا نحن حسبنا مدّة ولاية حنا تسع سنين رجع بنا الحساب إلى أن أوّل تلك الولاية كان فى سنة ٦٨٠ وقد مات سلفه (أجاثو) فى ١٣ أكتوبر وعلى ذلك يكون الاتفاق قريبا كل القرب بين حسابنا والتاريخ المذكور وكانت وفاة اجاثو فى ١٣ أكتوبر سنة ٦٨٠ بعد أن ولى أمر الدين مدّة تسع عشرة سنة كما جاء فى الأخبار ولكنا رأينا أن وفاة بنيامين كانت فى ٨ طوبة (وذلك يوافق ٣ يناير سنة ٦٦٢) والمدّة بين التاريخين ثمان عشرة سنة وعشرة أشهر تنقص قليلا وذلك تقريب شديد القرب وعلى ذلك نرى أن حساب التواريخ يتفق بعضه مع بعض اتفاقا وثيقا.

وانا نستطيع الآن أن نورد التواريخ مرتبة وقد كان جل اعتمادنا فيها على ما جاء فى كتاب ساويرس وقرناها بما جاء فى تاريخ حياة اسحق وسوى ذلك من المراجع فاتفقت اتفاقا عظيما يجعلنا نستبعد احتمال الخطأ، وقد اتفق فون جوتشمت معنا فيما أثبتناه من تواريخ وفاة بنيامين وأجاثو، ولكنه يخالفنا فى تاريخ وفاة حنا السمنودى فيجعلها فى ٢ مايو سنة ٦٨٩.

ولكن ذلك لا يعتمد على مرجع كاف وهو فوق ذلك يجعل الاحتفال بتولية إسحق فى فبراير سنة ٦٩٠ ووفاته فى ٥ نوفمبر سنة ٦٩٢ ولكن هذين التاريخين قد ظهر فسادهما مما جاء فى تاريخ حياته القبطى فالتواريخ الحقيقية على ما يلوح لنا هى الآتية:

البطريق	تاريخ التولية	مدّة الولاية	تاريخ الوفاة
(١) بنيامين	يناير سنة ٦٢٣	٣٩ سنة	٣ يناير سنة ٦٦٢
(٢) أجاثو	يناير سنة ٦٦٢	١٩ سنة	١٣ أكتوبر سنة ٦٨٠
(٣) حنا السمنودى	أكتوبر سنة ٦٨٠	٩ سنوات	٢٧ نوفمبر سنة ٦٨٩



زحزفة بالخشب من أحد أبواب الكنيسة المعلقه

بحث فى شخصية المقوقس

فلنبدأ بذكر المؤرخين العرب ما قالوه حول شخصية المقوقس، وفى هذا لا نقول عن هذا الأمر شئ سوى شك وخلط وأنهم فى ذكرهم لأخباره يبدون أكبر الاضطراب والتناقض. وليس خلطهم فى ذكر الأخبار الا نتيجة لاختلاط الأمر عندهم واستغلاقه عليهم ولئن كان ثمت شئ مؤكد فهو أن مؤرخى العرب تلقفوا لقب المقوقس سماعا أو رواية نقله بعضهم عن بعض بغير أن يفهموا له معنى وأن الاسم بقى بينهم دون سواه واختلط عليهم الاسم الحقيقى للشخص الذى كان يلقب به وأن ذلك اللقب كان لقبا مبهما أصله غير عربى يطلق على حاكم مصر. فيسمون حاكم مصر فى زمن النبى المقوقس ويسمون حاكمها فى زمن الفتح المقوقس. ولا يهمنا كثيرا فيما نحن بصدده من الحجة أن نبحث فى أول ما أستعمل العرب ذلك اللقب له. أأطلقوه على حاكم مصر فى وقت رسالة النبى ثم أطلقوه بعد ذلك من باب التوسع والتمثيل على حاكم مصر فى زمن الفتح أم قد سمعوه (كما نظن نحن) أولا فى زمن الفتح ثم أطلقوه خطأ على الحاكم الذى جاءته رسالة النبى؟ وعلى أى حال فقد كان ذلك يطلق على العامل على مصر من قبل أمبراطور الروم أى على الحاكم العام لمصر.

الطبــــرى ولنبدأ بالطبرى فلا ينكر أحد أنه يفرق فى رواية من رواياته بين المقوقس وبين جاثليق مصر. فلننظر فيما هو المقصود من لفظ جاثليق مصر فهو لفظ لا يطلقه أحد اطلاقا صحيحا على عظيم من عظماء رجال الكنيسة ولم يستعمله أحد لذلك المعنى فهو اصطلاح أرمنى أو سورى أو نسطورى وقد عرفه الطبرى فى طبرستان أو فى بغداد ثم أطلقه خطأ فى مصر ولا شك فى أن معناه (المترانوس) ولكن ليس من اللازم أن يقصد به البطريق. وفوق ذلك قد رأينا أن لفظ مصر له مدلولان إما قطر مصر واما مدينة مصر وعلى ذلك فجاثليق مصر قد لا يكون معناه سوى (مترانوس مدينة مصر) وقد ورد ذلك اللقب كثيرا فى التاريخ القبطى وقد كان فى بابليون أسقف وهو حصن بابليون وكان فى منفيس أسقف وفى حلوان أسقف وقد كان أسقف مصر مقدما على سائر أساقفة ذلك الاقليم وكان لقب (مترانوس) يطلق فوق ذلك على أسقف دمياط وانه من العسير أن نتصوّر مصر ـ وقد كانت العاصمة الثانية بعد الاسكندرية ـ يكون أقل شأنا وأحط مقاما من سواه وذلك إذا لم يكن (مترانوس) ويجمل بنا أن نذكر هنا أننا نرى أنه من المحال أن يقال بطريق مصر لأن هذا يكون لقبا غير

ممكن الوجود فقد كان البطريق يقال له(بطريق الاسكندرية) ولم يطلق عليه غير ذلك اللقب أبدا ولم يذكر مرة لقب(بطريق مدينة مصر) أو(بطريق للقطر المصرى). ولقب(مترانوس مصر) ليس مستمدا من الظن والحدس إذ قد وجدناه مستعملا حوالى سنة ٧٥٠ للميلاد إذ وصف رجل إسمه تيودور بأنه كان (المترانوس أسقف مصر).

فاذا نحن ذهبنا مع هذا الرأى زالت من أمامنا كل الصعاب التى نشأت من التمييز بين الجاثليق والمقوقس فقد كانا شخصين متفرّقين ولم يقل أحد مرة أن أسقف مصر كان هو المقوقس.

وقبل أن ننتقل من القول فى عبارة الطبرى يجب علينا أن ننبه إلى تناقض فى قوله فبينما هو يقول فى رواية إن عمرا عند ما جاءه الزبير قابله أبو مريم وأبو مريام وقاتلاه، إذا به يقول فى رواية أخرى إن عمرا والمقوقس التقيا فى عين شمس والتحم جيشاهما فى القتال. ولسنا نرى موضعا للشك فى أن هاتين العبارتين تشيران إلى حادثة واحدة، وهذا مثل من الأمثلة التى تدل على ضرورة درس روايات الطبرى مفردة ثم قرن بعضها إلى بعض ودرسها معا فاذا سلمنا بأن الحادثة المقصودة واحدة وأن رواية من الروايتين تشير إلى أن جاثليق مصر هو الذى قابل عمرا ثم أعقب ذلك وقعة عين شمس، وأن الثانية تشير إلى أن المقوقس هو الذى فعل ذلك أمكن أن نقول إن المقوقس هو جاثليق مصر وأن ذلك الجاثيلق قد يكون جاثليق القطر المصرى أى أنه قد يكون هو البطريق قيرس. وإذا صح ذلك كانت الرواية التى تميز قيرس وتجعله شخصا آخر غير المقوقس رواية مخطئة. ويجب أن نذكر أنه لا يصح أن نثق بمختلف الروايات ثقة متساوية إذا كانت روايات متناقضة فيجب علينا أن نميز بينها ونوازن بين ذلاتها لنرى أيها أوثق وأصدق.

ابن عبد الحكم والآن فلننظر إلى المؤرّخين الآخرين فقد جاءت فى تاريخ ابن عبد الحكم(حوالى سنة ٨٥٠ للميلاد) عبارة ذات شأن، فقد جاء فيه قوله«فوجه هرقل ملك الروم المقوقس أميرا على مصر وجعل إليه حربها وجباية خراجها ونزل الاسكندرية»فما معنى هذا القول سوى أنه كان الحاكم الأعلى بمصر؟

وإذا كان ابن عبد الحكم يذكر أن المقوقس كان على جباية الخراج فى مصر فقد ذكر ذلك أيضا سعيد بن البطريق(٨٧٦ ـ ٩٣٩) كما أن قوله هذا يوافق ما جاء فى وثيقة قبطية

متخلفة من القرن السابع وفيها ذكر زيارة (المقوقس البطريق الكاذب) لدير القلمون وفيها يوصف ذلك البطريق بأنه«مراقب الخراج فى أرض مصر» ولا شك فى أن هذا الدليل ذو خطر عظيم. وقد ذكرت هذه الحادثة عينها فى النسخة العربية من التقويم القبطى لحياة القدّيسين فقد جاء فيه صراحة أن الشخص الذى حاول أن يجعل صمويل يعترف بالعقيدة الخلقيدونية أو الملكانية كان اسمه المقوقس.

وفوق ذلك جاء فى وثيقة مخطوطة أخرى وصف (البطريق) بعد اسم المقوقس. وعلى ذلك فقد قام الدليل من هاتين الوثيقتين القبطيتين على أن الشخص الذى كان مراقبا للخراج فى مصر هو المقوقس كما قال ابن عبد الحكم وكذلك كان هو البطريق الملكانى وكبير الأساقفة. أى قيرس.

ولكنا نجد فوق ذلك اتفاقا آخر يسترعى النظر بين ابن عبد الحكم ومؤرّخ آخر مستقل عنه: فقد ذكر المؤرّخ العربى عبارتين عن المقوقس: إحداهما تنص على عمله الحربى؛ والأخرى تنص على عمله فى جباية الأموال. فأما فيما يخص عمله الحربى فانا موردون هنا تعزيزا عجيبا نأخذه من وثيقة سريانية تخلفت من القرن السابع وقد ترجمها وعنى بنشرها الأستاذ جويدى وكانت كتابتها فى القرن السابع بعيد فتح العرب لمصر. وقد جاء فيها أن العرب قد عاقهم عن الفتح فى أوّل الأمر أن حدود مصر كانت يدافع عنها جيش قوى كبير حشده بها بطريق الاسكندرية.

فأنى لبطريق أن يدبر هذه الأمور الحربية المحضة؟ ولكن إذا عرفنا أن البطريق كان عند ذلك قيرس، ولا ينكر أحد أنه قد كان، وإذا كان قيرس هو المقوقس، كانت عبارة هذه الوثيقة السريانية القديمة متفقة كل الاتفاق مع وصف ابن عبد الحكم لحاكم مصر وأنه كان صاحب الحرب المطلق فيها.

البلاذرىـ(٨٠٩ ـ ٩٣ للميلاد) ـ ليس قوله فى المقوقس شديد الدقة فهو يذكر أنه صالح عمرا على عهد ردّه هرقل. ونحسب المقصود بذلك معاهدة مصر ثم يذكره بعد ذلك قائدا فى الاسكندرية فى مدّه حصار العرب لها، ثم يذكر أنه فاوض عمرا فى تسليم المدينة ـ وفى الحقيقة يتفق ما جاء فى تاريخ البلاذرى فى هذا الشأن مع ما جاء فى كتاب حنا النقيوسى من أخبار قيرس.

اليعقوبى ـ (المتوفى سنة ٨٧٣ للميلاد) ولم يكن من أهل مصر وهو يذكر أن المقوقس صالح عمرا وأن هرقل ردّ ذلك الصلح.

ابن الأثير ـ (١١٦٠ ـ ١٢٣٢ للميلاد) والظاهر أنه ينقل عن الطبرى ولكنه يصف (أبو مريم) بأن المقوقس أرسله ليقابل عمرا ويصفه بأنه جاثليق منفيس وهذا يدل على أنه فهم من لفظ (جاثليق مصر) أنه يقصد به أسقف مدينة مصر وليس بطريق الاسكندرية. وعلى ذلك فليس فى قول ابن الأثير ما يناقض الأدلة على أن المقوقس كان هو قيرس بعينه. ويصح لنا هنا أن نزيد على ذلك أن مؤرخى العرب لم يميزوا واضحا بين الأسقف وبين كبير الأساقفة. فان أبا المحاسن يذكر (أبو مريم) بأنه كان جاثليق مصر ثم يذكر (بنيامين) بأنه كان أسقف الاسكندرية. وكذلك ليس لفظ (أسقف رومة) باللفظ الغريب عن عرف التاريخ بل إنه يرد فى الأخبار هكذا (ويقصد به بابا رومه) ولكن ابن الأثير يذكر أن المقوقس أمر بالقتال فى عين شمس متبعا فى ذلك رأى الأطربون الحربى ويذكر كذلك أنه فاوض فى الصلح فى الاسكندرية.

ياقوت ـ (١١٧٨ ـ ١٢٢٨ للميلاد) يذكر أن المقوقس هو صاحب الصلح الذى عقد باسم القبط والروم وأنه صالح على شرط أن ينفذ بالعهد إلى الامبراطور ليقره.

المكين ـ جرجس بن العميد السريانى المصرى ـ (١٢٠٥ ـ ١٢٧٣ للميلاد) يذكر أن المقوقس كان حاكم مصر من قبل هرقل ـ أى أنه كان نائب الملك فيها.

ابن دقماق ـ (حوالى ١٣٥٠ ـ ١٤٠٦ للميلاد) يروى عن ابن وهب أنه روى عن الليث بن سعد أن المقوقس الرومى الذى كان ملك مصر صالح عمرا.

المقريزى ـ (١٣٦٥ ـ ١٤٤٢ للميلاد) يروى عن يزيد بن أبى حبيب أنه قال إن المقوقس الرومى كان واليا على مصر وأنه صالح عمرا ويقول إن قائد الحصن (أى بابليون) كان (الأعيرج) من قبل المقوقس ويذكر بعد ذلك أن المقوقس كان حاكم البلاد من قبل هرقل. ويذكر أنه عقد صلح مصر وأن الأمبراطور ردّه ولم يقرّه. وأنه لام ذلك الحاكم النائب عنه على أنه رضى «أن يكون ومن معه من الروم فى حال القبط أذلاء» الخ. وليس ثمت ظل من الشبهة فى أن المقريزى يعدّ المقوقس نائب الملك فى مصر.

أبو المحاسنـ(١٤١١ ـ ١٤٦٩ للميلاد) وهو يذكر أن قائد قصر الشمع(أى حصن بابليون) كان(الأعيرج) من قبل المقوقس.

ويقول هذا المؤرّخ مرة أخرى«ثم بدأ حصار الحصن وكان قائده المندفور من قبل المقوقس بن قرقب اليونانى» ثم يذكر بعد ذلك عظماء المصريين وحاكمهم المقوقس.

السيوطي ـ(١٤٤٥ ـ ١٥٠٥ للميلاد) وكان مثل أبى المحاسن متفقا معه فى الرأى فقال إن الإمبراطور هرقل رد صلح المقوقس مع العرب وأمثال ذلك القول.

وها نحن قد عرضنا أدلة مؤرّخى للعرب واخترنا ما بها من تعريف بسلطة المقوقس وعمله فى مصر مبتدئين بابن عبد الحكم إلى أن انتهينا بالسيوطى فلنمض الآن إلى الشعبة الثانية وهى المؤرخين القبط.

ولنا أن نزيد هنا بداية أن جمع السلطة العليا فى أمور الدين والدنيا معا فى شخص واحد لم يكن بدعة جديدة، بل كانت له سابقة واضحة فى القرن السادس. فقد عرض جستنيان على تيودوسيوس أن يكون بطريق الاسكندرية وحاكم مصر معا إذا هو قبل كتاب ليو ومذهبه الدينى. وإذا كان الأمر كذلك لم يكن عجبا من هرقل أن يجمع الرياستين فى شخص قيرس. وقد أورد ساويرس فى كتابه الذى بين ايدينا هذين الخبرين أو لعلهما وردا فى تاريخه ـ فإن ديوان تاريخه وما أضيف اليه بعده مجموعة قيمة من الأخبار يقرّ أهل البحث والدرس لها اليوم بالفضل.

وقد قال (Evetts)عن كتاب ساويرس «إن تاريخ بطارقة الاسكندرية هو الكتاب العمدة فى تواريخ البطاركه للكنيسة القبطية والجزء الأوّل منه مجموعة جمعها ساويرس أسقف الأشمونين بالصعيد نقلها عن وثائق يونانية، وأخرى قبطية، وجدها فى الأديرة التى فى بلاده فترجمها بمساعدة بعض القسوس.

وقد صار كتاب تاريخ البطاركة أتم وأكثر فائدة وأكبر قيمةِ منذ القرن السابع ولا سيما فى وقت فتح العرب فنجد فيه سلسلة من تواريخ حياة حقيقية كتبها كتاب من أهل عصرها» وليس يخالف أحد هذا الرأى إذا كان ممن درس كتاب ساويرس حق دراسته.

ويظهر أنه قد جرت العادة منذ أقدم الأزمان على أن تكتب أخبار الكنيسة القبطية فى صورة تراجم للحياة على الأكثر وعلى أن تحفظ فى مكتبة الدير المعروف دير مقار فى وادى النطرون.

ولم يكن مأمن أصلح لذلك الغرض من ذلك المكان وراء أسوار ذلك الدير المحصن البعيد فى الصحراء. وقد حفظت فى ذلك الدير الوثائق المخطوطة التى استمد منها ساويرس تاريخه. وقد وجدت فقرة مؤرّخة فى أوّل يونيه من سنة ١٠٨١ للميلاد قد أضيفت إلى ذلك الديوان وفيما ما يلى: «إلى هنا انتهى الفصل السادس عشر الذى تم به تاريخ الآباء إلى سيمون الثانى والأربعين من البطارقة وسيلى ذلك ما ترجمناه عن الوثائق فى دير القدّيس مقار وهو تاريخ البطارقة من ميخائيل الأخير إلى سنوتيرس الأوّل. وقد ترجمنا فى هذا الدير تاريخ حياة تسعة آخرين من البطاركة فى سنة ٧٩٦ للشهداء (سنة ١٠٨٠ للميلاد). وقد كتب هذا (أبا قيروس) الدمنهورى بمشيئة الله التى أعانتنا على أن نجد هذه الأخبار فى دير القديس مقار بمساعدة الأخ تيودور الخازن بن بولس فى يوم الأحد السادس من شهر بؤونة من عام ٧٩٧ للشهداء الأكرمين. وقد قارنا الوثائق بعضها إلى بعض ووجدنا أنها تتفق مع ما لدينا من الصور فاقتنعنا بصحتها».

وهذا خبر يدل على دراسة المصادر الأصلية بعناية ودقة ومحاسبة للنفس ـ وفى استطاعتنا أن نرى مثل هذا السعى الدقيق متصلا إلى ما قبل هذا التاريخ بنحو أربعة قرون. فاننا نجد نبذة أخرى نعلم منها أن الحوادث التى وقعت إلى أيام خلقيدونية و«ديوسكوروس» (حوالى سنة ٤٥٠ للميلاد) كانت «تدوّن فى الجزء الثانى عشر من دواوين تاريخ الكنيسة» ثم إذا أردنا أن نطلع على تاريخ الحوادث من أيام (قيريل) إلى أيام الاسكندر «أمكن أن نجد ذلك فى كتاب المعلم الكاتب جورج كبير شماسى البطريك سيمون وكاتبه» (٦٨٩ ـ ٧٠١ للميلاد) وقد كتب ذلك الرجل كذلك تاريخه فى دير القديس مقار ـ ويقول الكاتب بعد ذلك «وعلى ذلك فأنا العبد المخطئ الذليل أرجوكم أن تدعو لى السيد المسيح أن يفك عقدة لسانى الضعيف وأن يشرح قلبى المظلم وأن يهبنى من البيان ما أستطيع به أن أبين لكم أيها الاخوان وأيها الأب ما سألتمونى بيانه. ولست أرجو أن أبين لكم شيئا أكون فيه معلما لكم أومر شدا أتعالى عليكم بل أكون فيه باحثا دارسا إذ قد رأيت بعينى ما كتبت وإن عظم الحوادث التى رأيتها تجعل من

واجبى أن أدونها ـ ذلك عدا ما سمعته ممن هم أكبر منى سنا من أصحابى الذين أثق فى قولهم واعتمد على صدقهم. والسيد المسيح يعلم أننا لم نزد شيئا على الحقائق بل قد ذكرنا ما وقع إلى أيام وفاة الأب المرحوم تيودور بطريق الاسكندرية وما جرى من أمور الدول فى أيامه إلى آخر الفصل السابع عشر من التاريخ الذى أتممناه آنفا» (أى إلى سنة ٧٤٣ للميلاد) ثم قال المؤرّخ«والآن فانا كاتبون الفصل الثامن عشر من تاريخ الكنيسة» ثم بعد بضعة أسطر من هذا تراه يعلق على عبارة من عباراته فيقول «إذ قد شهدنا بأعيننا مرار عدّة» ثم قال أيضا«وأقاموا ملكا اسمه كرياكوس (فى بلاد النوبة) وبقى ملكا إلى الذى نكتب فيه هذا التاريخ» وفى هذا دليل على أن. الكاتب يكتب عن عصره فى القرن الثامن من الميلاد وقد كان ذلك المؤرّخ كاتبا لموسى أسقف أوسيم بالقرب من الجيزة وهو يتكلم دائما عن نفسه فى ذكر الحوادث فيقول مثلا «فذهبنا إلى القصر وكان معنا الأباتيودور أسقف مصر» إلى غير ذلك ويقتبس قطعة من مذكرات البطريق ميخائيل (فى موضوع دير مينا بقرب مريوط) وقد أرسلت تلك المذكرات إلى كاتب عبد الملك. ونرى ذلك المؤرّخ من جهة أخرى يدافع عن نفسه لحذف بعض الحوادث بقوله «وقد ذكرنا هذه الأمور فى كتاب تاريخ حياة(ميخائيل) وهو منفصل عن هذا التاريخ» ولكنه يذكر بعد ذلك حوادث تاريخية مثل موت مروان فيقول«وقد قتلوه ومثلوا به ونكسوا رأسه بعد أن أسروه وقد كنا من شهود هذا الحادث».

وفى القرن السابع كتب كاتب فى ذلك التاريخ ترجمة حياة حنا الثالث(٦٧٧ ـ ٨٦ للميلاد) ووصف قصة رحلة حنا الأخيرة إلى الأسكندرية فقال«وكان كاتب هذا الخبر معه فانه كان ابنه فى الله» ويمضى الكاتب بعد ذلك فى ذكر تفاصيل دقيقة لا يستطيع أن يورد مثلها إلا كاتب من أهل العصر نفسه.

وبعد فانّ كثيرا من الأمور التى يشير إليها الكاتب فى تاريخ ساويرس يمكن تحقيقها وقد ظهرت صحتها ظهورا جليا فمثلا جاء فى أخبار سيمون الأوّل قوله «وفى يوم من أيام الأحد جاءت الأخبار إلى الأمير إن جيش الروم ثار بالملك جستنيان وعزله وولى مكان(ليونتيوس)» وقد كانت ولاية سيمون للبطركة من ٦٨٩ إلى ٧٠١ للميلاد أو هى إلى سنة ٧٠٠ للميلاد وكان عزل جستنيان الثانى فى سنة ٦٩٥ ، ومثل آخر قوله: وكانت مملكة الروم فى ذلك الحين تتخبط تخبط الصبية فى لهوهم فان الروم بعد أن عزلوا ملكهم جستنيان جعلوا مكانه ليو

(ليونتيوس) ملكا عليهم ولكنه قتل قبل أن يتم السنة الثالثة من حكمه وولى بعده (أيماروس) ويسمى (تيبريوس) بعده ولى (فليبيكوس) وبعد سنتين ولى (أنستاسيوس) ملكا على الروم ولا يزال يلى الملك.] وقول الكاتب«ولا يزال يلى الملك» يقصد به الوقت الذى كان يكتب فيه تاريخه].

ونرى أنه يكفينا مثل آخر بعد هذه الأمثلة ـ وذلك عندما كان قرّة الظالم والى مصر ـ فقد جاء عنه أنه عسف عسفا شديدا وابتز أموالهم واستصفى أملاكهم الخاصة وأراضيهم وأرزاقهم وأوقافهم حتى صار الناس إلى الفقر المدقع قال الكاتب «فجعل الناس يهربون من مكان إلى آخر ولكن لم يعصمهم مكان منه» فان قرّة كان يرسل رسله وراء الهاربين. قال الكاتب عن هؤلاء الرسل إنهم كانوا يجمعون الهاربين من كل مكان ويرجعونهم إلى بلادهم مقيدين ويعاقبونهم. وهذه الأخبار كلها تذكر على أنها وقعت فى أيام بطرقة الاسكندر الثانى (٧٠٥ ـ ٧٣٠ للميلاد) وهذه الحقائق قد ثبتت بغير شك عندما كشفت ورقة اليونانية وتاريخها(٧٠٨ ـ ٧١٠ للميلاد). وهذا الاتفاق بين الخبرين دليل قوى على دقة كتاب «تاريخ البطاركة».

حقا إنه لا يمكن فى بعض الأحوال أن نعرف الكاتب الحقيقى لخبر من أخبار ذلك الديوان وسبب ذلك أن التراجم والوثائق الأخرى التى أدخلت فيه قد كتبها كتاب مختلفون فى مدّة حياة البطارقة المتعاقبين أو بعد موتهم بقليل. وعلى ذلك فان حكاية الكاتب عن نفسه يقصد بها أشخاص مختلفون فمثلا قال المصنف فى آخر ترجمة حياة ميخائيل الأوّل«وقد بقى البطريق على كرسى الكرازة ثلاثا وعشرين سنة ونصف سنة كما وجدنا ذلك فى مكتبة دير القدّيس مقاريوس إلى سنة ٧٦٨» ولا يمكن أن يكون هذا المصنف هو عين الكاتب الذى يذكر(أنستاسيوس) أنه صار أمبراطور الروم وأنه كان لا يزال على عرش الدولة إلى وقته مع أن هذا الكاتب لابد أن يكون هو الكاتب الذى علق على قوله«لا يزال» فالحقيقة أن النسخ المخطوطة التى كانت فى المكتبة كانت تنقل حرفا حرفا ولفظا لفظا عن أصحابها وهى ترجع إلى أقدم الأزمان وأكثرها كتب فى وقت حدوث الحوادث التى تصفها وهذه الحقيقة تجعل لتلك الوثائق أكبر قيمة. حقا إن تلك الدواوين لا تخلو من ذكر خوارق المألوف والمعجزات كما أنها لا تخلو من الأخطاء كما لا يخلو ديوان مؤرّخ عربى منها، ولكنا إذا استبعدنا من وثائق التاريخ القديم كل ما تشوبه الخرافات أو تتخلله الأخطاء وإذا نحن أغفلنا تلك الوثائق فلم

فلم نعتد بدلالتها لم يبق لنا إلا القليل فى أى باب من أبواب التاريخ ـ وإنا نقول إجمالا غير وجلين ولا موارين إن أخبار دواوين تراجم البطارقة صادقة فى جملتها فيما تنص عليه من أخبار التاريخ وقد ثبت ذلك وخلص من كل شك.

وقد تمسك المؤرخ (لين بول) بكلمة خيل إليه أن ساويرس قالها وهى اعتراف بعدم معرفة اللغة اليونانية أو القبطية. حقا لقد حدث هذا الاعتراف وصاحبه هو كاتب المقدّمة الثالثة للكتاب ولكن قام الدليل القوى على أن اسم ساويرس قد ألصقه الناسخ خطأ بتلك المقدّمة ولم يكن فى الإمكان أن يكون ساويرس كاتبها. فاذا نحن فحصنا الأمر لم نجد إلا تبريرا ضعيفا ـ أو لعلنا لا نجد تبريرا لقول من يقول إن ساويرس لم يعرف اللغة اليونانية ولا اللغة القبطية وإذا أمعنا النظر وجدنا كل ما يدل على أن تاريخه كان تصنيفا بالغا مبلغا عظيما من الدقة قائما على أساس من الوثائق الصحيحة. فمن الخطأ على ذلك أن نجرح دلالته. وفى الحق انا لا نعلم أن مؤرّخا واحدا من المؤرّخين العرب يمكن أن نظهر أن تاريخه يعدل كتاب ساويرس فى أنه قائم على سلسلة غير منقطعة من الأخبار المدونة التى كتب أكثرها كتاب عاشوا فى عصرها فان المؤرّخين العرب يروون أخبارا عدّة عن العصور القديمة ولكنهم قلما ينقلون عن الوثائق الأصلية نصوصها أو يسندون أخبارهم إليها. ومعنى هذا القول أن التاريخ القبطى قائم على أساس أقرب إلى العلم وأمتن فى الدلالة، ألا وهو أساس الوثائق المخطوطة.

وبعد فان ماذكرناه آنفا يدل على أن لكتاب ساويرس قيمة عظيمة بين مصادر التاريخ وعلى أن قوله فى المقوقس وشخصيته لا يجوز أن يغفل بغير روية ولا فحص.

فلنمض الآن إلى قول ساويرس أو بقول أدق لنمض إلى قول المؤرّخ الذى ترجم حياة بنيامين لنرى ما فيه. قال:

«فلما ملك الأرض (هرقل) اقام الولاه فى كل موضع وانفذ واليا إلى أرض مصر يدعى المقوقس ليكون بطركا ووالى معا، فلما وصل الى اسكندريه اعلم الاب بنيامين ملاك الرب به وامره ان يهرب... واقام مختفيا هناك فى دير صغير فى البريه إلى كمال العشر سنين» انظر ص ٥٦٩ وبعدها قال المؤرّخ «وهى السنين التى كان فيها هرقل والمقوقس مسلطين على ديار مصر» ثم قال بعد ذلك عن قيرس إنه «حاكم الاسكندرية الكافر الذى كان بطريقا وحاكما

من قبل الروم» وهذا القول يؤكد أن قيرس كان هو المقوقس تأكيد لا إبهام فيه وقد بينا أن هذا يتفق كل الاتفاق مع ما جاء فى النسخة العربية من تقويم القديسين إذ جاء فيها «كان المقوقس كبير المذهب الخلقيدونى وقد جعل حاكما على مصر وبطريقا لها» كما أنه يتفق مع النسخة الأتيوبية من ذلك التقويم إذ جاء فيها«المقوقس أى الحاكم والبطريق فى الإسكندرية وفى جميع بلاد مصر» وقد أظهرنا كذلك الاتفاق التام مع ما جاء فى الوثائق المخطوطة (البودلية) وهى مما تخلف عن ذلك العصر وفيها نص على أن المقوقس كان يجمع الرناستين رئاسة الدين ورئاسة جباية الأموال فى مصر كما أننا أظهرنا أن وثيقة مخطوطة سريانية تختلف عن زمن قريب من ذلك العصر وهى الديوان المجهول الكاتب (chrouicon Anouymum) قد جاء فيها أن بطريق الإسكندرية هو الذى دافع العرب عن مصر فى حين أن ابن عبد الحكم يصف عامل هرقل على مصر بأنه كان يجمع سلطة الحرب الكاملة وسلطة جبابية الأموال ويسميه بالمقوقس.

وقول مؤرّخى اليونان يوصلنا إلى النتيجة نفسها فان نيقفوروس يذكر أن هرقل أرسل (ماريانوس) إلى الاسكندرية ليشترك مع قيرس بطريق الاسكندرية فى الاستقرار على خطة يسيران عليها مع العرب ثم يقول فى موضع آخر إن قيرس كان أسقف الاسكندرية.

وتيوفانز أصرح قولا إذ يقول «ولما مات جورج (البطريق الملكانى أو الخلقيدونى) أرسل قيرس ليكون أسقف الإسكندرية بعده» ولما ذكر العرب قال«فغزوا مصر واتهم قيرس بأنه سلم ذهب مصر إلى العرب فأرسل إليه الأمبراطور رسالة شديدة يأمره فيها أن يعود من مصر».

فالحقائق التى يدل عليها قول هذين المؤرّخين هى أوّلا أنهما متفقان على أن قيرس كان بطريق الاسكندرية ويقول نيقفوروس إن(مريانوس) كان قائدا حربيا أرسله هرقل وأمره أن يشترك مع قيرس فى الاحتيال فى أمر العرب خاصة، وهذه عبارة تدل على أن قيرس كان له أمر الدنيا، كما كان له أمر الدين فى مصر، فى حين أن تيوفانز يقول إن قيرس عند ما رضى بدفع الجزية للعرب غضب عليه هرقل وأمره بالعودة من مصر، وهذه العبارة كذلك تدل على أن قيرس كان له أمر الدنيا إذ كان نائبا عن هرقل ولا شك أن تيوفانز يعنى بقوله هذا معاهدة مصر التى رضى بها قيرس ثم ردّها هرقل غاضبا.

وما أقرب الصلة بين قول هذين المؤرّخين اليونانيين وبين قول مؤرخى العرب اللهم إلا فى أمر واحد وهو أن العرب يذكرون اسم المقوقس فى المواضع التى يذكر فيها اليونان اسم قيرس فان مؤرخى العرب متفقون على أن الذى صالح عمرا هو المقوقس وأن ذلك الصلح كان مشروطا فيه الرجوع إلى هرقل لموافقته وأن هرقل غضب وردّه حانقا ـ حقا إن العرب لا يذكرون أن هرقل أمر المقوقس بالعودة من مصر، ولكن المؤرخ الذى كان قريبا من ذلك العصر وهو حنا النقيوسى ذكر أن قيرس أمره هرقل بالعودة والخروج من مصر.

بقى علينا أن نذكر باختصار ما قاله مؤرخان مسيحيان وهما أبو صالح وسعيد بن البطريق (أوتيكيوس) فقد قال أبو صالح إن المقوقس ولاه هرقل على مصر وقال كذلك إن السنوات العشر التى كان فيها البطريق بنيامين طريدا فى منفاه كانت السنوات التى حكم فيها المقوقس مصر. ولسنا ننكر أن أبا صالح يقول إن اسم المقوقس هو جورج بن مينا ولا ننكر أن سواه من المؤرّخين يذكرون له أسماء أخرى، ولكن حسبنا أن نقول إنه لم يورد أحد من المؤرّخين الأوّلين إسما ما لحامل ذلك اللقب المقوقس فاذا جاء ذكر اسم له بعد موت المقوقس بخمسة قرون أو ستة لم يكن ذلك دليلا يقاوم الأدلة المتراصة المتراكمة التى تدل على أن المقوقس هو قيرس، وعلى ذلك يمكن أن نقول إن أبا صالح الأرمنى يتفق مع مؤرّخى القبط واليونان والمصريين فى ذكر العمل الذى كان يعمله المقوقس ويتفق مع ساويرس فى أن المقوقس كان المضطهد الخلقيدونى الذى اضطهد القبط وطرد بنيامين إلى منفاه.

وأما سعيد بن البطريق (سنة ٨٧٦ ـ ٩٣٩) فقد كتب قبل أبى صالح بنحو ثلاثة قرون ويجب أن نذكر أنه لم يكن خلقيدونياً فحسب، بل قد كان بطريقا ملكانيا لمصر وهو يقول«وبعد هرب جورج صار قيرس بطريق الاسكندرية وكان مارونيا على مذهب هرقل» وقال فى موضع آخر«وكان العامل على الخراج بمصر المقوقس من قبل هركل الملك» ثم قال«وكان يعقوبيا (أى قبطيا) يكره الروم ولكنه كان يخشى أن يظهر عقيدته اليعقوبية خوفا من أن يقتله الروم».

ولا شك فى أن ذلك المؤرّخ الذى كان بطريقا ملكانيا كان شديد الحرص على أن يزيل عن قيرس معرّة تسليم مصر إلى العرب فاضطره ذلك إلى أن يتورّط فى أقوال عجيبة، فلما قال إن قيرس جاء إلى مصر عند تولية هرقل ليكون بطريقا للاسكندرية، قال فى نفس

الصفحة إنه لم يول بطريق ملكانى للاسكندرية لمدّة سبع وتسعين سنة بعد هرب جورج وهذا قلب جرئ ومسخ لحقائق التاريخ فالظاهر من هذا أن ابن البطريق لا يرضى بأن يسلم بأن قيرس كان بطريقا ملكانيا وهو فى الوقت عينه يتهم المقوقس بأنه كان قبطيا يخفى عقيدته فى قلبه وهذه التهمة اعتراف منه بأن المقوقس كان ملكانيا فى ظاهره ـ حقا إن ابن البطريق لا يقول صراحة إن قيرس كان المقوقس ولكن هذا الاتفاق فى قوله ذو دلالة عظمى ـ ولقد قال إن المقوقس كان العامل على الخراج من قبل هرقل فهو بذلك يتفق مع ابن عبد الحكم ومع الوثائق القبطية(البودلية) وابن البطريق مثل سائر مؤرّخى العرب يذكر أن المقوقس كان حاضرا فى حصن بابليون عند الحصار ثم خرج منه إلى الروضة لمفاوضه عمرو وأنه صالح عمرا بعد ذلك على معاهدة مصر ولكنا نرى أن ابن البطريق لم يذكر أن قيرس هو المقوقس لأنه كان يجهل ذلك الأمر لا لأنه كان يقصد التضليل والتدليس ولقد ظهر جهله بذلك الأمر فى موضع آخر إذ قال إن المقوقس كان حيا فى وقت ثورة منويل.

إلى هنا بينا ما هنالك من أدلة بينها اتفاق عجيب فى بعض الأحايين واختلاف واسع فى أحايين أخرى وقد استمددنا تلك الأدلة من وثائقها الأصلية ومنها ما تخلف عن العصر الذى نصفه وهى من أصول متباينة: منها اليونانى والقبطى والسريانى والعربى، وكلها تدل على أن المقوقس إنما هو قيرس بطريق الاسكندرية والعامل على الخراج والحاكم العام على مصر فى وقت الفتح.وليس ينقض هذا الرأى أن يقول قائل إن مؤرّخى العرب قد يطلقون لقب المقوقس أحيانا على شخص يسمونه ليس هو قيرس، ولسنا ننكر أن الأمر كذلك ولكنا نكرر كل الانكار تلك النتيجة التى يذهب إليها أصحاب ذلك القول وهى أن لقب المقوقس لم يكن علما على شخص معين واحد وحجتهم فى ذلك أنه قد أطلق خطأ فى بعض الأحوال على أشخاص متعدّدين.

بحث تاريخى عن المقوقس

بقلم الأستاذ كامل بك صالح نخله

أطلق مؤرخو العرب والقبط اسم المقوقس على الوالى الذى كان له اعظم نصيب فى حوادث الفتح العربى وكان العامل القوى على تسليم مصر اليهم.

واختلف العرب على حقيقة شخص المقوقس واسمه وجنسه وخلطوا فى ذلك بأن لقبوه بعظيم القبط ودعوه باسم المقوقس جريج بن مينا.

ولم يكن المقوقس قبطيا كما توهم مؤرخو العرب ومن جاراهم من الغربيين بل انه رومى الجنس وهو قيرش Cyrus اسقف فاسيس بارمينيا من بلاد القوقاس بآسيا. وقع اختيار الامبراطور هيرقل عليه لمهمة توحيد المذاهب الدينية المسيحية فى مملكته وعلى الاخص فى مصر وسائر المشرق فعينه بطريركا ملكيا للكرسى الاسكندرى بدل البطريرك جورج الملكى وولاه جباية الخراج فى الوقت ذاته واصبح يجمع بين يديه السلطتين الدينية والمدينة فى مصر.

ولم يكن فى ذلك بدعة جديدة بل كانت له سابقة معروفة حدثت فى القرن السادس عندما عرض الامبراطور على البابا الارثوذكسى تيودسيوس الاول البطريرك ٣٣ ان يكون بطريركا على الكرسى الاسكندرى وحاكما على مصر معا إذا هو قبل طمس لاون واعتنق مذهبه الدينى الخلقدونى وقد رفض هذا العرض (تاريخ البطاركة) فليس مستغربا ان يمنح هيرقل الرياستين الدينية والمدينة الى شخص قيرش البطريرك الخلقدونى

هذا ولم يحصل قط فى عهد حكم الرومان والروم البيزانطيين ان تقلد ولاية الحكم فى مصر منذ اغسطس قيصر الى وقت هيرقل وال قبطى اى مصرى الاصل.

ولبثت حقيقة مسألة واسم المقوقس ومنصبه وجنسيته زمنا طويلا غامضة ومعضلة عسرة الحل الا انه امكن الوصول الى حلها بالرجوع الى كتاب التاريخ المحققين المعاصرين لهذا المقوقس والذين دونوا حوادث الفتح العربى واظهروا شخصية المقوقس وجنسيته بكل وضوح فى كتبهم سواء كانت بالقبطية الصعيدية أو البحيرية أو العربية وأيدهم علماء التاريخ الاوربيين وغيرهم.

(١)المصادر القبطية

ولنبدأ بذكر المصادر القبطية التى هى أقدم عهداً من سائر المصادر الاخرى وأصحها.

أولا ـ تاريخ حياة القديس انبا شنوده رئيس المتوحدين الذى نشره العلامة اميلنو عن اصل قبطى كتب فى القرن السابع (طبعة باريس سنة ١٨٨٨ صفحة ٣٤٠) جاء فيه الخبر الآتى فى شكل نبوة وهو : ـ

«ثم سيظهر المسيح الدجال يمثل بين يدى ملك الروم فيجمع له ولاية الدين والدنيا وسيجئ الى مصر ويناصب فيها كبير الاساقفة بالاسكندرية العداء وسيهرب منه هذا الى أرض تيمان» وهذا بلا شك وصف دقيق لقيرش وما كان منه من معاملة البابا بنيامين.

ثانيا ـ تاريخ الانبا صموئيل القلمونى رئيس دير القلمون المكتوب فى الجيل السابع الميلادى المعروفة بالوثيقة البودلية

(١) جاء باللغة القبطية باللهجة الصعيدية شذرة من تاريخ انبا صموئيل القلمونى وما جرى له مع المقوقس نقتطف منها الشواهد الآتية (نقلا عن المجلة الاسيوية عدد نوفمبر ـ ديسمبر سنة ١٨٨٨)

(ص٣٦٥) وترجمته: «واما من جهة المقوقس البطريرك الكاذب فانه صار حاقدا لحين وصوله لمدنية الفيوم».

ص ٣٦٧ وترجمتها «لانك لم تكرمنى بصفة كونى بطركا ولم تراعنى أيضا أنا وسلطانى بصفة كونى عاملا على خراج كورة مصر».

(٢) جاء أيضا فى النسخة العربية لتاريخ صموئيل القلمونى الشذرات الآتية:ـ

(أ) «فى ذلك» الزمان ظهر رجل يعرف بالمقوقس يقول بأمانة لاون مجمع خلقيدونية وتولى على الديار المصرية من قبل هرقل الروم وكان على الخراجات والثغور بالديار المصرية فابتدأ يضطهد الارثوذ كسيين فى كل مكان ويكلفهم الاعتراف بأمانته. وطلب ابانا البطريرك انبا بنيامين ليقتله ويجلس موضعه على كرسى البطريركية فهرب إلى صعيد مصر وستره الله

وخلص من يديه. ثم بعد ذلك جلس المقوقس على الكرسى الرسولى وأخرج الطومار الذى للاون المخالف فقرأه على الشعب وأمرهم باجابته وقبوله. ووجه جنديا قاضيا وبصحبته سياف إلى جبل شهات وعلى يده ذلك الطومار النجس الذى لخلقدونيه وأمره أن يكلف الشيوخ الذين بشيهات أن يعترفوا به من كبيرهم إلى صغيرهم لأن جميع الكورة المصرية تابعة لأولئك الشيوخ وأوصاه قائلا: «أطلب باجتهاد وفى قلالى الرهبان والأماكن المقفرة الشيوخ لعلك تجد رئيس هذا الشعب المدعو بنيامين وارسله لأنتقم منه فما دام هو حيا لاتثبت لى رياسة البطريركية بالكورة المصرية. هكذا وصل ذلك الجندى إلى الجبل المقدس بفنطسة عظيمة ومعه مئتا جندى وجلس فى الكنيسة العظيمة التى للقديس مكاريوس وأمر أن يجتمع الرهبان من كبيرهم الى صغيرهم ثم سأل عن الايغومانس بجبل شيهات المدعو الانبا يوحنا فلم يجده...».

(ب) «وإذا بقيرش المقوقس قد اقبل مصعدا من كورة مصر فى طلب البطريرك بنيامين».
وجاء ذكر ذلك عندما سكن صموئيل دير القلمون فى الفيوم كما جاء فيه أيضا ـ

(جـ) «وأما المقوقس المدعى البطركية فقد اضمر الغش فى قلبه الى مدينة الفيوم وسير للوقت غلمانا ومجندين ليأتوه بالقديس انبا صمويل وهو مربوط اليدين الى خلف وفى عنقه سلسلة ينقاد كمثل اللص فمضوا الى الدير وأتوا به فكان يتمشى متهللا بفرح قائلا: لعل أن يكون فى هذا اليوم سفك دمى على اسم المسيح ومن أجل ذلك يكتب المقوقس علانية لعله أن يظفر بما قد أضمر فى نفسه» وهكذا أقامه الجند قدام المقوقس فلما رأى ذلك الكافر رجل الله امتلأ غضبا وأمر الجند بضربه الى أن يسيل دمه على الأرض وكان يقول له: «أنت صمويل المدعى النسك. من الذى أقامك مدبرا على الأديرة ومن أمرك أن تعلم الرهبان أن يبتعدوا عنى وعن أمانتى؟» فقال له القديس: جيدا أن نطيع الله وقديسيه البطاركة وما نطيعك وتعليمك الشيطانى. يا ابن الشيطان والمسيخ الدجال المضل. فلما سمع القديس يقول هذا أمر أن يضرب على فيه قائلا: «يا صمويل ان المجد الباطل الذى يمجدك به الناس أفسد عقلك ولكن ساؤدبك وأعلمك أن تتكلم حسنا لأنك لم تمجدنى كبطرك ولم تكرمنى لسلطانى وكونى رئيسا على الخراجات والثغور بكورة مصر».

ثانيا: ديوان لا يعرف كاتبه وهو عبارة عن وثيقة سريانية متخلفة من القرن السابع جاء فيها أن قيرش كان صاحب السلطة الحربية فى مصر وأنه هو الذى دافع العرب عن مصر.

ثالثا: كتب البابا أغاتون البطريرك (٣٩) (من سنة ٦٦٢ ـ ٦٨٠م) يصف ما جرى للبابا بنيامين البطريرك (٣٨) سلفه عندما دعى لتكريس هيكل بنيامين ببيعة القديس مكاريوس المستجدة ببرية شيهات باللغة القبطية جاء فيها العبارة الآتية: وهذه ترجمتها العربية: ودعوت القس أغاتو الذى لى الذى تألم معى على الايمان فى زمن البحرية لما كان قيرش المقوقس يطاردنى عدو جميع الخيرات. (القبط تأليف جرجس فيلوتاوس ص ٢٣).

رابعا: كتب ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين من علماء القرن العاشر والذى كان معاصرا للبابا ابرآم بن زرعه البطريرك (٦٨) (من سنة ٩٧٥ ـ ٩٧٨م) فى كتاب تاريخ البطاركة باللغة العربية فى سيرة البابا بنيامين.

(١) «ثم أن هرقل مقدم البطاركة من قبل فوقا الملك الكافر أخذ المملكة وصرف اهتمامه لقتال الفرس وبنعمة السيد المسيح سار اليهم فقتل كسرى ملكهم الكافر وأخرب مدينته وجعلها بربة وحمل نعمتها وسبيها بفرح الى القسطنطينية فلما ملك الارض أقام الولاة فى كل موضع وانفذ واليا الى أرض مصر يدعى قيرس ليكون بطركا وواليا معا فلما وصل الى الاسكندرية أعلم الاب بنيامين ملاك الرب به وأمره أن يهرب» (كتاب مخطوط ١٣ تاريخ بالدار البطريركية ص ٨٨ VR) انظر كذلك ص٥٦٩من متن ساويرس.

(٢) «كمال العشر سنين كما قال له ملاك الرب وهى السنين التى كان فيها هيرقل والمقوقس مسلطين على ديار مصر» (V٨٩) انظر ص٥٧١ من متن ساويرس.

(٣) «انه حاكم الاسكندرية الكافر الذى كان بطريركا وحاكما من قبل الروم» (V٩٠).

(٤) «وأذكنا بالغداة اليوم الثامن من طوبه فقلت ايتونى بالقس أغاتون الذى تعب معى على الامانة فى زمان الشدايد التى لحقتنى عند مطاردة المقوقس عدو الحق لضعفى» (R٩٦). انظر ص٦٠٩من متن ساويرس .

خامسا: جاء فى السنكسار القبطى باللغة العربية المطبوع فى باريس عن عدة نسخ خطية من الجيلين الرابع عشر والخامس عشر فى تذكار اليوم الثامن من شهر طوبه ما يأتى: ـ

(١) «فى هذا اليوم كان تكريز الاسكنا المقدس بدير أبى مقار على يد الاب الطاهر بنيامين

الطاهر بطريرك الاسكندرية وهذا بعدما حل به شدايد من المقوقس وكيف كان هاربا منه فى الصعيد الى كمال عشر سنين وملكوا المسلمين فأما المقرقز فمص خاتماً مسموماً ومات وكان على أمانة خلقدونية وكانوا قد جعلوه وزيراً وبطريركا على بلاد مصر».

(٢) «وفيه ايضا كانت نياحة الأب القديس بنيامين البطريرك... ولما انتخب للبطريركية جرت عليه هو وبقية الأساقفة فقدس الأب وقرب الشعب ووصاهم واعلمهم بما سيكون ثم ارسل كتباً إلى ساير الاساقفة ورؤساء الديارة بأن يهربوا ثم مضى إلى ديارة ابو مقار ثم منها الى الصعيد وبعد خروجه من المدينة وصل والى وبطرك من قبل هرقل فتسلط على البيع وعلى المؤمنين وعاقب كثيراً منهم ومسك اخا القديس بنيامين وعاقبه وكان اسمه مينا واحرق جنبيه ثم غرقه أخيراً.

سادسا: جاء فى السنكسار الاثيوبى: «المقوقس اى الحاكم والبطريك فى الاسكندرية وفى جميع بلاد مصر» ص ١٧٣ اصل وص ١٨٠ ترجمة.

سابعاً: ان تاريخ يوحنا النقيوس وهو من علماء واساقفة القبط فى أو اخر الجيل السابع للميلاد يؤيد بكل يقين ان قيرش البطريرك الملكى كان واليا على مصر لأنه كان متوليا كل شؤون الدولة مدنيا ودينيا فهو الذى كان يدير حركة مقاومة الغزو العربى وهو الذى تولى جميع مفاوضات الهدنة والصلح والتسليم وهو الذى كان آلة الامبراطور هيرقل فى اضطهاد اتباع مذهب المستقيمى الرأى وهو الذى كان اكبر محرض عليه (صفحة ٥٦٢ فصل ١١٧ وصفحة ٥٨٤ فصل ١٢١).

ثامنا: جاء فى جداول مقتطفة من تواريخ البطاركة وغيرها من كتب خطية قديمة العهد ما يأيتى: (وكان المقوقز جريج بن مينا الهيراطيقى نايب هرقل بالديار المصرية).

تاسعا: جاء فى كتاب تاريخ ابن الراهب من علماء القرن الثالث عشر الميلادى ما يأتى:-

(وقتل هرقل فوقا (الملك) وأخذ الملكة وصرف اهتمامه لقتال الفرس واخرب بلادهم وملك مصر وولى عليها قيرش وجعله بطركا وواليا) (ص ٧٢٢٢ من كتاب التواريخ المخطوط).

عاشراً: جاء فى الكتاب المنسوب الى ابى صالح الارمنى المكتوب حوالى سنة ١٢٠٠م

الذى طبعه العلامه افتس باكسفورد سنة ١٨٩٤ ما يأتى فى صفحة ٣٨ (ان محمدا بعث حاطب بن ابى بلتعه من لخم الى المقوقس صاحب الاسكندرية) وجاء ايضا فى صفحة ١٠١ (ان هرقل استعمل على مصر جريج بن مينا المقوقس) ثم ذكر احد أديرة الصعيد دون تعيين اسمه وقال: (ان بنيامين اختفى هناك فى حكم الامبراطور الرومانى هرقل الخلقيدونى وحين كان جريج بن مينا حاكما على مصر حتى تمت مدة السنوات العشر وكان ذلك هربا منهما كما انذره الملاك).

نقل ابو صالح من كتاب الجناح ان اسقف الروم فى مصر والاسكندرية كان قيرش (صفحة ٢٨).

حادى عشر: جاء فى تاريخ البطاركة لانبا يوساب اسقف فوة فى سيرة البابا بنيامين: «ثم قام هرقل أول البطارقة قتل فوقا ملك الروم وتقدم الى الفرس وسبى أصحابه وارسل الى أرض مصر واحداً يقال له المقوقز وزير وبطرك فهرب منه بنيامين الى الصعيد وألى وادى هبب، ص ٧٤٠.

(النتيجة) يتضح جلياً من الادلة المتقدم ذكرها ان المقوقس كان يقول عن نفسه فى قصة القديس صموئيل انه كان بطريركا وواليا فى آن واحد جامعا بين يديه السلطتين الدينية والمدينة، ومن اقوال ساويرس بن المقفع والاستشهادات الاخرى الصريحة ان قيرش هو المقوقس وانه لم يكن قبطيا بل روميا وانه كان له السلطان فى امر الدين وامر الدنيا من قبل الامبراطور هرقل كما دلت عليه الحقائق التاريخية لهذا العصر والتى لم يختلف فيها مؤرخو القبط وان الفتح العربى تم على يديه وانه كان العامل على تسليم البلاد اليهم.

وقد أثبت يوحنا النقيوسى فى تاريخه بالدليل القاطع ان الذى سلم مصر هو قيرش أما ما رواه ابن المسكين فليس حقيقيا اذ لم يحدث صلح بين العرب وعظماء القبط بل كان الصلح بين العرب والروم مباشرة وعلاوة على ذلك فانه مؤرخ متأخر وليس لتاريخه قيمة ما لأنه استقى الاخبار والحوادث من تأليف العرب وخصوصا من الطبرى الذى اختصر تاريخه.

وقد افرد العلامه جرجس فيلوثاوس عوض فى كتابه (القبط) باباً للمقوقس اثبت فيه انه لم يكن قبطيا بل اجنبيا وانه هو نفس قيرش البطريرك الملكى الذى سلم البلاد للعرب وهو رومى الجنس جمع بين يديه الرئاسة الدينية وولاية الحكم.

هذه هى ادلة المؤرخين القبط الدامغة وحججهم الصريحة التى لا تحتاج الى تأويل أو تفسير.

(٢) المصادر الاسلامية

ولنذكر الآن ما جاء فى كتب اشهر مؤرخى المسلمين نقلا عن كتاب الفتح العربى تأليف العلامه بتلر ص ٥١٧.

اولا ـ البلاذرى من رجال النصف الاول من الجيل التاسع للبلاد يذكر المقوقس ويقول انه صالح عمرا وانه كان قائدا فى الاسكندرية مدة حصار العرب لها ثم يذكر انه فاوض عمرا فى تسليم المدينة وانه كان فى جانب القبط بعد ان ابى هرقل اقرار صلحه ويذكر عند ثورة منويل ان بعض الرواة يذهبون انه ساعد العرب والبعض الآخر انه مات قبل ذلك ويتضح ان قوله فى المقوقس لم يكن دقيقا الدقة اللازمة فى تدوين الحوادث التاريخية الخاصة بالفتح العربى ـ ص ٥٠٧.

ثانيا - اليعقوبى من رجال النصف الاخير من الجيل التاسع للميلاد وهو لم يكن مصريا وذكر ان المقوقس صالح عمرا وان هرقل رفض الصلح ـ ص ٥٠٧.

ثالثا ـ الطبرى من رجال القرنين التاسع والعاشر ميز بين حاكم الاسكندرية وحاكم منفيس ويذكر ان الاخير كان المقوقس وانه كان عظيم القبط وانه ارسل الى منفيس جيشاً تحت قيادة الجاثليق الذى كان كبير أساقفة النصارى واسمه ابن مريم ص ٥٠٧.

رابعا ـ ياقوت من رجال القرن الثانى عشر يذكر ان حصن بابيلون كان حاكمه المندفور الذى اسمه الاعيرج نايبا عن المقوقس ابن قرقب اليونانى الذى كان يقيم فى الاسكندرية ويذكر ان المقوقس هو صاحب الصلح الذى عقد باسم القبط والروم وانه صالح على شرط ان ينفذ بالعهد الى الامبراطور ليقره. وهذا المؤرخ يعتبر المقوقس حاكما على مصر (٥٠٨).

خامساً ـ ابن الأثير من رجال القرن الثانى عشر: يذكر أبا مريم وأبا مريام وأن الأول كان جاثليق منفيس وأن الثانى كان أسقفا وأن المقوقس أرسلهما ليقاتلا عمرا ولكنهما فاوضاه وصالحاه على شروط رفضها المقوقس وأن المقوقس كان يقود الجيش بنفسه فى موقعة عين

شمس ثم ذكره بعد ذلك أنه حاكم الاسكندرية فى وقت الحصار وأنه صالح عمرا وكان حيا عند ثورة منويل.

ويظهر أن هذا المؤرخ كان يخلط بين الأسقف ورئيس الأساقفة والجاثليق (ص٥٠٧).

سادسا: ابن خلدون من رجال القرن الرابع عشر: يتبع ابن الاثير فى روايته غير أنه جعل المقوقس قبطيا.

سابعا ـ المقريزى من رجال القرن الرابع عشر: يروى عن يزيد بن ابى حبيب عبارة أن المقوقس الرومى كان واليا على مصر وصالح عمرا ويروى عن ابن عبدالحكم خبر حياة المقوقس فى ثورة منويل وابن الحكم هذا هو مؤرخ قديم مات سنة ٨٧٠ ميلادية.

ويتفق المقريزى مع ياقوت فى ذكر الاعيرج وفى أن المقوقس بن قرقب أو فرقت كان يونانيا ويذكر أن القبط كان لهم فى الاسكندرية أسقف اسمه أبو ميامن وأن المقوقس صالح العرب على أن هرقل لم يقر صلحه وعنفه. وذكر قيرش فقال ان هرقل أقام قيرش بطرك الاسكندرية (ص٥٠٨).

ثامنا ـ ابن دقماق من رجال القرن الرابع عشر يذكر المقوقس الرومى الذى كان ملك مصر وصالح عمرا (ص ٥٠٨).

تاسعا ـ أبو المحاسن من رجال القرن الخامس عشر يذكر بنيامين أسقف الاسكندرية ويقول أن قائد قصر الشمع كان الاغيرج (بالغين) وكان تحت أمر المقوقس وذكر أن اسم المقوقس جريج ابن مينا وذكر كذلك أن قائد الحصن كان المندوفور المسمى الاغيرج من قبل المقوقس بن قرقب اليونانى. وروى عن ابن كثير أن المسلمين عندما دخلوا مصر قابلهم أبو مريم جاثليق مصر وأبو مرتام الاسقف ثم ذكرهما عند بناء الفسطاط (ص ٥٠٨ و ٥٠٩).

عاشرا - السيوطى من رجال القرن الخامس يتفق مع أبى المحاسن فى رواياته ص ٥٠٩.

النتيجة

يظهر جليا من أقوال كبار مؤرخى العرب المسلمين هذه أنهم كانوا فى حيرة عظيمة وأن اختلافاتهم كثيرة إذ ليس لديهم عن هذا الحادث سوى معلومات غير وثيقة ولكنهم ذكروا

المقوقس ولقبوه بعظيم القبط أو أمير القبط ولم يذكروا أنه كان قبطيا وأنه لم يكن من القبط إلا أن البعض منهم ذكر أنه كان يونانيا وكان واليا من قبل هرقل وأنه عقد الصلح مع العرب وأن هرقل لم يقر صلحه ودعاه العرب فى الجيل الثانى عشر بجريج بن قرقب وذهب بعضهم إلى أن قرقب تحريف لابن قرقر كما رواه أبو صالح الارمنى ولم يعرف المقوقس باسم جريج بن مينا إلا فى أوائل الجيل الثالث عشر للميلاد.

وأن جريج ربما كان محرفا عن قيرش بقلب القاف جيما وقلب الشين جيما معطشة وكذا لقب المقوقس أو المقوقز قد يكون نسبة إلى القوقاز أو القوقاس التى كان أسقفا عليها قبل توليه بطركية الاسكندرية.

وقد يكون اسم جريج خلطا بين اسمه واسم جورج قائد حامية حصن بابيلون الذى حرف العرب اسمه باسم أعيرج.

وقد ذهب بعض المحققين أن جريج مشتق من جريجوريوس أو غريغوريوس أو كركور وهو اسم أرمنى ومنها أتى لقب ابن قرقر وأن اسم والده جريجوريوس فيكون قيرش بن جريجور وجريجور بن مينا.

وقد أجمع مؤرخو العرب على تعيين العمل الذى كان يعمله المقوقس ولكنهم لم يتفقوا على الاسم الذى كان يسمى به ولا على تعيين جنسيته.

أما معنى كلمة المقوقس فأصعب وأعسر من ذلك وقد قال بتلر أن هذه الكلمة كتبت فى النصوص القبطية «ابقفقيوس» وفى اليونانية (قفقاسيوس) أى القوقازى لأن موطن قيرش وأصله كان من أهم مواضيع التساؤل بين آل الاسكندرية الذين اعتادوا الفضول والاهتمام بمثل هذه الامور وكان الجواب على تساؤلهم (قفقاسيوس) وذلك لأن هرقل نقل قيرش من مركز الرئاسة الدينية فى فاسيس ببلاد القوقاز ونشأ من هذه الكلمة الاسم العربى المقوقس.

أما ابن مريم وابن مرتام فهما اسمان لا سقفى منف وبابيلون الملكيين. أما أبو الميامن فهو اسم للبطريرك الارثوذكسى بنيامين.

(٣) مصادر العرب المسيحيين

ولنذكر الآن ما دونه مؤرخو العرب المسيحيون (غير القبط).

أولا ـ سعيد بن بطريق وهو سورى الاصل ويعرف باسم البطريرك افتيخوس الملكى الاسكندرى المولود ٨٧٦م يذكر فى تاريخه المطبوع أن المقوقس كان عاملا على الاموال فى مصر لهرقل وأنه كان يعقوبيا فى الباطن ولكنه كان فى الظاهر ملكيا وأنه منع الجزية التى كان عليه أن يرسلها للامبراطور هرقل منذ حصار الفرس للقسطنطينية ولم يذكر للمقوقس اسما وذكر أنه كان حيا إلى مابعد ثورة منويل وأن هرقل صير قيرش بطريركا على الاسكندرية وكان مارونيا وذكر أن البطريرك فاوض عمرو أثناء الاقتتال فى الاسكندرية ولم يذكر بعد ذلك شيئا عنه كما لم يذكره بالاسم (جزء ثانى ص ١٢ و ٢٢ و٢٣ و٢٤).

ثانيا ـ أبو الفرج بن ا لعبرى وهو سريانى الاصل من رجال الجيل الثالث عشر ولم يذكر شيئا عن المقوقس فى تاريخه.

النتيجة

قرر سعيد بن بطريق صراحة أن المقوقس كان عاملا على الخراج فى مصر من قبل هرقل وأنه اغتال أموال الدولة التى أؤ تمن عليها وانه كان من ذوى الاعتقاد بالطبيعتين فى الظاهر ولكن تحاشى الاعتراف بأن قيرش البطريرك الملكى هو نفس المقوقس حتى لا يلصق لمركز البطريركية الملكية الخيانة والغدر وهو من خلفائه على الكرسى من الملكيين ورغم شدة حرصه فى كتابته فقد اعترف أن عمرو بن العاص مثل امام البطريرك وقت الاقتتال فى الاسكندرية فكيف يقابل القائد الأعلى البطريرك ولا يقابل الوالى فى المفاوضة إن لم يكن الاثنان واحداً وله عذر فى مراوغته لأنه يسعى فى كتابته كى يزيل عن قيرش تهمة تسليم مصر إلى العرب فاضطر كما قال العلامة بتلر إلى المراوغة والتورط فى أقوال عجيبة ويقلب كل حقائق التاريخ ويمسخ الوقائع الصحيحة التى تقرأ من بين سطور كتابته أن البطريرك والوالى شخص واحد.

(٤) مصادر اليونانيين

ولنذكر بعد ذلك ما قاله مؤرخو اليونان:

أولا ـ ذكر نيقوفوروس أن هرقل أرسل ما يانوس إلى الاسكندرية ليشترك مع قيرش بطريرك الاسكندرية الملكى فى الاستقرار على الخطة التى يتخذانها مع العرب ثم قال فى موضع آخر أن قيرش كان أسقف الاسكندرية.

ثانيا ـ ذكر تيوفانس أنه لما مات جورج أرسل قيرش ليكون أسقف الاسكندرية بعده وقال عن العرب أنهم غزوا مصر واتهم قيرش بأنه سلم ذهب مصر إلى العرب فأرسل اليه الامبراطور رسالة شديدة يأمره فيها أن يعود من مصر.

النتيجة

ويتضح من أقوال هذين المؤرخين أن قيرش بطريرك الاسكندرية الملكى وكانت له الكلمة فى الأمور المدنية والمالية والحربية بدليل اشتراكه مع مندوب القيصر فى تدبير أمور الدفاع وعقده للمعاهدة مع العرب وهى المعاهدة التى رفضها هرقل وتفريطه فى أمواله الدولة التى كان موكلا عليها وهذا يتفق كل الاتفاق مع الحقائق التى ذكرها مؤرخو القبط ويوضح ماغمض فى كلام ابن بطريق الذى سلم معهم أن البطريق كان يفاوض عمرو.

(٥)المصادر الافرنجية

(١) يزعم فون رنك Von Rank أن المقوقس كان حاكم مصر وأنه كان قبطيا وقد كان هذا العلامة يشك فى حقيقته التاريخية.

(٢) يذكر العلامة دو جوج De geoje أن مؤرخى العرب خلطوا فى بعض المواقع بين المقوقس وقيرش البطريرك الملكى وأنه كان شخصا آخر عمله غير عمل المقوقس.

(٣) ذهب الأستاذ كرابيسكKarabacek إلى أن اسم المقوقس هو جورج بن مينا برقبيوس وبهذا يفسر اسم فرقب أو قرقب الذى يسمى به بعض المؤرخين أبا المقوقس ورأى هذا الأستاذ أن المقوقس كان حاكما لأقليم وأن لقبه تحريف عربى للفظ اليونانى الذى كان لقبا تشريفيا.

(٤) وقال المستر ملن Milne أن المقوقس كان جورج حاكم الأقليم الشرقى الذى ذكره يوحنا النقيوسى.

(٥) ذهب الاستاذ استانلى بولStanley Pool إلى أن الاسم تحريف للقب اليونانى التشريفى ويتبع رأى الاستاذ ملن فى زعمه أنه كان حاكم الاقليم الشرقى وعدل أخيرا عن هذا الرأى بعدما اطلع على الابحاث الاخيرة التى بحثها العلامة بتلر واقتنع معه بأن المقوقس لم يكن حاكم الاقليم الشرقى بل انه هو نفس قيرش البطريرك الملكى.

(٦) سماه الاستاذ بورى الحاكم القبطى.

(٧) استنتج أميلينو Amelineau ما يأتى:

(أ) إن خبر ارسال النبى محمد كتابا إلى المقوقس فى عام ٦٢٧م غير حقيقى.

(ب) إن اسم المقوقس هو جورج بن مينا وأما اسم ابن قرقب فهو تسمية أخرى.

(جـ) أن أحد أبوى المقوقس كان قبطيا ان لم يكونا كليهما قبطيين وأنه كان فى خدمة الامبراطور وأنه كان فى أول الامر على المذهب الملكى.

(د) انه كان بطريركا ملكيا ولكن تاريخ ولايته غير معروف إلا بالظن والحدس.

(هـ) ان اللفظ المقوقس كان لقبا مشتقا من لفظة أطلقت على اسم قطعة صغيرة من النقود البرنزية، وقد علق العلامة بتلر على هذا الاستنتاج بأن اميلينو اخطأ فيما ذهب اليه وأنه أخذ برأى بعض من سبقه من المؤرخين دون أن يفحصه فحص ناقد وأنه اضطر أن يعترف بأن المقوقس كان بطريركا ملكيا ولكنه لم يذكر أنه هو نفس قيرش ولم يرجع فى أبحاثه إلى ما كتبه ساويرس بن المقفع اسقف الاشمونين فى سير البطاركة ولا الى كتاب السنكسار.

(٨) استنتج العلامة بريره Periera ما يأتى:

(أ) ان صاحب الاضطهاد هو شخص عرف باسم المقوقس .

(ب) انه كان من أصل يونانى.

(جـ) انه كان بطريرك الاسكندرية وحاكم مصر ومراقب الاموال.

(د) ان اسمه قيرش.

(هـ) ان اسم المقوقس مشتق من لفظ يونانى.

(٩) وصل العلامة بتلر فى ابحاثه الجديدة التى بحثها لتحقيق شخصية المقوقس ونشرها بعد نشر كتابه «الفتح العربى لمصر» بعشر سنوات الى ان اثبت علميا ان المقوقس لم يكن سوى قيرش البطريرك الملكى بالاسكندرية الذى جمع له هرقل ولاية الدين وجباية الخراج بارض مصر وانه كان يونانيا ولم يكن قبطيا وانه هو المقصود بالمقوقس فى وقت غزو العرب لمصر.

(١٠)وعمل العلامة جان ماسبرو بحثا عن المقوقس وصل به الى ان المقوقس لم يكن شخصا آخر غير قيرش بطريرك الاسكندرية الملكى ووالى مصر فى عهد هيرقل (٦٣١ - ٦٤١م) وهو بذلك يتفق فى الرأى مع العلامة الفريد بتلر (كتاب تاريخ بطاركة الكرسى الاسكندرى تأليف جان ماسبرو طبعة باريس سنة ١٩٢٣ ص ٣٥٣)

النتيجة

قد طابقت ابحاث العلامة بتلر ما وصل اليه العلامة بريرا والعلامة جان ماسبرو فى استنتاجاتهما اما باقى المستشرقين فقد استقوا اخبارهم من المصادر العربية الاسلامية دون المراجع القبطية واليونانية ونقلوها بلا فحص وتمحيص ونقد ولذلك لا يمكن التعويل عليها والاعتداد بها.

(٦) الاستنتاج العام

يستنتج مما تقدم ما يأتى: -

(١) ان المقوقس لم يكن قبطيا بل انه رومى الجنس.

(٢) ان المقوقس هو نفس قيرش البطريرك الملكى الاسكندرى.

(٣) ان قيرش جمع بين يديه السلطتين الدينية والمدينة فى عهد الامبراطور هرقل.

(٤) ان المقوقس قيرش اغتال خراج مصر ولم يقدمه لمولاه الامبراطور هرقل.

(٥) انه هو الذى قام جيوش الروم وفاوض العرب فى الصلح وسلم البلاد اليهم.

وصف الاسكندرية عند الغزو العربى

أرسل عمرو إلى الخليفة كتابا مشهورا يصف فتح الاسكندرية، والرواية المتداولة عنه هى «لقد فتح الله علينا مدينة من صفتها أن بها أربعة آلاف قصر، وأربعة آلاف حمام، وأربعمائة ملهى، واثنى عشر ألف بائع للخضر، وأربعين ألفا من اليهود أهل الذمة». ونرى أن هذه الأعداد فيها مبالغة، ولعلها لم تكن كذلك فى الكتاب الذى بعث به عمرو بل نقلها النساخ خطأ. ومع ذلك فانها تدل دلالة واضحة على ما كان للمدينة من الأثر العظيم فى نفوس الفاتحين، وقد أدهشهم عظمها وفخامتها،

وما كانت دهشة العرب من رسم المدينة باعظم من دهشتهم مما كان تحت أرضها من المبانى فقد رأوا بها عددا عظيما من الصهاريج العجيبة تحت الأرض كان لبعضها طبقات تلى بعضها بعضا أربعة أو خمسة. وكان فى كل طبقة منها عدد عظيم من الحجرات والأعمدة، حتى لقد قال السيوطى إن الاسكندرية مدينة قائمة على مدينة، وانه ليس فى البلاد مثلها على وجه الأرض. وكان بها عدد عظيم من الأعمدة لم يرمثلها فى موضع آخر فى علوها وعظم حجمها. وكانت هذه الحجرات الدفينة تستخدم لخزن المياه توصل إليها فى قنوات تجرى من الترعة الحلوة [قناة كانوب] التى كانت تشق المدينة فى حى المصريين [كوم الشقافه]، وكانت تملأ فى أوان الفيضان فيشرب الناس منها مدة الحول. ولعل أجمل احياء الاسكندرية فى ذلك الوقت كان حى البروكيون [الحى الرابع، الملكى] والذى كان يحتوى على قصور البطالسة والمقبرة الكبرى التى كانت فيها جثة الاسكندر فى غشاء من الذهب، وكان فيه المتحف وتتصل به مكتبته العجيبة التى كانت مقرّ العلوم فى العالم أجمع. وكان فى ذلك الحى الى الشرق معبد مكشوف اسمه (التترابيلوس)، وهو إيوان به أربعة صفوف من الأعمدة تحيط به، الى جانب كنيسة القديسة (مارية - روثيا) بناها (أولوجيوس)، والى شرقها فيما يلى الأسوار على مقربة من البحر الكنيسة الكبرى كنيسة القديس (مرقس) وكانت عند ذلك لا تزال مائلة وفيها مدفن من المومر به جثمان ذلك الرسول. وقد قال (أركولفوس)[1] «اذا أتيت من بلاد مصر ودخلت المدينة ألفيت عند جانبها الشمالى كنيسة كبرى فيها جثمان مرقس الانجيلى

---

(١) كان (Arculfus) فى مصر حوالى سنة ٦٧٠ للميلاد (Pa'l. Pil. Text. Soc) الجزء الثالث صفحة ٥٢ وقد اضمحلت المدينة بعد مائتى عام حتى أن (برنار الحكيم) حوالى سنة ٨٧٠ يقول «ووراء الباب الشرقى دير القديس مرقص ويعيش الرهبان فى تلك الكنيسة التى كان فيها مدفنه ولكن البنادقة أتوا =

وترى قبره أمام المحراب فى الجانب الشرقى وقد أقيم فوقه شاهد من المرمر» وكان فى الحى نفسه كنيسة القديسين (تيردور) و(اثناسيوس).

وقد عجب العرب أشد العجب من المسلتين من الصخر المحبب الأحمر (الجرانيت) اللتين كانتا فى صدر الكنيسة.

ومن المعلوم أن (الفاروس) أو المنارة كانت أثرا غير المسلتين وهى بناء متين من الحجر شاهق العلو، وأنه لمن المضحك أن يتصور أحد أن بناءها العظيم يقوم على كرسى من الزجاج على هيئة السرطان، ومع ذلك فإنه مما يسر النفس أن يصل الإنسان إلى أصل هذه الخرافة التى تظهر فى مبدأ الأمر سخيفة لا معنى لها. فإنها إنما نشأت من سوء فهم لما ذكره مؤرخو العرب الأوائل من الحقائق التاريخية وتحرّوا فى ذكره الدقة العظيمة، فلا شك فى أن المسلتين اللتين كانتا أمام كنيسة (القيصرون) عند دخول عمرو فى الاسكندرية كانتا على قاعدتين على هيئة السرطان كما وصفهما العرب الأوائل. فقد قام الدليل على هذا عند نقل إحدى المسلتين إلى نيويورك، إذ وجد أن هذا الحجر الهائل كان قائماً على أربع صور من المعدن على هيئة السرطان، وكانت هذه تفصل بين المسلة وبين القاعدة. وكانت القاعدة من قطعة واحدة من صخر (الجرانيت) وكان من تحتها ثلاث طبقات مدرجة من الحجر. ولم يكشف عند نقل المسلة إلا تمثال واحد من التماثيل الأربعة التى عل هيئة السرطان، لأن القاعدة كانت قد مضى عليها زمن طويل وهى مدفونة تحت الأرض. وكان ذلك التمثال نفسه مشوّها، وهذا مثل من الأمثلة الظاهرة التى كانت فيها أعمال الحفر والتنقيب مساعدة للتاريخ مصدقة له.

وقد يقول قائل وماذا كان من أمر الجعلان أو العقارب الزجاجية التى تحت المسلة الأخرى، وما نحسب ذلك القول إلا إحدى الأقاصيص. وليس شئ أشد خطأ من مثل هذا القول لأننا اذا سمعنا وصف أمرين متصلين اتصالا وثيقا وصدق أحدهما صدقا لا شبهة فيه وكان من آيات الدقة، فإن أعجب العجب أن نقول إن الأمر الآخر مكذوب لا صدق فيه، فما يكون قولنا هذا إلا تكذيبا لامبرر له للتاريخ كله. وليس فى وصف هذه المسلات ما يجعلنا فى حيرة

= فى البحر وحملوا جثته إلى جزيرتهم وفى سنة ١٣٥٠ كانت الكنيسة التى استشهد فيها القديس مرقس» على نحو ميلين شرق الاسكندرية» ومن هذا يتضح مقدار اضمحلال المدينة.

بين ما يقتضيه العلم وما يقتضيه التاريخ. لا جرم أننا لا نصدق أن تقول قطعة عظيمة من الصخر فى حجم تلك المسلة التى نسميها مسلة كليوبتره على جعالين من الزجاج مما يصنع فى أيامنا هذه، وما كان فى الزجاج قطع تبلغ من الحجم ما يكفى لمثل هذا القصد. ولكنا نعلم فى المعادن معدنا عظيم الصلابة والرونق وهو الحجر الأسود (الأيسيدى) الذى يشبه الزجاج، ويعرف بالزجاج الطبيعى. ولعل الجعالين التى كانت تحت المسلة الثانية ـ وهى القائمة اليوم فى لندن ـ وكانت من ذلك الحجر الأسود. وإذا كان هذا غير ممكن فلعلها كانت من حجر آخر متين شديد الصقل. وإنا نؤثر أن نصدق ما قاله كتاب العرب بنصه كما جاء فى قولهم، على أن نكذبهم فيه بعد ما ظهر من صدقهم فيه صدقا جليا. فإنا لا نشك فى أن المصريين كانوا فوق براعتهم فى صناعة الزجاج يعرفون من عظيم أسرار صناعته ما نجهل، وليس بالمستبعد أن يكونوا قد استطاعوا صناعة صنف من الزجاج يبلغ من المتانة أن يحمل مثل ذلك الكتلة الصخرية العظيمة. ومن المفيد هنا أن نقول إن المسلة التى حملت إلى لندن كانت قد وقعت على الأرض قبل الأخرى بزمن طويل.

إذن نقول إن أثرين عظيمين كانا قائمين أمام القيصرون على قاعدتين ذات طبقات. وكان أحدهما قائما على أربع سرطانات من النحاس أو الشبه، وكان الثانى قائما على أربع تماثيل من الزجاج المتين أو الحجر الابسيدى على صورة العقارب. وإذا نحن أزلنا ما طرأ من الخلط على هذا الوصف بين المنارة والمسلتين عرفنا أن التماثيل النحاسية التى يذكرها المقريزى لم تكن فى أعلى المنارة حيث لا تكون ظاهرة لرأى العين، ولكنها كانت فى أعلى المسلات. وكان التمثال «الذى يشير إلى الشمس» بغير شك تمثالا ذا جناحين يمثل «هرميس» أو «نيكى» (Nike) (آلهة النصر عند اليونان) وأغلب الظن أنه كان قائما على قدم واحدة فوق قمة المسلة[1] يمد يده اليمن على عادة اليونان، فى تصوير تماثيلهم، وكان التمثال الآخر الذى «يشير إلى البحر» صورة أخرى لا يقصد بها التجميل والزينة، وإيجاد التماثل فى المنظر. ولا بد أن هذه الأعمدة العظيمة القديمة كانت باهرة الرونق الجمال فى صنعها ورسمها الذى أبدعته يد الصناع فى عصر أغسطس، تقع فى النفس موقع الجلال إذا ما وقعت العين على قمتها الشاهقة إذ تمر بها السفن فى دخولها إلى المرفأ أو خروجها منه.

(١) قام الدليل على أن المسلات كان لها غطاء على قمتها من المعدن.

وأما المتحف فلا نجد له ذكرا باقيا إلى يومنا هذا ولا بد لنا أن نقول إنه تخرب وزال قبل ذلك بزمن طويل. ولعل زواله كان فى الحريق الكبير الذى أحدثه يوليوس قيصر عندما حاصره المصريون فى ذلك الحى تحت قيادة (اخيلاس)، أو لعل ذلك حدث أثنا الصراعات التى قامت بين المسيحيين وأصحاب الديانات الأخرى.

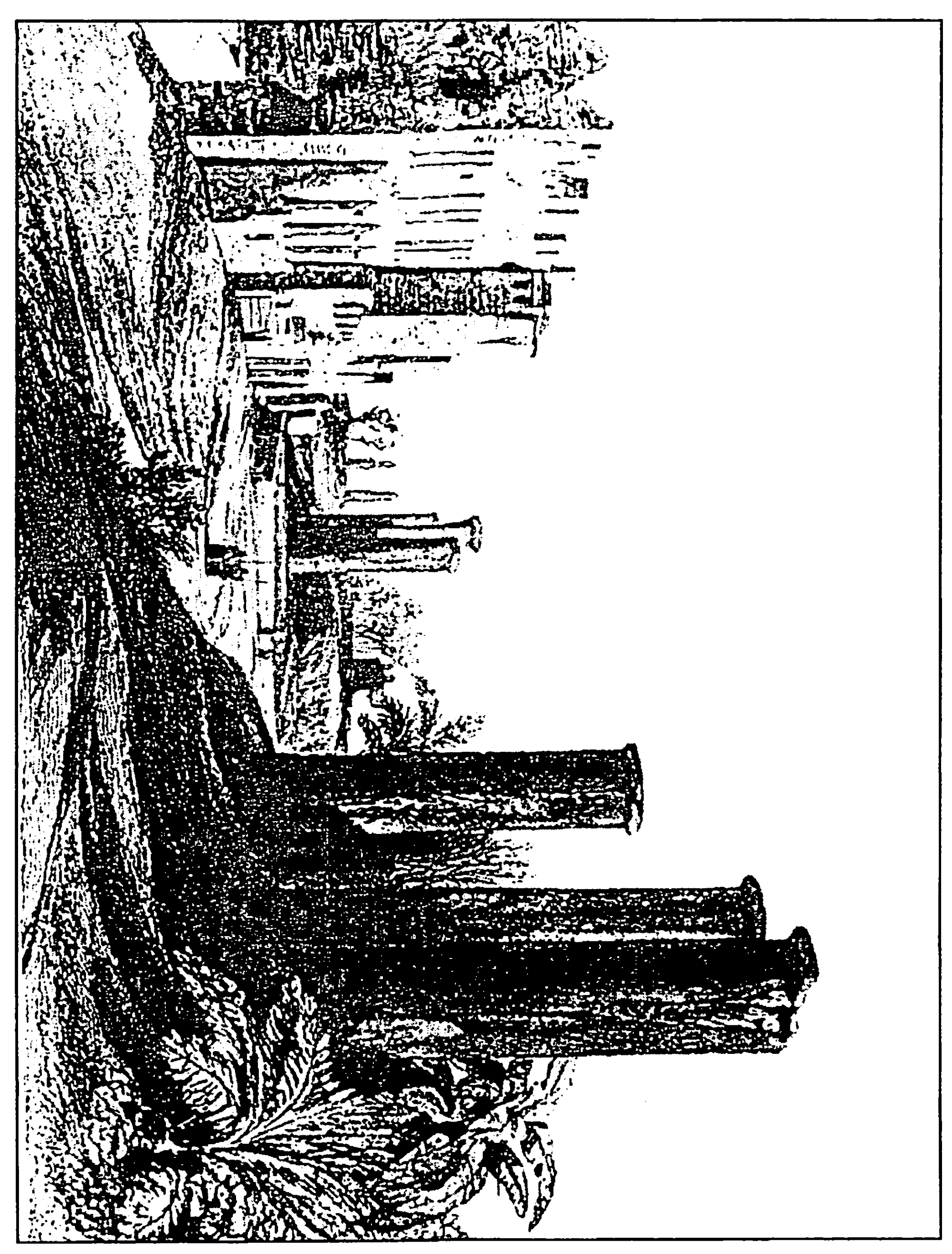
حسبنا ما تقدم فى ذكر الكنيسة، ولنصف بعد ذلك (السرابيوم) وهو طائفة من الأبنية ذات جمال رائع كان لها أثر عظيم فى نفوس العرب. وكان فى حى آخر من أحياء المدينة فى الموضع الذى به اليوم عمود (دقلديانوس). وكان هذا الحى معروفا بالحى المصرى الذى لم يختفى اسمه فى وقت من الأوقات، وذلك الاسم هو (رقوتى). فإن القبط لم يسموا فيما بينهم مدينة الإسكندرية باسم بانيها العظيم، بل كان أكثر حديثهم عنها باسم القرية التى كانت لبعض الصيادين قبل الاسكندر بزمن طويل. وهذا دليل على شدة احتفاظهم بقديمهم. وقد عرف موضع السرابيوم معرفة لا موضع للشك فيها مما جاء فى وصفه فى الكتب القديمة، ومما أسفر عنه البحث الأثرى فى العصور الحديثة.ويقرن ذكر السرابيوم عادة بذكر عمود دقلديانوس وهو الذى سماه العرب (عمود السوارى)، وكان على مقربة من الباب الجنوبى للمدينة وهو الذى يسميه العرب باب الشجرة. ومهما يكن من الأمر فقد كان حصنا معظمه من صنعة الإنسان مع علوه وإشرافه فوق المدينة. فقد كان قائما على نهد له نواة من الصخر الطبيعي، ولكن سائره كان من صنع الإنسان. وكانت أسواره المنيفة تحيط بآزاج معقودة تحت الأرض طبقات بعضها فوق بعض، فكان حصنا عظيما مربع الشكل أعلاه مسطح تزينه أبنية بديعة. والظاهر أنه كان يدخل إليه من طريقين: أحدهما تسير عليه العجلات، والآخر سلم له مائة درجة. على أننا لسنا نعرف القصد الذى من أجله بنى ذلك السلم وكان موضعه فى الجهة الشرقية من البناء،

ولكن المنارة كانت موضعا لأعظم أعجاب العرب وأكبر دهشتهم. وقد كان ذلك البناء الضخم كما هو معروف قائما فى الشمال الشرقى من جزيرة (فاروس). وكانت تلك الجزيرة متصلة ببر المدينة بطريق طويل قائم على عقود اسمه (الهبتاستاديوم). وكانت الجزيرة فى وقت الفتح العربى يحيط بها مرسى السفن وفيها أبنية مختلفة كان أكبرها كنيستان: إحداهما (للقديسة صوفيا)، والأخرى (للقديس فوستوس) وبينهما نزل للأغراب. وقد قال قيصر عن

المنارة إنها قطعة عجيبة من البناء ووصفها سترابو بأنها برج ذو بناء عجيب من الحجر الأبيض وله طبقات عدة، وقد كان بناؤها على يد (سوستراتوس الكنيدى) فى أيام (بطليموس فلادلفوس) وكان القصد منها هداية السفن، وقد أصابها هدم من فعل البحر ومن أسباب أخرى، ولكنها كانت ترم كلما دعت الحال إلى ترميمها، فكانت فى أيام فتح العرب صالحة لم يفسد منها شئ، تلمع فى النهار فى ضوء الشمس وتضئ بنورها فى الليل على البحر إلى بعد عدة فراسخ من الاسكندرية. وكان شاطئ تلك الجهات ضحلا لا مرفأ له، وكانت السفن الآتية إلى الإسكندرية تعبر إليها بحرا فسيحا لا معالم فيه من البر، فكان من أكبر النعم أن يقام علم ظاهر فى النهار والليل على مسافة ستين ميلا أو سبعين.

وقد عجب العرب من عدد غرف المنارة ومن تداخلها فقال المقريزى: ويقال إن كل من دخل هذه المنارة اختبل وضل الطريق مما بها من الغرف العدة والطبقات والمماشى. وقيل إن المغاربة عند ما جاءوا إلى الإسكندرية فى جيش فى خلافة المقتدر دخل جماعة منهم إلى المنارة على ظهور الخيل فضلوا طريقهم حتى جاءوا إلى شق فى كرسى الزجاج الذى على هيئة السرطان وهو الذى يقوم عليه البناء، فوقع كثير منهم فيه وهلكوا. ولكن قيلت فى المرآة قصص أعجب من هذا(*).

(*) انظر: فتح العرب لمصر. الفريد بتلر. ترجمة: محمد فريد أبو حديد. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة.



بقايا أثرية من آثار الاسكندرية ظلت باقية حتى القرن ١٩ ثم نهبت ودمرت.

ترتيب قيام (انتخاب) الأسقف
وقسمته أو رسامته

المرجع:

من أهم المراجع المعتبرة أساساً للتشريع الكنسى القبطى ولترتيب الكهنوت فى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، كتاب التقليد الرسولى للأسقف الرومانى هيبوليتس (عاش حوالى سنة ٢١٥م.) والمسمى فى كتب ومخطوطات الكنيسة باسم «ترتيب نظام الكهنوت» لمؤلفه «أبوليدس» (النطق العربى لكلمة هيبوليتس). ويعتبر كتابه هذا أحد أقسام مخطوطة القوانين الكنيسة المحفوظة بمكتبة البطريركية، ومعظم مكتبات الأديرة.

بعض التعريفات والمصطلحات الهامة

١. كلمة «إبيسكوبى Episcopos»

تعنى حرفياً «النظر من أعلى» أو بلغة المخطوطات الكنيسة «الإشراف أو المراقبة من أعلى»، وهى الوظيفة التى اشتقت منها كلمة إبيسكوبوس «Episcopos» أى «أسقف» (وهى النطق العربى للكلمة اليونانية) والتى تعنى الخدمة الأسقفية وما يقوم به الأسقف من رعاية النفوس التى يؤتمن عليها حين رسامته.

٢. مفهوم أساسى فى فهم ترتيب نظام الكهنوت:

الرب يسوع المسيح هو أصل ورئيس الأسقفية:

«الأسقفية» هى أصلاً خدمة ومهمة وعمل الرب يسوع المسيح التى تنبأ عنها الأنبياء فى العهد القديم. إذ تنبأوا عن مجئ الراعى الذى «سيشرف أو يطلع» أو «ينظر من أعلى» على نفوس رعية الله. وهذه الأفعال الثلاثة هى ترجمة كلمة إبيسكوبى Episcopei وإن كانت تترجم أحيانا فى الكتاب المقدس بكلمة «يفتقد» أو «يلاحظ»، كما سنرى فى النصوص الكتابية والإنجيلية الاتية:

نبوة حزقيال ٣٤:١١، ٢٢ ـ ٢٥

«هاأنذا أسأل عن غنمى وأفتقدها (الكلمة اليونانية هى فعل الأسقفية «Episcopsomai»

أى الافتقاد). كما يفتقد الراعى قطيعه»... «وآقيم عليها راعياً واحدا فيرعاها عبدى داود، هو يرعاها وهو يكون عليها راعياً. وأنا الرب أكون لهم إلهاً وعبدى داود رئيساً فى وسطهم»

إذن، يكون الله هو الإله، والمسيح هو الراعى والأسقف الممسوح بالروح القدس (أى المسيا الذى كان ينتظره شعب الله)، الذى يفتقد شعبه.

وفى العهد الجديد يستعير القديس بطرس الرسول من هذه النبوة لقب المسيح «الأسقف» وهو يذكر المؤمنين بها حين يقول: «أنكم كنتم كخراف ضالة، لكنكم رجعتم الآن إلى راعى نفوسكم وأسقفها» (١ بط ٢: ٢٥). وللقسوس يحثهم أن يرعوا رعية الله التى فى أمانتهم «نظارا» (أى «إبيسكوس» بمعنى نوع العمل وهو الافتقاد والإشراف على النفوس) لا على مثال الرعاة الأردياء،بل بالاختيار وبنشاط، وكأمثلة للرعية، مذكرا إياهم بمن هو رئيسهم الرب يسوع المسيح: «ومتى ظهر رئيس الرعاة تنالون إكليل المجد الذى لا يبلى» (١ بط ٥: ١ ـ ٤).

ويأتى القديس بولس الرسول فى الرسالة إلى العبرانيين ليستعير من نبوة أخرى فى العهد القديم، ولكنها نبوة تحمل الوجه السلبى للرعاية:

نبوة زكريا النبى ١١: ١٦

«فقال لى الرب خذ لنفسك، بعد، أدوات راع أحمق لأنى ها أنذا مقيم راعياً فى الأرض لايفتقد (إبيسكوبى) المنقطعين ولا يطلب المنساق ولا يجبر المنكسر، ولا يربى القائم. ولكن يأكل لحم السمان (يسلب أموال الرعية)، وينزع أظلافها (أى يجردها من حريتها فى المسيح)». ويوجه القديس بولس الرسول رسالته إلى العبرانيين الذين يعرفون هذه النبوة ذات الوجه السلبى عن الراعى «الأحمق» فيقول:

«لذلك قوموا الأيادى المسترخية والركب المخلعة واصنعوا لأرجلكم مسالك مستقيمة لكى لا يعتسف الأعرج (يعرج أو ينحرف عن الطريق) بل بالحرى يشفى.. ملاحظين (Episcopountes إبيسكوبونتس، مفتقدين) لئلا يخيب أحد من نعمة الله» (عب ١٢ :١٢ ـ ١٥).

فبدلاً من الراعى الأحمق فى العهد القديم الذى لا يجبر المنكسر، يأتى راعى العهد الجديد

«راعى الرعاة الأعظم» ليقومّ الركب المخلعة، ويمارس الأسقفية (أى مهمة الافتقاد والملاحظة Episcopountes) لئلا يخيب أحد من نعمة الله.

وهكذا يُدعى الراعى المسيحى أسقفاً، ليس كمجرد لقب، بل كقائم بعمل ومهمة «راعى الرعاة الأعظم» ربنا يسوع المسيح، نالها منه بالوكالة له، ليعطى عنها حساباً فى اليوم الأخير (مت ٢٥ : ١٩).

وبناء على هذا المفهوم الإنجيلى، يأتى التقليد القانونى الكنسى فى مقدمة كتاب «ترتيب قيام الكنيسة» ليذكر الجميع أن رأس الطغمة (Tagma تعنى «رتبة») الكهنوتية هو الرب يسوع المسيح نفسه:

[الأول فى الطغمة هو رأس الكهنة، وهو الوحيد، يسوع المسيح من حيث بشريته، الذى لم يغتصب لنفسه كرامة ولكن صير كاهنا مؤبداً].

هذا هو أساس ورأس ومرجع خدمة الأسقفية وأصل الكهنوت المسيحى، ربنا يسوع المسيح. لذلك فالراعى والأسقف فى الكنيسة إنما هو بمثابة الخادم والوكيل والمؤتمن على تكميل أسقفية المسيح ـ له المجد ـ على كنيسته، لذلك فهو يتمثل فى شخصه شخص المسيح راعى الرعاة العظيم وأسقف النفوس ورأس الكهنة، مخفيا ذاته، باذلا إياها، ليظهر المسيح أمام الشعب . فالاسقف هو الأداة البشرية لحضور وظهور ربنا يسوع المسيح رئيس الكهنة وراعى الرعاة الذى أتى إلى خرافه ليفتقدها ويخلصها ويشفيها، بحسب النبوات.

٣. تاريخ ومعنى وضع اليد على رأس المنتخب للكهنوت:

وضع اليد طقس قديم قدم كنيسة العهد القديم، وكان يكنى عنه أحيانا بكلمة «مسح» مثلما مسح صموئيل شاول ملكا ثم داود (صموئيل الأول (١ : ١؛ ١٦ : ١٣). ولكن «وضع اليد» ذكر صريحا حينما اختار موسى يشوع وأمره الرب: «ضع يدك عليه» (العدد ٢٧ :١٨). وكان يمارس على خدام الهيكل الذين يقومون بالخدمة الكهنوتية، ثم صار يمارس على «شيوخ ـ بريزفيتيروس» المجامع اليهودية حيث كانت توضع عليهم أيادى الشيوخ المرسومين السابقين بقصد أن ينقلوا إليهم «الروح» الذى حل على موسى ومنه على كل شيوخ إسرائيل (كما فى سفر العدد ١١ :١٧).

وهكذا أصبح وضع اليد طقسا حتمياً لكل خادم سيقوم بخدمة (أو ليتورجية) فى مجال العبادة الإلهية.

ومن هنا أصبح وضع اليد لرسامة الإكليروس المسيحيين المدعوين من الله والمفرزين ليخدموا ليتورجية الإفخارستيا، بالأساس، هو استمرار لتقليد إلهى قديم قدم بدء تدبير خلاص الله للبشرية منذ العهد القديم ليتأهلوا للقيام بهذه الخدمة أو «الليتورجية» المقدسة(*).

وبحسب شرح لقديس يوحنا ذهبى الفم، فإن وضع اليد، فى الواقع وفى حقيقته السرية يمثل:

[وضع يد الله غير المنظورة التى يرمز لها الفعل الخارجى]

العظة الرابعة عشرة على سفر أعمال الرسل: ٣

هذا الشرح ينطبق على وضع اليد سواء أيدى الأساقفة على رأس الأسقف الجديد أو وضع يد الأسقف على رأس القس الجديد.

٤ . معنى كلمة «ليتورجية»

كلمة «ليتورجية» لها معنى خاص منذ ما قبل المسيحية. ولكن ما يهمنا هنا أولاً هو معناها فى الكتاب المقدس (الترجمة السبعينية) أو فى كنيسة العهد القديم. فهى استخدمت كترجمة لكلمة «خدمة» نيابة عن أو باسم الشعب ولكن فى إطار العبادة المنتظمة والطقسية فى هيكل أورشليم. وقد استعيد استعمال هذه الكلمة فى كنيسة العهد الجديد سواء فى الإشارة إلى خدمة الكهنوت الأعظم لربنا يسوع المسيح (عبرانيين ٨:٦)، أو إلى خدمة خدام كنيسة العهد الجديد (أعمال ١٣ : ٢ ؛ رومية ١٥ : ١٦)، أو لأى «خدمة» لله سواء تقدم لله مباشرة أو للناس من أجله وبدعوة منه (فيلبى ٢ : ٢٥ ؛ رومية ١٣ :٦).

(*) وهنا لابد من التفريق بين وضع يد الأسقفية أو القسوسية لرسامة Cheirotonia (الشرطونية ـ شيروطونية) وبين وضع اليد للبركة (Cherothesia الشيروتيسيا) على رأس المعمد بعد جحده للشيطان واعترافه بالإيمان (حيث يصير بعد مسحه بالزيت المقدس عضوا فى جسد المسيح الناضح على كهنوت المسيح)، ومثل بركة المسيح للأطفال (كليمندس فى كتابه المربى ١ :٥)، ووضع اليد على الموعوظين (كما فى قداس سيرابيون ٤)، و وضع اليد على رأس التائب المعترف وهو يتلقى صلاة الحل من الكاهن (مجمع نيوقيصرية ٩، الدسقولية ٢ : ١٨ : ٧، ٢ :: ٤١ : ٢)، ووضع يد الكاهن على المريض فى سر مسحة المرضى.

وفى ترتيب خدمة قداس الإفخار ستيا تقول الدسقولية إن لكل قسم من شعب الله ليتورجيته المنوط به القيام بها: الكهنة لهم ليتورجيتهم أى دورهم فى إقامة الليتورجية، والشمامسة لهم ليتورجيتهم أى المردات والأعمال المنوط بهم أداؤها، والشعب له ليتورجيته أى الصلوات والمردات الخاصة به. ولايمكن إقامة ليتورجية الإفخار ستيا بدون أى قسم من الشعب بليتورجيته.

٥. الفرق بين «الإقامة» و«الشرطونية»

ولابد فى هذا المجال من التفريق بين «الإقامة» وبين «الشرطونية»

١ ـ فالإقامة هى الانتخاب والاختيار الحر للأسقف الجديد، والتى تسميها اللغة اليونانية (Katastasis كاتاستاسيس)، وتتضمن عمليات الترشيح للمستحقين للرتبة، وإجراء الانتخاب الشعبى بطريقة قانونية حرة صحيحة تتحقق فيها إرادة الشعب فعلاً، وهذه يسميها كتاب الرسامات: «اصطفاء حسنا» أى اختياراً صحيحاً، ثم تصديق السلطات الكنسية أى المجمع المقدس وأسقف الكرسى الرسولى المتقدم. ومن بين شروط الاصطفاء الحسن امتلاء المرشح من الروح القدس ومواهبه. فالشعب يقيم بالاختيار الذين لهم مواهب فى الخدمة، والشرطونية تأتى لكى تختم على ما رآه الشعب.

٢ ـ وأما الشرطونية فهى القسمة أو التكريس أو الرسامة، والمسماة باليونانية Cheirotonia شيروطونية» والتى أخذت منها الكلمة المعربة «شرطونية» وترجمتها: «وضع اليد».

والشرطونية هى أهم مرحلة فى رسامة الأسقف أو القس أو الشماس، بينما فى بعض درجات الشموسية مثل الإيبيذياكون والأغنسطس والأبصلتس لا يشرطنون أى لا توضع عليهم الأيادى عند الرسامة، بل فقط يقامون أو «يختارون» بالاسم، وكذلك رتبة الأرملة والعذراء حيث يصف القديس بولس وضع هذه الرتبة بأنه «اكتتاب» (١ تى ٥:٩).

وبهذا، فإن انتخاب الأسقف أى إقامته لا يكفى ليصبح الشخص المختار أسقفاً، بل لابد من الشرطونية والتى تتمثل فى «وضع الأيادى» عليه، أى أيادى الأساقفة السابقين عليه، لأنه بوضع الأيادى، وبصلاة الكنيسة أى الأساقفة والشعب الذى انتخبه وأقيم هو عليه، يحل عليه

نفس الروح القدس الذى حل من قبل على الرسل قديماً ليعطيهم السلطان والقوة على الخدمة، وهذا هو أساس وأصل التعاقب الرسولى الذى يحمله الأساقفة فى الكنيسة: حلول نفس الروح القدس الذى حل على الرسل يوم الخمسين، بصلاة الكنيسة أى الأساقفة والشعب الذى انتخبه، وبوضع أيدى الأساقفة الذى نالوا قبله نفس الروح القدس بتسلسل رسولى يرجع إلى الرسل أنفسهم. ومعروف أن الرسول الذى أطلق شرارة الروح الرسولية فى كنيسة الإسكندرية القبطية الأرثوذكسية هو القديس مرقس الرسول والإنجيلى والشهيد (استشهد سنة ٦٨م).

٦. معنى «القسمة»:

فى الكتب الكنسية مثل كتاب الرسامات الكهنوتية وكتب قوانين الكنيسة، يطلق على عملية «الرسامة» للدرجات الكهنوتية لفظ «قسمة» (مثل «قسمة» الأسقف أو القس أو الشماس). وهذه الكلمة العربية ليست غريبة عن المفهوم اللاهوتى الكنسى للرسامة. ولهذا رأينا أن نشرح هذه الكلمة «القسمة» وما تتضمنه من مفاهيم كنسية هامة:

١ ـ فمن المعروف أن رسامة شخص للأسقفية تعنى «فرزه»، أى انتخابه من بين أعضاء الكنيسة للتكريس لخدمة معينة، وقد وضح ذلك فى سفر الأعمال ١٣ : ٢، حينما أمر الروح القدس أن «افرزوا لى برنابا وشاول للعمل الذى دعوتهما إليه»، وهذا الفرز تم من بين أسماء أخرى كثيرة ذكرها هذا النص فى الآية السابقة على هذه الآية «وكان فى أنطاكية فى الكنيسة هناك أنبياء ومعلمون برنابا وسمعان. ولوكيوس ومناين... الخ» وبعد هذا الفرز يقول النص «فصاموا حينئذ وصلوا ووضعوا عليهما الأيادى». وبهذه الصورة نستطيع أن نرى أن هذا الفرز من أجل الرسامة هو فى طبيعته «قسمة»، أى تخصيص وفرز واختيار أدى إلى «قسمة» بين الأشخاص.

٢ ـ كما يمكن فهم معناها أيضاً من وصف عمل الروح القدس فى توزيع المواهب الروحية على أعضاء الكنيسة بأن الروح القدس «قسم لكل واحد بمفرده موهبة ما» (١كو ١٢ : ١١). وكلمة «قسم» هنا هى الترجمة للكلمة اليونانية diairoun ومعناها «يقسم».

فقسمة الأسقف تعنى على ضوء هذين المفهومين السابقين أنها فرز لخدمة معينة، مما أدى

إلى قسمة (أو نصيب) حدده الروح القدس لهذا الخادم المفرز لأداء هذه الخدمة الخاصة، وهو قسَمه بهذا عن أشخاص آخرين كان هو من بينهم.

٣ ـ فإذا ما تقدمنا قليلاً فى فحص مضمون قسمة مواهب الروح القدس لوجدنا أن مواهب الروح القدس كما تكلم عنها القديس بولس الرسول (وبالتالى كل الخدمات الكهنوتية فى الكنيسة) تتحدد، ليس كل موهبة فى ذاتها، بل باعتبار المواهب كلها مرتبطة بعضها بالبعض.

٤ ـ ويجهد القديس بولس قلمه للتأكيد على أنه لا توجد موهبة قائمة وحدها بمعزل عن المواهب الأخرى. وموهبة الروح القدس الحقيقية (أى التى هى حقاً من الروح القدس)، هى التى ترتبط وتربط نفسها بالمواهب الأخرى وبجسد المسيح كله. فأعضاء جسد المسيح كلهم يرتبطون معا ويعملون معاً، وما يربطهم فى هذا العمل المشترك هو «المحبة» التى خصص لها القديس بولس الأصحاح ١٣ (بعد الأصحاح ١٢ الخاص بالمواهب). فإصحاح المحبة (١كورنثوس: ١٣) هو الخاتم والختم الذى يختتم به القديس بولس على أصحاح المواهب (الإصحاح ١٢). حيث كان لا يمكن أن يشرح القديس بولس مواهب الروح القدس دون أن يؤكد على حتمية المحبة التى هى «رباط الكمال» الذى يجعل من جسد المسيح كياناً كاملاً متكاملاً بتآلف وارتباط المواهب بعضها بالبعض، وبأدائها معاً بالمحبة.

٥ـ إذن، فالقسمة (قسمة مواهب الروح القدس) مرتبطة أشد الارتباط بالمحبة. فالمقسوم الذى قسمت له موهبة ما، لابد أن يعرف أنه سيمارسها بالمحبة. ولكن تجاه من ؟

فلا يمكن أن نقول «محبة» دون أن نحدد موضوع وهدف هذه المحبة. فموضوع وهدف المحبة هنا هو الجماعة من البشر الذين قسم لهم هذا الشخص وهم قسموا له. والمحبة لا يمكن أن توجه إلا نحو أشخاص بشريين محددين بهويتهم سيتلقون هذه المحبة ويقبلونها. فالقسمة، مثلها مثل الزواج، وكما يشرحها علم اللاهوت الكنسى (الاكليريولوجى)، هى عهد ارتباط سرى بكيان محدد من البشر، (فى سر الزواج يكون هو الزوج بالزوجة، وفى سر الكهنوت الكاهن بالجماعة المسيحية فى إيبارشية ما الذين يكونون الشركة المسيحية أو الكينونيا، وحقا ما يقال أن الزواج قسمة ونصيب، كذلك الأسقفية قسمة ونصيب الأسقف لشعبه والشعب لأسقفه).

٦ ـ إذن فالمضمون الهام للقسمة هو، عهد الارتباط بشركة الجماعة المسيحية فى موقع جغرافى معين، أى الشعب «اللاؤس» فى موضع جغرافى محدد، وهذه الشركة تسمى فى العرف الكنسى «الإيبارشية». إنه عهد ارتباط مثل عهد ارتباط الزواج تماما، شرحه علم اللاهوت الكنسى بأنه عهد زيجة الأسقف بجسد المسيح فى إيبارشية، وما يترتب على ذلك من ترتيبات كنسية وتحريمات قانونية، (مثل تحريم الزيجة الثانية للمؤمن يقابلها تحريم اقتران الأسقف بإيبارشية أخرى، وثانيها تحريم الطلاق والزواج بأخرى ويقابلها تحريم الانفصال عن الإيبارشية التى قسم عليها والتنصيب على إيبارشية أخرى). وهى تماماً مثل المحبة فى سر الزيجة فهى محدد موضوعها الذى هو الشخص البشرى المحددة هويته الذى سيرتبط بالشخص الآخر المقسوم على هذه الزيجة، ولهذا الارتباط ترتيبات كنسية وتحريمات قانونية.

٧ ـ وأيضا أهم نتيجة لهذا الارتباط بشركة الجماعة، هى أن عهد الارتباط الذى تحمله «القسمة» لا يكون تجاه أشياء غامضة: أفكاراً كانت أو مثلاً أو خدمات أو مكاتب أو مؤسسات، أو حتى تجاه البشرية ككل بلا تحديد، بل تجاه أشخاص بشريين محددة هويتهم بالموضع والموقع الجغرافى المكانى، تماما كما تتطلب المحبة الزيجية شخصاً محددة هويته، توجه المحبة نحوه ويتم الإقتران به.

فالقسمة، إذن، تعبير كنسى تعنى إقامة ورسامة أسقف لرعاية أشخاص بشريين فى موضع جغرافى محدد مكانه. وبهذا يكون من المستحيل تصور قسمة أسقف أو قس على لا شعب مسيحى غير محددة مدينة إيبارشيته، أو كما يقولون بالتعبير اللاتينى: in absoluto.

وهى بالتالى طقس شركة، أى طقس تشترك فيه الكنيسة كلها: الشعب أى شعب الإيبارشية، والمرشح الذى انتخبه شعب الإيبارشية، وموافقة الأساقفة السابقين عليه.

بهذه المفاهيم الأساسية، يمكننا أن نتقدم إلى فحص ودراسة:

المعانى المنطوية فى صلوات قسمة (تكريس) الأساقفة:

إن صلوات القسمة كما أوردها لنا القديس هيبوليتس (أو أبو ليدس حسب التسمية فى المخطوطات) تفرق بين عملية الإقامة (Katastasis كاتاستاسيس)، وبين عملية القسمة أو

التكريس والمسماة باليونانية «Cheirotonia شيروطونية». والشرطونية ـ كما قلنا ـ هى أهم مرحلة فى رسامة الأسقف، وذات طقس مقدس مهيب، ولها أثر خالد إلى الأبد فى شخص الأسقف، لا يمحى. لذلك حرمت قوانين الكنيسة تكرار «وضع اليد» على الأسقف، تماماً مثلما حرمت تكرار «المعمودية» بالنسبة للمؤمن. كما يقول القانون ٤٨ من مجموعة قوانين الكنيسة على يد إكليمندس وعددها ٥٦ قانوناً محرماً ومعاقباً تكرار وضع اليد على الأسقف أو القس أو الشماس:

[لأجل من يقسم دفعتين ـ إذا نال أسقف أو قسيس أو شماس قسمتين (أى وضع اليد بالنسبة للرتبة الواحدة) فليقطع هو والذى قسمه].

١. مقدمة القانون: انتخاب الأسقف بإجماع الشعب:

[الأسقف يختار من كل الشعب]

القانون الثانى من كتاب أبو ليدس عن قوانين الكنيسة

[يجب للأسقف أن يقسم وبأمر كل الشعب اصطفا (اختيارا) حسناً مقدساً فى كل شئ هذا إذا ذكر ورضيهم (أى إذا ارتضوا به). فليجتمع كل الشعب والقسوس والأساقفة الذين يجتمعون فى يوم الأحد.

وليسأل الكبير الذى فيهم القسوس والشمامسة ويقول: هل هذا الذى ارتضيتموه أن يكون لكم رئيساً؟ فإذا قالوا نعم فليسألهم ويقول: هل هذا يستحق هذه التقدمة الجليلة؟... فإذا أجابوا كلهم معا وقالوا إنه هكذا بحق وليس بمراءاة، والله الآب والمسيح والروح القدس الحاكم لهؤلاء، فليسألوا أيضا ثالث دفعة: هل هو مستحق هذه الرياسة؟.. فإذا قالوا ثالث دفعة أنه مستحق فليصافحوه بأيديهم كلهم..]

عن قوانين الرسل ـ القانون ٥٢

٢. اجتماع الشعب والإكليروس يوم الأحد لقسمة الأسقف:

[وفى الأسبوع الذى يقسم فيه يقول كل الشعب إنا نؤثره، وحينما يقدم اسمه ويرى أنه

لاقى القبول العام، يصدق على هذا الاختيار باجتماع الشعب والقسوس معاً فى يوم الأحد مع الأساقفة].

القانون الثانى من قوانين أبوليدس

٣. طقوس التكريس:

[ويضع الأساقفة عليه الأيادى.

بينما يقف القسوس وكل الشعب، ويكون سكوت فى كل الرعية.

ويقول الكل عليه: «يا الله قو هذا الذى أعددته لنا»] ـ نفس المرجع السابق

[وليأخذ كبير الأساقفة أسقفين آخرين معه. وبقية الأساقفة كلهم قيام والقسوس على المذبح يصلون بسكوت والشمامسة يمسكون الأناجيل المقدسة وهى مرفوعة على رأس من يقسمونه.]

القانون ٥٢ من قوانين الرسل

طقس وضع اليد (اخطر وأقدس لحظة في رسامة الأسقف):

[ويجعل (كبير الأساقفة) يده على رأسه ويصلى ويقول]

القانون الثانى من قوانين الرسل

٤. صلاة القسمة ووضع الأيادى:

[يا الله أبا سيدنا يسوع المسيح

أبو الرحمات وإله كل عزاء

الساكن فى العلا والناظر إلى المتواضعين.

العالم بكل شئ قبل أن يكون.

أنت الذى أعطى القوانين البيعية (قوانين الكنيسة) بابنه الوحيد يسوع المسيح ربنا والروح القدس،

الذى سبقت ورسمت منذ البدء طقس الأبرار، منذ إبراهيم الأسقف الكبير.

والذى تقيم الرئاسات والسلاطين.

والذى لم يترك موضعه المقدس بغير خدمة (ليتورجية)،

الذى سُرَّ أن يتمجد فى أصفيائه.

انظر على فلان عبدك.

أفض عليه قوتك وروحك القادرة (الروح الرئاسى ـ المزمور ٥٠)

هذا الذى دفعته (أعطيته) للرسل المقدسين، بواسطة سيدنا يسوع المسيح ابنك الوحيد، هؤلاء الذين أسسوا الكنيسة فى كل موضع، كرامة ومجداً لاسمك القدوس.

لأنك أنت العارف بقلب كل أحد.

اجعل له أن يرعى شعبك بلا خطية.

وأن يستحق أن يرعى رعيتك العظيمة المقدسة.

وأن تجعل سيرته أعلى من كل شعبه بلا اعتراض.

وأن تجعله محسوداً (منظوراً إليه نظرة القدوة) بالصلاح من كل أحد.

وأن تقبل صلواته وقرابينه التى يرفعها لك نهاراً وليلاً، وتكون رائحة ذكية.

وتعطيه، يارب، الاسقفية وروحاً رحيمة وسلطاناً لغفران الذنوب.

وتعطيه قوة أن يحل كل رباط ظلم الشياطين ويشفى المرضى.

وأن ترضض (تسحق) إبليس تحت قدميه سريعاً.

بسيدنا يسوع المسيح هذا الذى من جهته المجد لك معه والروح القدس إلى الأبد آمين.

ويقول كل الشعب آمين.

وبعد هذا يلتفتوا إليه كلهم ويقبلوه بسلام لأنه يستحقه]

القانون الثالث من قوانين أبو ليدس

وفى مخطوطة القرن الثالث عشر ومخطوطة ابن كبر تحدد الصلوات اسم المدينة التى يرسم عليها الأسقف الجديد وذلك تنفيذا لمقررات المجامع والمكانية والمسكونية بتحديد حدود خدمة الأسقف:

[ندعو صفى الله فلان أسقفاً فى الواحدة المقدسة الغير المنحلة كنيسة الله الغير المنظور والحى التى لمدينة الأرثوكسيين المحبة للمسيح فلانة وتخومها...]

مخطوطة القرن الثالث عشر ومخطوطة ابن كبر

وبعد ذلك:

[والشماس يأتى بالقرابين مع القسوس ويكمل القداس الإلهى]

المبادى التى نستنبطها من صلوات القسمة:

الجزء الأول من الصلاة يعبر عن المبدأ الأساسى والحاكم لكل التقليد الليتورجى:

إنه الله نفسه الذى أسس ونظم وأمر بالعبادة الحقيقية التى تقدم له. كما قال رب المجد للمرأة السامرية «الله يطلب (أو يبحث عن) هؤلاء الساجدين بالروح والحق» (يو ٤ : ٢٣).

فمنذ تأسيس العالم، والله هو الذى يرتب للناس كيفية عبادته.

وما التجسد إلا التعبير النهائى لهذا التدبير، والفداء هو الذى يكمل ويقدس العبادة لله. والعبادة لله هى النهاية والغاية لكل الوجود البشرى. والعبادة التى تؤديها الكنيسةعلى الأرض «فى كل موضع» إنما تؤديها «كرامة ومجدا لاسم الله القدوس»، وهى تعبر به فى إطار الزمن عن العبادة الكاملة الحقيقية فى السماء.

فى هذا الوضع والإطار من العبادة الكاملة الحقيقية التى رتبها الله نفسه للكنيسة، يمكننا أن نرى مكان رتبة الأسقف. فلن يمكننا أن نفهم الجزء الأول من الصلاة، إلا إذا رأينا الأسقف ومهامه وعمله فى إطار هذه العبادة الإلهية التى رسم الله نفسه قوانينها وحدودها.

المحاور الثلاثة لكيان الكنيسة المنظور:

الكنيسة كجماعة مؤمنين متحدة بالروح القدس فى المسيح وحوله، وترتكز فى كيانها

المنظور على ثلاثة محاور متحدة ومترابطة معاً، لا غنى لأحدها عن الآخر ولا غنى عن أى منها لقيام كيان الكنيسة:

المحور الأول: المذبح المقدس:

وهو الشئ الوحيد من دون الخلائق المادية (غير العاقلة) الذى يمسح بالزيت المقدس ويكرس لله. والزيت المقدس، كما يصفه ديوناسيوس الأريوباغى، «يمثل المسيح» . وهذا الموضع المقدس هو علامة سرائرية محسوسة دائمة ومستمرة على حضور الله وسط الخليقة: «هو ذا كائن معنا على المذبح عما نوئيل إلهنا» (القسمة ـ القداس الإلهى)

لذلك فمن على المذبح تبدأ كل خدمة ليتورجية وكل عبادة مسيحية، وتفيض ـ كما من ينبوع - كل بركة وكل عطية تأتى من الله للبشر. فهذا المذبح الحجرى بعد مسحه بالزيت المقدس، يمثل يد المسيح نفسه التى تبارك وتقدس القرابين الموضوعة عليه والتى تعطى عطية الحياة الأبدية للمؤمنين.

لذلك فالمذبح فى الكنيسة الأرثوذكسية هو مركز وقوة حياة الكنيسة كلها.

المحور الثانى: الأسقف:

فهو الذى يقوم بتكريس المذبح. والأسقف هو مثال المذبح. فالطبيعة البشرية هى المدعوة أصلا أن تكون هيكلاً لله، ومذبحاً للآب السماوى، والكاهن هو ذبيحة حية لله. والأسقف الذى يكرس المذبح، هو نفسه لابد أن يكون بالدرجة الأولى مذبحاً وهيكلاً وذبيحة لله ليكون صورة حقيقية للمذبح والهيكل الماديين.

المحور الثالث: شعب الله

والشعب هو الذى أقيم المذبح من أجل أن ترفع عليه قرابينه. وكما الأسقف، كذلك الشعب مدعو أن يكون قربانا مستعداً لأن يحل عليه روح الله القدوس تماماً كما يحل على القرابين الموضوعة على المذبح، لأن القرابين الموضوعة على المذبح هى باكورة قربان الإنسان نفسه الذى يقدمه لله كل يوم.

هناك إذن، علاقة باطنية أساسية بين المذبح، والأسقف ، والشعب، وهذه الثلاثة تشترك فى

مركز واحد لها هو المسيح. فكما المذبح «يمثل المسيح»، كذلك الأسقف يمثل المسيح، كذلك الشعب المجتمع والمتناول من الأسرار المقدسة يتحول بتناوله من الجسد المقدس إلى جسد المسيح. فالثلاثة المحاور مرتبطة بعضها بالبعض فى المسيح : فالأسقف لا يتصور أن يكون أسقفا بدون مذبح «يلازمه» (عب٧:١٣)، أو دون شعب يقسم له وعليه ليرفع قرابينه على المذبح ويوصل له عطايا الله («... الرعية التى أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التى اقتناها بدمه» (أعمال الرسل ٢٠ : ٢٨)، والشعب لا يتصور أن يتقدس ويقدس ذبيحة أجساده بدون أن يقدسها على المذبح فى ذبيحة المسيح الواحدة بيد الأسقف «حتى أكون خادماً ليسوع المسيح لأجل الأمم مباشراً لإنجيل الله ككاهن ليكون قربان الأمم مقبولاً مقدساً بالروح القدس» (رو ١٥ : ١٦)، والمذبح لابد من كاهن ليرفع القرابين عليه باسم الشعب.و كل هذه الثلاثة تصل إلى كمالها وتوفى حقها فى سر الإفخار ستيا سر الأسرار. وبدون أحد هذه الثلاثة لا يمكن إكمال سر الإفخار ستيا، وبالتالى لا يمكن قيام الكنيسة، وبالتالى أيضا لا يصير الشعب جسد المسيح.

أما الجزء الثانى من الصلاة فتحدد:

معالم ومهام الأسقف وأداؤه:

وهذه المهام ذات علاقة مزدوجة:

* الأسقف يقف ممثلاً لله امام الكنيسة،

* وممثلاً للكنيسة أمام الله.

أو كما يصفه هيبوليتس بتحديد أكثر أنه يمارس مهام ربنا يسوع المسيح نفسها التى هى:

* كراع صالح لرعية الله فى مدينة أو موضع ما محدد.

* ككاهن يستعطف الله بقرابين الكنيسة.

هيبوليتس ليس وحده الذى ينظر إلى الأسقفية بهذه النظرة إلى مهام الأسقفية. (كأمثلة: ترتليانس فى كتابه عن المعمودية فصل ١٧ ـ والقديس كبريانوس فى رسالة ٦٦ ـ وغيرهما

من القديسين وعلى الأخص الذين كتبوا عن الكهنوت مثل القديس يوحنا ذهبى الفم والبابا الرومانى غريغوريوس الكبير. ولكن ما فعله هيبوليتس هو أنه صاغ هذه المهام فى صلاة قسمة الأسقف.

من أجل هذه المهام يحتاج الأسقف إلى مطلب هام أن يكون هو المختار حقا وبصدق من شعبه وكنيسته وبتعبير صلاة الرسامة «اصطفا حسناً»، وبهذا وحده يمكنه أن يقف باسمهم أمام الله ليسترضى وجهه، وأمام العالم ليعلن تدبير الله لخلاص العالم من خلال الكنيسة التى يمثلها. بهذا أيضا تصبح الكنيسة هى أيقونة جسد المسيح وسط العالم، ويصبح الأسقف (إما بشخصه أو بالقسوس الذين ينوبون عنه فى كنائس الإيبارشية):

* خادم الأسرار الإلهية لشعبه.
* المعلم الذى ينطق بالتعليم الصحيح خلال الاحتفال الإفخارستى بذبيحة المسيح، مما يجعله الحارس للتقليد الصحيح والمتكلم باسم شعبه المؤمن وكنيسته بالتقليد الإنجيلى والكرازة الرسولية والعقيدة الآبائية التى تسلموها من الآباء والتى يؤمنون بها.
* ثم هو الذى يقيم ويكرس الدرجات الكهنوتية اللاحقة فى الرتبة من أجل خير وصالح رعيته.
* ثم هو ممثل كنيسته وشعبه أمام سائر الكنائس والإيبارشيات فى العالم كله ليساهم فى إعلان جامعية الكنيسة.
* والقائم على حفظ السلام والوحدة فى كنيسته.
* وموزع صدقات وعطايا شعبه على المحتاجين.
* وحامل القلب المحب المترفق بشعب الله، وطالب الحل من الله لشعبه، من الخطايا ومن كل رباطات الشيطان، والمصلى على المرضى لشفائهم.
* وأخيراً، هو مركز وقطب الوحدة من خلال تعددية المواهب الروحية بين أبناء شعبه، أى الذى يحتضن ويجمع سائر المواهب والطاقات والوزنات ويؤالف بين مختلف الاراء

والأفكار بين أبناء شعبه، ليجعل الكل - ليس صوراً متكررة لشخصية واحدة - بل صورة للثالوث الأقدس المتميز الأقانيم ولكن المتساوين فى الجوهر والواحد فى الذات الإلهية بحسب تعليم القديس إغناطيوس الأنطاكى (القرن الثانى).

من التأكيد على حتمية الاختيار والانتخاب الشعبى للأسقف (كما فى مقدمة الصلاة)، يمكن أن نستنبط أن ترتيب نظام الكهنوت المسيحى يقوم على المبدأ القانونى الكنسى:

* وحدة الأسقفية فى موضع معين (أى إيبارشية واحدة لأسقف واحد، وأسقف واحد لإيبارشية واحدة).

* وبالتالى فلا يوجد فى النظام الكنسى الرسولى الأوضاع التالية:

١ - ممارسة أساقفة لسلطان الأسقفية دون أن يكونوا مرسومين على شعب فى مدينة أو موضع ما، ضداً للمبدأ القائل: [إن الم يكون علمانيون، فعلى من يكون الأسقف والقسيس] - القانون ٤٩ من قوانين الرسل على يد إقليمندس.

٢ - أساقفة معاونون أو مساعدون، أو أى مسمى اخر له اسم الأسقف بجانب أسقف الإيبارشية. تحقيقاً لمبدأ رأس واحد فى الإيبارشية الواحدة (القانون ٨ مجمع نيقيه).

٣ - انتقال أسقف من كرسى إلى كرسى آخر. (القانون ١٥ من قوانين مجمع نيقية المسكونى، والقانونان ١٤ و٣٦ من قوانين الرسل، ٢١ و ٢٢ من قوانين مجمع أنطاكيه المسكونى)، وعلى الأخص من كرسى مدينة ما إلى مدينة الكرسى الرسولى.

أهم وأول سند فى الخدمة الأسقفية:

وكما يتضح من الجزء الأول من صلوات القسمة، فإن أقوى وأول ما يتشح به الأسقف ليتمم وظيفته هو «القوة والروح القادرة - أو الروح الرئاسى» وهو الروح القدس نفسه الذى أكمل به الرب مهامه ومسحته بالروح القدس تجاه كنيسته، والذى سكبه على رسله القديسين الذين أسسوا الكنائس فى كل موضع. والروح القدس يعمل من خلال الرسامة بسبب وعد الرب أنه يكون مع كنيسته وفى كنيسته يقودها ويرشدها («ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» - مت ٢٠:٢٨؛ «ارسل الروح القدس إليكم.. ومتى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم

إلى جميع الحق» - يو ١٦ : ٧، ١٣). وهنا تظهر العلاقة الوثيقة فى الرسامة بين الأسقف والرسل الأطهار والمسيح له المجد. وهى العلاقة المسماة بـ «التعاقب الرسولى».

هذه العلاقة تتمثل أول ما تتمثل فى نوال نفس الروح القدس الذى حل على الرسل يوم الخمسين، بما يحمله من ثماره التسعة (غلاطية ٥ : ٢٢)، والثلاثة (أفسس ٥ :٩).

المعنى الروحى الكنسى للتعاقب الرسولى:

هناك عمق روحى فى مفهوم التعاقب الرسولى. فلا يمكن تحقيق التعاقب الرسولى بمعزل عن الوحدة فى التعليم، والجامعية أى سلامة البنيان الكنسى غير المنقطعة فى الكنيسة. كما لا يمكن أن نفصل التعاقب الرسولى عن الحياة الروحية الرسولية التى تعيشها الكنيسة على مدى الأجيال. فالتعاقب الرسولى الذى يحمله الأسقف هو فى إطار وحدة شعب الله فى الإيبارشية مع أسقفه، وفى إطار أرثوذكسية التعليم، ووجود حياة روحية رسولية للشعب. فمثلاً فى حالة اعتلاء أسقف كرسى الأسقفية بدون رضاء الشعب مثلاً، لا يكون جوهر المشكلة أن هذا التصرف يمثل كسرا للقوانين الكنسية فقط، بل إن الحالة الروحية للكنيسة نفسها هى التى تهتز وتتأثر لأى تعد وكسر لقوانين الكنيسة، إذ تتعرض الكنيسة فى هذا الوضع إلى الإنقسام والتحزب داخل الكنيسة مما يضعف وحدة الكنيسة ويفقد التآلف بين الأسقف وشعبه، وهذا يعنى عزلة الكنيسة وتغربها عن الحياة الرسولية. لأن التعاقب الرسولى تأسس أصلاً على الوحدة والألفة بين الراعى والشعب، اللتين هما ضمان جامعية الكنيسة أى سلامة البنيان الكنسى، ما لا يمكن أن يتحقق فى أجواء الانقسام والتشتت والتشيع والشجار والخصومات.

والمعنى الثانى هو أن التعاقب الرسولى ليس فقط تسلسل الماضى، والأمانة للتقليد لا تعنى التصميم والعناد من أجل كل ما هو قديم . بل التقليد الرسولى فى عمقه وحقيقته هو الحياة الروحية الصحيحة. إنه التدفق المستمر للحياة الروحية من مرتفعات عليه صهيون يوم الخمسين. والأمانة للتقليد بهذا المعنى تربطنا بالقديسين الذين تعاقبوا على مر العصور، وتجعلنا شركاءهم فى القداسة والعلم والنسك والتسبيح والصلاة والمحبة ومنهج التدبير وسياسة الكنيسة، وتحفزنا على أن نمتد ونكمل ما مارسوه هم من حكمة وتعليم وإبداع وصلاة وسيرة. فسلطان التعليم المعطى للأسقف هو هذا كله وواضح أنه يجب أن يمارس فى إطار شعب الله

الذى يحيا الحياة الروحية الرسولية داخل الكنيسة التى انحدرت إليه من الرسل من خلال الأساقلفة السابقين.

* فالتعاقب الرسولى قائم على استمرار مزدوج:

* استمرار غير منقطع للحياة الروحية التى هى دوام اقتناء والامتلاء من الروح القدس من خلال الأسرار والصلاة والنسك،

* واستمرار تعاقب خدام كهنوت المسيح فى الكنيسة الذين يقامون ليحيوا أولا هذه الحياة الروحية، ثم ليرعوها ويشجعوها ويقدموها للشعب بالتعليم الصحيح وتقديم الأسرار الإلهية.

* لذلك فالتسلسل الرسولى هو تسلسل للحياة الروحية. والحياة الروحية تنتعش بسيادة المحبة على القلوب، ولكن تنمكش وتتعثر فى صخب المجادلات الغبية والعراك والتنافر بين الأشخاص، وفى هذه الحالة يتحول التعاقب الرسولى إلى مجرد عقد يتحلى به الأسقف من الخارج دون فاعلية داخل الكنيسة.

* أما سلطان التعليم فهو لا يعنى أن التعليم قاصر على الأسقف بمعزل عن شعب يحيا الحياة الرسولية ويؤمن بتعليم الرسل ويعتنق عقيدة الآباء. وبالعكس فليس فى الكنيسة انحصارية. ولكن كنيستنا الأرثوكسية تؤمن بأن الأسقف هو الذى يملك وحده سلطان التعليم والتحدث باسم الكنيسة فى الأمور الإيمانية والعقائدية فقط، ولكن فى إطار كنيسة وشعب يحيا الحياة الرسولية. والشعب الحى بالروح مدعو، لأ أن ينصت فحسب، بل وأن يفهم ويتعلم ويزداد علماً ودراسة لإيمانه المسيحى من مصادر وينابيع الدراسة والعلوم الكنسية، لكى يمكنه أن «يثبت فى الحق» وبالتالى هو مدعو أن :«عظوا أنفسكم كل يوم بهذا الكلام» (عب ٣ : ١٣)، «تتذكرون كل حين بهذه الأمور» (٢بط ١ :١)، «واعظين بعضنا بعضا». (عب ١٠ : ٢٥)، «معلمون ومنذرون بعضكم بعضا» (كو ٣:١٦).

* فخدمة الوعظ والتعليم والإنذار والتذكير التى يقوم بها أعضاء موهوبون من شعب الله بعضهم للبعض (مثل خدمة الوعظ وتعليم وتربية النشء و الشباب والافتقاد وخدمة

الأرامل والأيتام والتعليم بالكتابة والتأليف والنشر الخ.) إنما هى أقوى عضد وسند للأسقف فى مهمته وسلطانه فى التعليم والافتقاد ، لأنها ـ أى خدمة أعضاء الشعب لبعضهم البعض ـ هى كمن يحرث الأرض ويقلبها ويجعلها أرضاً صالحة لانتشار بذار التعليم الذى يؤديه الأسقف بمقتضى «موهبة الحق الذى لا يخطئ» التى عنده، ولرعاية شعب الله فى الإيبارشية المؤتمن عليها.

يخاطب القديس يوحنا ذهبى الفم شعبه فى أنطاكية قائلا:

[أريدكم بل وأحثكم أن تكونوا معلمين . لا تكونوا مجرد منصتين فقط لعظاتنا. بل أذيعوا تعليمنا للآخرين! هيا اصطادوا الذين هم فى الخطا حتى يسلكوا هم أيضا فى سبل الحق].

العظة الثامنة على سفر التكوين

وباختصار ، فالتعاقب الرسولى يتحقق من خلال الكنيسة الجامعة فى موضع ما، أى شعب الله المؤمن الإيمان الرسولى وعلى رأسه الأسقف، والمجتمع حول ذبيحة الإفخارستيا. وأمامنا مثل واضح هو رسائل الرسل التى كانت توجه إلى: شعب الله فى الكنائس (وفى رسالة فيليبى فقط أضاف «وأساقفة وشمامسة») ـ راجع افتتاحيات رسائل القديس بولس الرسول (ما عدا الرسائل الرعوية التى كانت ترسل إلى رعاة الكنائس بأسمائهم) وكذلك رسائل باقى الرسل.

وظيفة الايكونوموس (المدبر أو لاوكيل):

كانت موجودة في الكنيسة القبطية منذ القديم:

تحتم القوانين الكنسية على كل أسقف (بما فيه أسقف مدينة الكرسى الرسولى العظمى) تعيين من تسميه «إيكونوموس» أى «مدبر» لإدارة أموال مقر الإيبارشي وممتلكاتها، وفى حالة إيبارشية الأسقف المتقدم يسمى هذا الإيكونوموس بـ«الإيكونوموس الكبير» ويقول بإدارة إيرادات ومصروفات المقر البطريركى ومصاريف معيشة البطريرك. وهذا الوضع كان معروفاً فى الكنيسة القبطية منذ القديم.

وأول ما نقرأ عنه فى وثائق الكنيسة القبطية فى عهد البابا ثاوفيلس الإسكندرى (ارتقى الأسقفية سنة ٣٨٠م) حيث اصد أمراً بتعيين «إيكونوموس» جديد بدلا من الـ «إيكونوموس»

القديم فى إيبارشية الأسقف أبو لو، وقد صار هذا الأمر البابوى الصادر فى غضون القرن الرابع أحد قوانين الكنيسة الجامعة. كما عين اثنين من الرهبان (المسمين بالاخوة الطوال القامة) فى وظيفة الإيكونوموس مشرفين على مالية المقر البابوى بالإسكندرية. كما ورد ذكر هذه الوظيفة عرضا فى رسالة للقديس إيسيذوروس البيليوزومى (أحد آباء الرهبنة القبطية فى القرن الخامس وأب اعتراف بابا الإسكندرية القديس كيرلس الكبير) رسالة رقم ٢٦٩ : ١ وفى رسالة أخر له أيضا يحث الباب كيرلس الكبير على أن يغير الإيكونوموس ما رتينيانوس بأخر كفء وكذلك ورد ذكرها فى رسالة القديس كيرلس الكبير (البابا الإسكندرى فى القرن الخامس) الرسالة رقم ٢ :١٢٧. كما يذكر التاريخ اسم «بروتيريوس» ايكونوموس المقر البابوى لبابا الإسكندرية القديس المعترف ديوسقوروس (البابا ال ٢٥ اعتلى الأسقفية عام ٤٤٤)[(١)].

ويقول الباحثون إن وظيفة الـ «إيكونوموس» كانت توكل عادة لأعضاء من الشعب المخصصين فى الحسابات وإدارة الأموال وغير المتقلدين رتبة كهنوتية. كما يحظر القانون أن تؤكل إدارة أموال الكنيسة ومقر الأسقفية أو البطريركية إلى أى من أقارب الأسقف أو البطريرك.

٧. يشرف على الاهتمام بإخوة المسيح الصغار:

الأرامل والإيتام والمعوزين والفقراء وزيارة المحبوسين ويدير خدمة الكنيسة (وتحوى الدسقولية تعاليم الرسل الفصول من ١٦ ـ ٢٠ تعليمات عن هذه المسئولية بالتفصيل)، وهو يؤدى هذه الخدمة من خلال رتبة الشماسية، من خلال رئيس الشمامسة فى إيبارشيته. ومن بين النصوص الملفتة للنظر فى قوانين الكنيسة هذا القانون التاسع والثلاثون من مجموعة قوانين القديس باسيليوس المذكورة فى مخطوطة قوانين الكنيسة والتى تظهر مدى اهتمام الكنيسة بممارسة الأسقف الإشراف على هذه الخدمة بل والاهتمام بهذه الفئة من أبناء كنيسته:

يقول القانون التاسع والثلاثون من قوانين الرسل:

[لأجل أسقف لابس برفير وحرير وفقرا مدينته جياع وعراة. أسقف يلبس برفيراً وحريراً

(١) راجع المرجع المشهور لأعمال المجامع: Mansi, iv., 1017

وفقراء مدينته جياع أو عراة ليس هو أسقفاً، و(يجمع) على مائدته أطعمة مختلفة، وينسى ضيقة الفقراء فهو يهودى جديد].

وينطبق هذا القانون على كل نوع من البذخ والمصاريف الزائدة التى تصرف تحت أية مسميات وتتنافى مع روح التجرد والفقر الذى نذرهما الأسقف يوم رهبنته.

٨. يمارس القضاء والتحكيم والمصالحة بين أفراد الشعب

وفى هذا السياق يحتم كتاب الدسقولية أن يمارس الأسقف قضاءاً عادلاً (الدسقولية ٣: ٥٩ ـ ٧٩)، ويتبع الإجراءات القانونية المحددة بدقة (الدسقولية ٤: ٤٦؛ الفصل الثامن كله، حيث يحذر من التسرع فى الحرم من الكنيسة، كما ينصح بالأخذ بالإجراءات المدنية فى القضاء الكنسى وفى طريقة إصدار الأحكام).

٩. ممارسة أعمال الرعاية بالشركة مع القسوس:

إن سلطان الأسقف ليس مطلقاً، بل هو يمارسه بالشركة مع مجمع القسوس ومجمع الشمامسة ومقدمى شعب الكنيسة (أى مجلس الأراخنة). والقائد المسئول بحق يعرف جيداً أنه يجب أن يكون على أتصال دائم بكل من شركائه فى الخدمة السابقين عليه والمستجدين وتابعيه ورعيته، لأنه هو وهم شركاء فى نفس الجسد. يخاطب القديس كبريانوس أسقف قرطاجنة بشمال أفريقيا فى القرن الثالث قسوس كنيسة قرطاجنة:

[منذ اللحظة التى تقلدت فيها الأسقفية، آليت على نفس ألا أتخذ موقفاً بناء على قرارى الخاص بدون مشورتكم وموافقة الكنيسة].

الرسالة ١٦: ٣

لذلك فمن أهم المؤسسات التى تعاون الأسقف فى مهمة الرعاية مجلس القسوس. فالأسقف حينما يباشر خدمة الرعاية لنفوس شعب الإيبارشية وإدارة أموال ومقتنيات الإيبارشية، فإن ذلك يتم من خلال «مجلس القسوس» الذى يجمع قسوس إيبارشيته.

آداب المكاتبات، والقرارات، ومخاطبة الرتب الكنسية والشعب:

تقول مخطوطة ابن كبر «مصباح الظلمة فى إيضاح الخدمة» أنه حينما كان آباء الكنيسة

من البطاركة والأساقفة يخاطبون أحد البطاركة الآرثوذكسيين فكانوا يدعونه بالأب، وما يجرى هذا المجرى من آدب الخطاب والتواضع فى الكتاب والجواب؛

وكذلك مع المطارنة والجثالقة (أى البطاركة التابعين لبطريرك آخر، مثل بطريرك جاثليق الكنيسة الإثيوبية التابع لبابا الكنيسة الإسكندرية) والخارجين عن إيبارشيته.

أما الأساقفة فيكاتبهم بالأخ مع التبجيل اللائق بهم.

والإيغومانسيون وقسوس إيبارشياتهم، فكان يلقبهم بـ: «شركانى القسوس».

والأراخنة وأكابر الجماعة فيكاتبهم بالأخ رعاية لحرمتهم وحفظاً لمرتبتهم وأما بقية الشمامسة وجمهور الشعب فيكاتبهم بالأولاد المباركين.

والعادة أن يكون ابتداء مكاتباته بالسلام الإلهى وختامها بالدعاء الصالح.

ولأن الأسقف لا يتصرف فى شئون إيبارشيته بلا سند إنجيلى وآبائى، بل هو على أساس ناموس الله والتقليد الكنسى يؤسس كل تصرفاته، مستلهما المبادئ والسوابق التى اتبعها سلفاؤه الأساقفة فى القديم ، لذلك تعود الأساقفة الآرثوذكسيون أن يستهلوا قراراتهم وبياناتهم وتصريحاتهم بالرجوع إلى سلفائهم من آباءالكنيسة مع ذكر المراجع التى استندوا عليها فى هذه القرارات والبيانات والتصريحات والتصرفات.

الأسقف وأصول رعاية النفوس بتنوع أحوالها:

ولأن الرعاية هى أهم وأول عمل للأسقف، إذ أن الأسقف معتبر أولاً أنه راع (الدسقولية - المقدمة)، لذلك تشرح الدسقولية ما يمكن أن نسميه مبادئ «فن» أو «علم» الرعاية. فهى تعرض لمعظم أنواع النفوس التى قد يقابلها الراعى وتصف كيف يجب أن يعاملها الأسقف كلا بحسب نوعيتها. وفى الكلمات التالية يمكننا أن نحس بمعنى الرعاية ونرى صورتها كما كان يحس بها الرسل الذين سطروا ذلك فى تعاليمهم:

[أما تنظرون يا أولادنا الأحباء، وبأى مقدار أن الرب إلهنا كثير التحنن والصلاح والمحبة للبشر. والذى هو مستوجب عقاب الخطية لا يبرئه، والذى يعود يقبله إليه ويحييه ولا يعطى موضعاً لقساوة الذين يريدون أن يدينوا بقساوة وعدم رحمة ويرذلوا الذين أخطأوا لكى لا يشتركوا معهم فى كلام العزاء الذى يستطيع أن يردهم إلى التوبة.

هكذا أيضا الأسقف ، فليحب أعضاء الشعب لأنهم أولاده. وليشفق عليهم بحرص المحبة مثل دجاجة تشفق على بيضها حتى يصير فراخاً. وليقبلهم إليه مثل فراخ حتى يصيروا دجاجاً. وليُعلم الكل، وينتهر المحتاج إلى الانتهار، لكى لا يوجعهم كثيراً. ويوبخهم ليستحوا، لكن لئلا يرجعوا إلى خلفهم يؤدبهم ليتجددوا، وينتهرهم ليدركوا ويسلكوا باستقامة.

ويحرس القوى، أى الذى هو ثابت فى الإيمان، يحرسه بدراية. ويرعى الشعب بسلام، ويقوى المتعبين، أى يثبت فى التعليم من يجرب، ويشفى العليل الذى بقلبين فى الإيمان]

الدسقولية ـ ٤ :١و ٣٢و ٣٣

ختاماً ـ هذه كلمة للقديس أغسطينوس أسقف هبو بشمال أفريقا فى القرن الخامس:

[خدمة الأسقف تنطوى على عمل أكثر منه كرامة! وكلمة «أسقف» مشتقة من كلمة «إبيسكوبوس». فالأسقف مفروض أنه هو الذى «يشرف» «وينظر من أعلى» على الذين هم تحت رعايته . كلمة «سكوبيا» Scopeia تعنى «الإشراف والنظارة» ، وهكذا تكون الأسقفية تعنى «النظارة من أعلى» ، أى أن يعتنى الأسقف بمن هم تحت رعايته. إذن، لا يستطيع أحد أن يكون أسقفا صالحاً إن كان يحب لقبه وليس واجبه] ـ القديس أغسطينوس فى كتابه «مدينة الله»

شروط رسامة الأسقف

والكفاءات الواجب توفرها فيه

لا شك أن الوضع الرئاسى الشديد الحساسية للأسقف كما عرضناه فى المقالات السابقة، سواء من دراستنا لطقس رسامة الأسقف أو لعرضنا لمهام الأسقف وأعماله المنوط به القيام بها، إنما يتطلب شخصيات مملوئين من الروح القدس، ذوى حياة روحية باطنية عالية قائمة على عمق وطول زمان فى الاختبار الحى للشركة مع الله وفى الانتصار على شهوات النفس، حتى يمكن أن يكون حامل هذه الوظيفة هو الصورة الحسنة لله وللمسيح أمام جمهور المؤمنين والعالم أجمع، لذلك يذكر القديس بولس تلميذه تيموثاوس الأسقف الذى أقامه على أفسس، قائلاً: «لا يستهن أحد بحداثتك بل كن قدوة للمؤمنين فى الكلام فى التصرف فى المحبة فى الروح فى الإيمان فى الطهارة» (٢تى ٣:١٢).

وتوصى الدسقولية فى شأن شروط الأسقف بهذه الشروط العامة هكذا:

[هكذا سمعنا من ربنا يسوع المسيح أنه يجب على الراعى الذى يجلس أسقفاً على الكنائس فى كل إيبارشية:

* أن يكون بغير لائمة ولا علة.

* طاهراً من كل غضب الناس،

* ليس بأقل من خمسين سنة،

* وقد هرب من حركات الطفولية وأباطيل الخارجين،

* وصار طاهراً من التجديفات التى يأتى بها قوم من الاخوة الكذبة على كثيرين.

* وليكن أيضا، وإن كان ذلك ممكنا ممتلنا من كل تعليم، وكاتباً، بل يجب أيضا أن يكون بصيراً بالكلام،

* متوسط القامة].

الدسقولية ٣:١, ٢.

كما يقول القديس كبريانوس فى شرط القدوة المبادئ الآتية:

* [الأسقف يجب أن يكون النموذج الحى لأعضاء كنيسته]

الأسقف المتقدم والأول بين الأساقفة

أسقف مدينة الكرسى الرسولى

البطريرك هو «أسقف مدينة كرسيه»

هذا هو الوصف المبسط والأولى الذى تصف به المدونات القديمة المختصة بترتيب نظام الكهنوت رتبة البطريرك الإسكندرى (المجموع الصفوى لابن العسال ـ ص ٩٢٩. وهو يعنى أول ما يعنى أنه أولا أسقف المدينة العظمى المحبة للمسيح «الإسكندرية»، مقر كرسى الرسول الإنجيلى الطاهر القديس مرقس كاروز الديار المصرية، والمدينة التى استشهد فيها. وهو ما

اعترف به مجمع نيقية المسكونى (عام ٣٢٥م) وسجله فى القانون رقم ٦ من مجموعةت قوانينه العشرين:

القانون ٦ من مجمع نيقيه:

[فلتحفظ العادات القديمة فى مصر وليبيا والمدن الخمس فى أن لأسقف الإسكندرية الرئاسة عليها كلها].

لذلك فالإسم الكنسى الرسمى التقليدى للبابا البطريرك هو: «صاحب الغبطة والقداسة بابا وبطريرك ورئيس أساقفة المدينة العظمى الإسكندرية وكل أرض مصر وأورشليم المدينة المقدسة، والنوبة، والحبشة (إثيوبيا)، والخمس المدن الغربية، وسائر أقاليم الكرازة المرقسية». وأضيف عليه أخيراً «بلاد المهجر وأفريقيا». والجزء الأول من اللقب هو تعريف اقتران أسقف الإسكندرية بإيبارشيته التى قسم عليها: «بابا وبطريرك ورئيس أساقفة المدينة العظمى الإسكندرية». وهو الإسم الذى يستعمل فى كل الصلوات الطقسية والليتورجية، مثل الخولاجى المقدس وكتاب صلوات الرسامات وغيرهما.

ثم بحسب القانون الرسولى رقم ٢٥، وبحسب القانون السادس من مجمع نيقية المسكونى، فإن أسقف مدينة الإسكندرية العظمى هو الأول والمتقدم بين (متساوين) أساقفة مصر وليبيا والنوبة والخمس المدن الغربية.

وكلمة «بطريرك» هى النطق العربى للكلمة اليونانية باتريارشيس PATRIARCHIS ومعناها كما ورد فى كتاب الجوهرة النفيسة فى علوم الكنيسة ـ تأليف العالم القبطى فى القرن الحادى عشر يوحنا بن زكريا المعروف بابن السباع كما يلى:

[معناها الأب الرئيس أو الأب الأول أو رئيس الرؤساء أو أب الآباء أو أب لكل الأمة].

إذن فهى ليست رتبة مستقلة بل اسم ولقب رتبة أسقف المدينة العظمى أو مدينة الكرسى الرسولى.

وبحسب هذا الوضع، أى كون البطريرك هو أولاً أسقف على مدينة الإسكندرية، فيقال فى كتب قوانين الكنيسة إنه لا يجوز له أن «يقيم أسقفاً للإسكندرية» ـ بسبب وجوده فى القاهرة

بعيداً عن الإسكندرية. ولذلك جرت العادة منذ انتقال مقر الحاكم السياسى من الإسكندرية إلى القاهرة أن يعين البطريرك «وكيلا» له فى الإسكندرية بدرجة «إيغومانس» متحاشياً حتى إيفاد «أسقف» منعاً من اللبس ومن شبهة وجود أسقفين فى إيبارشية واحدة. بل كان آباؤنا البطاركة يرسمون أحياناً أسقفاً للقاهرة (ومن بين الأسماء المشهورة الأنبا بولس البوشى أسقف مصر فى القرن الثالث عشر) ليقوم بأعمال الرعاية للعاصمة، بينما يتفرغ البابا البطريرك لرعاية مدينة كرسيه «الإسكندرية» بجانب مهامه الأخرى كرئيس ومتقدم بين الأساقفة.

شروط وكفاءات البابا البطريرك:

إن تحديد واستيفاء شروط وكفاءات البابا البطريرك فى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية أمر فى منتهى الخطورة، ذلك لأن شخصية بابا الإسكندرية، حسبما نقرأ فى تاريخ الكنيسة، كانت فى معظم الأحوال ذات تأثير روحى خاص عالى المقدار على مجريات الكنيسة فى عصره بل وعلى الأقباط عموماً، بل وأيضاً على الوطن كله. بحيث أن أحداث الكنيسة القبطية كانت دائماً تتمركز وتستمد دفعاتها، إن إيجاباً أو سلباً، من شخصية البابا، حسب درجة روحانية البابا ومدى علمه وقوة حكمته وسلامة أحكامه وحسن تدبيره ومدى تمسكه بالقوانين والتقاليد الكنيسة القبطية العريقة.

ولهذا السبب كان عملية اختيار بابوات الإسكندرية تشغل حيزاً كبيراً فى كتب التاريخ الكنسى، وكثيراً ما كانت تشغل أيضا فترات زمنية طويلة قد تمتد فى بعض الأحوال إلى عشرات السنين!

لكن هناك، بلاشك، مبادئ عامة وثوابت متفق عليها أجملتها الكتب القانونية الكنسية فى باب اختيار البابا البطريرك. نعرضها هنا باختصار.

فشروط وكفاءات البابا الإسكندرى هى نفسها شروط الأسقف، كما ورد ذلك فى كافة الكتب الكنسية المختصة. ولكن يضاف عليها بعض الصفات الواجب توفرها فى من سيكون فى موقع المركز والبؤرة للوحدة فى الكنيسة (وقد نقلناها عن المجموع الصفوى ـ ص ٢٨، ٢٩):

١ ـ أن يكون قادراً وأهلاً لحفظ الإيمان بأصوله المستقرة وأقوال الرسل وقرارات المجامع، ليكون (الإيمان) محروساً من الخلل، والأمة ممنوعة من الزلل.

٢ ـ تنفيذ الأحكام بالحق وقطع المنازعات (أى صحة إجراءات وعدالة المحاكمات الكنسية).

٣ ـ تقدير العطاء للمستحقين من غير إسراف ولا تقصير (أى الحكمة فى تدبير أموال الكنيسة والصرف على ما يستحق الصرف، ومنع ما لا يستحق الصرف).

٤ ـ تقليد الرئاسات لمستحقيها أى الحكمة والتدبير السليم فى رسامات الأساقفة والكهنة، وأموال الصدقات للكفاة الأمناء.

٥ ـ أن يباشر الأمور العامة، ويأخذ القرار فى الأحوال الخاصة بنفسه، ولا يكتفى بالتفويض فى كل الأمور. (أى لا يوكل شئون الكنيسة إلى يد أحد مساعديه أو خدمه أوحتى إلى مجموعة من المحيطين... الخ بل يفحص بنفسه الأمور العامة ويتخذ القرارات بمنتهى الإحساس بالمسئولية الشخصية).

٦ ـ وينبغى أن يتشاور مع أهل العلم فى الأحكام وأهل الرأى فى النقض والإبرام.

(أى الركون إلى أهل العلم والرأى من الشعب ذوى المناصب المدنية العليا أو الأخصائيين فى العلوم المدنية والاجتماعية والسياسية ليأخذ مشورتهم فى مناحى الصواب واللياقة فى التصرف والسلوك والقول وما أشبه تجاه القضايا الدينية وغير الدينية، أى معتمداً على أهل الخبرة والعلم والحكمة المشهود لهم). (انتهى الاقتباس من المجموع الصفوى).

إذن فللشعب (بحسب قوانين الكنيسة) دور فى الشركة والمشاركة فى ا تخاذ القرار الكنسى، وعلى الأخص فيما يختص بالمعاملات المالية للكنيسة وبالعلاقة مع السلطة والهيئات المدينة. وهذا هو الوضع السائد فى الكنيسة منذ ا لبدء والواجب استمراره على الأخص فى مجتمعاتنا الحديثة وفى نظام الدولة الحديث، الذى لم يعد فيه مركز البطريرك مثل مركزه فى نظم ا لحكم القديمة قبل الاستقلال (مثل حكم الدولة العثمانية قديما)، التى جعلت من البطريرك فى وقت واحد رئيساً دينياً ومدنياً وقاضياً فى الأمور الدينية والمدنية للشعب القبطى، مما أفقد هذا المركز الجليل روعته وبهاءه الدينيين، وفى الوقت نفسه اذى الكنيسة وغير من مفهوم ونظام رئاسة الكنيسة، وكأنها «ملة» مغلقة على نفسها داخل الوطن.

فالبابا البطريرك، في و ضعه الكنسى الصحيح، وفى نظام الدولة الحديثة القائم على دستور يساوى بين المواطنين جميعاً فى الحقوق والواجبات والحريات والتقاضى والأحكام والسفر.. الخ، والقائم على الديمقراطية الاجتماعية والسياسية بأحزابها المتعددة ، وحرية إبداء الآراء السياسية،وعدم التفرقة بين المواطنين بسبب الدين أوغيره، فى مثل هذا النظام يعود مركز البطريرك إلى موقعه الكنسى الصحيح والمؤثر داخل الكنيسة جسد المسيح، ومركزاً للوحدة الروحية بين المؤمنين، ومبشراً بالخيرات السماوية، وكارزاً ومعلماً بإنجيل المسيح وتعليم الرسل وعقيدة الاباء، داعياً المؤمنين للالتزام بوصايا الإنجيل والفضائل المسيحية، وبالإقناع والترغيب مستنداً على «برهان الروح وقوة الله» (١كو ٢ : ٤و ٥)، تاركاً لشعبه أن يحولوا التعليم الروحى الكنسى الذى تعلموه داخل الكنيسة إلى طاقة وطنية بناءة، كل فى موقعه داخل المجتمع،فيما رسوا حقوقهم وواجباتهم الوطنية والسياسية وإبداء آرائهم فى هذه المجالات بمنتهى الأمانة والصدق والحرية، نائياً بنفسه وبالكنيسة (أى كل مصاف الإكليروس) عن الانخراط فى تداول وتناول الشئون المدنية والسياسية من بعيد أو من قريب. أى، باختصار، تعود الكنيسة أيقونة رائعة لجسد المسيح: شعب الله وعلى رأسه أسقف يعلن سر وحدة الكنيسة مع رأسها الرب يسوع المسيح (التى هى الصورة والمثال لوحدة البشرية الجديدة المرتجاة)، وتكون صوتاً لمن لا صوت لهم وشفيعاً لمن ليس لهم أحد يذكرهم، منادية فى كل مصارف الإكليروس)، بالقدوة أولاً وبالخطاب الهادئ الوديع ثانياً، رمزاً ومثلاً أعلى روحياً بين كافة المواطنين، مثابراً على الدعوة إلى السلام والمحبة والعدل وكل القيم الإنسانية السامية التى تنادى بها المسيحية، مشاركاً الوطن فى كل اهتماماته وجهاده وآماله وتطلعاته بالصلاة والتشجيع والبذل والتضحية على قدر ما تستطيع الكنيسة أن تعطى وتبذل من أجل الوطن، دون أن تتخلى عن مبادئ الإنجيل وتعليم الآباء وتقليد الكنيسة الأرثوذكسية بخصوص علاقة الكنيسة بالدولة والسياسة.

شروط طاعة وتعظيم واكرام البابا البطريرك:

ويتبع المجموع الصفوى قانونه السالف هذا بقوله:

[وإذا دام قائماً بما يلزمه، مستمرة شروطه، لزمهم طاعته وتعظيمه وإكرامه وحقوقه]

كيفية اختيار البابا البطريرك:

يقول كتاب الجوهرة النفسية فى علوم الكنيسة»:

[يجتمع المطارنة والأساقفة والكهنة والأراخنة والرؤساء، ويقدموا الصلاة لله بالصوم والتضرع والتقديس عشية كل يوم أحد وغيره، لكى يرشدهم إلى انتخاب من يصلح لهذه الوظيفة لينظر فى أحوالهم الوقتية، (يلاحظ أن هذا الواجب كان هو السائد أيام الحكم العثمانى حينما كان المسيحيون فى الشرق معتبرين ملة مستقلة عن الوطن)، وأحوالهم المستقبلة، ويرويهم من تعاليمه وإرشاداته الإلهية. فيحولوا نظرهم إلى كل أهل العلم والعمل والدين والتدبير والسياسة. وبانتخاب الإله واختياره الذى قبل تضرعاتهم كما قبل من لعازر الدمشقى عبد إبراهيم سؤاله فى انتخاب زوجة لإسحاق ابن سيده، يرشدهم إلى من هو قادر على صد هرطقة ومغيرى الأمانة وأرباب البدع بعلمه ورد سهام إبليس وجنوده أعداء الكنيسة بطهارته وقداسته.

وبعد الاتفاق عليه من الأراخنة والرؤساء وأعيان البلاد باتفاقهم مع المطارنة والأساقفة الذين لهم رأى فى ذلك ولهم تقدمته ووضع اليد عليه كما وضع هو اليد عليهم، بعد ذلك يأتون به مقيداً إلى هيكل الله. فإن كان راهباً فبالإسكيم، وإلا رهبنوه بالإسكيم أولا. وإن كان شماساً فليقدموه قسيساً، وإن كان قسيساً فليقدموه إلى رتبة إيغومانس. وإن كان إيغومانساً فيأخذوه إلى ثغر الإسكندرية لوجود كرسى البطريركية ووجود الملك الأرضى هناك أيضا (طبعاً كان ذلك قبل انتقال مقر الحكم إلى القاهرة).. ثم يلبسونه حلة الملك السماوى ويوصلوه إلى الكنيسة الجامعة بالإسكندرية بملاقاة أهل الثغر بالفرح والتهليل والابتهاج، فيقيدونه... الخ.]

هذه صورة للإجراءات التى اعتاد الأقباط اتخاذها فى انتخاب بطريركهم:

١ ـ اجتماع الإكليروس مع الشعب بالصلاة والصوم والتضرع.

٢ ـ يبدءون فى التفتيش عن أهل العلم والدين والتدبير والسياسة (يقصد الذين يعرفون كيف يسوسون الكنيسة، وليس «السياسة» بمعناها العصرى Politics).

٣ ـ حينما يتم الاتفاق على شخص المرشح من جانب الشعب ممثلاً فى الأراخنة والرؤساء

وأعيان البلاد، ويكون هذا بالاتفاق مع الآباء الأساقفة والمطارنة، يأتون به مقيداً إلى هيكل الله. حيث أن المرشح من المفترض أن يكون راهباً يسكن البرارى، وعادة يكون قد حاول الاستعفاء والهروب من هذا المنصب، وهذه كانت عادة كل القديسين أن يهربوا من مناصب الكرامة والرئاسة (أى لا يسعى إلى اعتلاء المنصب بسعاياته أو بسعايات الآخرين من أنصاره).

٤ ـ كما تذكر وثائق أخرى أن المسئولين عن الانتخاب كانوا «يسالون شيوخ البرية» أى الآباء الروحيين الكبار فى الأديرة لكى يرشدوهم عمن يصلح لهذه الدرجة الكهنوتية المقدسة. لأن أقدر من يستطيع أن يعرف أصحاب المواهب من الرهبان هم آ باؤهم الروحيون ومدبروهم، لذلك جرى التقليد على التوجه أولاً إلى هؤلاء الآباء الشيوخ. فالعملية هى، بحق، عملية «تفتيش» و«بحث» و«استرشاد بمشورة الآباء الشيوخ» مقترنة بالصلوات والصوم والتضرع إلى الله عمن هو مستحق وجدير بهذه الدرجة الجليلة.

كما نقدم صورة أخرى من صلوات الرسامة نقلاً عن مخطوطة القرن الثالث عشر المطبوعة فى رومية. حيث يلقى الأرشيديا كون يوم الرسامة خطاباً «جهيراً» أى بصوت عال قائلاً لشعب الإسكندرية المجتمع لإكمال رسامة أسقفهم الجديد:

[أيها الذين هم من مدينة الإسكندرية العظمى المحبة للمسيح وتخمها. لكونكم وادّين الآباء جدا ولم تستطيعوا الصبر على مناحة اليتم، بل صنعتهم بنشاط هذا الرأى والاتفاق، وهو أن تطلبوا لكم أبا، وحرصتم على ذلك، ولهذا إذ اجتمع الأساقفة الجزيل برهم والقسوس الزائدى العبادة لله والشمامسة المحبين لله جداً، ومعهم الرهبان الجزيلى الورع رؤساء الأديرة، وكل الشعب المحب للمسيح جداً الذى من مدينة الإسكندرية العظمى وكل كورة مصر، الذين باتفاق إذا بذلوا فى هذا الأمر غاية ما يمكن من الحرص، واعتمدوا التفتيش فى كل مكان ليجدوا المستحق الذى يجب أن يرعانا ويسكننا على مرعى صالح ومكان خصيب، ولهذا تضرعنا بتوسل إلى الإله الناظر الكل أن يرينا من يجب أن يكون مستحقاً لهذه الرتبة وملائماً لها، فألهمنا أن نبصر (فلان) الجزيل العبادة لله القس الراهب الزائد الورع من الدير البهى (الفلانى) لنجعله راعياً عظيماً ورئيس أساقفة

جالساً بالخلافة فى كرسى الإنجيلى الباهر القديس مرقس الناطق بالإلهيات والرسول لتثبيت واصلاح كنائس الله المقدسة..)(*).

وهذه الإجراءات التى تعطى الروح القدس حقاً الفرصة لاختيار البابا الجديد، أحيانا كثيرة روعيت، ولكن للأسف كسرت أحياناً أخرى.

وثائق طقس الرسامة:

وفى القسم الأخير من ملاحق البحث نقدم ثلاثة وثائق هامة وأساسية فى صلوات الرسامة على بابا الإسكندرية بحسب الأصول الكنسية بوضع الأيادى عليه التى هى أخطر وأقدس لحظة فى رسامة بابا ورئيس أساقفة الإسكندرية، وهى التى تمت فى رسامة المثلث الرحمات البابا كيرلس السادس البطريرك ١١٦ (١٩٥٩ ـ ١٩٧٠) وذلك يوم الأحد ٢ بشنس سنة ١٦٧٥ للشهداء الموافق ١٠ مايو سنة ١٩٥٩ وهى:

١ ـ التزكية

٢ ـ صلوات وضع الأيادى على رأس أسقف الإسكندرية

٣ ـ تقليد رياسة الأسقفية لكنيسة الإسكندرية

وقد نقلنا نص هذه الصلوات عن مجلة رسالة المحبة الغراء فى عددها التاريخى رقم ٦ من السنة الخامسة والعشرين الصادر عن شهر بشنس ١٦٧٥ مايو يونيو ١٩٥٩. وقد ضاهينا هذه الصلوات على أقدم ما فى أيدينا من مخطوطة تكريس ورسامة البطريك المطبوعة فى روميه عام ١٧٦١ للميلاد ١٤٧٨ للشهداء وترجع المخطوطة الأصلية إلى منتصف القرن الثالث عشر تقريباً، فوجدناها مطابقة تماماً فيما عدا بعض الاختصارات الطفيفة جداً التى لا تغير فى مسار الأصول التقليدية أو المعانى العامة.

ولنا بعض التعليقات الختامية على هذه الصلوات:

١ ـ التزكية وصلوات وضع الأيادى وتقليد التجليس كلها تشير إلى إيبارشية «مدينة الإسكندرية العظمى» القديمة جداً المدينة التى يرسم عليها الأسقف البابا البطريرك وتوضع

(*) الإفخولوجيون، المخطوطة المطبوعة برومية.

عليه الأيادى لإعلان اقترانه بشعب هذه المدينة المحبة للمسيح. وكلها تخاطب أهل ثغر الإسكندرية بأنهم هم الشعب والرعية أصحاب الحق الأول (ولكن ليس الوحيد) لانتخاب البطريرك الجديد أسقفهم وراعيهم هم أولاً. والنعمة الخاصة الحالة على البطريرك الجديد لتأييده وتعضيده من فوق من لدن الإله الناظر على كنيسته تأتى من خلال طقس وضع الأيادى الأسقفية عليه.

ولكن كل هذا لا يكون ممكناً حدوثه، لو كان المرشح سبق له أن وضعت عليه الأيادى فى أيبارشية أخرى، أو كان بحسب الوضع المستجد: أى وضُعت عليه الأيادى دون اقترانه بإيبارشية. ذلك لأن القانون الكنسى يمنع تكرار وضع اليد للأسقفية على رأس المرشح:

[لأجل من يقسم من دفعتين ـ إذا نال أسقف أو قسيس أو شماس قسمتين (أى وضع اليد بالنسبة للرتبة الواحدة) فليقطع هو والذى قسمه].

القانون ٤٨ من قوانين الكنيسة

على يد إكلمندس وعددها ٥٦ قانوناً

وفى الوقت نفسه يمنع انتقال أسقف من إيبارشيته التى قسم عليها إلى إيبارشية أخرى وعلى الأخص لإيبارشية الكرسى الرسولى، أو اقتران أسقف بإيبارشيتين خرقاً لشريعة الزوجة الواحدة، باعتبار أن قسمة أسقف على شعب إيبارشية هو بمثابة اقتران عريس بعروسه، وذلك حسب العرف الكنسى، ومفهوم طبيعة الكنيسة جسد المسيح وقوانين ترتيب الكهنوت فى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية.

٢ ـ لم نشهد فى انتخابات هذه الرسامة (مايو ١٩٥٩) التى نشرنا صلواتها (فى ملاحق البحث) أية محاولة من جانب من المرشحين للدعاية لأنفسهم أو لتزكية أنفسهم على المرشيحين الآخرين أمام الجماهير (على نسق الانتخابات السياسية والمدينة)، وهذه الملاحظة مقترنة بملاحظة أخرى أن كل المرشحين كانوا من الرهبان ذوى الدرجة الكهنوتية «القس» (وكانوا ملازمين قلاليهم أو مناسكهم بأديرتهم مسلمين الأمرلمشيئة الله).

٣ ـ يلاحظ أنه، فى وصف إجراءات اختيار المرشحين، يقوم المسؤلون بالتفتيش فى كل

مكان ليجدوا المستحق، وهم يقرنون هذه العملية بالصوم والتضرع والتقديس لكى يرشدهم الله إلى انتخاب من يصلح لهذه الوظيفة. فعملية الانتخاب عملية روحية بحتة أى أنها تتم بإرشاد وتوجيه الروح القدس الذى فى النهاية سيحل على من يختاره الله. والمرشح الصالح هو الذى يحس ـ بالصدق وبالحق ـ أنه غير مستحق لهذه المسئولية العظمى فإن طقوس الرسامة تقول: «يأتون به (من مكان خلوته) مقيداً إلى هيكل الله» لأنه فى الغالب يكون هارباً من أمام الذين يبحثون عنه. وهذا يضمن للكنيسة أن يكون البابا الجديد معضداً من الله مسنوداً بنعمة الروح القدس، وليس بأى قوة بشرية أو ذاتية إذا كان قد سعى إلى المنصب بنفسه أو بسعاية آخرين.

الجدل حول ترشيح الأساقفة والمطارنة للكرسى البطريركى:

لقد ثار الجدل حول هذا الموضوع منذ ممارسة أول مخالفة لقانون الكنيسة، وذلك عام ١٩٢٨. وهذه هى أول ممارسة مضادة صريحة لطبيعة وأساس قيام الكنيسة، وهوانتقال أسقف أو مطران من إيبارشيته التى سبق أن رسم عليها إلى إيبارشية مدينة الإسكندرية العظمى (وبالتالى احتفاظه بالإيبارشيتين معاً ـ خرقاً لشريعة الزوجة الواحدة). وقد قام علماء الكنيسة وآباؤها وأبناؤها المخلصون بكشف خطأ هذه المخالفة وخطورتها على قداسة الكنيسة وطهارة خدامها وخلاص أنفسهم، منذ ذلك الوقت، بلا كلل ولا ملل،مما يقطع بأن جسد الكنيسة القبطية الأرثوذكسية غير قادر ولا قابل لاحتواء أو الرضا بهذه المخالفة.

وهذه المخالفة بالرغم من أنها اقترفت فى القرن الرابع (فى كنائس أخرى ولكن ليس فى كنيسة الإسكندرية القبطية الأرثوذكسية)، إلا أنها رفضت واستنكرت فى عدة مجامع مسكونية ومكانية، بأعتبارها «خطية»، وكثيراً ما وضعت فى مصاف خطية «الزنا»، كما فى قرار المجمع المقدس لكنيسة الإسكندرية القبطية الأرثوذكسية المنعقد فى الإسكندرية عام ٣٣٩م. كما أن أصوات العلماء اللاهوتيين قدامى ومحدثين لا تفتأ تدين هذه المخالفه، ناعتين إياها بأنها مخالفة بالرغم من تكرارها. لكن قانون مجمع نيقية المسكونى هو أقوى مانع فى وجه ارتكاب هذه المخالفة، ولا يمكن أن يبطل هذا القانون تكرار حدوث المخالفة، وذلك حسب المبدأ الكنسى القائل: إن المخالفات لا يجب أن ترتكب بذريعة أنها سبق وارتكبت فى الماضى كما قرر ذلك القديس كبريانوس.

ولسنا نريد الخوض فى البراهين التى قدمها المدافعون عن طهارة الكنيسة ونقاوتها. ولكننا نضع نصب أعين الجميع نص هذا المبدأ الكنسى الذى يحكم على مخالفات القانون الكنسى أيا كانت، وسواء كثرت أو قلت

[ليس معنى أن خطأ حدث فى وقت ما، أن يسمح بأن يتكرر هذا الخطأ فيما بعد]

القديس كيريانوس فى الرسالة رقم ٧٢:٢٣.

فالمخالفات لا يجب أن ترتكب تحت ادعاء أنها سبق وارتكبت فى الماضى. لقد كان هذا المبدأ هو الذى يحكم ضمير الكنيسة الحى على مدى الأجيال. فإذا حدث أن المعنى الحقيقى للقرارات القديمة للكنيسة نسى أو تشوه، أو استبدلت التقاليد الصحيحة بتقاليد أخرى مخالفة، فهذا لم يكن يعنى البتة أن يتحول الخطأ المتكرر ليصير قانوناً، مهما كان المخالف كبيراً أو صغيراً، قديساً أو غير قديس، من كنيستنا القبطية الأرثوذكسية أو من رؤساء الكنائس الأخرى.

وهذا هو الموقف الملزم أمام كل مخالفة فى الكنيسة يحتج مؤيدوها بأنها سبق أن ارتكبت فى عصر سابق أو أنها ترتكب فى الكنائس الأخرى. علماً بأن «عامل الزمن» لا يستطيع أن يحول الخطأ فيكون صحيحاً ولا المخالفة فتصير هى الوصية والقانون، بسبب تكرار الخطأ والمخالفة، وإلا لكانت الخطايا قد تحولت بسبب تكرار ارتكابها من البشر ملايين المرات فى كل الأزمان إلى أعمال بر أو على الأقل لم تعد خطأ منهياً عنه ويقع تحت دينونة الله!

ولكننا نفضل أن نسجل هنا المواقف التاريخية الإيجابية لمجامع مقدسة وآباء قديسين من بطاركة وأساقفة كنيسة الإسكندرية القبطية الأرثوذكسية، لنقتدى بشهود الحق فى مواجهة مواقف المخالفة.

شهود الحق فى مواجهة مواقف المخالفة:

١ ـ قرار المجمع المقدس لكنيسة الإسكندرية القبطية الأرثوذكسية المنعقد فى مدينة الإسكندرية عام ٣٣٩م. باعتبار انتقال أسقف إلى إيبارشية أخرى بمثابة خطية «زنا»

٢ ـ قانون أصدره المجمع المقدس للكنيسة القبطية الأرثوذكسية فى أثناء حبرية البابا خائيل الأول البابا الـ ٤٦ (٧٤٣ ـ ٧٦٦م.) صرح فيه البابا قائلاً:

[السيف أو النار أو الرمى إلى الأسد أو النفى أو السبى فما يقلقنى. ولست أدخل تحت حرمى الذى كتبته بخطى وبدأت به بأن لايصير أسقف بطريركاً... فكيف أحلل اليوم ما حرمته بالأمس، وما أنكرته بالأمس أرضى به اليوم.

تأمل أمانة البابا لمبادئه السابقة التى كتبها بخطه وعدم تراجعه عنها بالرغم من تهديد الحاكم المدنى آنذاك، الخليفة جعفر بن المنصور العباسى، للبابا بالموت فى حالة الرفض.

٣ ـ المجمع المقدس للكنيسة القبطية الأرثوذكسية عام ١٨٦٥ أصدر القرار التالى:

[لا نسلم ولا نسمح قط للكهنة وشعب الكرازة المرقسية بحل وتعدى الحدود الأبوية. وكل من يطلب هذه الرتبة من الأساقفة أو المطارنة أصحاب الكراسى أو سعى فيها أو رضى بها، أو أحد سعى له فى شأن يطلبونه لها - كاهناً أو رئيس كهنة أو علمانياً يكون محروماً.

٣ - ثم نسجل بكل الفخر والإعزاز موقف الآباء مطارنة وأساقفة الكنيسة القبطية الأرثوذكسية فى العصر الحديث الذين عاصروا رسامة البابا كيرلس السادس حيث وقف فى اجتماع المجمع المقدس نيافة الأنبا أثناسيوس مطران كرسى بنى سويف والبهنسا السابق وكبير الأساقفة نفسه ـ واتفق مع أعضاء المجمع المقدس بالإجماع أن يتجنبوا ترشيح أى منهم للكرسى البطريركى خضوعاً وطاعة لمشورة العلى والتى سجلتها قوانين الكنيسة الرسولية وقوانين المجمع المسكونى الأول المنعقد فى نيقية عام ٣٢٥م . وهكذا كان كل المرشحين ممن لم تزد درجتهم الإكليروسية عن القسوسية.

٤ ـ كما نسجل بكل الفخر والإعزاز موقف المتنيح الأنبا أنطونيوس مطران سوهاج وكبير الأساقفة وقائم قام البطريرك فى فترة خلو الكرسى البطريركى (١٩٧٠ - ١٩٧١) الذى رفض بإباء وشمم ما عرض عليه من ترشيح نفسه للكرسى البطريركى ليكسر إجماع الإكليروس والشعب آنذاك على حتمية احترام قوانين الكنيسة بعدم ترشيح الأساقفة والمطارنة للكرسى البطريركى. وقد سمعناه يصرح آنذاك إلى الذين عرضوا عليه ذلك قائلاً:

[إنى مرتبط بشعبى وإيبارشيتى، فلا أنا مستعد للطلاق منها، ولاهم مستعدون للتفريط فى اقترانى بهم لأن شعبى يحبنى وأنا أحب شعب إيبارشيتى].

وقد نشر بياناً بهذا المعنى فى الصحف العامة آنذاك.

إذن، فشهود الحق الكنسى فى مصفٍ المجمع الأسقفى لكنيسة الإسكندرية يقفون فى كل جيل وزمان، يكملون ويحققون موهبة التعاقب الرسولى الذى تحمله كنيسة الله الأرثوذكسية.

* أما موقف الشعب وشهادته للحق الإلهى فى هذا المجال فهو معروف ويمكن الرجوع إلى هذه المواقف منذ عام ١٩٢٨ وحتى الآن.

الأصول الأولى لرتبة «الشيوخ» أو «القسوس»

القسوس فى بداية المسيحية

مركز الشيوخ فى العهد القديم:

كانت المجامع اليهودية فى فلسطين يدبرها من يسمون بـ «الشيوخ» واسمهم بالعبرية «ذقنيم» وباليونانية «بريزفيتروى - والمفرد بريزفيتيروس» وكان هؤلاء الشيوخ يكونون مجلس السنهدريم الذى يرأسه رئيس الكهنة فى أورشليم. وكانوا ينتخبون لمدى الحياة. ومن بين أعضاء هذا المجلس كان هناك من يسمون بـ «الكتبة» أو «الرابيين» والذين كانوا يمارسون تأثيراً كبيراً على الشعب، إذ أنهم هم حفظة الناموس الذين يجلسون على كرسى موسى يعلمون الشعب شريعة الله بكل تفاصيلها ودقائقها. (ويقابل هذه الوظيفة فى العهد الجديد من يسميهم الرسول بولس «الشيوخ المعلمون» ١ تى ٥: ١٧).

هؤلاء الشيوخ/ البريزفيتيروى كانوا يرسمون، أى توضع عليهم اليد لينالوا الروح الذى حل على موسى، والذى انتقل من موسى إلى يشوع،ومن يشوع إلى شيوخ بنى إسرائيل. فالشيخ «البريزفيتيروس» اليهودى كان مفرزاً وموشحاً بالروح من أجل القيام بعمل روحى، ويماثل هذا العمل ما كان يقوم به «القضاة» بعد ذلك فى العهد القديم.

(ولكن كانت هناك فى نفس الوقت وظائف أخرى داخل مجامع اليهود بخلاف الوظيفة الروحية المشار إليها أعلى الخاصة بالكتبة الرابيين، هذه الوظائف كان يقوم بها أعضاء من الشعب يسمون باليونانية» «أرخونتس» وبالعربية «أرخنة» أى «رؤساء» أو المقدمين من الشعب، وهؤلاء لم يكونوا من الكهنة الهارونيين أى لم يكونوا يقومون بتقديم الذبائح فى الهيكل، بل كانوا يؤدون أعمالاً مدنية. هؤلاء هم الذين يسميهم الإنجيل «الرؤساء» أو «رؤساء المجمع» وكانوا مسئولين عن مبنى المجمع المنتمين إليه وباقى الخدمات التى تجرى فيه. كما كان هناك مسئولون آخرون عن أعمال الخير والصداقات. وهؤلاء الخدام من أعضاء الشعب كانوا يسمون أيضا الشيوخ ولكن لم يكونوا رابيين. (وهؤلاء يقابلهم فى العهد الجديد من يسمون بالأراخنة

ومقدمى الشعب الذين بالرغم من عدم نوالهم أية رتبة كهنوتية إلا أن لهم مسئوليات مدنية داخل الكنيس، مثل الأعمال الإدارية والمالية والخيرية وغيرها).

ولأن الشيوخ المعلمين كانوا معتبرين أنهم حفظة الناموس، لذلك أقيموا رؤساء لمجامع اليهود.

مركز الشيوخ/ القسوس

فى الكنيسة المسيحية:

أما فى الكنيسة المسيحية فالوضع منذ البداية كان مختلفاً. فالكنيسة لم تكن تحيا بالناموس وعلى الماضى، بل باختبارها الحى لسلطان الله، وبرجائها فى الاستعلان النهائى والحاسم لهذا السلطان فى المستقبل متمثلاً فى المجئ الثانى للرب. والعهد القديم لم ينته فى العهد الجديد، بل تحقق واكتمل فيه. وبهذا، فإن العهدين لابد أن يشرحا بطريقة جديدة: العهد القديم كممهد ومتنبئ للعهد الجديد، والعهد الجديد كاستعلان وشرح واستيضاح لكل غوامض العهد القديم.

مركز الكنيسة فى العهد الجديد:

والكنيسة فى العهد الجديد هى الأداة الأساسية لكل هذا. فهى التى اقتنت العهد الجديد والتعليم الجديد للرب، وعليها أن تحافظ عليه. والرب الذى تخدمه الآن بالطاعة ـ ليس بالطاعة الناموسية بل بالطاعة الحرة الإرادية ـ هو المسيح معطى الناموس، الذى هو الآن حقيقة شخصية حاضرة ومنظورة، بالعيان للرسل وبالإيمان للمؤمنين بالرب بواسطة كلام الرسل. لذلك فقد أصبح الإيمان بتعاليم المسيح وحياته وقيامته ثم المعمودية هو الختان الجديد (بدلاً من الختان بالجسد الذى كان فى العهد القديم) أى هو المدخل الذى يؤهل المؤمن للدخول فى عضوية شعب الله الجديد بسر المعمودية.

و فى هذا الإطار يصبح الشيوخ الجدد هم الذين يمثلون التقليد الجديد ويقدمونه للأجيال اللاحقة. وكل هذا يتم بالروح القدس، الذى أصبح مرافقاً وماكثاً فى الكنيسة يكمل عمل المسيح ويستعلنه ويظهره ويشرحه للمؤمنين بعد صعود المسيح.

لذلك فسلطان الشيوخ البريزفيتيروس / القسوس ليس سلطاناً مأخوذاً من البشر، بسبب انتخابهم بواسطة البشر وليس بواسطة الرب على مثال تلاميذ المسيح الأوائل، بل إن سلطان

الشيوخ هو سلطان روحى مأخوذ من الله، بموجب اختيار شعب الكنيسة لهم. لذلك لابد أن تكون ممارسة هذا السلطان قائمة على طاعة روح المسيح، وفى خدمة إنجيل المسيح، ومن أجل بنيان الكنيسة، ومن أجل كل ذلك منح الرب لهم هذا السلطان.

أما إذا انقلبت هذه العلاقة الأصيلة بين السلطان ومانح السلطان أى الله، لدى حامل السلطان الذى انتخبته الكنيسة، وصارت هذه السلطةن تمارس وكأنها مطلقة بلا حدود وليس بحسب مشيئة الله ولا من أجل بنيان الكنيسة، فنكون قد ابتعدنا عن مفهوم الإختيار الإلهى للشيخ / البريزفيتيروس.

طقس السبعين شيخاً مع موسى

وعلاقته بطقس القسوس:

هذا من الناحية التاريخية، أما من الناحية التقليدية الكنسية، فالشيوخ صاروا يقامون فى الكنيسة المسيحية على نسق الشيوخ السبعين الذين اختارهم موسى النبى ليعاونوه فى تدبيره لأمور إسرائيل وهم فى البرية (ونجد قصتهم كاملة فى سفر العدد إصحاح ١١ :١٦ ـ ٢٥).

وقد ورد هذا الربط فى نص صلوات رسامة القسوس المبكرة والمتأخرة، منها خولاجى القديس سيرابيون: ٢٧، وكما ورد فى الدسقولية (٨: ١٦: ٤)، وكذلك فى مخطوطة الأفخولوجيون من القرن الثالث عشر المطبوعة فى رومية.

مركز مجمع الرسل، ودور الشيوخ معهم:

على هذا الخلفية يمكننا أن نتتبع أصل المؤسسات الإكليروسية المسيحية:

فجماعة المسيحيين الأوائل فى أورشليم كان يرأسهم «مجمع الرسل» وكان هؤلاء الرسل معتبرين «معلمين» أو «رابيين» ومعروف أن المعلم أو الرابى لابد أن يكون تلميذاً لمعلم أو رابى أسبق منه (مثل بولس الذى تتلمذ على يدى غمالائيل قبل إيمانه بالمسيح).

وقد كان الاثنا عشر فعلاً تلاميذ متتلمذين لـ«المعلم» و«الرابى» الكبير والوحيد فى الكنيسة، ألا وهو ابن الله المتجسد الرب يسوع المسيح. ولكن لأن أى واحد يدعى بلقبه الأعظم، لذلك لم يسمى الرسل باسم« الشيوخ» (بالرغم من أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم

هكذا، كما يدعو بطرس الرسول نفسه» أنا الشيخ (القس) رفيقكم «(بطرس الأولى ٥:١)، وكما يسمى القديس يوحنا الرسول نفسه فى رسائله باسم «الشيخ» (يوحنا الثانية ١:١، يوحنا الثالثة ١:١)] ـ إلا أنهم كانوا يدعون باللقب الأكبر وهو «رسول» يسوع المسيح.

سلطان «الرسول» فى المسيحية:

وكلمة «رسول» كان لها دور كبير فى نظام الكنيسة اليهودية فى العهد القديم. فالرسول اليهودى واسمه بالعبرية «شليح» أو «سليح» كان هو الشيخ المبعوث من مجلس السنهدريم فى فلسطين إلى مجامع الشيوخ خارج فلسطين ليبلغهم رسائل الكهنة والشيوخ فى فلسطين، أو ليجمع منهم تقدماتهم للهيكل. وكان سلطان هذا الرسول المبعوث مستمداً ممن أرسله أى من رئيس الكهنة فى أورشليم.

وأما «الرسول» فى العهد الجديد فهو يستمد سلطته من رئيس كهنة العهد الجديد الرب يسوع المسيح.

وهكذا كان الرسل الاثنا عشر هم نواة إسرائيل الجديد، أرسلوا باسم شخص ربنا يسوع المسيح نفسه ليكملوا ويمتدوا بإرساليته، مزودين بسلطانه الشخصى وقوة حضوره الإلهى، ومن خلال عطية الروح القدس التى نالوها من الرب نفسه بعد قيامته من بين الأموات، ثم فى يوم الخمسين فى العلية، تحقيقاً لوعد الرب لهم قبل صعوده إلى السموات: «دفع إلى كل سلطان فى السماء وعلى الأرض. فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به. وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر. أمين «(متى ٢٨: ١٨ ـ ٢٠).

هذا هو سلطان الرسول المستمد من سلطان المسيح فى السماء وعلى الأرض.

مركز الشيوخ/ القسوس بالنسبة لمجمع الرسل:

إلا أن «مجمع الرسل» ظل خارجاً عن المؤسسات الكنسية المسيحية المكانية وأعلى منها كما سنرى فيها بعد.

وأول ما نقرأ عن «الشيوخ» فى العهد الجديد، نقرأه فى سفر أعمال الرسل (أع ١٥: ٤)

في سرده لا نعقاد أول مجمع كنسي. فنقرأ عن وجود «الشيوخ» جنباً إلى جنب مع الرسل، ولكن دون الإفصاح عن متى رسم هؤلاء الشيوخ ومن الذى رسمهم فى أورشليم. إلا أن سفر الأعمال يقدم لنا رواية فى مكان آخر أن بولس وبرنابا وهما يبشران فى أنطاكية «انتخبا لهم (للمؤمنين الجدد فى أنطاكية) قسوساً (شيوخاً) فى كل كنيسة» (أع ١٤ : ٢٣)، أما «الشيوخ» الموجودون فى كنيسة أورشليم فلم يذكر عنهم شئ من قبل. على أى حال، فقد ظهر أن هناك هيئة جديدة إلى جانب مجمع الرسل هى «مجمع الشيوخ أو القسوس» الذين نالوا وظائف روحية غير وظائف شيوخ اليهود.

لكن مجمع الرسل كان له التأثير الأول والأساسى على مجمع القسوس فى أورشليم وعلى مثيله فى الكنائس التى تأسست خارج فلسطين. ونجد فى الرسائل الرعوية التى أرسلها الرسل إلى الكنائس، أن الرسل كانوا يملكون زمام السلطة على هذه المجامع القسوسية وإن كانوا يتعاملون معها كهيئات معترف بسلطانها.

وكانت علاقة «الرسول» بالكنائس ذات تأثير خاص، لأن الرسول كان يستمد سلطانه من الرب يسوع المسيح نفسه. فبهذا السلطان. كان الرسل يحثون ويقنعون المؤمنين، وأحياناً يمارسون السلطة الفائقة التى للرب نفسه، مثلما حدث فى موقف القديس بولس من أحد الخطاة الزناة فى كنيسة كورنثوس حينما أمر بأن «باسم ربنا يسوع المسيح، وإذ أنتم وروحى مجتمعون مع قوة ربنا يسوع المسيح أن يسلم مثل هذا للشيطان لهلاك الجسد لكى تخلص الروح فى يوم الرب يسوع» (١كوه: ٤، ٥).

معالم رتبة القسوس ورتبة الأسقف:

لكن مثل هذا التدخل لم يكن يحدث باستمرار، لأن الرسل أوكلوا سلطة إصدار مثل هذه الأوامر إلى مجامع القسوس فى كل كنيسة. ثم تحددت السلطة فى يد أحد هؤلاء القسوس الذى انتخب ليكون رئيساً لمجمع القسوس باسم «إبيسكوبوس».

وهذا الاسم مقتبس من الكلمة التى تصف أهم وظائف هؤلاء القسوس وهى: حراسة النفوس وافتقادها وملاحظتها والإشراف عليها من أعلى (كما تدل عليها معنى كلمة «إبيسكوبى Episcopei»). لأن خدمة رعاية النفوس التى يقوم بها هؤلاء الشيوخ/ القسوس

تتضمن هذه الوظائف المعبر عنها بكلمة «إبيسكوبى»، بالإضافة طبعاً إلى الوظائف الأخرى مثل تقديم ذبيحة العهد الجديد بخبز وخمر (الوظيفة الكهنوتية)، ووظيفة التعليم، ووظيفة التدبير وغيرها.

لذلك لا نعجب حين نقرأ فى سفر الأعمال أن بولس الرسول استدعى «قسوس الكنيسة» فى أفسس وقال لهم».. أقامكم الروح القدس فيها أساقفة»... فليس هنا فى هذا النص اختلاط بين القسوسية والأسقفية اللتين نعرفهما اليوم متميزتين، لأن «قسوس الكنيسة» هم خدام الكنيسة ورعاتها، أما كلمة «إبيسكوبوس» فهى هنا ليست «لقبا» لرتبة بل «مضمون الوظيفة» التى يقوم بها هؤلاء القسوس أى الافتقاد.

ويمكن أن تتضح هذه الآية إذا ترجمناها هكذا: «... التى أقامكم الروح القدس فيها نظاراً / حراساً / مفتقدين/ ملاحظين» (وكل هذه المترادفات هى مشتقة من وظائف راعى الخراف واستعيرت لتصف عمل القسوس). وهذه الترجمة العربية لكلمة «إبيسكوبوس»: «نظاراً»، هى التى ترجمت إليها نفس الكلمة اليونانية «إبيسكوبى» فى رسالة بطرس الرسول الأولى ٥ :٢ «ارعوا رعية الله التى بينكم نظاراً».

كما ندرك نفس هذا المفهوم ونحن نقرأ توجيه رسالة فيلبى إلى «اساقفة وشمامسة» (فى ١ :١) إذ ليس من المعقول كنسياً أن يكون فى مدينة واحدة أساقفة عديدون؟ فواضح أيضا أن اللغة التى يستعملها بولس الرسول وهو يقول «أساقفة» يقصد بها مضمون مهام الافتقاد والملاحظة الروحية للنفوس التى يشترك فيها القسوس وليس لقب الوظيفة الأسقفية.

أصل الوظيفة الكهنوتية للأسقف والقس

إن سر الإفخارستيا هو محور العبادة المسيحية منذ البدء. وحسب إيمان الكنيسة الأرثوذكسية، فقد تأسس هذا السر يوم خميس العهد فى العشاء الأخير للرب مع تلاميذه.

هذا العشاء كان طقساً من طقوس وليمة عشاء ذى صبغة دينية يمارسه فى بعض المناسبات أفراد البيت اليهودى أيام المسيح، وبالرغم من أنه لم يكن له أية صفة ذبائحية، أى لم يكن يذبح فيه خروف الفصح، بل كان طعاماً عادياً، إلا أن المسيح أعطاه معنى جديداً تماماً فى هذه الليلة.

فقد رأى الرب يوم خميس العهد وهو جالس على مائدة العشاء الأخير، رأى بعين النبوة أن موته الكفارى الذى سيتم غداً الجمعة، هو موت ذبائحى، أى أنه سيموت كذبيحة العهد الجديد المقدمة عن خلاص وحياة كل العالم، أى أنه سيصبح غداً هو حمل الفصح الحقيقى، وليس الخروف الذى تعود اليهود أن يذبحوه فى كل عيد للفصح والذى سيكون موعده غداً الجمعة.

ولأن المسيح تقدم إلى الصليب بإرادته وسلطانه وحده، لذلك اعتبرت ذبيحة الصليب ذبيحة إرادية. ومن أجل أن يبين المسيح هذه السمة الإرادية فى ذبيحته، سبق وقدمها بالسر يوم الخميس بقوله لتلاميذه وهو يشير إلى الخبز والخمر الموضوعين على مائدة العشاء: «هذا هو جسدى الذى يبذل عنكم. اصنعوا هذا لذكرى... وهذه الكأس هى العهد الجديد بدمى الذى يسفك عنكم» (لوقا ٢٢ : ١٩ ـ ٢٠).

فهذان المقطعان اللذان نطقهما المسيح ارتبطت فيهما وليمة العشاء اليهودى القديم بموت المسيح كذبيحة. لذلك فإن هذا العشاء دخل فى هذه اللحظات المقدسة إلى المجال الذى لابد فيه أن يكون مقدم هذه الذبيحة (وهو هنا المسيح له المجد) كاهناً. وهذه هى الصفة التى فى المسيح والتى أستعلنت لنا لأول مرة فى العهد الجديد، صفة كهنوت المسيح، وهو يقدم نفسه ذبيحة جسداً ودماً، يبذلان كفارة من أجل حياة العالم.

وكما كان مقدم ذبيحة الفصح فى العهد القديم هو فقط رئيس الكهنة وليس غيره، كذلك فالمسيح يطلق عليه لقب رئيس الكهنة (آرشى إيريفس) أو الكاهن الأعظم، بسبب تقديمه ذبيحه نفسه كفارة عن خطايا العالم أجمع.

ومنذ ذلك اليوم المبارك، وتنفيذاً لأمر الرب: «اصنعوا هذا لذكرى» (لوقا ى٢ى٢ :١٩)، أصبح كل من يرأس الاحتفال الإفخارستى ويقدم الخبز والخمر فى الكنائس المسيحية، إنما يتركز عمله فى أن يعيد ويحقق ويعلن حضور «رئيس الكهنة الأعظم» الرب يسوع المسيح ويفسح له أن يكهن لشعبه. فكهنوت المسيح فريد، كون المسيح هو وحده الكاهن الأعظم، مقابل الكهنة ورؤساء الكهنة الكثيرين فى العهد القديم، وذبيحته واحدة وحيدة لكنها حية، ولذلك لم و لن تتكرر، مقابل تعدد وتكرار ذبائح العهد القديم.

ومن ذلك الوقت أصبح هذا الكهنوت الجديد الذى للمسيح ينضح من المسيح على جسده أى الكنيسة، كما يصف ذلك المزمور ١٣٣ بروح النبوة: «هو ذا ما أحسن وما أجمل أن يسكن الأخوة معاً (إجتماع المؤمنين فى الكنيسة). مثل الدهن الطيب على الرأس(دهن مسحة كهنوت المسيح رأس الكنيسة) النازل على اللحية لحية هارون (رمز الإكليروس) النازل إلى طرف ثيابه (و على جسم الكنيسة كلها أى شعب الله اللاؤس)، دون أن يحسب كهنة العهد الجديد كثرة فى العدد، بل هم كلهم محتوون فى كهنوت الكاهن الأعظم الواحد الأوحد، الرب يسوع المسيح، ويمثلونه أى يعلنون حضورة مجدداً كاهنا أعظم يقدم جسده ودمه عن حياة العالم.

الحركات الطقسية للكاهن أثناء القداس تعلن حضور المسيح وسط شعبه:

وكل هذا يتضح بأروع صورة فى الحركات الطقسية التى يلتزم بها الكاهن فى القداس الإلهى: إذ بعد تقديس الذبيحة (بعد كلمات التأسيس والرشومات) تتغير الطريقة التى يعطى بها الكاهن البركة للشعب. إذ لا يعود الكاهن يلتفت إلى مواجهة الشعب ويرشمهم رافعاً يده معطياً البركة. لهم ، لكنه وهو واقف على المذبح يتنحى قليلاً بعيداً من أمام الذبيحة لتكون الذبيحة المقدسة التى على المذبح (الجسد والدم الأقدسين اللذين لربنا يسوع المسيح) فى مواجهة الشعب، ويقول «السلام لجميعكم» دون أن يرشم أى دون أن يرفع يده بوضع من يبارك، لأن المسيح نفسه الآن هو الذى يبارك.

كما فى ذلك الزمان، الآن أيضاً:

وهكذا أيضا صار المقطعان من قول المسيح ليلة خميس العهد ينطقان بفم مقدم الإفخارستيا فى كل احتفال بالافخارستيا بعد ذلك (فيما يعرف بكلمات التأسيس والتى تبدأ بقول الكاهن: «لأن فيما هو راسم أن يسلم نفسه للموت عن حياة العالم...») وذلك فى كل قداس يقام، على مدى الأجيال وفى كل كنائس المسكونة، وبالتالى أصبحت كلمات المسيح هذه التى قالها ليلة خميس العهد تحمل فى ذاتها كل قوة وفاعلية لإتمام السر، كونها سبق أن نطقت بفم المسيح الكاهن الأعظم الأوحد مرة واحدة ليلة خميس العهد، فصارت هى التى تعطى للتقدمة المقدسة من الخبز والخمر سمتها الذبائحية، باعتبار أن المسيح حاضر وهو الذى

يقدسها بكلماته ذات الفاعلية الأبدية، وإن كان ينطقها بفم مقدم الإفخارستيا خادم مذبح العهد الجديد، فهو الذى كما صنع فى ذلك الزمان، هكذا الآن أيضا يبارك بنفسه الآن. ويقدس، ويكسر، ويعطى كنيسته وكل شعبه، (كما يصلى الكاهن بذلك فى القداس الغريغورى).

هذه هى أهم التغييرات التى حدثت فى وظيفة الشيخ اليهودى، حينما انتقلت إلى المسيحية. فالمشيخة أو مجمع القسوسية بالإضافة إلى أنها ظلت فى المسيحية، كما فى اليهودية قديماً، جماعية، وتمارس مهامها فى التدبير والتعليم؛ إلا أنها، فى المسيحية، أضيفت إليها مهام ليتورجية مسيحية جديدة ذات صبغة وسمة «كهنوتية» بسبب خدمة رفع القرابين وتقديم ذبيحة المسيح فى شكل خبز وخمر، أى بسبب السمة الذبائحية لطقس عشاء الإفخارستيا، الذى أسسه الرب يسوع المسيح ليلة عشاء الخميس الكبير.

الإيغومانس (القمص) وهو كبير القسوس

كلمة «إيغومانس» (ونطقها العربى المتداول محرفاً «قمص») يونانية الأصل Hegoumenos ومعناها: مدبر، أو كما يسميه كتاب الرسامات «الهادى»و«المرشد»، وهاتان صفتان من صفات وأسماء قبطان الباخرة وقائدها، وهما تنطبقان على مهام الإيغومانس.

إقامة أو انتداب الايغومانس، وليس ترقية:

وعملية إقامة الإيغومانس لا يسميها كتاب الرسامات «رسامة» بل «انتداب» و«انتقال من طغمة (أى رتبة) القسوسية إلى الإيغومانسية»، حيث لا يعاد وضع اليد على رأس القس المنتدب للإيغومانسية. إذن، فليس لائقا أن توصف هذه العملية بأنها «ترقية» على نسق ما يحدث فى المؤسسات المدنية. فهى «دعوة إلهية» كما يسميها كتاب الرسامات، ولها مهام محددة تضاف على مهامه كقس قبل الانتداب.

مهام الايغومانس:

١ ـ من بين مهام الإيغومانس (كما وردت فى مخطوطة صلوات الرسامة) ـ بالإضافة إلى مهامه كقس ـ أن «يصير أباً ومدبراً» للرعية فى الموضع الذى أقيم عليه. كأن يكلف بقبول اعترافات الرعية والنطق بالحل لهم، وكذلك التدخل فى المسائل الشخصية العويصة، مثل

حالات النزاع الأسرى ومحاولات الطلاق. وهذه المهمة الأخيرة تحتاج إلى من يكون حاملاً لمواهب الأبوة والتدبير والروح الرئاسى، وبعد خبرة طويلة فى خدمة القسوسية.

لذلك كان إيغومانس الإيبارشية يسمى بوكيل شريعة الأقباط فى الإيبارشية، حيث كان مساعداً للأسقف أو المطران فى إنهاء وفض النزاعات الأسرية وإصدار التصاريح الشرعية المختصة بالزواج وغيره.

٢ ـ ومن بين المواهب التى تحل على الإيغومانس موهبة «الروح الرئاسى» وهو فى هذا يماثل الأسقف فى نوال هذه الموهبة. إذن فيمكن أن نقول أن من مهام الإيغومانس أن يكون مركز وحدة وأداة تدبير حسن وتنسيق بين قسوس الكنيسة التى أقيم عليها من بينهم.

كما أن من عمله ـ كما أوضح كتاب الجوهرة النفيسة ـ «قراءة التحليل على كل قسيس يقدس»، أى يتلو صلاة التحليل قبل بدء القداس الإلهى، وذلك فى حالة غياب الأسقف والمطران، فهو يعتبر بمثابة نائب أو وكيل الأسقف أو المطران فى بعض الأعمال الرئاسية فى إيبارشيته . ولهذا السبب، فإنه أجدر من يكلف بأداء الخدمات العامة والمؤسسات التى تتبع الأسقف والمطران، حيث أن صفته الرئاسية والتدبيرية والنيابية عن الأسقف تؤهله لذلك.

بعض ما يمكن أن يوكل للإيغومانس من مهام

إن الإيغومانس فى كل إيبارشية يمكن أن يكون خير معاون للأسقف أو المطران فى تكميل مهامه المتشعبة الصعبة فى الرعاية.

ففى المدن الكبيرة مثل مدينة العاصمة أو مدينة الكرسى الرسولى، فيمكن للإيغومانس أن يكون مسؤلا ومنسقاً لخدمات الرعاية فى حى أو ضاحية، معاوناً كفؤا للبابا البطريرك فى حل النزاعات والمشاكل الرعوية اليومية. فيمكن أن يعين «وكيل البطريركية لشئون الحى الفلانى أو الضاحية الفانية» من أحياء وضواحى العاصمة المترامية الأطراف، أو «النائب البابوى» لبعض الخدمات العامة مثل تنظيم والإشراف على مدارس التربية الكنيسة أو المعاهد اللاهوتية أو خدمة اخوة الرب أو فى المؤتمرات أوحمل الرسائل إلى الكنائس الشقيقة الأخرى أو لأعمال السكرتارية الخ. وذلك على مستوى الإيبارشية أو الكرازة.

ولاشك أنه فى هذه الحالة سيكون مستوجباً كرامة خاصة من الموفد إليهم بسبب صفته النيابية عن الأسقف أو البابا وبموجب تكليفه البابوى أو الأسقفى، وحسب ما أمر به القديس بولس الرسول: «أما الشيوخ (البريزفيتيروس) المدبرون حسناً (أى الإيغومانسيون) فليحسبوا أهلاً لكرامة مضاعفة» (١تى ٥:١٧).

وإن حسن اختياره من بين القسوس وتكليفه بالمهام التى تتناسب مع المواهب الروحية التى نالها بصلوات الانتداب للإيغومانسية يمكن أن تعطى للخدمات العامة المختصة بالرعاية والتدبير فى الإيبارشية أو الكرازة دفعات قوية وتساهم فى التنسيق بين قسوس الكنيسة الواحدة أو المنطقة أو الإيبارشية الواحدة أو كافة إيبارشيات الكرازة.

سر التوبة والاعتراف بالخطايا

الاعتراف بالخطية فعل أساسى وهام فى عملية التوبة والمصالحة منذ عصر الكنيسة المسيحية الأول. وقد اختلفت طريقة ممارسته على مدى التاريخ من اعتراف علنى إلى اعتراف سرى عن بعض الخطايا المحددة.

١ ــ والاعتراف بالخطية مذكور فى الأناجيل كممارسة تلقائية من إنسان يحس بضعفه فيعترف بأنه خاطئ، مثل «بطرس» الرسول: «.. خر عند ركبتى يسوع قائلاً: أخرج من سفينتى يارب لأنى رجل خاطئ» (لو ٨:٥). ونجد المسيح يؤكد على مبدأ الاعتراف بالخطية فى مثل الابن الضال «فقال له الابن: يا أبى أخطأت إلى السماء وقدامك...» (لو ١٥ : ١٨، ٢١)، وكذلك فى مثل العشار التائب (لو ١٨ : ١٣). وفى سفر الأعمال نجد الاعتراف مرتبطاً بالتجديد للتوبة والإيمان بالمسيح «وكان كثيرون من الذين آمنوا يأتون مقرين ومخبرين بأفعالهم» (أع ١٨ : ١٩).

والاعتراف بالخطايا تفصيلا نجده مذكوراً فى الرسالة الأولى ليوحنا كوضع قائم فى الكنيسة فى عصر الرسل، حيث يشير إلى الاعتراف بالخطايا كتمهيد لغفرانها: «أن اعترفنا بخطايانا، فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم» (١يو٩:١) وفى رسالة يعقوب يحث قارئى رسالته أن يعترفوا بخطاياهم: «اعترفوا بعضكم على بعض بالزلات (يع ٥:١٦). فالاعتراف هنا يتم على يدى القسوس.

فى الكنيسة الأولى:

وفى نهاية القرن الثانى الميلادى، يصف العلامة ترتليانس (من شمال أفريقيا) إجراءات مصالحة الخاطئ، حيث كان المسيحيون يعترفون بخطاياهم، ويلتمسون معونة الكنيسة، ويعلنون ثقتهم فى رحمة الله:

[هذا الاعتراف Exomologesis هو عمل نسكى ذو صفة تواضعية عظيمة.. فهو يعلم التائب أن يلقى بنفسه عند أقدام الشيوخ / البريزفيتروس، وأن يرتمى بركبتيه أمام محبة الله، ويلتمس من كل الإخوة أن يتشفعوا من أجله) ـ كتاب التوبة: ٩.

فعل الاعتراف بهذ الصورة، كان يتم أثناء الاضطهاد الرومانى تحت إمبراطورية «ديسيوس» فى منتصف القرن الثالث، حينما كان من الضرورى فى الكنيسة مواجهة الذين جحدوا المسيح تحت وطأة الاضطهاد ثم أرادوا التوبة والرجوع مرة أخرى.

وفى هذا الإطار يصف القديس كبريانوس عملية المصالحة مع الكنيسة أنها تتضمن «الاعتراف» Exomologesis، ثم وضع أيدى الأسقف على رأس التائب المعترف كإشارة إلى عودة القبول الكامل له فى شركة الإفخارستيا.

وحوالى القرن الخامس استبدل الاعتراف العلنى بالاعتراف السرى. وهذا التغيير فى طريقة الاعتراف يصفه المؤرخ «سوزومين» هكذا:

[ولأن طلب الغفران أصبح يستلزم الاعتراف بالخطية، بينما قرر الأساقفة منذ البدء، وهذا الحق، بأنه ثقل شديد جداً أن يعلن الواحد خطاياه فى محفل عام أمام الكنيسة المجتمعة كشهود، فقد اختاروا لهذا الغرض شيخاً/ بريزفيتيروس /قس، رجلاً على أعلى درجة من النقاء، رجلاً هادئاً، حكيماً، لكى يأتى الخطاة إليه ويعترفوا بأفعالهم..]

ومنذ ذلك الوقت والكنيسة تمارس سر الاعتراف بهذه الصورة الدقيقة على رجال تحتم أن يكونوا «على أعلى درجة من النقاء، هادئين، حكماء». كان الأسقف هو الذى يختارهم من بين مجمع القسوس، إذ لم يكن يسمح لأى قس / بريزفيتروس مرسوم حديثاً أن يسمع اعترافات التائبين، بل فقط الذين يختارهم الأسقف ويعطيهم حِلاً لتلقى اعترافات الشعب بموجب خطاب رسمى بذلك، وكان يسمى «معلم الاعتراف». (والى وقت قريب جداً كان

هذا النظام مطبقاً فى الكنيسة القبطية). لذلك تذكر مخطوطة الإفخولوجيون (القرن الثالث عشر) فى نهاية صلوات رسامة القس / البريزفيتروس وصية للقس فى قبول الاعتراف هكذا:

[ولا بأس أن تقبل الاعتراف إذاجاء إليك أحد معترفاً بخطيته، إن كنت مدرباً بهذه الصناعة. فإن القانون المقدس يقول: «إن الكاهن الذى لا يقبل المعترف، ينفى من الجماعة». ويعقوب الرسول ينذر المعترف ومعلم الاعتراف معاً ويؤكد أن ذلك واجب وفرض، بقوله للمعترف: «وليعترف بعضكم لبعض بخطاياكم»، ويقول للمعترف له: «وليصل بعضكم على بعض»، أى الكاهن يصلى على الرعايا. «لأن من يرد الخاطئ عن ضلاله يخلص نفساً من الموت ويستر على خطايا كثيرة»].

ويشترط الطقس الخاص بتلقى الكاهن القس المسمى «معلم الاعتراف» لاعترافات الشعب، أن عليه أن يتعلم أولاً ما يسميه الآباء «الطب الروحى» أو «طب النفوس»، وذلك على يد أب روحى وشيخ خبير بالمعالجة مشهور بالنجاح:

[ويجب أن تتخذ لك قبل ذلك ـ أى قبل ممارسة تلقى اعترافات الشعب ـ أباً وشيخاً خبيراً بالمعالجة، مشهوراً بالنجاح، حتى يعلمك أن تضع الدواء والمرهم بما يلائم الوجع والجراح].

محاذير ممارسة تلقى الاعتراف دون خبرة روحية:

فليس كل قس مرسوم حديثاً مسموح له بأن يتلقى اعترافات الشعب إلا بعد أن يتعلم طب الأرواح والنفوس أولاً. وهذا العلم الروحانى تشرح الوصية محاذير الجهل به:

[لكى لا تضع دواء العين على الرِّجْل فلا ينتفع بذلك، وتتشدد على العضو الترابى الزمنى فيصير هالكاً. وكن سائلاً عن السن والعادة والوضع والزمان والطبع، والمكان والإمكانية والمزاج والتحصن «أى القدرة على احتمال التأديبات»، معتمداً فى ذلك الرافة على بنيك والتحنن. ولا طف كلا مما ذكرناه لما يلائمه من الدواء، حتى يعود العليل من مرضه إلى حالة الصحة والاستواء.].

وتوصى الوصية المقروءة على القس يوم رسامته أن تكون حياته وخبرته الروحيتين كما يريده عليهما المسيح راعى النفوس وأسقفها هكذا:

ا لتكن مركباً روحياً، يحمل البركات إلى ميناء الخلاص.

ومعلماً روحانيا نورانياً، ترفع المتعلمين إلى درجات الاختصاص.

لتستحق بهذه الصفة الأجر المتضاعف، ويسبغ الرب عليك الخير المترادف].

إذن فمهمة الكاهن فى سر الاعتراف تشمل أيضاً، ليس فقط سماع الاعتراف وإعطاء الحل، بل وأيضاً إعطاء الدواء الروحى والتوجيه المناسب لكل فرد على حدة، حسب قامته الجسدية والنفسية والروحية. لذلك فهذه المهمة تستلزم جداً من الكاهن المعرِّف أن يكون متدرباً على يد شيخ روحانى مختبر ناجح فى تدبير النفوس سبق أن تتلمذ عليه الكاهن قبل البدء فى تلقيه اعترافات الشعب.

وقد صار هذا التقليد فى الكنيسة أن يتخذ كل كاهن له أب اعتراف (يسمى فى اللغة الكنيسة: أب ذمة)، شيخاً مختبراً هادئاً حكيماً قادراً أن يشفى النفوس المعتلة ويترقى بالمتعلمين والأصحاء إلى أعلى درجات الكمال. وقد وضع الآباء الكهنة والأساقفة والبطاركة أنفسهم فى وضع التلمذ «لأب ذمة» أى أب اعتراف قبل وبعد رسامتهم، ومازال الآباء الحريصون يسلكون هكذا.

الاعتراف السرى أثناء العبادة الليتورجية:

ومن بين ما شمله الاعتراف السرى، نوع آخر من الاعتراف أثناء الخدمات الليتورجية ويشمل الاعتراف «على المجمرة» - مجمرة البخور. وهو لا يغنى عن الإعتراف على يد الكاهن. ويشرحه ابن كبر فى مخطوطته «مصباح الظلمة فى إيضاح الخدمة» هكذا:

فى خدمة رفع بخور باكر وعشية

[وينزل الكاهن يبخر باب الهيكل ثلاثاً، ويمسح البيعة كلها، والشعب والنساء والشمامسة يقبلون يده، و هو يباركهم. ويسحب اعترف الإنسان بخطيته وطلبه المغفرة عند وقت تبخيره، سرا وبوجيز من الكلام. فقد قال بعضهم إن إخراج البخور للشعب هو بمنزلة الحيوان الذى كان يخرج - فى العهد القديم - إلى خارج المحلة ويعترف من يقدمه بخطيته فى أذنه، ثم يقرِّب عنه - (يقصد طقس تقديم تيس «ذكر الماعز» الذى يعترف على رأسه رئيس الكهنة

بخطايا الشعب ثم يقدمه ذبيحة رمزاً لغفران خطايا الشعب بالاعتراف وتقديم الذبيحة ـ راجع سفر اللاويين١٦).

وإذا فرغ الكاهن من تبخير الشعب كله، الرجال والنساء وأماكن الهياكل وأيقونات الشهداء والقديسين، يعود ويطلع فوق قدس الأقداس، كأنه يرفع اعتراف الشعب للإله ويقول: «يا الله الذى قبل إليه اعتراف اللص على الصليب المكرم، اقبل إليك اعتراف شعبك واغفر لهم جميع خطاياهم ، من أجل اسمك القدوس الذى دعى علينا، كرحمتك يا رب ولا كخطايانا»)

ويقول الخولاجى ا لمقدس إن هذه الصلاة واسمها «سر الرجعة» يقولها الكاهن فى رفع بخور عشية وباكر وفى القداس الإلهى أثناء قراءة رسائل بولس الرسول والإبركسيس.

وواضح أن الاعتراف على المجمرة أو الشورية ممارسة قديمة مكمِّلة لممارسة الاعتراف السرى على يد الكاهن (وليست بديلة عنه). ومنها يتضح أن تكرار الفرص التى يمنحها الطقس الكنسى للمؤمنين أثناء القداس الإلهى للاعتراف بخطاياهم ومنحهم الحل، إنما يهدف إلى تطهير ضمائر المتقدمين للتناول من الأسرار المقدسة ليكونوا فى حال استحقاق لقبول هذا السر الرهيب، حتى إلى آخر لحظة قبل التقدم للتناول.

العلاقة التاريخية بين القسوس والأسقف

١. المجال الجغرافى لخدمة كل منهما:

مجال عمل الأسقف:

مجال عمل الأسقف هو الـ Diokesis(باليونانية) وبالإنجليزية Diocese، وبالعربية تسميها «إيبارشية» وهى النطق العربى للكلمة اليونانية Eparchia، والتى توصف بها الوحدة الإدارية فى التقسيم الإدارى للدولة فى النظام المركزى للحكومة الرومانية قديماً.

وتشمل الإيبارشية الكنسية مدينة أو عدة مدن فى المحافظة فى التقسيم الإدارى للدولة والقرى المحيطة بها. وفى القديم كان لكل مدينة فى المحافظة أسقف، بينما أسقف عاصمة المحافظة كان يدعى «المتروبوليتيس» باليونانية وتعنى أسقف المدينة الأم أو أسقف أم المدائن.

وتنطق «المطران» بالعربية، وهو الأسقف المتقدم بين أساقفة مدن المحافظة، وكان يشكل معهم مجمع أساقفة مدن المحافظة.

مجال عمل القس:

أما مجال القس فهو يسمى بالـ Paroichia (باليونانية) وتنطق باريخيا، وتسمى بالإنجليزية Parish. و«الباريخيا» مصطلح مأخوذ عن الترجمة السبعينية للكتاب المقدس (العهد القديم). ويعبر عن مجموعة من المرتحلين معاً الغرباء فى أرض غريبة عن وطنهم، أو تعنى مجموعة من السكان المتجانسين الذين يعيشون متجاورين فى مكان واحد. وليس لهذه الكلمة فى اللغة العربية فى كنيستنا القبطية ترجمة. ومن المهم تحديد اسم لهذا المجال الرعوى للقس لاستخدامه فى التعامل اليومى الكنسى بين الأسقف والقسوس، ويمكن تسمية مجال خدمة القس باسم «رعوية» أى المجال الرعوى للقس. والقس يسمى «كاهن الرعية». فيقال رسم فلان قساً على مذبح كنيسة العذراء ليخدم رعوية منطقة كذا أو مدينة كذا أو حى كذا.

٢.كيف اختارت الكنيسة لقب «الأسقف»

وميزته عن لقب «القس»:

١ ـ فى المجتمع اليونانى القديم، كانت الوحدة الاجتماعية هى «المدينة» POLIS ذات الحكم المحلى الذاتى كأنها جمهورية قائمة بذاتها؛ بينما لدى اليهود كانت الوحدة الاجتماعية هى الجماعة العابدة فى «المجمع اليهودى». لذلك كان يوجد أحياناً فى «المدينة» الواحدة عدة «مجامع»، وبالتالى عدة مجالس شيوخ متعددة.

٢ ـ أما فى الكنيسة المسيحية، فقد اتخذت لنظام رعايتها:

أ ـ «المدينة POLIS» كوحدة أساسية (حسب النظام الرومانى) ويرأسها الأسقف،

ب ـ ويتبعها الجماعات المسيحية العابدة فى الأنحاء المتفرقة من أحياء المدينة (حسب نظام المجامع اليهودية). وكل جماعة من هذه الجماعات تسمى «الباريخيا Paroichia». وهذه يرأسها القسوس كمندوبين عن الأسقف.

حتى القرن الثانى الميلادى كان لقب «الكنيسة» أو «كنيسة الله فى مدينة كذا» مرادف

لمعنى «الكنيسة الجامعة» ، ولم يكن هناك أى رباط للتنظيم بين الكنائس المحلية بعضها والبعض، بل كانت كل كنيسة تدبر نفسها بمجمع قسوسها ويرأس هذه المجامع الأسقف.

٣ ـ وفى القرن الثالث بدأت الكنائس تحس باحتياجها إلى الاتحاد فيما بينها، ولكن دون أن تشكل تنظيماً اتحادياً (على نمط الاتحاد الرومانى بين ولايات الإمبراطورية الرومانية فى العالم التى كانت كل ولاية فيها تدبر نفسها ولكن تحت إمرة الإمبراطور الرومانى). وهكذا بدأت تظهر هذه الوحدة الكنسية بطريقة تلقائية بين الكنائس الأربع الكبرى: روما، الإسكندرية، قرطاجنة، أنطاكية.

٤ ـ وكان الأسقف هو المعتبر أنه الكاهن والمعلم لكل رعيته الذين سبق أن ولدهم جديداً من جرن المعمودية. وكان هو الذى يقيم ليتورجية الإفخارستيا بمعاونة كل الشمامسة ومحاطاً بكل القسوس، وهو الذى يناول الأسرار للشعب.

* ولكن ظهرت الحتمية التى واجهت الكنيسة بسبب الاضطهاد الجديد الذى أثاره ديسيوس وفاليريان على المسيحية، ثم نتيجة لموت الأسقف استشهاداً أو لنفيه أو لجوئه إلى مكان آمن، إذ وجدت كثير من الكنائس نفسها فى منتصف القرن الثالث محرومة من رئيسها الليتورجى السرائرى. فالقديس كبريانوس أسقف قرطاجنة كان غائباً عن كنيسته لمدة ١٤ شهراً. ولنفس السبب وفى نفس الفترة الزمنية كان أسقف الإسكندرية ديونيسيوس غائباً عن الإسكندرية. وفى نفس الوقت تقريباً ترملت كنيسة روما مرتين، وذلك لمدة عامين، بعد استشهاد اسقفها سيكستوس الثانى مع مجمع شمامسة الكنيسة الرومانية.

* ولأن الاحتفال الأسبوعى بالافخارستيا فى كل كنيسة كان أمراً حيوياً من أجل تجديد وتثبيت الحياة المشتركة للمؤمنين، أصبح واضحاً أنه يتحتم وجود مندوبين للأسقف فى الكنائس المختلفة للقيام بالخدمات الليتورجية والصلوات على الراقدين وتذكارات الشهداء والاهتمام بالمسجونين بسبب الإيمان (والذين يسمون «المعترفون»).

كل هذا جعل من القس أنسب من يمثل الأسقف فى الاحتفالات بإقامة الإفخارستيا فى أحياء المدينة، ولا عجب فالأسقف كان قبل رسامته قساً وعضواً فى مجمع القسوس.

* وفى مجمع نيقية المسكونى (سنة ٣٢٥م) والمعتبر المرجع لكل المجامع المسكونية

والمكانية اللاحقة، اعترف المجمع فى سياق نص القانون ١٨ أن القس معتبر ضمن الذين «يقدمون / يرفعون Prospherousi» القرابين.

* ولكن القس لم يعد فقط يتشابه مع الأسقف فى رفعت القرابين، بل وأيضا فى إجراء سر المعمودية، وكذلك فى سر المسحة المقدسة الذى كان يؤديه الأسقف وحده (بوضع اليد قبل شيوع المسح بالزيت المقدس).

* ويقول أحد الكتاب المسيحيين فى أواخر القرن الرابع هو أمبروزياستر (حوالى سنة ٣٨٠م): [إنه فى الإسكندرية وفى كل مصر حينما يكون الأسقف غير متواجد، يعطى القس سر المسحة المقدسة أو التثبيت].

* كما أنه بتداعى نظام الاعتراف العلنى والتوبة العلنية وتحولهما إلى اعتراف وتوبة سريين، أصبح للقسوس مسئولية إعطاء الحل عن الخطايا، بعد أن كانت قاصرة على الأسقف وحده.

* ويقول القانون ٤ من قوانين هيبوليتس: [الأسقف يساوى القس فى كل شئ، عدا الكرسى والرسامة، حيث أنه لم تمنح هذه السلطة للقس].

والكاتب المسيحى أمبروزياستر يوضح مزيداً من التفاصيل هكذا:

[كل من الآثنين (الأسقف والقس) هو الكاهن. ولكن الأسقف هو الرأس. فبالرغم من أن كل أسقف كان قساً قبل رسامته، ولكن ليس كل قس أسقفاً. لأن الأسقف هو الرئيس وسط مجمع القسوس. ويوضح الرسول أن تيموثاوس أنتخب ورسم «قسا» بوضع أيدى القسوسية، ولكن لأنه لم يوجد من هو أعلى منه رتبة، فقد كان معتبراً أنه هو الأسقف].

٤ ـ وفى القرن الرابع، وكما نقرأ فى كتاب التقليد الرسولى لهيبوليتس وفى رسائل القديس كبريانوس أسقف قرطاجنة، كان مجمع القسوس هو الأداة الجماعية فى يد الروح القدس. ومن ذلك التاريخ بدأ مركز القسوس يتثبت بالنسبة للأسقف: كل قس فى الموضع الذى رسم عليه. وهكذا منع قانونى ١٥ و١٦ من قوانين مجمع نيقية المسكونى (سنة ٣٢٥م) انتقال الأساقفة من الإيبارشيات التى رسموا عليها، وكذلك أمر أن القسوس يخدمون فى الكنيسة التى رسموا عليها حتى الموت. ودرجت المجامع الكنيسة الإقليمية على تقرير نفس المبدأ

أى تحريم انتقال القسوس من كنائسهم إلى كنائس أخرى، كما حرمت أن يستخدم أسقف قسوس أسقف آخر أو أن يقبل القسوس المتنقلين من مكان إلى مكان دون خطابات من أسقفهم (مجمع أنطاكية قانون ٣، مجمع سرديقا قانون ١٧، ١٨).

٥ ـ وابتداء من الربع الثانى من القرن الرابع، وبعد السلام الذى أرسى قواعده حول الكنيسة، ثم بسبب النمو السريع فى أعداد المنضمين للإيمان وازدياد بناء الكنائس، أصبح هذا الوضع (قيام الاسقف بممارسة كل الأسرار وحده) غير ممكن، وأصبح الحل الوحيد هو فى ازدياد مندوبى الأسقف فى أداء واجبات الأسقف الليتورجية.

وهكذا أوكل الأسقف بعض مهامه إلى القسوس.

٦ ـ وهكذا بدأنا نرى قسوس الكنائس يرسمون على مذابح الكنائس التى تقع فى دائرة إيبارشية الأسقف. فكان القس هو الذى يعلم ويخدم الأسرار للجماعة المسيحية البعيدة عن موضع كنيسة الأسقف المسماة« الكاتدرائية». كان الأسقف يزور الكنائس التابعة لإيبارشيته بين الحين والآخر باعتباره رئيس الكهنة ورئيس مجمع القسوس. ومن هذا الحين بدى فى إطلاق لقب «كاهن» على القس، كان هذا اللقب قاصراً على الأسقف وحده. وكان ذلك منذ النصف الثانى للقرن الرابع.

٧ ـ ولكن ظل الأسقف هو الذى يجرى سر المسحة المقدسة ويقوم بالرسامات الكهنوتية. وللقديس جيروم وصف فى إحدى رسائله للأساقفة وهم ينتقلون إلى ضواحى المدينة ليعطوا سر المسحة المقدسة للمعمدين الذين عمدهم القسوس.

٨ ـ وفى القرن الخامس استقر الوضع، فلم يعد الأساقفة هم الوحيدين الذين يعطون سر المسحة ، ولكن ظلوا هم وحدهم الذين يقومون بتقديم زيت الميرون الذى يستخدم فى سر المسحة. واقتصر إجراء الرسامات الكهنوتية عليهم.

نشأة وظيفة «الخوري إبيسكوبوس» أو أسقف (أو رئيس) القرية:

وكان على أسقف المدينة أن يوفر لكنائس القرى خداماً مولودين فى هذه القرى لكى يقوموا أساساً بأداء سر الإفخارستيا. ولكن لم يكن مسموحاً لهؤلاء برسامة الدرجات الكهنوتية

اللاحقة. وسمى هؤلاء «خورى إبيسكوبوس» أى أسقف القرية، وكان ذلك قرب منتصف القرن الرابع ـ فى مجمع سرديقا (سنة ٣٤٣). ولكن لم يكونوا معتبرين أساقفة بكل صلاحيات الأسقف، بل قسوساً ولكن بكرامة خاصة أعلى. وكانوا يسمون أحياناً «رئيس القرية».

على أن نظام الخورى إبيسكوبوس لم يكتب له الاستمرار بسبب المشاكل التى نجمت عن تداخل الاختصاصات بين أسقف المدينة ومن يتبعونه من الخورى إبيسكوبيين، فبدأ هذا الطقس يتوارى إلى أن اختفى نهائياً من الكنيسة بسبب المشاكل التى حدثت من جراء أى نظام يتعدد فيه أكثر من أسقف واحد فى الإيبارشية الواحدة.

أساس العلاقات الصحيحة السوية
بين الأسقف والقسوس

ومن هذا المنطلق والأساس الرسوليين لوظيفة كل من الأسقف والقس، يكتب القديس جيروم معلقاً على بعض آيات وردت فى سفر أعمال الرسل ورسائل الرسل ما قد يوحى يتبادل اسم الإسقف مع اسم القس، معلقاً التعليق الروحى العملى الذى يحدد أساس العلاقة بين الأسقف والقسوس، قائلاً:

[لذلك، فبينما يجب أن يعرف القسوس كيف يخضعون لمن أقيم رئيساً عليهم بحسب عادة الكنيسة، فليتذكر الأساقفة أنهم يرأسون القسوس بحسب عادة الكنيسة أيضا.. ولذلك فيجب أن يدبروا الكنيسة بالاهتمام المشترك، متشبهين بموسى الذى بالرغم من أنه كان يحوز السلطان أن ينفرد بالرئاسة فوق شعب إسرائيل، إلا أنه اختار سبعين شيخاً (بريزفيتروس)، ليساعدوه فى تدبير الشعب. (كما ورد فى سفر العدد ١١ : ١٦ وما يليه)].

القديس جيروم ـ فى تفسير رسالة تيطس (١ :٦ ـ٧).

بهذا التعليق الروحى للقديس جيروم، وعلى خلفية هذا العرض التاريخى الكنسى للعلاقة بين الأساقفة والقسوس، وليبرز درجة الأسقف من بين مجمع القسوس، يمكننا أن نعرض للأوضاع الصحيحة أولاً، ثم للمشاكل المعاصرة، التى تحيط بعلاقة الأسقف بالقسوس، وكيفية التصدى لها ومعالجتها.

ارتباط الرتبتين الأسقفية والقسوسية وتعاونهما معاً من أجل بنيان الكنيسة:

من حيث أن كنيسة الرعية (فى حى أو منطقة أو مدينة) تكون هى والكنائس الأخرى فى الإيبارشية الواحدة الكنيسة الواحدة، هكذا خدمة الأسقف وخدمة القسم تكونان معاً الخدمة الافتقادية والكهنوتية الواحدة التى أسسها فى كنيسته المقدسة الرب يسوع المسيح رئيس الكهنة الأعظم.

رتبة الدياكون

أولاً : جذور هذه الرتبة فى العهد القديم

الدياكونوس Diakonos كلمة يونانية معناها «خادم» أو «مساعد» ويقابلها فى الاستخدام اليهودى، فى العهد القديم:

١ ـ «خادم» المجمع، واسمه بالعبرية «خازان». وكان يقوم بمهام كثيرة تنوعت على مدى العصور وفى أماكن مختلفة:

* فكان يساعد فى طقوس العبادة،
* يعتنى بمبانى المجمع،
* يعلم الأطفال (معلم الأطفال ـ رومية ٢ :٢٠).

٢ ـ شبه الدياكون فى العهد الجديد، برتبة «اللاوى» فى العهد القديم:

وكانت مهام اللاوى كالآتى:

* خادم خيمة الاجتماع وأمتعتها (عدد ١ :٥٠)،
* خدمة رئيس الكهنة هارون (عدد ٥ :٣).
* حمد الرب وتسبيحه كل صباح وكل مساء (١ أى ٢٧ : ٢٣).

والقديس كلمندس الرومانى، وهو يعدد الرتب فى كنيسة الله يذكر «الدياكون» الذى يسميه «اللاوى».

ا للكاهن الأعظم ليتورجيته المختصة به ـ أى خدمته القانونية ودوره فى الخدمة الليتورجية،

- -

وللقسوس موضعهم TOPOS الخاص الذى تخصص لهم، وللاويين خدمتهم ـ دياكونيتهم ـ التى وضعت عليهم، وعضو الشعب ـ اللائيكون ـ محدد له طقوسه الخاصة. ليؤدى كل واحد منهم افخارستيته لله ـ أى يؤدى دوره المرسوم له فى الاحتفال الإفخارستى ـ ، دون أن يتعدى القانون المرسوم له].

الرسالة الأولى إلى كورنثوس ٤١ :٤٠

٢ ـ الشيوخ السبعون الذين عاونوا موسى النبى: ففى سفر العدد ٤ :١١ ـ ٣٢ (أحد الموضعين اللذين ذكرت فيهما قصة السبعين شيخاً مع موسى)، نقرأ كيف أن موسى تواجه مع الجمهور المختلطة أجناسهم الذين خرجوا مع بنى إسرائيل من مصر (وتسميهم ترجمة بيروت للعهد القديم «اللفيف»)، وهؤلاء كانوا من الأمم، أنهم اشتهوا أكل اللحم وطلبوه بإلحاح من موسى. فاشتكى موسى أمام الرب: «ألعلِّى حبلتُ بجميع هذا الشعب، أو لعلى ولدته حتى تقول لى احمله فى حضنك كما يحمل المربى الرضيع إلى الأرض.. من أين لى لحم حتى أعطى جميع هذا الشعب...».

فكلفه الرب تكليفين، أن يجهز الشعب لوليمة لحم معجزية من السماء، وأن يجمع للرب سبعين رجلاً من شيوخ إسرائيل، كما ورد فى الموضع الثانى لقصة الشيوخ فى سفر الخروج ١٨ ، لمعاونته فى تدبير الشعب.

وفى هذه القصة نجد مشابهة مع قصة اختيار الدياكونيين السبعة (كما وردت فى أعمال الرسل ٦) كالأتى:

* الأمم فى العهد القديم، وكذلك الأمم فى العهد الجديد، هم الذين تذمروا من جهة الطعام.

* اختيار صف جديد من الخدام ليعاونوا: موسى فى العهد القديم، والرسل فى العهد الجديد.

٤ ـ الخادم اليهودى، فى الوليمة الدينية (والمسماة «الشابوراه») فى البيت اليهودى، والتى فيها أسس الرب يسوع المسيح سر الإفخارستيا يوم خميس العهد. وخادم الوليمة هذا كان يؤدى المهام الآتية:

* يصب الماء على أيدى الضيوف ليغسلوا أيديهم مستخدماً إبريقاً وطستاً ومنشفة.

* يقدم الخبز لرئيس المحفل ليكسره.

*يمزج الخمر ليباركه رئيس الوليمة.

* يوزع الطعام والشراب على ضيوف الوليمة.

* ورئيس الوليمة كان غالباً هو أب الأسرة، وكان له امتيازات شرفية تختص بهذا الوضع. أما خادم الوليمة فكثيراً ما كان أحد الشباب من أعضاء الجماعة المجتمعة، وأحياناً كان أحد تلاميذ «الرابى» أو «المعلم» اليهودى(*).

٥ ـ البارناسيم (جمع بارناس بالعبرية): وهؤلاء كانوا يقومون بخدمة إطعام الفقراء اليهود فى بعض الأماكن داخل أورشليم. وكان عددهم سبعة فى كل مجمع..

من هذه الخدمات الخمس فى العهد القديم، أخذ الدياكون فى العهد الجديد مهامه كما سنرى، وأصبح له مكانته ومكانه داخل المثلث الكهنوتى المسيحى.

الدياكون والدياكونية فى العهد الجديد (المعنى العام):

لقد أطلقت كلمة «دياكونوس» فى كتابات العهد الجديد على أشخاص عديدين: «الساقى» (يو ٥:٢)، والموظفين الحكوميين (رو ٤ :١٣)، وعلى تلميذ المسيح (متى ١١ :٢٣)، وعلى حامل الرسالة (كو ٧ : ٤ ,١ تس ٢ :٣)، والمبشرين والمرسلين (١ تى ٦ :٤ ,٢ كو ٢٣ : ١١)، بل وعلى الرسل أنفسهم (متى ٢٦ : ٢٠ ، ٢ كو ٦ :٣)، ثم أطلقت على المسيح نفسه أنه «خادم الختان» Diaconon (رومية ٨ :١٥).

الدياكون والدياكونية (فى الاستعمال الكنسى):

صار لكلمة «دياكونوس» معنى كنسى فى العبادة وترتيب الكهنوت.

(*) «الرابى» أو «الربان» بالأرامية (تعنى المعلم). و«ماران» تعنى السيد. وهذه الألقاب هى أعلى ألقاب التكريم للمعلمين اليهود. وقد استخدمها المسيح فى وصف نفسه حينما قال: «إن كنت وأنا المعلم (المرابى) والسيد (ماران) قد غسلت أرجلكم.. «الخادم» (دياكونوس) ليس أعظم من سيدة، ولا الرسول (السليح) أعظم من «مرسله» (يو ٤ : ١٣).

---

١ ـ فقد ذكرت فى ديباجة الرسالة إلى فيليبى «إلى أساقفة وشمامسة» (فى ١ :١)، وفى الرسالة الأولى إلى تيموثاوس عن شروط وكفاءات «الشمامسة» (١تى ٨ :٣ ـ ١٣). وقد اقترن اسم الدياكونوس بالأساقفة فى كثير من مراجع ترتيب الكنيسة، مثل الديداخيه (القرن الثانى): «انتخبوا لأنفسكم أساقفة وشمامسة» (الديداخيه فصل ١٥)، رسالة كلمندس (النص السابق ذكره: ٤٢)، كما ورد اسم الشماس الدياكونوس مقترنا بالقسوس /البريزفيتروس كما فى رسالة بوليكاريوس (القرن الثانى) ٢ :٥) وكتاب «الستروماتا» للعلامة كلمندس الإسكندرى ١٠ : ١٢ : ١٣، ٣ : ١ : ٧٢.

٢ ـ و«الدياكونيا» هى «الخدمة». وقد أوضح المسيح أن معيار الحكم على أية موهبة من مواهب الروح القدس هى أن تؤدى بروح اتضاع الخدمة والخدام، كما عبر عن ذلك المسيح نفسه بقوله: «إذا أراد أحد أن يكون أولاً، فيكون... خادماً Diaconus للكل» (مر ٩ :٣٥).

٣ ـ ومن بعد المسيح وعلى هدى تعليمه، يصف القديس بولس عمل إستفاناس هكذا: «وأطلب إليكم أيها الأخوة، أنتم تعرفون بيت استفاناس أنهم باكورة أخائية. وقد رتبوا أنفسهم لخدمة (دياكونيا Diakonia) القديسين. كى تخضعوا أنتم أيضا لمثلم هؤلاء ولكل من يعمل معهم ويتعب» (١كو ١٦ : ١٥ ـ ١٨).

* والقديس بولس هنا أمين لروح الإنجيل ولكلمات المسيح. ولكى تتحقق هذه القاعدة المختصة بمن يخدم، يجب أن يقابلها من المخدومين الطاعة الإرادية الحرة له. فكما رتب إستفاناس نفسه هو وأهل بيته لدياكونيا «خدمة» القديسين، هكذا أيضا بالمقابل يجب على الباقين أن يخضعوا لهم ولتوجيهاتهم.

* من جهة أخرى، فإذا كان إستفاناس قد نال كرامة الرئاسة على كنيسة كورنثوس، فإن أهل بيته اعتبروا أنهم «دياكونيون» أى «خداما» ، لأنهم أعطوا أنفسهم لخدمة «الدياكونيا».

٤ ـ ثم نقرأ فى مقدمة رسالة فيليبى توجيه الرسلة: «إلى جميع القديسين فى المسيح يسوع.. مع أساقفة وشمامسة» (فى ١ :١).

ومن هنا بدأ تلقيب القائمين بالخدمة الدياكونية بـ «دياكون». ومرجعنا هنا هو رسالة القديس كلمندس الرومانى أسقف رومية بعد ٤٠ سنة من كتابة رسالة فيليبى. إذ يذكر قارئية

برسالة القديس بولس إلى أهل كورنثوس، فيذكر أن الرسل عينوا «باكوراتهم» (جمع باكورة ـ أى أوائل الذين آمنوا فى كورنثوس) أساقفة وشمامسة. والشمامسة موصوفون فى الرسالة إلى كورنثوس أنهم أبناء الأسقف إستفاناس. وفى نفس الرسالة نجد نفس الوضع الوسولى فى مكان آخر فى كنائس آسيا:

ـ «أكيلا وبريسكلا مع الكنيسة التى فى بيتهما» (١كو ١٦ : ١٩).

* فأهل بيت أكيلا وبريسكلا كانوا يؤدون خدمات متعددة Diaconioe للكنيسة المجتمعة هناك. ومن بين هذه الخدمات الواجبات الليتورجية للشمامسة، مثل إعداد الخبز والخمر للإفخارستيا. فإن كان أكيلا هو الذى يرأس الكنيسة، فأهل بيته هم الذين كانوا يؤدون خدمة الدياكونيا.

* ولكن فيما بعد، وبعد أن اتسع نطاق المؤمنين، وتم ترتيب الأمور لتأخذ الوضع التنظيمى الأكمل، لم يعد الشمامسة هم أهل البيت (الذى فيه الكنيسة)، بل اختيروا من أعضاء الكنيسة.

٥ ـ ونفس الوضع نجده فى كولوس : فليمون كان عنده كنيسة فى بيته (رسالة فليمون ١ ,٢). ولقد تلقى ابنه «أرخبس» كلمة تشجيع من القديس بولس فى سياق رسالته إلى أهل كولوسى:

* «وقولوا لأرخبس انظر إلى الخدمة (الدياكونيا) التى قبلتها فى الرب لكى تتممها» (كو ٤ :١٧).

«فالخدمة» التى قبلها أرخبس فى الرب هى بلا شك خدمة «الدياكونيا».

٦ ـ فإذا رجعنا إلى ١كو ١٦، لنقرأ عن الكنيسة التى فى بيت أكيلا وزوجته الفاضلة بريسكلا، فإذا كان أكيلا هو رئيس الكنيسة هناك، فإن زوجته لا شك صارت هى «شماسة» «دياكونوس Diaconus» الكنيسة فى أفسس.

* وهذا هو نفس اللقب المعطى لشماسة أخرى اسمها «فيبى» ذكر اسمها فى ديباجة الرسالة إلى رومية (١٦ :١): «أختنا فيبى التى هى خادمة (دياكونوس) الكنيسة التى فى كنخريا».

* وقد وصف عملها بالتحديد أنها «مساعدة (أو معاونة Prostatis) لكثيرين ولى أنا أيضا» (رو ١٦ :٢). وكلمة Prostatis التى يصف بها بولس الرسول عمل فيبى (مساعدة) أصبحت تستخدم لوصف علم الشمامسة عموماً وأنهم «معاونون» للأسقف (الدسقولية ٧).

المسيح الدياكون الأول والنموذج والقدوة:

وقد سمى الرب يسوع المسيح نفسه بالخادم. وبالرغم من النبوة القديمة عن المسيح التى وصفته بأنه «الخادم Pais والعبد Doulos للرب» (إش ٤٢ : ١)، إلا أن الأناجيل استخدمت كلمة دياكونوس Diaconus ، لتعبر عن المسيح كخادم خلاص البشر.

٢ - وفى إنجيل لوقا ١٢ : ٣٧، فى مثل العبيد الساهرين، نقرأ أن السيد بعد أن يعود من العرس هذا المثل رمز لشخص المسيح نفسه، الذى تمنطق وخدم تلاميذه ليلة خميس العهد.

٣ - ثم فى العشاء الأخير، يوم خميس العهد، وصف الرب يسوع نفسه بأنه «كمن يخدم» Diaconon. لذلك فلا عجب إن كان القديس إغناطيوس الأنطاكى (القرن الثانى) يعلق على وصف المسيح لنفسه بأنه «دياكون - أى خادم» قائلاً:

[لقد وضع نفسه، وخدم «Diakonon» الأثنى عشر. لذلك فالدياكونيون يمثلون تواضع المسيح] - الرسالة إلى مغنيسيا ٦.

* نعم، «الدياكون» هو صورة تواضع المسيح وإخلائه لذاته. فأية رسالة خطيرة ومهمة سامية يحملها الدياكون وسط رتب الكهنوت فى الكنيسة!!

رتبة الدياكونية : بين دياكونية الموائد ودياكونية الكلمة:

كما يظهر من نشأةرتبة الدياكونية (كما وردت فى سفر الأعمال ٦ :١ - ٦)، أنها خدمة موائد أى جمع وتوزيع أموال على أرامل اليونانيين اللواتى كان يغفل عنهن أثناء التوزيع على المسيحيين الذين كانوا يهوداً. وقد نشأت فكرة هذه الدياكونية بعد تذمر المسيحيين اليونانيين، فطلب الرسل من التلاميذ (أى جمهور المؤمنين) أن ينتخبوا سبعة من ذوى الأصل اليونانى ليقوموا بهذه الخدمة، ليكونوا أقدر على تفهم والتفاهم مع هؤلاء المسيحيين.

وقد قال الرسل فى حيثيات تأسيسهم لطقس الدياكونية: «وأما نحن فنواظب على الصلاة وخدمة (دياكونية Diakonia) الكلمة» (أع ٦: ١ ـ ٦).

أ ـ خدمة (دياكونية) الموائد ويختص بها الدياكونيون الجدد.

ب ـ وخدمة (أو دياكونية الكلمة) ويختص بها الرسل.

ولكن إن كان الرسل الإثنا عشر قد امتنعوا عن الدياكونية الأولى دياكونية الموائد، إلا أن الدياكونيين الجدد لم يمتنعوا عن الدياكونية الثانية أى خدمة الكلمة.

فيذكر سفر أعمال الرسل أن استفانوس كان مملوءاً إيماناً وقوة، وكان يصنع عجائب وآيات عظيمة فى الشعب، وكان يتكلم حكمة بالروح القدس (أع ٦: ٨، ١٠، وإصحاح ٧). ثم اختتم شهادته بالكلمة بشهادته بالدم بعد أن صلى وطلب المغفرة لراجميه، وبعد الرؤيا السماوية التى رأى فيها: «السماء مفتوحة وابن الإنسان جالساً عن يمين العظمة».

فخدمة (دياكونية) الموائد لا تعنى استبعاد خدمة الكلمة وغياب مواهب الروح القدس. فالدياكونيون هم خدام كلمة، وصانعوا آيات، وعجائب عظيمة، ومعلمون، وكارزون لا يقلون فى كرزاتهم عن الرسل. وأمامنا مثل فيلبس الذى بشر السامرة، ومهد لكرازة القديسين بطرس وبولس اللذين تبعاه إلى هذا المكان. ثم بشر وزير كنداكة ملكة الحبشة. وكانت هذه الكرازة فاتحة وتمهيداً لإنتشار المسيحية إلى كل مملكة أثيوبيا فى القرن الرابع.

رتبة «الدياكون» وتطور وضعها خلال الأجيال

الدياكونوس فى القرون الأولى (القرون الخمسة الأولى)

أدى الدياكونوس فى القرون المبكرة للمسيحية مهام متعددة:

١ ـ فقد كان يوزع الإفخارستيا فى احتفال يوم الأحد (بوستين، الاحتجاج الأول: ٦٧).

٢ ـ وكان يعاون فى بعض الأعمال الليتورجية الأخرى مثل المعمودية ووليمة الأغابى (التقليد الرسولى ٢١، ٢٦): [(فى أثناء خدمة المعمودية) الشماس يحمل زيت الاستحلاف ويقف على يسار القس، ويأخذ شماس آخر زيت الشكر ويقف على يمينه.. الشماس يلقن المعمد قانون الإيمان] ـ قانون ٣٣ من قوانين الرسل الـ٧١.

٣ ـ كما كان يقوم بدور ضابط النظام بين المصلين داخل الكنيسة أثناء القداس الإلهى (الدسقولية ١٠ : ٢٩)، ويحرس الأبواب (الدسقولية ١٠ :٢٣).

٤ـ كما كان يخدم الأعمال الخيرية للكنيسة تجاه الأرامل والأيتام (هرماس، الراعى، الأمثال ٩ : ٢٦ : ٢). وكان أحياناً يرعى ويعتنى بالمرضى [يعرفوا الأسقف من هو المريض لكى يفتقده] (هيبوليتس قانون ٣٤، المراسيم ٢ :٣٢: ١).

٥ ـ كما كان يكلف كمرسل إلى الكنائس الأخرى (رسائل القديس أغناطيوس: فيلادلفيا ١٠، أزمير ١٢).

٦ ـ ويؤدى خدمات روحية للمعترفين أثناء سجنهم المنتظرين استشهادهم (كما فى قصة استشهاد بربتو ٢، ٦، ١٠).

٧ ـ وكان يدير ممتلكات الكنيسة (القديس كبريانوس ـ الرسالة ٥٢ :١).

٨ ـ وأحياناً كان الدياكونيون يأخذون مسؤلية دفن الموتى (التاريخ الكنسى ليوسابيوس ٧: ١١ :٤٢). وفى روما عين أحد الدياكونيين على كنيسة المدافن (كتاب الهرطقات لهيبوليتس ٩ك٧).

٩ ـ والدياكون مرتبط بالأسقف، يخدمه وينفذ تعليماته، ويقدم له التقارير عن الحال الروحية للشعب (التقليد الرسولى ٩ :٢، ٣٠ ـ قانون ٢٣ من القوانين ٧١). ولذلك فهو يسمى «أذن» و«عين» و«فم» الأسقف (الدسقولية ٨: ٥٠). وهو على اتصال دائم بالشعب ،يحذرهم ويعظهم، ويبحث عن المحتاجين منهم، ولا يأخذ بوجه الأغنياء (الترتيب الرسولى ٢٠ : ٢٢)، (قانون ١٥ من القوانين٧١).

١٠ ـ كان يحمل الرسائل الأسقفية (التاريخ الكنسى ليوسابيوس ٦ :١٩ :١٩)، ويكلف بمهام قصيرة أو بنقل رسائل شفوية من الأسقف (القديس أثناسيوس، الاحتجاج ٦٧). وكان يحضر مع الأساقفة للمجامع، أو قد يمثل الأسقف فى حضور المجمع (التاريخ الكنسى ٦ : ٤٣ : ٢، ٧ : ٢٨ : ١) (سوز ومين ٤ : ١٦ : ١٦).

١١ ـ يبشر ويعظ ـ مجمع أنقرا (سنة ٣١٤م) قانون ٢.

١٢ ـ يعـاون فى المحـاكم الكنسيـة «مـجـالس الحكـم» (المراسـيم الرسـوليـة ٢ : ٤٧ : ١)، الدسقولية: ٨.

١٣ ـ له دور مهم فى رعاية الخطاة التائبين الذين يفرزون من الكنيسة أثناء فترة فرزهم:

[وليطلبوه (الخاطئ الذى أخرجه الأسقف من الكنيسة كتدبير من أجل قبوله بعد ذلك)، ويمسكوه خارج الكنيسة، وليدخلوا فيسألوك من أجله (أى الشمامسة يتشفعون من أجله أمام الأسقف) لأن المخلص كان يسأل أباه من أجل الذين أخطأوا كما كتب فى الإنجيل : «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعرفون ما الذى صنعوه»] ـ المراسيم ٢ : ١٦ : ١ والدسقولية ٤ :٥.

١٤ ـ وفى القداس الإلهى يمارس أعـمالاً هامة وكـثيـرة، ويسـمـيـه القـديس ايسيـدوروس البـيليـوزى [دياكون «خادم» المذبح المقدس] ـ رسـالة ٤ : ١٨٨، كمـا يسـمـيـه القـديس إغناطيوس الأنطاكى [خادم أسرار يسوع المسيح] ـ ترال ٢ : ٣.

ومن خدماته داخل الكنيسة أثناء الاحتفال بسر الافخارستيا:

١ ـ إعداد المذبح قبل بدء القداس الإلهى.

٢ ـ تلاوة الإنجيل (المراسيم ٢ : ٥٧ : ٧، الدسـقـوليـة ١٠ : ٢٠) ـ يقـول سـوزومين المؤرخ الكنسى أنه فى الاسكندرية كان الأرشى دياكون وحده هو الذى يقرأ الأنجيل، أما فى غير ذلك من المواضع فكان الدياكونيون هم الذين يقرأون (سوزومين ٧ : ١٩ : ٦).

٣ ـ يعلن تعليمات العبادة للمصلين:

* يحذر المتخاصمين ويأمرهم أن يتصالحوا قبل التناول:

[فليكن الشماس واقفاً بجانبكم (يوجه الكلام للأساقفة) وليقل بصوت عظيم: «لا يترك أحد بينه وبين أخيه لائمة ولا غشاً ولا رياء»] ـ (المراسيم ٢ : ٥٤ ١١؛ الدسقولية ٩ : ٥).

* والموعوظون غير المتعمدين للخروج قبل بدء قداس الموعوظين. [وليصرخ شماس آخر: «لا يقف هاهنا موعوظ ولا يكن هنا أحد سامع الوعظ لا يشارك فى السرائر. ولا أحد غير مؤمن ولا أحد منشق. إمسكن أيتها النساء أولادك. لا يدع أحد فى قلبه وجداً لأحد. ولا يقف

أحد هنا برياء. كونوا مستقيمين بالرب. وليقف كل واحد بخوف ورعدة] ـ قوانين الرسل الكتاب الخامس بيد إقليمس (اكليمنضس).

* ويعلن موضوعات الصلاة (أى مردات الأواشى) ـ(الدسقولية ١٠ : ٣٦.

* ويدعو إلى السكوت والانتباه والإنصات قبل القراءات الكنسية ـ الدسقولية ١٠ : ٣.

* ويدعو إلى القبلة المقدسة.

* ويعطى التسريح من الكنيسة للانصراف فى نهاية القداس:

[ثم يناول الشماس الكأس ويقول : هذا هو دم المسيح هذا هو كأس الحياة. ويقول متناوله: أمين. ويرتلون إلى أن يتناول جميعهم. وإذا تناولوا جميعهم، فيتناول النساء.

وعند فراغ المرتل مما يسبح، يصيح الشماس ويقول: نلنا من الجسد الكريم الذى للمسيح، فلنشكر الذى أهلنا أن نشارك فى سرائره المقدسة الكريمة. وبعد ذلك يصلى الأسقف ويشكر على النيل من جسد المسيح والشرب من دمه.

فإذا فرغ مما يصلى، يقول الشماس: إحنوا رؤوسكم قدام الرب ليباركم. وإذا فرغوا مما يتباركون به، يقول الشماس: امضوا بسلام (يقولها الكاهن الخديم الآن)] ـ قوانين الرسل الكتاب الخامس بيد إقليمس (اكليمندس).

* يأتى بالقرابين (الخبز والخمر) إلى الكاهن المحتفل بسر الافخارستيا وقت التقدمة (التقليد الرسولى ٢٣ : ١ ، قانون ٣ : ٢٠). ويقف بجانب القرابين على المذبح وبيده المراوح ليطرد الهوام الطائرة عن الكأس المقدس (قوانين الرسل ٥٢).

* يحضر الماء للأسقف والقسوس فى المذبح ليغسلوا أيديهم.

* كان يناول الشعب (يوستين الشهيد ـ الدفاع الأول ٦٥ : ٥).

* ويناول الكأس: يضع هيبوليتس فى قوانينه هذه المهمة هكذا، أنه عند شركة الإفخارستيا أيام الآحاد.

[فإن القسوس إن كان عددهم لا يكفى فإن الشمامسة أيضاً يناولون الكأس]

التقليد الرسولى XXIII,5 وقانون ٥٢ من القوانين الرسولية (الـ٧١).

وعلى أساس هذا الطقس يصف القديس الشهيد إغناطيوس الأنطاكى (القرن الثانى الميلادى) الدياكونيين أنهم:

[خدام «Diaconus» أسرار يسوع المسيح، وأنهم ليسوا مجرد خدام طعام وشراب، بل هم خدام «الكنيسة ـ الإكليسيا»] ـ الرسالة إلى ترال ١٥.

١٥ ـ وفى إقامة الأساقفة ورساماتهم، الدياكون هو الذى يعلن ويؤكد إرادة الشعب فى اختيار راعية ويأتى بالمرشح إلى الأساقفة لكى يرسموه، ويضع الأناجيل فوق رأسه أثناء الرسامة (المرسيم ٨: ٤: ٦).

١٦ ـ كان الدياكون يكلف أحياناً بمهام أخرى فى الكنيسة، مثل رئاسة دير، ويسمى القديس كيرلس الكبير شماساً اسمه «مكسيموس» بهذا اللقب [الارشمندريت جزيل التقوى الدياكون مكسيموس] رسالة ٦٩.

١٧ ـ ويشبه الدياكون بعريف الملاحين فى السفينة الذى يراقب الجاديف على الجانبين (رسالة كلمنضس الرومانى ١٤)، (المراسيم ٢: ٥٧: ٢)، أو «النوتى» كما سمته الدسقولية بالنسبة للأسقف كمدبر السفينة.

هذه هى مهام الدياكون المتعددة، بعضها توقف إسناده إلى الدياكون لعدم رسامة دياكونيين مكرسين. وبعضها أو كل إلى الأساقفة والقسوس. وبعضها يقوم به الآن من يطلق عليهم خطأ اسم «شمامسة» مع أنهم مقامون أغنسطسين أو أبصلتسين غير متفرغين لخدمة الكنيسة.

وتجد فى الدسقولية الفصل السابع واجبات الشمامسة بالتفصيل.

التغيرات التى حدثت فى رتبة الدياكونية:

لقد عبرت رتبة الدياكون خلال مراحل متنوعة من التغيير:

١ ـ فدياكونيو ما قبل مجمع نيقية (عام ٣٢٥)، كانوا مجموعة من «المعاونين» وعددهم ٧ عادة، ملتحقون شخصياً بخدمة الأسقف بمقتضى مهامهم. بهذه الصورة كانوا يشكلون أهمية كبيرة فى الكنيسة، كمنفذين حقيقيين للقرارات التى يتخذها الأسقف والقسوس.

٢ - وفى القرن الثانى والقرن الثالث وحتى القرن الرابع، كثيراً ما كان الأرشى دياكون هو الذى ينتخب، وليس أحد القسوس، ليخلف الأسقف المتنيح فى كرسيه، لأن إحاطة الأرشى دياكون بأحوال الكنيسة باعتباره الساعد الأيمن للأسقف ميزه لأن يكون أكفأ من يخلف أسقفه.

٣ ـ وفى نهاية القرن الرابع، كثر عدد الدياكونيين وانتشروا فى كنائس الإيبارشية، والتحقوا بخدمة القسوس فى الكنائس المنتشرة كمعاونين للقس فى مهامه الليتورجية والرعوية.

* وعندنا نموذج رائع لمركز الدياكون فى الكنيسة القبطية فى القرن الرابع ـ وهو القديس أثناسيوس الرسولى الذى كان دياكونا أو أرشى دياكوناً، ورافق الباب الكسندروس البابا التاسع عشر فى عداد البابوات الأقباط، إلى مجمع نيقية المسكونى (سنة ٣٢٥م) حيث كان الساعد الأيمن لباباه فى المجمع. وكان له دور رائد فعال فى صياغة دستور الايمان الذى أصدره المجمع. وبعد نياحة البابا ألكسندروس، أجمع الشعب على اختيار الدياكون أثناسيوس بابا للاسكندرية.

٤ ـ وحتى القرن العاشر، كانت رتبة الدياكون بكامل مواصفاتها مازالت قائمة بكل مهامها فى الكنيسة القبطية. فالأنبا ساويرس ابن المقفع (حبرية البابا إفرآم السريانى من ٩٧٥ ـ ٩٧٩م)، حدد واجبات الشماس (الدياكون) هكذا:

[وله فى رتبته حمل كأس دم المسيح..

وله قراءة الانجيل على الأنبل (النطق العربى للكلمة القبطية Anbon وتعنى منبر) ، إذا لم يقرأه القس..

وعلى الشماس أثناء الصلاة والقداس تبليغ الشعب وإنذارهم] ـ كتاب ترتيب الكهنوت ١٣

بدء ضمور رتبة «الدياكون»:

يرصد العالم القبطى يسى عبد المسيح بدء ضمور رتبة الدياكون فى الكنيسة القبطية من القرن الرابع عشر أو قبل ذلك.

إذ نجد فى كتاب «مصباح الظلمة فى إيضاح الخدمة» لابن كبر (القرن ١٤) أول إشارة

- -

إلى رسامة «شمامسة صغار السن» . إذ يقول ابن كبر: [وأجازوا (الآباء) قسمة الشمامسة صغاراً]. وغير معروف معنى رسامة «شمامسة» «صغار»، لأن السن التى اشترطتها القوانين الكنسية للرسامة أن لا يقل عمره عن ٢٥ سنة، وأن يكون زوج امرأة واحدة مدبراً أولاده وبيته حسناً (١ تى ٣: ١٢).

و يرجع العالم يسى عبد المسيح هذه العادة الجديدة إلى الاضطهاد والتهاون فى التمسك بالقوانين.

سبب آخر: التغيير فى النظرة إلى درجات الكهنوت:

إلا أن هناك عاملاً آخر، قد يكون هو الذى أدى بطريقة غير مباشرة إلى ضمور هذه الرتبة. وهو دخول فكرة «التدرج السلمى» بين رتب الكهنوت، ثم تبعها مفهوم «الترقية» بين هذه الرتب من رتبة إلى رتبة «أعلى»، وذلك منذ أواخر القرن الرابع. ولشرح ذلك يقول:

١ ـ ففى المرحلة ما قبل مجمع نيقية (عام ٣٢٥م) كان النظر إلى رتب الكهنوت المختلفة: الأسقفية، القسوسية، الدياكونية قائماً على مبدأ «العضوية فى جسد المسيح». فكل رتبة كانت تؤدى واجباً وتمارس سلطاناً لتكميل مهمة محددة، (تسمى فى الطقس الكنسى «ليتورجية» حسب التعبير الكنسى الوارد فى قوانين الكنيسة)، فى إطار جسد الكنيسة الواحد المتماسك القائم بعضه بالبعض. وكل رتبة كانت ضرورية من أجل اكتمال وسلامة عمل الجسد الواحد، وهى تأخذ وضعها كعضو فى الجسد كله، ودون مقارنته بالنسبة للرتب الأخرى (ولكن دون إغفال مبدأ إعطاء الكرامة الواجبة لكل رتبة حسب كرامتها). فإذا أختير واحد لرتبة الأسقفية، فكان يرسم أسقفا دون الحاجة إلى رسامته أولاً دياكوناً ثم قساً. وهكذا رسم الشماس أثناسيوس الرسولى أسقفاً للأسكندرية، وعضو الشعب («العلمانى» كما يقولون) كبريانوس أسقفا لقرطاجنة دون أن ينال أى منهما وضع اليد للرتب الأسبق.

٢ ـ و لكن بعد مجمع نيقية دخلت ممارسة هذا التدرج السلمى فى الرسامة إلى الرتب الكهنوتية، ربما بسبب التعدي فى حدود مسئوليات بعض أصحاب الرتب على مسؤليات الرتب الأخرى. وبمرور الزمن، أدى هذا الاجراء إلى فهم أن كل رتبة تحوى فى داخلها

سلطان الرتب الأخرى (هذا السوء فى الفهم أدى عند الكنيسة الرومانية إلى إمكانية إقامة قداس إلهى بواسطة الكاهن دون الحاجة إلى وجود شماس وشعب باعتبار أن الكاهن يحوز فى نفسه بمقتضى الرسامة رتبة الشماسية والشعب. لكن فى الكنيسة القبطية مازال الفهم الصحيح لتنوع ولزوم رتب الكهنة الثلاث على أنها عضوية فى جسد الكنيسة قائماً، إذ لا يمكن الاستغناء عن حضور رتبة من رتب الكنيسة الثلاث (الكاهن، الشماس، الشعب) لإقامة قداس إلهى قانونى. وهذه مأثرة من مأثر الكنيسة القبطية فى حفظ روح التقليد الكنسى القديم.

٣ ـ وبعد القرن الخامس وبسبب الانشقاقات والصراعات المذهبية بين رؤساء الكنائس إثر مجمع خلقيدونية (سنة ٤٥١م)، أدى هذا الصراع ضمن ما أدى، إلى الفتور الروحى الذى صاحب هذه الإنشقاقات، مما أدى بالتالى إلى آثار كثيرة فى مفاهيم رتب الكهنوت ودرجاتها المختلفة، فتحولت النظرة إلى الدياكون على أنه أقل من القس أو أدانى منه فى الكرامة، وليس خادماً مكملاً فى خدمته لخدمة القس وخدمة الأسقف، وسادت نفس النظرة على علاقة القس بالأسقف، وعلاقة الأسقف الكرسى الرسولى المتقدم بين الأساقفة، ومحاولة جعل الرسامة إلى رتبة أسقفية الكرسى الرسولى المتقدم «ترقية» «يرقى» إليها أسقف سبق أن قسم على إيبارشية أخرى وكأن رتبة البطريرك أعلى من رتبة الأسقف. وفى الغرب تطور هذا التغير فى المفاهيم إلى حد تشويه العلاقة الأخوية بين بطاركة المسكونة الخمسة، فتغير مفهوم «الأولية فى المحبة» بين هؤلاء البطاركة إلى مطالبة بابا روما بجعلها «رئاسة بالقانون» على البطاركة الأربعة الآخرين.

٤ ـ وكما أدى تحول النظرة إلى التدرج السلمى لرتب الاكليروس، إلى النظر إلى الرسامات أيضا على أنها «ترقية» وليست «دعوة» و«انتداب» و«تكريس» كما يسميها كتاب «الرسامات» (الأفخولوجيون ـ طبعة رومية)، حيث لم تذكر كلمة «ترقية» إطلاقاً فى أى من نصوص صلوات الرسامات؛ هكذا انطبع مفهوم «الترقية» على تعامل «الشمامسة» مع رتبتهم. فأصبح من يسمون «الشمامسة» يطمحون إلى «الترقية» إلى رتبة البريزفيتروس / القس، كمكافأة لهم على جدارتهم فى حفظهم صلوات القداس وإتقانهم للألحان وجودة صوتهم وهذا الاتجاه أثر بدوره على رتبة القسوسية، إذ تركز الاهتمام فى اختيار وانتخاب

القس على جودة الصوت دون كفاءة ووقار الشخصية والذى يسميه القانون الكنسى «زى الشيوخ» أى حكمة وسمات الشيوخ، وغيرها من مؤهلات وكفاءات هذه المرتبة الجليلة.

٥ ـ وليس أدل على صحة هذا التحليل، من وضع رتبة «القسوسية» حالياً التى تثبتت على أنها الخدمة الكهنوتية الأكمل والأكثر نشاطاً، والتى لم تشهد ضموراً أو انحساراً مثل رتبة الشماسية / الدياكونية. وذلك يرجع فى المقام الأول إلى إغلاق باب «الترقية» أمام القسوس ليصيروا أساقفة، بسبب أن القس لابد أن يكون متزوجاً بينما الأسقف لابد أن يكون متبتلاً. وهكذا أصبحت استحالة «الترقية» سبباً فى الحفاظ على رتبة القسوسية وصونها من الضمور، بل جعلها هى الرتبة السائدة والحاملة لعبء الخدمة فى الكنيسة أكثر من أية رتبة أخرى.

٦ ـ أما رتبة «الأسقفية»، وفى خضم هذا التغيير فى المفاهيم وقيام رتبة القسوس بأكبر قسط فى الخدمة أخذت وضع الرئاسة والسلطة الإدارية العليا على القسوس (وخفت بالتالى دور مجمع القسوس حول الأسقفية فى المشاركة مع الأسقف فى إصدار القرارات وفى ممارسة الرعاية فى الإيبارشية). وقد أدى هذا الوضع الجديد للأسقفية بما تغلبت عليه الروح الرئاسية وممارسة السلطان الأسقفى، المجرد عن الاتحاد بالكنيسة جسد المسيح وصفة التمثيل لشعب الله فى موضع ما، إلى ظهور ما يسمى بالأسقف على غير إيبارشية وشعب، والذى يمارس سلطات الأسقفية دون أن يكون له الصفة السرائرية كرأس لجسد الكنيسة فى موضع ما.

٧ ـ و فى هذا الإرتباك فى آلية الرعاية فى الكنيسة، ضمرت رتبة «الدياكونية». فبعد أن كان يقوم بها رجال متخصصون مكرسون متفرغون، يحسون ويعتزون بكرامة رتبتهم وثبات وضعها ضمن رتب الكهنوت، وبعد أن كان «الدياكون» نادراً ما يدعى حتى ليكون قساً / بريزفيتروس؛ أصبح الآن الذين يقومون ببعض أعماله أعضاء من شعب الكنيسة غيرمكرسين للخدمة الدياكونية، واختزلت بعض المهام الأخرى إلى مجرد المعاونة فى الخدمة الليتورجية داخل القداس الإلهى عدة ساعات فى يوم أو أكثر من أيام الأسبوع، مثل ترتيل الألحان والقاء المردات والنداءات المنوط بالدياكون أداؤها. وبعد ذلك سمح

للصبية الصغار بأداء هذا العمل، وأطلق عليهم اسم «شمامسة» بالرغم من أن الدرجة التى أقيموا عليها، (بغير رسامة ووضع يد)، هى «الأغنسطس» أو «الأناغنوستيس» أى القارئ، أو «الأبصالتس» أى «المرتل». وبهذه الصورة تدنت صورة «الدياكون» (وحتى صورة الأناغنوستيس) ومركزهما فى أذهان الشعب وفى نظر المسؤلين فى الكنيسة، بالرغم من أهمية تنوع وتعدد المهام التى يجب أن يؤديها الدياكون لتكميل الخدمة الأسقفية والقسوسية.

وهكذا فقدت الكنيسة القبطية رتبة هامة، تمثل ـ حسب تعبير العالم القبطى يسى عبد المسيح ـ «أحد أضلاع المثلث الكهنوتى منذ العهد الرسولى».

الشماسة فى الكنيسة:

ونفس الأمر الذى حدث لرتبة الشماس حدث لرتبة الشماسة. إذ اختفت هذه الرتبة تماماً. ورتبة الشماسة مذكورة فى الكتابات الرسولية الأولى:

١ ـ فإذا رجعنا إلى ١ كو ١٦، لنقرأ عن الكنيسة التى فى بيت أكيلا، فإن زوجته الفاضلة بريسكلا صارت هى «شماسة» دياكونوس Diaconus» الكنيسة فى أفسس.

* وهذا هو نفس اللقب المعطى لشماسة أخرى اسمها «فيبى» ذكر اسمها فى ديباجة الرسالة إلى رومية (١٦ :١): «اختنا فيبى التى هى خادمة (دياكونوس) الكنيسة التى فى كنخريا».

وقد وصف عملها بالتحديد أنها «مساعدة (أو معاونة Prostatis) لكثيرين ولى أنا أيضا» (رو ١٦ : ٢). وكلمة Prostatis التى يصف بها بولس الرسول عملى فيبى (مساعدة) أصبحت تستخدم لوصف عمل الشمامسة عموماً وأنهم «معاونون» للأسقف (الدسقولية ٧).

دور الشماسة في خدمة الكنيسة:

وفى التنظيمات الكنيسة المبكرة نجد للشماسة دوراً محدداً هو خدمة النساء ولكن ليس لهن خدمة شخصية لأى من رجال الإكليروس: [على الأسقف أن يقسم شماسات نسوة مختارات قديسات لأجل خدمة النساء] ـ الدسقولية ١٥ : ١٤.

١ ـ مساعدة النساء المتقدمات للمعمودية [وقبل كل شئ لأجل امرأة تتعمد.. لأنه عمل غير ضرورى ولا لائق أن يتأمل الرجال النساء إلا فى وضع اليد فقط] ـ الدسقولية ١٥ : ١٥.

* تعلمهن التعليم المسيحى. [ليقمن بتعليم النساء المتقدمات للمعمودية بدقة وحذق الأجوبة على الأسئلة التى تطرح عليهن فى وقت المعمودية] ـ قانون ١٤ مجمع قرطاجنة (سنة ٣٩٨).

* المساعدة فى إجراء التغطيس فى مياه المعمودية ودهنهن بالزيت المقدس، بينما يدهن الأسقف جبهة المعمدة فقط. [لكى يدهن الأسقف رأس المرأة.. والأنثى تصبغها المرأة الشماسة] الدسقولية ١٥ : ١٥, ١٧.

٢ ـ الخدمة الروحية للنساء وتمريضهن وخدمة المسنات. [والشماسة المرأة أيضا لتكن مجتهدة أن تربح النساء وتعينهن] ـ الدسقولية١٥ : ٢٥.

٣ ـ لا تأتى امرأة إلى الأسقف لتسأل أى شئ إلا مع الشماسة. [وخارجاً عنها لا تأتى واحدة من النساء إلى الشماس أو الأسقف لتسأل عن عمل متعلق بدرجته] ـ الدسقولية ٤ :٩.

٤ ـ إراحة النساء فى الكنيسة ومراعاة نظامهن. [وشماسات يحرسون النساء لئلا يكون فيهم قلق أو تومىء إحداهن أو تنام. وتقف الشماسات عند أبواب (الكنيسة الخاصة بدخول) النساء لئلا يخرج أحد] ـ قوانين الرسل بيد إقليمس ـ الكتاب الخامس، الدسقولية١٠ :٢٣.

٥ ـ افتقاد النسوة فى البيوت. [لأنك لا تقدر ترسل شماساً إلى المنازل إلى النساء بسبب غير المؤمنين. فترسل شماسة امرأتة بسبب فكر الناس الأشرار] ـ الدسقولية ١٥ :١٤.

شروط تسمية الشماسة:

قديماً، كانت الشماسات يخترن أحياناً من بين الأرامل اللواتى أخترن لرتبة الأرامل واللواتى ذكرهن القديس بولس الرسول فى الرسالة الأولى إلى تيموثاوس الإصحاح الخامس:

ـ «ولكن التى هى بالحقيقة أرملة ووحيدة فقد ألقت رجاءها على الله وهى تواظب الطلبات والصلوات ليلاً ونهاراً.. لتكتب أرملة إن لم يكن عمرها أقل من ستين سنة، إمرأة

رجل واحد (أى لم تتزوج بعد ترملها)، مشهوداً لها فى أعمال صالحة، إن يكن قد ربت الأولاد، أضافت الغرباء غسلت أرجل القديسين، ساعدت المتضايقين، اتبعت كل عمل صالح».

ولكن ليست كل أرملة شماسة، بل فقط التى سميت شماسة. وفى هذه الحالة يمتنع عليها أن تتزوج ثانية بعد اختيارها شماسة، [وهى لا ترشم بل تجعل بالإسم] - قانون ٢٥ من قوانين الرسل ال ٧٠. وهذا الفرق بين الأرامل والشماسات يظهر من النص التالى الخاص بوجوب خضوع الأرامل للشماسات: [فالواجب للأرامل أن تكون هادئات قنوعات خاضعات للأساقفة والقسوس والشمامسة وأيضا للشماسات] - الدسقولية ١٢: ٤٤.

وأحياناً كن يخترن من بين العذارى المتبتلات غير المتقدمات فى السن، على شرط عدم نكث نذر بتولتهن بالزواج بعد إقامتهن شماسات. وعندنا مثل الشماسة أوليمبياس (٣٦٥ - ٤١٠)، التى كانت زوجة حاكم مدينة القسطنطينية. ثم ترملت وهى فى مقتبل العمر، ولكنها رفضت الزواج بالرغم من إلحاح الإمبراطور البيزنطى. وقد صارت تلميذة للقديس يوحنا ذهبى الفم فيما بعد.

ولكن يمكن أن يخترن أيضا من بين السيدات التقيات المتزوجات المتقدمات فى السن، إذا توفرت فيهن الشروط الروحية الأساسية مع روح الأمومة الروحية.

٣. وثائق طقس الرسامة

١. التزكية

باسم الآب والابن والروح القدس، الثالوث القدوس غير المفترق، الإله الواحد، إلهنا. نحن المسيحيين الأرثوذكس، نتكل عليه إلى النفس الأخير، ونرسل إليه فى الأعالى المجد والإكرام إلى الأبد.

نحن المطارنة والأساقفة والكهنة والشمامسة وكل الشعب المحب للمسيح بمدينتى الإسكندرية والقاهرة وأقاليم مصر جميعاً.

عندما حلت بنا جائحة اليتم بانتقال طيب الذكر مثلث الرحمات البابا الأنبا يوساب الثانى

إلى الأخدار السمائية، الذى نال جميع المواعيد المقدسة ومضى إلى الله الذى أحبه فسمع منه تعالى ذاك الصوت المملوء فرحاً القائل: نعماً أيها العبد الصالح الأمين أدخل إلى فرح سيدك: عندما ترملت كنيسة الله المقدسة التى كان يرعاها بتعاليمه، تضرعنا إلى العلى أن يرشدنا إلى من هو مستحق لهذه الرئاسة العظيمة، ليرعانا فى طريق الرب ويهدينا ميناء الخلاص، فبمنحة علوية واختيار الروح القدس اتفقنا جميعاً بطيب قلب على القمص مينا المتعبد لله الراهب الذى من دير البرموس، باب ورئيس أساقفة على الكرسى الرسولى الذى للقديس مرقس ناظر الإله الإنجيلى كاروز الديار المصرية واثيوبيا والنوبة وخمس المدن الغربية وسائر أفريقيا، وقد وقع اختيارنا عليه لأنه رجل متعبد لله محب للغرباء، معلم، طاهر، مجمل بالفهم والمعرفة. مُجِد فى نشر تعاليم الإنجيل، ساهر على حفظ طقوس الكنيسة وتقاليدها، أقمناه رأس رعاة وبطريركاً لبيعة الله المقدسة لكى يرعانا بالرأفة والوداعة. لهذا سطرنا هذه التزكية ووقعنا عليها مقدمين الشكر للثالوث الأقدس الآب والابن والروح القدس. آمين.

٢. صلوات وضع اليد

ووضع كبير الأساقفة يده على رأس القمص مينا متوسلاً أن تحل عليه نعمة الروح القدس وأن يجعله الرب أهلا لدعوة رياسة الكهنوت.

ثم وضع الآباء المطارنة والأساقفة أيديهم على رأسه وتلا نيافة الأنبا ميخائيل مطران أسيوط هذه الصلاة:

أيها السيد الرب ضابط الكل الأزلى، مصدر كل الرأفات واله كل عزاء. أبو ربنا والهنا ومخلصنا يسوع المسيح الذى خلق جميع الأشياء بقوته وحكمته ومشورته، وثبت أسس المسكونة. اللهم العارف كل الأشياء قبل تكوينها، الذى زين أكاليل المختارين من قِبَله، الذى جعل خوفه فى قلوب خليقته لكى تخضع لعزته، الذى أنعم علينا بفهم حقيقى لنعرف روح صلاحه، الذى أضاء كنيسته بنوره غير الموصوف واصطفى إبراهيم خليله لميراث الأمانة، ونقل قديسه أخنوخ إلى الكنوز النورانية لأنه أرضاه، الذى وهب موسى الوداعة وهرون كمال الملكوت. الذى مسح الملوك والرؤساء لكى يقضوا بين شعبه بالعدل، الذى لم يدع مذبحه المقدس السمائى بغير خدمة منذ إنشاء العالم حتى اليوم. اللهم الذى أقام كهنة فى بيعته

ليخدموا اسمه القدوس، نسأل ونضرع إلى صلاحك عن عبدك (الأنبا كيرلس السادس) الذى اصطفيته رئيس كهنة على بيعتك ليكون رئيساً لشعبك وراعياً له. أشرف عليه يا رب بنور وجهك لكى يضىء قلبه بينبوع مجدك فيعرف أسرارك الإلهية. أفض عليه روحك القدوس، روح الحق روح الكمال المعزى الذى أعطيته لرسلك القديسين وأنبيائك الأطهار، امنحه يارب روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة والتقوى، املأه من مخافتك يا الله ليقضى بين شعبك باستقامة، ويتمسك بالإيمان الأرثوذكسى القويم. ألْبسه حلةِ مجدك المقدسة، وضعْ على رأسه تاجاً، وامسحه بدهن الفرح، دهن صلاحك ليكون رئيساً لكهنتك، أميناً على بيعتك، ليخدمك بلا لوم كل أيام حياته بذبائح طاهرة، وصلوات نقية، ونفس مضيئة بأصوام وأعمال صالحة، ومحبة ووداعة وأمانة بلا رياء، ويرفع القرابين عن جهالات شعبك وينتشلهم من فخاخ الخطية، ويردهم إلى حظيرتك المقدسة. اللهم امنحه سلطان روح قدسك ليحل كل وثاق ربطه العدو بالخطية ويجمع أبناء الكنيسة لكى تصبح الرعية واحدة لراع واحد، واحفظ كهنوته بلا عيب إلى التمام ليخدمك بذبائح روحية كل حين كرتبة رئيس الكهنوت الأعظم الذى فى السموات يسوع المسيح ربنا، هذا الذى يليق بك معه والروح القدس العز والمجد والإكرام إلى الأبد آمين.

٣.تقليد رياسة الكهنوت

تقليد الأنبا كيرلس السادس رئيس أساقفة مدينة الإسكندرية العظمى

باسم الآب والإبن والروح القدس الإله الواحد له المجد دائماً

نحن المطارنة والأساقفة خدام بيعة الله الطاهرة الأرثوذكسية، بجهات الكرازة الرسولية المرقسية، المجتمعين برحمة الله العظيمة العلوية، نكتب إلى الجزيلى الحب الإيغومانسين المكرمين، والقسوس الورعين، وباقى مصاف البيعة المباركين، والآباء الرهبان العابدين، والأراخنة المحترمين، وقاطبة شعب المؤمنين الأرثوذكسيين، الكائنين بالمدينة العظمى الإسكندرية، وفسطاط مصر، والقاهرة، وكل الأقاليم المصرية، والنوبة، والحبشة، وكافة التابعين للكرازة المرقسية الرسولية، من إخوتنا وأحبّتنا الروحيين التابعين إليهم، سلاماً دائماً بهياً وتبريكاً روحياً أبوياً.

أيها الإخوة: بوّقوا بنغمات الفرح والحبور، وهللوا معيّدين عيد الابتهاج والسرور، سبحوا

ومجدوا عظائم إلهنا الذى لا يُحدُّ غناه، ولا تستقصى حكمته، ولا يدرك علمه، ولا تفحص أحكامه وقدرته، سيدنا كلنا يسوع المسيح الإله الحقانى، العارف الأشياء قبل كونها، والمُطلِّع على غوامض الأفكار الإنسانية وشئونها، كلمة الله الذاتية الذى لم يزل كائناً مع أبيه وروحه القدوس بوحدة جوهرية، وإذ هو الملك الحقيقى الذى كنوز الحكمة لديه مخفية، وأعماله عن إدراكات العقول محجوبة خفية، فبإرادته غير المفحوصة اقتبل اليه الأب الطوبانى، والراعى الأرثوذكسى الروحانى، أبينا البطريرك الأنبا يوساب الثانى ال ١١٥ فى عداد البطاركة الأرثوذكسيين، ونقله إلى دار البقاء والخلود حيث آمال الصالحين، وثقة العابدين، وغاية الفائزين، فالضرورة قادتنا أن نجتمع باتفاق واحد حسب الرسوم الرسولية، نحن مطارنة وأساقفة الكرازة المرقسية وكهنة الكنائس وأراخنة الملة الأرثوذكسية، وتشاورنا فى جلسات متنوعة، بأوقات متعددة، مبتهلين إلى الله تعالى، أن يُظهر لنا خيريته، فى من يريده لهذه الخلافة المجدة، متداولين باجتهاد عمن يستحق للرياسة الكهنوتية الفخيمة، ليرعانا فى طريق الرب، ويرشدنا إلى ميناء الكنيسة الهادئة القويمة. إذ نحن عارفون بعواطف قلوب الشعب المرقسى («أهل مدينة الإسكندرية» فى مخطوطة القرن الثالث عشر)، التائقة دائماً للأبوة العظمى، وحبهم للسيد المسيح الذى منح كنيسته هذه الرياسة الأسمى وأنهم لا يؤثرون أن يمكثوا فى حالة اليتم إلى زمن مديد، ويبقوا بدون راع إلى زمن بعيد.

فلهذا شرعنا بجد واجتهاد فى أن نتمم الرسوم الإلهية، مقدمين مع الشعب عواطف الضراعات والابتهالات القلبية، إلى أن ارشدتنا الحكمة العجيبة وأسعفتنا المقدرة السامية الرهيبة، (بطريق القرعة الهيكلية)(*) إلى اختيار المتعبد لله الإيغومانس الجليل، الأب مينا الراهب البتول، من برية شيهيت من المجمع البهى المحروس، بدير السيد بالبرموس، المتربى فيه منذ شبوبيته تحت نظارة آباء ورعين، وشيوخ عابدين، وقد نال نعمتهم مثل أليشع مع إيلياس

(*) ما بين القوسين غير مذكور فى مخطوطة القرن الثالث عشر فهى مضافة على هذه الصلوات بالذات لأن إجراء عملية القرعة ليس داخلاً ضمن طقوس رسامة البابوات أصلاً. وقد دخل هذا الإجراء فى القرن الحادى عشر نقلاً عن عادة نسطورية وبإيعاز من الوزير غير المسيحى بسبب المشاكل التى حدثت أثناء انتخاب البطريرك فى عصره، راجع: ألفريد بتلر، الكنائس القبطية القديمة، مترجم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، صفحة ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

نعمة مضاعفة، من قبل أعمال التقوى والعبادة، والطاعة المشرفة، كما هو مكتوب فى الأسفار الرسولية هكذا، «نحن نعلم أن أولئك الذين يحبون الله يعينهم فى كافة الأعمال الصالحة المرضية، أولئك الذين دعاهم كسابق رسمه، إذ الذين سبق فعرفهم، هم الذين تقدم فرسمهم، والذين رسمهم هم الذين دعاهم، والذى دعاهم هم الذين بررهم، والذين بررهم هم الذين مجدهم». وقوله أيضاً «لن ينال أحد الكرامة لذاته وحده إلا المدعو من الله مثل هرون الحبر عبده». كذلك الذين أتوا بعده، فى كل جيل إلى الأبد، وإلى انقضاء الزمان، وبما أننا واثقون بسموه حسب التزكية، المقدمة منا ومن الجمهور، وشهادة الآباء العابدين باستحقاقه لهذا المقام الرياسى المبرور، فقد جعلنا الله الذى هو مصدر الخيرات العلوية، المنتخب هذا الأب حسب دعوته السمائية، معينا لنا ومقصداً، ومكملاً ومؤيداً، واجتمعنا احتفالياً، بالكنيسة الكاتدرائية، الرسولية المرقسية، بحضور جمهور أراخنة ونبلاء ونجباء وأبناء الكرازة المرقسية الأرثوذكسية، مقدمين سر الشكر الشريف المنير، بعبادة وورع لعزة الله العلى القدير، وبهذا الاحتفال الروحانى والمجمع الطوبانى، فى يوم الأحد العظيم الموافق ٢ من شهر بشنس قبطى سنة ١٦٧٥ للشهداء الأبرار الموافق ١٠ من مايو سنة ١٩٥٩ مسيحية، رقيناه إلى الدرجة السامية البهية التى للرياسة الكهنوتية السنية، واسميناه باسم كلمة الله الأقدس الأب البطريرك البابا أنبا كيرلس السادس المائة والسادس عشر فى عداد بابوات الاسكندرية وبطاركة الكرازة المرقسية، ليكون لنا أباً وراعياً، ومرشداً للخلاص، وراعياً يرعانا فى مروج الأمانة المخصبة الروحية، التى للمعرفة الحقيقية، رافعين إياه، إلى خلافة الإنجيلى الناطق بالالهيات، القديس مرقس الرسول المبشر بالخيرات الأبديات، ولقد أفعمت نفسه الزكية من النعم الروحية السماوية، عندما منح موهبة الروح المعزى بالأصوات الرسولية القدسية، واذ ألبسناه حلة الرياسة الحبرية، وتوجناه بتاج الأمانة الرعائية، من لدن العزة الالهية، الكلية الاقتدار، ببركات طغمة الرسل الأطهار الأبرار، والتلاميذ الأفاضل الأحبار، أضحى رئيساً للكهنة وراعياً ومعلماً وأباً عاماً للمؤمنين مقدماً نائلاً هذا السلطان، من الله ملك السمائيين والأرضيين، ليربط ويحل كالحدود القانونية، ويتصرف كالرسوم الشرعية فى سياسة وإرشاد المؤمنين، ويشرطن الاساقفة بالانتخاب والاستعداد والتزكية ويقيم الاكليروس لخدمة الأسرار القدسية، ويقدس المذابح، ويكرس البيع المتجددة وبيوت الشهداء المؤيدة ويمارس السلطان الذى منحه سيدنا يسوع المسيح لتلاميذه وصفوته،

جامعاً إلى داخل المرتسمين بأسرار بيعته، ويكرس الميرون الذى هو الدهن السرى الروحى الشريف، بالسر المكتوم الذى للخدر الأكرم العلوى، الذى للعروس المزينة السماوية المدعوة عروس الابن المنيف، ويتمم فعل حميم الميلاد الثانى الجديد، الذى للروح القدس كالأمر الصادر من المسيح إلهنا الذى صار له خليفة، وواسطة بيننا وبينه، وكرتبة موسى خادم الله وواضع الشريعة، وهارون اللاوى المؤتمن على خدمة قبة الشهادة، ورعاية الجماعة. هذا وقد توطدت نفسه باسم يسوع المسيح الفادى الوسيط، وامتلأ من نعمة الروح القدس الفارقليط، وأضحى انساناً جديداً، بالرتبة العظمى، المنعم عليه بها، من كنز نعم الله العلى، وفضله الأسمى ذلك الذى يرفع المتواضعين، ويرفع المسكين من الحضيض، ويجلسه مع رؤساء شعبه الفائقين. ولقد امتلأنا من الفرح الدائم والسرور السيدى، الذى دعينا إليه من قبل سيدنا المسيح كلمة الآب السرمدى المتجسد من العذراء وصار انسانا واقتبل الآلام والموت بجسده وقام فى اليوم الثالث، من بين الأموات بعزة جبروته ومجده، وصعد إلى السموات، جالساً عن يمين الآب فى الأعالى، وأرسل الروح المعزى مالئاً تلاميذه الأطهار من تقديسه ومواهبه ذات المعالى، مكملين بالرتبة السماوية والرسالة الالهية، إلى أن جمعوا شمل المتبددين، وأقاموا منار الدين واصطفوا بهدايته تعالى المستحقين، لرعاية المؤمنين، وانا لمؤمنون ومتيقنون، بأن سيدنا وملكنا يسوع المسيح قد أنعم علينا وأقام لنا هذا الأب الصالح المأمون.

والله الذى اصطفاه راعياً لكرازتنا، ورئيساً لبيعتنا، ينعم عليه بحكمة الكلام عند افتتاح فمه، ربحاً لانفسنا وفائدة لهدايتنا، ويبررنا واياه من كل خطية ويجعل دعوته التى نالها مصدراً للسلامة فى الكنيسة الأرثوذكسية، وداعياً للخير لكافة أبناء الكرازة المرقسية، وينعم علينا جميعاً بمراحمه ويمتعنا بدوام مكارمه، بشفاعة **الست السيدة كلية القداسة العذراء** فى كل حين الطاهرة مريم وطلبات أبينا القديس مرقس الرسول الطاهر، الانجيلى الأكرم، وآبائنا المتوشحين بالنعم الالهية، الأب القديس أنبا أثناسيوس الرسولى والأب القديس أنبا كيرلس الكوكب المنير الإسكندرى وكافة الآباء البطاركة القديسيين، الذين جاهدوا باستقامة محامين عن الدين.

ثم إننا نعلن ايماننا بإله واحد فى الجوهر، الآب ضابط الكل، وابنه الوحيد ربنا يسوع

المسيح، الكائن باتحاد غير منقسم، ندعوه حقاً مثل الآب ونعرف أن الابن ليس هو ابنين لكن ابناً واحداً وحيداً، لا بالنعمة والإضافة، بل بالحق هو ابن حقيقى للآب والروح القدس المنبثق من الآب، المساوى للآب والابن فى الجوهر، وقيامة الأجساد وبالكنيسة المقدسة الجامعة الرسولية، وربنا يسوع المسيح فليمنحنا كلمة التعليم عند افتتاح أفواهنا لنعيش بسيرة هادئة ورعة، ونوجد لديه بكل تقوى وعفاف بنعمته وجوده هذا الذى له المجد والجلال، والعزة والكمال، مع أبيه الصالح والروح القدس فى وحدانية جوهرية، الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين(*).

(*) انظر التدبير الألهى فى تأسيس الكنيسة. مجموعة من الكتاب والعلماء القاهرة ١٩٩٧.

مصادر ومراجع البحث

أولا. مصادر البحث

١ـ الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد.

٢ـ كتاب الإفخولوجيون EUCHOLOGION مطبوع بمدينة رومية عن مخطوطة ترجع إلى القرن الثالث عشر، رومية عام ١٧٦١ للميلاد عام ١٤٧٨ للشهداء، وتحوى الكثير من الصلوات الطقسية مثل الرسامات وصلوات طبخ الميرون وغيرها على نهرين قبطى وعربى. ويرجح أنه عن هذه المخطوطة أخذ ابن كبر صلوات الرسامات التى أوردها فى كتابه «مصباح الظلمة لإيضاح الخدمة» فى القرن الرابع عشر وذلك بمضاهاة النصوص فى كلتا المخطوطتين.

٣ـ مخطوطة قوانين البيعة ـ محفوظة بمكتبة البطريركية والكنائس القديمة.

ثانيا. مراجع البحث

١ـ وليم سليمان قلادة، دكتور، كتاب تعاليم الرسل الدسقولية، الطبعة الثانية ١٩٨٩، دار الثقافة.

٢ـ مجموعة NICENE & POST-NICENE FATHERS ، المجموعة الثانية، المجلد ١٤ الخاص بقوانين المجامع.

٣ـ البيذاليون باللغة اليونانية وترجمته باللغة الإنجليزية باسم THE RUDDER ، وقد طبع فى شيكاغو عام ١٩٥٧ ، تجميع لمخطوطات، ومراجع عدة لقوانين البيعة الأرثوذكسية.

٤ـ حنانيا الياس كساب، مجموعة الشرع الكنسى، جمع وتعليق، ١٩٨٥ منشورات النور، بيروت ـ لبنان. وهو تجميع لمخطوطات ومراجع عدة لقوانين البيعة الأرثوذكسية.

٥ـ عونى برسوم، المستشار، التقنين الكنسى، ١٩٩٤ ، بيت الشمامسة القبطى بالجيزة.

٦ـ القمص مرقس داود، تاريخ الكنيسة تأليف يوسابيوس القيصرى، ترجمة، الطبعة الثانية ١٩٧٩ ، مكتبة المحبة.

٧ـ إيريس حبيبى المصرى، قصة الكنيسة القبطية، الأجزاء الثالث والسادس إلى الثامن.

٨ـ جرجس فيلوثاوس عوض، ناشر، المجموع الصفوى لابن العسال، (مخطوطة من القرن ١٣)، ١٦٢٤ ش. (١٩٠٨م).

المدن الخمس الغربية بنتابوليس Pentapolis

مقدمة:

يختلف العلماء فى تحديد الفترة التى تسمت فيها المنطقة باسم «بنتابوليس» Pantapolis. أو اتحاد المدن الخمس. فهناك من يرجعه الى العهد الجمهورى، (٤٥٠ ـ ٣٢٢ق.م (*). والبعض الآخر يرجعه لعهد البطالمة ٣٢٢٠ ـ ٩٦ ق. م).

ويوجد من يرجع به الى ما بعد هذا التاريخ، باعتبار أن هذه التسمية لم ترد الا فى نص متأخر، فى كتابات، المؤرخ الرومانى بلينى الكبير Pliny (القرن الاول الميلادى)، وهو يقول: «سيرينيكا هى نفسها «أقليم» بنتابوليس» . ولكن هذا النص ربما يوحى أيضا بقدم الاتحاد عن الفقرة التى عاش فيها المؤرخ، والتى تسميت فيها المنطقة باسم: «سيرينيكا». حيث سيطرت عاصمتها سيرين ، وهى الاسم الذى لا تزال تعرف به منطقة المدن الخمس (بنتابوليس،فى جميع المصادر الغربية الحديثة.

ويرى البعض أن اصطلاح «بنتابوليس» كان رمزا للتحالف القائم بين المدن الخمس الاغريقية فى ليبيا الشرقية، كنتيجة للاصلاحات الدستورية التى اقترحها المشرعان اليونانيان «اكديموس، وديموفانس» Ecdemos & Demophanes نحو ٢٥٠ ق. م)، على أساس قيام «اتحاد فيدرالى» (Koinon) بين المدن الخمس، بعدما قررا ـ فى مشروعهما ـ فصل مدينة سيرين، عن مينائها البحرى«أبولونيا»، لتصبح كلا منهما مدينة مستقلة، بهدف التقليل من قوة سيرين، وجعلها فى مصاف قوة المدن الاربع الاخرى، وبمعنى آخر تتعادل كفة المدن الخمس، ولا تطمع سيرين فى السيادة على بقية المدن الاخرى.

وقد اعلن الدكتور كمال عبدالعليم أنه لم يقف على اسم «أبولونيا» فى مصادر سابقة على القرن الاول، بوصفها مدينة منفصلة عن سيرين. ويستبعد الاستاذ جونز Jones ان يكون اسم أبولونيا قد أطلق على ميناء سيرين فى عهد البطالمة، بزعم أنهم اعتادوا اطلاق أسماء ملكية على مدن برقة.

(*) الكلمة اليونانية مركبة من مقطعين: «Penta» (خمسة) «Polis» أى مدينة. وقد سميت فى مصر بالمدن الخمس الغربية هذا وقد وجدت خمسة مدن شرقية (فى فلسطين)، وهى التى اتحدت ضد الملك كدر لعومر. وهى «سدوم، عمورة، صوغر. أأدمة، صبوييم» (تكوين ١٤ : ٨).

ويبدو أن هذا الاسم كان مستعملا فعلا فى هذا العهد، خاصة وأنه ظل حتى العصر الرومانى المتأخر كميناء هام. ومما يدعم رأينا عثور الأثريين «هيسلوب وأبلبوم» على عملة نقدية فى المنطقة من القرن الثالث ق . م ومدون عليها كلمة «الاتحاد» (Koinon). وقالا أن أبولونيا كانت ـ بالتأكيد ـ أحدى مدنه الخمس.

ولانسمع عن اصطلاح «البنتابوليس» حتى قيام الثورة اليهودية فى سيرينيكا عام ١١٥م، ثم شيد الامبراطور هدريان الرومانى مدينة باسمه (Hadrianopolis) فأصبح فى المنطقة ستة مدن كبرى. وقد عثر على نقش أثرى (يرجع للفترة بين ١٨٥ ـ ١٩٢م) يشير إلى أن المدينة الاخيرة، قد أصبحت عاصمة سيرينيكا . ولكنها انحدرت واختفت، وعاد الاصطلاح المشهور «بنتابوليس» الى الظهور من جديد، فى عهد الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م). كما ظل معروفا فى أيام المطران الليبى سينسيوس Synesiua(٤٠٥م)، حيث يأتى ضمن سطور رسالة منه الى ابن عمه ديوجينيس القيرينى. وقد استمر نفس الاسم شائعا خلال الفتح العربى، وقد ورد محرفاً فى كتب المؤرخين العرب القدماء هكذا: «أنطابلس».

وقد ظل نفس الاصطلاح شائعا، فى مصر. خلال العصور الوسطى، وحتى العصر الحديث «ضمن القاب بابا الاسكندرية». فى المراجع التاريخية المسيحية (المدونة باللغة العربية) ، وأن اختلف الكتاب المصريون ـ القدماء والمحدثون ـ فى تحديد أسماء المدن الخمس. ومواقعها الفعلية، لاسباب عديدة، سنحاول مناقشتها فيما يلى:

اسماء المدن الخمس في المخطوطات القبطية:

فيما يلى بيان بأسماء مدن بنتابوليس، على حسب الترتيب التاريخى للمصادر القديمة منها، ثم الاكثر حداثة وهكذا:

١ ـ حسب رواية البطريرك الملكانى افتيخيوس (ابن بطريق) كما وردت فى تاريخه (٩٧٠م) هى : مدن برقة وزولا وزويلة وأوجلة وسنترية، وهى مدن شائعة فى ليبيا، فى أيام الكاتب . ربما استقاها من التجار المصريين، الذين التقى بهم فى مصر.

٢ ـ أما صاحبنا ساويرس (أسقف الأشمونين الشهير، فى القرن العاشر)، فقد أجملها (فى تاريخه) بقوله «ان الخمس مدن بالمغرب هى أفريقية وما معها».

ثم عاد وفصلها، في موضع آخر من كتابه، موضحا أنها «برقة وفزان والقيروان وطرابلس الغرب وأفريقية»، وهي خمس مناطق أكثر منها خمسة مدن.

٣ ـ أما ابن كبر (كاهن كنيسة المعلقة بمصر القديمة فى القرن ١٤م. فقد حسبها مدن برقة، طرابلس الغرب ، وتونس، وافريقية، وقيريني).

٤ ـ وقد وردت هذه الاسماء عينها في مخطوط قبطى (عربي، باسم تكريس الكنائس».

٥ ـ وفى مخطوط آخر، عن رسامة الاساقفة أشير إلى المدن الخمس بانها : «برقة (برقين)، طرابلس. افريقية. والقيروان، وتونس.

والواضح ـ من هذه النصوص ـ أنه حدث خلط كبير، بين موقع مدن البنتابوليس الحقيقية (فى شمال شرق ليبيا)، وبين مواقع مدن أخرى. فى شمال أفريقية، وذلك يرجع ـ فى رأينا ـ إلى أسباب عديدة، ربما كان منها خراب المدن الخمس الاصلية، عمرانيا وسكانيا، بعد الفتح العربى، وطول الفترة التى تقع بين تدوين هذه الكتابات، وبين اندثار هذه المدن فعلا، ولعدم وصول هؤلاء الكتاب الى مواقعها الاصلية. وكما كان يفعل الجغرافيون القدماء. بالاضافة الى عدم توفر المادة المكتوبة عن بنتابوليس، فى وقت مبكر فى مصر. فاعتمدوا ـ على الارجح ـ على معلومات مستقاة من الجماعات القبطية، التى كانت ترد الى مصر من مناطق استقرارها بالشمال الافريقى، بعد الفتح العربى للمغرب.

هذا ونوافق قداسة البابا شنوده الثالث فى قوله بأن أسم «تونس». الذى أشار اليه ابن كبر. وتكرر فى مخطوطات أخرى، قد أتى من الخلط بين مدينة «القيروان» التى شيدها عقبة بن نافع ٦٧٠م) فى تونس. لتكون عاصمة للمغرب العربى. وبين مدينة قيرون (Cyrene) عاصمة بنتابوليس. التى أقامها الاغريق. على الجبل الأخضر، فى ليبيا الشرقية)، كما سبقت الاشارة.

وأكبر الظن أن منطقة تونس الحالية (بين القيروان وقرطاج القديمة)، كانت تضم أسقفية قبطية فى العصور الوسطى. ومن المعروف أن العرب قد أخذوا ـ بعد فتحهم للمغرب ـ كثير

من أمهر العمال الفنيين والاداريين الاقباط، ليحلوا محل البيزنطيين ، الذين غادروا الشمال الافريقى. بعد الفتح العربى، وعلى ذلك لا نستبعد أن يعتبر المؤرخون «الاقباط» القيروان» كاحدى المدن الخمس. بدلا من «قيرين» الاغريقية. التى تقترب معها فى نطقها.

وكذلك الحال بالنسبة لتفسير اسم «افريقية» الوارد فى المخطوطات السابقة، فهو يثير الدهشة، فى نظر قداسة البابا شنوده، ويطلب له تفسيراً!!

وبالاطلاع على آخر الابحاث الجغرافية والتاريخية عن شمال أفريقية، ا تضح ان كلمة (افريقية) اطلقها العرب ـ نقلا عن البيزنطيين ـ على المنطقة الواقعة بين تونس والجزائر الحالية (قرطاجنة القديمة)، وسماها البيزنطيون «ولاية أفريقية» Provincia ، وكانت اسقفية قبطية، ترعى الاقباط المصاحبين للفاتحين العرب فقد نشرت مجلة «المقطف» (عدد سبتمبر ٣٧، ١) بحثا مترجما (عن الفرنسية) «لجاستون فييت»، عن الاقباط فى تونس ضمن موضوع الموصلات فى مصر فى العصور الوسطى استند فيه كاتبه على كتابات المؤرخين «البلاذرى. والبكرى»، وقال ما نصه. ص ٣٣): «... ولكن غارات القراصنة البيزنطيين حملت الخليفة الاموى) على زيادة دور الصناعة، فأمر بأنشاء واحدة بعكا، مستعينا بالنجارين المصريين وأخرى بتونس، على يد ثلاثة آلاف قبطى» كان معظمهم من مدينة تنيس المصرية التى جاء منها اسم تونس.

ومن هذا كله، نخلص أن المؤرخين الاقباط، فى العصور الوسطى، قد استعاروا الاصطلاح اليونانى الشهير «بنتابوليس» (المدن الخمس الغريبة).، الذى كان عالقا بأذهانهم، لأنه كان ـ ولا يزال ـ ضمن ألقاب البابا القبطى، فاحيوه من جديد جغرافيا، وأطلقوه ـ على ما يبدو ـ على خمس مناطق أو مستوطنات فى المصادر الغربية «Coptic - Settlements» كانت عامرة بالاقباط، شمال افريقية العربى لبنتابوليس. و(منطقة) طرابلس،ومنطقة تونس (الممتدة من قرطاجنة القديمة حتى الجزائر الحالية)، ثم أخيراً (منطقة) القيروان (عاصمة المغرب العربى، وتمتد بهذا المفهوم ربما الى مراكش أيضا (المغرب)، وقد ظل هذا التفسير سائدا حتى الآن فى مصر، يتناقله الخلف عن السلف، بلا معرفة للحقيقة.

وأما الكتاب المحدثون، فى مصر، فهم ينقسمون حسب آرائهم ـ الى مجموعتين: ـ

أ ـ المجموعة الاولى:

وقد نقلت اسماء المدن الخمس عن المصادر القبطية السابقة، كما هى بدون تعديل (*).

ب ـ المجموعة الثانية:

وقد اعتمدت على المصادر الاجنبية الحديثة (الغربية) فى معرفة اسماء مدن بنتابوليس الحقيقية، ولكن اكتفت بذكر أسمائها فقط، دون ان تقدم لنا مادة علمية كافية عنها (*)، بسبب عدم وجود المصادر الغربية، التى تتحدث عنها، فى مصر.

ومن ثم كانت الحاجة ماسة الى دراسة علمية سليمة ومفصلة، عن المدن الخمس، مع ضرورة اتباعها ببعض النواحى الجغرافية، والظروف التاريخية المتعلقة بنشاتها، وتطور اسمائها، عبر التاريخ، و ظروفها الطبيعية. حتى تكون فرشة أساسية، للحديث عن المسيحية فيها بعد ذلك.

(*) من هذه المجموعة: ابراهيم صبرى. مار مرقس الانجيلى (القاهرة ١٩٦٨، ص١٤٤)، ونصيف حبيب، الذى نشر مخطوطة تضم سيرة أنبا صموئيل القلمونى (القاهرة ١٩٥٢). وقد أشار (فى ص ١٧ حاشية١) الى و جود المدن الخمس الغربية بشمال افريقية. أما الاستاذ عزت سامى، فقد نشر مقالا عن الخمس مدن،بجريدة وطنى (عدد ٤٦٧ فى ١٠/١٠/١٩٧١)، أشار فيه الى أن طرابلس هى احدى هذه المدن الخمس. بينما ذكر الدكتور صابر جبرة (فى كتابة مجد الكتاب المقدس، نشر الانجلو، القاهرة، ص ١٦٠) أن : «مقاطعة المدن الخمس كانت تضم القيروان وبرقة وغرب أفريقية» !! وتكرر نفس الخطأ فى كتاب تاريخ الكنيسة جـ ١ نشر جماعة مدارس الاحد بالجيزة (القاهرة ١٩٦٢، ص ٣٢)، وفى كتاب عن القديس مرقس الانجيلى للمرحومين حبيب جرجس. وكامل جرجس القاهرة١٩٣٧، ص ١٧ حاشية رقم ١.

ومن أمثلة المجموعة الثانية:ـ

قداسة الباب شنوده الثالث. المصدر السابق ص ٣٩ ـ ٤٤. زاهر رياض، كنيسة الاسكندرية فى افريقية (ص ٢٥ ـ ٢٦)، ويسطس الدويرى المتنيح الانبا دستورس. أسقف المنوفية الراحل) فى كتابه «موجز تاريخ المسيحية» (القاهرة ١٩٤٩، جـ١، ص ٧٥) وقد ذكر اسماء مدن بنتابلويس بدقة، نقلا معجم لاروس (الفرنسى. لكنه أوقع المدن الخمس خطأ، على الخريطة ص ٨٤، بأن جعلها فى منطقة تونس، وقد وردت أسماء مدن بنتابوليس الحقيقية. فى مقالة عن بنتابوليس للمرحوم كامل صالح نخلة، بمجلة جمعيةن التوفيق القبطية، عدد ٨ (القاهرة، ديسمبر ١٩٣٨)، وكذلك فى كتابه عن مار مرقس (القاهرة ١٩٤٩)، وكذلك كتاب تاريخ الكنيسة للقمص منسى يوحنا (ص ٧)، كما أورد القمص تاوضروس السريانى بيانا مختصر بأسماء المدن الخمس، حسب المصادر القبطية والأجنبية، ضمن مقالة مفصلة عن مار مرقس بمجلة المحبة (يونيو ١٩٦٨) ص ١٩٠.

ونبدأ أولا بالاشارة إلى أسماءالمدن الخمس الحقيقية (القديمة)، ثم نشير الى ظروفها الطبيعية التى نشأت فيها، على أن نتبعها بدراسة تفصيلية لكل مدينة منها، على حدة، استكمالاً للنقص الواضح فى المعلومات عنها، طبقاً لما أتضح لنا من الاطلاع على الدراسات المنشورة عنها فى مصر.

تحديد المدن الخمس الحقيقية:

من واقع المصادر القديمة المعتمدة، نجد أن المدن الخمس هى: «سيرين، وأبوللونيا، وتوكرة، وبرنيس ، وبرقة طبقا لرواية أسترابون، ونقل عنه بعض الكتاب الغربيين، أمثال رينو، والسيدة بوتشر، ومن الشرق الاستاذ هانى المبارك الليبى . وغيرهم من سبقت الاشارة اليهم فى الحاشية السابقة.

الا أن المؤرخ الرومانى «بلينى» Pliny (٢٣ (٧٨م) استبدل «برقة» بمدينة «بتولمايس» أو «طولميته». واختلف فى ذلك الدارسون، فمنهم من وافقه على رأيه، ومنهم من عارضه.

ويبدو ان مدينة «برقة» (Berca) قد تأسست قبل ميناء بتولمايس، ومن الراجح أنه كان يوجد ميناء صغير على الساحل (وقيل مجرد قرية صغيرة) فى المنطقة المحيطة ببرقة شمالاً ، والتى دعاها هيرودت « بركايا» (Barcaia)، وهو ميناء مجهول الاسم، ربما أقيم بعد أنشاء مستوطنة برقة كمنفذ لها على الساحل.

وقد قام البطالمة بتطوير هذا الميناء، وفى أيامهم أصبح مدينة حديثة. جيدة التخطيط، وقد حملت اسم الملك الافريقى الاسكندرى، فدعيت «بطليموسة» (Ptolemais) و قد حلت محل «برقة» الام ـ فى الاتحاد القيرينى ـ فى القرن الثالث ق. م، بعدما تضاءلت أهمية المدينة الثانية. ربما بسبب الهجرة الى الميناء الجديد. وعلى ذلك لانميل الى الاخذ برأى الاستاذ البرغوتى ، الذى ينادى بنشأة بتولمايس قبل مدينة برقة، لأنه يتعارض ـ فى الواقع ـ مع تطور نشأة المدن الخمس، على حسب رواية هيرودت، الذى زار المنطقة وكتب عنها.

كما أن الاستاذ البرغوتى يعود الى القول بأنه «لم يبق من أثار برقة (مدينة المرج الحالية) ما يوضح شيئا من ماضيها، وأغلب الظن أنها لم تزدهر. بعدما خربها الفرس سنة ٥١٥ ق . م.

وعلى ذلك أضحت «برقة» مجرد قرية صغيرة، تابعة لميناء بطوليمايس، فى العصر البطلمي، وربما أصبحت هكذا فى القرن الميلادى الاول، طبقا لرأى المؤرخ الرومانى «ميلا» Mela، ولكنها استردت بعض أهميتها الاقتصادية، بعد نقص مصادر المياه فى بتوليمايس، ويؤكد ذلك وجود اسقفية مسيحية ـ فى مدينة برقة ـ فى وقت متأخر ، كما سنرى فيما بعد.

ونخلص من هذا كله، الى أن المدن الخمس الغربية تقع جميعها فى منطقة الجبل الاخضر الحالية (شرق ليبيا)، وليس فى بلاد المغرب، أو.تونس، كما وردت فى المصادر القبطية السابقة الاشارة اليها.

وبذلك يكون موقعها الجغرافى بين منطقة «مارماريكا»(*) Marmarica وخليج سيرت الكبير (Syrtis Major)، أى بين خطى عرض ٢٩ ـ ٣٣° شمالاً وبين خطى طول ٢٠ ـ ٢٥° شرقا.

وقد دعاها الاب شينو باسم «المدن الخمس الليبية»، كما تسمت فى السنكسار القبطى باسم (ليبية مصر) ، لاتحادها معها سياسيا ودينيا، فترات طويلة، كما سنر ى فى حينه.

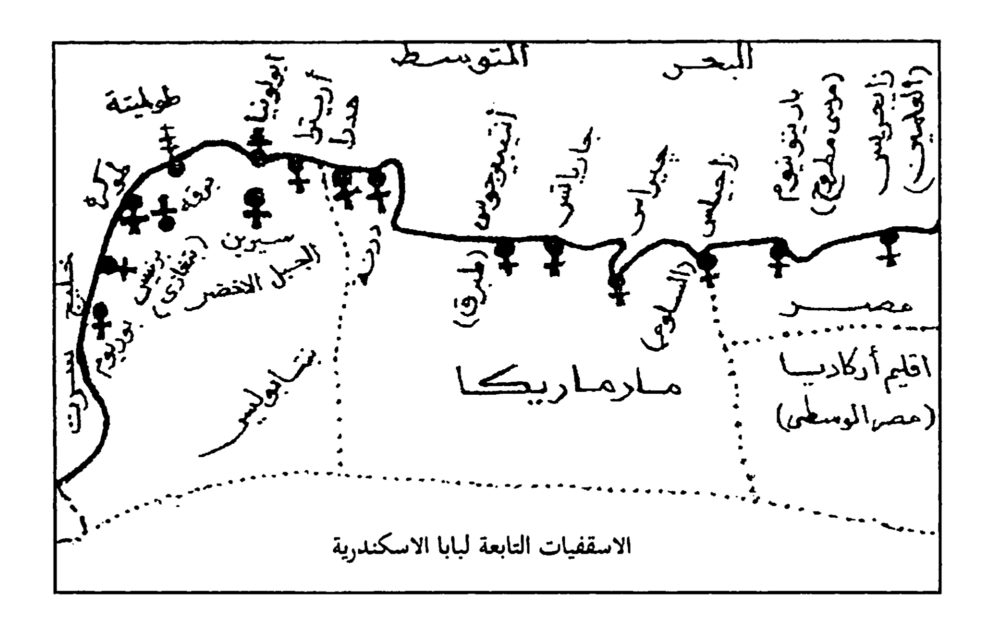
الظروف الطبيعية لبنتابوليس:

يقسم هيرودت المنطقة إلى ثلاث مناطق طبيعية، على هيئة أشرطة موازية لساحل البحر المتوسط، ويرتفع كل منها عما يليه كلما اتجهنا جنوبا. وهى على التوالى: الشريط الساحلى ثم الشريط الجنوبى له، وبينهما هضبة سيرين (الجبل الاخضر حاليا). وهذا التقسيم يتفق مع الواقع الجغرافى. لحد كبير.

أما السهل الساحلى فيمتد من بنغازى الى طوكرة. وبعرض كبير. وهو عبارة عن أرض شبه مستوية، كثيرة الحصى والحجر الجيرى، وبعض اجزائها مغطى بتربة صلصالية حمراء ، وبه بعض البحيرات العذبة. والى الشرق من طوكرة يضيق الشريط الساحلى وتقترب التلال من البحر اقترابا شديداً ، خاصة عند مدينة أبولونيا(مرسى سوسة الحالية) وكان الساحل الشمالى

(*) «مارماريكا» : هى المنطقة الواقعة بين درنة والسلوم الحالية. وقد امتدت حدودها الادارية ـ فى العصر الرومانى المتأخر ـ حتى مرسى مطروح الحالية. والى واحتى الجغبوب وسيوة جنوباً. وقد تسمت بهذا الاسم نسبة الى سكانها القدماء من قبائل «المارمريدى» طبقا لما جاء فى كتابات المؤرخين سكيلاكسScyiax (القرن ٤ ق. م)، وبلينى، ديودور الصقلى. ودعيت «مراقية» فى المصادر العربية القديمة.

غير صالح لرسو السفن، لكثرة تعرضه للعواصف المحلية.ويروى المطران الليبى سينيسيوس أن العاصفة منعت سفينته من الوصول إلى الشاطىء لمدة اسبوع رغم قربها منه، هذا بالإضافة إلى ندرة الماء العذب بالمنطقة ، مما جعلها مناطق طرد السكان.



الاسقفيات التابعة لبابا الاسكندرية

ويلى هذا المرتفعات الساحلية التى تحيط بخليج سدرة من الشرق، وتبرز على شكل قوس ممتدة شمالا فى البحر المتوسط. وهى فى الواقع هضبة شبه مستوية (تسمى حاليا الجبل الاخضر)، وترتفع الى نحو ٨٧٠ متراً فوق سطح البحر، ولكنها تنحدر تدريجيا نحو الجنوب (نحو الصحراء) حيث توجد الواحات الليبية المعروفة.

وتكسو الهضبة غابات خضراء، تشمل أشجار الزيتون البرى. والصنوبر والسرو، وبعضها مزروع. ويغلب على سطحها الصخور الجيرية. وتنحدر منها بعض المجارى المائية نحو البحر المتوسط ، وتمتد الهضبة نحو ٢٥٠ كيلو مترا بموازاة الساحل حتى تصل الى جبل «عقبة» عند السلوم (٢٠٠ متر)، ويسير فوقها الطريق البرى الحالى، وتقع مدينة سيرين على تلك الهضبة، بينما تقع طولميته وطوكرة وأبولونيا على الشاطئ، وترتفع أرض طولميته بسرعة من

الشاطئ الى سفح الجبل، فى مسافة ميل وربع فقط. اما مدينة برقة (المرج الحالية فتقع فى وسط سهل يرتفع ألف قدم فوق سطح البحر، ويمتد ٢٠ ميلا طولا و٨ أميال عرضا . وقد وصفه الكاتب العربى ابن رسته (سنة ٩٠٣م). بأنه : «مرج واسع وتربته حمراء شديدة الحمرة».

أما من الناحية المناخية: فانه نظراً لوقوع منطقة بنتابوليس بين البحر شمالا، والصحراء الكبرى جنوبا، فالمناخ كثير التقلب. وينتمى الساحل الى مناخ البحر المتوسط، أى يتميز باعتدال الحرارة صيفا، والدفء شتاء. أما الجبل الاخضر فهو أكثر أعتدالا فى الصيف، لهذا تعتبر سيرين مصيفا هاما، أما الشتاء فيها شديد البرودة ، ويشبه جنوب أوربا، وربما كان ذلك من أسباب جذب الاغريق الى استيطان المنطقة، وتأسيس المدن الخمس بها.

ومن ناحية أخرى، يعتبر الجبل الاخضر أكثر مناطق ليبيا مطراً (٥٠٠ ـ ٦٠٠م) ، ويرجع سبب ذلك الى وجود ثنية على شكل قوس، تتعامد مع الرياح الغربية ا لعكسية المطيرة. وتتجمع المياه الجوفية، فى التربة الصلصالية، التى لا تنفذ منها مياه الامطار، مما ساعد على الاستفادة بها فى الزراعة المنتظمة على الهضبة، منذ العهد الاغريقى الاول ، والتى بلغت مساحتها نحو خمسين الف هكتار. ويندر المطر بشكل ظاهر،كلما أتجهنا جنوبا، حيث توجد منخفضات تضم واحات أوجله وغدامس وجالو. ويستفاد سياحياً من غابات الجبل الاخضر، بسبب مناظرها الطبيعية الجميلة، التى تذكرنا بجبال لبنان واليونان.

وكانت منطقة بنتابوليس قد تعرضت لعدة حملات متتالية من الجراد. ذكرها المطران سينسيوس فى رسائله عدة مرات. وقد سببت هذه الهجمات سلسلة من الدمار للاقتصاد الزراعى فى المدن الخمس، فى العصر الرومانى. هذا وقد اشار سينسيوس أيضا الى وجود حيوانات مفترسة كثيرة فى زمانه (٤١٠م)، مثل الضباع والذئاب والثعابين السامة وغيرها.

دراسة جغرافية للمدن الخمس الغربية

أولا: مدينة سيرين (قرينى):

أول المدن الخمس التى أنشاها الاغريق عام ٦٣١ق. م (*)، على حافة الجبل الاخضر

(*) يؤرخ الاب لوكوين تاريخ انشائها بعام ٣٥٦٣ للعالم، وعام ١٤٣ لتأسيس روما، واشار المؤرخ=

الشمالية (٦٢١ مترا)، وتمتد المدينة على هضبة مستوية، تمتد من الشرق الى الغرب. وتمتد نحو الشمال خمسة أميال. ثم تنحدر بشدة نحو البحر المتوسط.

وقد تسمت بعدة أسماء مترادفة منها قيريني وسيرين وقرنة، وقورين أو تورينا ، وسماها الرومان سيرينية. وقد وجدت بها عملات فضية أغريقية (٤٥٠ ـ ٤٠٠ ق.م) مدون عليها اسم المدينة باليونانية «كيرانا»، وقد نقش حولها صورة «نبات السيلفيوم» الطبى، أحد مصادر رخاء المنطقة.

وقد دعيت المدينة بهذا الاسم نسبة الى العذراء الاسطورية «الحورية قورينا» (Nymph Corena)، في الادب الاغريقى القديم،(*) التى روت الاساطير أنها كانت بطلة صيد الأسود، وأنه لما رآها الاله «أبوللو» أحبها، وأخفاها عن الربة «ليبيا».

وقد عثر الثريان« بروشر وسميث» (١٨٦١م) على نقش بارز، نقلاه الى المتحف البريطانى، ويمثل المعبودة (ليبيا) وهى تضع اكليلا على رأس الحورية قورينا، بينما هذه تحاول الفتك بأسد، ويرمز هذا النقش الى زعامة سيرين للمدن الخمس الغربية.

ويقول الكاتب الليبى مصطفى بعيو: «العرب لم يهتموا بسيرين، أو التحقق من اسمها، اذ كثيرا ما خلطوا بينها وبين مدينة القيروان، كما فعل ياقوت (الحموى) فى معجمه».

وقد انتقل هذا الخطأ عينة الى الكتب التاريخية القبطية، التى كتبت فى العصر العربى، كما يتردد أيضا فى المقالات الصحفية التى تنشر، وفى الترجمة البيروتية (البروتستانتية) للكتاب المقدس، كما نرى فى النصوص التالية:

* أنجيل مرقس (١٥ : ٢٠) «فسخورا رجلا. مجتازا، كان أتياً من الحقل ، وهو سمعان القيروانى، أبو الكسندروس وروفس، ليحمل صليبه».

* انجيل لوقا (٢٣ : ٢٦): «ولما مضوا به (يسوع) أمسكوا رجلا قيروانيا..».

=الرومانى سوتينوس الى قيامها عام ٥٩٧ ق. م، بينما يرى المؤرخ الكنسى يوسابيوس القيصرى أنها أنشئت سنة ٦٣١ ق. م، وهو ما أجمع عليه غالبية الدارسين . أنظر أيضا: محمد مصطفى بازامة، بحث منشور بعنوان «اسم ليبيا» (بنغازى) ١٩٦٣).

(*) توجد مدن أخرى باسم هذه الحورية. منها «كيرينيا» بقبرص. وقرية القورين (غرب الاسماعيلية) .

* أعمال الرسل (٣: ١٠) «ومصر، ونواحى ليبية، التى نحو القيروان».

* أعمال الرسل ٦:٩ «فنهض قوم من المجمع، الذى يقال له مجمع الليبراتيين (الاحرار) والقيروانين».

* أعمال الرسل ١١: ٢ «.. ولكن كان منهم قوم، وهم رجال قبرصيون، وقيراونيون».

* أعمال الرسل ١٣: ١ «فى أنطاكية فى الكنيسة هناك.. لوكيوس القيروانى»!!

ومن الواجب التنبية الى أن مدينة «القيروان»، التى ينسب اليها هؤلاء، هى الحقيقة مدينة قورينى (سيرين)، احدى المدن الخمس الغربية الليبية. أما مدينة «القيروان» فتقع فى تونس (الحالية)، وقد بناها القائد العربى عقبة بن نافع بعد ميلاد المسيح بستمائة وسبعين عاما، لتكون عاصمة للمغرب العربى.

لذا ينبغى على ناشرى الكتاب المقدس «بالعربية» أن يستبدلوا كلمة «القيروانى» بكلمة القريانى أو القورينى، كما فعل ابن كبر، الانبا ساويرس أسقف الاشمونين. وكما جاء فى النسخة الكاثوليكية للكتاب القدس (طبعة رومية الحالية).

هذا ويطلق الليبيون الآن اسم «شحات» أو عين شاحات على سيرين، نسبة الى القرية الليبية الحديثة، التى تقع حالياً، فى وسط المنطقة الاثرية.

وتقع قورينى على بعد ١٨ كيلومترا الى الجنوب من مينائها أبولونيا (مرسى سوسة)، كما تقع على مسافة ٢٢٤ كيلومترا، الى الشرق من بنغازى،على الطريق الرئيسية الممهدة، بين مصر والمغرب. وقد كانت مركزا هاماً للمواصلات، فى منطقة سيرينيكا، وتمتد منها عدة طرق الى بقية المدن الخمس، وأهمها الطريق القديمة التى أقامها الاغريق، مع مينائها أبولونيا، أصلحها الامبراطور تراجان (نحو عام ١٠٠م)، وأن كانت قد تعرضت لبعض التخريب بعد ١٥ عاما، اثناء الثورة اليهودية هناك. وقد ازدهرت قورينى، فى العصر اليونانى. ووصفها الشاعر الاغريقى «بندار» (Pindar) «بأنها مدينة أقيمت على عرش من ذهب»، ولعله يعنى غناها فى النواحى الزراعية والمناخية. وقد قيل أن رُبع سكانها، فى عهد الاسكنر الاكبر (٣٣٢ ق. م) كانوا من اليهود، الذين دخلوا الرعوية اليونانية، وكان لهم « مجمع» مشهور هناك.

وقد وصل عدد سكانها في تقديرات البعض ـ الى نحو ٣٠٠ر٠٠٠ نسمة، في أوج عظمتها، ويبدو أنه رقم مبالغ فيه، والراجح أن سكانها لم يزيدوا عن نصف هذا العدد، على أكثر تقدير.

وتمتاز مدينة قورينا بآثارها الكثيرة، من العصرن الهليني والروماني. وهي توجد في ثلاث مجموعات كبيرة، على قمة الجبلين الغربي والشرقي، وعند مخرج وادي بلغادير، وتضم مجموعة ضخمة من المعابد، والحمامات الرومانية، والمسارح الدائرية، والاسواق، والاماكن العامة، والكنائس القديمة، ويحيط ـ بكل هذه الآثار ـ حائط حصين طوله نحو ثلاثة كيلومترات، وتوجد خارجه جبانة كبيرة، تضم ألف مقبرة، منقورة في الصخر، وقد نهبت محتوياتها، بعد الغزو العربي، واستعملها العرب والبدو الرحل منازلا للسكنى، أو مراحا لقطعاتهم في الليل. وقد تخربت معظم آثار المدينة، نتيجة للثورة اليهودية (١١٥ ـ ١١٧م)، وبسبب زلازل مروعة سنة ٣٦٥م، ويذكر الجغرافي الاوربي بودران (Baudrend) «أن سيرين قد هجرت في العصور الوسطى».

ثانيا: مدينة برقة (المرج الحالية):

وهي المدينة الثانية في اتحاد المدن الخمس بنتابوليس). وتأسست نحو سنة ٥٥١ ق.م، على يد بعض المهاجرين الاغريق من اخوة الملك باطوس الرابع، وبمساعدة السكان الليبيين. وتقع مدينة المرج الحالية (برقة القديمة)، في منتصف منطقة مستوية السطح، ترتفع نحو ٢٥٠ مترا عن سطح البحر. وتبعد نحو ١٠ كيلو مترات عن البحر المتوسط و١١٠ كيلو مترات عن سيرين (الشحات)، ٢٤ كيلو مترا عن طولميته.

ويعتقد راولنسون (في تعليقه على تاريخ هيرودت) أن كلمة «برقة» أفريقة الاصل. ويرى أن المنطقة قد تسمت بهذا الاسم، قبل وصول الاغريق الى ليبيا. ويرى أن المدينة قديمة بدليل العثور على عملة نقدية(ترجع للفترة بين ٤٥٠ ـ ٣٢٠ق.م) وقد نقش عليها اسمها باليونانية.

وقد تعددت الآراء بشأن هذا الاسم، فقيل ـ مثلا ـ أن الكلمة تعني صحراء، وهذا لا يتفق وموقعها غير الصحراوي. وقيل أنها أشتقت من الكلمة العبرية «بركة Berkah ، التي تقرب

من معناها فى اللغة العربية، وتعنى مكان تجمع مياه الامطار، أو خزان طبيعى reservoirحيث نمت المدينة حول منطقة تتجمع فيها الأمطار، على حسب رواية هيرودت.

ونقل الاخوان «بيتشى» ـ عن المؤرخ الرومانى سيليوس ـ أن برقة اسم «فينيقى أو ليبى الاصل»، بينما يرجح الاستاذ بازامة (الليبى أنه «اسم مصرى الاصل»، عرفته المنطقة من خلال صلات المصريين بالليبيين فى العصر الفرعونى(*)، ولعله اقرب الى الحقيقة فى نظرنا.

وقد احتلها الفرس سنة ٥١٥ ق. م، وخربوا عدة مبان بها، ولكنهم لم يدمروها تماما. الا أن انشاء مينائها «طلميته»، على يد البطالمة، قد غطى على أهمية المدينة الام. فحلت مدينة بتوليمايس محل برقة فى الأهمية، طبقا لما ورد فى كتابات مؤرخى العصر الرومانى الاوائل أمثال بلينى، وأسترابون، وبطليموس الجغرافى، ثم فى كتابات اسطفانوس البيرنطى وغيرهم.

أما فى العصر العربى، فقد استعادت المنطقة أهميتها مرة أخرى، بعدما شيد العرب مدينة فى مكانها، وسموها برقة أيضا، وأصبحت عاصمة ليبيا الشرقية، ثم أطلق اسمها على المنطقة كلها . ثم تغير اسم المدينة، منذ القرن ١٢م، فأصبحت تدعى «المرج». حسب رواية الرحالة العربى ابن سعيد . وهو اسمها الحالى، بينما ظل اسم «برقة» يطلق على المحافظة الليبية الشرقية، حتى العهد الملكى فى الخمسينات من هذا القرن، حينما انقسمت الى عدة محافظات بعد الثورة الاخيرة.

وقد تهدمت مدينة المرج، بعد ورود القبائل العربية الهلالية منتصف القرن ١١م)، وظلت كومة من الخرائب، ولم ترجع الى عظمتها الاولى، ولكن دبت فيها الحياة ـ من جديد ـ أثناء الحكم العثمانى (القرن ١٦م) ، بعد انشاء قلعة عثمانية هناك. لكن طغت عليها مدينة بنغازى. التى أصبحت عاصمة مديرية برقة العثمانية. وقد شيدت زاوية اسلامية فى ا لمرج سنة ١٨٤٢م، محل حصن رومانى، استخدمت فيها اعمدته. ولا يوجد الآن من آثارها الرومانية شئ يذكر.

(*) محمد مصطفى بأزامة ، محاضر عن «اسم ليبيا» بمؤتمر ليبيا عبر العصور (منشورات الجامعة ، بنغازى ١٩٦٨ ص ٨٩ ويرى ان أسم «برقة» يتكون من المقطعين BAR - KA(بر = بيت، معبد، أو مدينة أو منطقة، كا = القرين.

ثالثا: مدينة برنسيس (بنغازى): BE RENICE

هى المدينة الثالثة فى اتحاد البنتابوليس القديم. وتقع فى أقصى شرق خليج سيرت الكبير. وقد شيدها المهاجرون الاغريق، الذين وفدوا اليها من سيرين، أو من برقة (٤٦٠ ق.م)، ودعوها أولا سبيريدس، طبقا لما جاء فى كتابات هيرودت ، والمؤرخان الاغريقيان توسيديدس، وثيوفراستوس Tucidides & Theophrastus ومع الزمن اختصر اسمها الى هسبيريدس، طبقا لرواية المؤرخ هيراقليدس، ثم أصبحت «هسيريس» حسب تسمية سيكلاكس القرن ٤ ق.م).

وقد تسمت المدينة فى العصر البطلمى باسم الاميرة القورينية برنيس Berenice أو برنيقة، بمناسبة زواجها من الملك بطليموس الثالث حاكم مصر، ٢٤٦ ق. م، كما ورد فى كتابات أسترابون. وقد وصفها بأنها تقع على شبه جزيرة، تمتد على بحيرة تريتونيس Tritonis وظلت المدينة تحمل نفس الاسم، فى العصر الرومانى، كما أخبرنا المؤرخان بلينى ولوكانو. (Lucano)، وفى الكتب العربية القديمة دعيت «برنيق»، كالاسم البطلمى.

وقد وصفها اليعقوبى (سنة ٨٩٧م) بقوله: «ان ميناء برنيق عجيب فى الاتقان والجودة». فى حين ينقل ابن خلدون (١٤٠٦م) عن المسعودى (٩٥٦م) عبارته «صحارى برنيق» ، مما يدل على عدم وجود انتاج زراعى وفير حولها، فى تلك الفترة، أو بما يوحى بقلة عدد سكانها، وتحولها الى منطقة شبه مهجورة.

ويعتقد الاثرى جودتشايلد أن المدينة الاغريقية الاولى «هسبيريدس» قد أقيمت على أرض مرتفعة، فى أقصى شمال سبخة بركة السليمانى، فى موقع مقابر سيدى عبيد الاسلامية الحالية، على طريق بنغازى ــ طوكرة .

وقد اختفت آثار المدينة القديمة بسبب حفر الاهالى أساساتها. للحصول على حجارة للبناء. وقد شاهد الرحالة الاخوان «بيتشى» الاهالى (١٨٢٨م) وقد بنوا دورهم، فى تلك الفترة، باستخدام أحجار الآثار، كما يبدو من شكلها وعلى ذلك لا توجد أية آثار. من تلك التى جددها الامبراطور البيزنطى جستنيان فى المدينة، فى القرن السادس الميلادى.

وعلى بعد عشرة كيلو مترات من شرقى بنغازى الحالية، اكتشف الاخوان بيتشى «جنة الدنيا»، حسب وصف المؤرخ الاغريقى سكيلاكس، والرومانى بلينى . وقد حددت الاساطير اليونانية القديمة مغارة ليثى «أو موضع الجحيم والنعيم»، وتقع على مقربة من جنة هسبيريدس هذه. وسماها العرب «الشق الكبير». وهذا الشق الارضى عبارة عن مغارة طويلة وعميقة ، بين احراش كثيفة، كلما تعمق الهابط اليها، كلما ضاق الموضع و انخفض الصخر بشدة . والراجح أنه فالق فى القشرة الارضية، من فعل زلزال قوى قديم، وربما كان يخرج منه ماء ساخن . لان استرابون ٦٦ ق.م ـ ٢٤م اعتبره نهرا من الجحيم. وأشار إليه بطليموس الجغرافى (القرن ٢م) وقال : «أن ارواح الموتى تشرب منه. فتنسى أفراحها السابقة على الارض» وتروى كتب المثولوجيا الاساطير الاغريقية أيضا أن الالهين زيوس وهرقل كانت لهما مغامرات مشهورة فى تلك الجنة الاسطورية.

ومن دراسة العملات النقدية التى اكتشفها بوند وسويلز Bond & Swales نجد أن موقع المدينة الاغريقية «يوسبيريدس» لم يعد صالحا للاقامة (بعد عام ٢٥٨ق.م). وهذا يعنى أنه تم التفكير فى تأسيس مدينة برنيق، منذ ذلك الوقت (٢٤٧ ق.م ـ ٦٤٣م)، قرب البحر،و فى موقع بنغازى الحالية.

وقد تأثرت المدينة بثورة اليهود، فى سيرينيكا (١١٥م)، حيث هددتها المدينة الجديدة، التى بناها الامبراطور هدريان، (Hadrianopolis) على بعد ٤٠ كيلو مترا، شمالى برنيق، ولكن تلك المدينة لم تنل نجاحا كبيراً، لعدم وجود ميناء لها، فعادت لبرنيق أهميتها مرة أخرى، وقد أعاد الامبراطور جستنيان تحصينها فى القرن السادس، طبقا لرواية المؤرخ البيزنطى بروكوبيوس(Procopius) .

ويبدو أنها انحدرت بعد الفتح العربى، فقد أسهب المؤرخ أبو عبيد البكرى فى وصف المرج (برقة) كما تحدث عن مدينة اجدابية (جنوب بنغازى)، مما يقوى من الاحتمال باختفاء برنيسى فى زمانه (١٠٩٤م). وما يؤكد ذلك ما ورد فى كتابات الادريسى (سنة ١١٥٦م) من أنعدم الحياة فيها، بقوله: «وتبعد سلوق عن قافيز مسيرة يوم، وقافيز قصر شيد على خوائب برنيق». كما يتحدث عن غابة، وعن بحيرة عذبة تفصلها عن البر كثبان رملية . والراجح ان هجرة

قبيلة بنى هلال العربية الى المنطقة (١٠٥١م) قد أتت على ما بها من عمران، بعدما هجرتها البقية الباقية من الروم، الذين ظلوا بها حتى تلك الفترة على ما يبدو.

وقد ظل موقع برنيس مهجروا منذ القرن ١١م، الى أن أعادها للحياة مهاجرون من طرابلس الغرب، جاؤها للتجارة (١٤٦م).

أما المدينة الحديثة، التى أقيمت فوق انقاض برنيس، فقد تسمت باسم أحد المرابطين، ويدعى «سيدى غازى» (نحو ١٤٧٩م)، فدعيت «مرسى ابن غازى» ثم اختصرت فيها بعد الى «بنغازى». وقد ورد هذا الاسم فى حوليات المؤرخ ابن الفرات.

رابعا: مدينة توشيرا` (طوكرة): TOCRA

كانت عضوا فى اتحاد البنتابوليس، فى القرن ٣ ق. م، ونستدل من أقوال الشاعر بندار (الاغريقى) أن مهاجرين من سيرين هم الذين قاموا بتأسيسها، وقيل أنهم جاءوا اليها من برقة.

وتقع على خليج سدرة (سيرت الكبير) بين مدينتى طولميته وبنغازى، فى أقصى غرب سيرينيكا، حيث تقترب حافة الجبل الاخضر من ساحل البحر المتوسط، وقد تكون سهلها الساحلى من منطقة نحتتها أمواج البحر، فظهرت الصخور الجرداء على سطح الارض، خالية من التربة. ويرتفع الساحل نحو مترين عن سطح البحر، ويمتد الى سفح الجبل نحو ستة كيلو مترات، وبه كثبان رملية، وبرك ملحية تسمى محليا (السبخات)، وتسقط عليها كمية كافية من الامطار سنويا.

وقد قرأنا اسم المدينة بعدة أشكال، منها توكرا Tocra (حاليا طوكرة)، أو «توخيرا» أو توشيرا، والاخير هو الذى يفضله القدماء (٥٠) ويذكر المؤرخ البيزنطى اسطفانوس أن هذا الاسم قد أشتق من اسم أو تاندروس.

هذا وقد تسمت المدينة أيضا باسم «أرسينوى» (Arsinoe) نسبة الى زوجة بطليموس الثانى فيلادلفوس، كما عرفت ـ لفترة قصيرة من العصر البطلمى ـ باسم «كليوباتريس» (Cleopatris)، نسبة لابنة كيلوبترا من مارك انطونيو.

وقد شوهد عدة قبور مسيحية، وأخرى عبرية. منقورة فى الصخر. وفى طوكرة. ويرى

الاثريون أنه نظرا لندرة آثار الرخام بها، ما يوحي بأن مجتمع طوكرة كان مجتمعا فقيراً، يعيش عيشة بسيطة، أذا ما قورن بمجتمع مدن البنتابوليس الاخرى.

ومن الواضح أن طوكرة كانت مدينة حربية، ذات أهمية استراتيجية بالغة، كمركز حماية، من البحر، للممر الذى يتجه منها الى الشرق . ولهذا اقيم حولها سور منيع، شبه مربع، يمتد ٦٠٠ متر، من كل جانب، وعرضه متران، وكان يقويه ثلاثون برجا ، وله ثلاثة أبواب رئيسية. وكان أول تشييد له فى العصرن الاغريقى، وأعيد اصلاحه عدة مرات، كان آخرها فى عصر جستنيان، فى القرن السادس،ولا تزال بقاياه للآن.

ومما يؤكد طابعها الحربى المحض أنه لم يعثرم بها على أى أثر يدل على أنه كان لها ميناء تجارى، وقد أقام بها البطالمة قلعة حصينة، كما بنى الاتراك هناك قلعة أخرى، للاستفادة من موقعها الحربى الممتاز، على خليج سيرت.

ولطوكرة تاريخ حربى قديم وطويل، فقد تصدت لهجمات القائد الفارسى آرياند، ٥١٠ ق.م،كما دافعت عن سيرينيكا (٣٢٢ ق.م) عندما هاجمها القائد تيبروس. وقد تعرضت المدينة إلى التخريب على يد اليهود، ومن سكانها سنة ١١٥م، ولما لم يمكن اعادتها الى حالتها الاولى، فقد قرر الامبراطور هدريان انشاء مدينة بديلة ـ بجوارها ـ تحمل اسمه. طبقا لرواية المؤرخ الرومانى أورسيوس.

ولكن الحياة دبت فيها من جديد، بعدما أجرى فيها جستنيان اصلاحاته.وقد أصبحت طوكرة مقرا للقائد العام للجيش البيزنطى، فى بنتابوليس. ولذلك كانت آخر المعاقل التى قاومت الجيش العربى (٦٤٣م) وفر منها القواد والجنود البيزانطيون الى أوربا، وعاشت على هامش المنطقة، بعدما اتجه الحكام العرب الى الداخل.

ويذكر الادريسى أن البربر سكنوا اطلالها فى أيامه (١١٥٦م)، وظلت المدينة مهجورة تماما حتى القرن الماضى، حينما زارها الاخوان بيتشى (١٨٢٨م) وشاهدا بعض العرب الرحل يسكنون مقابرها أثناء موسم رعى الاغنام، خلال فصل الصيف . وظلت المدينة على ركودها حتى الوقت الحاضر، حيث لا نشاهد بها أى سكان مستقرين، وان كانت هناك محاولات لتعمير المنطقة، خارج الاسوار، باستصلاح الارض، وتوطين البدو فى مساكن حديثة.

خامسا: مدينة أبولونيا (مرسى سوسة):

تقع على ساحل البحر المتوسط في مساحة ضيقة. في نهاية سهل خصيب، أسفل حافة السلسلة الجبلية. التي تبعد كيلو مترين ونصف فقط عن الساحل، الى الشمال من مدينة سيرين تماما. ويبلغ طول المدينة القديمة ٣٠٠٠ قدم، وأقصى عرض لها ٥٠٠ قدم فقط، وكان ولا يزال يحيط بها سور متين.

ونميل الى رأى الاستاذ البرغوتي، الذى ينادى بأن المدينة قد نشأت بعد تأسيس سيرين بقليل، لتكون ميناء لها، ومنفذا بحريا لتجارتها. ولكن الاستاذ جونز يرجع تاريخ نشأتها الى عهد بطليموس الثالث ٢٥٠ ق.م)، على أساس أنها مرتبطة بانشاء اتحاد البنتابوليس(*).

اما الاستاذ مصطفى بعيو فقد قال: «ان ذكر أبولونيا قد ورد ـ لاول مرة ـ في كتابات ديودور الصقلي، ولم تكن حتى ذلك الوقت قد أصبحت مستقلة بذاتها (عن سيرين)، وانها كانت جزءا لا يتجزأ منها سياسيا». ويضيف: «انه ذكرها ـ كمدينة قائمة بذاتها، أى مستقلة في ادارة شئونها.

ومعنى ذلك أنه يرى أنها لم تكن ضمن اتحاد المدن الخمس (بنتابوليس)، الذى وضع أساسه المشرعان اكديموس وديموفانس (نحو ٢٥٠ ق. م)، وهو رأى لا يمكن قبوله، لانه يتناقض مع آراء القدماء والمحدثين.

وعلى أية حال، فقد ظلت أبولونيا مخرج سيرين الهام لنحو الف عام، كانت تتصل بها عن طريق جبلي، منحوت في الصخر الصلد ٢٠ كيلومتر، وهو حاليا يأخذ نفس اتجاه الطريق القديم، وأعيد صلاحه عدة مرات.

وقد تسمت المدينة باسم «أبوللو» ، كبير الآلهة الحامي للاغريق. الذى تقول الاسطورة أنه جاء بالمهاجرين الاغريق الى ليبيا الشرقية. ثم أطلق على المدينة اسم «سوزوسا» Sozusa، في

(*) وقد كان بالعالم الهليني ٣٠ مدينة باسم أبولونيا، منها واحدة ذكرت في أعمال الرسل (١٧:١)، والراجح أن المدينة الليبية قد نشأت بعد زيارة هيرودت، حيث لم يشر اليها. أما جونز فقد اعتبر تاريخ انشائها هو تاريخ ضمها للاتحاد، وربما كانت موجودة قبل ذلك بقرنين على الاقل، وقد عثر عن نقش في أثنيا يرجع لنهاية العصر البطلمي)، يفيد بأنها كانت تنسب الى سيرين.

العصر المسيحى، ربما فى عهد المطران الليبى سينيسيوس (٤١٠م) ، حيث انها قد اشتهرت به فى عهده . ويعنى هذا الاسم «مدينة المنقذ» أو المخلص، حسب تفسير الاستاذ البرغوتى، ولعله ينسب الى السيد المسيح، وليس الى ربة وثنية، كما يزعم البعض ولا يزال هو اسمها الحالى «مرسى سوسة».

ومن الجدير بالذكر أنه مع بداية القرن الرابع الميلادى بدأت أهمية سيرين تتضاءل، بينما استمرت «سوسة» فى النمو، على حسابها، حتى بلغت ذورة مجدها خلال القرن السادس. ثم أصبحت عاصمة سيرنيكيا، فى القرنين السادس والسابع، بسبب تعرض سيرين لهجمات البربر كما سنرى فيما بعد.

ومن الجدير بالذكر أن هناك مدينة أخرى فى تونس تسمى «سوسة» أيضا، يجب عدم الخلط بينهما، كما يحدث لدى البعض.

وكان البحر قد ابتلع نحو ثلث مساحة المدينة القديمة ، بعد زلزال عنيف هز سواحل البحر المتوسط فى العصور الوسطى. ومن الصعب الآن تحديد الميناء الاغريقى وأرصفته . وان كان من المرجح أنه يقع فى منطقة الى الشرق من النتوء الصخرى، الذى يشاهد حالياً متعمقا فى البحر. وفى المنطقة التى لم تغمرها المياه، نشاهد آثار قلعة بيزنطية الى الجنوب، كانت مقرا للحاكم البيزنطى فى القرن السادس، وبالمدينة أيضا عدة كنائس.

وقد تخربت المدينة أثناء الفتح العربى، طبقا لحفريات الاثرى الاستاذ بيركنز Ward - Perkins ، وظلت خالية من السكان تقريبا، الى أن شيد الاتراك مدينة «سوسة» الحديثة (١٨٩٧م) كمستعمرة للمسلمين، المهاجرين الى ليبيا من جزيرة كريت. ولهذا نجد أن هناك مسحة غير افريقية بين سكانها الآن.

وقد أعيد بناء المدينة الحديثة على نطاق واسع ، أثناء الاحتلال الايطالى، ١٩١١م، فغدت ميناء للسفن الساحلية، ومركزا اداريا. الا أن أحوالها الآن تختلف عما قدر لها، فهى لا تؤدى أيا من هذين الغرضين وأصبحت تخلد الى السكون. وربما يرجع ذلك لبعدها عن العاصمة الاقليمية بنغازى (بنحو ٣٠٠ كيلو متر)، على طريق غير مسلوكة، ويقيم السكان الحاليون كلهم خارج أسوار المدينة القديمة.

سادساً: مدينة بتوليمايس (طولميتة): Ptolemais

سبق أن أوضحنا أنها قد حلت محل مدينة برقة(*) فى اتحاد البنتابوليس نحو (١٦٣ ق. م) وقد أجمعت الدراسات الاثرية على قدم مينائها. ويقول الاثرى جودتشايلد: «لقد نمت بتوليمايس فى العصر اليونانى الى مركز تجارى مستقل ذاتيا»، وربما يرجع ذلك الى صلاحية مينائها لرسو االسفن قديما.

وقد اختير موقعها بعناية، فى منطقة تنحصر بين البحر المتوسط واحد الاودية الضيقة، وتشـــاهد على جانبيه آثار تحصينات لحمايتها، كما أحيطت المدينة بأسوار توازى الجبل من الخلف، وعلى امتداد الوادى حتى البحر.

ويرى الاثرى الامــريكى كــريلينج (Kraeling) ان طبيعتها الجغرافية هى التى جذبت الاغريق اليها(من منطقة برقة)، حيث ساعد موقعها على تحسين مناخها. فقد كفل الجبل حماية كافية لها من الحرارة والرياح التى تهب من جوف الصحراء، مع تسهيل سقوط امطار كافية، ساعدت على نمو الاعشاب للرعى، وخلقت تربة رسوبية صالحة للزراعة . وقد أشار الشاعر اليونانى «بندار» الى غناها الاقتصادى قديما . وعلى أساس هذه المعلومات، أوحى كهنة معبد «دلفى» الاغريقى (Delphic Oracle) الى أبناء وطنهم بضرورة الهجرة الى تلك المنطقة واستيطانها، ولا نستبعد انه قد وفدت اليها أعداد من مستوطنى برقة، للسكنى بها.

وتقع المدينة الحديثة على بعد ٢٩ كيلو مترا من طوكر، ونحو ٢,٥ كيلو متر من الشاطئ، ويبدو أنها قد شيدت فوق الميناء القديم لمدينة برقة، طبقاً لرواية بطليموس الجغرافى. والراجح ان اهتمام البطالمة بها وانشاء ميناء بطلمى كبير بها كان مرجعه امتداد الارض على شكل لسان طبيعى، داخل مياه البحر المتوسط، مما أعطاها حماية طبيعية من الامواج، وبالاضافة الى موقعها البحرى، شمال برقة مباشرة، وهى المنطقة التى أشرنا من قبل الى أنها قد اشتهرت بوفرة انتاجها الزراعى، فاعتبرت بموقعها هذا المخرج الوحيد لتجارتها. وقد نما اسطولها البحرى حتى نافس اسطول قرطاجنة فى البحر المتوسط.

(*) تسمى حاليا «طولميته». وقد كان فى فلسطين مدينة أخرى باسمها، فى موقع عكا (أع ٢١ : ٧.

Crt. Rawlinson, in Herodot. Hist. III, p. 138. not2.

و قد أشار الاخوان «بيتشى» أن موقعها الجغرافى الممتاز لا يفضله أى موقع آخر على طول الساحل الليبى الطويل، سوى مدينة «لبدة» (قرب طرابلس) . وقد أفادنا أن طلميتة تمتد من الشمال الى الجنوب. مسافة كيلو متر ونصف طولا . وعرضها ـ من الشرق الى الغرب ـ نحو كيلو متر واحد فقط وهى على شكل مثلث ترتكز قاعدته تحت سفح التل، وبين واديا «زوانا وكمبيش». وقد عنى البطالمة بتخطيط شوارعها، على شكل شبكة متعامدة الطرق لا تزال تشاهد بقاياها الى الان.

هذا وقت نجت المدينة من ثورة اليهود المدمرة عام ١١٥م. ثم نمت بعد ذلك حتى أصبحت عاصمة سيرينيكاً الرومانية والبيزنطية أيضا. اعتبارا من القرن الرابع الميلادى وأصبحت كذلك مقر لمطران بنتابوليس، بعدما تفوقت على سيرين العجوز. التى تعرضت لزلزال مدمر سنة ٢٦٥م، دمر أجزاء كبيرة منها، وحطم معابدها. ثم أكمل البربر على ما تبقى منها من عمران، فى فترات متلاحقة.

ويصف المؤرخ البيزنطى «بروكوبيوس» مدينة بتوليمايس، «التى زارها فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى ، فيقول: «أنها مدينة جميلة فعلا». ثم يضيف بقوله : «أنها كانت مزدحمة بالسكان»!! وهو وأن كان وصفا مبالغا فيه، الا أننا نرجح أنه كان يعنى أنها أكثر سكانا من بقية المدن الخمس الاخرى ، خاصة وأن معاصره الامبراطور جستينان قد اهتم بتعميرها، وأنشأ بها مستودعات كبيرة للمياه العذبة ، وبنى لها قنوات عليا لنقلها ، الا أنه يبدو أن هذه المستودعات قد تهدمت بفعل غارات البربر، التى أدت أيضا إلى تدمير أجزاء كبيرة من المدينة، وهو ما يصفه المطران سيئسيوس بمرارة، فيما تركه من رسائل، وكتابات أخرى فهجرها سكانها بسبب الخطر، ولعدم توفر مياه الشرب.

كما تأثرت المدينة بشدة، عند الفتح العربى لبنتابوليس، حيث سكن السادة الجدد العاصمة الجديدة برقة المرج وهى تقع الى الداخل، خوفا من هجمات الروم من البحر وكانت هذه السياسة أيضا سببا فى اقفرار المدن الساحلية الليبية بصفة عامة. وكانت الطامة الكبرى، بعد غزوة قبائل بنى هلال، فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى التى قضت على كل نواحى العمران فى المنطقة.

وبذلك أهملت طولميته، وتركت خرابا ، فى العصورن التالية، ولم تعد سوى محجر، للقرية الحديثة التى اقيمت الى جوارها فى أوائل القرن الحالى.

وبعد ..فانه باستعراض جغرافية مدن البنتابوليس، ونموها من الناحية الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية . نجد تفوق بعضها على البعض الآخر بمرور الزمن. كما نلاحظ أن العاصمة قد انتقلت من سيرين الهلينية. الى بتوليمايس الرومانية (سنة ٢٩٧م ، على يد الامبراطور دقلديانوس . وفى القرن السادس نقلت العاصمة الى أبولونيا البيزنطية (سوسة)وبعد الفتح العربى أصبحت مدينة «المرج» (برقة القديمة) هى قصبة انطابلس العربية (ولاية برقة). أما فى أثناء الحكم الفاطمى لشمال افريقية ومصر، فقد تزحزت العاصمة الى الجنوب ، حيث أصبحت مدينة «أجدابية» عاصمة لبرقة الفاطمية، لانها أصبحت تقع مباشرة على طريق القوافل الصحراوية الرئيسية، التى كانت تمتد بين مصر والمغرب العربى. ولا شك أنه كان لهذا كله أثره الواضح على أحداث بنتابوليس. وقد تركت بصماتها على ا لمسيحية، التى نشأت ونمت وضعفت ثم اختفت من هناك.

بنتابوليس فى العصر الرومانى

مقدمة :

ظلت المدن الخمس تحت حكم بطليموس الحادى عشر- فى مصر- الى أن تولى ادارتها بعدة ابنه بطليموس «أبيون» (Apion) ولكنه لم يترك ولدا يرثة بل ترك «وصية» يتنازل فيها عن بنتابوليس لروما بعد وفاته. وهو ماتم سنة ٩٦ ق. م، وأصبحت المنطقة ضمن املاك الامبراطورية الرومانية منذ ذلك الوقت.

الا أن مجلس الشيوخ الرومانى Senato لم يشا أن يحد من حرية هذه المدن، فاعتبرها حليفة لروما، وأطلق لها حرية تصريف شئونها بنفسها فعانت من الفوضى والاضطراب السياسى والاقتصادى، وأصبحت نهبا لاعمال الطغاة، ومجالا خصبا للانشقاقات بين الاحزاب الارستقراطية والشعبية. وأدت الهجمات البدوية المتكررة الى المزيد من الفوضى.

فتدخل الرومان، على يد قائدهم لوكللوس (Lucuilus) وبسطوا نفوذهم الكامل على

بنتابوليس، وأقيمت «ولاية سيرينيكا» الرومانية نحو عام ٧٥ق.م، نسبة الى عاصمتها سيرين. وظل هذا الاسم هوالوحيد الشائع فى المصادر الاوروبية الى الآن (Cyrenaica)

ثم ضمت سيرينيكا الى جزيرة كريت، فى وحدة ادارية واحدة Creta - Cyrenea (٦٧ق.م) ، وخضعتا معا لاشراف السناتو الرومانى، واختير لهما حاكم عام (Proconsul) بسبب قربهما من بعضهما.

واستقلت سيرينيكا لمدة قصيرة ، حينما منحها انطونيو لابنته من كليو بترا ٣٦ ق. م) ، ثم اندمجت مع جزيرة كربت ـ ولاية واحدة ـ مرةن اخرى ، وظلت هكذا حتى موت أغسطس قيصر (١٤م). ثم انفصلت عنها وظلت ولاية رومانية مستقلة،حتى عهد دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م).

ومن الناحية الاقتصادية:

فقد قام الرومان بانشاء خزانات لحفظ مياه الشرب، وتوسيع الرقعة الزراعية. وكان تغاضى الرومان عن ادارة سيرينيكا مباشرة، بعد تسلمها من البطالمة، قد أغرى بعض أغنيائها بالاستيلاء على مساحات من الاراضى الزراعية التى كانت ملكا للبطالمة.

ولهذا أرسل كل من الامبراطور «كلوديوس، وفسبسيان» مندوبا حكوميا من قبلهما، لتخطيط ومسح الاراضى الزراعية والتأكد من وثائق ملكيتها.وبذلك أمكن استعادة المساحات المغتصبة من أراضى الحكومة البطلمية، فى منطقتى سيرين وطلميتة.

وقد قل نبات السيلفيوم ـ كغلة اقتصادية ـ فأصبح الخشب يصدر بدلا منه، كما راجت تجارة الحيوانات البرية، التى تحتاجها مسارح روما. كما زادت صادرات الحبوب الى ايطاليا ، مما يدل على زيادة الرقعة الزراعية فى تلك المرحلة . هذا فى الوقت الذى عمل فيه الرومان بنشاط، للقضاء على عمليات «القرصنة» فى جنوب البحر المتوسط، مما ادى الى حماية اسطول سيرينيكا التجارى، ورواج تجارتها مع العالم الخارجي.

وقصارى القول فان سيرينيكا قد تمتعت برخاء نسبى ، فى القرن الاول الميلادى، متبوعا بالامن والسلام (Pax - Romana) بعد تأديب القبائل البربرية . وقد نتج عن ذلك نهضة

عمرانية كبيرة، فشيدت المبانى والمعابد والحمامات والاسواق العامة، كما نعمت المسيحية بفرصه نادرة، ازدهرت فيها هناك، فى تلك الفترة، الا أن الثورة اليهودية، التى اجتاحت المنطقة (١١٥ ـ ١١٧م) قد قضت لحد كبير على تلك النهضة العمرانية، فلم تستطع معظم مدن بنتابوليس أن تنهض من كبوتها. رغم محاولات هدريان تعمير ما تهدم من منها.

اما بالنسبة للنواحى الاجتماعية والثقافية:

فقد افادنا المؤرخون أن سكان المدن الخمس فى العصر الرومانى الاول، كانوا فى مجوعهم من أسر تنحدر من سلالة المستوطنين الاغريقى الاوائل ، كما وفدت الى المنطقة أعداد من الرومان، أرسلهم هدريان ـ من الجنود المسرحيين ـ لتعميرها ، بعد الثورة اليهودية.

وبذلك رجحت كفة الرمان، ولم يعد الاغريق يشعرون حينذاك بأنهم على قدم المساواة مع السادة الرومان. ولهذا كثرت المشاحنات بين الفريقين.

أما من الناحية الثقافية، فقد ظلت اللغة اليونانية لها السيادة، وظلت كذلك حتى دخول العرب الى برقة (٦٤٣م) ،بينما أقتصرت اللاتينية على الوثائق الرسمية.

ومن ناحية أخرى، فانه نظراً لاحتفاظ سكان المدن الخمس ـ الاغريق ـ بلغتهم وثقافتهم، فقد ظلت هوة الخلاف بينهم وبين المواطنين الليبيين كبيرة وأصبحت هناك طبقة مميزة من الاغريق والرومان. وقد غذاها النظام الطبقى الرومانى، الا أنه قد حدث اختلاط محدود، بين المستوطنين والسكان الاصليين.

سيرينيكا فى العهد البيزنطى (٦٤٣.٣٢٣م):

رغم قلة المعلومات المتوفرة عن سيرينيكا فى العهد الرومانى المتأخر. الا أنه عرف عن الامبراطور دقلديانوس أنه وضع لها تنظيمات ادارية جديدة، على أساس أن تنقسم منطقة ليبيا الشرقية الى دوقية، مكونة من أيبارشيتين (منطقتين اداريتين تشمل الاولى منطقة بنتابوليس، وعاصمتها بتوليمايس، وقد سماها «ليبيا العليا» Pentapolis Libyae (Superiore) والاخرى سماها «ليبيا السفلى» (Libyae Interiore) وتشمل المنطقة الصحراوية (مارماريكا القديمة) الممتدة بين مدينتى درنة والاسكندرية. وجعل عاصمتها «باريتونيوم» مرسى مطروح الحالية. ثم

اصبحت درنة عاصمة مارمايكا. وقد تبعت المنطقتان الحاكم البيزنطى العام فى مصر (التى تسمت باسم الولاية الشرقية). وكانت سيرينيكا هى آخر حدودها، فى تلك المرحلة. وأصبحت هناك مطرانيتان، احداهما فى بتوليمايس، والاخرى فى درنة.

ولا شك ان نقل العاصمة الى بتوليمايس، كان بهدف توفير مكان أكثر حماية من غارات البربر، وبسبب الخراب الشديد الذى تعرضت له على يد اليهود سنة ١١٥م، يضاف الى ذلك آثار الزلزال الكبير، الذى حدث سنة ٣٦٥م. مما دفع المؤرخ البيزنطى «أميانوس» أن يصفها، نحو سنة ٣٧٥م بقوله «أنها مدينة قديمة ومهجورة»، ويفهم من ذلك أن عدد سكان سيرين قد تضاءل بدرجة كبيرة، وان كنا نرجح أنها لم تفقد اهميتها تماما. حيث يضع هذا المؤرخ «بتوليمايس» بعدها فى الترتيب.

إلا أن الجغرافى «ريز» Riese يضع بتوليمايس فى مقدمة مدن سيرينيكا فى تلك الفترة، لنمو سكانها، بعد انتقال الادارة المدينة اليها بمؤسساتها الادارية، وقوات الامن والحكومة المركزية.

ومن ناحية أخرى فقد عمل الامبراطور قسطنطين الكبير (٣٢٣ ـ ٣٣٧م) على الحاق سيرينيكا بالعاصمة البيزنطية مباشرة (القسطنطينية). الا أنها عادت من جديد، تحت الاشراف المباشر للحاكم البيزنطى العام فى مصر، فى عهد الامبراطور جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥م). وكان هذا الامبراطور قد استرد كل الشمال الافريقى من الوندال، وعمل على اصلاح سيرينيكا، مع اهتمام خاص بالنواحي العمرانية والدينية والامن، تطبيقا لمبدأ احياء الامبراطورية، التى أصابها الضعف. نتيجة لهذه السياسة تمتعت سيرينيكا بهدوء نسبى فى أيامه، وأتسعت رقعة المسيحية فى زمانه.

وقد انتقلت ادارة سيرينيكا ـ مرة أخرى ـ من بتوليمايس الى «سوسة»، وقد أثبتت الآثار المتبقية بها وجود «قصر» للحاكم البيزنطى العام فى سيرينيكا، كما يستنتج ذلك أيضا من ترتيب المدن الخمس فى الموجز التاريخى للمؤرخ هرقل البيزنطى. ولعل ذلك مرجعه البحث عن مكان أكثر حماية من غارات البربر، يضاف الى ذلك عدم وجود الماء العذب الكافى فى طولميته، وقد تم اخلاؤها تقريبا من سكانها، نتيجة لانهيار خزانات المياه بها. ويحتمل أن

يكون سكانها قد توجهوا الى منطقة برقة الزراعية، حيث يذكر جود تشايلد أنهم ذهبوا الى الريف، وأنهم لم يكونوا ـ فى مجموعهم ـ أكثر مما كانوا فى عهد البطالمة.

أما بالنسبة لمدينة «برنيس»، فقد وجد جستنيان أنه من الضرورى اعادة بناء أسوارها، ولكننا لا نسمع عنها شيئا، لمدة ثمانية قرون متواصلة الا «كاسم مكان يدعى برنيق» فى كتب المؤرخين العرب.

ويشير جودتشايلد:«الى أنها بقيت نحو قرن آخر (بعد الفتح العربى) عن طريق مجموعة من الاقباط، الذين عاشوا تحت سلطان العرب» وربما كانوا من الحرفيين والتجار.

ولعل من المهم ان نذكر بالتفصيل «الامن فى المنطقة فى العصر البيزنطى المتأخر». فقد عانت سيرينيكا من هجمات القبائل البربرية باستمرار، وبدأت فى العصر الرومانى الاول تزداد حدة،حتى بلغت ذروتها فى العصر البيزنطى.

ويقول الدكتور محمد أيوب «أنه لولا ظهور الرومان على مسرح الاحداث لجرفت القبائل الليبية أمامها المدن الخمس الاغريقية». اذا داوم الرومان على ارسال الحملات الحربية لتأديبهم منذ عام ١٢ ق. م. طبقا لوثائق تلك الفترة . كما تم الاتفاق مع الحاكم الرومانى العام للشمال الافريقى، للمساعدة فى القضاء على أى تمرد من جانب البربر.

أما فى القرن الثالث الميلادى وما بعده، فليس هناك اشارات صريحة لحروب ضد البدو، ولكن أنشاء القلاع الحربية للحماية، فى المناطق الصحراوية فى جنوب سيرينيكا، يعد دليلا قويا على وجود المتاعب من البربر باستمرار، خصوصا فى أيام البيزنطيين، وحتى الفتح العربى (٢٦٤ ـ ٦٤٣م)، حيث زادت هجمات البربر بشدة ، وكانت تصل الى أديرة وادى النطرون. وقد أكسبها العنف والقسوة استخدام الجمل، الذى زاد سرعة زحفهم، وسرعة انسحابهم الى قلب الصحراء

ومن كتابات المطران الليبى سينسيوس أوأخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس) نعرف مقدار ما عاناته بنتابوليس من خراب وقتل للأنفس فى زمانه، بسبب وقوعها تحت رحمة البربر، الذين لم يجدوا من يقاومهم من الجنود البيزنطيين، فاضطر أن يقود القتال بنفسه مع المتطوعين من مسيحى المدن الخمس، الذين حولوا منازلهم الى شبه قلاع صغيرة.

وقد قال المطران ـ ذات مرة ـ أن البربر حملوا الاسلاب والاسرى المسيحيين على ٥٠٠٠ جمل. وأن كان هذا الرقم مبالغا فيه على ما يبدو، ولكنه يدل ـ على أية حال ـ على مدى شدة الهجوم، الذى تعرضت له طولميته، ويوضح مدى صعوبة الحياة فى بنتابوليس فى تلك الفترة، خاصة اذا عرفنا أن القبائل الليبية المهاجمة قد تمركزت فوق هضبة سيرينيكا نفسها، وحول خليج سيرت، مما شكل تهديداً مستمراً للمنطقة. ويذكر جودتشابلد أن الغزاة قد استفادوا من طبيعة وادى «الكوف» Kuf فى الجبل الاخضر، ليشنوا منه هجماتهم المباشرة على سيرينيكا.

ومن الملاحظ أن الحكام البيزنطيين كانوا ـ فى بداية عهدهم ـ يشترون سكوت البربر بمنح الذهب الى رؤساء قبائلهم. الا أنهم انصرفوا عنهم فيما بعد، لعجزهم عن دفع تلك الاتاوات الكبيرة لهم، لقلة الموارد المالية، بسبب تدهور الاحوال الاقتصادية، فى سيرينيكا، لاسباب طبيعية وادارية ومالية مضطربة.

فقد حدث تغير ملحوظ فى حالة المناخ، فى شمال افريقية، كان من نتيجتة ازدياد الجفاف، وقلت بذلك الموارد المائية الجوفية، وتحركت الكثبان الرملية، التى غطت الدروب والطرق القديمة، فقل الانتاج الزراعى. وفى نفس الوقت أصبح من العسير على العربات التى تجرها الخيل أن تستمر فى سيرها فى قلب الصحراء لردع البربر هناك، كما كانت الحال فى العصر الرومانى الاول، مما أعطى للبربر حماية طبيعية من هجمات البيزنطيين.

نضيف الى ذلك الضرائب الباهظة التى فرضها الاباطرة البيزنطيون على الافراد والاراضى، والتى كانت تتناقص باستمرا، بسبب قلة السكان، وانخفاض الانتاج، وفساد الجباة، الذين كانوا يدفعون مبالغا كبيرة ـ مقدماً ـ لخزانة الدولة، ثم يقومون بطرقهم الخاصة بسلب الاهالى أثناء تحصيلها. ويقول المؤرخ البيزنطى بوركوبيوس: «ان جستنيان قد جمع المال من هؤلاء المساومين، واعطاهم سلطة على رعاياه..».

ورغم استحداث وظيفة «حامى المدينة» (أو المحامى المدنى) منذ ٣٦٤م ، بقصد حماية دافعى الضرائب، وأنصاف أصحاب الشكوى منهم، الا أنه عجز تماما عن حماية السكان من استبداد الجباة والموظفين.

ونسجل هنا ما كان يحدث من صراع بين كبار الموظفين البيزنطيين المدنيين والعسكريين، وبين رجال الدين المسيحى، الذى كانوا يدافعون بكل قوة عن المظلومين فى سيرينيكا. والمثال الصارخ لذلك الحاكم «أندرونيكوس» Andronicus الذى كان عدوا للمطران سينسيوس. وقد دخل معه فى صراع بسبب ظلمه الشديد لشعب طولميته . وكان هذا الوالى قد علق منشورات على أبواب الكنائس ينكر فيها أن تعتبر دور العبادة ملاذا للمظلومين (Asylum) ، كما كانت العادة السائدة فى اجزاء من الدولة البيزنطية. مما دعا المطران الى الوقوف فى وجهه، ثم وقع عليه الحرم الدينى، بعدما تمادى فى طغيانه، ولم يستجب لنصائحه.

أضف الى ذلك فوضى الجند وعدم نزاهتهم، على اختلاف درجاتهم، واستخدامهم العنف، وسلب المال من الشعب، وقد أشار سينسيوس الى فساد الادارة الحكومية، وقال ان العاملين تنقصهم الكفاءة الادارية وقد مالوا الى الرشوة.

وقد ألمح المطران فى رسائله أيضا الى كثرة الفقراء فى زمانه، فى الوقت الذى ظهرت فيه طبقة غنية من التجار، بسبب استغلال السوق السوداء، وهو أمر متوقع، فى مثل تلك الظروف التى قل فيها الانتاج عن حاجة الاستهلاك، بعدما قضى البدو على الزراعة بحملاتهم وأسلابهم الكثيرة.

وقد أكد المطران أيضا على فساد القضاء البيزنطى، فى سيرينيكا، حتى أصبح جزء كبير من الشعب يتعرضون لاذى عديمى النزاهة، دون أن ينصفهم القضاء، «كما عاش الاشرار يقتاتون على طعام النصف الباقى من السكان»، ولم يفعل هؤلاء لهم شيئاً، اذ كانت المحاكم تغلق أبوابها هى الاخرى، أثناء الغارات البربرية، كما نقرأ أيضا ـ فى كتابات سينسيوس ـ عن الاحكام الجائرة ، التى كان القضاء يصدرها، ومنها النفى، أو الاعدام أحيانا.

ومما زاد من اضطراب الامن فى المدن الخمس، هجوم الفرس على المنطقة، فى عام ٦١٦م، حيث قضوا ـ هم أيضا ـ على كل ما تبقى بها من عمران. ولما تمكن هرقل من الزحف من شمال أفريقية الى مصر، وطرد الفرس، وجلس على كرسى بيزنطة، كثرت الشكوى أيضا من حكمه، طبقاً لروايات المؤرخ البيزنطى ثيؤفانيس، والاسقف القبطى يوحنا النقيوسى، وذلك لان سكان بنتابوليس قد كرهوا، الحكم البيزنطى بعد خروج الفرس، وكان هؤلاء قد تركوا أمر

الحكم ـ عشرة اعوام ـ على نحو من اللامركزية، وأعفوهم من بعض الاعباء التى كانت ترهقهم.

كما أن هرقل لم ينفذ وعده لهم ـ قبل طرد الفرس ـ بتخفيض الضرائب، بل ازاداد الولاة البيزنطيون فى ظلمهم للاهالى. فقد لجاوا لجمع الغلات والمصنوعات، لارسالها الى القسطنطينية، فى مقابل الضرائب الباهظة المقررة . وعلى ذلك كانت بنتابوليس ومصر، ومن أشقى الولايات البيزنطية، كما عبر بتلر بصدق.

والخلاصة، فقد أستهل القرن السابع وبنتابوليس، فى حالة يرثى لها، بعدما وصلت الامبراطورية البيزنطية نفسها الى أحلك أيامها، وأشد أزماتها حدة . فقد أعلنت أفلاسها ماديا وحربيا، وجثم على صدرها شبح الفرس والعرب. أضف الى ذلك الخلافات الدينية بين الدوله والكنيسة القبطية الارثوذكسية، كما كان الانحلال الاجتماعى دليلاً على ما كانت تعانيه الدولة من متاعب ، وخاصة القصر الامبراطورى، الذى كان مليئا بالدسائس والمؤمرات. هذا فى الوقت الذى كانت فيه افريقية البيزنطية يتصاعد منها الدخان بين السنة النيران»، على حد تعبير بروكوبيوس. وبعد سنوات قلائل دخلت مصر ـ وتابعتها سيرينيكا ـ فى حوزة العرب بسهولة متوقعة.

مراسيم اضطهاد الاباطرة الرومان للمصريين

مراسم الامبراطور ثيود وسيوس بعد اتباعه للمسيحية بإظهار قسوة أكبر تجاه المخالفين لديانته وخاصة المصريين.

«رتاج مرسومنا»:

إلى سيونيوس البينوس والى مدينة روما؛ صورة عن مرسوم يوم الرابع والعشرين من فبراير لعام ٣٩١.

«نرغب إليكم في أن لا يتدنس أحد بتقديم الأضحيات! وأن لا يقتل أحد حيواناً بريئاً، وأن لا يدخل أحد إلى حُرُمِ الوثنيين للإطلاع على المعابد والنظر إلى الرسوم المشكلة بيد الإنسان! وليعلم من يقدم على ارتكاب هذه الجرائم، أنه يعرض نفسه للعقاب الإلهى والبشرى. وليكن هذا القانون ملزماً للمسؤولين أيضاً: فإذا كان أى منهم من أتباع العبادات الوثنية، ودخل المعبد ـ أثناء السفر أو فى المدينة ذاتها ـ ليعبر عن ولائه، يتوجب عليه فوراً دفع خمسة عشر رطلاً من الذهب. وكذلك الأمر بالنسبة للدائرة، التى يترأسها، فإن هى لم تعبر عن معارضتها، وتصرح بذلك دون تأخير، وذلك بشكل علنى، وجب عليها أن تسدد إلى خزينة الدولة مبلغاً بالقيمة نفسها»(١).

يفرض المرسوم غرامات أقل نسبياً، ولكنها لا تزال باهظة، على كافة حكام المقاطعات، الأدنى مرتبة أيضاً، إذا اقترفوا عملاً يستوجب مثل هذا العقاب. كما تترتب تبعات مالية مشابهة على الموظفين، الذى لا يعيقون الحكام فى تكريم «العفاريت»، أو يتوانون فى الإعلام الفورى عن ارتكاب مثل هذه الجرائم الشنيعة. يمكننا أن نتصور الأجواء الكئيبة، التى خيمت على أجواء أهم المكاتب فى روما ذاتها وفى أوساط المقاطعات، منذ لحظة صدور المرسوم! كيف راقب الناس بعضهم فى كل خطوة، وكم حيك من المؤامرات، والإفتراءات، والشكاوى الزائفة!.

أضحت الأوضاع أشد إزعاجاً، نظراً لوجود أُناس مقتنعين بعقائدهم، وممارستهم لها بجسارة. وقد صُنِّفَ فى عدادهم أيضاً الرجل، الذى وُجهت إليه الرسالة، الوالى ألبينوس، كما

(١) الوثنية والمسيحية. الكسندر كرافتشول. ترجمة: كبرو لحدو دار الحصاد. بيروت ١٩٩٦.

أن كـلا القنصلين فى عـام ٣٩١ كـانا من المخـالفين المتـقـدى الحـمـاس، وهمـا: تاتيـانوس وسيـماخـوس. الأول منهـما، والى الشـرق وهو والد بروكولوس، والى القـسطنطينية، وأضـحى على قـاب قـوسين أو أدنى من كـارثة حيـاتيـة شـاملة. أما سيـمـاخـوس، أحـد ألطف وألمع ممثلى عصره، فإن شخصيته تتطلب تعريفاً أقرب بها.

اسمه الكامل هو: كوينتوس أوريليوس سيماخوس يوسيبوس، أرستقراطى، صاحب ممتلكات فى إيطاليا الوسطى والجنوبية، وفى صقلية، وإفريقيا. أكثر ما أحبه هو الإقامة فى روما ذاتها، حيث امتلك ثلاثة قـصـور؛ وبالرغم من ذلك، لم يكن سـوى سيناتور متـوسط الثـراء. تولى مناصب مشرفة ورفيعة كقسطور Quaestor، قاض، ومن ثم مارس عمله كحاكم فى لوكانيا وبروسيوم فى إيطاليا، وبعدها فى مقاطعات إفريقيا الشمالية، مُنِحَ لقب وزير من الدرجة الثالثة. ومنذ صيف عام ٣٨٤ حتى مطلع عام ٣٨٥، أى لمدة ستة أشهر فقط والياً على روما. كما كان يحـمل لقب «كاهن أعلى» Pontifex Maiore لأن لقـب «الكاهن الأعلى» Pontifex Maximus، كان من حق الأباطرة وحدهم؛ وقد حمل هذا اللقب جميع الأباطرة حتى عهد جـراتسيـان، الذى تنازل عن اللقب والمهـام المرتبطة به عـام ٣٧٥. ومنذ ذلك الحين، أضـحى حـامل لقب «كـاهن أعلى» Pontifex Maiore، على الـصـعيـدين الشكلى والعملى رئيسـاً لمجالس الكهنة القديمة، وكان لسيماخوس من القناعة والشجاعة، ما يسمح له بالتعبير عن قناعاته والمطالبة بحقوق الآلهة أمام الحكام. كان سيـمـاخـوس رجلاً ذا معرفة واسعة، وثقافة رفيعة، حاول بصورة واعية تنمية هذه الثقافة، وهو من وجهات نظر عدة، شبيه بصديقه وابن سنه سيونيوس ألبينوس.

الشيء الجدير بالتأمل الجاد، هو موضوع اختيار قنصلين غير مسيحيين غيورين ومعروفين على نطاق واسع من خلال معتقداتهما، فى عام ٣٩١. لاريب فى أن ثيودوسيوس عينهما فى هذين المنصبين، فى الفتـرة، التى كـانت عـلاقـاته مع الأسـقف أمبـروزى فى أقصى درجات توترها، أى على الأرجح فى صيف ٣٩٠. ومن خلال هذه الخطوة، حذَر الإمبراطور من المغالاة فى استغلال حلمه، لأنه فى نهاية المطاف قادر على العثور على حلفاء ذوى نفوذ واسع فى المعسكر المخالف للكنيسـة. أدت المفـاوضـات فيـمـا بعد إلى الوفـاق بطبـيعـة الحـال، ومـارس الإمبراطور التوبة، ولكن التعيينات الموعود بها، تعذر سحبها والتراجع عنها. ولذلك تم الحرص

من ناحية ثانية على خلق صعوبات ومضايقات لقنصلى عام ٣٩١. وربما هذا هو أحد أهداف مرسوم يوم الرابع والعشرين من شباط. فالوثيقة، التى تَعَرَّضَ مضمونها بعنف لما أحبه وعبده علناً كل من تاتيانوس وسيماخوس، حملت اسميهما فى التأريخ. فكانا مرغمين إما على تقبل الأوامر الصارمة والارتداد عن عقيدتهما، أو تحمل مضايقات كريهة من جانب أى موظف صغير، أو سائق مركبة فى مكاتبهما. فإذا اعترفا بأن المرسوم كان نوعاً من الاستفزاز، لن نجد صعوبة فى معرفة احداث اضطهاد مخالفى ديانة الامبراطور.

يُعَدُّ مرسوم السادس عشر من يونيو فى جوهره تكراراً لمرسوم فبراير، وهو موجه خصيصاً لكبار المسؤولين فى مصر، وتحديداً للوالى يواغريوس والوزير رومانوس. ترأس الأول منهما الإدارة المدنية، والثانى الجيوش المعسكرة هناك. ينص المرسوم على:

«لا يسمح لأى كان بتقديم الأضاحى للآلهة، ودخول المعابد، ومشاهدة حرمها. ليعلم الجميع أن رتاج مرسومنا يغلق المدخل إلى أية قضية وثنية. وكل من سيحاول بالرغم من هذا الحظر، القيام بأى شيء يتعلق بالآلهة والعبادة، لن يجد أى تهاون. وإذا ما أقدم مسؤول واثق من امتيازات سلطته على الدخول كمجدف مستخف إلى تلك الأمكنة النجسة، سيتوجب عليه تسديد خمسة عشر رطلاً من الذهب إلى خزينتنا؛ ويدفع مرؤوسوه القيمة ذاتها، إذا لم يعيقوا ذلك بقواهم المتعاضدة».

أهو القمع الإدارى، الذى تم اللجوء إليه بناء على أحكام هذا المرسوم، مما أدى إلى قلاقل خطيرة فى الإسكندرية؟ أيمكن أن يكون الإمبراطور نتيجة حرب الشوارع، التى دارت رحاها فى ربيع عام ٣٩١ فى شوارع مصر، قد تذكر مرسوم ما قبل بضعة أشهر، ليصفى الحسابات بشكل نهائى مع المخالفين؟ فلننظر الآن إلى اضطرابات الاسكندرية.

الاضطرابات فى الاسكندرية

الرواية الأولى:

لنتناول أولاً شهادة مبكرة ومفصلة نسبياً، وإن جاءت من رجل ربما لم يشاهد الإسكندرية بعينيه أبداً. وبكل تأكيد، لم يكن شاهد عيان على ما حدث هناك عام ٣٩١؛ لكنه كان على معرفة شخصية باثنين على الأقل من المشاركين فى الأحداث، وهما من غير المسيحيين.

والحديث هنا عن مؤرخ الكنيسة سقراط الذى يمنح تقليدياً اللقب المشرّف «سكولاستى» ، أى البارع أو الخبير فى القانون. الذى دَوَّنَ عمله العظيْم الأهمية، والمنحاز منهجياً، فى النصف الأول من القرن الخامس. وها هو ـ مع بعض الاختصارات الطفيفة ـ ما يمكنه الإدلاء به حول القضية، التى نحن الآن بصددها:

ألحَّ أسقف المدينة تيوفيل بشدة فى طلبه لوضع حدٍ لعبادة الآلهة القديمة. فأسفر هذا فى نهاية المطاف عن صدور أمر إمبراطورى يقضى بهدم المعابد الوثنية ـ وأوعز لتيوفيل بالذات، بالإشراف على تنفيذ هذه المهمة. رغب الأسقف المزود بمثل هذا التفويض أن يخزى العبادات السابقة هناك ويكللها بالعار بكافة الوسائل. وهكذا قام بتطهير بعض المعابد وتحويلها إلى كنائس، وهدم أخرى كلياً. حوَّل الرموز التابعة لآلهة أخرى إلى مواضيع للسخرية والتهكم؛ وبتوصية منه، تمَّ جر رأس سيرابس والطواف به فى الساحة العامة. عجز سكان الإسكندرية عن كظم ألمهم وسخطهم وانقضوا بزخم على المسيحيين، وهم يقتلون كل من اعترض سبيلهم؛ استمرت المعركة طويلاً، حتى وضعت تخمتهم بالدم المراق حداً للمصائب اللاحقة. لم يُقْتَلْ فى المعركة الكثير من الوثنين، لكنَّ عدد المسيحيين كان هائلاً؛ أما عدد الجرحى من الجانبين، فيصعب إحصاؤه. ذُعِرَ المسببون؛ وأصابهم الهلع من غضب الإمبراطور، فهربوا، وبحث الكثيرون منهم عن ملجأ فى مختلف المدن. وكان بينهم أستاذا النحو هيلاريوس وأمونيوس اللذين استمعت فى حينه لمحاضراتهما فى القسطنطينية، وأنا لا أزال فتى فى حداثة عهدى. وقيل أن الأول منهما، كان كاهن زيوس، والثانى ـ كاهن الاله توت.

بعد إخماد الفتنة نهائيا، أعان الحاكم وقائد الجيوش تيوفيل فى تدمير المعابد. حوّلوا المبانى إلى أنقاض، وحطموا التماثيل أو صهروها لاستخدامها كأدوات لكنيسة الإسكندرية، لأن الإمبراطور أهداها كمساعدة للفقراء. لكنَّ الأسقف أمر بالحفاظ على أحد التماثيل دون أن يُمَسَّ، قائلاً:

ـ بفضل هذا، لن يتمكن الوثنيون مستقبلاً من إنكار عبادتهم لمثل هذه الآلهة!.

وأعرف بكل تأكيد، أن أمونيوس، الذى أشرنا إليه لتوِّه، تذمر كثيراً وعبَّر عن ألمه بسبب ذلك:

ـ تُدنّسُ العبادات المصرية، لأن هذا هو التمثال الوحيد، الذى لم يُحَطَمْ، وقد حوفظ عليه عمداً للتهكم من معتقداتنا!.

وأثناء هدم معبد الإله سَرَابِيسْ هناك، لوحظ بشيء من الذهول، أنه على البلاطات الحجرية فى داخله، يبرز هيروغليف على هيئة صليب. لكنّ تأويل هذا الرمز كان مختلفاً لدى كل من المسيحيين المصريين. فقد اعتقد الفريق الأول أن القصد هو العلامة المقدسة لآلام المسيح، بينما قال الفريق الثانى:

ـ أجل، إن الرمز من حيث المظهر مشترك لكلا المعتقدين، لكن مضمونهما مختلف تماماً!.

وفى نهاية المطاف وُجِدَ مسيحيون حديثو الهداية، ممن كانوا لا يزالون على دراية بقواعد وأصول الخط المصرى القديم. فأوضحوا أن هذا الهيروغليف (عنخ) هو رمز الحياة المقبلة. أُعْجِبَ أتباع المسيح بهذا التفسير، كما أنهم استندوا إلى نبوة مزعومة؛ جاء فيها على ما يُعْتَقَدْ، بأن معبد سرابيس سيتعرض للدمار عندما سيظهر الصليب الظافر على جدرانه.

ويضيف المؤرخ: «هذا ما علمته، وأنا أصغى إلى الرواية عن العثور على النص» ـ ويبدأ على الفور بصياغة شكوكه.

بأى أسلوب، وبأية معجزة، كان لكهنة مصر القديمة أن يتكهنوا برمز آلام المسيح، وذلك قبل مجيئه بقرون عديدة؟ عجباً! تمكنوا من نقشه فى معبدهم! كان ظهور المخلص يوماً، من أعمق أسرار الحكمة الإلهية، السر، الذى كان يجهله الشيطان ذاته! ولذلك، لم يكن، وما كان يمكن أن يكون، لخدمه الصغار، كهنة الآلهة والعفاريت المصرية، أن يتصوروا، أو أن تكون لديهم أية فكرة عن ذلك. أهو الرب إذن مَنْ أمرهم بنقش هذا الهيروغليف الاستثنائى هناك، كبشرى لشيء، كان له أن يحدث فى المستقبل؟.

الهيروغليف عنخ ANKH:

لا ريب فى أن مجمل رواية سقراط وكذلك مختلف نقاطها، ستدفع القارىء المتمعن لطرح العديد من التساؤلات، كما ستراوده شكوك كثيرة. وسيرغب فى تكوين صور أدق وأوضح عن أسباب وتطور مجرى الأحداث. أجل، ستوجد شهادات أخرى، تسمح بشكل

أفضل بإعادة بناء المجرى العام لاضطرابات الإسكندرية. ولكن قبل أن نتناولها، يجدر بنا أن نوضح بعض الأمور الموما إليها في رواية سقراط ذاتها؛ قد تكون أموراً جانبية، لكنها مثيرة وجديرة بالاهتمام من وجهات نظر عدة.



شاهد قبر قبطى من الحجر الجيرى يحمل التأثير المصرى القديم ممثلاً فى علامة عنخ من القرن الرابع

لنبدأ من النقطة، التى ينهى بها الكاتب تقريره، الشىء الذى بدا لسقراط نفسه غريباً ومفعماً بالأسرار، وغير قابل للتصديق. نقصد رمز الصليب ذاك، الذى اكْتُشِفَ فى قلب المعبد المصرى، على نحو غير متوقع ومذهل للجميع. وفى هذه الحالة بالذات، يمكننا استعراض تفسير هذه الحقيقة لأنها حقيقة واقعة فعلاً! ــ وهو تفسير بسيط نسبياً، ومقنع على الأرجح، لا ضرورة أبداً لأن نتصور بأن المسيحيين دخلوا حرم سرابيس خلسة، ونقشوا هناك رمز ديانتهم، لكى يعرضوه فيما بعد، وكأنه كان موجوداً هناك من قبل! لقد كان هيروغليفاً حقيقياً، أى أنه من إنجاز المصريين أنفسهم، وهو رمز منقوش أو مُدَوَّن قبل قرون، فعلاً، وفى حقيقة الأمر، كاد أن يكون مماثلاً لصليب فى شكله مع استثناء بسيط، إذ أنه عوضاً عن الذراع العلوى، كان له نمط من الأنشوطة البيضوية الشكل. ومن هنا اسْتُخْدِمَتْ التسمية، التى أطلقها اللاتين عليه فيما بعد فى الغرب، وهى (Crux Ansata)، أى الصليب ذو المقبض. أما فى لغة المصريين القدماء، فقد أُطْلِقَ على هذا الهيروغليف اسم «عنخ» (ANKH). يتكرر ظهوره فى شتى النصوص المنقوشة أو المرسومة منذ حقبة الفراعنة، وما من غرابة فى الأمر: فلفظة عنخ بحد ذاتها، وكذلك رمزها الهيروغليفى، كانت تعنى الحياة والمفاهيم المرتبطة بها؛ وببساطة، كانت فى جوهرها سعداً، مبشراً بالخير. فمن المؤكد، أنه لهذا السبب، وجب أن يبرز الهيروغليف منذ

البداية على جدران معبد الإله سرابيس أيضاً؛ وقد بوشر بناء المعبد فى الإسكندرية قبل ظهور المسيحية بفترة طويلة، لأنه فى القرن الثالث قبل الميلاد، كان الكثيرون ممن اعتنقوا الديانة الجديدة على إطلاع إلى حد ما على عناصر الخط الهيروغليفى؛ وقد شرح هؤلاء لأبناء ديانتهم فحوى الرمز الموغل فى القدم، بشكل صحيح. وعلى الرغم من أن «عنخ» ارتبط بالحياة الدنيوية، فإن الفهم الأكثر شمولاً، أى الذى يشمل وجود ما بعد الموت أيضاً، مبرّر تماماً فى بعض الحالات؛ وعلى أى حال، هكذا فهمه المصريون فى أواخر الحقبة القديمة.

قد يسأل سائل، وسيكون محقاً فى ذلك، لما لم يُفَسَّرْ أمر الصليب المزعوم بهذا الأسلوب مباشرة؟ لأن آلافاً من سكان الإسكندرية شاهدوا «عنخ» فى غير مرة، وفى مختلف المعابد وعلى العديد من الأوابد الأثرية للديانة القديمة! ولذلك، وجب على ما اكتشف فى معبد الإله سرابيس أن لا يدهش أحداً من المعاصرين. ولكن دعنا نتذكر أننا أمام رواية ثانوية، صاغها رجل عاش فى القسطنطينية بعد الحدث ببضع عشرات من الأعوام، وكتب معتمداً على روايات تلونت وتشوهت على نحو متعمد بلا ريب. فخارج حدود مصر، لم يكن شكل ورمزية «عنخ» معروفين على نطاق واسع. أما الدعاية المسيحية، فقد استغلت شتى الفرص، للبحث عن تكهنات سرية، ونبوات وإيحاءات، تؤكد صدق وصحة الديانة الجديدة ورسالتها التاريخية. وقد بحثت عن تلك النبوات المزعومة، فى بعض أشكال عبادات الآلهة القديمة تحديداً، لأن الأصوات المنطقة من معسكر الخصم، يكون لها عادة صدى خاصاً. والأهم من ذلك: لابدَّ وأنَّ الهيروغليف «عنخ» فى المعبد المصرى، قد فُسِّرَ كشعار مسيحى، لأن المسيحيين المصريين، احتضنوه واستخدموه من قَبْلُ فى رموز عبادتهم، ببساطة كأحد نماذج الصليب، والدلائل على ذلك قاطعة بين أيدينا، فقد صمدت فى وجه عوامل الزمن، فى بعض المواقع المصرية حُرُمٌ مسيحية قديمة، يظهر «عنخ» على جدرانها؛ وقد حافظت الكنيسة القبطية على هذا التقليد عبر قرون طويلة.

هيلاريوس والجامعة:

لننتقل الآن إلى الأمور الأخرى المرتبطة برواية سقراط. إنها أمور ضئيلة الشأن ظاهراً، لكنها كما سيبدو، ذات مغزى كبير حتى من المنظور التاريخى. لنُمعن النظر إلى أُسْتَاذَىْ النحو (الأدب، فيما لو استخدمنا مصطلحات اليوم)، اللذين، كما يعترف مؤرخنا بنفسه، تلقى تعليمه فيما بعد على يديهما. بجامعة الاسكندرية.

افتُتِحَتْ هذه المؤسسة العلمية الجامعة رسمياً بموجب مرسوم خاص صدر فى فبراير عام ٤٢٥. لكنها فى الواقع، كانت موجودة ومارست نشاطها قبل ذلك الحين بزمن طويل. لم يقتصر الأمر على انضمام هيلاريوس إلى عداد المحاضرين فحسب، وإنما حصل بعد مرور شهر مع مجموعة من زملائه على لقب (بدون مرتب خاص) عرف بالاتينية باسم (Comitiva Primi Ordinis)، الذى يمكن تعريبه «موظف رفيع المستوى»؛ ونجد فى مرسوم التعيين تبريراً رائعاً، جديراً بأن يدرج هنا، ولو باختصار:

ليعلم الأساتذة الآخرون، بأنهم سيحظون بدورهم بمثل هذا التكريم، إذا استمروا عشرين عاماً دون انقطاع، بتأدية واجباتهم، وأنجزوا بجد عملهم التربوى، وهم يمارسون حياة أخلاقية جديرةً بالثناء؛ وإذا أثبتوا مهارة تعليمية وخطابية، وكذلك فطنة فى التأويل وبراعة فى المحاضرة؛ وأخيراً، إذا قَيّمَتْ هيئة الجامعة الموقرة كل هذا على نحو إيجابى، وأقرّت بأنهم يستحقون هذا الشرف.

إنه لشىء مثير للاهتمام، وربما ليس عرضياً، أن تتكرر فى التشريع اللاحق ـ حتى المعاصر، حدود العشرين عاماً تلك، التى يستحق المعلم بعدها بعض المكافأت. ولكن هذه القضية ليست ذات شأن كبير، والأمر الجدير بالاهتمام فعلاً هو: أنَّ مرسوم ثيودوسيوس الثانى لا يشترط أية شهادات أو آراء من خارج المؤسسة التعليمية! أى أنه لا يشترط إطلاقاً انتماء الأساتذة إلى الكنيسة والالتزام بالإيمان القويم، على الرغم من أن المرحلة كانت أيام النصر الحاسم للمسيحية.

ما أروع مراعاة هذا الجانب، ويا لها من ليبرالية، عملية الفصل ما بين العلم والعقيدة، مقارنة بالطرق المستخدمة فى أكثر من دولة فى المراحل اللاحقة! ولم يكن هذا مجرد طرح نظرى. وظلّت القاعدة ملزمة فى الواقع العملى أيضاً، بالرغم من أنه مع تعاقب الأجيال والقرون تناقص عدد غير المسيحيين تدريجياً فى أوساط المدرسين، إذ أضحت مسيحية الأساتذة شيئاً مفروغاً منه فى نهاية المطاف. ومع ذلك، فإن الجامعة، وكذلك التعليم فى المستويات الأدنى، مارست نشاطها كمؤسسات تنظيمية وعلمانية فى مضمونها. فلنترك الحديث الآن للمؤرخ التربوى اللامع مارو H.I. Marrou:

«قد يبدو هذا الشىء فى غاية الغرابة، لكنها حقيقة واقعة، وجود بلد لم يعرف أبداً نهاية

المدرسة القديمة: ففى الشرق الإغريقى، تُعَدُّ التربية البيزنطية امتداداً لا انقطاع فيه للتربية الكلاسيكية».

ويتابع قائلاً:

«ظلَّت الجامعة فى القسطنطينية (على امتداد الفترة من عام ٤٢٥ ـ إلى عام ١٤٥٣) مركزاً لبحوث مثمرة ودعامة للتقاليد الكلاسيكية. تعرضت هذه الجامعة ـ وهذا أمر مفروغ منه ـ عبر القرون للعديد من الجوائح والتغيرات، ومرَّت بأكثر من واحدة من مراحل الانحطاط، كما عرفت انقطاعات عابرة فى وجودها، لكنها افتدت ذلك دوماً بنهوضها الرائع من جديد... الحقيقة أنها تحولت، لكنها ظلَّت وفية للفكرة، التى هدفت من تأسيسها أيام الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى. لم تخرج تعاليمها عن الأطر الكلاسيكية: فى الأساس ـ الفنون العقلية؛ وفى الذروة ـ البلاغة، والفلسفة والقانون. لم يتغير دورها الاجتماعى، فالهدف من الجامعة هو إعداد الفريق، الذى تختار منه الإمبراطورية كوادرها لملء الوظائف الشاغرة. ولم تدخل فى برامجها أبداً العلوم الكنسية».

ولهذا السبب، اضطرت الكنيسة إلى أن تبتكر فى الشرق نظامها التعليمى الخاص، المشبع كلياً بروح المسيحية؛ والمقصود هنا، هو ما يعرف بمدرسة الدير. ففى القسطنطينية ذاتها، وانطلاقاً من الرغبة فى مواجهة الجامعة العلمانية، ثم تأسيس نمط من الأكاديمية الاهوتية، وقام البطريرك بتعيين أساتذتها:

«تنوى المدرسة البطريركية خلق نموذجها من العلوم الإنسانية فى مواجهة الحركة الإنسانية الكلاسيكية. وكان هذا النموذج فى كثير من الأحيان مستقلاً وشديد الإيجاز؛ لكنه بالرغم من كل شيء، يحذو بوضوح حذو النموذج القديم».

كان السبب ـ إلى حد ما ـ فى افتتاح جامعة جديدة على هذا القدر من الإنفتاح والعلمانية، عائداً إلى استقرار مجموعة من علماء الإسكندرية من غير المسيحيين فى القسطنطينية أواخر القرن الرابع، وتدعيم الوسط الفكرى هناك. فلا ريب فى أن البحث عن ملجأ فى العاصمة على شواطىء البوسفور، لم يقتصر على هيلاريوس وأمونيوس وحدهما، المعروفين لنا اسمياً بمحض الصدفة، لأن الاضطرابات فى عام ٣٩١، والخوف من التصعيد العنيف لموجة الكراهية الدينية فى مصر، وما رافق ذلك من اضطهادات وتدمير، دفع بالكثيرين من الأساتذة، والفلاسفة، والمعلمين إلى مغادرة المدينة، التى اعْتُبِرَتْ بحق محراب العلوم عبر

قرون طويلة، ومنذ أيام البطالمة. يُلَمِّحُ سقراط إلى نزوح غير المسيحيين، بعبارات عامة فى روايته، التى استشهدنا بها من قبل؛ وسوف نتعرف بالاسم أيضاً على الفلاسفة، الذين ودعوا الإسكندرية فى ذلك الحين، لكنهم لم يتوجهوا إلى شواطىء البوسفور. غير أن الكثيرين من النازحين اعتقدوا ـ ولم يكونوا مخطئين فى ذلك! ـ أنهم فى القسطنطينية بالذات يستطيعون أن يجدوا تفهماً أفضل لمعتقداتهم، ومجالاً أوسع للعمل والنشاط؛ لأن وجود الحاكم بحد ذاته، وإن كان مسيحياً، بالإضافة إلى كبار الموظفين، كان بمثابة ضمانة للتقيد بشكل أفضل بقواعد سيادة القانون. أما فى الإسكندرية، فكان الأسقف حاكمها الفعلى منذ عشرات السنين، وهو محقون بالكراهية لكل ما هو غير مسيحى. إضافة إلى ذلك كان يستند إلى حشود من الرهبان المتزمتين والمتخلفين، الذين غالباً ما هرعوا لنصرة متنفذى الكنيسة، وقد هجروا صوامعهم الصحراوية وأدْيِرَتهم، مستنكفين لفترة من الزمن عن أكثر ممارسات التقشف والزهد غرابة. فالحظر الذى كان مَفروضاً على إقامة الرهبان فى المدن، والذى اطلعنا عليه من قبل، كان قد بدأ سريان مفعوله منذ سنة، وكان له أن يُلغى على عجل؛ ولكن هل تم تنفيذه والإلتزام به فعلاً؟.

يا لهذه السلسلة العجيبة من الأحداث! يكاد أن يكون ممكناً، الحديث عن نقمة الآلهة، أو مخطط العناية الإلهية، أو إذا فَضَّلَ البعض التعابير اللا شخصية، سخرية القدر. ففى أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة من الحقبة القديمة، تُدَكُّ مواقع الديانات السابقة للمسيحية فى المدينة الكبرى، تُهدم المعابد، يُطرد ألمع الأفراد المنتقدين للمسيحية ويُرغمون على الفرار. وجاء هذا كله مواتياً بصورة غير مباشرة لظهور مركز جديد للثقافة العلمانية فى مدينة أخرى؛ مدينة انتمت إلى ذلك النمط من المدن، الذى أمكن فيه للفكر القديم، العلمانى فى جوهره، أن يوجد ويستمر دون انقطاع إلى ما يزيد عن العشرة قرون. أى لمدة أطول بما لا يقارن مع ما أمكن أن يحدث فى مصر ذاتها، حيث كان ولابد للغزو العربى فى القرن السابع، أن يضع بهذا الشكل أو ذاك، حداً لكافة مؤسسات الفكر العلمانى المستقلة ـ فيما لو بقيت موجودة حتى ذلك الحين.

ثيون وهيباتيا:

كان أميان مرسلينوس قد كتب المجلد الثانى والعشرين من «تاريخه» عام ٣٩٠، أى قبل بضعة عشر شهراً من هدم وتدمير معبد الإله سرابيس فى الإسكندرية. وفى هذا المجلد بالذات، المكرس للأحداث الأقدم من ذلك بكثير، لأحداث عام ٣٦٣ تحديداً، تطرق بالتفصيل لمصر

وأكبر مدينة فيها. وبطبيعة الحال، كان لا بدَّ للمؤرخ من تخليد ذكرى وشهرة العلماء، الذين عاشوا ونشطوا فى الإسكندرية فى العصور القديمة؛ ولذلك فهو يسرد أسماء بضعة عشر منهم. انضمّوا جميعاً، وهم من ممثلى شتى فروع المعرفة، تحت لواء «الموزيون»، أى الهيئة أو الاتحاد المكرس لتمجيد الموزيات (Muse)، أى الإلهات التسع، اللاتى يحمين الفنون. كان الموزيون منظمة علمية مستقلة، يعود الفضل فى تأسيسها إلى البطالمة؛ ضمنت حياة الأفراد الموهوبين والنشيطين، ووفرت لهم السبل الكفيلة بمتابعة أبحاثهم؛ لم تشترط الهيئة حيازة شهادات أو ألقاب شكلية. يُعَدُّ الموزيون، الوحدة الحية، النموذج والأصل، لكافة المؤسسات والجمعيات العلمية فى دائرتنا الحضارية. أما ورشة الدراسات الرئيسية فقد تمثلت فى المكتبة، الواقعة، شأنها شأن مبنى وحديقة الموزيون، فى حى القصور الملكية. ثم تأسست مكتبة ثانية، أصغر منها، ملحقة بمعبد الإله سرابيس، أى فى الحى الغربى. يقدر عدد المجلدات فى كلتا المكتبتين، فى أوج الازدهار، أى أواخر عهد البطالمة، بما يزيد عن السبعمئة ألف مجلد. ثم تقلص هذا العدد نتيجة مختلف الجوائح التاريخية. الحقيقة أنه (وبعكس ما تناقلته الأساطير اللاحقة) خلال معارك قيصر فى المدينة، عندما حوصر مع كليوباترة فى القصر الملكى، لم تتعرض الكنوز الثقافية فى المكتبتين لأضرار تذكر؛ لكنَّ المدينة بأسرها تلقت ضربات موجعة على أيدى الأباطرة، وخاصة الأحياء الأكثر ثراء فيها، وذلك فى القرن الثالث. ففى عام ٢٧٢ أمر أوريليان بتدمير جزء من المبانى فى منطقة القصور الملكية؛ ويرجح أن يكون الموزيون قد تحول آنذاك إلى انقاض، وفُقِدَ قسم من الكتب. أما المكتبة الصغيرة الملحقة بمعبد الإله سرابيس، فلم تُمَسَّ بأذى، وقد احتوت زهاء أربعين ألف مجلد. وبالرغم من ذلك، لا يستبعد أن يكون الموزيون، وإن فَقَدَ مقرَّه، قد استمر فى وجوده الشكلى، ناقلاً من أحد أجيال العلماء إلى الجيل التالى، إرث الرابطة، والاسم، واللقب الفخرى، وعلى أى حال، فإن أميان مرسيلينوس يُثَمِّن عالياً فى المجلد الثانى والعشرين، الآنف الذكر، موقع الإسكندرية كمركز حيوى هام للمعرفة حتى عام ٣٩٠. وهو يكتب قائلاً:

«حتى الآن لم يصمت فى هذه المدينة صوت مختلف العلوم. فلا يزال أساتذةٌ شتى فى العلوم يجدون متنفساً بشكل ما، وفرجار الأخصائى بعلم الهندسة ما زال بعدُ يكشف عمَّا هو خفى؛ كما لم تنضب بعد معرفة الموسيقا، ولم يصمت الإيقاع. إضافة إلى ذلك يستطيع البعض ـ الحقيقة أنهم قلّة ـ تأويل حركة العالم والنجوم وغيرهم ضليعون فى أمور الأرقام. بالإضافة إلى ذلك، يوجد نفر من ذوى الخبرة فى ذلك الفرع من المعرفة، الذى يكشف سبل

المصير. أما فيما يتعلق بالطب ـ ما أكثر حاجتنا إليه فى حياتنا البعيدة عن التواضع والوعى!ـ فإن معهده يتطور يوماً بعد يوم إلى الأفضل وإذا ما أراد طبيب أن يثبت جدية معرفته (بالرغم من أن التجربة ذاتها توحى بها)، يكفى أن يصرح بأنه تعلم فى الإسكندرية».

يمكننا أن نشير بالاسم إلى الرجل، الذى ربما كان أميان يعنيه وهو يكتب عن تلك الفئة المحددة القادرة على تأويل حركة العالم والنجوم، والمتمرسة فى أمور الأرقام، والخبيرة أيضاً فى المعرفة، التى تكشف سبل المصير. إنه ثيون، وقد تداخلت فى بحوثه جميع العلوم والمعارف. الحقيقة أنه لم يتميز كمفكر مبدع وأصيل، لكنَّه بذل جهوداً مضنية فى تفسير أعمال بطليموس الفلكية، ونشر مقالات إقليدس من جديد؛ وبينها تلك المتعلقة بالهندسة، البالغة الأهمية فى تعليم الرياضيات ـ حتى يومنا الحاضر. كما عكف، شأنه شأن الكثيرين من معاصريه على العرافة والتنجيم؛ وقد كتب فى التكهن عن طيران الطيور، ونعيق الغربان. والشىء الجدير بالاهتمام هنا هو: أن أحد مؤلفى القواميس البيزنطيين يشير بوضوح إلى أنه كان عضواً فى الموزيون! أهو مجرد خطأ ومفارقة تاريخية (أى تصنيف كل عامل لامع فى الإسكندرية فى عداد أعضاء الموزيون، حتى عندما كان الموزيون قد اندثر)، أم أن تلك الهيئة العلمية، استمرت فى وجودها حتى أيام ثيون، أى حتى أواخر القرن الرابع، أى إلى أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة ـ أو ظلت قائمة جزئياً أو اسمياً على أقلّ تقدير؟ على أى حال كان ثيون هو الرجل الأخير، العالم الأخير فى العالم القديم، الذى يمكن أن يقال عنه، ولو بظلال ضئيلة من الاحتمال: كان عضو الموزيون الذائع الصيت. يبدو أنه لم يغادر الإسكندرية بعد أحداث عام ٣٩١. وعلى أى حال، سيكون القول بأن جميع العلماء ودعوا هذه المدينة العظيمة، مبالغةً وخطأً فادحاً. فالشىء ذاته، الذى قاله أميان مرسيلينوس عن الوسط العلمى هناك، وهو يصف مرحلة ما قبل عام ٣٩١، يمكن أن يقال عن الأعوام التالية، أو ربما عن القرن الخامس برمته. ولكن علينا أن ندرك، أن مستوى العلم والتعليم قد تراجع فى الواقع العملى وهبط. لكن صوت مختلف المعارف لم يكن قد صمت بعد كلياً، ولم ينطفىء بعد نور المعرفة النظرية! أما مصير هؤلاء العلماء ـ العقلانيين، فقد اتخذ منحنىً مُروّعاً فى بعض الظروف. وخير مثال على ذلك مأساة ابنة ثيون.

كانت ابنة ثيون تدعى هيباتيا. لم يكن عمرها قد تجاوز عشرة وبضع من السنين أثناء اضطرابات عام ٣٩١. ورثت عن أبيها موهبة فى العلوم الرياضية واهتماماً بها، ذاع صيتها

بشكل خاص كامرأة واسعة الإطلاع على آراء مختلف المدارس الفلسفية؛ مالت إلى تعاليم الأفلاطونية المحدثة، وحظيت بالاحترام نتيجة معرفتها الواسعة، كما أثارت الإعجاب بالجرأة والحرية، التى دافعت بهما عن قناعاتها. يعترف بذلك حتى المؤلفون المسيحيون. من أشهر تلامذتها سينيزيوسى، المتحدر من سيرينايكا، أى من ليبيا الحالية. اعتنق المسيحية فى مرحلة متأخرة، كرجل متزوج. لم يتنازل أبداً عن بعض آرائه ـ حتى عندما أُرغم على قبول تعيينه أسقفاً فى مدينة بتوليمياس ptolemias فى وطنه؛ كما أنه ظل ملتزماً بأسرته. اعترف علناً، وبكثير من العناد، بالقانون القائل، بأن العالم أزلى، وأن الروح موجودة قبل أن تلج الجسد. أما عن مدى أهمية هيباتيا بالنسبة له، فإن خير ما يطلعنا على ذلك، هى رسالة وجهها إليها بعد أن أقعده المرض:

«أُملِى إليك هذه الرسالة وأنا طريح الفراش ليتها تصلك وأنت فى ثوب العافية ـ يا والدتى، وشقيقتى، ومعلمتى وولية نعمتى!».

ومن حسن حظ هذا الأسقف ـ أنه توفى قبل عام ٤١٥ بفترية وجيزة، دون أن يرى، أى موت رهيب أعدّه أبناء عقيدته فى الإسكندرية للمرأة، التى أبدى نحوها مشاعر على هذا القدر من السمو.

أثارت هيباتيا بقناعاتها مشاعر الكراهية لدى بعض الأوساط المتزمتة فى سلك الإكليروس، وعززت بمواقفها مقاومة بقايا المثقفين العقلانيين.

ولتصفية الحساب مع خصم مقلق إلى هذا الحد، تم استغلال العلاقات المتوترة بين الوالى أوريستيس (المسيحى أيضاً!) والأسقف كيرليس:

هُوجمت هيباتيا من الجمهور المثار بقيادة قس يدعى بطرس، وهى فى عربتها فى طريق العودة إلى المنزل. جُرَّتْ المرأة أمام إحدى الكنائس، وجُردَتْ من ثوبها، ثم طُعنت وأصيبت بجروح بالغة مميتة. أخيراً وفى ثورة جنون حقيقية، مُزِّقَتْ الجثة إلى أشلاء وأحرقت فى النار ـ لإزالة كل أثر لها.

حدث هذا بعد ما يقارب ربع قرن من الأزمنة، التى نحن بصددها. فإذا افترضنا صدق المؤرخ البيزنطى فى تصنيفه ثيون فى عداد أعضاء الموزيون، سنجد أنفسنا أمام الرجل الأخير

المعروف لنا بعضويته فى الموزيون، فى مدينته ومسقط رأسه، وذلك بالرغم من هزيمة المصريين المخالفين عام ٣٩١، وبالرغم من تدمير أكبر المعابد؛ لكنه، وبصورة غير مباشرة، يُصْدِرُ ببقائه ذاك، الحكم بالموت على ابنته، التى ستقتل على أيدى الغوغاء عندما يحين الوقت.

هيلاريوس وسرابيس:

واجه قتلة هيباتيا ـ وكذلك أسقف الإسكندرية وبطريركها آنذاك، ثيوفيل، كمسؤول غير مباشر عن الجريمة ـ تهماً مختلفة وانتقاداً حاداً، حتى من جانب إخوتهم فى الدين، ولكنّهم لم يُمَسُّوا بسوء، لا بل تعزز موقع ثيوفيل ذاته فى المدينة. فعلى حدّ علمنا، لم يتعرض القتلة لأية عقوبات ـ حكومية أو كنسية ـ وفى حقيقة الأمر، تمّ الاقتصار على التذمرات الكئيبة والتنهدات الورعة. وهكذا على سبيل المثال، نقرأ لدى سقراط (عاصر مؤرخ الكنيسة هذا، هذه الاحداث «ألقى هذا بكثير من اللوم على ثيوفيل وعلى كنيسة الإسكندرية، لأن القتل، والعراك، وما شابه ذلك من أعمال، غريبة تماماً عن الناس، الذين يعيشون وفق تعاليم المسيح!».

هذا كل شىء.

هكذا كانت إذن بذار الشر، والتعصب والكراهية. فقد تلطخت بالدم أيادى معتنقى دين المحبة.

نبوءة أنطونين:

كان لكانوبوس إذن شهرتها الخاصة فى الحقبة القديمة. عُرفت مباهج هذا الموقع على نطاق واسع، كما أضحت التسمية ذاتها مرادفة للإنحلال والإنغماس فى الملذات. وهذا ما نجد صداه فى إحدى مقولات سينيكا:

ـ لن يختار الحكيم، الباحث عن عزلة هادئة، كانوبوس أبداً؛ ومن ناحية ثانية، لن تمنع كانوبوس ذاتها أحداً من العيش بعقلانية!.

لقد أضحى خير دليل وبرهان على إصابة هذه الحكمة، التى تفوّه بها كاتب فى عهد نيرون، ـ إذا صدق يونابيوس ـ هو أنطونين فى أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة. وإذا أُخذت رواية يونابيوس حرفياً، فقد قدمت إليها مواكب من نوع آخر مختلف عن تلك، التى وصف

سترابون طابعها وصفاً صريحاً. إذ يقول مؤلف «حياة السفسطائيين» بكثير من المبالغة فى صياغاته، التى يسهل كشفها:

جاء أنطونين إلى الإسكندرية من بلاد ما وراء البحر. ولما رأى مصب النيل فى كانوبوس، تملكه شعور غامر بالإعجاب، بحيث كرّس نفسه كلياً لآلهة ذلك المكان وطقوسها السرية. خطا خطوات سريعة فى تقدمه واقترابه من الألوهية. لم يُعرْ جسده أى اهتمام، وتحرَّر كلياً من كافة المتع المرتبطة به. اقتصر على ممارسة حكمة تجهلها الغوغاء. يجدر بنا أن نقول شيئاً أكثر عن هذا.

لم يُبدِ أنطونين ميولاً لصنع معجزات تنحرف عمَّا هو مألوف فى مجال الحواس؛ ربما تصرف بهذا القدر من الحذر، لأنه أدرك جيداً ما تعنيه الأوامر الإمبراطورية؟ لكن صلابته، وصرامته، ورسوخ آرائه، كانت موضع إعجاب الجميع. لذلك زاره هؤلاء، الذين أقاموا آنذاك فى الإسكندرية بهدف الدراسة. وكانت هذه المدينة بفضل معبد الإله سرابيس، معبد العالم بأسره؛ فقد اجتذبت أعداداً لا تحصى من الحجاج من كل مكان، حيث كان تعدادهم يبلغ عدد سكان المدينة ذاتها. وحالما كان ينتهى هؤلاء من تمجيد الآلهة، كانوا يتوجهون إلى أنطونين؛ والذين كانوا على عجلة من أمرهم، كانوا يختارون الطريق البرية، بينما كان الآخرون يركبون القوارب النهرية ـ متجهين براحة تامة إلى موضع الدراسة الجادة. وحين يتشرفون باللقاء، كان البعض يطرح مشكلة منطقية ـ وفى الحال كانوا يشبعون بثراء الحكمة الأفلاطونية. وطرح آخرون تساؤولات تمس مباشرة المواضيع الإلهية ـ فوقف هؤلاء أيضاً، وكأنهم أمام تمثال، لأنه لم يكن يجيب بكلمة واحدة. واقتصر على التحديق وتثبيت نظراته على السماء. وهكذا ظلَّ صامتاً؛ لم يشاهَد أبداً وهو يحاور أياً كان بمثل هذه الأمور.

لم يتوقف سيل الشبان ذوى الأرواح السليمة والمتعطشة للفلسفة، من التدفق على أنطونين، ولذلك اكتظ المعبد بالكهنة الشبان. أما هو، الذى كان لا يزال يبدو إنساناً مستمراً فى تعايشه مع الناس، فغالباً ما تنبأ لرفاقه:

ـ بعد موتى سيزول هذا المعبد. وكذلك حرم سرابيس المقدس فى الإسكندرية سيختفى فى هيولى الظلمة. سيتعرض للتحول. سيخيم ظلام لا محدود، وكأنه من تلك الأساطير القديمة على ما هو الأجمل فى أرضنا!.

وثبت بعد فترة قصيرة أنه تضمن فعلاً شيئاً من الألوهية. فلم يكد أن يرحل عن عالم البشر، حتى وُضِعَ حدٌ للخدمة الإلهية فى معابد الإسكندرية وفى سرابيوم. ولم يقتصر الأمر على الخدمة الإلهية، بل شمل المبانى أيضاً. وحدث كل شيء كما فى تلك الأساطير الشعرية عن انتصار العمالقة، أعداء الآلهة وواجه معبد كانوبوس المصير ذاته.

حزن وغضب يونابيوس:

يجب بالضرورة سرد تتمة رواية يونابيوس هنا. تستحق هذه الكلمات أن تُقرأ باهتمام، وإن لم يكن صداها محبباً أو مستساغاً، تستحق ذلك، لأنها تعالج أحداثاً بتنا نعرفها من خلال روايات ثلاثة من المؤلفين المسيحيين، سقراط، وسوزومينوس، وثيودوريت. الحقيقة أن أقوال يونابيوس لا تقدم أية معطيات جديدة ذات قيمة جوهرية، لأنها تتميز بالعمومية، لا بل هى خطابية. ولكن لنأخذ بعين الاعتبار أننا فى هذه الحالة نسمع صوت الجانب المناهض، الجهة المهزومة، صوت من، أهين فى أقدس مشاعره. فهى إذن فى نبرتها، وفى اختيار ألفاظها، وبأسلوب رؤيتها، وثيقة استثنائية، ربما حُفظت بمعجزة. وهنا يطرح سؤال نفسه: ما الدافع لأن يُنسخ فى العصر الوسيط، فى مكان ما فى بيزنطة، مخطوط مفعم بهذا القدر من الكراهية الصريحة لكل ما هو مسيحى؟ ربما نسخه العلمانيون السريون، الذين عاشوا حياة بائسة على مرتبات المعلمين الهزيلة، فى عزلة المكتبات والأرشيفات؟ لا يستبعد شيء هنا، إذ ليس فى وسع أحد أن يُحدد على نحو جدير بأن يُعْتَمَد ويُقْبَل، متى رحل آخر مُبجّلى الآلهة ومتى خمدت عباداتهم نهائياً؛ فالجمر ظلَّ مشتعلاً تحت الرماد لقرون أو ربما لآلاف السنين.

الجملة الأولى فى هذا الفصل من المُؤلَّفِ مشبعة بالغيظ، وتشير بوضوح كافٍ إلى موقف المؤلف:

«حكم آنذاك الإمبراطور ثيودوسيوس، بينما ترأس ثيوفيل الملاعين؛ كان هذا الرجل يبدو وكأنه يوريميدونت ذاك، الذى وفق ما جاء فى الأوديسيا، حكم العمالقة المتغطرسين فى حينه. مارس السلطة المدنية يواغريوس، وَكُلِّفَ رومانوس بقيادة الجيوش المعسكرة فى مصر. وقد قام كل منهما بتصعيد كراهية الآخر للمعبد، أو حتى للحجارة والصخور المنحوتة ذاتها؛ لا بل تنافسا فيما بينهما فى هذا المجال. ولذلك دمرا سرابيوم (معبد الإله سرابيس) وأعلنا الحرب على تقدمات المعابد؛ وكل هذا دون أن يسمعان ولو مجرد شائعة عن أية نوايا عدوانية فى

الجانب الآخر! هكذا حققوا النصر دون أن يواجهوا الخصم، وفازوا فى المعركة دون الاضطرار لخوض القتال. أما فيما يتعلق بالتماثيل وتقدمات المعبد، فقد حسموا الأمر معها بشجاعة لا توصف، ولم تقتصر القضية على أنهم هزموها، بل أنهم قاموا بسرقتها أيضاً؛ اعتمدت استراتيجية المعركة معها على تغطية كل مَنْ حاول الاستيلاء على شىء لنفسه. لم يتركوا فى سرابيوم سوى بلاطات الرّصف، وكان ذلك بسبب ثقل الحجارة، الذى لم يسمح بزعزعتها.

ولما انتهى هؤلاء السادة الشجعان والنبلاء إلى هذا الحد من أعمال التدمير وَذَرّ كل شىء فى مهب الريح، رفعوا أيديهم إلى الأعلى؛ أجل، لم تكن الأيادى ملطخة بالدم، لكنها لم تكن نظيفة أبداً، بل كانت مدنسة بالجشع. صاحوا قائلين بأنهم انتصروا على الآلهة، واعتبروا نهب المعابد والتجديف عنوان فخر واعتزاز.

ثم جاؤوا إلى تلك الأمكنة المقدسة بحشود ممن عُرفوا بالرهبان، إنهم بشر من حيث الشكل، لكنهم يعيشون كالخنازير، يسمحون علناً بالقيام ـ ويقومون بأنفسهم ـ بالكثير من الممارسات المنحطة، التى يندى الجبين خجلاً من مجرد نقلها. ولكن هذا بالذات اعْتُبِرَ بمثابة ورع وتقوى: احتقار كل ما هو إلهى. تمتع كل من ارتدى أثواباً سوداء آنذاك، وتصرف بأسلوب تافه وغير جدير بالاحترام، بسلطة استبدادية. فإلى مثل هذه الذرى من الفضيلة صعد النوع البشرى!.

استقر هؤلاء الرهبان فى كانوبوس أيضاً. فرضوا بدلاً من تكريم الآلهة الحقيقيين، عبادة العبيد، ويا ليتهم كانوا من العبيد الأمناء! جمعوا من كل حدب وصوب عظام وجماجم أولئك، الذى ألقى القبض عليهم كمجرمين وحُكِمَ عليهم بالموت بقرار من المحكمة، ونادوا بأن هؤلاء المحكومين هم آلهة. تلووا أمام تماثيلهم، وتمرّغوا فى الوحل أمام قبورهم. نعتوهم بالشهداء، والخدم، والرسل، الذين ينقلون طلبات الناس. وفى واقع الأمر، لم يكونوا سوى عبيد، خدموا بالعار، وانتهوا تحت ضربات السياط، ولا يزالون يحملون جراح خستهم على صورهم. هاكم إذن الآلهة، الذين تلدهم هذه الأرض».

هكذا إذن أعلن أنطونين حقيقة للجميع: أن المعابد ستتحول إلى قبور. وهذا ما منح معرفته وقدرته على التنبؤ شهرة واسعة. توفى بهدوء بعد أن عاش شيخوخته بدون مرض، أما ذوو القدرة على التفكير، فقد شعروا بألم أكبر بالنهاية، التى توقعها للمعابد.

موضوع الشياطين والعفاريت:

أنباء صحّة ودقّة تنبؤ أنطونين بتدمير معابد الإله سرابيس، التى أضفى عليها جموح الخيال بهاءً وألقاً أكبر بكل تأكيد، انتشرت على نطاق واسع فى عالم ذلك العصر؛ ذاع صيتها واكتسبت أهمية بالغة ليس فى أوساط غير المسيحيين فحسب، وإنما بين المسيحيين أيضاً. شعر الفريق الأخير بحرج كبير بمجرد أن تكهُّن يونابيوس، الذى يكمن مصدره ـ أيمكن الشك بذلك؟ ـ فى إلهام شتى أنواع الأرواح النجسة، الكامنة فى آلهته، تحقق بذلك القدر من السرعة والدقة. وهكذا ظهرت فى اعتقاد أعداد غفيرة من المسيحيين مشكلة جوهرية ذات طابع فلسفى ولاهوتى. يمكن إعادة صياغة المجرى الأساسى لتحليلهم على وجه التقريب كما يلى:

مَنْ هم الآلهة القدماء؟ ليسوا فى واقع الأمر سوى عفاريت شريرين، وماكرين، وكاذبين، وخدماً للشيطان. يقودون، الذين اعتمدوا عليهم إلى هلاك مريع. يكرهون كل حقيقة أو حتى ظلَّ الحقيقة، مثلما يخشى الظلام كل شعاع نور قادم من الشمس. فبأى أسلوب، وبأية طريقة، وبواسطة اية خدعة تستطيع الأرواح الشريرة فى أى وقت كان، أن تتعرف، وتتوقع، وتكشف لأتباعها ولو عن جزء يسير مما سيحدث فى الواقع؟ لأنها بكشفها عن المستقبل، تعزز إيمانهم بقدراتها الخارقة! فلَمَ يسمح الرب بحدوث شىء على هذا القدر من الخطورة على خلاص الأرواح البشرية، فى أزمنتنا وعلى مرأى من أعيننا؟

عولجت هذه المواضع على نحو جادّ وجذرى. جرت نقاشات عديدة، ولم تبدُ الآراء المطروحة أثناءها أرثوذكسية دوماً. وفى نهاية المطاف، اتخذت القضية أبعاداً هائلة، تطلبت معها الضرورة أن يتصدى لها أحد أقدر العقول اللاهوتية لتلك الحقبة، أو ربما ليس لتلك الحقبة وحدها؛ ألا وهو أسقف هيبونا ـ عنابة ـ شخصياً، أوغسطين. فقد كرَّس لهذه القضية مقالة مستقلة. ليست المقالة مسهبة فى الحقيقة. ولكنها مثيرة للاهتمام ومتميزة بالنظر لموضعها، الذى تعالجه. وهى بعنوان «عن تنبؤ العفاريت بالمستقبل» De Divinatione Daemonum. وقد استخدم المؤلف موضوع تدمير سرابيوم منطلقاً لتأملاته. ويكتب فى كلمات المقدمة:

«فى صباح أحد الأيام اجتمع لدى عدد من إخوتنا المسيحيين. جلسنا فى المكان المعتاد، ثم

بدأ الحديث عن موقف الديانة المسيحية من غرور الوثنيين ومعرفتهم المفعمة بالشكوك، حيث يُزعم أنها مذهلة ولا محدودة. تذكرت هذا النقاش وأتممته فيما بعد؛ وارتأيت بأنه جدير بأن يُوثَّق كتابة. لن أذكر أسماء، الذين اتخذوا فيه موقفاً معارضاً من رابى؛ كانوا مسيحيين على أى حال، وعبَّروا عن آراء كهذه، ربما بهدف التوصل إلى ما يجب الرد به على الوثنيين.

تعرضوا لموضوع التكهنات المنبثقة من العفاريت. ولمَّا تَّم التذكير بأن أحدهم تنبأ بهدم معبد سرابيس، الشيء الذى حدث فعلاً فى الإسكندرية، قلت:

ـ لِمَ العجب من أن العفاريت أمكنها أن تعرف سلفاً وتعلن حقيقة التدمير، الذى هدد المعبد وتماثيله هناك؟ لأنها قادرة بالأسلوب ذاته على توقع وإعلان العديد من الأحداث الأخرى. ولكن بطبيعة الحال، فقط بذلك القدر، وضمن تلك الحدود، التى سُمح لها فى البدء برؤية الحقائق المقبلة وإعلانها للناس! فَرُدَّ علىّ:

ـ اذن ليست تكهنات العفاريت شراً، وليست كريهة فى نظر الرب! فلو كان الأمر على هذا النحو، لما سمح هو نفسه، العادل والكلى القدرة بحدوث أشياء شريرة وظالمة!».

هكذا كانت بداية الجدال. وكما يمكن التخمين بيسر، فإن أوغسطين لم يفتقر للحجج ويجدر بنا أن نلاحظ هنا بأنه، شأنه شأن جميع معاصريه، آمن بعمق بوجود العفاريت ككيانات حقيقية، ومحددة تماماً، متميزة بكيانٍ فيزيائى مستقل. اعتمد فى آرائه على مختلف العقائد الافلاطونية والافلاطونية المحدثة، وكذلك على المعتقدات الشعبية والمقولات الإنجيلية. تم النظر إلى العفاريت على أنها كائنات تحتل موقعاً وسطاً ما بين البشر والآلهة، وهذه الكائنات عادة (وإن لم يكن دوما) خيِّرة، وصديقة، ونافعة، يكفينا هنا أن نستشهد بذلك العفريت، الروح الشفيعة، التى تحدث عنها سقراط كثيراً. لكنَّ هذه الأمور فى نظر أوغسطين، اتخذت صيغة مختلفة تماماً.

أجل، اعترف بأن العفاريت كائنات متفوقة على البشر فى جوانب عدة. فهى خالدة لا تموت، وأجسامها ذات طابع شفاف وحركى كالهواء، ولذلك فهى تخترق كل شيء، بما فى ذلك ذواتنا. لكنها ليست سوى ملائكة ساقطة، وأرواح شريرة، عدوة لدودة ومستبدة وغادرة لسعادة الجنس البشرى بأجمعه ولأى إنسان على نحو مستقل! تحوم وكأنها طيور جارحة، سريعة على نحو عجيب، ودقيقة الملاحظة بشكل لا يقارن، فى الطبقات الدنيا من الهواء،

تحت مجال القمر. وتنقض كالنسور على كل شيء في عالمنا يبدو لها فريسة سهلة. إنها هي سبب الكثير من الأحلام، والرؤى، والكوابيس. وهي قادرة على خداع الحواس، والكشف جزئياً عن الحقائق المقبلة؛ ويعود السبب في ذلك إلى صعودها نحو الأعلى وامتلاكها لحواس أكثر كمالاً، الشيء، الذي يمكنها من الرؤية أكثر وأبعد وأدق مما نستطيعه نحن هنا على الأرض. وأخيراً، هي، التي تمكنت من أن تدس في عقول الفانين القناعة المهلكة بوجود الآلهة. ولكن مَنْ هم الآلهة؟ إنهم في جوهرهم كائنات لا أخلاقية، ماصّة دماء، ميَّالة للنزاع، لا مسؤولة، ولا تختلف بشيء عن العفاريت! ولا غرابة في ذلك ما دامت جزءاً من عالمها، وإلى حدٍ ما من مخلوقاتها. أيمكن لها إذن، وهي الآلة الزائفة، أن تحجب عنا شمس القوة الحقيقية والعلية؟.

طرح أوغسطين مثل هذه الآراء وما يشابهها فيما يتعلق بموضوع العفاريت، وخاصة في عمله العظيم «عن مملكة الله». كما يعود للمواضيع ذاتها في العديد من رسائله. أما في المقالة، التي استعرضناها هنا، فهو يفترض أن العفاريت كائنات من هذا النوع، وأن هذا الشيء معروف لدى الجميع، ولا ضرورة للإسهاب في الحديث عنه.

بين النصوص الإنجيلية العديدة، التي تتحدث عن الأرواح الشريرة، أثار دوماً اهتمام القراء والمعلقين ذلك النص، الذي يتحدث عن الممسوس، الذي طرد منه يسوع حشداً من الشياطين، وكيف أنها دخلت في قطيع من الخنازير كانت ترعى في الجوار، فانطلقت تعدو على السفح المنحدر، وألقت بنفسها في مياه البحيرة لتغرق منتحرة.

يبدو الموضوع بعيداً وغريباً ظاهرياً، ولكن يمكن النظر إليه بنظرة جديدة؛ وسوف نُفاجأ ببعض الخواطر والتداعيات المذهلة! وهذا ما فعله ذلك الشاعر، الذي بدا له ذلك العالم قريباً وكأنه ليس بأبعد من يوم البارحة. وعلى نحو مشابه، يتابع القول: حشود الناس في حالة من التذبذب والتعطش للمعجزات، واختلاف السلوك، ظاهري ليس إلاً. والشياطين لا تزال تنشط مثلما كانت تفعل في حينه. ولكن في الأزمنة القديمة، وبعكس ما نجده الآن، لم يكن لدى الممسوسين أي الذين دخلتهم الشياطين، لم يكن لديهم «مطبوعات وشاشات، أو احتكاك يُذكر بالفن والأدب»؛ كما أن «سريان الرعشات في الجسم وظهور الزبد على الشفاه واصطكاك الاسنان لم يُنْظَر إليها آنذاك كدلائل على المواهب». والمثل الإنجيلي، كما يؤكد

الشاعر، يبقى محافظاً على قيمته: لأن الروح المستحوذة على الممسوسين يمكن أن تدخل فى الخنازير. وهذه الأخيرة «تتهور بسبب اليأس الناجم عن الصدام المباغت بين الطبيعيتين، الذاتية والشيطانية، وهو ما يجعلها تقفز فى المياه وتغرق».

وهكذا فإن لكل عصر مسحوريه و«فتيته الغاضبين» ومعرفته الخاصة بالأرواح والعفاريت، أى آراءه عن أسباب وجوهر المسّ. كما أنه يقر الطرق الملائمة، الوحيدة الفعالة على حد زعمه، لمقاومة الاستحواذ والمسّ. يمكن أن نستعرض هذه الطرق عبر الحقب والقرون. كانت يوماً الرقى وطاردى الأرواح بالرقى؛ يتحدث عنهم الكتّاب والمخرجون، أى ممثلو تلك الفروع من الفن، التى غالباً ـ إذا صدقنا الشاعر ـ ما يجوس فيها الممسوسون.

الحال، لم تكن المستوطنة الصغيرة فى بلاد البليوبونيز الفقيرة مدينة عالمية عظيمة، مثلما كانت الإسكندرية آنذاك. من ناحية أخرى، لم تكن كل تحف فن العمارة والنحت فى معبد سرابيس لتعادل المعنى الرمزى للمهرجانات الأولمبية.

حين كان أوغسطين منهمكاً بإعداد مقالته «عن تنبؤ العفاريت بالمستقبل»، كان الغزو القوطى بقيادة ألا ريك يتهدّدُ روما؛ أو ربما كان الغزو قد تمّ. كنا قد تعرضنا للحديث عن هذا العام المتميز والحدث الهام، الذى تمّ فيه، فى مكان آخر؛ وتحديداً، فى معرض الحديث عن إقامة ميلانيا وفولوزيانوس فى المقاطعات الإفريقية. إننا نميل للاعتقاد، بأن العالم المعاصر اختنق آنذاك رعباً أمام ما حدث فى إيطاليا، واستحوذ موضوع واحد ووحيد على أفكار الجميع. لكن الحقيقة مغايرة لهذا التصوّر. ففى المقاطعات البعيدة والتى كانت ما تزال آمنة بَعْدُ، لم يكتف الناس بمجرد العيش الاعتيادى، بل وجدوا الوقت الكافى، والهدوء، والرغبة فى معالجة المواضيع المجردة؛ ومن بين هذه المواضيع، على سبيل المثال، هل تقول العفاريت الحقيقة. أو مواضيع أخرى مشابهة، منفصلة عن الواقع تماماً. وها هو مثال آخر، مأخوذ من المقاطعة ذاتها ومن الفترة الزمنية ذاتها، ولكن من الأوساط غير المسيحية:

حين كان فولوزيانوس، الآنف الذكر، يكتب عام ٤١٢ إلى أوغسطين، أخبره فى رسالته عن موضوع حديث جرى قبل فترة قصيرة بين أصدقائه. لقد ناقشوا أولاً مواضيع مختارة من فن البلاغة. ثم انتقلوا إلى خفايا الشعر، وخاصة نظم القصائد وجمال الاستعارة والمجاز، وسمُو المقارنة. ثم صعدوا فى مستوى النقاش أعلى فأعلى، وتناولوا عقائد مختلف المدارس الفلسفية،

بدءاً من الحقبة القديمة البعيدة، من الأكاديمية الأفلاطونية ومعهد أرسطو؛ وأخيراً، راح أحدهم، (المعنى هو فولوزيانوس نفسه بكل تأكيد) يتأمل بعض القضايا المزعجة، بأى وسيلة أمكن لرب العالم أن يبقى طيلة ذلك الوقت فى أحشاء العذراء الطاهرة، ويتحمل فيما بعد الآلام والبلوى المرتبطة بكل حياة دنيوية، بما فى ذلك الكائنات الخالدة؟

ألهذه الحقيقة، حقيقة خوض مثل هذه النقاشات فى تلك اللحظات التاريخية الحاسمة، وذلك فى أوساط المسيحيين وغيرهم على حد سواء، ما تُعَبِّر عنه؟ يمكن بطبيعة الحال الاكتفاء بتفسير سطحى، والقول بأنها مجرد صدفة. ولكن من ناحية ثانية، يمكن أن نرى فى ذلك مظهراً من مظاهر عمليات نفسية أعمق، تكاد أن تكون فى مستوى اللاوعى فى أحضان المجتمعات الكبرى. فمن يدرى إن لم يكن الأمر يعنى الهرب من الواقع الرهيب والوحشى، الهرب إلى مجالات التأملات السامية والمجردة كلياً؟ إذ غالباً ما تتكرر ظواهر مشابهة فى كافة الحقب، وخاصة عندما تتهدد الجوائح النظام القائم. وربما كان هذا نوعاً من العمى وعدم إدراك خطورة الموقف بشكل تام. أو ربما العكس، برهاناً قاطعاً على عظمة متميزة، للروح، وفوق كل شىء، على الرؤية الحدسية لحقيقة على قدر عالٍ من البساطة والوضوح، تصبح معه أحياناً غير ملحوظة أو مهملة بازدراء من قبل رجالٍ ذوى معارف وآفاق واسعة إلى أقصى حد؟ تنص هذه الحقيقة على أنه: فى حياة كل مجتمع، عندما يتعلق الأمر بقضية الوجود والاستمرار كمجموعة مستقلة، لا تعود الحقائق السياسية أو الاقتصادية هى ما يقرر الأمر، وإنما تلك، التى ترسخ وتوطد الشعور بالاستمرارية الثقافية؛ ومما يوطد هذه الاستمرارية، مناقشة مواضيع تبدو ظاهرياً غريبة كلياً عن الواقع الجارى ـ على هذا القدر من الغرابة، كموضوع المجازات الشعرية وقضية قدرة العفاريت على التنبو بالحقيقة. الواقع أنه فى الحالة الأخيرة، يمكن أن يُعَدَّ مُجرَّد اعتبار الآلهة القديمة بمثابة عفاريت، عفاريت شريرة ومفعمة بالكراهية، دليلاً واضحاً على انقطاع استمرارية ما فى مجال الحياة الدينية؛ لكن هذا الانقطاع تلخص إلى أقصى حد فى إزاحة واستبدال الأسماء وأسس التقييم.

نبؤة اسكليبوس:

«سيأتى ذلك اليوم، الذى يتضح فيه كم كان عديم الجدوى ورع إيمان المصريين وخدمة ذلك الشعب، المفعمة بالتضحية له، ستنحط هنا الذكرى المقدسة للآلهة وتتحول إلى عدم،

وسيرحل الآلهة أنفسهم من هنا نحو السموات، سيهجرون الأرض المصرية إلى الأبد. وهكذا فإن هذا البلد، الذى كان عبر قرون طويلة مهداً، ودعامة، وعماداً، ومحراباً للديانة الحقة سيُجرَّد من الحضور الإلهى، ويتيتَّم، ويصبح فارغاً. سيحتل الغرباء أرضه الزراعية، ولن يقتصروا على الاستخفاف بالإيمان المقدس، وإنما ـ كم هو مؤلم هذا الشىء ـ سيصدر ما يشبه المرسوم، الذى سيحظر تحت طائلة أقسى العقوبات، التقيد والالتزام بقواعد الدين، والتقوى، والعبادة.

«هذه الأرض الجليلة، مقر المذابح الإلهية، ستملأ منذ الآن بالقبور والجثث فقط. يا مصر، يا مصر الحبيبة! لن يبقى ما يشهد فى القرون المقبلة على عباداتك سوى الأساطير والحكايات، ولكنها بالرغم من ذلك، ستبدو للأجيال مجرد انحرافات عادية. ستصمد الآثار المنقوشة فى الحجارة وحدها كآثار وبراهين على أفعالك التقية. سيستوطن السكوذى، أو الهندوسى، أو واحد آخر شبيه بهما، همجى من البلاد المجاورة، هذه الأرض بأسرها. وعندئذ ستُحَبُّ الظلمة أكثر من النور، وسيفضل الموت على الحياة. صدقينى، ستبلغ الأمور فى نهاية المطاف حداً تُفْرَضُ معه عقوبة الموت على كل مَنْ يجرؤ على الاعتراف بالعقل الإلهى. وبهذا الأسلوب، سيتم الفصل المؤلم للآلهة عن البشر. ولن يبقى هنا سوى ملائكة الشر. ستبقى لتدفع التعساء إلى أسوأ جرائم الغرور: إلى الحروب، والاغتصابات، والنهب، والخداع. أى نحو كل شىء مناهض للطبيعة الحقة، لروحنا». لا، لم يتفوه بهذه النبوة أى فيلسوف ـ وثنى، ممن شهدوا أحداث الإسكندرية عام ٣٩١. كما أنه ليس أمونيوس كاهن هرمس توت، ولا أوليمبوس، الحارس الأمين لحرم سرابيس حتى النهاية، حتى تلك الليلة الأخيرة، حيث زُعِمَ سماع ترتيل «هاليلويا». كذلك ليس هو أنطونين حلية المعبد فى كانوبوس، العرَّاف، والحكيم، والمعلم. وليس أياً من أقاربهم أو المعاصرين لهم. العبارات المقتبسة هنا، صياغة جديدة للآراء، التى تضمنتها مقالة لاتينية بعنوان: أسكليبيوس بقيت محفوظة فى مكتبة الكاتب النثرى العظيم أبوليوس، الذى عاش فى القرن الثانى بعد الميلاد وكتب باللاتينية؛ لكنَّ هذه المقالة لم تخرج من تحت ريشته بالتأكيد. فهى تعود إلى مرحلة متأخرة عنه بعض الشىء، اى إلى أواخر القرن الثانى. ولكن لابدَّ وأنها ظهرت ـ يصعب فى الواقع تصديق ذلك! ـ بما لا يقل عن مئة عام قبل أيام ثيودوسيوس، أى بما لا يقل عن قرن قبل أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة، حيث دُمِّرَتْ أو أُغلقت فى مصر معابد الآلهة، وَحُظِّرَ تقديم الأضاحى.

نقرأ إذن كلمات نبوءة تحققت حرفياً. ولم يقتصر تحقيقها على مصر فحسب فإذا نطقنا بما جاء في النبوّة وفكرنا وفق مقولات آخر العرافين يمكننا القول، بأن الظلام خيّم على كامل العالم المأهول؛ وكذلك على هيلادا، حيث الأولمب، مسكن الآلهة، وحيث أثينا، معبدهم العظيم، وحيث أولمبيا موقع المهرجات المكرسة لتمجيدهم. فقط في روما، في روما بالذات، اختلف الأمر بعض الشيء، فهناك فقط برزت مقاومة أكثر تصميماً ، مقاومة بعض الجماعات والدوائر ـ بأسلوب مختلف.

الثامن من نوفمبر:

«الأباطرة ثيودوسيوس، وأركاديوس، وهونوريوس

إلى روفين الوالى

لا يسمح لأى إنسان، بغض النظر عن المكانة والانتماء؛ كما لا يُسمح لأى موظف سواءً أكان ما يزال يقوم بأداء مهامه أو تركها، ولا لأى متنفذ بسبب ولادته، ولا لأى وضيع بسبب انتمائه، ومنزلته، أو ثروته ـ لأى كان فى أى مكان وفى أية مدينة ـ لا يسمح لأحد من كل هؤلاء بقتل حيوان برىء كأضحية لأصنام ميتة؛ كما لا يسمح بتمجيد اللارات(*) بأضحية استعطاف سرية، بالنار، والأرواح الحارسة بالخمر، وآلهة المنزل بالعطور؛ لا يسمح بإشعال النار لهم أو وضع البخور أو تعليق الأكاليل.

وإذا ما تجاسر أحدهم على تقديم حيوان كأضحية، وتفحُّص أحشائه والبخار المتصاعد منها، تُوَجَّهُ إليه التهمة ذاتها الموجهة لمن أهان العرش. ويمكن لأى كان توجيه التهمة، وسينال المذنب العقاب الملائم؛ حتى وإن لم يبحث عن أى شيء ضار بصحة الأباطرة أو بما له علاقة بصحتهم. إذ يُعَدُّ جريمة كبرى مجرد الرغبة فى معرفة قوانين الطبيعة؛ والبحث عمّا هو محظور؛ والكشف عمّا هو خفى، ومحاولة معرفة نهاية حياة ما، أو الوعد بأمل إنهاء حياة ما».

هذه هى العبارات الأولى من المرسوم الصادر فى اليوم الثامن من نوفمبر. عندما تولى منصب القنصلين أركاديوس للمرة الثانية وروفين، أى فى عام ٣٩٢. قد يكون هذا المرسوم هو الأهم والأكثر شمولاً بين كافة المراسيم المناهضة للآلهة فى كامل التشريعات الرومانية

(*) اللارات: مفردها اللآر Lar وهو الاله أو الروح الحارسة لدى الرومان. (المترجم).

المحفوظة. فهو يجمع، ويوحد، ويوسع، ويزيد حدة على كافة المراسيم التى سبقته فى هذا المجال. وقد أصدر الأباطرة المتعاقبون خلال القرن الرابع على العرش عدداً كبيراً من هذه المراسيم! فهو يحظِّر القيام بأى من الطقوس الوثنية فى أية من صيغها وأشكالها دون استثناء. يحظِّر ممارستها على أى كان، وفى أى مكان، وبأى أسلوب؛ ليس فى المعابد فحسب، وإنما فى المنازل الخاصة أيضاً. يمنع تقديم الأضاحى، ولا يقتصر الأمر على الحيوانات وحدها، بل يشمل أكثر التقدمات الرمزية تواضعاً؛ أى الزهرة، والبخور، والمصباح الزيتى، والشمعة. أما مَنْ يُقْدِمُ بعد نحر الحيوان على مذبح الآلهة، على تفحص أحشائه لأغراض العرافة، كما كانت تفرض التقاليد القديمة، فيعرض نفسه للعقوبات المفروضة على مَنْ أهانوا هيبة إمبراطور الشعب الرومانى. وهذا يعنى، مصادرة الممتلكات، والنفى، والسجن، أو حتى عقوبة الموت.

كان مرسوم الثامن من نوفمبر موجهاً ضد أبسط العبادات، أى أكثرها انتشاراً ورسوخاً، وخاصة المرتبطة منها بحياة الريف. مَنْ يضفر شجرة بأشرطة، ومن ينصب مذبحاً حقلياً متواضعاً ويكسوه الخث(*)، يهين بذلك ـ هذا ما يؤكده المرسوم ـ الدين. ولذلك فإن مالك المنزل أو الحقل حيث أقيمت هذه المراسم، يعاقب بمصادرة تلك الممتلكات لصالح خزانة الدولة، إذا كان على علم بالجريمة وشارك بها؛ ولكن إذا أقيم الطقس بدون علم المالك، توجب عليه دفع غرامة بمقدار خمسة وعشرين رطلاً من الذهب، شأنه شأن كل واحد من المشاركين. وعلى رعاة المدن وأعضاء مجالسها إعلام المحاكم فوراً عن حالات التجاوز على المرسوم وعدم التقيد به، وعلى المحاكم اتخاذ الإجراءات الفورية. وإذا حاولت السلطات إخفاء الحقائق، تتحمل المسؤولية بنفسها؛ أما القضاة، إذا قاموا بتأجيل الإجراءات وإصدار الحكم، سيرغمون على دفع غرامة بمقدار ثلاثين رطلاً من الذهب، شأنهم شأن الموظفين التابعين لهم.

وهكذا أصبح يوم الثامن من نوفمبر من عام ٣٩٢م، مع إعلان المرسوم، بمثابة يوم الموت الرسمى للديانات السابقة داخل حدود الإمبراطورية. هذه كانت نوايا وإرادة الإمبراطور ومستشاريه. ولكن بالرغم من جهود وتوقعات المشرعين، فإن ضربة بهذا القدر من القوة أيضاً، كانت عاجزة عن إسقاط المعتقدات القديمة كلياً. وعلى الرغم من أنها أُزيحت ـ إن صحَّ

(*) الخث: TURF بالانجليزية وهى الطبقة العليا من التربة المشتملة على العشب وجذوره. أو جذور النباتات الباقية تحت سطح الأرض لفترات طويلة دون أن تبلغ مرحلة التفحم.

القول ـ إلى الممارسة السرية، فقد بقيت حيَّة لقرون أخرى. ويمكن القول دون مبالغة، بأنها في الحقيقة لم تمت أبداً؛ أجل، لقد خضعت لتحولات بنيوية، واكتسبت وجهاً أو قناعاً مختلفاً، وتغيرت الأسماء ـ وكل هذا بهدف الدخول خلسة إلى معسكر الخصم. ولكنَّ هذه قضية مختلفة لسنا بصدد بحثها. وعلى أى حال، فمنذ يوم الثامن من نوفمبر، وجب البحث عن أساليب مبتكرة وملتوية للتمكن من ممارسة عبادة الآلهة القديمة. لو حاول أى كان، البحث عن نص قانونى يمكن اعتماده كأساس للقول بأن المهرجانات الأولمبية أُلغيت بمرسوم رسمى، فإن المرسوم، الذى نحن بصدده يمكن أن يكون بمثابة وثيقة كهذه؛ لأن المهرجانات ارتبطت دوماً ببعض المراسم وتقديم الأضحيات أمام مذابح الآلهة، وخاصة فى معبد سيِّد المكان وراعى المباريات، زيوس. كما يمكن الإصرار على أنه مع هذا المرسوم أو بعده صدر مرسوم آخر، لم يُحْفَظْ نصه حتى أيامنا، وضع بوضوح حداً ونهاية للاحتفالات فى أولمبيا. يمكن اعتبار الفرضية الثانية مرجحة أكثر من وجهات نظر معينة. فبأى أسلوب يمكن تفسير الحقيقة، التى أسلفنا الحديث عنها: استمرار الاحتفال فى أنطاكية بدون عوائق بالمهرجانات، التى أُطلق عليها أيضاً اسم الأولمبية، بالرغم من صدور مرسوم الثامن من نوفمبر؟ ولكن ـ أشرنا إلى ذلك أيضاً من قبل ـ يوجد تفسير آخر لهذا التناقض: كان من السهل إلغاء المهرجانات فى أولمبيا، لأن غياب السكان المحليين هناك كاد أن يكون تاماً، كما لعب الافتقار إلى التمويل دوره. أما فى أنطاكية، فقد اتخذت الأمور طابعاً مختلفاً كلياً: كان سكان المدينة العظيمة مولعين بالمهرجانات، وقام الأثرياء بتغطية النفقات فى إطار ما فرضته عليهم السلطات المحلية.

يحتمل إذن أن لا تكون المهرجانات الأولمبية عام ٣٩٣ قد تمت، بالرغم من أن الإعداد لها كان قائماً. وفى هذه الحالة، فإن الدورة الأولمبية الأخيرة فى الحقبة القديمة، والتى بدأت عام ٣٨٩، لم تعرف نهايتها الطبيعية أبداً، واستمرت طويلاً، حتى الدورة الأولى فى عصرنا، أى حتى عام ١٨٩٦. وعلى أى حال، فإن عام ٣٩٣ هو التاريخ السنوى الأخير المحتمل؛ لأننا نتذكر شهادة المؤرخ الصريحة، القائلة بأن المهرجانات الأولمبية انقضت، وثيودوسيوس على قيد الحياة. على هذا النحو أو ذاك، تمَّ الحديث خلال الوثبة الأخيرة الديانات القديمة وتصفية

الحسابات الأخيرة معها؛ لأنه فى العام ٣٩٣ بالذات، وقف يوجينيوس وأربوغاست علناً وبإصرار إلى جانب الآلهة القديمة.

عام ٣٩٣:

لم تكن الدلائل فى بادىء الأمر تشير إلى أن يوجينيوس وأربوغاست سيقومان بدعم الديانات السابقة للمسيحية. لأنه عندما تقدم مجلس الشيوخ فى روما، المطّلع جيداً على ميول أربوغاست الدينية وعلى تذبذب قناعات البروفسور السابق، طالباً إليهما تمويل عبادة الآلهة فى العاصمة من ميزانية الدولة أو إعادة ممتلكات المعابد المصادرة، رُفِضَ الطلب مرتين. لأن يوجينيوس ظلّ يتوهّم بأن ثيودوسيوس سَيُقْدِمُ فى نهاية المطاف على بعض التنازلات، ولهذا السبب، لم يرغب فى اتخاذ أية قرارات فى الأمور المزعجة والمتنازع عليها، كما أنه خشى من ناحية ثانية ردود أفعال المسيحيين. لم يحاول بشكل خاص التدخل فى القضايا المتعلقة بإيطاليا، الأرض التى لم تكن مُلكاً لأحد بعد، إذ لم يملك أى من الجانبين جيوشاً هناك. وعلى ما يبدو، فقد كان على استعداد، لا بل كان متلهفاً، للإستنكاف عن أية مطالب فى الجزء الأوسط من الإمبراطورية لقاء الاعتراف الرسمى بسيادته على الشطر الغربى منها. ولذلك، ومن خلال مساعيه لإضفاء طابع الشرعية على الوضع الراهن، اقترح أن يتولى منصبا قنصلى عام ٣٩٣ كل من ثيودوسيوس ويوجينيوس نفسه. رفض البلاط الشرقى هذا الاقتراح أو أهمله بصمت ينم عن الاحتقار. بينما أُعلن فى القسطنطينية أنه فى اليوم الأول من يناير عام ٣٩٣، سيتولى منصبا القنصلين ثيودوسيوس للمرة الثالثة وأبوندانسيوس قائد الجيوش. وبهذه الصيغة تمّ التأريخ طيلة ذلك العام فى كافة المقاطعات الخاضعة للسلطة الشرعية. أما فى الغرب، فقد حملت الوثائق الرسمية التأريخ التالى: «لمّا تولى يوجينيوس منصب القنصل» (أى أنه كان القنصل الوحيد!). أو «فى السنة التالية، بعد تولى أركاديوس وروفين منصبا القنصلين». يستنتج من ذلك، أن العام، الذى أقيمت فيه أو كان لها أن تقام فيه المهرجانات الأولمبية الأخيرة، أُطلقت عليه آنذاك تسميتان مختلفتان ـ بنتيجة النزاعات السياسية، والتمزق الداخلى للإمبراطورية. وكان لهذا مغزاه الرمزى بطبيعة الحال.

تَمَثَّلَ البرهان الثانى على أن ثيودوسيوس لن يعترف أبداً بسيّد الغرب الحالى شريكاً له فى

الحكم فى احتفال رسمى أُقيم فى القسطنطينية خلال يناير من عام ٣٩٣. أُعلن فيه هونوريوس، الابن الأصغر لثيودوسيوس، والذى لم يكد أن يبلغ الثامنة من العمر، أغسطساً؛ فحصل بذلك على اللقب والمرتبة الأعلى فى سلّم المسؤوليات، الشيء، الذى حصل عليه والده قبل أربعة عشر عاماً، وشقيقه الأكبر أركاديوس قبل عشرة أعوام تماماً.

استطاع الغرب من جانبه مواجهة هذه التظاهرات الرسمية، التى أقبل عليها البلاط الشرقى، بنجاحات عسكرية حقيقية وهامة. فأولاً، وفى شتاء عام ٣٩٢/ ٣٩٣، اجتاز أربوغاست نهر الراين فى منطقة كولونيا وأخضع أرض بنى جلدته لأعمال التدمير. بينما بقى يوجينيوس نفسه فى مؤخرة الجيوش الرومانية. هذا ما فرضته هيبة اللقب الإمبراطورى، أو على الأرجح ما نصح به الحذر أو الاحتراس «البروفسورى». استقبل الرسل، الذين بعث بهم الفرنكونيون والألمان، وعقد معهم اتفاقية سلام بشروط تخدم مصالح الإمبراطورية.

وجبت الإشارة هنا إلى هذه الأنشطة الحربية، وليس الهدف من ذلك التحدث عن حملة عادية بين حملات لا تحصى ضد الهمج، لأن هذه الحملة تبرز بوضوح أنه تماماً فى عام الدورة الأولمبية الأخيرة، كانت الإمبراطورية الغربية لا تزال تشكل قوة عسكرية ضاربة؛ قادرة على القيام بمناوشات هجومية خارج حدودها، وذلك على أرض القبائل الجرمانية الأكثر شراسة فى القتال. والغريب فى الأمر، أنه هنا بالذات، فى الغرب، كانت الكارثة العسكرية والسياسية أمام العتبة! ولكن هل كانت حتمية فعلاً؟ مَنْ يعرف، فربما كان للأمور لولا تدخل المصادفات التعسة، أن تتخذ منحى آخر، أكثر نفعاً لوجود الإمبراطورية بحد ذاته، وكذلك لوحدة وثقافة أوروبا. يُصنَّفُ فى عداد هذه الأحداث الضارية اغتصاب يوجينيوس للسلطة وما رافقها من نتائج مباشرة. وكذلك المؤامرات الصغيرة، التى شلَّت فى غير مرة سياسات بلاطىْ الإمبراطورية، المقسمة على نحو دائم بعد موت ثيودسيوس.

هكذا كان النجاح العسكرى الهام الأول ليوجينيوس وقائد جيوشه. والثانى - هو السيطرة على إيطاليا وروما فى ربيع عام ٣٩٣؛ الشيء الذى تمّ بدون معارك. فحتى الأسقف أمبروزى لم يكن الآن يبخل على المغتصب بلقب القيصر - الحقيقة أنه غادر ميلانو بمجرد أن علم باحتمال قدوم الحاكم، الذى لم يعترف به ثيودوسيوس، إلى المدينة. لكن السيِّد الجديد استُقْبِلَ بحفاوة بالغة من قبل الأرستقراطيين فى روما، معارفه وداعميه السابقين. وبهدف مكافأة (أو

شراء) هذا الاستعداد للتعاون معه، ووافق على المطالب، التى تقدموا بها من قبل: أعاد الممتلكات المصادرة إلى المعابد. لكنه أراد فى الآن ذاته تلافى صراع مفتوح مع الكنيسة، ولذلك لجأ إلى الوسائل غير المباشرة أو الملتوية بالأحرى، فى تنفيذ الالتزام. فقد حصل أعضاء مجلس الشيوخ على تلك الممتلكات ـ لا ريب فى أن هؤلاء هم الذين حملوا ألقاب كهنة الديانات القديمة ـ ولكن شريطة أن تخصص ايراداتها لتغطية نفقات العبادة، والتضحيات، وترميم المبانى.

أضحى فيريوس نيكوماخوس فلافيان السند الحقيقى لسياسة يوجينيوس فى إيطاليا، وحليفه الأكثر حماساً؛ وفى الآن ذاته، المدافع المليء بالتضحية فى سبيل قضية الآلهة. ويعود الفضل فى توليه منصب والى شبه الجزيرة الايطالية من جديد، للمغتصب يوجينيوس.

فرصة قضية الآلهة:

«بدا الأمر وكأن أيام يوليان الجاحد تعود ثانية. احتفلت عندئذ شتى العبادات والطقوس الشرقية والرومانية فى العاصمة يبعثها الجديد وإحيائها؛ تلك، التى كانت قد اختفت بعد نصف قرن أو أكثر. فَهُدِّمَتْ المبانى المشيدة من الحجارة المأخوذة من المعابد القديمة. وأُعيدت الممتلكات المصادرة للمعابد. ونجح الوالى فى إقناع المسيحيين الطموحين بالعودة إلى دياناتهم السابقة. الحقيقة أنه لم يلجأ لوسائل الإكراه فى هذا المجال، لكنَّ السلطة أعلنت أنها ستحرم المسيحيين بلا رحمة من حماية القانون، وسوف تضم سلك الإكليروس إلى صفوف الجيش بعد هزيمة ثيودوسيوس مباشرة. ولم تراود محاربى يوجينيوس الشكوك إطلاقاً فى أن ثيودوسيوس سيتعرض للهزيمة؛ بمثل هذه الثقة تمَّ النظر إلى التكهنات، التى أشاعها فلافيان، ألمع ممثلى فن العرافة القديم.

لا شك أن المراقب الملتزم بالحقائق بدقة سيعتبر السؤال التالى غير ضرورى وفى غير محلّه: ما هو المنحى الذى كان سيتخذه التاريخ الدينى والفكرى لحضارتنا، فيما لو تحققت نبوءة فلافيان؟ لكن لمخيلتنا الحق فى معالجة هذا الموضوع. إذ يوجد عدد كبير من الحجج، التى يمكن أن نواجه بها الرأى السائد، والقائل بأن فرص نجاح عودة الديانات السابقة آنذاك كانت ضئيلة. ولا يجب أن ننسى بأن المسيحية بعد مرور قرنين ونصف، استسلمت لسيطرة الإسلام

بصورة تكاد أن تكون بدون مقاومة إطلاقاً، وذلك فى البلدان، التى كانت جذورها فيها (أى المسيحية) هى الأعمق والأقوى؛ خضعت بعد مرحلة من النزاعات العقائدية الحادة مباشرة أو أثناءها بالأحرى. بالرغم من أن هذه البلدان لم تفتقر فى القرن السابع إلى رجال من أمثال القديس أمبروزى من حيث الموقف الأخلاقى والحماس؛ مثلما لا يفتقر إليهم أى مكان وأى زمان. يضاف إلى ذلك القوة الدعائية الكامنة فى تكريس الذات اللا نفعى ـ الصادق أو الظاهرى ـ لمثَلٍ أعلى، التى أثرت كل ذلك التأثير على انتشار المسيحية، والتى كان لابدَّ لها من أن تزاح تدريجياً لصالح ديانات أخرى، مع انتقال العناصر ذوى القيمة الأخلاقية الأدنى، ولأسباب مصلحية إلى معسكر المنتصرين. فذكرى يوليان الإلهى ـ التى مجدَّها الشاعر الإسبانى الورع برودينسيوس نفسه حوالى عام ٤٠٠م ـ أثرت أيضاً دعائياً لصالح قناعات الإمبراطور العظيم الدينية. كما أن أكثر أعضاء مجلس الشيوخ هيبة واحتراماً، حرسوا بمودة إرث الماضى الأفضل؛ والفضل فى إنقاذ أعمال الكلاسيكيين اللاتين، يعود إلى حماسهم وحماس أحفادهم الأدبى».

راودت هذه الخواطر ذهن واحد من أكثر المؤلفين معرفة بالحقبة الإمبراطورية المتأخرة، ومؤلف عمل تاريخى لا يزال أساسياً فى دراسة تلك المرحلة، وهو أرنست شتاين (ولد فى منطقة كراكوف فى بولونيا، درس فى فيينا، ومارس نشاطه العلمى فى برلين وبروكسل، وتوفى فى فريبورغ السويسرية)؛ راودته هذه الخواطر، عندما تطرق لموضوع يوجينيوس وبعث الديانات السابقة فى روما. قد تسمح لنا هذه الكلمات، التى تفوه بها رجل يُعَدُّ مرجعاً فى مجال اختصاصه، بفهم أفضل لعظمة القيمة التاريخية، التى تميزت بها المعركة الأخيرة، التى خاضها بذلك القدر من اليأس، المدافعون عن الآلهة القديمة فى أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة تحديداً؛ معركة خطيرة وزاخرة بالأحداث، بالرغم من أنها تكاد أن تنسى كلياً، وهى مهملة ولا تعار الأهمية، التى تستحقها ـ حتى من قبل العديد من المؤرخين.

تشد شخصية يوليان الجاحد منذ قرون الباحثين والكتّاب، والمسرحيين والروائيين والفلاسفة؛ وكما كان الأمر قبل قرون، خلال حياته، لا يزال يثير الخلافات والجدال، ويصبح بمثابة المحرك الرمزى لبعض التيارات والآراء. فكم من الأعمال المختلفة الأنماط كُرِّسَ بكافة

اللغات الأوروبية لهذا الحاكم وسياسته. وكم من الأحقاد تثير حتى اليوم كل إيماءة، وكل محاوله هادفة للإشارة إلى القيم، التى خدمها؛ والأهداف، التى حققها؛ والسبل، التى سلكها لبناء صرحه! وكما نعلم، حكم يوليان فترة قصيرة جداً، أما تجسيد مُثُله فى الواقع علناً، فقد استمر لفترة أقصر، إذ لم تتجاوز السنة ونصف السنة، منذ أواخر خريف عام ٣٦١ وحتى يونيو عام ٣٦٣. كادت الفترة الزمنية، التى منحتها الآلهة لآخر أتباعها اللامعين والمؤثرين سياسياً أن تكون مماثلة تماماً: يوجينيوس، وأربوغاست، ونيكوماخوس، بدءاً من سيطرتهم على إيطاليا فى مطلع ربيع عام ٣٩٣. ولكن ليست فترة حكمهم القصيرة هى السبب فى أن النسيان طواهم ومعهم العمل، الذى حاولوا إنجازه؛ فسلطة يوليان لم تكن سوى نيزك! يكمن السبب فى شىء آخر: التوثيق فى كلتا الحالتين ومن كافة الجوانب مختلف تماماً. فقد بقيت محفوظة عدة مجلدات من كتابات يوليان نفسه، كما حُفظت مجلدات المؤرخ أميان مرسيلينوس، وخطابات ليبانيوس المشبعة بالمديح والإطراء، وكراريس غريغورى النزينزى ـ لتقتصر على تعداد أهم مجموعات المراجع، التى تتحدث بشكل موسع ومتألق عن تلك المحاولة الأولى لبعث الديانات السابقة. أما عن أستاذ الأدب، الذى ارتدى الأرجوان الإمبراطورى؛ وعن الأرستقراطى، الذى دافع عن آلهة آبائه؛ وعن القائد ـ الوزير الفرنكونى، الوفى لروما وآلهتها، الذى هوى كالصاعقة على بنى جلدته بشجاعة تفوق شجاعة الرومان المعاصرين ـ فلا نعرف عنهم وعن أعمالهم سوى مِزقٍ من روايات عرضية وجزئية.

يمكن لمخيلة الروائى أو لسرعة بديهة ودقة ملاحظة كاتب المقالات، أن تتمم بشكل رائع ضآلة وجزئية المعطيات فى المصادر؛ وعلى أى حال، كانت ستدفع للتأمل. أما المؤرخ، فيجب أن يقتصر على ما هو معلوم ومحدد. لكنه سيعترف أيضاً: أن فقر وضآلة المعلومات لا تنتقص بأى شكل، ولا يمكنها أن تنتقص من أهمية الحقيقة، التى لا يرقى لها الشك، ألا وهى، أن المحاربين من أجل قضية تعددية الآلهة فى أعوام الدورة الأولمبية الأخيرة، كانوا فعلاً على وشك الانتصار، وعلى أقل تقدير، الانتصار العسكرى فى ساحة المعركة. لا أظننا فيما لو تحقق هذا الانتصار، نجد صعوبة فى تصور نتائجه اللاحقة فى مجال السياسة الدينية والثقافية.

نهر فريجيدوس:

تأجل خوض المعركة إلى أواخر الصيف، إلى مطلع سبتمبر من العام التالى ٣٩٤. كانت

تسمية هذه السنة أيضاً مختلفة ما بين شطرى الإمبراطورية. لأن أشخاصاً مختلفين تولوا مناصب القناصل فى كل من الشطرين. فحيث حكم يوجينيوس اتخذ التأريخ الصيغة التالية: «عام تولى نيكوماخوس فلافيان منصب القنصل»؛ كان قنصلاً وحيداً ـ ولنضف أن ابنه تولى فى الوقت ذاته منصب والى مدينة روما. أما فى البلدان الخاضعة لسيطرة ثيودوسيوس، فنجد تأريخاً مختلفاً: «عام تولى أركاديوس للمرة الثالثة وهونوريوس للمرة الثانية منصبا القنصلين».

لم يُقْدِمْ يوجينيوس وأربوغاست على الهجوم، فقد بسطا نفوذيهما على غالة، وإسبانيا، وبريطانيا، وإيطاليا، واكتفيا بذلك، ولم يرغبا بشىء أكثر. كانا على استعداد للدفاع عنها بشتى الوسائل، لكنهما لم يرغبا فى التقدم أكثر نحو الشرق، وخاصة فى اقتحام البلقان. فقد أدركا جيداً، بأن الموقع جبلى وعر، تشقه الأنهر والوديان العميقة، حيث يمكن للعدو أن يجرهما إلى المصيدة أو أن يفرض عليهما المعركة فى المكان الملائم له. وكانت الكوارث، التى تعرض لها اثنان غيرهما من المغامرين فى البلقان بمثابة أمثلة مخيفة: مغنيتسيوس قبل ما يقارب الأربعينى عاماً؛ وقبل ستة أعوام فقط ـ مكسيموس.. وكان كل منهما، شأنه شأن يوجينيوس الآن مغتصباً للعرش، ونودى بكل منهما قيصراً فى غالة، وتجندت جيوشهما بشكل أساسى من سكان تلك البلاد. ولذلك فإن سيِّد الغرب الحالى وقائد جيوشه لم يفكرا إطلاقاً بتكرار الخطأ المهلك، الذى راح ضحيته مَنْ سبقهما. وتركا مبادرة التحركات العسكرية لثيودوسيوس.

لم يجد الحاكم الشرعى أمامه خياراً آخر سوى الانتقال للهجوم وحسم المعركة لصالح المسيحية فى نفس الشهر (سبتمبر) فى وادى نهر فريجيدوس، فكان ذلك نهاية حقبة تاريخية عظيمة من التعددية الدينية لصالح الدين الواحد والأوحد.

الرهبنة والديرية فى مصر

* نشأة الزهد والطوائف المتعددة التى مارسته قبل المسيحية
* العقائد المصرية القديمة والمبادىء والأمثال التى انبثقت من حكمائهم
* جماعة الفلسفة الأفلاطونية الحديثة

معناها:

الرهبنه فى المسيحية معناها الزهد والتنسك أو الانعزال والانفراد بقصد التبتل والعبادة مع اختيار التقشف طوعا ولكن الرهبنة فى الديانة الاوزيرية السابقة للديانات المساوية كانت تعنى الخروج إلى المستنقعات خاصة فى شمال الدلتا والصحارى لإعمارها وبناء الاديرة الاوزيرية والقرى من أجل زراعة هذه المناطق واستصلاحها للقضاء على مراتع الاله ست واعوانه من الشياطين والبدو. ويرجع إلى هذه الفكرة (فى المعتقد الاوزيرى) الفضل فى تعمير صحارى مصر وواحاتها وتجفيف المستنقعات المحيطة بالنيل وزراعتها.

أما الديرية فهى نسبة إلى الدير وهو البيت أو الموضع الذى يخصص لسكنى الرهبان أو الراهبات والالتجاء اليه للتعبد.

نشأة الزهد:

النسك نزعة فلسفية قامت بين عدة طوائف وجماعات مختلفة بين شعوب وممالك الشرق منذ قرون قبل ظهور المسيحية ومنها ما ظل قائما حتى القرون الأولى المسيحية. وكانت أنشطتها التقليدية فى النسك على حسب المبادىء التى كانت تعتنقها. أما عن أهم تلك الطوائف والجماعات المختلفة والمبادىء والنظم التى سارت على نهجها فهى:-

أولا: طائفة البراهمة:

المشهورة فى بلاد الهند وهم يدينون بمذهب كنفوشيوس وبوذا. وتاريخهم فى الزهد والحياة الانفرادية ووالتقشف الصارم واذلال الجسد وكبح نزواته وميوله بطرق غاية فى الخشونة والقسوة مضرب الامثال وكانوا يؤلفون من أفرادهم جماعات عديدة بعضها يعيشون فى الكهوف أو بين الادغال والغابات كما التجأ البعض الى الهياكل ومناسك المعابد أو قرب شواطىء الانهار المقدسة حيث كانوا يمارسون نوعا من ضروب الرياضة البدنية القاسية لتعذيبه بشتى الوسائل الوحشية مع الصوم والحرمان.

ونظرا لأن الطائفة المذكورة كانت تعتقد بأن السعادة والخلاص فى الآخرة يقوم على الطهارة والأمانة الذاتية وأن جسد الانسان هو سبب كل الشرور والمعرقل للوصول الى الغاية المنشودة والفضيلة فدفعهم هذا الى تكبيل ذلك الخصم اللدود بقيود وأغلال غاية فى القسوة والصرامة فمنهم من كانوا يعذبون أجسادهم بالكى والمناخس الحديدية. ويقتحمون النيران المتقده فى صمت وجلد بالغ ويمشون وينامون فوق لوحات رشقت سطوحها بمسامير مدببة ومنهم من يكف عن الكلام أياما عديدة أو من يصعد إلى قمم الجبال العالية ويقطع القفار والصحارى النائية ولا يتذر الا بخرق بالية لاتكاد تستره أو تحمى من القر والحر. وقد تمكن جماعاتهم من نشر دينهم حسب مبادئهم وأنظمتهم فى أنحاء الهند والصين واليابان وفى الجزر الواقعة فى البحار التى حولها. وكما أنهم اعتقدوا أن العالم لا يستقر أو لا يهداء له حال الا باعتناق مبادئهم. فكونوا منهم جماعات على هيئات تبشيرية وسافرت للدعاية لهم فى بلاد أوروبا والامريكتين.

ومما يذكر أنه حوالى عام ٢٥٩ ق.م. عزم «اوسوكا» امبراطور الهند على نشر تعاليم بوذا فى أقطار البحر المتوسط كما أرسل بعثات لهذا الغرض الى مصر فى عصر «بطليموس فيلادلفوس» ولكن يظهر أن تلك النظم البوذية لم تصادف نجاحا فى مصر.

وقد كان هناك فئة من المتوحدين المصريين تسمى "Egyptian Gymonosphists". وكان منهم «أبولونيوس تيانا "Apollonius of Tyana". وكانوا يزاولون حياة نسكية خاصة. وذكرت بعض الروايات على أن هذا النوع من الحياة يرجع الى أصل هندى. كما أنه كانت هناك فئة من أولئك النساك وتعيش منعزلة حتى أوائل القرن الأول للميلاد وأنها من أحفاد فئة بوذيه. على أن حلقة الاتصال بين مصر والهند كانت قائمة على المبادلة التجارية بين الهند والاسكندرية وظلت تلك العلاقة حتى بدء القرن الثالث ثم أخذت فى الافول. ومن الجائز أن تكون هناك فئة من الهنود أو من سلالتهم ظلت باقية فى المدينة العالمية الاسكندرية. وعلى أغلب الاحتمال كانت تمارس تقليدها وأنظمتها فى النسك بطرقها الخاصة مما دعا البعض الى الظن أن رهبان مصر قد تأثروا بها الا ان هذا الزعم لا صحه له لا من قريب أو من بعيد للاختلاف بين الجنسين وصعوبة اللغة والجهل التام فى الديانات والعادات والتقاليد الهندية. ولذلك لا يمكن أن تكون هناك صلة بين أصول الزهد الهندية والرهبنة المصرية.

ثانيا: الجماعات الدينية:

منها طائفة الاسينيين[١] Essenes وقد نشأت منذ القرن الثانى قبل الميلاد وعاشت بعيدا عن مدينة أورشليم حيث أنفردت بمساكنها حول شواطىء البحر الميت. وكان أفرادها يحرمون الزواج على أنفسهم ويعيشون حياة مشاعية بسيطة ويكدون للحصول على القوت ويتصدقون بما لديهم على أبناء الفقراء ويقدمون الاحسان بسخاء للمعوزين من الناس. وكان من عاداتهم أن يشترطوا على طالب من يريد الانضمام الى صفوفهم أن يقضى مدة لا تقل عن ثلاثة أعوام تحت الاختبار فأذا تبين منه فى خلالها ما يبرهن على استعداده للانخراط فى الحياة الجديدة، وافق رئيس تلك الجماعة على قبوله فى حظيرتها بعد أن يتعهد بخدمة الله بكل أمانة ونشاط ولا يظهر أسرار الطائفة ولو عرض نفسه للموت.

وكذلك جماعة النساك الاخرى الذى قال عنهم الفيلسوف اليهودى «فيلو Felo» المعروفين باسم «السرابيوتاى Therapeutai» الذين كانوا يعيشون حول بحيرة مريوط وقرب برقه ووادى النطرون. وهذه الفئة كانت تعتمد فكرتهم على أساس أنظمة تقشفية قوامها تنقية الروح من الشوائب والنزوات وعولت على العيش خارج المدن بعيدا عن مباهج الحياة وفى منازل أو أكواخ غاية فى البساطة ومظاهر الابهة أو التنعم ومنعزلة.

وقد قال عنهم «فيلو» أنهم يبدأون بالصلاة عند الفجر ثم يمضون يومهم بالتأمل فى التوراه ثم يختمونه بالصلاة عند المساء. وقد عرف عنهم مداومة الصيام ويجتمعون أيام السبوت للعبادة معا داخل معبد عام يقع وسط منازلهم أو أكواخهم، كما أعتادوا الاحتفال بيوم الفصح فيجلسون على الارض الجرداء أذلالا للجسد مع تناول طعامهم من الخبز والملح. ثم يقوم بعض من أفرادهم بترنيمات وتختتم ببعض الرقصات الدينية. ومما لوحظ بين تلك الفئة من النساك أشتراك بعض من العذارى العجائز معهم أثناء تأدية طقوسهم الدينية. وكان

---

(١) كان الاسينيون ينقسمون الى اربع درجات وكان التميز بينها عسير لدرجة ان أصحاب الطبقة العليا منهم تساوت فى صفوفها مع أصحاب الطبقة السفلى منهم وبالرغم ان اغلبهم كانوا عزابا الا أن البعض منهم رأى ضرورة الزواج لحفظ النوع وكان منهم متزوجين وكانوا شغوفين بالانغماس فى اللذات وشديدى الاحترام للقانون الموسوى ومارسوا الفنون السحرية وعبادة الشمس وأنكروا قيامة الجسد مما يدل على مسافة الخلف بينهم وبين عقائد الرهبان المسيحيين. ويغلب أن تلك الفئة قد تلاشت بعد خراب أورشليم عام ٧٠ للميلاد.

يطلق عليهن اسم «رابيوترادس» وقد تأثرت تلك الجماعة بالفلسفة اليونانية والمصرية وقالوا بفساد المادة التى تغلبوا عليها بالزهد واذلال الجسد وحياة الطهر والكمال.

ثالثا: طائفة المنقطعين:

وهذه الجماعة تعرف باسم «كتويكاى Katoikoi» وهى تشكل لونا خاصا وتضاف الى الصور المصرية القديمة لمظاهر النسك وكانت أفرادها تشمل طائفة من الفقراء عرفت أيضا باسم المتصوفين أو المعتذلين وكرست حياتها لخدمة الاله «سرابيس» منذ العصر البطلمى. وكانوا يعيشون داخل المعابد وعملوا كوسطاء بين الاله سرابيس وعامة الشعب الذين كانوا يفدون طلبا للشفاء من بعض الامراض أو بقصد تفسير الأحلام ويشتركون فى تشييع جنازة العجل أبيس. وكان أهل القرى يقدمون لهم من الزاد ما يسدون به أودهم. كذلك جماعة كهنة هليبوليس كانت تعيش على الكفاف وكان أفرادها حاولوا أن يسموا بعواطفهم الى أرقى مراتب النسك والتدين.

رابعا: ديانة مصر القديمة:

كانت العقائد الدينية بمصر القديمة ذات سيطرة على عقول المصريين وتغلغلت فى أعماق نفوسهم وكان لها تأثير كبير فى جميع أدوار حياتهم والعامل الاول فى أنهم تبواؤا مركز الصدارة فى الحضارة بين أمم العالم القديم وفى النبوغ الادبى والفنى. فعقيدة الحياة بعد الموت أهم تلك العقائد وأقدمها على الاطلاق. اذ فطن المصريون منذ فجر التاريخ الى أن حياة الانسان ليست من العبث بحيث تزول فى هذه الدنيا الفانية. وقد اهتدوا بطبيعة الحال الى التفكير فى الاخرة والى اعتبارها دار الخلود. ولذلك بنوا لدنياهم بيوتا من اللبن والخشب بينما أتخذوا للاخرة قبورا أشد صلابة لتحمل تقلبات الزمن وقسوة الطبيعة. فنحتوها فى الصخر وشيدوا الاهرامات المقامة بالاحجار الضخمة. وكذلك حفظوا الاجساد بعد الموت للاحتفاظ بها من التحلل والفناء. وصنعوا لها التماثيل العديدة لارشاد الارواح الى أصحابها عند زيارتها للقبور كما كانوا يعتقدون. ولعل من دواعى الانصاف للتاريخ ولهم أن ننوه هنا أن تفكيرهم فى الاخرة لم يكن ماديا خالصا على النحو الذى يبدو لاول وهلة. ونحن على غالب الاحتمال نرى أن تفكيرهم هذا كان روحيا.

ومهما يكن من شيء فيبدوا ان نظرة المصريين الى الحياة الاخرى أصبحت روحية خالصة بلاشك وذلك قبل مضى وقت طويل من بدء ظهورها اذ لدينا فى متون الاهرام وهى أقدم وأغنى الوثائق الهامة لتاريخ العقائد المصرية منذ حوالى ٢٥٠٠ عام ق.م. وكذلك فى كتاب الموتى فيما بعد نصوص صريحة تبين بوضوح تام على أنهم أصبحوا يؤمنون بأن مصير الانسان فى الاخرة يترتب على سلوكه فى هذه الدنيا. وأن كل شخص مسئول عن تصرفاته أن خيرا وأن شرا. وأن هناك حسابا يتلوه ثواب أو عقاب، وأليك نص من كتاب الموتى يقول فيه صاحبه».... لقد كنت قائما بواجباتى نحو أبى وأمى محبا لاخوتى وأخواتى ولم أصنع شرا بأحد خوفا من دينونة أوزريس».

واليك أيضا فقرة من وصية تركها أحد ملوك الاسرة التاسعة لابنه يقول فيها: «أن من عاش عيشة التقوى والفضيلة كان نصيبه الخلود فى الحياة الأخرى. وأن من جاوزت حسناته سيئاته أمام أوزريس طابت له الحياة الاخرى. أما من لم يضبط نفسه فى الحياة الدنيا فأن مصيره الى الهلاك.

وفى طقوس أوزريس وأيزيس الدينية كان الكهنة يخصصون لالهتهم فترات مختلفة للصوم والعبادة مع الامتناع عن أكل اللحوم والسمك وشرب الخمر. وكذلك فى أمثال حكماء المصريين مثل «كاجمنى» الذى كان وزيرا للملك «حونى» من ملوك الاسرة الثالثة. ثم الحكيم «بتاح حتب» الذى كان وزيرا للملك «أسيسى» من ملوك الأسرة الخامسة ما شابه أمثال «سليمان الحكيم». وقد دون بتاح حتب هذا مواعظة وحكمة بعد أن بلغ من العمر مائة وعشر سنوات أى بعد ماعركته الايام واقتبس أكثرها من السلف وقدمها نصائح للخلف ومن هذه الحكم.

(١) من كاجمنى

- أسلك طرق الاستقامة لئلا ينزل عليك غضب الله.
- احذر أن تكون عنيدا فى خصامك فتستوجب عقاب الله.
- اذا كان المرء خبيرا بأحوال دنياه سهل عليه أن يكون قدوة طيبة لذريته.

(ب) من بتاح حتب

ـ يعز الله من يشاء ويذل من يشاء وبيده مقاليد الامور ومن العبث ان يتعرض الانسان لارادته.

ـ ما أعظم الانسان الذى يهتدى الى الحق والى الصراط المستقيم.

ـ أن تدبير شئون الخلق بيد الله الذى يحب خلقه.

ـ أن حدود العدالة لثابته وغير قابله للتغيير.

ـ اذا شئت أن تعيش من مال الظلم أو تغتنى منه نزع الله نعمته منك وأفقرك.

ـ لاتكن يابسا فتكسر ولالينا فتعصر.

ـ اذا شئت أن تطاع فسل ما يستطاع.

ـ لا تغتر بعملك ولا تشمخ بأنك عالم فأن العلم بحر لا يصل الى آخره أى متبحر. وخذ المشورة أو النصيحة من الجاهل كما تتلقاها من العالم أو العاقل.

ليكن أمرك ونهيك لحسن الادارة لا لأظهار الأمارة وحب الرياسة.

وحكيم آخر كان يتقلد مركز الوزارة أيضا فى زمن الدولة الحديثة فى عصر الملك توت عنخ آمون وهو الفيلسوف «آنى» وقد جاء من ضمن تعاليمه وحكمه:

ـ ليست السعادة فى الثرورة واقتناء الاموال وأنما هى فى استنارة العقول بالفضيلة والتعلق بالقناعة والرضى والكفاف.

ـ لا تكن ثرثارا وكن قليلا فى كلامك حذرا فى أحاديثك وفى زياراتك.

ومن أرق نصائح ذلك الحكيم السامية العبارات الجلية التى تركها للام حين قال «ضاعف الخبز لامك واحملها كما حملتك على كتفها بعد أن ولدتك لأشهر وبقى ثديها فى فمك ثلاث سنوات. أنها لم تتأذ قط من فضلاتك ولم تتساءل قط لماذا تشغل نفسها بهذه الفضلات. وقد ساقتك الى المدرسة ثم لما تعلَمت الكتابة وقفت بجانبك كل يوم تقدم لك من عندها خبزا وجعة. فأذا كبرت وتزوجت وصار لك بيت تقوم عليه فتذكر دائما أن أمك هى

التى ولدتك. وليكن من حظك الا تجد أمك هذه ما يحملها على لومك ولا على أن ترفع يديها الى الله شاكية.

وما من شك أن هذه الحكم والنصائح آيات بينات ودليل رائع على ما تحمل من سمو الفضائل وأنبل العواطف والمشاعر الفياضة. وليكن معلوما أنه كان هناك حكماء عديدون آخرون بين قدماء المصريين ظهروا فى عصور مختلفة ولهم من التعاليم والحكم والامثال الشىء الكثير أيضا.

ومن دواعى الفخر والاعجاب أن قدماء المصريين هم أول شعب فى الوجود نادى بفكرية الخلود كما صدق قول زعيم المؤرخين القدماء اليونان «هيرودت» عنهم فى بعض عباراته «أنهم كانوا يعرفون الله ويقدسونه وأشد الشعوب مخافة منه».

ومما هو جدير بالذكر أن نشير الى بعض الحقائق الاصلية فى الديانة المسيحية وما كان يوازيها فيما وصل اليه العقل المصرى القديم فى نضاله الطويل للوصول الى قواعد الديانة المصرية فى أدوارها المتأخرة. ففكرة البعث وخلود الروح والثواب والعقاب فى العالم الاخر كانت من أسس الديانتين. كما أن كثيرا من الاراء التى أنطوت عليها الديانة الجديدة لم تكن غريبة على عقول المصريين. فالثالوث المقدس فى المسيحية يقابل الثالوث المصرى القديم من أوزريس وأيزيس وحوريس.

كما كان هناك ثواليث أخرى محلية كثيرة. وفكرة ولادة الاله من عذراء بكر يقابلها كذلك فكرة ولادة الاله آبيس من عجلة بكر تحل فيها روح الاله «بتاح» والعماد بالماء المقدس معروف فى الديانتين. والصليب الذى هو رمز الحياة الروحية فى المسيحية كان رمز الخلود عند المصريين القدماء. اذ نلاحظ آلهتهم على الدوام وفى يدهم ذلك الصليب ذو الرأس وهو علامة عنخ عندهم ورمز للحياة أيضا. فليس بعجيب أذا أن يقبل المصريون على المسيحية وكذلك الرهبانية دون جهد كبير.

ومما يتبين لنا من تلك المبادىء المصرية القديمة وما برزت فيها من صور الفلسفات الدينية المختلفة والفضائل والامثال والحكم العديدة التى أتسمت بها والميول النسكية التى أنطوت عليها فأنها دفعت بعض الكتاب والمؤرخين الى التفكير أن الرهبنة المسيحية قد تأثرت بمثل

هذه الاتجاهات النسكية فيها صورة للتقليد. وفسرها معتنقو الرهبنة على أشكالها المختلفة التى ظهرت بها على مختلف العصور ولكن مما لا جدال فيه فان الرهبنة المسيحية قامت على التعاليم والمبادىء والنظم التى نادى بها المسيح والرسل.

خامسا: جماعة الفلسفة الافلاطونية الحديثة:

نشأت هذه الفلسفة فى الاسكندرية التى تشتهر بالافلاطونية الحديثة على يد أشهر أتباعها «امونيوس سقاس». وقد أعتنق والده الديانة المسيحية وعاش مع أسرته الفقيرة بالاسكندرية. وقد أنتشرت فلسلفة «سقاس» أنتشارا عظيما حتى وصلت الى جميع العقول كما ذاعت بسرعة وسط العامة الذين أمكنهم فهمها وكذلك بين كبار المثقفين. فاهتم بدراستها كما أعجب بها فلاسفة عظماء مثل القديس «أوغسطينوس» وكان لها تأثيرها العميق على كثير من قاده المسيحية. وليس فى الامكانى أن نحدد مقدار التأثيرات المسيحية التى أشتملت عليها فلسفة «أمونيوس» هذا. ولكن يمكن القول أن الفلسفة أخذت على يديه اتجاها يختلف عن سابقيه. لان الافلاطونية الحديثة لم تكن مجرد فلسفة وأنما كانت أيضا نظاما دينيا. أو كما يقول البعض أنها «حولت الهالينية الى لاهوت».

وقد توفى أمونيوس سقاس حوالى عام ٢٤٣م دون أن يترك لنا كتبا وأنما أمكن الوقوف على مبادئه وفلسفته من كتابات تلميذه «أفلوطين» «الذى ولد فى مدينة أسيوط عام ٢٠٤ للميلاد. ودرس الفلسفة فى مدينة الاسكندرية لمدة أحدى عشرى سنة على يد «أمونيوس سقاس» وأهم مبادىء هذه الفلسفة الافلاطونية الحديثة: ـ

أ ـ الدعوة الى التحرير من عبودية الجسد بالحياة النسكية التقشفية.

ب ـ مراعاة الجانب التأملى فى الحياة ونادى بعض أتباعه بأنه أذا تطهرت الروح من النزعات المادية وسمت عن الدنياويات أمكنها أن تصل الى درجة من الروحانية النورانية والتأمل فى الله.

جـ ـ ولن تتحرر الروح عن الملذات المادية والنزوات الدنيوية الا عن طريق التقشف وأذلال الجسد والاعتزال عن العالم ومباهجه والزهد فيه.

الاديرة المصرية والرهبنة

أولاً: أديرة الوجه البحرى

الرهبنة المصرية

* أوائل النساك.
* الرهبنة الأنطونية وأثرها.
* مناطق جماعات الرهبان.

أولا «أهم أديرة الوجه البحرى»

يرجع تاريخ ظهور الرهبنة على ضفاف وادى النيل منذ ظهور الديانة الجديدة بين المصريين وانتشار المسيحية فى مصر وانتظام كنيستها على أسس ثابتة الدعائم. بدافع من الروحانية والزهد بما توحى بهما الديانة المسيحية. ومع ظهورها بدأت مظاهر النسك تنتشر تدريجيا فكان أول ما وصل الى علمنا عن أوائل النساك كان «فرونونيوس» ١٣٨ ـ ١٦١م. ذكر الآب شينو "Chenau" فى كتابه عن «قديسى مصر» صفحة ٤٧٤ أن القديس المذكور وهو أحد رهبان صحراء (نيتيريا كان ممن اعتنق الرهبنة فى مصر السفلى قبل انتشارها. وأول من فكر فى معيشة العزلة بهذه الصحراء ليجرب هذا النوع الغريب من المعيشة. كما ذكر «كورزن Curzon فى كتابه «زيارات أديرة الشرق» صفحة ٧٦ أن هذه الفكرة تحققت فى أواسط القرن الثانى للميلاد. وأن القديس المذكور اعتزل الحياة فى هذا الوقت بوادى النطرون ومعه سبعون أخا بقصد النسك.

وينوه العالم الانجليزى «ولس بدج Wallis Budge» على أن تلك الحملة الرهبانية المنظمة ما هى الا واحدة من حملات متعددة كانت تحدث تباعا دون أن تسجلها المخطوطات المعاصرة. ويرجيع ذلك الى غالب الاحتمال لحدوثها فى الخفاء بغير اعلان أو ضوضاء. لأن الديانة الجديدة وأساسها يقوم على أنكار الذات وعدم التباهى بأمثال هذه الأشكال من العبادة والتنسك. وكانت تخص الزاهدين والرهبان أو المعتدلين على الاحتفاظ بأعمالهم سرا خفيا لا يعلمه الا الخالق. وأصدق دليل على هذا الزعم ذلك المثل الثانى الذى يظهر فى قصة حياة «الأنبا بولا» الذى هرب من الوادى فى الصعيد الأوسط وتوغل فى الصحراء الشرقية حتى

اهتدى الى احدى كهوف الجبال المطلة على البحر الأحمر وهو فى سن مبكرة. ومكث بها حتى بلغ من الكبر عتيا. حتى يقال أنه توفى فى العام الثانى عشر بعد المائة من حياته.

ولولا أن اهتدى الى مكانه فى أعماق الصحراء «القديس أنطونيوس» مصادفة وقيل بألهام من الله بتسخير «قنطورا» أشار اليه عن مكانه لظل أمره مجهولا. وعلى ذلك يمكن الجزم بأن الأمثلة المجهولة من هؤلاء النساك والمعتذلين المعاصرين أكثر كثيرا مما هو معروف.

أما عن القديس بولا فيعتبر من زعماء النساك ومن أعظم أقطاب الرهبنة المسيحية. فلابد من الالمام بفكرة وجيزة عن تاريخ حياته بقصد اماطة اللثام على هؤلاء المعتذلين من كبار المتوحدين وطرقهم فى الزهد. ولد «بولا» حوالى عام ١٥٠ للميلاد من أبوين موسرين وأصبح يتيما فى السادسة عشر من عمره. فتولى الوصاية عليه زوج أخته. وقيل عنه أنه كان يتحين الفرص للايقاع به. وقد تثقف بثقافة عصره المزدوجة وهى الثقافة الأغريقية والمصرية على السواء. ودرس أصول الدين المسيحى الذى تعلق به. ولما شعر أن زوج أخته المذكور قد عزم على تسليمه الى أيدى الولاة فى أحدى موجات الاضطهاد التى كثيرا ما كانت تجتاح المسيحيين فى العصر الرومانى، قرر بولا أن يهجر العالم بما فيه ويرحل الى الصحراء لعبادة الله ومباشرة حياة التقشف والرهبنة. وقد وصل فى تجواله الى المكان الذى أقام فيه الدير وحمل اسمه فيما بعد حتى اليوم.

وقد جاء فى كتاب «البستان» للرحالة الكبير «بلاديوس» وصف طريف للكهف الذى كان يقيم فيه بولا. ونظامه المعاشى وأسلوبه فى العبادة وشخصيته وكيف قضى نحبه فى سلام. فالكهف الذى اهتدى اليه كان واسعا من الداخل ذا فوهة صغيرة يغلقها بحجر كبير. ويمتاز بنظافته الفائقة وأنبساط أرضه ونعومة التراب المنثور عليه. وبجوار الكهف بعض النخيل الذى كان يقتات بثمره. ويرتدى برداء من الليف الذى يجمعها منه. وقد وجد بولا فى هذا المكان السلام الشامل والحياة الكامله التى كان ينشدها. وعاش قرابة تسعين عاما فى هذه البقعة الموحشة ولكن هذه الوحشة لم تؤثر على حلاوة شخصيته كما يتبين من رواية لقائه مع «القديس أنطونيوس». وكان يقضى أيامه ولياليه فى التعبد والصلاة والتأمل الهادىء. فلما وافته المنية ورقد الى الأبد فى أثناء الصلاة وأنطونيوس على مقربة منه احتار فى أمر دفن جثته لأن أرض الجبل الذى كان يعيش عليه صخرية. وهنا يروى «بلاديوس» قصة الأسدين اللذين

ظهرا وحفرا الحفرة التى أنزل فيها جسد الأنبا بولا بعد أن استولى انطونيوس على ردائه الليفى وحمله معه.

والشاهد أن أصول الرهبنة فى مصر عميقة الجذور بعيدة الغور وتاريخها أقدم من تاريخ القديس أنطونيوس. ولكن البداية لها لم تكن من نوع الحركات الاجتماعية المنظمة. وأنما أخذت وضعها الثابت المعروف والشهرة العالمية الذائعة الصبت على يد الأنبا أنطونيوس حيث تطورت تطورها التاريخى حتى أطلق عليها المؤرخون ذلك الأسمى الذى أسبغوه عليها وهو «الرهبنة الأنطونية» نسبة اليه. وكان هذا الدور بلا شك هى الخطوة البارزة حقا من مراحل تاريخ الرهبنة المصرية بشكلها المألوف لأن ما سبق ذلك لا يمكن اعتباره الا بمثابة مقدمات ارتجالية مهدت لهذا النظام الجديد.

وان كانت هذه الأدوار الأولى متداخل بعضها فى بعض ويصعب رسم حدودها المضبوطة فى نقط ثابتة معينة كالأنظمة والحركات التى تنمو نموا طبيعيا تبعا للظروف والأحوال. وقوام الرهبنة الأنطونية فى عصرها الأول كان ينطوى على العزلة الفردية التامة واغراق الراهب فى ضروب الزهد والمبالغة فى التقشف والصوم وتعذيب الجسد واذلاله لخلاص الروح. كما كانت حياة القديس أنطونيوس ذاتها مثلا أعلى لهذا النوع من النسك. وقد كتب عنها بالتفصيل القديس «أثنا سيوس الرسولى» بطريرك الأسكندرية وأسقفها الذى تزاور معه وعرف عن حياته كثيرا.

نشأة أنطونيوس

ولد أنطونيوس حوالى القرن الثالث للميلاد فى بلدة «قمن العروس» بمركز الوسطى بأقليم بنى سويف من والدين مسيحيين أثرياء. وكان والده مزارعا ويملك مزرعة خصبة تبلغ مساحتها ٣٠٠ فدان. وعاش الأبن فى بيت والديه حياة الترف وتعلم منهما قواعد الدين المسيحى. وأن كان من المحقق أنه لم يأخذ قسطه من التعليم الدنيوى أذ عرف عنه أنه ظل أميا لا يعرف الكتابة أو القراءة حتى أواخر أيامه. ولم يتصل بالثقافة اليونانية بتاتا فظل مصريا صميما فى طبعه وتفكيره. وحوالى عام ٢٧٠ ميلادية بينما كان فى العشرين من عمره توفى والده وترك له ثروة كبيرة وأختا صغيرة يقوم على تربيتها والعناية بشئونها الا أن أنطونيوس

الذى استهوته قواعد العقيدة المسيحية كان كثير التردد على كنائسها وبدأت تظهر عليه أعراض الاستخفاف بالحياة الدنيا حتى أنه فى ذات يوم عندما كان فى الكنيسة سمع الكاهن يعظ الشعب مرددا قول الكتاب المقدس بأن المرء اذا أراد الكمال وجب عليه أن يبيع ما يملك وأن يوزعه على المعوزين ليكسب بذلك ملكوت السموات. فاعتبر أنطونيوس هذا الكلام موجها اليه من الله. وسارع الى اجابة الدعوة ببيع أملاكه الا ما يكفى لسد حاجة أخته ووزع قيمتها على المساكين. ثم قرر بيع البقية الباقية أيضا عندما سمع الكاهن مرة أخرى يردد الآية القائلة لاتهتم بالغد بل اجعل الغد يهتم بنفسه يكفى اليوم شره. ثم عهد بشقيقته الى جماعة من العذارى اللواتى دأبن الاجتماع بحجر الكنيسة للتعبد وتدريب النفس على القداسة ورحل هو الى سفوح الجبال الشرقية المجاورة لحافة الوادى بعد أن عبر النهر حيث بنى لنفسه صومعة انفرد فيها. وكان أحيانا يخرج منها ليبحث عمن سبقوه الى العزلة والتقشف لكى ينقل منهم دروسه الأولى فى الرهبنة وهكذا أخذت هذه الحياة الجديدة كل تفكيره. فشرع يتوغل فى الصحراء تدريجيا للابتعاد ما أمكن عن سكان الوادى وظل يواصل رحلاته حتى استقر به الحال نهائيا فى الجبال الواقعة قرب ساحل البحر الأحمر. وعاش بقية أيام حياته فى كهف على قمة جبل بقرب من الدير الذى يحمل اسمه الى اليوم. ومات حوالى عام ٣٥٥م وكان يبلغ من العمر ١٠٥ من السنين بعد أن طلب من تلاميذه أن لا يحنطوا جسده على طريقة أسلافه من قدماء المصريين وأن يدفنوه فى مغارته.

وعرف عن القديس أنطونيوس أنه لم ينزل فى مدة الخمسة والثمانين عاما التى قضاها فى تلك البقعة الى الوادى على غالب الاحتمال سوى مرتين ولأسباب ضرورية عندما شعر بأن أخواته فى الدين هنالك فى حاجة الى هدايته ومساهمته فى تشجيعه عندما حاقت بهم المحن الكبرى التى حلت بالمسيحية فى أوائل عهدها بمصر. أما المحنة الأولى فهى الاضطهاد المرير الذى أنزله الامبراطور الرومانى مكسيمينوس بمسيحى مصر عام ٣١١م فلم ير القديس بدا من الخروج عن عزلته ليشد أزر المؤمنين ويقويهم فى أمانتهم لما بلغ الاضطهاد أشده. فكان يزور السجون ويتنقل فى المدائن معرضا حياته لأشد الأخطار فى شجاعة ورباطة جأش منقطعى النظير. والمحنة الثانية وقعت عند استفحال هرطقة «آريوس» الأسكندرى فى أثناء حكم الأمبراطور قسطنطين الكبير. فهبط أنطونيوس من الصحراء الشرقية الى المدن المصرية عام ٣٣٨م لكى يساعد القديس أثناسيوس فى كفاحة الدامى ضد الهراطقة من أتباع آريوس

المذكور ولا شك فان شخصيته كانت من أكبر الدعائم فى رد المصريين الى حظيرة الايمان المسيحى الحق وكبت هذه الضلالة أو البدعة الجديدة.

أما نظام حياة القديس أنطونيوس[1] فى عزلته فكان بسيطا بالرغم من شده تقشفه بتناول القليل من الخبز الجاف الذى أدركه التعطين وبعض الملح ولا يشرب غير الماء. وكان أفطاره مرة واحدة عند الغروب. وأحيانا كان يمضى ثلاثة أيام أو أربعة فى صيام كامل عن الطعام والشراب. وروى أنه كان فى بعض الأوقات يمد فترة الصيام التام حتى تصل الى أسابيع عدة. وكان يقضى لياليه ساهرا يصلى فاذا نام كان نومه لفترة وجيزة وعلى حصيرة من سعف النخيل. ولم يغتسل طوال حياته الرهبانية أبدا كما أنه لم يدهن جسده بالزيت وكان رداؤه عبارة عن فروة غير مدبوغة يلبسها مقلوبة لكى يقع شعرها على جسده أمعانا فى تعذيب نفسه بخشونتها. ولم يكن يتدثر بغطاء أثناء نومه الا بعد أن تقدم فى السن وأخذ منه الضعف كل مأخذ فكان يضع فوقه احدى الفراء.

أما شخصيته فقد أطال وشاد فى وصفها القديس أثناسيوس. فكان حليما لا يغضب وبلغ من الحكمة وعمق التفكير مع بساطته مبلغا رائعا. وأسلوبه فى الكلام كان قويا واضحا ومقنعا بالرغم من أنه كان أميا ولم يتكلم سوى اللغة المصرية ولم يدرس علوم الأغريق وفلسفتهم وكان ذهنه حاضرا وقريحته وقادة كما يظهر من جدله مع من زاره فى عزلته. وظل ايمانه بعقيدته ثابتا كالصخر كما بقيت نفسه هادئة تشع السلام على من حواليها. وكان شفيقا بالناس رحيما بهم قادرا على معالجة ما يصادفهم من الأزمات الروحية بدون أن يقسو عليهم أو يبعث اليأس فى نفوسهم واسع الادراك محبوبا من الجميع على السواء.

فلا غرو اذا أن تجتذب مثل تلك الشخصية الفذة أعدادا هائلة من الرهبان الذين تتلمذوا عليه. وأصبح هو فى نظرهم المثل الأعلى للحياة الكاملة. يقتدون به وينسجون على منواله. حتى أن الصحراء أصبحت تعج بجماعاتهم فى جبالها الشرقية. ولكن النظام ظل فى أساسه نظاما فردى أى قوامه العزلة والتقشف والصوم لأن تعذيب الجسد والحرمان كان هو الوسيلة

(١) عندما ذاع صيت الأنبا أنطونيوس فى النسك وشدة ورعه وتقواه واتصلت أخباره بالأمبراطور قسطنطين فأرسل اليه يدعوه الى زيارة القسطنطينية كى يراه، فاستعظم الرهبان تلك الدعوة وافتخروا بها وألحوا عليه بأن يلبى طلبها ولكنه اكتفى بأن رد عليها برسالة.

الموصلة لنجاة النفس وخلاص الروح. وكان الأخوة من أتباع أنطونيوس يتنافسون فى هذا الميدان الى حدود تفوق الوصف.

غير أن نظام العزلة التامة زاوله هؤلاء الجبابرة من المتوحدين كان مصيره الطبيعى أن يتطور تطورا بطيئا الى نوع من الرهبنة الاجتماعية المخففة لمجابهة الصعاب المادية والروحية التى كانوا يتعرضون لها فى تلك الصحارى والقفار الموحشة. وأخذت بوادر هذا التطور فى الظهور شيئا فشيئا حتى فى أثناء حياة القديس أنطونيوس نفسه. وتعتبر هذه المرحلة هى الخطوة الثانية فى تطور الأنظمة الرهبانية المسيحية وهى المتوسطة بين التعاليم والنظم الأنطوانية الأولى وقوانين الديرية الباخومية.

ولا شك أن هذا التطور كان أمرا أنسانيا طبيعيا فى الظروف القاسية التى كانت تحيط بالمتوحدين الذين عمدوا الى انتزاع أنفسهم انتزاعا كاملا من كل الصلات البشرية. ولم يحسبوا للمخاوف والأخطار التى كانت تتهددهم أى حساب. فمن الناحية المادية وجدوا أنفسهم يعيشون فى صحارى وقفار جرداء تندر فيها ينابيع الماء. وتكاد تكون خلوا من موارد الغذاء. ولابد لهم من الارتحال أميالا عدة ليحصلوا على ما يمكنهم من سد رمقهم من المأكل والمشرب مهما كان ضئيلا. فاذا نزلت بأحدهم نازلة المرض وعجز عن التنقل كان مصيره الموت المحقق. ثم أن الصحراء الى جانب ذلك كانت تجوس جنباتها الحيوانات الضارية ويجوب أكنافها قطاع الطرق من أهل البادية وأنصاف المتوحشين وكلاهما لا تعرف الرحمة الى قلبه سبيلا. أما من الناحية الروحية فقد كان النساك ولا سيما البادئون منهم فى مستهل الرهبنة يتعرضون لأزمات نفسية عنيفة تؤدى بكيانهم المعنوى. ولدينا أمثلة وأن كانت قليلة من الرهبان الذين أصابهم الجنون فكفروا بكل شىء وعادوا يعيشون فى المدينة عيشة غير طبيعية بعد أن قضوا أعواما فى جوف الصحراء على الكفاف وقتل الغرائز الأنسانية والتقشف والتأمل والصراع من أنفسهم. ونذكر من بين هؤلاء «فالنس Valens الفلسطينى وكذلك «بطليموس» المصرى.

ولذلك كان من الطبيعى لهولاء المتوحدين أن يفكروا فى التخفيف من عزلتهم بعض الشىء بدافع الغريزة البشرية لحب البقاء. فأخذوا فى تركيز صفوفهم فى مناطق معينة حول

الشخصيات الكبرى من الآباء الروحيين الأمجاد ليتتلمذوا على أب لهم فى الروح اشتهر بالقداسة والعلم بأصول الديانة والتفقه فى الكتب المقدسة. وليسترشدوا بتعليمه ويتشبهوا به فى قدسيته وأن كان كل منهم لا زال يحافظ على حياة التوحد التى وهب نفسه لها فى كهفه أو قلايته دون أن يتعرض له جاره أو يقطع عليه أحد زملائه حبل التفكير والتأمل والعبادة. ولكن مغاورهم وقلاليهم كانت قريبة بعض القرب من بعضها تقوم حول قلاية أبيهم الروحى. وبهذه القربى أيضا يتغلبون على الصعاب المادية التى كانت تواجههم فاذا ما نزلت بأحدهم نازلة المرض أو كارثة غير منظورة كان له من جيرانه من الأخوة عون فى الشدائد والنوازل وهم فى نفس الوقت يجتمعون الى أبيهم الروحى بين آونة وأخرى ليشد أزرهم ويحسن توجيههم ويساعدهم فى التغلب على أزماتهم النفسية.

ومن العوامل الأخرى التى دفعتهم الى هذه الحياة الاجتماعية المخففة هى الأضطهادات الدينية المريرة التى كانت حكومة الأمبراطورية تشنها بعنف ضد المسيحيين للقضاء عليهم. فنجد أن المتوحدين بعد اضطهادات «ديسيوس ودقلديانوس» بصفة خاصة يجمعون صفوفهم عند الضرورة للدفاع عن أنفسهم ومهما يكن من أمر هؤلاء الرهبان المسالمين فان كثرة أعدادهم وقد بلغت الألوف المؤلفة وهم مسلحون بعصيهم الغليظة أنما كانوا يكونون جيشا لا يستهان به. ولا تستطيع أى حكومة أن لا تقيم لخطرهم على عمالها أى وزن. وقد زادت أعداد الرهبان زيادة هائلة حتى امتلأت صحراوات مصر الشرقية والغربية بجماعاتهم وتركزت فيها.

المناطق التى التجأت اليها جماعات الرهبان

امتلأت البلاد منذ القرون الأولى لظهور الديانة المسيحية بجماعات وفيرة من الرهبان. وانتشرت فى طول البلاد وعرضها وفى شمالها وجنوبها لا فى صحاريها وقفارها فحسب بل وشملت العديد من جنبات وادى النيل حتى أصبحت الأديرة التى كانت تتركز فيها أفرادهم الكثيرة فى عصر من عصورها تزيد على المئات فى عددها. وما زلنا حتى عهدنا هذا نسمع العديد من أسماء البلدان والمدن والقرى يطلق عليها اسم دير وعلى الأخص فى كثير من بلدان الوجه القبلى مثل بلدة دير تأسا ودير الجنادلة ودير ريفا ودير درونكة ودير الزاوية وغير ذلك. أما أهم المناطق التى تركزت فيها جماعات النساك وكان دورها تاريخيا خطيرا فهى: -

أولا: منطقة بسبير:

تقع هذه المنطقة فى مصر الوسطى ويصعب تحديد مكانها تماما ولكن يقال أنها كانت واقعة فى الجبال التى تبعد بضعة أميال عن الحافة الشرقية من الوادى قريبة من مدينة بنى سويف. وهى المنطقة التى بدأ فيها القديس أنطونيوس حياته الرهبانية الأولى ثم انتقل منها الى الجبال النائية التى تطل على البحر الأحمر. ثم تبعه الى «بسبير» وما حولها عدد هائل من الرهبان الذين شغفوا بشخصيته التى اجتذبتهم ورغبوا فى الالتفاف حوله والتتلمذ عليه وعاشوا فى رعايته الروحية. وقد ازداد عددهم فى حياته وفى شيخوخته حتى بلغوا الألوف حسب ما جاء فى وصف الرحالة والكتاب الذين صوروا بأقلامهم لنا الحياة العامية للرهبان والنساك فى ذلك العصر فى المنطقة المذكورة بطريقة رائعة تنتزع الأعجاب.

وكان يقيم فى المنطقة المذكورة على مقربة من كهف أب الرهبان القديس أنطونيوس زعيم النساك «الأنبا بولا» الذى سبق أن ذكرنا نبذة وجيزة عن تاريخ حياته وكذلك عن القديس أنطونيوس. وقد اهتدى الأنبا بولا الى الكهف الذى قضى فيه مدة حياته فى نفس المنطقة. وكان بالمغارة نبع الماء الذى كان يرتوى منه. كما بنى فى المكان أيضا نفس الدير الذى يحمل اسمه حتى اليوم. وفيه عدد من الرهبان الى الآن وهو فى جبل القلزم القريب من البحر الأحمر. ومن رضاء الله على الأنبا بولا هذا وتقديرا لنسكه وصلاحه انه سخر له غرابا كان يحمل اليه كل يرم نصف رغيف يقتات به ولغذائه اليومى. وعاش بقية عمره على هذا الحال. كما روى أن الذى كتب ترجمة حياته نقلا عن رواية القديس أنطونيوس هو مكاريوس تلميذه.

أما سبب الاهتداء الى الأنبا بولا ومكانه فيرجع كما قيل أن الأنبا أنطونيوس لما بلغ من العمر سن التسعين حاربه الشيطان بفكر الأعجاب على أنه هو أول من اتخذ القفر مسكنا وأول من أتقن فضائل عديدة أذ خدم ذاته وخدم تلاميذه والكنيسة وجاهد فى سبيل العقيدة والايمان مرارا ضد الوثنيين والفلاسفة والهراطقة. وقد سبق أن حارب هذه الأفكار قديس نيتيريا الكبير (الأنبا مكاريوس) من قبل. فأوعز الله الى «القديس أنطونيوس» بهاتف فى دجى الليل يقول له أنه تقدمك فى هذه البرية انسان يسكن فى مجاهلها أذهب وفتش عليه. وفى صبيحة الغد ترك الكهف الذى يقيم فيه وتوغل فى البرية يومين وليلة وهو لا يكف خلالها



أيقونة تمثل الأنبا بولا والأنبا أنطونيوس مؤرخة سنة ١٤٩٣ قبطى أى ١٧٧٣م. ويلاحظ الغراب يحمل اليهما رغيفاً من الخبز

عن الصلاة والتضرع طالبا من ربه أن يهديه الى مكان النساك. ثم شاهد وحشا صاعدا الى الجبل وهذا الوحش هو ذلك المخلوق الخرافى المسمى «بالسنتور» والغريب فى شكله أن جسمه جسم جواد ووجهه أشبه بالأنسان. وكثيرا ما نشاهد صور هذا المخلوق مرسومة مع صور الأنبا أنطونيوس ذلك لأنه يقال عنه أنه ساعده وأشار اليه عن المكان الذى كان فيه للأنبا بولا. فتعقب الأنبا أنطونيوس الحيوان المذكور حتى أرخى الليل سدوله وشرع يفتش عن مكان يأوى اليه فترة الليل. فصادف مغارة فمال اليها ولما دنا منهيا لمح داخلها فى الظلام الحالك نور سرج يضىء فيها فعلم أنه وجد من يبحث عنها.

وأما الأنبا بولا لما أحس به أسرع الى الباب وأغلقه وتنحى عنه وشرع يصلى وظل القديس أنطونيوس يقرع الباب باكيا وبعد أخذ ورد طويل فتح الأنبا بولا البابا الضيق فتقابلا وتعانقا ثم جلسا يتفاوضان ويتفاهمان عن حال الدنيا. واذا يظهر الغراب فجأة بينهما وهو يحمل لهما رغيفا كاملا فتأكد الأنبا بولا ما وعده الله به. ثم قال بولا لضيفه عن معرفته منذ زمان بالتجائه فى تلك البرية وأن الله قد وعده بزيارة القديس أنطونيوس اليه لكى يواريه التراب عند انتهاء زمن غربته فى ذلك العالم ومفارقة الجسد.

أما أهمية المنطقة المذكورة أيضا فعلاوة أنها ارتبطت بذكرى اثنين من أقطاب النسك والرهبنة فى تاريخ المسيحية على الأطلاق فما زالت حتى اليوم تحوى الآثار التى تحمل اسميهما. وهى عبارة عن ديرين عجيبين فى الواقع يتشابهان فى منظرهما بصفة عامة

ويشتركان فى الظروف والأدوار التى مرت عليهما وأن اختلفا فى تفاصيل الأبنية من حيث كثرتها واتساعها.

أما دير الانبا بولا: فيقع غرب أحد جبال الجلالة القبلية العالية وتحيطه هضاب مرتفعه. وهو مبنى على هضبة مرتفعه. وهو أبعد الاديرة عن المدن كما أن الطريق الموصل اليه من أصعب الطرق وأخطرها ومحصور من جميع الجهات بجبال عالية تكاد تحجب عنه تيار الهواء وضوء الشمس وكان الوصول الى هذا الدير بصفة خاصة فى الازمنة السالفة لا يستغرق وقتا طويلا ومجهودا شاقا فحسب بل الطريق اليه كثيرة الوعورة بين سلاسل الجبال منهك وشديد الخطورة. ويتعرض فيه الرحالة أحيانا الى قطاع الطرق واللصوص من قبائل البدو أو الوحوش الضارية. وكانت الابل هى الوسيلة الوحيدة التى اتخذها الرحالة فى الذهاب اليه وقتئذ. وكان يحتاج الرحالة الى مسيرة يومين من دير الانبا انطونيوس اليه والى ستة أيام من شاطىء النيل والى ثلاث ساعات من شاطىء البحر الاحمر. وبالرغم من تغيير طرق المواصلات اليوم عما كانت عليه سابقا بحيث أنشئت الطرق المعبدة الى تلك المنطقة وأمكن الوصول اليها بسهولة وفى وقت قصير ولا يمكن مقارنته عما كانت قبلا الا أن الرحلة تحتاج لجهود لا يستهان به.

أما مساحة الدير فتبلغ حوالى خمسة أفدنه وهو مستطيل طوله ٢٠٠ متر وعرضه ١٠٠ متر وقد أقيم فى نهاية القرن الرابع وبقرب المكان الذى كان يتعبد فيه الانبا بولا. وقد زاد فى مساحته واحاطته الامبراطور «جوستنيان» ويوجد بداخله أربع كنائس وأهمها هى الكنيسة التى شيدت على اسم مؤسس الدير ويرجع عهدها الى بناء الدير أو قبله بقليل. وذلك لان الرهبان عندما أستقر بهم المقام هناك لابد وأنهم قد بنوا كنيسة يجتمعون فيها للاشتراك فى الصلوات العامة ولم يكن أمامهم أنسب لذلك الغرض من مكان المغارة التى قضى فيها القديس معظم حياته. وتمتاز الكنيسة المذكورة بغرابة موقعها فهى مبنية على بعد ثلاثة أمتار تحت سطح الأرض فى نفس المغارة التى عاش فيها الانبا بولا وليست مبنية كلها وأن سقف الهيكل القبلى والأوسط من الجبل نفسه. وقد هجم البدو القاطنين فى المنطقة على الدير وسلبوا ما وصلت اليه أيديهم وقتلوا الكثير من رهبانه والحقوا به الحريق والخراب وكان يتكرر ذلك الهجوم على الأديرة مرارا وفى فترات مختلفة ومنها ما وقع فى عام ١٤٨٤ للميلاد وقد تولى الاصلاح فيه الأنبا غبريال السابع البطريرك الخامس والتسعون فى عداد البطاركة «١٥٢٥ ـ ١٥٦٨ ميلادية». وفوق الكنيسة الأولى توجد كنيسة أخرى تسمى باسم «أبى سيفين». وقد شيدها

المعلم ابراهيم الجوهرى فى أواخر القرن الثامن عشر. ويسجل ذلك الكتابة المدونة على أحد أبواب الكنيسة. ثم كنيسة ثالثة وتسمى بكنيسة الملاك وهى شديدة الشبه بكنيسة الرسل فى دير الأنبا أنطونيوس مما يدل على أنهما بنيا فى زمن واحد وغالبا من نفس الشخص. ونظرا لأن الأنبا «خرستودولس» كان من رهبان هذا الدير. فلما تعين مطرانا على القدس قام بعمل عمارة كبيرة فيه وأضاف مساحة اليه كما أدخل فيه ضمن حدوده عين الماء الرئيسية. أما الكنيسة الرابعة فهى مكرسة على اسم العذراء وهى تقع بداخل الحصن القديم ويستخدم الرهبان كنيسة الملاك السابق ذكرها لاقامة الصلاة فيها معظم أيام السنة لاتساعها ودفئها كما لا تستعمل الكنائس الأخرى فى الدير الا فى أعياد القديسين المكرسة على أسمائهم الكنائس أو الهياكل.

أما ما يشتمل عليه الدير المذكور بخلاف ما ذكرناه من الكنائس هى الأجزاء والأقسام الآتية.

الأسوار: وهى نوعان منها القديم والحديث. ولكانهما يتفقان فى الارتفاع والضخامة ويبلغ ارتفاعها حوالى عشرة أمتار وعرضها متران وسطحها مستو على خلاف سطوح أسوار دير أنطونيوس.

اقسامه: قسمان أحدهما قديم على ما كان عليه ويحوى فى الجهة القبلية منه جميع المبانى من الكنائس والقلالى والمخازن وغيرها. وفى الجهة البحرية حديقة الدير. أما القسم الاخر فيحوى المبانى التى أضافها الأنبا خرستودولس للدير وبه عين الماء الرئيسية ثم عين أخرى صغيرة بها نخيل والمقبرة.

الحصن: وهو أهم ما فى الاديرة جميعا بعد الكنائس وهى الحصون القديمة التى أنشئت ليلجأ الرهبان اليها عندما يقتحم البدو والأعداء عليهم الدير. وهى عبارة عن مبنى ضخم مرتفع يخيل للناظر أنه عديم النوافذ والأبواب. ولكن لها باب فى الدور الاعلى وأمامه كوبرى يتحرك طرفه عند الحصن أو يمكن تثبيت طرفه الاخر على بناء عال فى مواجهته. وعلى ذلك الكوبرى يمكن للرهبان أو الرحالة أن يدخلوا الحصن. ولكنه أذا ما رفع سد الباب سدا محكما ويتعذر على أى شخص دخول الحصن. وبذلك يمكن من بداخله أن يبقوا فى أمان لفترة طويلة دون الحاجة الى الخروج. وكانوا يخزنون عادة بداخلة ما يحتاجون من المأكل وفيه بئر الماء كما فى أعلاه كنيسة يجتمعون فيها للصلاة ويظلون على هذه الحال حتى تنقشع

جموع المهاجمين من العربان واللصوص وتعود فترة من الامان فى المنطقة ويعود الهدؤ وتسرى الحياة العادية فى الاديرة.

المكتبة: وعلى غالب الاحتمال كانت توضع فى الحصن وكان الرهبان فى جميع الاديرة يعتزون بالمخطوطات ويحافظون على أقتنائها ويتخذون لها مكانا أمينا فى الدير وقلما كان يخلو دير من أنفس المخطوطات وكان من بين الرهبان أنفسهم فئة شغوفة بكتابة المخطوطات المختلفة والعناية بنسخها وتزيينها وتجليدها. ولكن للاسف فأن أغلبها وقع فريسة للحريق أثناء فترات الهجوم من البدو. ومنها ما احتال على الحصول عليه فريق من رحالة الغرب وما تبقى منها من المخطوطات القديمة فقد تحول الى مكتبة الدار لبطريركية. ولا يوجد من هذه المخطوطات بمكتبة الدير الآن الا بعضها القليل القيمة وكثير من الكتب المطبوعة.

مقر الضيوف: مكان بسيط ويشبه القلايات وهو يختلف كثيرا عن المكان المعد الان للضيوف فى دير الانبا أنطونيوس ففيه يجد الزائر ما يحتاج من أماكن الراحة ولوازمها الى حد كبير.

المخازن والاماكن الاخرى: يوجد داخله مخزن الغلال. ومكان لطحن الحبوب. ومخزن للوقود اللازمة للدير طول أيام السنة. وكذلك مكان عجن وخبز العيش والمائدة والمقبرة. والحديقة. ومطحنة للجبس وعيون الماء وعددها ثلاث، ومنها ما أغتسلت فيها مريم أخت هارون، وثالثة خارج الدير وعلى مقربة منها بعض نخيل وخضروات ويقال عندها تلاقى الانبا أنطونيوس مع الانبا بولا.

والشاهد ان هذه الاماكن تشبه كلها ما بدير الانبا أنطونيوس ويلاحظ أن الفترات التى صادفها ذلك الدير فى العصور المختلفة تشابه تلك الادوار التى مرت على دير الانبا أنطونيوس. كما يظهر من زيارة أحد الرحالة الذين زاروا الدير فى القرن السابع عشر وهو «سيكار» شاهد ما يؤيد وجود رئيس عام للديرين معا. كما ذكر بعض الرحالة أيضا وصفا دقيقا يوضح وعورة الطريق البالغة والخطورة المريعة التى يتعرض لها من البدو المتوحشين واللصوص ومن الوحوش المفترسة كذلك وكانت هذه من البواعث التى نفرت الكثير من السياح والحجاج من الزيارة.

أما دير الانبا أنطونيوس: فيقع عند سفح جبل القلزم وهو أحد سلاسل جبال الجلالة عند

أسفل تل مرتفع يطل على البحر الاحمر وجبال سيناء. وقد أنشىء عند العين التى كان يشرب منها أنطونيوس وقريب من المغارة التى عاش فيها فى حوالى أواخر القرن الرابع للميلاد.

وهو يعتبر أكبر الاديرة جميعها بسبب أتساع مساحته التى تبلغ ١٨ فدانا وكانت تبلغ حوالى أربعة أفدنة قبل أيام الامبراطور «جوستينيان» بالقرن السادس الميلادى. وكانت ستة أفدنة عام ١٦٧٠م أيام زيارة الرحالة الآب «فانسليب» ثم زادت مساحته بعد الاصلاح الاخير حيث بنى فيه السور الجديد أيام البطريرك كيرلس الرابع المعروف بأبو الاصلاح.

طريقة دخول الدير

لم يكن للدير فى الأزمنة الغابرة أبواب للدخول اليه منها وكل ما كان له هو باب صغير الحجم من الناحية الخلفية من السور القديم. وقد أهمل استعمالة بعد عمل السور الثانى أيام الامبراطور «جوستنيان». ولم تكن الطريقة بقرع الابواب بل بواسطة قرع الاجراس. وكان الوصول الى داخل الدير بواسطة آلة أشبة بدولاب خشبى وتسمى «بالساقية». وهى طريقة بدائية شاقة ومخيفة ووجد فيها رحالة الغرب غرابة وصعوبة فى صعودهم لداخل الدير.

وقد ظل الدير بدون باب حتى عام ١٨٥٩ م حيث أنشىء السور الضخم الجديد كما صنع للدير باب ضخم كما ظلت الآلة الرافعة بجانبة. ولم يكن يفتح هذا الباب للزائرين الا فى مناسبات خاصة فقط وذلك عند قدوم البطريرك نفسه ومرة واحدة كل عام عند أدخال الغلال أو الوقود اللازم للدير.

لمحة عن تاريخة: لم يصل الى علمنا وصف تفصيلى عن أصل ذلك الدير. وكان ما أمكن الحصول عليه هى بعض نبذات وشذرات وجيزة سطرها بعض الرحالة والمؤرخين فى العصور المختلفة وبعض الروايات والقصص المتفرقة التى توارثها النساك عن بعضهم البعض وروى أن كثيرين من الزهاد سكنوا مغارات طبيعية بجوار القديس أنطونيوس بالقرب من عين الماء لامكان الحصول عليه بدون عناء. والقيام بغرس الأشجار بقربها للاستظلال ثم كونوا جماعات متقاربه يقوم كل منها بتبادل المنافع. ثم بنوا سورا يجمع شتات قلاليهم ويحميهم من غارات الاعداء من البدو واللصوص والظواهر الطبيعية وبذلك تم أنشاء الدير ولا نعرف بالضبط شيئا عن التاريخ الذى أقيم فيه الدير أنما يظهر من أقوال الرحالة الذين قدموا لزيارته. وكذلك دير الانبا بولا أنهما كانا موجودين فى القرن الرابع. أذ روى أحدهم عند زيارته حوالى

عام ٤٠٠م وذهب الى المكان الذى كان يعيش فيه الأنبا بولا. ويذكر أيضا أنه رأى من ذلك المكان البحر الاحمر ومرتفعات جبال سيناء. وما يؤيد تلك الرواية ما وصفه فيها من حقائق لم تكن معروفة من قبل الا لمن زار تلك الجهات حقا.

ويغلب على الظن أن الدير المذكور كان فى أول أمره بسيطا مثل ما نشاهد فى أديرة وادى النطرون. وكانت مساحتة لا تزيد عن الثلاثة أفدنة وتحتوى على قلالى الرهبان وكنيسة واحدة باسم القديس أنطونيوس وقليل من الابنية الاخرى وبه سور بسيط يحوية. أما فى أيام الامبراطور جوستنيان عام ٥٣٧ م فقد أراد حماية حدود مصر فبنى الحصن المشهور فى سيناء لحماية رهبان الروم بدير «سانت كاترين» ثم عمر ديرى أنطونيوس وبولا وزاد فى مساحتهما وأضاف كثيرا الى مبانيهما ثم أقام السور الثانى للدير الذى استمر قائما حتى أيام البطريرك كيرلس الرابع وهو من البقايا التى لازالت موجودة حتى الان.

وفى القرن الخامس عشر ساد عصر طويل مظلم للأديرة اذ هجم عليها البدو عام ١٤٨٤م وقتلوا من فيها بعد نهبها ثم أضرموا النار فيها واحرقوا مخطوطاتها النفيسة.

أما عن موعد بناء تلك الكنيسة فقد تحدث عنها «فانسليب» ومعنى ذلك أنها بنيت قبل عام ١٦٧٠م. ويغلب أنها شيدت عام ١٤٨٠م بواسطة شخص يسمى «لطف الله شاكر» بدليل ما هو مكتوب على الكنيسة نفسها وبدليل تشابة الكنيسة مع كنيسة الملاك بدير الانبا بولا وتلك الكنيسة كان قد بناها الشخص المذكور نفسه.

أهم محتويات الكنيسة الاثرية:

أ ـ صورة قديمة لانطونيوس وبجواره صورة مشوة الخلقة.

ب ـ صورة قديمة مزينة بالليقة الذهبية تمثل السيد المسيح وحوله الملائكة.

ج ـ مصابيح وقناديل منها مصابح عربى من الزجاج الملون لعله من زمن المؤيد.

والكنيسة المذكورة تنقسم الى أربعة أقسام متساوية يعلو كل منها ثلاث قباب وتنفصل عن بعضها البعض بواسطة حاجزين من الخشب وارتفاعها متران ونصف. أما حجاب الهيكل وارتفاعه أربعة أمتار وهو من الخشب المطعم بالعاج فيقال أنه صنع فى مدينة أخميم.

ثالثا. كنيسة العذراء:

وهى مبنية فى الطابق الثانى من الدير وتمتاز بصغرها ولا يستعملها الرهبان فى الصلاة الا

نادرا وبها ثلاثة أقسام لها حاجز يفصل القسم الاول عن الثانى وهو من الخشب تعلوه صور أثرية منها صورة تمثل اجتماع القديسين أنطونيوس وبولا.

رابعا. الكنيسة الجديدة:

وهى أحدث كنائس الدير من عمل البطريرك كيرلس الرابع. وهى على الطراز الحديث وبها أثنتى عشرة قبة.

خامسا. كنيسة الانبا مرقس:

وقد شيدت هذه الكنيسة على اسم القديس مرقس ويغلب أنه كان من رهبان الدير الاتقياء. وبنيت غالبا فى القرن السابع عشر الميلادى. وتقع فى وسط الحديقة بعيدة عن المبانى. ويوجد قبره فى هذه الكنيسة. وقد تناول «فانسليب» ذكر هذه الكنيسة عند زيارتة مما يدل على أنها أنشئت قبل حضوره الى الدير المذكور.

أما الاجزاء الاخرى لهذا الدير فهى نفس الاجزاء التى ذكرت بدير الانبا بولا ولو أنها فى دير الانبا أنطونيوس أكثر أتساعا وأتم استعدادا خصوصا فى المضيفة التى جهزت أخيرا على أتم راحة واستعداد. كما أن حديقة هذا الدير علاوة على اتساعها وحسن تنسيقها وجمال منظرها فهى تحوى أشجارا متنوعة عديدة كالكروم والزيتون والكمثرى وتنمو فيها أنواع الخضروات المختلفة. ومن العنب يصنع الرهبان النبيذ اللازم للاباركة ومن الزيتون يستخرجون الزيت الذى يستعمل فى أيقاد المشاعل وأنارة القناديل فى الهياكل. ورى الحديقة سهل حيث تصل اليها الماء من العين التى تقع فى أعلى نقطة من الحديقة اذ ينساب منها الماء الى أجزائها المختلفة وعين الماء الرئيسية فى دير الانبا أنطونيوس تنبع من الجبل من مغارة طويلة. وكانت قبلا تقع خارج الدير ثم أدخلها فية البطريرك كيرلس الرابع.

ولم ينج من الحريق السابق ذكره سنة ١٤٨٤م الا اليسير من محتوياتها التى كانت موضوعة فى أماكن خفية حصينة بالدير المذكور. وفى أواخر القرن الثامن عشر عمل المعلم ابراهيم الجوهرى على ترميم أسوار الدير. ثم بنى السور الامامى للدير القديم وهو يعرف الان بسور الجوهرى. ثم قامى البطريرك كيرلس الرابع فى منتصف القرن التاسع عشر بأصلاحات واسعة النطاق فى دير أنطونيوس الذى فيه قضى البطريرك المذكور أيام رهبنته. ومن بعده لم تتم أصلاحات تذكر بالدير ومن أعماله الجليلة بدير أنطونيوس هى:

ا ـ اقامة سور ضخم واسع أحاط بالاسوار القديمة.

ب ـ ضم اليه مساحة واسعة ومنها الجزء الامامى الذى أضافه اليه.

جـ ـ شيد الكنيسة الجديدة وشونة الوقود وصفان من القلالى والمطعمة.

كنائس الدير

أولا . كنيسة القديس أنطونيوس:

ولعها أقدم المبانى فى الدير وربما أنشئت فى حياة القديس أو بعد وفاته بقليل. وقد ظلت حافظة لشكلها حتى اليوم رغم الاجيال وتقلبات الزمن التى مرت عليها وهجمات البدو. ويشاهد أن حوائطها مزينة بصور الفرسكات القديمة وأغلبها مطموس المعالم بسبب آثار الدخان على جدرانها ومع ذلك ظلت على حالتها حتى وقتنا هذا محافظة للشكل الاصلى. أما طول الكنيسة فعشرون مترا وعرضها عشرة أمتار. وتنقسم من الداخل الى أربعة أقسام. قسمان منها للمصلين ثم قسم للشيوخ والكهنة والرابع به الهياكل الثلاثة. ويعلو كل قسم منها قبة واحدة.

أما القسم الرابع حيث توجد الهياكل فتعلوه ثلاث قباب. ويلاحظ أن القسم الأول من الكنيسة هو أوسعها وأكثرها انخفاضا ويكثر على جدرانه الرسوم الجصية الدينية ومنها:

أ ـ صورة لمار جرجس فوق جواده وهو يطعن التنين.

ب ـ صورة كبيرة لكنيسة متعددة القباب تحت الاولى.

جـ ـ مذبح مكرس على اسم الحيوانات الاربعة ثم به صورة قديمة جميلة تمثل السيد المسيح.

أما القسم الثالث من الكنيسة ويعلو درجتين عن القسمين السابقين ويفصله عن القسم الثانى حاجز خشبى وفوقة عارضة مثبتة بجدار الكنيسة وبها صور عديدة. ثم يتدلى أمام الهيكل مصابيح قديمة من الزجاج الملون وبيض النعام مثلما نشاهده دائما فى أغلب الكنائس القبطية القديمة. أما القسم الرابع وبه الهياكل الثلاثة وبينة وبين القسم الثالث حاجز مرتفع مصنوع من حشوات خشبية صغيرة بصلبان من العاج مثل أحجبة الكنائس القديمة. وعلى

الحاجز كتابة باللاتينية باسم شخص «يسمى برناردس من صقلية يذكر أنه زار الاديرة أواخر عام ١٦٢٥م. ويقال انه أول زائر كاثوليكى للدير.

أما هياكلها فمربعه تقريبا وتنتهى كلها كالمعتاد بفجوة فى الحائط الغربى ويتوسطها مذبح حجرى وتعلوه قبة خشبية.



(القديس أنطونيوس)

مميزات كنائس الاديرة:

أ ـ ليست لها شرفات عليا وخالية من المعمودية.

ب ـ وجود هياكل أخرى فى أقسام الكنيسة.

جـ ـ وجود تقاسيم وحواجز بين كل قسم.

د ـ أنعدام المقاعد فى كنائس الاديرة.

هـ ـ استعمال الهياكل الوسطى والاستغناء عن الجانبية منها.

ثانيا. كنيسة بطرس وبولس:

وتتصل بكنيسة القديس أنطونيوس بدهليز طويل يستخدمه الرهبان للصلاة فى شهر كيهك لقلة الرطوبة فية ولوقايتة من كل جانب.

ومن الاماكن الهامة فى دير أنطونيوس جزء سبق الكلام عليه فى دير الانبا بولا باختصار وهو الحصن: وتبلغ مساحتة ٢٠٠ مترا مربعا وارتفاعه ١٥ مترا ومكون من ثلاث طبقات. وتوجد فى أعلاة الكنيسة وهى على هيئة هيكل يكرس دائما على أسم الملاك ميخائيل ومثلة أيضا موجود بدير الانبا بولا أى بالحصن والسبب أن الملاك المذكور هو حامى المعذبين من أجل التمسك بأهداب الدين.

ومكانه عادة فى قلب كل دير من الاديرة القديمة ليلجأ اليه الرهبان اذا هددهم البدو بالهجوم وهم فى مجاهل الصحراء وقرب سفوح الجبال. فكانوا يقيمون بداخله حتى تزول موجة الاخطار. وهو عبارة عن بناء عجيب مرتفع أشبه بالطابية ولا يمكن الوصول اليه اذا أحكم النساك اغلاقه. والباب الذى يمكن الوصول اليه لايفتح الا فى الطابق الثانى اذ توضع أمامه عارضة من الخشب تتحرك على مفصلات ضخمة مثبتة فى وضع رأسى وترتكز على عتبة الباب. فعند أنزال العارضة كونت قنطرة متحركة واتصلت ببناء عال يقام تجاه الحصن.

وللوصول الى الحصن يصعد الشخص الى البناء المواجة له بواسطة سلم مقام لهذا الغرض. ثم يمشى الى القنطرة المتحركة ويمر بالباب فيصل الى الدور الثانى داخل الحصن.

وهذه الحصون مازالت موجودة فى الاديرة القديمة الى الان رغم عدم استعمالها. وهى توضح مدى ما كان يتعرض له الرهبان من صنوف العذاب والقتل من البدو وغيرهم من اللصوص فى تلك الازمان. فكان عندما يشعرون بخطورة الحال وتظهر بوادر الشر من أولئك البرابرة المتوحشين. يدخل الرهبان الحصن بعد ما يجمعون معهم كل ما يهمهم من الاشياء التى تلزمهم من أطعمه وشموع ووقود وزيوت ثم يسرعون برفع القنطرة بواسطة جنزير مثبت فى نهايتها ويدور حول بكرة مثبتة بالدور الثالث من الحصن. ثم يغلق الباب غلقا محكما فيصبح الحصن أشبه بقلعة منيعة يصعب مهاجمتها. وكانوا يحتاطون لتوفير الماء اللازم لديهم بمد أنابيب فخارية تحت الارض تصل عين الماء بصهريج فى الحصن حتى يحصلوا على الماء وهم بعيدون عن الاخطار. وكان أحيانا يحفرون فى داخل منطقة الحصن للوصول الى بئر تكفى حاجتهم من الماء وهم بأمان بداخله أيضا. وكثيرا ما كانوا يقيمون فترات طويلة داخل الحصن يبتهلون الى ربهم أن يزيل عنهم شراذم المهاجمين من الاعداء المحاصرين.

وكذلك من الاماكن مخزن الغلال ويطلق عليها «الدكسار» تحفظ فيه الحبوب التى تلزم لسكان الدير طول العام ويقع مكانه داخل الدير تحت الساقية مباشرة.

ثم مخزن الوقود: ويقع عند مدخل الدير مباشرة ناحية اليسار ومساحته تقرب من الفدان وهو فى أوطأ مكان بالدير وفيه تخزن الرهبان الوقود فى وقت محدود من العام. فيخرج الرهبان بجمالهم الى أمكان بعيدة لجمع النباتات الجافة كالبوص والاشجار الجافة اللازم لهم طوال العام. ونظرا لاعمالهم الكثيرة واحمالهم كانوا يضطرون الى فتح باب الدير الموصد فى هذا الوقت من السنة لسهولة ادخال أحمالهم اليه.

ومن أهم الاماكن الرئيسية فى دير الانبا أنطونيوس كانت مكتبة هذا الدير بصفة خاصة وكانت عامرة بأنفس الكتب والمخطوطات القيمة النادرة وتاريخها حافل بأروع القصص والروايات الفاخرة. وما أنفردت به من كنوز العلوم والفنون. كما كانت حافلة بجموع عديدة من نوابغ الرهبان وفضلائهم ومنهم من كان على جانب كبير من العلم والدراية بأمور الدين

والتفقه فى أحكامه. ثم ثبت شدة شغفهم بالنساخة والتأليف والمطالعة. وكانت قلالى الرهبان كذلك مليئة بشتى الكتب والمخطوطات القيمة للمداومة على كثرة القراءة وسعة الاطلاع.

ومن بين العبارات التى عثر عليها مدونة على صفحة من صفحات أحدى المخطوطات الخاصة بالبسخة مايؤيد دراية الرهبان التامة وشدة أهتمامهم بفن النساخة وتكوين أنواع المداد المختلفة. وهى توضح أن أحد رهبان دير الانبا أنطونيوس فى الجبل الشرقى ويسمى «بطرس الدرنكى» كان أشهر نساخ عصره وكان ماهرا فى كيفية تركيب الحبر والالوان اللازمة لتزيين المخطوطات والكتب ورسم الصور والزخارف المتنوعة فكان من المداد الاسود والاصفر والازرق والاخضر والذهبى والفضى يستخرج الدهان اللازم للتصوير. وكان اللون الاحمر يستعمل فى كتابة العناوين وبدء الفصول والاسود فى كتابة النصوص. أما الالوان الاخرى فكانت لعمل الصور بالكتب ومنها رسم الصلبان أو الشهداء والقديسين أو الرسل والملائكة أو بعض المناظر الدينية المقتبسة من الكتاب المقدس أو التوراة. وأحيانا تزخرف برسوم الطيور أو الحيوانات الوديعة أو بغيرها من الاشكال النباتية أو الهندسية.

ويروى الراهب «بطرس الدرنكى»[1] هذا أنه كان فى دير الانبا أنطونيوس مائة ناسخ وقد اختصوا بمهنة النساخة فى الدير المذكور. فكانوا ينسخون الكتب المقدسة القديمة. واختص كل عشرة منهم بنسخ صنف خاص من الكتب. وكان لهم رئيس يشرف على أعمالهم. كما ذكر أنه هو نفسه نسخ كتبا كثيرة لعدة كنائس بالقاهرة. وهذه الرواية أن دلت على شىء فأنما تبرهن على مقدار ما كانت تؤدية الاديرة ورهبانها بصفة عامة من خدمات علمية وفنية جليلة للعالم أجمع. فكانت مناطقها منارات لامعة للهداية والصلاح وكان روادها من النساك من الزعماء أصحاب الفضل الأول فى نشر الثقافة والحضارة فى عصور كان الجهل والظلام يخيمان على جميع أرجاء المسكونة. وقد فطن العالم الى عظمة التراث العلمى الخالد والكنوز الفنية الرائعة فى مخطوطاتها وكتبها النادرة والمستودعة فى مكتباتها وتهافتت أمم الغرب على

---

(١) ينسب الراهب المذكور الى قريته «درونكة» من أعمال أسيوط وقد شاهد أحد الرحالة «فانسليب» عام ١٦٧٠م أن سكانها كانوا يتكلمون القبطية وأن بعضهم كان يعرف اليونانية أيضا. وكانت تشتهر بديرها القديم فى أعلى جبلها.

الحصول على أحد كنوزها من الاديرة المصرية. وكثيرا ما كانوا يرسلون الرحالة المهرة والكتاب المتخصصين منهم للاحتيال على اقتناء تلك الكنوز العلمية بكافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة حتى أصبحت أمهات المكتبات العالمية الان سواء فى فرنسا وأنجلترا وهولندا والفاتيكان وأمريكا ذا خرة بمخطوطات أديرة وكنائس مصر القديمة الثمينة.

وكذلك هناك مبنى خاص يسمى «الجو» وهو بناء ضخم وعال وبه ثلاث طبقات ويستخدم لخزن ما يحتاج اليه الدير سنويا من الزيوت والشموع والمواد الغذائية المختلفة والحبوب كالغلال والفول والعدس والبقول الجافة وغيرها وهو فى عهدة أمين الدير الذين يطلق عليه اسم «الربيتة».

ثم توجد «المائدة»: وهى داخل حجرة مستطيلة وفى وسطها وعليها يجتمع الرهبان فى أيام الصوم الكبير. وأما فى الايام الاخرى فيتناول الرهبان مأكلهم وهم منفردون داخل قلاليهم الخاصة.

ثم مكان آخر يطلقون عليه كلمة «التافوس» وهى كلمة يونانية الاصل معناها «مقبرة» وهى تقع فى الجزء الغربى من دير القديس أنطونيوس. ويضم بين جوانبه رفاة كثيرين من رهبان الدير. وهذه هى أهم الاماكن التى يضمها الدير المذكور.

مغارة القديس أنطونيوس

كان لابد الا ننسى الاشارة الى تلك البقعة التى أصطفاها القديس المذكور. واتخذها مقرا يزاول فيه حياته النسكية وتقع فوق الجبل بالمنطقة وفى واحدة من المغاور الطبيعية حيث كان يعيش بعيدا عن مباهج العالم وضجيجه. والوصول الى هذه المغارة شاق كثير الصعوبة ويحتاج الى وقت وجهد كبير وفى أثناء الطريق عند الصعود اليها يلتقى الصاعد بمنظر يستلفت النظر الى مكان يتخلله مجموعة احجار متراصة ومستندة الى صخرة عالية كأنها من عمل أنسان وتدل ما تبقى من آثارها بأنها كانت مسكنا يتألف من حجرتين بطول يقرب من سبعة أمتار. ويروى أنها كانت معدة لاقامة الراهب المسمى «بولس البسيط» الذى كان تلميذا للقديس أنطونيوس. وقد عرف بشدة تقشفه وزهده حتى كان يقضى أغلب أيامه فى الصيام والتعبد وقد وهبه الله القدرة على شفاء المرضى والذين بهم مس من الشيطان. وقد كتب عنه

الراهب الرحالة «بلاديوس» الذى زار مصر حوالى عام ٤٠٠ للميلاد ووصفه بالبساطة المتناهية.

منطقة وادى النطرون

* مراكز النساك بالوادى:
* تلال نيتريا
* مستعمرة كليا «القلالى»
* برية الأسقيط
* نظام الحياة المعيشية بين رهبانها
* القديس مكاريوس الاسكندرى
* القديس أنبا مقار
* القديس يوحنا القصير

ثانيا. منطقة وادى النطرون

تطوق منطقة ذلك الوادى من الشمال سلسلة تلال وتعرف بصحراء أوجبل «نيتريا» أو جبل «برنوج» وتقع الان الى الغرب من منتصف الطريق الصحراوى بين مصر والاسكندرية تقريبا. وتعتبر أقدم المناطق التى هرع اليها نساك ما قبل المسيحية وكذلك المتوحدون منذ فجر العصور المسيحية فى القرنين الثانى والثالث للميلاد. كما أطلق على الاماكن التى التجأت بأطرافة الرهبان وطوائف النساك أسماء أخرى مثل «برية شيهات» بمعنى ميزان القلوب أو «برية الاسقيط» أو «وادى هبيب» ومنطقة سليا أو خليا أو صحراء القلالى.

والواقع أن المنطقة المذكورة علاوة على ما كانت تشتهر به من هدؤ عجيب وأنها أماكن سلام حقيقى يخيم حولها جماعات نساكها العديدين الا أنها أنفردت بمميزات خاصة فاقت بها عن سائر المناطق والاديرة الاخرى. فمن الناحية المادية تكثر فيها الاملاح والمعادن النافعة وفيها بعض العيون التى تشفى مياهها أمراض المعدة. ونشأت فيها معامل لصناعة الزجاج. كما يكثر فيه نمو نبات البردى اللازم لعمل الحصر وضفر أنواع من السلال وكذلك فى صناعة

الورق الذى لاغنى عنه للمخطوطات. كما أن المياه الجوفية فيها توجد على مقربة من سطح الارض فى كثير من أجزائها الامر الذى سهل عملية حفر الابار. وهذا مكن بلا شك فريق الرهبان من زراعة الارض فى المنطقة فى مساحة واسعة مما جذبت اليها أعدادا غفيرة من الرهبان علاوة على جفاف جوها المحتمل وانعدام المطر فيه مما ساعد على بناء قلاليهم بسهولة بأبسط المواد المتوفرة فيه. كما لا ننسى وقوع الوادى واديرته فى منطقة سهلة فى مواصلاتها الى حد كبير بالنسبة الى وعورة مواصلات الاديرة الاخرى وبعدها. ولذلك فقد شجعت تلك المزايا على مجىء كثير من الرحالة القادمين من جهات نائية من أنحاء عديدة من العالم واجتذبت جماعات وفيرة من رهبان مصر فزخرت المنطقة فى أجزائها المختلفة بالقلالى والاديرة العديدة التى انتشرت فى جميع جنبات الوادى الكبير المذكور.

مراكز النسك بوادى النطرون:

وكانت تلك المنطقة المتسعة الارجاء منقسمة الى ثلاثة مراكز هامة للرهبنة. أحداها باسم «تلال نيتريا» بمستعمرة Nitria والثانية تعرف باسم القلالى Cellia أوسليا والثالثة وهى «برية الاسقيط Scetis». وتبدأ كذلك من ناحية الشمال الى الجنوب مع أنحراف بسيط ناحية الشرق.

ومن الرحالة القدامى من الغرب الذين زاروا تلك المنطقة وتغنوا بما شاهدوه فيها ونوهوا عن سمو الحياة النسكية بين الرهبان وأنظمتهم المثالية وفضائلهم نذكر منهم على سبيل المثال «الاب يوحنا كاسيان Jean Cassien» جاء الى وادى النطرون عام ٣٩٠/٤٠٠م، وأقام بين رهبانه وكتب الكثير من الكتب الخاصة عن أخبار رهبان ذلك الوادى. وعبارات من أقوالهم وأظهر أعجابه الشديد عن زهدهم وتقشفهم. وكذلك الرحالة المشهور «الاب بلاديوس Palladius» جاء أواخر القرن الرابع وزار مصر للمرة الاولى من عام ٣٨٨/عام ٣٩٩م. ومكث فى «برية شيهات» لدراسة حياة الرهبنة. ثم عاد الى بيت لحم ومنها الى أورشليم ورسم أسقفا لهلينوبوليس عام ٤٠٠م ثم عاد لزيارة مصر مرة ثانية ثم كتب فى أوائل القرن الخامس مؤلفا تاريخيا هاما شرح فيه ما شاهده ووصف ما كان عليه رهبان الاسقيط من الفضائل والاخلاق الروحية السامية وحياتهم فى الزهد والتقشف ويعرف كتابة باسم «بستان الرهبان» وكان له أثر لا يستهان به فى أنتشار الرهبنة فى كثير من جهات العالم ومن ضمن ما ذكره من

ملاحظات أنه كان يوجد فيه خمسة آلاف راهب يعيشون مع بعضهم مثنى وثلاث فى جماعات صغيرة بخلاف ٦٠٠ راهب يعيشون فرادا متناثرين داخل الصحراء. وقد وصف أيضا أنه كان بينهم عدد من الخبازين لاعداد الخبز اللازم للرهبان وعدد من النساجين لنسج الكتان وعمل أرديتهم. والزراعين وصناع النبيذ من الكروم التى كان يزرعونها. كما كان بعض التجار يرتادون هذه المنطقة لشراء ما يزيد عن حاجة الرهبان. وكان بينهم مجموعة من الاطباء من الرهبان للعناية بمداواة المرضى.

أما حياتهم الدينية فقد كانت موضع أعجاب بلاديوس الشديد أذ انه نوه أنه كان يسمع تراتيلهم الشجية للمزامير اذا ما ارخى الليل سدوله. وقد سما به الخيال حتى تصور بأنه أنتقل الى جنة الفردوس. وكان مما يلاحظ أقتران احتقار الناسك لهذا العالم ومباهجة باظهار المحبة المطلقة لبنى الانسان والحيوان على السواء. وقد شوهد أيضا على كثير من المتوحدين شدة شغفهم للحيوان حتى الضوارى منها حتى آنست الوحوش لهم ولم تفزع عند رؤيتهم. كما ذكر أن المتوحدين كانوا يمارسون العبادة كل على طريقته الخاصة التى تروق فى نظره وهم يتسابقون فى ميدان البطولة الروحية واذلال الجسد والحرمان وكبت الغرائز والتقشف والامعان فى الوحدة.

كذلك من الرحالة الذين زاروا مصر وجاء الى منطقة وادى النطرون هو القديس «جيروم الايطالى» عام ٣٨١م وكانت تصاحبه تلميذتة الناسكة «باولا». ووضع كتبا عن الرهبان المصريين شملت أخبارهم وأقوالهم على ضوء ما رأى وسمع كما أسس ديرين فى بيت لحم بفلسطين واحد منهما للرهبان والاخر للراهبات. وفى عام ٤٠٤ قام القديس المذكور بترجمة قوانين «الانبا باخوميوس» الى اللاتينية فتناولها الرهبان الايطاليون بالدراسة واتخذوها دستورا لهم.

---

(١) «ديديم Didymus» ولد عام ٣٠٩ أو ٣١٤م أى لم تعرف سنة الميلاد تماما. وقد فقد بصره وهو فى الرابعة من عمره ولذلك لم يتلق العلم أو المبادىء الاولية منه كما ذكر ذلك هو بنفسه. ولكن تعطشه الشديد الى العلوم وقوة أرادته تغلبت على كل المصاعب التى صادفته. وتوسل فى صلاوته أن يمنحه الله البصيرة الداخلية. وتعلم الابجدية بطريقة اللمس على لوحات محفورة أما المقاطع والكلمات عن طريقة الانتباه والاصغاء. وصار أستاذا لعدة علوم ووصل لمعرفة فائقة بالكتب المقدسة. ولذلك أتخذ القديس أثناسيوس ذلك الاستاذ الضرير عميدا لمدرسة اللاهوت بالاسكندرية كخليفة صالحة لجهابذه العلماء=

وقد ذكر الرحالة الاب «روفينوس Ruffinus» الذى كان تلميذا للعالم الشهير «ديديم (ديدموس) الضرير»[1] أنه زار وادى النيل عام ٣٧١م وقال ديدومس أنه كان فى وادى النطرون وقتئذ نحوا من ٥٠ ديرا.

كما ورد فى كتاب «تقى الدين المقريزى» من مؤرخى العصور الوسطى أنه كان بالمنطقة المذكورة نحوا من مائة دير وحوالى ٧٠ ألف راهب ويقول أيضا أنهم أستقبلوا عمرو بن العاص عند فتحه لمصر وهذه رواية مبالغ فيها اذا قورنت بما رواه المؤرخون المعاصرين.

على أنه لم يبدع كاتب أو مؤرخ عن تاريخ ذلك الوادى واديرته بصفة عامة وظهرت أبحاثه عنها فى مؤلفات علمية ضخمة أكثر مما قام به العالم الاثرى الكبير «أيفلين هوايت E. White» فى العصر الاخير عن أديرة وادى النطرون اذ تمكن من كتابة ثلاثة مجلدات كبيرة عن تاريخها وماتحوية من كنوز أدبية وفنية وبلغت عدد صفحاتها نحوا من ٧٧٠ صفحة كبيرة بخلاف ٥٠٠ صفحة أخرى مملوءة بالصور الفوتوغرافية.

وقد بدأت الرهبنة فى وادى النطرون فى قلالى صغيرة منقورة فى التلال أو الصحراء فى أول أمرها كما نشأت غالبا فى جميع أديرة القطر المصرى عامة. وكانت تلك القلالى متقاربة وتمارس معيشة فردية ثم أملت الظروف الطبيعية على ملتجىء تلك القلالى من النساك ضرورة العمل على التجمعات المقاربة تدريجيا الى أن نمت فكرة التجمع بعد ذلك داخل الاديرة

= السابقين الذين تقلدوا عمادة ذلك الكرسى الخطير أمثال «بنتينوس Pantaenus» وكلمنت «Clement» وأكلمندس وأوريجانوس وغيرهم. وكان ترتيبه الثانى عشر من أولئك العمداء الفطاحل الذين تقلدوا العمادة. وقد ذاع صيت ديديموس وكان القديس أنطونيوس يمتدحه ويذكره بالفخر. ولما كان فى دور الرجوله كان قد زار الانبا أنطونيوس الاسكندرية بقصد الحد من بدعة «آريوس» فدخل قلاية ديديم هذا وسأله عما اذا كان يشعر بالحزن لفقد بصره فظهر من جوابه على هذا السؤال مقدار تأثره الشديد من تلك الكارثة عليه. فكانت عبارة أنطونيوس له بلسما شافيا اذ قال «لا يحزنك فقد بصرك اذ نزعت عنك أعين جسدية كالتى يمتلكها الفيران والذباب. وأحرى بك أن تبتهج لان لك أعينا كالملائكة ترى بها اللاهوت وتدرك نوره» كما أمتدحه كثير من قديسى الغرب وكتابه. وكان القديس جيروم تلميذا لديديموس وأنه أتخذه قدوة له فى دراسة الكتاب المقدس. كما ترجم له أحد كتبه وتتلمذ له أيضا لمدة ثمانى سنوات «روفينوس» وقد وصفوه بأنه أشبه بالرسل فى خلقه ويمتاز بفكر نير مع بساطة فى الكلمات. وقد أعاد لمدرسة الاسكندرية مجدها القديم وظل مدرسا حتى نهاية حياته عام ٣٩٨م وترك مؤلفات عديدة فى اللاهوت والتفسير. وكان سندا للقديس أثنا سيوس وتمكن بفضل آرائه النيره القوية وحججه الدامغة أن يحافظ على مكانة الكنيسة وثباتها ويحطم الهراطقة الاريوسيين ويفند كل مغالطاتها الفلسفية.

وظهرت بصفة خاصة حركة أنشاء الأديرة الكبرى بقصد حماية الرهبان والدفاع عنهم عندما بدأت الغارات العدائية من هجمات البدو عليهم.

ويظهر أن جبل «نيتريا» كان المكان الأول الذى قصده النساك فى منطقة وادى النطرون وقد سبق التنوية حسب ما ذكرة الاب «شينو Chenau» فى كتابة «قديسو مصر» أن القديس «فرونتون» أول من فكر فى حياة العزلة قبل انتشارها فى صحراء نيتريا. ثم أيد ذلك «كرزون Cellia فى مؤلفه «زيارات أديرة الشرق صفحة ٧٦» بأن القديس المذكور أعتزل الحياة بقصد الزهد فى أواسط القرن الثانى الميلادى بوادى النطرون وتبعه سبعون من الاخوة للغرض نفسه. ولم يذكر التاريخ شيئا عن مصيرهم بعد ذلك.

ولكن حسب ما ورد فى كتابى «قاموس الاثار المسيحية للاب» دون فراننـد كابرول ج٢ وص ٣١٢٧ وكتاب «قديسو مصر ج ٢ ص ٣٨١» أن بعض الفضل فى هذا العمل يعود الى تلميذه ورفيقه «القديس تيودورTheodore.

أما تاريخ هذين القديسين فيمكن استخلاصه من سيرتهما من كتاب «قديسو مصر» السابق الاشارة اليه فجاء فى سيرة القديس تيودور أنه عاش فى عهد الامبراطور قسطنطين الاكبر الذى حكم من عام ٣٣٧/٣٠٦م وأنه عاش أيضا فى زمن القديس أنطونيوس الذى كانت وفاته عام ٣٥٦م.

أما الراهب آمون مؤسس اديرة نيتريا فكان مولده فى الربع الاخير من القرن الثالث للميلاد من أسرة مصرية ثرية. ولما ناهز الثانية والعشرين حثه أهله على الاقتران فنزل عن رغبتهم. غير أنه أقنع زوجته الشابه بأفضلية حياة التبتل وفعلا أتفقا على أن يعيشا كأخوين تحت سقف واحد. وأجمع المؤرخون على صحة هذه الرواية وأن العروسين كانا يعيشان بمنزلهما حياة

---

(١) وصف «روفينوس» عند قدومه مع بعض مرافقيه لزيارة رهبان نيتريا كيف قابلوهم بترحاب كبير وهرعوا الى أستقبالهم وقدموا لهم ما تيسر من الخبز وأوراق الكرنب وحساء الفول بعد ما غسلوا أرجلهم ثم قادوهم الى الكنيسة وعملوا كل ما فى طاقتهم لراحتهم من عناء الطريق ومشقة السفر الطويل. ثم يذكر ما ينطوون عليه من المحبة والتواضع والتقوى ورفعة الخلق النبيل. ثم قال أن الرهبان فى نيتريا يقدمون القليل من النبيذ تحية الى الزائرين. غير أن رهبان، سليا كانوا ينفرون من رؤية الزائرين ولذلك لا يرغبون فى مقابلتهم أعتقادا منهم أن من يزوره البشر لاتزوره الملائكة ومن هؤلاء كان «مكاريوس الاسكندرى».

التقوى والصلاح والزهد. كما روى بلاديوس أن آمون قصد برية نيتريا بجنوب بحيرة مريوط بعد انقضاء ثمانية عشر عاما من زواجة أى ما بين عام ٣٢٠ وعام ٣٣٠م للتفرغ الى ممارسة النسك وقد وافقته زوجته على ذلك. وقد زعم بعض الرحالة ومنهم «روفينوس»[١] الشهير أنه لم يكن فى نيتريا ذلك الحين دير من الاديرة. ولو أن «بلاديوس» ذكر أنه كان يوجد القليل من الاديرة. وقد ذاع صيت القديس آمون واشتهر بنسكه فانضم اليه كثير من الاتباع والنساك وكثرت القلالى حول صومعته ولم يعرف تماما عدد الرهبان الذين عمروا منطقة نيتريا ولو أنه ذكر فى تاريخ الاديرة لبعض المؤرخين أنه كان يوجد فى أواخر القرن الرابع للميلاد نحوا من ٥٠ ديرا يجتمع فيها نحو ٥٠٠٠ من الرهبان ويصعب تحديد موقع جبل نيتريا بالضبط حيث التجأت حوله هؤلاء الجموع من الرهبان. ومع ذلك لابد أن موقعه كان يحتل أحد جانبى وادى النطرون المعروف اليوم فى المكان الذى كانت تتجفف فى أسفله المستنقعات الملحية. ولو أن هذا المكان المعروف باسم جبل نيتريا أول ما قصده النساك فى تلك الناحية الا أنهم ما برحوا أن التجاؤا أيضا الى الصحراء. وقد أطلق عليها اسم صحراء «سليا» أو صحراء القلالى ثم هرعت جماعات أخرى عديدة من الرهبان وعمروا «برية الاسقيط» الموحشة وتعرف أيضا باسم «برية شيهات» التى بعد صحارى سليا أو خليا المذكورة.

وكانت هذه الجماعات من الرهبان تتبع فى نسكها طريقة وسطا بين الانعزالية التامة والحياة الجماعية وهى نفس النظام الذى سار عليه أتباع القديس أنطونيوس. وذكر أن المتوحدين فى نيتريا كانوا يمارسون العبادة كل على طريقته الخاصة وكانوا يتسابقون فى ميدان البطولة الروحية واذلال الجسد والحرمان وكبت الغرائز والتقشف والامعان فى الوحدة. وقد بلغ ببعضهم التفنن فى مقاومة شهوات الغرائز الطبيعية وتعذيب الجسد الى حد يصعب على الانسان تصوره. وكانوا لا يتركون قلاليهم فى الصحراء للاجتماع ببعضهم الا يومى السبت والاحد من كل أسبوع لحضور صلوات القداس. وكان ذلك فى الكنيسة التى يقصدها الجميع من رهبان نيتريا للعبادة وموقعها فى أسفل الوادى وتابعة لاسقف مدينة «هرمبوليس الصغيرة» وهى دمنهور الحالية. وكان يقيم صلوات القداس فيها كهنة الابروشية المذكورة.

وكان نظام الحياة المعيشية بين أولئك الرهبان بصفة عامة غاية فى البساطة بالرغم من تقشفة الشديد فكان الفرد يتناول طعامه البسيط ويشمل القليل من الخبز الجاف وبعض الملح

ولا يشرب غير الماء وكان الافطار عند معظمهم مرة واحدة عند غروب الشمس ومنهم من أمتاز فى الزهد والتعبد ويمضى ثلاثة أو أربعة أيام فى صيام كامل عن الطعام والشراب وبعضهم كان يمضى أغلب لياليه ساهرا فى صلوات طويلة وأذا أعياه التعب لجاء الى سنة من النوم لفترة وجيزة مستلقيا على حصيرة من سعف النخيل أو أحيانا منبطحا على الارض متخذا وسادة من الحجر امعانا فى التقشف وتعذيب الجسد. وقد أشتهر أيضا كثير من النساك بحياة نسكية صارمة تدعو للدهشة والاعجاب الشديد خصوصا ما يتعلق بالاقلال من الطعام أو الشراب وكثرة الصيام لفترة طويلة. وقد تركت مسألة قدرة الناسك على الصيام الى مقدرة كل راهب حسب تحمله وبالرغم من هذه الاصوام فلم يكن يركن الراهب الى الكسل فترة صيامه بل كان يقوم بعمله اليومى المقرر عليه أنجازه كالمعتاد.

ومن الاركان الاساسية فى حياة الرهبنة بخلاف المداومة على الصلاة التزام الصمت وتحاشى التحدث مع الاخرين من الرهبان ولا يجوز الاتصال الا مع بعض الشيوخ منهم والمشهود لهم بالقداسة والورع والتقوى. وعندما يقوم الرهبان بعملهم اليومى المكلف كل فرد منهم بعمله لا يكف عن تلاوة تراتيل المزامير والمدايح الدينية بنغمات شجية بحيث اذا ما أنتهوا من عملهم وتلاوة المزامير لزم الرهبان الصمت وهو من أوجب الامور لحمايتهم الروحية وحرصا على السلام الدائم بين تلك الجماعات أو بين النساك والمنفردين كما أن دوام الرهبان على الصلاة من أهم الوسائل لمحاربة الشيطان واغراءاته ودفع حالات الملل والسآمة التى قد تنشأ من تلك الحياة الرهبانية. ومن أجل ذلك خصص الرهبان أغلب ساعات النهار والليل للصلاة. وما هو جدير بالملاحظة أن على الراهب القيام للصلاة عند منتصف الليل بمجرد سماعه لصياح الديك، وهذه الصلاة ذات أهمية خاصة لاستنادها على قول «داود النبى» كما ورد ذلك فى احدى مزاميره. وعدد الصلوات الرهبانية هى سبع ثلاث منها أثناء النهار والاربع الاخرى خلال فترات الليل. ولذلك تحتم على الرهبان أن يركنوا الى فترة وجيزة من النعاس أمعانا فى التيقظ والسهر لمحاربة الافكار الشريرة الشيطانية والمحافظة على طهارة النفس ودوام الصفا الروحى.

ومن عادة الناسك الا يتأنق فى ملبسه فكان رداؤه غاية فى البساطة والخشونة ورخص الثمن ويحاك بغير عناية، وأحيانا يظهر ممزقا كثير الرقع امعانا فى التواضع والزهد ومحاربة شهوات

الجسد، وكان البعض يحيكون حللهم ويصنعوها من سعف وألياف النخيل تشبها وتقليدا لما فعله زعماء النساك والسواح القدماء الذين كانوا يهيمون فى الصحارى والقفار كأنصاف عراة ومعظمهم كان يكتفى بارتداء قميص بدون أكمام كما صار أغلبهم حفاة الاقدام الا أذا أشتدت حرارة الصيف فكان يضطر الراهب الى احتذاء الصندل وخصوصا اذا عزم على ترك قلايته الى السفر من مكان الى آخر فى الصحراء، وكان العكاز من الادوات اللازمة، ولا غنى عنه للرهبان وعلى الاخص المسنين منهم للارتكاز عليه وقت وقوفه الطويل أثناء الصلاة، واعتقد الراهب فى عصاه كرمز للسلاح الروحى يتغلب به على قوة الشيطان، وقد ذاعت شهرة أولئك النساك وأخبار أنتشار قلاليهم وأديرتهم التى امتلات بها البرارى والقفار وأندهش الناس مماسمعوه عن بالغ زهدهم وطرقهم المثالية فى المعيشة القشفة وأنظمتهم الغربية فجذبت اليهم جماعات عديدة من سكان البلاد وصادفت حياتهم النسكية هوى فى نفوسهم فتبعوها كما تهافت كثير من رحالة الغرب والعلماء من أهالى أوروبا للقدوم الى زيارة أولئك الرهبان فى أماكنهم متكبدين كل مشقات السفر الطويل الجسيم وأخطاره للوقوف على أنظمتهم المعيشية وتاريخهم وعلومهم وفنونهم وكل ما يتعلق بعاداتهم وطرقهم فى الحياة، ثم عادوا ونشروا جميع ماجمعوه من أخبارهم وعن نسكهم وفضائلهم النادرة فى أنحاء العالم المتمدين وكان هذا من أهم البواعث التى شجعت على قيم هذه الأنظمة الرهبانية فى كثير من ممالك الغرب.

وقد ورد فى كتاب «سير آباء الكنيسة» وصف لزيارة الانبا أنطونيوس الى القديس آمون فى صومعته التى كانت تبعد عنه بمسافة ثلاث عشر يوما كما روى القديس «اثناسيوس Athansius» بأن الانبا أنطونيوس كان يحترم القديس آمون أحتراما عظيما. ويظهر أن أتصاله به هو الذى جعله يتوسع فى أنشاء الجماعات من الرهبان على نظامه الانطونى. وقد ذكر القديس أثناسيوس أن الأنبا أنطونيوس قد تنبأ بوفاة القديس آمون فى صومعته فى صحراء نيتريا. وكانت وفاته قبل سنة ٣٥٦ للميلاد وهى السنة التى توفى فيها القديس أنطونيوس. وقد قدر البعض وفاة القديس أمون بوجه التقريب بين عام ٣٤٠م وعام ٣٥٠م. واسم هذا القديس لا تخلو من ذكره قائمة من بين شهداء الكنيسة الارثوذكسية وتحتفل الكنيسة بذكراه فى عيده الموافق اليوم الرابع من شهر أكتوبر.

وكان آمون يرى زوجته مرتين كل عام فى منزل حياتهم الزوجية التى كانت قد حولتة ديرا للراهبات والتفت حولها كثيرات من العذراى اللائى رغبن فى ممارسة الحياة النسكية، فكانت زيارته لها بقصد الاطمئنان عليها والوقوف على مدى الحركة والادارة بالدير الذى تشرف عليه زوجته.

وفى أواخر أيام القديس آمون أخذ عدد الاخوة فى الزيادة فى جبل نيتريا فرغب البعض فى بناء القلالى فى أماكن بعيدة عنه فى الصحراء لينعموا بالسلام المنشود فتوغلوا داخل البرية حتى «سليا Cellia» وهى تبعد عن جبل نيتريا هذا بما يقرب من أثنى عشر ميلا، وقد ورد فى كتاب "Marcotis De Cosson p. 47" أن الطعام الذى كان يلزم الى رهبان سليا كان يأتى اليهم من نيتريا، وهذا دليل على ما كانت عليه من رواج بعكس ما كانت علية سليا من جفاف.

ومما هو جدير بالذكر أن القديس آمون ترك بعده مجموعة من أفاضل التلاميذ الافذاذ ومنهم على سبيل المثال القديس تيودور وأغاثو وثنثائيل وهور وبامو، وقد خلفه القديس بامو فى الزعامة فى جهة سليا.

وعندما أخذت نيتريا تفقد مكانتها وأهميتها بدأت سليا فى الازدياد والازدهار وحلت محل نيتريا وزادت عنها أتساعا وشهرة، وسبب هذه الشهرة ترجع فى الواقع الى المؤسس الحقيقى لمنطقة سليا وهو «القديس أبو مقار الاسكندرى» ونظرا لان كثيرين من القديسين كانوا يحملون اسمه فقد التبس على كثير من القراء المقصود الحقيقى من أولئك القديسين ولذلك نوهت بعض المؤلفات الى أشهر ثلاثة منهم أطلق عليهم الاسم المذكور وهم القديس مقار الكبير وهو مؤسس الدير المعروف باسمه وزعيم منطقة شيهات أوبرية الاسقيط ثم القديس أبو مقار الاسكندرى وهو زعيم منطقة سليا ثم القديس أبو مقار أسقف أدكو.

مقار الاسكندرى:

أما أبو مقار الاسكندرى فكان مولده بمدينة الاسكندرية فى مستهل القرن الرابع للميلاد من أبوين فقيرين ولذلك اشتغل خباز لبضع سنوات ثم كان يصنع الفطائر ويبيعها لكسب معاشه، كما قيل أنه أشتغل بمهنة الرعى أيضا. ثم ترك الاسكندرية بمظاهرها وتوغل فى

الصحراء حتى اعتكف فى برية موحشة وشرع يتدرب على النسك والتقشف وظل على هذه الحال سبع سنوات، ثم أصبح بعد ذلك يقتصر فى غذائه اليومى على مقدار ضئيل لا يتصوره العقل أذ أنه كان يكتفى بأوقيتين من الخبز تقريبا طول اليوم. وكان يمضى ليله فى الترانيم والتسابيح والتأمل ـ ثم أنتشرت أخباره أنتشارا عظيما وذاعت شهرته الفائقة فى الزهد وشدة التقشف فهرعت اليه جماعات من النساك والتفوا حوله لممارسة حياة الزهد، ثم أزداد عدد الرهبان وكانوا يعيشون حياة أنفرادية وكل ناسك له قلايته فكثرت القلالى فى تلك المنطقة حتى سميت صحراء القلالى، وقد أيد هذه الزيارة الرحالة «بلاديوس» الذى زار المنطقة وقتئذ عام ٣٩١ وعمر هذا الجزء الموحش من هذه الصحراء نحوا من ستمائة راهب، وقد علمهم «مقار السكندرى» كيفية بناء تلك القلالى أو حفرها.

وقد عرف عن مقار السكندرى هذا أنه لم يباشر حياة الرهبنة قبل سن الاربعين وذلك بعد أن تعمد وانتظم فى سلك الموعظين وزار القديس أنطونيوس فى الصحراء الشرقية ومارس على يديه حياة النسك سنة ٣٣٥م ثم ذهب أيضا الى نيتريا حيث تتلمذ على يد القديس بامو رئيس الجماعات الرهبانية فى الموضع المذكور بعد وفاة القديس آمون، ثم ظل هناك فترة رسم بعدها قسا وأصبح من هيئة الكهنوت حوالى سنة ٣٥٥ ميلادية. ثم أشتهر منذ ذلك الوقت باسم مقار السكندرى ثم تاقت نفسه الى الحياة الانعزالية فترك نيتريا واتجه جنوبا الى سليا حوالى سنة ٣٧٣م. ويشاهد أن مقدمه كان سبب شهرة عظيمة للمنطقة فزادت فيها أعداد الرهبان المنفردين وكثرت قلاليهم بطبيعة الحال حتى أصبحت سليا معروفة باسم صحراء القلالى. وكان مقار السكندرى شديد الشغف بالتنقل والرحلات والحياة بين سائر الجماعات الرهبانية فى وادى النطرون ورغبة منه فى الاطمئنان على مدى ما وصلت اليه حياته النسكية، ولذلك أصبحت له أربع قلالى واحدة فى جبل نيتريا والثانية فى سليا والثالثة كانت خارج وادى النطرون فى الصحراء الليبية والرابعة فى برية الاسقيط حيث كان كثير التردد على سمية القديس مقار السكندرى الكبير. وقد شاركه فى منفاه فى جزيرة فيلة جنوب مدينة أسوان وذلك عندما نفاهما الامبراطور فالنس الاريوسى بسبب وقوفهما فى وجه البدعة التى اثارها أريوس.

ومن أبرز ما أتصف به الانبا مقار السكندرى شدة تمسكه وأمعانه فى حياة الزهد وكثيرا ما تردد على المتوحدين الذين برعوا فى الزهد وينافسهم فى نسكهم فى هدوء وصمت. وتبارى

فى ذلك مع بعض الرهبان الذين أشتهروا بزهدهم العجيب فى دير تابينسى بالصعيد، ذلك أنه ترامى الى سمعة بأن رهبان دير الانبا باخوميوس هناك لا يذوقون طعاما مطهيا على النار مدة صوم الاربعين المقدسة، وشرع القديس المذكور بالامتناع عن تناول طعام مطهى لمدة سبع سنوات وأن يجعل غذاءه على الخضروات والحشائش البرية. ولم يكتف الانبا مقار السكندرى بهذا الزهد، بل سافر الى دير تابينسى فى رحلة أستغرقت منه خمسة عشر يوما لقطعها وهناك طوى فترة صوم الاربعين المقدسة واقفاً فى أحدى القلايات، دون أن يذوق طعاما ماعدا أوراق الكرنب كل يوم أحد فيخفى أمام رهبان الدير صيامه العنيف، وبالرغم من هذه الحياة العنيفة القاسية وامعانه الشديد فى اذلال الجسد فانه لم يخالف قوانين الدير من حيث العمل اليومى المعتاد الذى يقوم بعملة كل راهب فى الدير فأنه قضى مكاريوس أيامه فى دير تابينسى فى ضفر الخوص وعمل السلال فى صمت وسكوت. غير أن رهبان الدير المذكور لم يتعودوا مثل تلك الحياة القاسية، فطلب الى رئيسهم القديس باخوميوس أن يأمره بترك الدير حتى لا يكون حجر عثرة لهم ولما سأله الأنبا باخوميوس عن أسمه وأصله وعرف منه أنه مقار السكندرى احتفل به رهبان الدير وأكبروه وزادوا فى احترامه. ثم غادر الدير وعاد الى سليا وفيه مازال يمعن فى زهده وتقشفه الشديد حتى قيل أن لحيته تساقط شعرها ولم يبق له سوى شعر قليل على شفته العليا وعلى ذقنه. ولذلك كانت أرشاداته الى اتباعه من الرهبان موضع التقدير والاحترام الشديد والقبول كما كانت نسكيته الرفيعة مضرب الامثال من سائر الاديرة فى وادى النطرون وقد وافته المنية فى أواخر القرن الرابع الميلادى بعد جهاد خالد مجيد[1] فى سبيل نشر المسيحية الارثوذكسية الصحيحة كما قيل أنه عمر طويلا حتى بلغ

---

(١) أتخذت سليا التى أشرف على رئاسة أدارتها الانبا مقار السكندرى مركزا مستقلا وأصبح الكاهن الوحيد لكنيستها التى شيدت بها فى عهده أذ لم يكن بها سوى كاهن هو الرئيس وعلى ذلك صعبت مهمته كثيرا لاضطراره لتفقد المتوحدين فى قلاليهم التى كانت مبعثره فى جوانب تلك البقعة الموحشة من الصحراء ولا يخفى ما كان يحتاج اليه أولئك النساك من رعاية وعناية تامة أكثر من أخواتهم المقيمين فى القلالى القريبة المتجاورة. ونظرا لما كان يتمتع به من السلطان الروحى وقوة التأثير الشخصى بسبب أعماله وفضائلة المجيدة وسلوكه وطهارة النفس دفعت هذه الصفات السامية الى اتخاذها المثل العليا لهم وحرص كثير من أتباعه من الرهبان على تقليد القديس المذكور فى طريقة حياته وزهده وقد وصل الكثير من أولئك الاتباع من الرهبان الى درجة عالية من الرهبنة.

من العمر تسعة وثمانين عاما. أما المركز الثالث الذى انسحب اليه فريق من الرهبان ورغبوا فى ممارسة حياة النسك فيه فى الصحراء المطلقة فقد كان شديد الغور وقد أطلق عليه كلمة الاسقيط أو «برية شيهات» وقد ذاعت شهرة ذلك المكان حتى تبوأ مكان الزعامة فى جميع منطقة وادى النطرون على الاطلاق، وترجع تلك الشهرة فى الواقع الى المؤسس الاول لها وهو الانبا مقار الكبير.

ولد أبو مقار فى فجر القرن الرابع الميلادى وبعض المراجع ذكرت عام ٣٠٠ تقريبا من والدين أشتهرا بالتدين. وذكر الانبا سيرابيون أن والده كان قسيسا لبلدة شبشير أحدى بلاد المنوفية الحالية فى الدلتا، ولذلك دأب مقار هذا منذ نشأته على الذهاب الى الكنيسة حيث رسمه أسقف الاقليم المجاور قارئا كنسيا، ثم أجبره أبوه على الزواج غير أنه كان ميالا الى حياة النسك والتبتل وأمتنع عن معاشرة زوجته وكان يحتج دائما بدافع المرض، ولكى يبعد مقار عن نفسه ذلك الصراع العميق أستأذن من والده فى الذهاب الى البرية بقصد الترويح وتبديل الهواء فسافر مع أحدى القوافل الذاهبة الى وادى النطرون حيث شاهد حياة النساك القاطنين فى نيتريا. ثم عاد مقار الى بلده وعلم أن زوجته قد توفيت وهى عذراء وأن والده قد فقد بصره وبقى الى جواره وقام على خدمته حتى وفاته، وما لبثت أن توفيت والدته بعد ذلك بقليل. ثم خرج مقار من بلدته الى احد الاكواخ القريبة بعد أن وزع ماورثة من والديه على الفقراء وعاش ناسكا متقشفا وكان ذلك فى عام ٣١٥ ميلادية.

غير أن أقامته خارج القرية لم تدم طويلا أذ صمم فى عام ٣٣٠ ميلادية على تركها والذهاب الى نتريا مرة ثانية ليعيش بين رهبانها غير أنه ذكرت قصتان تختلفان فى سبب ذهاب مقار الى وادى النطرون. الاولى أنه أتهم ظلما بفعل الشر مع امرأة أثناء أقامته خارج القرية فثار عليه أهلها وأوسعوه ضربا حتى أجبر أن يتعهد بالعمل ليكفل نفقة تلك المرأة مدة حملها غير أنه لما تبين عدم صحة ما أتهموه به وذلك باعتراف المرأة التى نطقت ببرائته عندما تعثرت ولادتها، هرع أهل القرية اليه يطلبون منه الصفح والمغفرة على أسائتهم فلذلك ترك المكان الى الاسقيط فرارا لذاته، أما القصة الثانية فقيل أن أهل قريتة رغبوا فى رسامته قسا ليظل بينهم غير أنه كان يرغب فى ممارسة النسك وفضل الهروب الى نيتريا.

ومهما يكن من أمر هاتين القصتين بخصوص مجىء مقار الكبير الى صحراء نيتريا فأن حلوله فيها كان حوالى ٣٣٠ ميلادية وكذلك لم يدم بقاؤه بها طويلا، أذ تركها ثم أنتقل الى

صحارى القلالى «سليا» حيث تقابل هناك مع بعض القديسيين ثم أعتزلها بعيدا نحو الجنوب في المكان الذى أطلق عليه صحراء «بترا» الواقعة شمال برية شيهات عند نقطة اتصالها بصحراء القلالى. ثم حفر مقار لنفسه «فى بترا مغارة» على مقربة من أحدى القلاع الرومانية القديمة ثم حفر بئرا يستقى منها من المكان المذكور وقد ذاع صيت القديس أنطونيوس وقتئذ فى الصحراء الشرقية، حيث أنطلق اليه مقار ولبس أسكيم الرهبانية عنده توطئة بدخوله النظام الانطونى فى الرهبنة ويروى أنه ذهب مرة أخرى الى القديس أنطونيوس قبل رسامته كاهنا.

ومع أن القديس مقار الكبير هو أول من كون الجماعات الرهبانية فى «شيهات» أو «برية الاسقيط» غير أنه لم يكن أول من ترهب بها، ذلك أنه ورد فى سيرة مقار فى أحدى جولاته فى الصحراء الواقعة جنوب صخرة بترا وهى صحراء شيهات، ووصل الى مرج أخضر وفى سطه ماء وحوله شجر صفصاف وأذ لفت نظره فجأة منظر آدميين ليس على بدنهما ما يسترهما الا بعض الجلود شعرها بالغ الطول وكذلك أظافر اليدين والرجلين طويلة أشبه بأظافر الحيوان، ففزع مكاريوس منهما ثم تحدث معهما وسألهما عن كثير من الأشياء وعرف منهما أنهما من السواح[1] الجائلين فى البرية وأنهما لم يريا أحدا منذ أن سكن الرية منذ زمان طويل

(١) السواح فى تاريخ الكنيسة القبطية هم قوم نساك شديدى التقشف والتعبد مع ممارسة حياة غاية فى القسوة والعزلة الانفرادية التامة، ويقضون معظم أيامهم هائمين فى بعض الصحارى أو البرارى ينتقلون من مكان الى آخر ويقيمون فى كهوف يحفرونها لانفسهم فى الصخور ولم يخضعوا لنظام من الرهبنة الخاصة بل كان يعيش الفرد منهم حياة نسكية مريرة حسب ظروف البيئة التى وجدوا فيها. وكان الشخص من أولئك السواح لا يرتبط بالصلاة فى كنيسة معينة. ومن أمثلتهم الأنبا «بولا» الذى يعتبر أول السواح فى الصحراء الشرقية.

على أن أول السواح فى الصحراء الغربية وفى منطقة وادى النطرون هو «بطليموس المصرى» الذى روى عنه أنه جاء الى مكان يخلو من الماء فكان يطفىء ظمأه بقطرات الماء التى كان يجمعها بأسفنجة يحفظها معه لهذا الغرض كما أن اثنين لم تذكر المراجع اسميهما وقد شاهدهما القديس مكاريوس الكبير فى أحدى جولاته فى صحراء شيهات وكانا شبه عاريين أو أنهما اكتفيا بمنزرين لستر العورة. وأشهر أولئك السواح الذين سيظل اسمهما خالدا أبد الدهر هو «القديس أبو نفر السايح» وكان من أعظم النساك فى التقوى والتواضع. وكان فى الأصل راهبا من الصعيد ولد فى قرية بقرب مدينة طيبة وذكر السنكسار القبطى أن وفاته كانت فى ١٠ بؤونة بصحراء طيبة وبالرغم من أن أعماله كانت خفية وحتى مشاهير رهبان الأقباط يجهلون تاريخ حياته تماما ولم يذكر اسمه الا نادرا ولكن يظهر أن حياته كانت مثلا أعلى للنساك حتى قدر الله لها الخلود. =

ولم ينظرهما أحد من البشر سواه وأثناء تجوالهما في البرية يشاهدون حيوانات مختلفة الأجناس.

= ويروى القديس «بافنوتيوس» الذى الهب الله قلبه شغفا بتفقد خدام الله من أولئك النساك والذى رأى منهم عددا كبيرا وكتب عن أخبارهم كثيرا وكان منهم القديس أبو نفر هذا، وقد شاهده عاريا تماما ولا يغطى جسده سوى شعر رأسه وكذلك لحيته المسترسلة فى الطول المبالغ فيه وأنه ارتعد من هيئته وظن أنه روح ولكن زالت شكوكه عندما رسم علامة الصليب أمامه، وبدا بتلاوة الصلاة الربانية وخصوصا عندما ناداه باسمه فقد زالت مخاوفه للتو ثم شرع فى الصلاة سويا ثم جلسا يتحادثان عن عجائب الله. وبعد ذلك سأله القديس بافنوتيوس عن سبب مجيئة فى الصحراء وكيف يعيش فيها فأجابه «أبو نفر» أنه كان يعيش فى دير ملىء بالرهبان الأتقياء الأطهار وسمعتهم يتحدثون يوما عن سكان الصحراء من النساك وما هم عليه من سمو الخلق وحسن الفضائل فسأل «أبو نفر» واحدا منهم عما اذا كانت فضائلهم تفوقهم سموا وتقوى فأجابوه بالايجاب لانهم يعيشون بعيدين عن سكان الأرض ويمارسون عيشة غاية فى التقشف والقسوة فاذا مرض أحدهم لا يجد من يزوره واذا اشتدت عليه الهموم والكروب لا يجد من يسرى عنه من سكان الارض واذا بلى ملابسه لا يجد من يكسيه أو غير ذلك من المطالب أو الحاجيات فلا يجدون من يمدونهم بها كمثل أولئك الذين يعيشون فى الاديرة. فحالما سمعتهم يتحدثون هكذا التهب قلبى وعندما أرخى الليل سدوله أخذت قطعة من الخبز الجاف وخرجت من الدير. ثم صليت وطلبت من سيد المجد أن يهدينى الى المكان الذى أذهب اليه فرحلت وسهل الله طرقى حيث التقيت بأحد القديسين من النساك وبقيت بجوار، فترة علمنى فيها طرق النسك ثم جئت الى هذا المكان حيث وجدت تلك النخلة وهى تثمر أثنتى عشر سباطة سنويا تكفى كل واحدة منها غذاء شهر كامل ثم أشرب من ماء تلك البئر، وبقيت هنا ستين عاما لم أر فيها أنسيا سواك. وفيما هما منهمكان فى ذلك الحديث ظهر ملاك الرب بينهما وناولهما من جسد ودم المسيح ثم تناولا قليلا من الزاد وتغيرت هيئة القديس أبو نفر وصار كما لو كان لهيبا من نار ثم ركع وسجد أمام السيد المسيح ثم ودع القديس بافنوتيوس وأسلم روحه فقام بتكفينه بعد أن لفه بقطعة من الكتان ودفنه بالكهف ثم أراد القديس بافنوتيوس أن يحل محله ولكن حدث بعد أتمام عملية الدفن فى الكهف أن سقطت النخلة وجفت البئر. وقد حدث ذلك بسماح من الله لكى يعود القديس بافنوتيوس الى العالم ويعلن عن حياة القديس أبو نفر. ويظهر أن كثيرين من أمثال أولئك النساك السواح أنزوت حياتهم بين ربوع الصحارى والبرارى ولم يهتد أحد الى أماكنهم وأن من عرف منهم صدفة قليل بالنسة للأعداد الكثيرة التى هامت فى الصحارى والقفار المصرية أمعانا منهم فى التقشف والتعبد للتقرب من الخالق وقد شيدت كنائس على اسم القديس أبو نفر منها فى ظاهر مصر فى نهاية القرن الثانى عشر للميلاد نقلا عما ذكره الشيخ المؤتمن أبو المكارم سعد الله كما ذكر «أميلينو Amélineau» أنه بنيت كنيسة له فى البتانون بمديرية شبين الكوم «بمحافظة المنوفية» فى القرن التاسع. ثم شيدت كنيسة ودير على أسمه فى بلدة دلجا «بمحافظة» أسيوط فى نهاية القرن الثانى عشر للميلاد، كما شيدت كنيسة له أيضا بقرية ناحية أسوان حسب رواية أبو صالح الارمنى، هذا وتعيد الكنيسة القبطية بهذا القديس مرتين سنويا الأولى ١٠ يونيو ويوافق يوم نياحته والثانية يوم تدشين كنيسته بظاهر مصر فى ١٢ هاتور. =

وقد اشتغل مقار الكبير فى «بترا» بعمل السلال التى كان يعطيها للجمالين الذين وفدوا لحمل النطرون ليبتاعوا له بثمنها خبزا يابسا ليقتات به، وذاع زهده فالتجأ اليه أعدادا كثيرة من الرهبان المجاورين الذين رغبوا فى الحياة الرهبانية على يديه وحسب ارشاداته فكان يلبسهم زى الرهبنة ويعلمهم طريقة ضفر الخوص وعمل السلال، وكيفية حفر المغارات فى التلال وتظليلها بالضعف.

ولم يكن أولئك الراغبين فى الحياة الرهبانية عنده من المصريين فقط بل جاء اليه جماعات كثيرة من روما واسبانيا وكبادوكية باسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين وبلاد النوبة وأرمينيا وأقاموا فى قلالى متجاورة على صخرة بترا.. وكانت شخصية مقار الكبير سببا فى أجتذاب هذه الاعداد الوفيرة من أوروبا التى ذاع صيتها فى هذه المناطق. وكان ممن تتلمذ فى ذلك المكان على يد القديس مكاريوس الكبير من غير المصريين هما شابان يافعان من الأمراء وهما أبناء الامبراطور فالنتينس الاول المسيحى «٣٦٤/٣٧٥ ميلادية» وهو الأمبراطور الذى عرف بشدة حبه للمسيحيين من رعيته حتى لقبه المصريين باسم قسطنطين الجديد، وقد اهتم بتربية أبنائه تربية دينية حتى امتلأ القصر الأمبراطورى بصلوات مستمرة نهارا وليلا.

وقد كان رغبة الأميرين فى تكريس حياتهما لله وممارسة الرهبنة ولكن والديهما عارض هذه الرغبة، ثم طلبا منه السماح لهما بزيارة مدينة «نيقيا» فصرح لهما حيث تقابلا هناك مع أحد الرهبان ويدعى «يوحنا» أشتهر بورعه وتقواه حتى أسترعت صفاته وفضائله بعض رجال الدولة فكانوا يقصدونه دواما للتبرك بأقواله والاستماع الى مواعظه ونصائحه فاستقبل الراهب هذين

= ومن بين أولئك السواح الذين ذاع صيتهم فى مصر وخصوصا فى العصور الوسطى الأنبا «فريج» والذى يطلق عليه «الأنبا رويس» وكان يعيش فى زمن البطريرك الأنبا متاوس السابع والثمانين وذلك عام ١٢٦٠ للميلاد ويقطن على مقربة من قلايته كما أصبح من السواح المشهورن وعرف بشدة ورعه وأمانته وتعلقه بخالقه حتى وهبه القدرة على شفاء المرضى وشفى كثيرين من أسقامهم وأمراضهم الروحية والجسدية حتى كانوا يلقبونه برجل المعجزات وكانت كنيسة العذراء بحارة زويلة مكانه المفضل كما روى أن البابا كثيرا ما كان يسأل عنه ويفتقده دائما خصوصا فى أثناء الصلاة فى القداس كما قيل أنه شيع جنازته عند وفاته ودفنه فى الكنيسة المسماة على اسمه والمجاورة للكنيسة المرقسية الكبرى الآن. وكذلك الأنباء برسوم العريان كان من أمثال أولئك النساك الصالحين الذين أذلوا الجسد الى أقصى حدود الأذلال حتى تصفو وتسمو الروح وقيل أنه كان يعيش منذ أكثر من خمسة قرون وهجر الدنيا ونزواتها ليعيش أيامه متعبدا كروح بلا جسد.

الأخوين بكل ما يليق بمكانتهما من احترام وتبجيل حيث أقاما عنده مدة من الزمن ثم أطلعاه عن رغبتهما فى الرهبنة. ولكن الراهب المذكور خشى من عقاب الأمبراطور فأرسلهما الى بلاد الشام عند أحد مشاهير رهبانها وهو الآب أغابيوس ليتتلمذا على يديه فأقاما عنده ست سنوات حيث عاشا حياة الزهد الكاملة بالورع والتقوى ولبسا ملابس الرهبان السوريين السوداء وقد ذاع خبر تقواهما وعرف عنهما من الصلاح وسمو الفضائل مما دعا البحارة الى كتابة اسميهما على قلاع سفنهما تبركا. وقيل أن أباهما الذى ظل يبحث عنهما دون جدوى عرف مكانهما من هذه القلاع، ولما أراد الوالد أن يرشح أحدهما ليتقلد كرسى كنيسة القسطنطينية رفض كل منهما تولى تلك الوظيفة الدينية الكبرى وصمما على الالتجاء الى منطقة النسك بوادى النطرون فركبا البحر ووصلا الى مصر ثم اخترقا الصحراء وسارا فيها حتى وصلا الى مكان القديس مقار الكبير فى برية الأسقيط، ورغبا فى الحياة معه. ولما وقف على قوة ارادتهما وشدة عزمهما على النسك رحب بهما وأعطاهما فأسا ليحفرا قلايتيهما ثم علمهما طريقة ضفر الخوص وعمل السلال. ثم خلع هذان الراهبان الأمبراطوريان الملابس الرهبانية السريانية وألبسهما القديس مقار ملابس الرهبان المصريين وقد فعلا هذا رغبة فى اخفاء مظهرهما عن مندوبى الأمبراطور أبيهما وكان لا يكف بطبيعة الحال عن ارسالهم فى البحث عنهما.

ولما كان هذان الراهبان القديسان أجنبيين عن المصريين فلم يكن من السهل عليهما التفاهم مع النساك المصريين فظلا طول حياتهما دون زيارة أى انسان، ولم يفتحا قلايتهما الا لعامل كبير السن من عمال مناجم النطرون وكانت مهمته بيع انتاج عملهما من السلال، وعند ذهابهما الى الصلاة فى الكنيسة كانا يقضيان طول فترة الصلاة دون أن يرفعا وجهيهما عن الأرض، وكان طعامهما يتكون من الخبز الجاف والملح.

ويظهر أن الحياة النسكية القاسية التى مارسها الشابان القديسان وسط تلك البرية المحرقة مع شظف العيش فى المأكل والمشرب والملبس بخلاف ما اعتادا عليه من الحياة فى قصر أبيهما الأمبراطورى كانت من العوامل التى عجلت بوفاتهما وهما فى شرخ الشباب ولم يعمرا طويلا ورحلا من الدنيا فى سنة واحدة فى حوالى عام ٣٨٤ للميلاد، وقد قام القديس مقار بدفنهما بعد أتمام الصلاة على رفاتهما بنفسه فى المكان القريب من المغارة التى حفراها. وكانت أخبار

الرهبان عنهما تشيد بسيرتهما العطرة وفضائلهما وسمو أخلاقهما حتى شرع الكثير من الرهبان الى التسابق فى بناء القلالى بجوار مغارتهما، كما شيد القديس مقار كنيسة تذكارية حسنة على مقربة من تلك القلالى الجديدة التى أطلق عليها اسم قلالى «جماعة الروم». وبذلك تأسست جماعة رهبانية حول المكان الذى دفن فيه الراهبان «مكسيموس ودوماديوس» وهو غير المكان المعروف حاليا بدير البراموس كما ورد ذلك فى رواية بعض المراجع.

أما القديس مقار الكبير فأنه بعد ازدحام صخرة بترأ بالعديد من الرهبان شرع فى الانتقال الى منطقة أخرى تصبح حياته فيها أشد خشونة وقسوة أمعانا فى الزهد فانتقل داخل شيهات الى موقع جنوب الوادى وهو المكان الذى أطلق عليه اسم «أسقيط القديس مقار» تمييزا له عن سائر برية شيهات وأقام هناك داخل قلاية حفرها بنفسه ليمضى بها بقية أيام غربته فى شظف من العيش وحيث لا تتوفر المياه كثيرا بسبب أنخفاض منسوبها وقلة صلاحيتها. ولكن سرعان ما أنتشر الرهبان فى المكان وعمر بالكثير من الوفود من النساك فألبسهم مقار أسكيم الرهبانية وأمر جميعهم أن تكون جماعاتهم فى وحدات متقاربة مما يبرهن على أن القديس مقار الكبير قد فطن الى أهمية الناحية الاجتماعية فى حياة الرهبنة ولو أنه لا يوجد ما يدل على قيام نظام دير عمل القديس مقار على خلقه وايجاده فى حياته.

ولم تنقطع زيارة مقار لجماعته الرهبانية الاولى، بل دأب على تفقدها مع بعض الرهبان لوجود النخيل والبردى بكثرة على مقربة منها، فاذا قام بالخدمة الدينية من تعاليم طقسية وصلاة فى الكنيسة التذكارية فى زيارة من هذه الزيارات عاد مع جماعته من الرهبان مزودين بما كانوا يحملونه من سعف النخيل والبردى اللازمين فى العمل اليدوى للضفر وصنع الحصر والسلال، ولم يكف القديس عن الاكثار من أقامة القلالى وحفر المغاور والآبار وبناء الكنائس ليهيء الى تلاميذه العديدين كل ما يمكن لراحتهم وظل يجاهد طول حياته للنهوض بالحياة الرهبانية حتى وصلت الى عهدها الذهبى فى عصره وتبوات منطقة وادى النطرون بصفة عامة شهرة عالمية ومركزا ساميا فى عالم النسك والرهبنة. وكانت وفاة القديس مقار عام ٣٩٠ للميلاد وذكر الأسقف سرابيون فى أخبار وفاته «أن جماعة من الرهبان حملوا جسد الاب القديس العظيم الى المغارة التى بجانب البيعة التى بناها القديس، وانصرفوا الى قلاليهم بحزن

عظيم». وعلى ذلك يمكن أن نحدد تأسيس جماعة مقار الكبير «فى الأسقيط» فى المدة التى تقع بين وفاة القديسين «مكسموس ودوماديوس» وبين وفاة القديس أبو مقار أى بين سنتى ٣٨٤/ ٣٩٠م.

ويجاور دير مقار الحالى، موقع القلالى التى تكونت فيها جماعة القديس مقار، ويقال أن القديس المذكور شهد قبل وفاته جماعتين رهبانيتين أخريتين فى برية شيهات، الأولى وهى جماعة القديس «يوحنا كلويس» المعروف باسم يوحنا القصير وأصله من عائله فقيرة من مدنية البهنسا الحالية أى أقاليم «اكسيرنكس Oxrynchus» وولد عام ٣٣٩م ولما بلغ الثامنة عشر من عمره رغب فى حياة الرهبنة وقبل أن ينخرط فى سلكها رحل الى بعض الأماكن الموحشة ليدرب نفسه وليتعرف على مدى صلاحيته وقدرته على احتمال العيشة الدينية القاسية. ولما آنس فى نفسه المقدرة انصرف الى منطقة وادى النطرون ليتتلمذ على القديس «بامو» الذى خلف القديس آمون بعد وفاته وأصبحت له رئاسة نيتيريا وأعداد الرهبان المنفردين فى سيليا. ورؤى أن السبب فى اختياره للقديس «بامو» لأنه كان من بلدته. فأقام فى قلالة الى جواره. ومن أغرب الاختبارات التى أجريت على يوحنا القصير هذا لقبوله فى الدخول بسلك الرهبنة. وكان لها تأثير فى حياته ما ورد ذكره عن القديس بامو أنه أعطى يوحنا غصنا جافا كان يتوكأ عليه أثناء تنقلاته. وأمره أن يغرسه على مسافة بعيدة وبتعهده دواما بالسقى بالرغم من جفاف الغصن والصعوبة البالغة فى نقل المياه اليه. ومع ذلك لم يكف يوحنا عن تنفيذ أمر معلمه حتى نبتت الشجرة أو العصا بعد ثلاث سنوات وحملت أثمارا حسب ما ورد فى القصة. وقد قدم القديس بامو تلك الثمار الى تلاميذه قائلا «خذوا كلوا من ثمار شجرة الطاعة». وقد توالت زياراته الى قلاية يوحنا يعلمه الأنجيل ويدربه على حياة النسك حتى وصل الى مرتبة عالية فاق فيها جميع زملائه بل فاق جميع رهبان منطقة شيهيت بسبب شدة تواضعه ونقاوة قلبه.

وقد أمضى يوحنا القصير فى عشرة القديس بامو اثنتى عشرة سنة وعندما قاربت أيامه على الانتهاء من هذا العالم. أوصى القديس تلميذه قائلا «يا يوحنا يا ولدى عندما أرحل من هذا العالم اذهب وعش فى المكان حيث زرعت الشجرة اذ أن هذه الشجرة التى لك الفضل فى

أنباتها هى رمز لهذه النفوس التى ستنقذها فى هذا المكان والتى ستجعل لك ذكرى أمام الله» . وعندما توفى الأنبا باميو ذهب يوحنا عند مكان الشجرة وابتنى له مغارة وسط برية شيهات. وفى مكان يقع على مقربة من دير تأسس فيما بعد وهو المعروف اليوم بدير السريان أو يوحنا كاما، ثم ذاعت سيرة الأنبا يوحنا النسكية فاجتمع حوله كثيرا من الأخوة الذين رغبوا فى الحياة حوله. وحفروا لهم بئرا لتوفر عليهم مشاق السفر الى مسافات بعيدة لاحضار الماء من الآبار القديمة. ولما زاد عدد القلالى وكثرت جموعهم بنى لهم يوحنا كنيسة حوالى عام ٣٠٠ للميلاد. الا أن رهبان هذه المجموعة فروا أوائل القرن الخامس للميلاد بسبب هجوم البرابرة وهدمهم القلالى والكنائس فى شيهات وقتل الكثير من رهبانها. ثم انتقل يوحنا القصير بمن معه من هذه الجماعة الى الصحراء الشرقية حيث كان يعيش تلاميذ القديس انطونيوس. وقد مات يوحنا القصير فى تلك الصحراء الشرقية ودفن فيها.

أما المجموعة الثانية التى شهدها القديس مقار الكبير فى برية شيهات فهى مجموعة «الانبا بشوى» وقد ولد فى بلدة «أبشنشا» بمركز أجا بمديرية الدقهلية الحالية، وتوفى والده فتولت تربيته أمه مع أخوته السبعة وكان بشوى أصغرهم. ولما بلغ مرحلة الشباب رغب فى ممارسة الحياة الرهبانية فرحل الى منطقة وادى النطرون وأصبح زميلا الى يوحنا القصير فى البرية وفعلا تتلمذ معه على يد الأنبا بامو وثابر بشوى على حياة النسك فظل ثلاث سنوات لم ير خلالها غير وجه مرشده كما عكف على دراسة الانجيل والتوراة. وقيل أنه حفظ سفر أرميا حتى لقبه البعض «بشوى الأرمى». وقد عاش بشوى مع زميله يوحنا القصير فى المكان الذى زرعت فيه شجرة الطاعة. ثم انفصل عنه بعد فترة وجيزة وسكن فى مغارة قريبة منه. ولم يعرف بالضبط التاريخ الذى بدأت فيه جماعة الأنبا بشوى الرهبانية ولكن يمكن الاستدلال عليه على أن قيامها على غالب الاحتمال مرتبط بزمن وفاة الأنبا بامو الذى حدث حوالى عام ٣٧٤ للميلاد وانتقال الأنبا بشوى الى المغارة التى عاش فيها بعد انفصاله عن الأنبا يوحنا القصير. وهذه المغارة هى النواة التى تجمعت حولها قلالى الرهبان الذين سكنوا الى جوار الأنبا بشوى وألبسهم الاسكيم كما شيد لهم كنيسة والتى كانت الرابعة فى عداد كنائس برية شيهات فى القرن الرابع للميلاد.

ولما أغار البرابرة على جماعة الرهبان فى القرن الخامس بوادى النطرون وهجموا على

جماعة الانبا بشوى هرب هو ورهبانه من وجه الغزاة. وقيل أن الانبا بشوى التجأ الى القديس بولا الطموهى وأقام عنده حتى وأفته المنية ثم نقلت رفاته فيما بعد الى المكان الذى بنى عليه ديره الحالى.

وخلاصة القول أن أول المجموعات الرهبانية الاربعة فى برية شيهات[1] بعد جماعة القديس آمون هى الجماعة التى تكونت حول القديس مقار الكبير فى «بترا» فى شمال شيهات ثم الجماعة التى تكونت حول قلاية القديسين «مكسيموس ودومادیوس» حوالى سنة ٣٣٤م. وفى المدة التى تقع بين عام ٣٧٥/٣٨٥م تكونت جماعة كل من يوحنا القصير والانبا بشوى فى وسط شيهات. ومما يؤيد هذه التواريخ بالاضافة الى ماورد فى أخبار هؤلاء الرهبان أن الرحالة الاب «يوحنا كاسيان» الذى زار برية شيهات حوالى عام ٣٨٥م رأى بها اربع كنائس وكان لكل كنيسة منها كاهن أعظم أو أيغومانس «ومن المعروف أن كل جماعة من تلك الجماعات شيدت فى وسطها كنيسة لاقامة صلوات القداس فيها.

رهبنة وادى النطرون

* النكبات التى حلت بوادى النطرون ورهبانه.
* أثر رهبنة وادى النطرون فى تاريخ الكنيسة.
* نشاط رهبان وادى النطرون عمليا وعلميا.
* أثر رهبنة وادى النطرون فى العالم الخارجى.

النكبات التى حلت بوادى النطرون ورهبانه:

كان القرن الرابع ومستهل الخامس للميلاد العصر الذهبى للوادى ورهبانه وأزدهرت فيه القلالى وأيد هذا القول رحالة الغرب الذين زاروا المنطقة فى ذلك الزمن أمثال روفينوس وبلاديوس وجيروم وغيرهم ونوهوا عن أنتشار الاديرة فيه ووصل عددها الى خمسين ديرا وبلغ عدد رهبانه خمسة الاف راهب. وكانت المنطقة تنعم بالسكون والهدؤ العجيب وخصوصا فى

---

(١) على مقربة من منطقة شيهات أو الاسقيط كانت توجد بلدة «بيامون» التى ورد أسمها فى قصة أل ٤٩ شيخا الذين قتلهم البرابرة فى أحدى غزواتهم على الرهبان ودفت أجسادهم بتلك القرية. وفى أوائل القرن الخامس أقامت الحكومة الرومانية قلعة لحماية المنطقة من غارات البرابرة.

زمن القديس مقار الكبير أشهر مؤسسى الرهبنة فى الوادى المذكور[1] ولكن لم تدم تلك النهضة المباركة أذ بعد وفاته بقليل أغار على المنطقة وجميع أديرتها البرابرة والحقوا بها الخراب والدمار. وقيل أن مقار الكبير كان قد تنبأ بما حل بها من نكبات البربر ولم يكفوا عن هجماتهم وأعمال السلب والنهب والقتل بذلك الوادى وتكررت غاراتهم عليه فترات عديدة وفى عصور مختلفة نذكر منها على سبيل المثال: ـ

(١) **الغارة الاولى**: حدثت حوالى عام ٤١٠ للميلاد. وقد كانت فى عهد البطريرك الانبا ثيوفيلس وهو البابا الثالث والعشرين من ٣٨٥/٤١٢م وقد أيد حادثة ذلك الهجوم القديس ارسانيوس[2] فى مذكراته.

---

(١) أكتسب الوادى صفة التقديس بسبب ما ذاع بين المسيحيين من رواية التجاء السيدة العذراء مع طفلها المقدس أبان هروبها الى أرض الوادى المذكور. كما أعتاد بطاركة الاسكندرية المجيء الى برية شيهات لدير مكاريوس الكبير للقيام بمهمة طبخ الميرون. كما كانت التقاليد تحتم على البطاركة أن يقيموا أول قداس لهم بعد الرسامة فى مدينة الاسكندرية فى دير أبى مقار فى هذا الوادى. وكان المكان الهادىء الامين الذى لجاء اليه البطاركة أبان فترات الفوضى والمنازعات والاضطهادات التى تعرضت لها البلاد فى العصور المختلفة.

(٢) كان أرسانيوس رومانى الاصل من أسرة عريقة من الشيوخ ومن رجال البلاط وفيلسوفا ذائع الصيت ولهذا تقلد مناصب رفيعة فى العصر الامبراطورى وقد روى عنه أنه مربى أبناء الملوك ربما كان له فضل فى تهذيب وتعليم أولاد الامبراطور «ثيودسيوس» وقد رغب فى ترك حياة المظاهر العالمية وممارسة معيشة التنسك. فرحل الى وادى النطرون ببرية شيهات وهناك وصل الى قلاية القديس «يوحنا القصير» الذى عرف أنه أحد رجال البلاط بقصر الامبراطور أركاديوس ابن تاودسيوس الكبير. وبالرغم من أن أرسانيوس توسل فى تواضع وتذلل وخشوع للقديس يوحنا برغبته للدخول فى الرهبنة الا أن القديس أظهر له احتقاره فى أول الامر ولم يعبأ بعلو مركزه بل تركه واقفا على بعد وجلس لتناول طعامه مع رهبانة وبعد برهة القى اليه الانبا يوحنا قطعة من الخبز الجاف وهو فى مكانة فانحنى أرسانيوس من بعيد ليتناولها ولما رأى ذلك منه تأكد من صلاحيته للرهبنة ورحب القديس يوحنا القصير به بين الرهبان. ويظهر أن الجفاف والخشونة مع القسوة مع الراغبين الاحداث لدخول الرهبنة أمر لابد منه لاختبار مدى طاعة الشخص وتواضعه. والقديس أنطونيوس أعطى الى مكاريوس الكبير درسا فى أحتقار ذاته عندما ذهب ليتتلمذ عليه وقد أصبح هذا النظام قانونا يتبع لا مع حديثى الرهبنة من المصريين وأيضا مع الاوربيين. فقد روعى بين قوانين الرهبان والديريين هناك. ويروى عن أرسانيوس ترك برية شيهات حوالى عام ٤١١م وذهب الى كانوب على مقربة من الاسكندرية حيث زاره البطريرك ثيوفيلوس عدة مرات. وقيل أنه رفض أثناء أقامته بكانوب مقابلة سيدة رومانية قد عبرت البحر لتظفر بكلمة منه. ثم أقام مدة فى بلدة «تروجا» وهى طرا الان بين القاهرة وحلوان وسافر أكثر من مرة من تروجا الى كانوب والاسكندرية فى أخريات حياته. =

(٢) **الغارة الثانية:** وقعت بالمنطقة المذكورة بعد عشرين عاما من الغارة الاولى أى حوالى عام ٤٣٠م وذلك فى زمن كيرلس الكبير البطريرك الرابع والعشرين ٤١٢/٤٤٤م. وهرب أغلب الرهبان منها ولم يبق بها الا القديس أرسانيوس غالبا. وقد أقام فى الجبل وحده وظل هناك متوكلا على الله مرددا هذه العبارة «أن عناية الرب تشمل الجميع وما من أمر يحدث الا بمشيئته. فلو كان الله قد أراد التخلى عنى فلماذا أتمسك بالحياة». وروى أن أرسانيوس كان يمر بعد ذلك بين صفوف اللصوص المسلحين دون أن يشعروا به لان الله يخفيه عن أبصارهم. وقيل أن عهده فى برية شيهات كان زاهرا فى الرهبنة كما أخذت أعدادا وفيرة من الرهبان الوفود للصحراء وعمروا كثيرا من القلالى.

(٣) **وكذلك حصلت غارة ثالثة:** على الوادى من البرابرة أيضا وكانت فى زمن البابا ديوسقورس البطريرك الخامس والعشرين من ٤٤٤/٤٥٨م. وقد ذكر أن بين من أستشهد فى تلك الغارة القديس موسى كما قتل كثير من الرهبان. والظاهر من واقع الامر أنه بعد كل غارة من انقضاض البرابرة على الوادى ونهب ما فيه وقتل الكثير من نساكة واحلال الدمار فيه وهروب البقية من الرهبان كان يعمد الكثير من أهل الاحسان والبر من المسيحيين وبعض البطاركة الى تعمير ما تخرب من أديرته وقلالية وكنائسة بقصد أعادة المنطقة الى سابق عهدها المجيد والتشجيع الى رجوع النساك اليه وتعميرة وكانت تدب الحياة فى المنطقة وتزداد وفود النساك وتزدهر برهبانها كما كانت. ولا ننسى أهل الفضل وما كانوا يغدقونه على أولئك الرهبان من نذور وكل ما كانوا فى حاجة اليه. وقد حدث فى عهد البطريرك يوحنا الراهب التاسع والعشرين ٤٩٤/٥٠٣م أن أغدق الامبراطور «زينون» الذى أشتهر بالتقوى وطيبه القلب على دير القديس مكاريوس الكثير من لوازم الدير ورهبانه.

(٤) وكان تكرار هجوم البرابرة على منطقة وادى النطرون لا ينقطع خصوصا أذا ما ترامى الى علمهم بانتعاش الاديرة وازدهارها فكانوا يعيدون الكرة والانقضاض على الاديرة ورهبانها وسلب وقتل وتشتيت سكانها من الرهبان. وكان فى تلك الفترة فى عهد البطريرك دميانوس

=وقد توفى أرسانيوس بعدما عمر طويلا ودفن فى المكان الذى قضى فية بقية أيامه بالدير المقام فوق جبل طرا بالقرب من القاهرة. وقد بناه الامبراطور أركاديوس وحسب ما روى أنه توفى قبل أرسانيوس بعشرين عاما وقد تناول أبو صالح الارمنى من القرن ١٢ وكذلك المقريزى من القرن ١٥ وصف الدير المذكور وكان يسمى دير القصير أو دير البغل.

- -

الخامس والثلاثين من ٥٦٩/ ٦٠٥م. بعدما حل السكون والسلام بوادى النطرون وعمرت الاديرة الاربعة وأخذت فى النمو. وقد أحرقوا وقتلوا الكثير من سكان الوادى مما أحزن البابا المذكور كثيرا. وقد زار البابا بنيامين الثامن والثلاثين من ٦٦١/٦٢٢م أديرة وادى النطرون حوالى عام ٦٣٠م وعلم بما يلاقى الرهبان من مصاعب ودمار من هجوم الاعداء وما يحدثونه من خراب. وقد أعاد ما تخرب منها كما دشن كنيسة جديدة على الجبل المقدس وهو مقر القديس مقار الكبير عند سفح القلالى.

(٥) وقبيل نهاية أيام البطريرك مرقس الثانى التاسع والاربعين من ٨٠٩/٨٧٦م نعم الوادى بالسكون الشامل والازدهار. ولكن فجاه تعرض لهجمات البرابرة فأعملوا السب والنهب والقتل بين نساكة وحل به الخراب كالمعتاد فهرب أغلب الرهبان وتشتتوا فى جميع أنحاء القطر كما أسروا عددا كبيرا من نساكة وقد أثر هذا الحادث تأثيرا شديدا على البطريرك مما أفجعه كثيرا فمات كمدا بسببه.

(٦) وكان البطريرك شنودة الخامس والخمسين من ٨٨١/٨٥٩م قد أشتهر بشدة ورعة وتقواه واصلاحاته العديدة التى قام بها وخاصة بوادى النطرون وغرس الكروم والبساتين ومعاصر للزيوت وأساس لانشاء الكنائس منها كنيسة كبيرة أطلق عليها أسم كنيسة القديسين وتلاميذه. وكانت أعماله هذه مما شجعت الكثير من المؤمنين على مساعدته. وقد شاهد أن اعداد الرهبان بدأ ينمو ويزداد فى وادى النطرون ويعود اليه ازدهاره ولذلك فقد عزم البطريرك المذكور هو وحاشيته على زيارة وادى النطرون اثناء عيد الفصح. والظاهر أن هذه الاخبار وصلت الى مسامع البرابرة فقدموا سرا من الوجه القبلى واستولوا على كنيسة القديس مقار وتوابعها ونهبوا ما فيها من متاع وزاد. ومنها طافوا بالاديرة الاخرى طردوا من فيها من رجال الدين وغيرهم بالقوة بعد أن جردوهم مما عليهم. وهذا ما ذكره المؤرخ «كاترمير» فى رسالته عن مصر «ج٢ صفحة ٤٧٦ و ٤٧٧» ومن كتاب الامير «طوسون صفحة ٤٤».

وقد ذكر كاترمير أيضا أن هذه الاديرة عانت كثيرا من المصائب بعد ذلك بزمن يسير. فقد ألقى الاعراب رحالهم فى الصحراء وأخذوا يرتقبون خروج الرهبانى للتذود بالماء فينقضون عليهم ويأخذون أوانى الماء منهم ويجردونهم مما عليهم. ولما عادت السكينة وأستتب الامن أهتم هذا البطريرك بترميم دير القديس مقار الكبير واحاطه بسوير منيع بقصد حماية الرهبان والمسيحين من أذى وسطو الاعراب فى المستقبل.

نتائج غارات البرابرة المتكررة

كان لتكرار الهجمات الوحشية على الوادى وأديرته علاوة على ما أفنته من رهبانة وتشتيت شمل ما كان يتبقى منهم فأنها أبادت تراثا لامعا لا يقدر بثمن من كنوز علمية جادت بها أسمى قرايح الانسانية من نتائج أفاضل أولئك الاباء القديسين الذين كانوا نبراسا منيرا ومباركا بتعاليمهم النورانية السامية لا للوادى وسكانه وما حوله من بلدان القطر فحسب بل وغيره لجميع شعوب المسكونة بأجمعها بدليل تأثير تعاليمهم البالغة على أقطار بلاد الغرب وتهافت شعوبهم على أقتناء بعض ما تركوه من مؤلفات ومخطوطات قيمة واقتدوا بهم فى تنفيذ ما حصلوا عليه من تعاليمهم. كما أملت تلك الغارات اللعينة وأحداثها على بعض البطاركة وكثير من المؤمنين والرهبان الى التفكير فى حماية تلك الاماكن المقدسة وما لها من أنبل الذكريات وكذلك حفظ حياة نساكها من غدر وهجوم أولئك البرابرة لها. فبدات فكرة تشييد الحصون الداخلية المسماة «بالجواسق» فى كل مناطق الاديرة المختلفة التى مازالت باقية وقائمة حتى الان بالرغم من زوال غارات اولئك البرابرة وهى تدل على مقدار ما كان يعانيه الرهبان من ظلم ووحشية تنفر منها الانسانية من أولئك الوحوش الادمية. وزيادة فى الحماية أحاطوا الاديرة من الخارج بالاسوار الضخمة العالية واحكموا أغلاقها أمعانا فى الامان من شرهم.

ولقد نوهت أغلب المصادر التاريخية على اختلافها على أن بيوت العبادة وقلالى النسك والاماكن التى انشئت لكى يذكر فيها أسم الخالق وتمجيده ولنشر السلام والبر والعدالة على الارض تعرضت من وقت لاخر الى هجرم العربان واللصوص والفرس والقبائل البربرية المتوحشة وغيرهم من جيش الخرسانيين وقضت عليها أو على معظمها قضاء تاما. وكان من تلك النتائج التى أساءت الى الرهبنة المصرية على مرور العصور أنه لم يبق من تراث الاباء النساك فى الوجه البحرى من مئات[1] الاديرة على اختلاف أنواعها الا أربعة أديرة للرهبان فى منطقة وادى النطرون الان وكذلك أربعة أو خمسة أديرة خاصة بالعذارى من الراهبات.

أما الاديرة الخاصة بالنساء الان وباقية جميعها بالقاهرة وبعضها فى مصر القديمة وبجوار الكنائس. فقد تناول الكلام عنها مؤرخ العصور الوسطى «تقى الدين المقريزى» وذكر أنها

(١) أمتلات الصحارى وبقاع عديدة بالوجهين بالاديرة والقلالى والنساك حتى قيل أن المسافر من الاسكندرية لاسوان بالقرنين الخامس والسادس لم يكن فى حاجة لان يحمل زادا للطريق فكان يمكنه التزود بما يحتاجه للرحلة من الاديرة والقلالى المنتشرة بكثرة على أطراف وادى النيل وصحارية الشرقية والغربية.

كانت معروفة في زمانة وكانت عامرة بالبنات المترهبات أو العذارى الابكار كما كان يطلق عليهن في أيامه. ولكل دير منها رئيسة لتقوم بالاشراف عليه ومراعاة طقوس العبادة والصلوات حيث يذهبن الى الكنائس المجاورة لها.

وهذه الديارات الان هي:-

١- دير الامير تادرس بحارة الروم شرقي كنيسة العذراء وتقيم فيه من الراهبات عدد ١٣.

٢- دير مارجرجس للراهبات بحارة زويلة. وعدد راهباتة ٤٠.

وبه مقصورة عالية يرجيع تاريخها الى القرن العاشر للميلاد.

٣- دير العذراء للراهبات بحارة زويلة وهو بجوار الكنيسة وقد ذكر المقريزى فى كتابة. وقد جدد بناءه الانبا مرقس البطريرك الاول بعد المائة من ١٦٤٢ الى ١٦٥٢م. ثم البطريرك الانبا كيرلس الخامس وبه عدد ٢٥ راهبة.

٤- دير القديس مرقوريوس أبى السيفين بجوار كنيسة أبى سيفين بمصر القديمة وبه مقصورة بها صورة قديمة أثرية للقديس أبى سيفين. وقد جدد بناءه أيضا الانبا كيرلس الخامس.

وعلى نفس نظام أديرة البنات أخذت البلاد الاخرى من الشرق أو الغرب نظامها فى رهبنة النساء وأقامت على أساسها الاديرة التى تقوم راهباتها بالخدمات الانسانية القويمة.

مواقف رهبان وادى النطرون وأثرها فى تاريخ الكنيسة القبطية

كانت جماعات وادى النطرون من الرهبان يكونون قوة لا يستهان بها ورأى فيها بطريرك الاسكندرية أشبه بجيش هائل على أهبة الاستعداد للدفاع عنه وعن مبادئه. وكانوا سببا فى زيادة سلطان البابا وازدياد جبروته[1] وعلى الاخص بعد تولى عرش الامبراطورية من هم من الموالين للمذهب الاثناسيوسى. وقد حدث أن طلب الانبا ثيوفيلس البابا من الامبراطور «تاودوسيوس الاول» وقتئذ السماح له بالاستيلاء على معبد «باكوس Bacchus» لانشاء كنيسة فى مكانه فتم له ما أراد. وكان هذا القرار مما شجع الانبا ثيوفيلس على القضاء على

(١) وصلت سلطة البابا فى وقت من الاوقات الى تحدى سلطة الحكام كما حدث فى عهد كيرلس الكبير «٤١٢/٤٤٤م» الذى نازع والى الاسكندرية فى سلطته أذ أستخدم البابا المذكور جيش الرهبان لطرد اليهود من الاسكندرية بالرغم من شكوى الولاة من هذه السطوة. الا أن البلاط الامبراطورى أهمل=

جذور الديانات السابقة فى الاسكندرية. واستخدم فى هذا الشأن جيش الرهبان الذى كانت تتكون الغالبية منه من منطقه وادى النطرون. ودمروا معبد سرابيس أعظم معاقل الآلهة السابقة. وقصة دخولة لهيكل سرابيس هذا وهدمه وتدمير تمثاله الهائل. وفرار مجموعة اتباعه وذلك بزعامة الانبا ثيوفيلس البطريرك. الذى شجع بعمله هذا أن يقضى المسيحيون على كل أماكن الديانات السابقة بالاسكندرية والاقاليم وتحطيم ما فيها من التماثيل والصور القديمة.

كذلك ساهم الرهبان بنشاطهم المتواصل فى القضاء على أصحاب التعاليم الدخلية التى تتسم بالهرطقة من أتباع آريوس[١] كما أعتمد باباوات الاسكندرية على رهبان وادى النطرون فى جهادهم المستمر للتخلص من سلطان الاباطرة تحت ستار المناقشات البيزنطية فى الأمور الدينية.

= شكواهم ولم يعبأ بها فأدى هذا بطبيعة الحال الى التمادى فى النفوذ والصولة حتى أتهمت الرهبان بمقتل الفيلسوفة «هيباشيا» «أبنة الفيلسوف» «ثيون» التى كانت تشرف على أدارة المدرسة الافلاطونية الحديثة بالاسكندرية. وهنا فقط تدخل الامبراطور أركاديوس وأصدر أمره بعدم تدخل رجال الكليريوس فى المسائل السياسية وتحديد عدد خدام الكنيسة. ولكن لم ينته النزاع بين البابوات والاباطرة عند هذا الحد بل ظل حتى الغزو العربى للبلاد.

(١) كانت أخطر البدع التى ظهرت فى الكنيسة هى هرطقة «أريوس» وقد استعان البابا بالرهبان لمحاربتها ومضمونها يقول.

«أن المسيح مخلوق وأنه ليس أزلى أزلية الله وعلى ذلك لا يساوى الابن للاب فى الجوهر وأن نال السلطان من أبيه الذى هو أعظم منه».

وقد أنبرى القديس أنطونيوس للاشتراك فى الدفاع ومحاربة هذه البدعة وكان من أبطالها العظام القديس أثناسيوس العظيم. فسافر الانبا أنطونيوس خصيصا الى الاسكندرية وكان وقتئذ شيخا جليلا للدفاع ودحض تلك البدعة. كما والى الكتابة مؤكدا وحدانية الجوهر أو الكلمة. وقد أنضم اليه رهبان نيتيريا بوادى النطرون الذين أصبحوا يجلون أثناسيوس كثيرا وبعد اختفائه هناك عندهم عدد من السنين فى فترة أقصائه الثالث عن كرسى الباباوية من سنة ٣٥٦ و ٣٦٢م.

وقد أنضم رهبان الانبا باخوميوس كما ورد فى رسالة الانبا تادرس رئيس الدير وقتئذ لمحاربة هرطقة آريوس وفيها قاد رهبان وادى النطرون عامة الشعب لمعارضة تعاليم آريوس ومحاربتها.

وهذا دفع الاريوسيون الى الهجوم على هؤلاء الرهبان عندما سنحت لهم الفرصة. وكانت فى زمن البابا بطرس الثانى البطريرك الحادى والعشرين الذى خلف القديس أثناسيوس على الكرسى المرقسى بخلاف رغبة الامبراطور فالنس الاريوسى المذهب والذى لم يرجع اليه الرهبان فى أنتخابه، فأراد الامبراطور فالنس هذا أن يمكن أتباع آريوس من القضاء على أتباع المذهب الاصيل الذى وجد فيهم قوة لمقاومة الاستعمار البيزنطى على مصر. وقد أخذ شأن أتباع آريوس فى الافول بعد وفاة الامبراطور فالنيس وبدأت جماعات=

ومن أهم أعمالهم الجلية قيام الرهبان بنسخ الانجيل باللغة القبطية بدقة والعمل على التوسع بنشره بين الناس وزيادة نسخة رغبة فى التخلص من الاراء الدخيلة على الكنيسة لتدعيم القومية القبطية حتى أن الحضارة البيزنطية رغم ما كان لها من الصولة والجبروت

....

= رهبان وادى النطرون فى الانتعاش والهدوء. ولكن عكرصفو هذا الهدوء قيام بدعة أخرى قام بها أحد رهبان الوادى عام ٣٨٥م ويدعى «هيراكس Hierax» فقد خرج بتعاليم مخالفة للمسيحية ومنها أراء خطيرة بان الزواج خطيئة لا تغتفر وأنه ليس هناك قيامة للاجساد بعد الموت ولكن الأرواح هى التى تبعث فقط. واعتمد فى هذا الرأى على ما ورد فى رسالة بولس الرسول الى العبرانيين عن ملكى صادق الكاهن فى وقت سيدنا ابراهيم، وأنه بلا أب وبلا أم بلا نسب بلا بداية أيام أو نهاية حياة، واعتبر روحا رمزيا ونفى وجوده المادى.

وكانت تلك التعاليم ذات تأثير كبير على حياة بعض النساك البسطاء فانقادوا لها فلما سمع بأخبارها الانبا ثيوفيلس البطريرك الثالث والعشرين خشى من استفحال أمرها فسارع بأصدار أوامره الى القديس مكاريوس الكبير ليعقد مجمعا مكانيا لبحث تلك المشكلة وشكل مكاريوس المجمع من بعض شيوخ البرية الذين أستعرضوا ما جاء فى الاصحاح السابع من رسالة بولس الرسول الى العبرانيين وهو قوله «لان ملكى صادق هذا ملك ساليم كاهن الله العلى» الذى أستقبل ابراهيم راجعا من كسرة الملوك وباركة، الذى قسم له ابراهيم عشرا من كل شىء أولا ملك البر ثم أيضا ملك ساليم أى ملك السلام، بلا أب بلا أم بلا نسب لا بداءة أيام له ولا نهاية حياة بل هو مشبه بأبن الله هذا يبقى كاهنا الى الابد ثم أنظروا ما أعظم هذا الذى أعطاه ابراهيم رئيس الاباء عشرا أيضا من رأس الغنائم وأما الذين هم من بنى لاوى الذين يأخذون الكهنوت فلهم وصية أن يشروا الشعب بمقتضى الناموس أى أخوتهم مع أنهم قد خرجوا من صلب ابراهيم ولكن الذى ليس له نسب منهم قد عشر ابراهيم وبارك الذى له المواعيد وبدون كل مشاجرة الاصغر يبارك من الاكبر...» وانتهى المجمع الى تفسير مشكلة ملكى صادق بان تاريخه معروف وأنه من أصل بشرى وأن والديه معروفان فابوه هيراقلاس وأمه أستريا وكانا وثنين ولكن ملكى صادق تحول الى عبادة الله الحقيقى ولما رأى والديه لم يمتنعا عن تقديم الذبائح الى الكواكب دعا الله ان يبيدهم ففتحت الارض فاها وابتلعت عائلته، وتركته بلا أب وبلا أم». وعاش ملكى صادق سبع سنوات بعد هذه الحادثة فى القفار حتى استدعاه سيدنا إبراهيم ليصبح كاهنا لله العلى. وهكذا استطاع البطريرك تيوفيلس أن يقضى على هذه الهرطقة، وهو فى عاصمة البلاد ولم تكلفة هذه المشكلة سوى اصدار أمره الى زعيم من زعماء الرهبان بوادى النطرون لدحضها والقضاء عليها فى مهدها.

وأشتهر الرهبان باهتمامهم بالنواحى العلمية والدراسات العميقة المتصلة بالدين المسيحى من العهدين ومؤلفات زعماء المسيحية الاوائل، واهتموا بتعليم الرهبان الامين ومعرفة الكتب المقدسة. واشتهر البعض بحفظ اجزاء كبيرة من الكتب المقدسة عن ظهر قلب حتى كان ذلك مضرب الامثال بين رحالة الغرب وذاع صيت «سرابيوس». فى كل ما يتعلق بعلم اللاهوت والاكثار من نسخ الكتب ونشرها وتوزيعها على بعض الكنائس الفقيرة فساهموا فى نشر الحركات العلمية. وقد نسب لمكاريوس الاسكندرى تدوين كتابه «قانون رهبانى» من ثلاثين مادة شملت القداسة والتواضع وانسكاب الروح والعمل والصمت والسهر الخ..

وتيارها القوى لم تقو على الحاق أى ضرر أو مساس بالاداب أو القومية القبطية ـ فكان للرهبانية المصرية الاثر الاكبر فى هذا الاتجاه القومى المجيد. ولم تقف جهود الرهبان عند هذا الحد بل أنهم قاموا بنشاط عظيم فى تحويل بعض الوثنيين الى أعتناق المسيحية لاعن طريقة استعمال الشدة أو العظات الكلامية وأنما بسلوكهم الذى كان عظة صامتة لاولئك الوثنيين.

النشاط العلمى والعملى لرهبان وادى النطرون

العمل اليدوى عند الرهبان ضرورى وكما نوه بولس الرسول فى أقواله عن أهمية العمل للعابد المسيحى وهو نفسه كان يعمل ليعيش من ممارسة عمل الخير. كذلك من قوله المشهور «أن من لا يعمل لا يأكل» كما أكد بولس الرسول مرة أخرى أهمية العمل فيما تحدث به الى كهنة كنيسة أفسس فى قوله «أنتم تعلمون أن حاجاتى وحاجات الذين معى خدمتها هاتان اليدان». وقد عاش القديس أنطونيوس فى بداية حياتة الرهبانية دون أن يفطن الى كسب عيشة عن طريق العمل اليدوى. فقبل بعض الخبز الذى أحضره اليه بعض الرفاق. ولكن لما شعر بأن الملل بدأ يتسرب اليه وقراء التعاليم المسيحية التى نادت بأن الكسول لا يأكل بدأ يشغل بعض وقته فى العمل اليدوى فى صناعة السلال. وكان يبيعها له أحد تلاميذه وينفق جزءا منها على قوته والباقى يتصدق به. فأصبح العمل حتميا لا لسد مطالب الحياة بل ولمنع محاربة الشياطين للنساك. وقيل عن القديس «هور» أنه منذ دخوله صحراء نيتريا عاش فى قلايتة التى بناها بنفسه ولم يأكل خبز الكسل طول حياته. ورهبان آمون كسبوا عيشهم من استخراج النطرون وبيعه للقوافل وكان الشيوخ منهم يعلمون الشباب وغيرهم من القادمين عليهم الراغبين فى الرهبنة حولهم طريقة العمل اليدوى كما علم القديس مقار الكبير تلاميذه طريقة ضفر السعف والليف لعمل الحبال. كما عمل منهم فى الافران كما أشتغل البعض منهم أيضا فى غزل ونسيج الكتان اللازم لصنع ملابسهم ومنهم من عمل أسكافيا أو الخدمة فى المطعم لتقديم ما يلزم للرهبان عند تناول الاكلة العامة التى يشتركون فيها أو فى تنظيف الكنيسة أو لخدمة الرئيس أو بعض الاخوة أثناء المرض أو الاشتغال بالزراعة للخضر والفاكهة فى الحديقة أو المساعدة فى بناء القلالى والصوامع الكبير التى أستقبلت جماعات عديدة من الرهبان كما أن هناك من الرهبان من تولى جمع السعف والجريد والاخشاب والاحجار والمواد الاخرى اللازم للبناء.

وتتضح أهمية العمل اليدوى فى قول أحد اباء وأدى النطرون ينصح فيها أحد الرهبان «أهتم بعمل يديك مارسة أن أمكنك ليلا ونهارا لكى لا تثقل على أحد، حتى يكون لك ما تعطى المسكين حسب ما أمر به الرسول، لكى تصرع شيطان الضجر وتزيل عن نفسك بقية الشهوات لان الشيطان منكب على البطالة وهو فى الشهوات كامن. وذات مرة سأل مرة الاب «بيمين» قائلا: قل لى كلمة «فأجابه قائلا: وأظب على عمل يديك ما استطعت ذلك لتعمل منه صدقة لانه مكتوب ان الرحمة تطهر الخطايا. وفى الاسقيط أصبح العمل اليدوى أجباريا ولعدد أكثر من الساعات وذلك بالنسبة لشباب الرهبان على أنهم لم يعفوا من العمل فى بعض أيام القديسين التى كان يمكن أعفاء بعض الرهبان من العمل فيها، والغرض من ذلك ضرورة شغل أوقاتهم حتى لا يفكر الواحد منهم فى أشباع غرائزه الشبابية. وأصبح لزاما على جميع الرهبان سواء عاشوا جماعات أو أفرادا أن يحملوا عملهم اليومى لتقديمه لرئاستهم، التى تولت بيعه والانفاق على سائر الرهبان الذين حملوا معهم مؤنة الاسبوع والخامات اللازمة لعملهم اليدوى عند عودتهم الى قلاليهم بعد نهاية الكنيسة واجتماع الاحد.

الموارد المادية للرهبان وكيفية التصرف فيها

علمنا ما كان يكسبه كل راهب لمعاشة عن طريق العمل اليدوى وهو من الموارد الاساسية لجميع الرهبان ويضاف اليه مورد آخر فى غاية الاهمية وهو ما يكتسبه الرهبان فى فترة الحصاد، اذ عرف عن خروج الراهب «هور» وتلاميذه والقديس مقار الكبير ومعه ثلاثمائة من الرهبان للحصاد فى الضياع القريبة من هذه الجماعات فى أقليمى برفا وغرب الدلتا ويلاحظ أن رهبان سيليا لم يفكروا فى الاشتراك فى هذا العمل لبعدهم عن الاراضى الزراعية نسبيا. ورجع الرهبان بعد الحصاد حاملين أجورهم وقيل أن أغلب الرهبان عملوا بنشاط فى فترة الحصاد حتى بلغ ما حصله الواحد منهم حوالى ثمانين مكيالا من الحنطة وأودعت كميات القمح التى جمعت فى مخازن الجماعة الرهبانية، وفى هذا ما يدل على أن الرهبان تقاضوا أجورهم من عين المحصول.

كذلك ما كان يحمله نصارى مصر من فاخر النذور والقرابين ومحاسن التحف، وما كان يقدمه أغنياء الدولة الرومانية الذين نظروا للرهبان نظرة أجلال وتقدير، وغيرهم من المسيحيين الذين كانوا يحضرون للزيارة تبركا وطلبا للشفاء من بعض الاسقام والتى أشتهر بعض شيوخ

من أولئك الرهبان من أبرائها وكان ذلك من الموارد ذات الاهمية. أذ يروى عن عذراء مريضة جاءت من بلدها تسالونيكى وتركت للقديس مكاريوس الاسكندرى كيسا كبيرا ملئتة بالقطع الذهبية. ثم أن أحد أغنياء القسطنطينية وضع مبلغا عظيما من المال عند قدمى مكاريوس الكبير، ومن الموارد الهامة أيضا والتى أثرت فى أنعاش الرهبان أقتصاديا ما قدمه اليهم بعض أباطرة الدولة البيزنطية مثل الامبراطور أركاديوس الاثناسيوسى المذهب فقد أرسل مكتوبا الى واليه بمدينة الاسكندرية يأمره فيه أن يدفع للقديس أرسانيوس الذى كان معلما للامبراطور قبل ترهبة فى وادى النطرون ضريبة سنة ليصرفها كيف شاء فشكره القديس أرسانيوس وأردف بقوله، «ماكتبتهم به الى من المال فليأمر جلالتكم أن يقسم على ذوى الحاجة وأبناء الديارات، ورب المجد يجازيك عن ذلك» ثم توالت بعد ذلك أعطيات الاباطرة المسيحيين للرهبان حتى أننا نجد فى القرن الخامس الميلادى أمرا من الامبراطور زينون سنة ٤٩١/٤٧١ ميلادية بان ينقل الى دير أبى مقار جميع ما يحتاجه الرهبان من قمح وزيت ونبيذ وغيره مما يلزم أصلاح القلالى.

وهناك منبع اقتصادى آخر وهو ما أحضره الراغبون فى الرهبنة من مال جمعوه من بيع أملاكهم وقدموه لشيوخ الرهبان ليبقى تحت تصرفهم تشبها بما فعل المسيحيون الاوائل فى العهد الرسولى الذين باعوا أملاكهم وقدموا أثمانها للرسل ليكون كل شىء فى حياتهم مشتركا بينهم، وأن الراهب «أبو لونيوس» الذى أشتغل بالتجارة فى شبابه بالمدينة وربح منها أموالا طائلة، عندما فضل حياة الرهبنة با ع كل تجارته واشترى بمالة بعض حاجيات أخذها معه الى خمسة الاف راهب فى نيتريا وعاش هناك راهبا مدة عشرين عاما.

ونوه الرحالة الذين زاروا وادى النطرون ان رهبان نيتريا صنعوا الكعك وباعوه للزائرين، ويقصد به قطع صغيرة من الخبز الذى يخبز بعد تعريضه للشمس وهو المعروف الان بالعيش الشمسى. ومن مجموع تلك الموارد كان ينفق الرهبان على أنفسهم كما كانوا يقدمون الطعام لزائريهم عملا بتعاليم الانجيل الداعية الى أضافة[1] الغرباء وكذلك أعطاء الصدقات الى

....

(١) الضيافة والزيارة عند الرهبان من التقاليد الهامة التى يعهد بها رئيس الجماعة الرهبانية والمشرف الاقتصادى فهو يستقبل الغرباء والراغبين فى الشفاء وأيوائهم فى بيت الضيافة الواقع بجوار الكنيسة وهو المرشد لهم بالتعليمات الواجب أتباعها فى سلوكهم مع الرهبان ـ ويمتاز مكان الضيافة بأعداده بكل وسائل الراحة للمرضى والزائرين وفية فئة من الرهبان خصصة شيخ الرهبان للقيام بخدمة المرضى=

الفقراء فقدموا كميات كبيرة من غذائهم ومن الاقمشة التى نسجوها الى فقراء المنطقة المحيطة بهم كما أرسلوا سنويا سفنا الى الاسكندرية مشحونة بالقمح لتوزع على المسيحيين المسجونين فى سجونها والغرباء والمحتاجين فى عاصمة البلاد.

ومما أطلعنا عليه من معلومات هامة فى هذا الصدد الرحالة «روفينوس» الذى زار نيتريا حوالى عام ٣٧٤ ميلادية فيذكر أن حالة الجماعات الرهبانية الاقتصادية فى وادى النطرون قد أنتعشت فى النصف الثانى من القرن الرابع انتعاشا كبيرا وذلك عن طريق أضافة المنح والهبات السابق ذكرها الى الموارد الناتجة من عمل الرهبان أنفسهم حتى أصبحت الجماعات الرهباية تعطى للكنيسة بسخاء.

وسائل أدارة شئون جماعات الرهبان بالوادى

كان لكل منطقة من جماعات الرهبان رئيسها الخاص وله سلطة الاشراف على الادارة العامة فيها وأذا زادت الاعداد التى كانت تلتف حوله من النساك ترتب على ذلك زيادة المطالب وكثرة الاعباء التى تتطلبها تلك الزيادة المطردة فيتحتم ضرورة تعيين مشرف أقتصادى

= والزائرين، وفى نيتريا اشتهر الراهب «أبو لونيوس» بأنه اتخذ مهنة الطب وسيلة بقصد خدمة الآخرين وللزائر أن يقيم فى بيت الضيافة مدة لا تتعدى ثلاث سنوات، ومن العرف والتقاليد بين الرهبان يقضى بترك الزائر المقيم فى بيت الضيافة فى الاسبوع الاول بدون عمل، وبعدها يعهد اليه بالعمل فى الحديقة أو فى الفرن أو فى المطبخ أما اذا كان من كبار القوم فانهم يعطونه كتابا يقرأه ـ ويظهر أن فرصة الاسبوع الاول أعطيت ليستريح الزائر من مشاق السفر غير أن من الشروط الهامة التى فرضت على الزائر حتى فى هذا الاسبوع، هو الا يتحدث مع واحد من الرهبان من الصباح حتى وقت الظهيرة ـ وذلك حتى لا يشغل الرهبان عن التفرغ لصلاتهم وعبادتهم. والظاهر أن مضيفة سليا لم تضع لزائريها كل تلك الشروط لان أكثر الغرباء لم يفضلوا الاقامة بها مدة طويلة.

أما فى قلالى الرهبان أنفسهم فأن أكثرهم اهتموا بزائريهم وخصوصا أولئك الذين وفدوا اليهم رغبة فى الاستماع الى تعاليمهم. وقد أتسعت القلالى فى نيتريا وشيهات حتى كانت كافية لاستقبال عدد من الزائرين. وأصبح من التقاليد اذا دخل الزائر قلاية الراهب قام للتو بغسل قدمية وقدم له الطعام فى الساعة التاسعة من النهار. أما اذا جاء الزائر من جهات بعيدة فأن الراهب يضع له المائدة فى الحال.

ويحرص الراهب على الاحتفاظ بجزء من طعامه فى قلايتة لاى زائر يطرق بابه، وحسب وصاية «القديس موسى الاسود» لرهبانه لوجوب احتفاظ الراهب بنصف تعيين الخبز الذى يصرف اليه ما بعد العصر خشية حضور أحد الزائرين كما أوصى بأن يجهز الراهب للزائر حساء من الفول بعد تقديم بعض الخضر وهى عادة من أوراق الكرنب. ويراعى أن ما كان يقدم للضيوف هو طعام بسيط من عيش جاف والملح وحساء وبعض الخضر ولا تقدم الفاكهة الا نادرا ولا يتذوقها الرهبان الا مرات قليلة طول العام.

ليعمل على تنمية الايرادات وتدبير ما يلزم للصرف عليها من أمثال أولئك المشرفين الاقتصاديين الراهب «أوريجين» الذى تولى فى عهد رئاسة القديس بامو فى نيتريا. وفى جماعة القديس مقار الكبير الذى خلفه لرئاستها تلميذه بافنوتيوس فى منطقة شيهات كان الراهب يوحنا، وكان المشرف الاقتصادى يتعهد بالاشراف على مخازن الجماعة التى يودع فيها القمح الذى كان يحضره جماعة الرهبان بعد عودتهم من الحصاد ومخازن المواد الاخرى من الحبوب والزيوت اللازمة لحاجات الرهبان والشموع ومواد البخور وكل ما يلزم لشئون الدير، كما كان يشرف على أدارة الافران والمخابز والمطابخ بتلك الجماعات الرهبانية.

وكانت هناك سبعة أفران فى منطقة نيتريا لتجهيز الخبز اللازم لجماعة الرهبان العديدة كما كانت تتعهد بتقديم الخبز أيضا للنساك الاوائل فى سيليا وظل هذا التعهد لمدة طويلة ويظهر أنه لم يتوقف الابعد رئاسة الانبامكاريوس الاسكندرى لجماعة سليا لفترة وجيزة ونظرا لكثرة الاعمال وزيادتها كان يساعد المشرف الاقتصادى فى أعماله عدد كبير من الرهبان. ومن طريف ما أتبع من نظام عام سليم يدعو للاعجاب والتقدير لتلك الجماعات الرهبانية هو مراعاة طريقة الاكتفاء الذاتى بحيث لا تزيد مصروفات الجماعة على ايراداتها مع الحرص بدقة فى الوقت نفسه على تخصيص جزء من هذه الايرادات للتصدق منه على الفقراء والمحتاجين.

رهبنة وادى النطرون وتأثيرها فى العالم الخارجى

كان لهذه الرهبنة أثرها العظيم فى العالم الخارجى وسرى تيارها خارج مصر وأنتشر فى كثير من بلدان الغرب والشرق، واتخذ كل مؤسس لها فى تلك البلاد نظاما وأشكالا خاصا تتناسب وظروف البيئة التى نشأت بها فأخذ الرهبان على عاتقهم نشر المسيحية فى تلك البلاد والدأب على حمايتها ونشر ثقافتها فى تلك الآفاق والمحافظة عليها من أن تمتد اليها أيدى البرابرة تطمس معالمها. وأول بادرة من آثارها فى أقاليم الغرب يرجع غالبا الى «الانبا اثناسيوس البطريرك العشرين» حيث ذهب الى أوربا مرتين الاولى عند أبعاده عن كرسيه بين ٣٣٨/٣٣٥م حيث قضى هذه المدة فى مدينة «تريف Treve» على شاطىء نهر الموزل بفرنسا حيث كتب بعض أخبار رهبان مصر وخاصة القديس أنطونيوس وهذه الحادثة ترتبط بقيام «الرهبنة الغالية» «فى فرنسا لان القديس» «مارتن Martin» أسقف مدينة «تور Tours» درج

على حياة أثناسيوس الرهبانية ثم أسس جماعة رهبانية حوالى ٣٦٢ ميلادية قرية من «بواتية» وتبعها بأخرى فى مدينة «تور» بعدما صار أسقفا لها عام ٣٧٢ ميلادية وقد وصل رهبان تلك الجماعة الاخيرة ثمانين راهبا قضوا حياتهم فى صلوات طويلة وصوم قاسى وسكنوا الكهوف والاكواخ وجمعوا فى حياتهم النسكية بين الانفراد والشركة ولم يجتمعوا الا لتناول الطعام والصلاة فى الكنيسة وهى طريقة أشبه ما كان يحذو به رهبان وادى النطرون وفى غيره من أماكن الرهبنة المصرية.

اقصاء الانبا اثناسيوس للمرة الثانية، الي أوربا ٣٤٠/٣٤٩م. وفى تلك المرة عمل على نشر النظام الرهبانى وقد توجه الى روما ومعه أثنان من فطاحل رهبان وادى النطرون وهما أمونيوس وايزيسيدور الراهب المشرف على بيت الضيافة وفى روما نشروا أخبار أنطونيوس وطريقة الرهبنة فى مصر. وقد أقاموا الثلاثة بمنزل أرملة مسيحية تدعى «مارسيلا» وقد أفاض أثناسيوس فى الكلام عن الارامل والعذارى فى مصر عن حياة الرهبنة المثالية ولذلك لا نعجب من كثرة وجود بيوت للراهبات والعذارى فى روما. وكانت بداية النواة الاولى لانتشار أديرة النساء حيث وضعت «مارسيلا» بدء تلك الحياة وأجتذبت كثيرات منهن ولبعضهن من نساء الطبقة الراقية اللائى بعن جميع حليهن ومتاعهن وقدم لمؤسسى الرهبنة ثم انخرطن فى الحياة النسكية.

ثم أسكن الراهب «أمبروز» حياة رهبنة في ايطاليا وأصبح أسقفا لميلانو وكانت شخصيته تفوق نفوذ الاباطرة، كما أصبح «يوزيب» أسقفا لمدينة فرساى بفرنسا، ولم يكد ينتهى القرن الرابع الميلادى حتى امتلات جهات كثيرة من أيطاليا وجزر البحر التيرانى بالجماعات الرهابنية. ومن مشاهير الرحالة الذين كان لهم أكبر الاثر فى نشر الرهبنة المصرية وتعاليمها ودون أحاديث وعادات الرهبان هو المؤرخ الرحالة «بلاديوس Palladius».

وقد ولد فى غلاطية عام ٣٦٤ ميلادية وترهب فى فلسطين وظل بها ثلاث سنوات ثم زار الاسكندرية عام ٣٨٧ ميلادية وهناك قابل أشهر رهبانها وعاش فى كهف بقرب الاسكندرية. وقد راعه ما جمعة عن رهبان الاسقيط ونتريا وسيليا حيث ظل بها حوالى ثمانى سنوات نعم فيها بعشرة القديس مقار الاسكندرى وتحدث مع رهبانهم ثم رجع للاسكندرية عام ٤٠٠م بعدما زار بعضا من الجماعات الرهبانية والاديرة فى الوجة القبلى، ووقف على كثير من حياتهم وفضائلهم وعاداتهم وتقشفهم، ثم رحل الى فلسطين حيث تعرف بالقديس «جيروم» وأقام معه

مدة فى أحد الاديرة وبعدها رحل الى الاستانة لزيارة يوحنا فم الذهب بطريرك القسطنطينية وقد نفى فى فترة اضطهاد يوحنا فم الذهب حيث أستفاد من فترة النفى هذه حيث قام بفائدة كبرى للتاريخ حيث عكف على أخراج مؤلفة المشهور «الفردوس» أو «بستان الرهبان» الذى يعتبر من المع المؤلفات الهامة عن الرهبنة والديرية فى مصر، وأهم شخصياتها ونظمها وقوانينها وأقوال رهبانها وأحاديثهم. وهو الكتاب الذى أثر وأعطى للعالم المتمدين أكبر الفضل فى تعرف نظم الاديرة والرهبنة وما تقوم علية من حياة نبيلة سامية وتعاليم فاضلة. وقد عكف الرهبان على دراسته وفهم ما فيه وعقدت المناقشات الخاصة للوقوف على ما سطر فيه من تعاليم وارآء.

الرحالة الغربيون الذين ساهموا فى نشر الرهبنة

كان للرحالة من آباء الغرب فضل كبير فى نشر الرهبنة مثل:

الراهب الفرنسى «يوحنا كاسيان» وقد تولى كتابة تراجم الاباء المصريين وتعاليمهم والقوانين التى وضعوها وحاول أن يطبق هذه القوانين الرهبانية المصرية على الديرين اللذين شيدهما فى جنوب فرنسا على مقربة من مرسيليا.

ثم «روفينوس» وكان قسا فى مدينة «أكوليا» وزار مصر حوالى عام ٣٧٢م ومكث مدة فى وادى النطرون حوالى عامين حيث وقف هناك على تعاليم آباء البرية العظام وأنظمتهم وفضائلهم وكتب تاريخه عن الرهبان المصريين فنشر أخبارهم بين أهل الغرب. وقد ترك روفينوس وادى النطرون نتيجة قيام موجات الاضطهاد «الاريوسى». وكذلك القديس «جيروم» وهو من رحالة آباء الغرب الافاضل ويعتبر حلقة أتصال بين الشرق والغرب وهو الذى نقل ما عرفة من نظم «الانبا باخوميوس» عام ٤٠٤م الى اللغة اللاتينية وأعتبرها آخر مرحلة منظمة لحياة الرهبنة فبادر الرهبان الايطاليون الى اتخاذها دستورا لهم. ثم كتب قانونا للراهبات بعث به الى الراهبة «مارسيلا» بقصرها الذى امتلأ بالعذارى فى روما. وكانت زيارة «جروم» هذا الى مصر فى أواخر القرن الرابع وكانت تصحبه الراهبة الرومانية «بولا» ومكث الاثنان عامين بوادى النطرون ثم أنتقلا الى فلسطين حيث أسست هناك ديرا من مالها الخاص.

وقد ظلت الرهبنة والديرية فى أوروبا بأشكال مختلفة ولم تتخذ حالة الاستقرار الى أن أتخذت طابعها الديرى الخاص على يد القديس «بندكت» ومعناه المبارك فى القرن السادس

للميلاد وقد عرف من تاريخه أنه كان يعيش حياة الرهبنة فى كهف «سبياكو Subiaco» على بعد أربعين ميلا من مدينة روما واجتمع حوله بعض الرهبان ثم أعتزلهم الى «مونتكاسينو» عام ٥٢٠م. ثم وضع نظامه الجديد الذى أصبح قانون الديرية فى أوروبا كلها وفرق فيه بين الديريين والرهبان المتوحدين. وأهمية قانونه أنه قانون عام مشترك قام على تنفيذه رئيس وليس فيه منافسة بين الرهبان فى الحياة النسكية مثل رهبان مصر بل كان بعيدا عن القسوة ومعقولا خصوصا للبادئين فى الحياة الرهبانية. وليس معنى ذلك أنه لم يكن مشتملا على شىء من جفاف فى بعض شروطه ومنها:ـ

١ـ عدم مغادرة راهب الدير لديره طوال أيام حياته الا بأذن من رئيسه.

٢ـ لا يخرج الراهب على القواعد الرئيسية للحياة الرهبانية والديرية ومنها الفقر الاختيارى والتواضع والطاعة وقد جمع الراهبات والعذارى فى أدارة خاصة بهن ونظمت حياتهن وفق قانون وتولت أخته «أسكولستيكا Scholastica» أدارة أول واحد من هذه الاديرة.

وقد أثر قانون «بندكت "Benedict"» [١] فى مدينة العصور الوسطى. وكان من أقوى البواعث على نشر الديانة المسيحية بين البرابرة وقتئذ. فأينما انتشر قانونه تغير وجه المجتمع والاقليم تغيرا تاما وكانت تقطع الغابات وتجفف المستنقعات وتبنى المدارس وتقام الملاجىء والمستشفيات. وأصبحت الاديرة أماكن للتبشير بالمسيحية فى البلاد الوثنية ومجمعا لانتشار العلوم والفنون والحرف والصناعات.

ومن العوامل الهامة التى ساعدت على نجاح نظام القديس «بندكت» وانتشار حركته انتشارا عظيما، هو أنه بدأ بقوانينه فى زمن أخذت فيه الرهبانية والديرية فى الاحتضار فى روما وفرنسا بسبب المنافسة بين الرهبان فى النسك رغبة فى الوصول الى المثل العليا. وكان بندكت نفسه من هؤلاء الرهبان الذين نافسوا النساك فى ذلك المضمار فى كهوفهم الا أنه فطن الى أنقاذ هذه الحياة من الفناء أو مما كان يهددها من الافول فعمل على تقوية ذلك البناء الموشك على التداعى والانهيار بأقامة النظم والقوانين التى وضعها على أنقاضه بما يلائم الظروف

---

(١) القديس «بندكت» هو مؤسس الرهبنة فى الغرب كان شديد الاعجاب بالرهبنة القبطية، وما اتسمت به من روائع المثل العليا حيث قال عبارته المشهورة تقديرا لها ولآدابها «أن من يبغى الوصول لذروة الكمال المسيحى يجد خير نموذج يحتذيه فى حياة وسير الآباء المصريين».

الغربية ويتمشى مع الطبيعة الانسانية وكان هذا السبب فى نجاح نظريته وظلت قوانينة الاساس الذى شيدت عليه النظم الديرية فى أوروبا.

كذلك أنتقلت الرهبنة على يد الانبا أثناسيوس الى شمال أفريقيا عن طريق «القديس أغسطينوس» الذى يعد من أعظم فلاسفة الكنيسة الغربية فبعد ما ترك روما عام ٣٨٨م وعرف الرهبنة ونظامها وعين قسا فى شمال أفريقيا. ولما أصبح أسقفا عام ٣٩٦م أنشأ نوعا من الرهبانية فى أبروشيته لا بين الرهبان فحسب بل وبين النساء وأصبح لهن الاديرة الخاصة بهن حسب ما وضعه لها من الانظمة والقوانين وانتعشت حركات الرهبنة أنتعاشا كبيرا بين الجنسين فى القرن الخامس للميلاد.

وكان القديس باسيليوس الكبير هو المؤسس للأديرة فى جبل أتوس ببلاده فى اليونان. وكان قد جاء الى مصر فى القرن الرابع الميلادى وعاش سنوات عديدة فى أديرة الأنبا باخوميوس فى الصعيد ونقل نظامها وأتخذ من قوانينها وتعاليمها مثلا أتبعها فى الأديرة التى شيدها فى بلاده.

ومن صفحات التاريخ المجيدة عن الرهبان القبط ومبشريهم أنهم وصلوا فى كرازاتهم بالمسيحية الى جهات بعيدة واجهوا فيها أخطار الموت ببسالة وبطولة لا تعرف الخوف فمنهم من وصل الى سواحل فرنسا الجنوبية والى بلجيكا حيث وصف المؤرخ الألمانى «هرناك» كيف تمكن الأنبا أثناسيوس وهو فى منفاه فى بلجيكا على نشر رسالة المسيحية وتأسيس كنيسة انتعشت هناك. وفى سويسرا فى مدينة «زيورخ» أشتهر شهداء أقباط من بين الذين بشروا بالمدينة. كما اشتهر فى سويسرا أيضا «القديس موريس» وأخته «وأرينا» وهى التى وجهت اهتمام السويسريات الى العناية بنظافتهن حتى يقال أنه مازالت تصور هناك هذه الأخت وهى حاملة مشطا بدائيا أى «فلاية» وأبريق ماء وفى ألمانيا استشهد عام ٢٦٨م حوالى ثلاثة آلاف من أبناء الصعيد من فرقة طيبة ممن رحلوا بقصد التبشير هناك. ولا تزال قبورهم معروفة فى مدينة «تريز».

وفى جزيرة قبرص أسس الرهبان القبط على التلال بالقرب من قرية «بلاتان» ديرا أطلقوا عليه اسم القديس مقار. كما ذكر العالم الأنجليزى «برمستر» فى بحث نشره فى مجلة جمعية الآثار القبطية أنه كان للأقباط هناك بقبرص أسقف ويمتد اختصاصه على قبرص ورودس. كما

ذكر الدكتور «الفريد بتلر» فى كتابه عن الكنائس القبطية القديمة أن المبشرين القبط وصلوا فى رحلاتهم الى الجزر البريطانية ووصل الرهبان المصريين الى أرلندا فى القرن الرابع الميلادى حيث تركوا آثارهم هناك أذ يوجد الى يومنا هذا فى بلدة «أوليدة ديزرت» بأيرلندا قبور سبعة من الرهبان المصريين ولا تزال تذكر أسماؤهم فى الصلاة بكنيسة تلك الجهة كما يذكر اسم القديس «باتريك» بأنه شفيع أيرلندا أما فى أسبانيا فان القانون الذى أصدره مجمع «سرقسطة» عام ٣٨٠م فيه ما يدل على انتشار الرهبنة المصرية هناك. وفى هذا القانون ما يحرم على رجال الأكليروس أن يصبحوا رهبانا.

الرهبنة فى فلسطين: انتقلت الرهبنة هناك على نظام القديس أنطونيوس. وأول من أسسها هناك هو الراهب «هيلاريون» وكان من أهل غزة وولد بها عام ٢٩١م. وتلقى تعليمه ليعيش حياة النسك ولنشر الرهبنة بعد أن مهدت لها جماعات أشتهرت بتنسكها أطلق عليها «أبداء وبنات القيامة» فنشرت الرهبنة فى كثير من جهات فلسطين. «ومن أخبار ميلانيا» الرومانية أنها بنت كثيرا من القلالى فى مدينة أورشليم. وفتحت أبوابها لاستقبال الرهبان المصريين الفارين من الاضطهاد الرومانى كما أنها أنفقت عليهم الكثير من مالها.

الرهبنة فى العــــراق: ثم قـامت الرهبنة والديرية أيضـا بالعـراق على يد الراهب «أوجين المصرى» حوالى النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى. وكان قد تتلمذ على يد القديسين أنطونيوس وباخوميوس. فبنى ديرا على مقربة من مدينة الموصل كما كون جماعات رهبانية شمال بلاد العرب وفى أرمينيا وفارس.

ثم نشأت جماعة رهبانية على جبل عزلا بجوار «نصيبين» عام ٥٠٤م على يد راهب يدعى «ابراهيم». وقد صار رهبانه على نفس النظم والزى والعادات التى سادت بين رهبان وادى النطرون كذلك انتشرت الرهبنة فى أسيا الصغرى وكان الفضل فى نشرها هناك الى القديس باسيليوس الكبير. وكانت الرهبنة فيها على نظام وادى النطرون. وكان يغلب على نظام القديس باسيليوس طابع الجماعة أو النظام الديرى. وكان يتبع الجماعة الرهبانية ملاجىء ومدارس للأطفال.

الرهبنة فى سوريا: نشأت أيضا فى القرن الرابع للميلاد واتخذت طابعا خاصا مع أنها تأثرت بالنظام الأنطونى. وأهم مظهر فى حياة الرهبان المعروفين «بالعمـوديين» نسبة الى سمعان

العمودى وهو مؤسسها وقد تأثر بالرهبنة المصريةى الا أنه اتخذ الحياة فوق عمود أساسا لنسكه الزائد وقلده فى طريقته بعض الرهبان فسموا بالعموديين.

وقد ذاعت شهرتهم بسبب زهدهم الشديد وتنافسهم فى حياة النسك وبعضهم اتخذ وسائل تصل الى درجة الشذوذ مبالغة فى اذلال الجسد واضعافه لتسمو الروح مثل حمل الأحجار أو الحديد وغيرها. فكان نسكهم وما اشتهروا به من فضائل سبباً فى تحويل كثيرين من الوثنيين الى المسيحية. وكانوا سندا للدفاع عن الكنيسة عندما تعرضت للبدع التى شنها الهراطقة ضدها فوقفوا صفا واحدا مع رهبان وادى النطرون لمناصرة الكنيسة ومبادئها الأرثوذكسية.

والشاهد أن رهبنة وادى النطرون كانت من المفاخر التى جادت بها عباقرة الآباء من الرهبان المصريين الذين أناروا بفضائلهم وتعاليمهم أغلب ممالك المسكونة. وقد بلغت ذروة هذه الرهبنة فى القرن الرابع وأوائل الخامس للميلاد. وما سبق تلك الفترة من الزمان كان عصر الاستشهاد الذى جاء بعده العصر الذى امتاز بأمانة الشهداء وايجاد بيئة روحية تمتاز بالسمو والكمال الأنسانى وأنكر فيه الفرد ذاته.

وقد اجتذبت تلك المناطق الصحراوية حيث عمرت بآباء الرهبان المصريين كثيرا من جماعات الشعوب المختلفة من السريان والأحباش والفلسطينيين واليونان والأرمن واللاتين وسكان شمال أفريقيا وغيرهم لينهلوا من ينابيع تعاليمهم الصافية وليحذوا حذو طرقهم المستقيمة. وكان لكل أسرة من جماعات تلك الشعوب معلم من جنسه يقدر على التفاهم مع أبناء جنسه وارشادهم. وهذا النظام هو الذى ورثته الجامعات فى العصور الوسطى حيث انتشر فى رحابها نظام الأمم وأيضا نظام الأروقة فى الجامعة الأزهرية.

ظلت مناطق وادى النطرون منارات لامعة تشع بنورها وتعاليمها على أغلب ممالك المسكونة الى أن ظهر قبيل أواخر القرن الخامس الميلادى وباء آدمى لعين تعرض له الوادى بهجمات وحشية من قبائل العربان والبربر المتوحشة وتعرض رهبانه للسلب والنهب والقتل وهدمت القلالى واحرقت البيع وما حولها. وقد اهتم البطاركة منذ القرن السادس بضرورة اعادة ما تخرب من تلك الأديرة ومبانيها واعادة تشييد القلالى للرهبان والعمل على أعادة تعميرها بالرهبان بعد هروب أغلبها منها. وقد أخذ الانتعاش يعود الى تلك المناطق الى حد ما. وبالرغم مما بذل من وسائل عديدة لانعاشها الا أن المنطقة لم تصبح لها تلك الهيبة والعظمة التى

كانت لها بالقرن الرابع. وقد بدأ التفكير بعد ذلك فى العمل على تحصين هذه الأديرة ذات التاريخ الخالد الأثيل ضد غارات اللصوص والبرابرة المتوحشين الذين لم يكفوا عن تكرار هجماتهم لتلك المنطقة ولكن هيهات لها أن تعود الى مكانتها الأولى.

أثر الرهبان المصريين فى الكرازة ونشر المسيحية

لا شك فى أنتشار المسيحية فى كثير من بلدان الشرق كان على أيدى المبشرين من الرهبان المصريين، وكانت الكنيسة القبطية توالى تدعيم بعثاتها بأساتذة من المعلمين من مدرسة الأسكندرية اللاهوتية. فساعد ذلك على نجاح كرازتهم. وخصوصا مع الحماس الدينى والتفانى والنشاط الذى أظهره رهبان القبط وما أمتازوا به من المثل العليا التى شجعت شعوب تلك البقاع على أعتناق مبادئهم واتباع تعاليمهم. وكانوا هم الذين اهتموا بتنظيم الكنائس والأديرة كما توسعوا فى نشر المسيحية التى ظهرت آثارها فى منطقة ليبيا حيث أنتشرت الأبروشيات فى الخمس مدن الغربية مما يدل على انتعاش الكنيسة فيها منذ منتصف القرن الثالث للميلاد.

وقد ذكر أوسابيوس القيصرى عن قيام «بنتينوس» بالتبشير فى بلاد الهند. والظاهر أن العلاقة بين الكنيسة المصرية والهند ترجع الى عهد طويل. فقد ورد فى كتاب تاريخ البطاركة «لساويرس ابن المقفع» حضور كاهن هندى الى مصر فى زمن البطريرك سمعان الأول فى أواخر القرن السابع للميلاد يطلب منه رسامة أسقف للهند.

أما عن بلاد العرب فقد ورد عن المؤرخ الألمانى «هرناك» أستنادا على قول أوسابيوس ما يؤكد زيارة العالم الكبير «أوريجانوس» للبلاد العربية وقيادته لمجمع فى «بصرا».

أما عن بلاد الحبشة فقد دخلت المسيحية فيها منذ منتصف القرن الرابع الميلادى على يد «فرومنتيوس» أى رجل الله. وظاهر من معنى اسمه أنه كان مصريا وقد احترف مهنة التجارة فى مدينة صور ويجوب البحار شمالا وجنوبا. وأول من أعتنق المسيحية فى بلاد الحبشة كان ملكها ثم تبعه بعد ذلك رجال البلاط ثم بدأت تنتشر بين أفراد الشعب. فكان دخول المسيحية فى بلاد الحبشة على هذه الصورة على خلاف ما كان يحدث فى البلاد الأخرى حيث كانت تبدأ طريقها الى الشعب فى أول الأمر ثم يعتنقها رجال القصر ثم الملك.

ولما عاد فرومنتيوس الى مصر طلب من الأنبا أثناسيوس بطريرك الأسكندرية وقتئذ أن يرسل أسقفا لرعاية المسيحيين فى بلاد الحبشة. فجمع الأنبا اثناسيوس مجمعا من الأساقفة الأقباط

وتشاوروا فيما بينهم عمن يرسلونه اليها فأجمعوا على سيامه فرومنتيوس نفسه وأرسلوه أسقفا على عاصمة الحبشة «اكسوم» فى ذلك الوقت. وقد هاجر الى الحبشة وبلاد النوبة كثير من الرهبان بدافع الغيرة على نشر الدين المسيحى بحسب عقيدتهم ومذهبهم بين شعوب لم يتطرق الجدل الدينى بينهم. فكان لأولئك الرهبان المهاجرين الى الحبشة الفضل فى نشر المسيحية فيها وتأسيس الأديرة وتثبيت العقيدة الأرثوذكسية. وقد أخذت الأديرة فى الازدهار هناك فى القرنين السادس والسابع للميلاد. وشرع الرهبان فى التفرغ الى دراسة الرهبنة وتفهمها معتمدين فى ذلك على ما يترجمونه من الكتب القبطية أو اليونانية الشائعة عند الرهبان الأقباط فى مصر. ومنذ القرن الرابع الميلادى والكنيسة المصرية ترسل مطرانا الى الحبشة كرئيس للكنيسة الأثيوبية وكان له فيها مكانة ممتازة.

الكرازه فى السودان: ذكر المؤرخ يوحنا الافسسى أنه فى القرن السادس للميلاد كان البطريرك القبطى «ثيوديسيوس» منفيا فى القسطنطينية. وفى ذلك الوقت أرسل «يوليانس» الى بلاد النوبة لتبشيرها بالمسيحية وذلك بمساعدة الأمبراطورة «تيودور» التى كانت تؤمن بمذهب الكنيسة المصرية على عكس زوجها الامبراطور «جوستينيان» الذى كان شديد التعصب والأضطهاد لذلك المذهب وأتباعه. فوصل يوليانس الى النوبة حوالى عام ٥٤٣م. وبشرها بالمسيحية فرحب به الملك وأتباعه فعمدهم وعلمهم الكثير عن المسيحية وفضائلها. وحذرهم من أخطاء مذهب حزب الأمبراطور. فلما وصلت بعثة الأمبراطور بعد ذلك لم يقبل ملك النوبة رسالتها ورفض بقائها فى النوبة وعادت تجر أذيال الخيبة والفشل.

ثم تواليت بعد ذلك البعثات التبشيرية من طرف الكنيسة المصرية. وكان من أشهر المبشرين الذين ذكر أسمهم بالفخر بين القبط هو «لونجينوس» الذى عرض نفسه لأخطار الموت وسار فى رحلة طويلة شاقة على الجبال المحاذية للبحر الاحمر حتى وصل الى مملكة «علوه» عند ملتقى أنهار عطبرة والنيل الأزرق والنيل الأبيض وكانت عاصمتها مدينة «سويا». وتقع بالقرب من مدينة الخرطوم الحالية. فقام «لونجيلوس» هذا بعد وصوله اليها بتبشيرها بالمسيحية فآمنت بمذهب الكنيسة المصرية. وقد حاول الأمبراطور «جستنيان» أن يستميلهم الى مذهبه فلم يقبلوا اليه حتى بعد استعمال القوة معهم لتنفيذه.

وقد ظلت الكنيسة القبطية توالى ارسال الأساقفة وكهنة الى بلاد النوبة وعلوة وكذلك الى مملكة أخرى تتوسطها أسمها «مقرة» اتحدت منذ القرن السابع للميلاد مع النوبة وصارت مملكة واحدة عاصمتها دنقلة القديمة. وقد استمرت المسيحية فى النوبة تابعة للكنيسة القبطية حتى نهاية حكم المماليك.

أديرة وادى النطرون الباقية اليوم

* دير الأنبا بيشوى
* دير السريان
* دير البراموسى
* دير الأنبا مقار

كان وادى النطرون يزخر بأعداد كبيرة من الأديرة والقلالى فى الأزمنة القديمة حيث ذكر الرحالة «روفينوس» الذى زار الوادى حوالى عام ٣٥١م أنه كان فى الوادى المذكور نحوا من خمسين ديرا كما نوهنا سابقا. ولكن أحداث الزمان والغزوات المتلاحقة التى سبق الكلام عنها أبادت الكثير من أديرة ذلك الوادى وتراثه ولم يبق به الآن من الأعداد الكثيرة التى ترعرعت بين أرجائه سوى أربعة منها وهى:-

(١) ديرى الأنبا بشوى. (٢) دير السيريان.

(٣) دير البراموس. (٤) دير الأنبا مقار.

ويجدر بنا أن نتناول كل دير من هذه الأديرة بلمحة وجيزة عن تاريخه وآثاره الهامة.

أولا. دير الأنبا بشوى

ويعتبر من أشهر أديرة وادى النطرون الأربعة، ويرجع انشاؤه على أغلب الاحتمالات الى أواخر القرن الرابع الميلادى. كما أعيد ترميمه عام ٦٤٥م على يد الأنبا «بنيامين الأول». كما أعيد أيضا بناؤه حوالى عام ٨٤٠م ويعتبر المبنى الرئيسى للكنيسة يرجع الى هذا التاريخ. ومنشىء الدير المذكور هو «الأنبا بشوى» وكان تلميذا للقديس مقار أحد زعماء النسك فى

الوادى. وقد اشتهر بشدة ورعه وتقواه وقد وهب شبابه للتعبد وأصبح ناسكا ذائع الصيت. وسرعان ما التف حول صومعته كثير من التلاميذ الذين شغفوا بحياة الرهبنة. ومنهم أحد السريان المقلب «بأفرام» وهو ناسك وفد من سوريا وسعى يبحث عن الأنبا بشوى هذا بسبب ما سمع عنه وعن روعه وقداسته. ويروى أنه بينما كان يتحدث مع الأنبا بشوى داخل قلايته ولم يكن يعرف أحدهما لغة الآخر لاختلافهما فى الجنس الا أنهما فهما كل منهما الآخر بالهام سماوى. كما يروى أيضا أن الأنبا أفرام هذا كان قد ترك عكازه خارجا بجوار قلاية القديس. ولما أنصرف من عنده خارجا بعد فترة من الزمن وجد أن عصاه قد غرست فى الأرض وتأصلت فى التربة ونمت واورقت الأغصان والأوراق والزهر وأصبحت شجرة من خشب التمر هندى. ومازالت الى اليوم فارعة مزهرة وتوجد خارج الهيكل القبلى للكنيسة وتنسب الى أفرام هذا السريانى الجنس. فهذه الشجرة التى نشاهدها اليوم فى دير السريان كانت مكان القلاية الأولى للأنبا بشوى المذكور.

أما عن بوابة هذا الدير فتعد من أحسن مثل لها فى جميع أديرة الوادى الأخرى ومنها يصل الزائر الى القصر أو «الحصن» مباشرة وهو من أمتن القصور فى كل الوادى. وهو مكون من ثلاثة طوابق. وفى الطابق العلوى منه توجد كنيسة الملاك ميخائيل كما هى العادة فى جميع حصون الأديرة عامة. وفى أعلى حجاب هيكلها الخشبى مدون تاريخ انشائه وهو عام ١٤٩٨ ش تساوى ١٧٨٢ للميلاد. وقد شيدها المعلم ابراهيم الجوهرى.

أما فى الطابق الثانى ففيه كنيسة السيدة العذراء. وفى الطابق الأول توجد الطاحونة وبئر الماء وقاعة صغيرة تسمى «أوضة الجارية» وصندوق يحتوى على قليل من المخطوطات منها كتاب عن تاريخ بطاركة الاسكندرية لساويرس بن المقفع ولعله أقدم مخطوط من نوعه للكاتب المذكور. وكذلك مخطوط قديم عن أخبار القديسين. أما عن منظر سور الدير من فوق سطح الحصن فهو جذاب ويستلفت الانظار.

أما عن كنيسة الدير فهى أوسع كنائس الوادى، وأمتاز كذلك مكان المرنمين Choir فيها برحابته أيضا. وهى فى الواقع مثل فريد لأقدم النماذج المبكرة فى تصميم الكنائس. وترجع اعادة بنائها الى حوالى عام ٨٤٩/٨٣٠م. وتتكون من ثلاثة هياكل ومكان متسع للمرنمين

كما ذكرنا وأجنحة جانبية تتجه لناحية الغرب. هذا وقد أدخلت عليها تعديلات فى المبانى ترجع الى نهاية القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر. ومنها عدة تغييرات فى المبنى الرئيسى. كما أضيف اليها رواقان وعدة هياكل صغيرة وطريق للمطعم وكان من جراء ما أحدثه النمل الأبيض من تخريب بمبانى الكنيسة واتلاف أخشابها أن قام البطريرك الأنبا ميخائيل الثانى ببعض الانشاءات والتعديلات فيها عام ١٣٣٠ للميلاد.

أما عن الأحجبة الخشبية المصنوعة من حشوات فمنقوشة بالرسوم البارزة من خشب الصنوبر وموضوعة أمام الهياكل الثلاثة. وكذلك الأبواب الخشبية الأخرى المشغولة تعتبر نموذجا فاخرا للصناعة الخشبية الدقيقة. وهى الحرفة التى أشتهر بها النجارون القبط. وقد اعتبره العالم الانجليزى «افلين هوايت Eveyln White» من أجمل ما صمم لها فى هذا الوادى منذ القرن الحادى عشر للميلاد.

وعلاوة على اتساع هذا الدير عن سائر أديرة الوادى كذلك حدائقه أكبر وأوسع جيدة التربة عامرة بأشجار الفاكهة بأنواها كالكروم والنخيل والرمان والزيتون والنبق والخضروات وغيرها. وبئرها تمتاز بعذوبة مياهها وغزارتها. ويوجد بحرى الدير وشرقيه آثار لمعامل الزجاج والفخار التى كانت رائجة فى تلك المنطقة. واشتهر فى تلك الصناعة طائفة مهرة من الرهبان. ومن بقايا تلك القطع من الزجاج وقواعد الكؤوس المزين بعضها بالمينا وما فيها من آثار الألوان وكذلك من الأوانى الفخارية المهشمة بها يتبين لنا مدى الدقة والاتقان التى كانت تقوم عليها تلك الصناعة فى تلك العصور العريقة فى القدم ومهارة العمال الفائقة فى انجازها.

ثانيا. دير السريان

يقع هذا الدير على مقربة مئات الياردات من دير الأنبا بشوى وأنه أسهل الأديرة وصولا اليها. وهو أحسن الأديرة فى الوادى المعروفة لسهولة الوصول اليه، ولجمال ما فيه من زخارف جصية فريدة بكنيسة العذراء فيها، كما أنه أهم الأديرة التى تحوى اثمن المخطوطات القيمة التى تفيد الطلاب والباحثين فى أبحاثهم.

أما هذا الدير فكان يعرف باسم دير القديس «يوحنا كاما» حيث توجد كنيسته فى الزاوية الشمالية الشرقية وتدل أبنيتها على قدمها وأنها أقيمت مع سور الدير نفسه. ولم يكن السريان

هم الذين بنوا ديرهم هذا، ولكن حدث أنه وفد جماعة من رهبان السريان عام ٩٨٤م وتوطنوا فى أحد الأديرة ثم استولوا عليه بعد ذلك فى زمن غير معروف تماما. وقد ذكر المؤرخ «أبو المكارم سعدالله ابن مسعود» على أن الدير المذكور قد بنى على اسم القديس «أبو كاما الأسود».

ويعتبر دير السريان من المزارات الهامة التى تجتذب السياح والحجاج كثيرا. وسبب شهرته ترجع فى الغالب الى وجود القلاية الأصلية التى كان يعتكف فيها الأنبا بشوى وما ترامى من أخبار عنها من أن الله كلمه فيها. كما أن بجوارها شجرة «الأنبا أفرام السريانى» وكانت عصاه ثم تأصلت فى التربة ونبتت ثم أورقت. وبجوار المكان أيضا توجد البئر المعروفة باسم التسعة والأربعين شهيدا من شيوخ برية شيهات الذين قتلهم البربر فى احدى غزواتهم فى ذلك المكان.

أما النواة الأولى من مبانى هذا الدير فترجع الى القرن التاسع للميلاد ويؤيد العالم «ايفلين هوايت» ذلك التاريخ لكنيسة العذراء بالدير. ويحتمل أن يكون حصن الدير قد أقيم ما بين عام ٨٤٠/ ٨٥٠م نظرا لما لاحظه على تصميمه البدائى. أما عن كنيسة العذراء فقد أعيد بناؤها على يد البطريرك «بنيامين الأول» فى القرن السابع للميلاد. وأن السريان استحوذوا عليها فى القرن الثامن. ثم بعد هجمات البربر عليها أعاد أقامتها وأصلاحها بعض الأخوة قبل عام ٨٥٠ للميلاد. واتبع فى تصميمها نظام القرن السادس الميلادى. أما عن الكنيسة المذكورة فلا شك أنها أهم وأحسن أثر معروف فى الوادى وهى مثل ممتاز لكنيسة فاخرة عريقة فى القدم.

أما الاحجبة الخشبية ذات الحشوات المطعمة والابواب الفاخرة بحشواتها المنقوشة برسوم بارزة دقيقة تعتبر من أقدم وأجمل الآثار النادرة الباقية فى الدير. ويرجع تاريخها الى القرن العاشر أو أوائل القرن الحادى عشر غالبا.

أما عن المكان المخصص للمرنمين Choir، الذى أقيمت عند مدخله الأبواب الدقيقة الصنع من خشب الصنوبر فيرجع عهده الى القرن التاسع للميلاد. وتحوطه القباب فى كلا الجانبين ومنها اثنان من أنصاف القباب وهى فى الغالب من أقدم الترتيب المعمارى الذى اتبع فى

الكنائس وهى الحالة الوحيدة الباقية فى وادى النطرون. ويشاهد أن أنصاف تلك القباب هذه تحوى رسوما جصية طريفة بالألوان تختص بتاريخ حياة السيدة العذراء. ففى القبلية منها نرى منظرا للبشارة والميلاد وفى الشمالية منظر للوفاة وآخر يمثل الصعود وما حول الرسوم من الكتابة فهى من الكتاب المقدس وباللغة السريانية. وفى هياكل الكنيسة الثلاثة تزخر النقوش الجصية الشهيرة ويرجع تاريخها غالبا للقرن العاشر الميلادى. والنوافذ الكائنة فى هذه الهياكل تعتبر أقدم ما عرف فى مصر من النوافذ الجصية كما أن ما تعشق فيها من مجموعة أو طاقم الزجاج جميل الرسم بديع التخطيط. وناهيك عما يشاهد هنا من نقوش رائعة على الجص المحفور على جدران الهياكل ويعلوها أفريز طويل بحشوات ذات نقوش جميلة كما أن الأعمدة وتيجانها أشبه بأشجار النخيل. كما يشاهد مناظر الزهريات الغريبة وهى أشبه بالقلب مما يؤيد أثر الطابع المصرى القديم. وعلى جانبى الشرقية أو «القبلة» تحت نهاية الأفريز توجد عصابة رأسية الوضع طريفة نقشت بمقرنص نباتى الشكل. وهذه النقوش الجصية القديمة تشبه الى حد كبير ما وجد من نقوش جصية فى جامع أحمد بن طولون التى ترجع الى عام ٨٧٩م. وهذا الشكل يقع شرق الرواق «الايوان Porch» حيث يقع فى غربه مبنى صغير آخر وفيه تقع البئر التى اشتهرت بأن البرابرة لجأوا اليها ليغسلوا سيوفهم وحرابهم من الدماء بعد أن قتلوا التسعة والأربعين شيخا من الرهبان فى احدى هجماتهم على أديرة برية شيهات.

ويوجد فى ناحية من صحن الكنيسة فى داخل قبة نصفية الشكل منظر طريف لصور جصية بالألوان من القرن العاشر الميلادى وهى تمثل صعود السيد المسيح. وفى النهاية الغربية من الجناح الجنوبى توجد قلاية الأنبا بشوى وهى بلاشك من الأماكن ذات التاريخ الأثيل والعريقة فى قدمها وهى من الأيام الأولى للدير، وفيها كان القديس المذكور يناجى خالقه.

أما المطعم فيمتد من الشرق الى الغرب ويظهر من شكله أنه ليس المبنى الأصلى القديم. ويغلب أنه أقيم على أنقاض مبنى آخر أقدم منه عهدا ويسبق أسوار السور المؤرخة بعام ٨٧٠ للميلاد. أما القصر أو الحصن القديم فى الدير فهو أعلى القصور فى الوادى. وهو يتكون من أربعة طبقات بينما القصور فى الأديرة الأخرى تتكون من ثلاثة طوابق فقط. وتوجد كنيسة الملاك ميخائيل كالعادة فى الطابق الرابع منه بالحصن المذكور.

ثالثا. دير البراموس

يقع هذا الدير فى الطرف الشمالى الغربى لوادى النطرون غربى الملاحات وتبلغ مساحته حوالى فدانين وأربعة قراريط. وكلمة «براموس» فى الأصل يونانية وتفسيرها من اللغة القبطية Pa- Romeos بمعنى «الذى للروم أو التابع للروم» والدير معروف أيضا بدير الروم نسبة الى الأميرين الأخوين مكسيموس ودومادیوس ابنى ملك الروم لانديوس الذين حضرا من سوريا الى الأنبا مقار الكبير فى برّية الأسقيط بقصد الترهب عنده. فلما وافتهما المنية وكان ذلك فى حياة مقار الكبير دفن رفاتهما فى نفس المكان حيث بنى دير براموس وسماه القديس مقار على اسميهما. وقد أطلق عليه بعض المؤرخين ومنهم «تقى الدين المقريزى» دير أبى موسى الأسود، وذلك لأن الأنبا موسى هذا كان رئيسا لذلك الدير وكان جسده مدفونا به.

مـبـاني الدير: يحيط بالدير السور الذى يضم مبانيه وأظهر ما يشاهد فى تلك المبانى الاختلاف الواضح فى المبانى القديمة فيه والمنشآت الحديثة ويمكن تقسيمها الى قسمين يختلف أحدهما عن الآخر. أما القسم الأول ويشمل المبانى القديمة منه ومنها القصر القديم وهو المعروف فى الأديرة باسم «الحصن أو الجوسق»، وقد سبق الكلام عنه فى الأديرة السابقة وعن الطبقات التى يتكون منها والغرض من أنشائه وأهميته. وأهم مبانى هذا القسم هى الكنائس وهى أربع:

١. **كنيسة العذراء:** وهى قديمة أثرية وظاهر أن معظم الأديرة تحوى كنيسة باسم العذراء دليل على شدة الاعتقاد بأن السيدة العذراء والدة الاله قد باركت تلك الأماكن عند قدومها الى مصر. وهذه الكنيسة متسعة وتبلغ مساحتها ١٢٠٠ مترا مربعا ويغطى صحنها قبو من الطوب. وهياكلها تقع فى الناحية الشرقية وتلوها القباب ويفصل صحن الكنيسة عن جناحيها القبلى والبحرى صفان من الأعمدة الرخامية. وفى صحن الكنيسة يوجد «اللقان» وهو الحوض الذى يملأ بالماء يوم خميس العهد من كل عام ويغسل منه الكاهن أرجل بعض أفراد الشعب أقتداء بما فعل السيد المسيح حينما غسل أرجل تلاميذه. والحوض المذكور مربع الشكل وهو من الحجر. ويوجد فى هذه الكنيسة عمود أثرى يعرف باسم عمود «أرسانيوس» لوجود نقوش عليه من عمل القديس المذكور. وقد جاء فى سيرته: «أنا ذهبت الى دير براموس وعملت

نقوشا على عمود هناك تذكارا لى» . وقد كان أرسانيوس معاصرا للقديس مقار الكبير وكانت له قلاية بمغارة بجوار ذلك العمود.

وتقام الصلاة طوال مدة الصيام الكبير فى هذه الكنيسة.

٢. **كنيسة الشهيد مارجرجس:** وتقع داخل كنيسة العذراء من الشمال الغربى وتبلغ مساحتها خمسة وعشرين مترا مربعا.

٣. **كنيسة الأمير تادرس:** وتقع داخل كنيسة العذراء كذلك ومن ناحية الشمال وتبلغ مساحتها ٢٥ مترا مربعا أيضا وتوجد بها رفاة الأنبا موسى[١] الأسود والقس ايسيدروس[٢].

٤. **كنيسة الملاك ميخائيل:** وهى توجد عادة فى الطابق الأعلى من حصون الدير وقد سبق الكلام عنها أيضا فى حصون الأديرة الأخرى، ويحتفل فى هذه الكنيسة بعيد الملاك ميخائيل حيث تقام الصلاة فيها ليلة العيد حتى صباح اليوم التالى بدون انقطاع.

٥. **المنجلية والمائدة:** وتوجدان فى داخل كنيسة مارجرجس، أما المنجلية وهى كلمة قبطية ومعناها «مكان القراءة أو المقرأة» وهى منحوتة من حجر أبيض طولها ١٢٧ سم وعرشها ٤٧ سم، وكل استعمالها للقراءة أثناء تناول الطعام، وكان من يقوم بالقراءة فيها هو «الربيتة»[٣].

أما المائدة فهى مستطيلة الشكل وتبلغ ١٤ مترا فى الطول ومترا واحدا فى العرض وهى

---

(١) أصله بربرى وثنى وكان لصا فاتكا قتل مائة من الانفس ثم تنصر وترهب وصنف عدة مؤلفات قيمة وأشتهر بزهده، وكان ممن يطوى الأربعين فى صومه وأصبح فى عداد القديسين، وغالبا أنه استشهد فى أحدى غارات البربر على الوادى.

(٢) لا يعرف مكان ميلاده، من رهبان الجيل الرابع مصرى، وترهب فى برية الأسقيط، وأشتهر بورعه وتقواه وفضائله النسكية حتى انتخبه الرهبان قسا للأسقيط، ولما تجمع حوله كثير من الرهبان بنى لهم ديرا بمساعدة القديس موسى الاسود.

(٣) الربيتة، كلمة سوريانية الاصل معناها «رب بيت» وهى وظيفة تطلق على أمين الدير ويعينه رئيس الدير بموافقة جميع رهبانية، كما يجب اخطار البطريرك أو القائمقام بهذا التعيين. ومن واجباته أنه يقوم بأعمال رئيس الدير فى أثناء غيابه ويتعهد أثاثات الدير والمكتبة.

مقسمة الى ثلاثة أقسام يفصل بين كل قسم وآخر مجرى محفور. وكان القسم الأول من جهة الشرف معدا لجلوس الرؤساء والشيوخ، والثانى للكهنة والقسوس ومن فى مرتبتهم، والثالث للرهبان، ولم يعد استعمالها لهذا الغرض الآن لأن كل راهب يتناول طعامه فى قلايته بمفرده، وقد اكتفى بوضع الخبز عليها ليتناول كل راهب ما يكفيه منه عند الحاجة.

٦. **حجرة الملح والأباركة:** وهى فى نهاية المائدة وعن يمينها تقع حجرة الأباركة، وتوجد فيها معصرتان وتستعمل احداها الآن ومجهزة بكل أجزائها اللازمة لعصر الزبيب واستخراج الأباركة لاستخدام عصيرها فى القداس، ويقوم بعملها رهبان الدير بأنفسهم بطريقتهم البدائية القديمة كما يحفظونها بداخل قدورها المعتادة القديمة. ومن مبانى الدير القديمة أيضا حجرة القربان ولكنها توجد خارج كنيسة مارجرجس.

أما القسم الثانى فيشمل المبانى الحديثة من الدير المذكور ومنها:

١. **كنيسة يوحنا المعمدان:** وتقع بين الحديقتين البحرية والقبلية، وقد بنيت على أنقاض كنيسة أنبا أبولو وأنبا أبيب عام ١٦٠٠ للشهداء وتوافق ١٨٨٤ للميلاد. وهذا التاريخ مدون على بابها البحرى وقد حدث بها اصلاح وتجديد بدليل ما كتب على حجابها الجديد «شيدت فى عهد البابا كيرلس مطران البحيرة والمنوفية ووكيل الكرازة المرقسية فى عهد رئاسة القمص يوحنا وهو الأنبا يؤانس التاسع عشر. وقد بناها على نفقته الخاصة عام ١٦٢٦ الشهداء وتوافق ١٩١٠ ميلادية وتقام الصلاة طول العام فى هذه الكنيسة ما عدا أيام الصوم الكبير.

٢ـ القصر الجديد: وقد شيد عام ١٦٢٧ للشهداء ويوافق ١٩١١ ميلادية، لاستقبال الضيوف والزائرين الذين يفدون لزيارة الاماكن المقدسة للعمل على راحتهم.

٣ـ الحدائق وماكينة المياه: بالدير حديقتان واحدة بحرية والأخرى قبلية ويتعهد رهبان الدير بالعناية بها، والاكثار من زراعة أشجار الفاكهة بأنواعها والخضروات. وقد استحضر القمص برنابا رئيس الدير السابق ماكينة للحديقة البحرية لرفع المياه، كما استعملت أيضا لطحن

الغلال ولتوليد الكهرباء التى أدخلت فى الكنيستين الشرقية والغربية والقصر الجديد للضيافة كذلك، وتم ذلك على نفقة الأنبا يؤانس عام ١٩٣١ ميلادية.

٤. **المكتبة:** وتحتوى على ما أمكن الاحتفاظ به من المخطوطات والكتب القيمة الباقية ورئيس الدير ورهبانه حريصون على العناية والاهتمام بها لكيلا تمتد اليها الأيدى العابثة كما تعرضت لها من قبل وأفقدتها اثمن كنوزها العلمية والاثرية، وقد سبق أن تولى أحصائها المرحوم يسى عبدالمسيح أمين مكتبة المتحف القبطى الأسبق، ووضع لها فهارس على النظام الحديث ثم نظمها الى مجموعات رئيسية ثلاثة: تاريخية ولا هوتية وطقسية. وقد منع الدير الاطلاع على المكتبة أو مخطوطاتها أمعانا فى الوقاية من تعرضها لسرقة. ولكن أمكن أخيرا بالسماح للباحثين والمهتمين بالشئون الكنسية وتاريخ الرهبنة الاطلاع على تلك الكتب والمخطوطات بشرط الحصول على التصريح الرسمى من غبطة البطريرك.

وتعتبر مكتبة هذا الدير ومخطوطاتها من أنفس الكتب الموجودة بالاديرة، وهى تبلغ حوالى ٤٧٢ مخطوطا، ٢٨٩ مطبوعا، وأغلبها يبحث فى الشئون الدينية ومعظمها نسخت فى عهد الأنبا كيرلس الخامس الذى يرجع اليه الفضل فى جمع أشتات الكتب القبطية وترميمها وتجليدها، وكان من رهبان هذا الدير فى القرن التاسع عشر، هذا فضلا عن المكتبة التى خلفها القمص عبدالمسيح المسعودى، وهى محفوظة بداخل خزائن خاصة ومدون عليها، خزانة المسعودى وهى تشمل عدة كتب ومراجع قيمة فى عدة لغات.

٥. **المنارتان:** وتقعان فى مدخل الحديقة البحرية، وقد شيدتا على نفقة نيافة الاب الجليل الانبا توماس مطران المنيا والاشمونين عام ١٦٣٧ للشهداء يوافق ١٩٢٠ للميلاد فى عهد رئاسة القمص مينا.

٦. **قلالى الرهبان:** وهى تتكون من غرفة تستعمل للجلوس وتناول الطعام ومن داخلها حجرة أخرى للنوم، وهذه القلالى من دورين وهى جانب الحديقة البحرية.

٧. **أما المخبز «الطابونة»:** التى أعدت لتجهيز الخبز للرهبان فشيدت على الطريقة الحديثة. وبجوارها يقع «الطافوس» وهى كلمة يونانية ومعناها المدفن.

رابعا. دير الأنبا مقار

ويقع فى الجنوب الشرقى لدير الأنبا بشوى ودير السريان. وتبلغ مساحته فى الأصل حوالى فدان و٢٢ قيراطا، وقد أضيفت اليه تعديلات وتنظيمات عديدة ومبان بفضل جماعة الرهبان المثقفة ورئيسهم الفاضل الروحى الجليل، وينسب هذا الدير الى القديس أبو مقار الكبير الذى ذكرت سيرته فى الكلام عن وادى النطرون ورهبانه.

وهذا الدير أغنى أديرة وادى النطرون بما يحـويه من أروع الآثار وأهمـهـا ذلك التـابوت الموجود فى كنيسة أبى مقار ويحوى رفاة ستة عشر من الآباء البطاركة. كما يوجد أجساد التسعة والأربعين شيخاً الشهداء الذين قتلهم البربر وهم مدفونون بكنيسة الشيوخ.. كذلك التـابوت الرخـامى الذى يحـمل رفـاة القـديسـة هيـلاريا ابنة الملك زينون التى تنكرت فى زى الرجال وترهبنت بهذا الدير ودفنت فى أرضية قصره القديم الذى بناه والداها فوق المكان الذى تحوى أرضيته تابوتها.

ومن الذكـريات الهـامـة التى ترتبط بهـذا الدير ذات التاريخ الخـالد المجيـد أنه كـان المكان المفضل للزيارة من جميع بطاركة الأسكندرية وبصفة خاصة فى الأزمنة التى كانت تنتاب فيها البـلاد مـوجـات الفتن والفـوضى والاضطرابات ويعم البغى، والاضطهادات من ناحية الاباطرة الرومان القساة والحكام الغاشمين، فكان بعض البطاركة والأساقفة يلجأون الى دير الأنبا مقار الكبير حيث ينعمون فيه بالسلام والهدوء، وكذلك يجتمعون فيه عندما كانوا يقومون بعملية طبخ الميرون المقـدس، وأحيـانا يدشنون الكنائس والهيـاكل التى تكون قد شيـدت فى المكان المذكور.

وكان من العادات المتبعة عند انتخاب البطريرك للكرسى المرقسى كان لابد بعد تكريسه فى الاسكندرية أن يتوجه بعدها مباشرة الى دير الانبا مقار حيث لابد من اتمام عملية الرسامة والتقديس بالدير المذكور. ومن الدير المذكور تخرج أكبر عدد من بطاركة الأسكندرية، كما دفن فيـه أكبـر عـدد من أجسـادهم أيضـا. وهذا دليل على مقدار الاهمية التاريخية العظمى والمكانة الرفيعة المرموقة التى تبوأها ذلك الدير الشهير خلال الازمنة المختلفة فى كافة أنحاء البلاد المصرية بل وفى جميع أقطار المسكونة أيضا وهذا أسبغ بلا شك صفة التقديس للمكان المذكور.

وأهم الكنائس والهياكل الأثرية الباقية بالدير المذكور باختصار:

أولا: كنيسة الأنبا مكاريوس: وتبلغ فى طولها من بحرى الى قبلى ٢١ مترا وعرضها من شرق الى غرب حوالى ١٥ مترا وملتصقة من الجهة البحرية
بالسور البحرى، وكان بها خمسة هياكل وهى:

(١) هيكل الرسل.

(٢) هيكل مرقس الأنجيلى.

(٣) هيكل مقار بناه مقار أسقف منوف.

(٤) هيكل شنودة.

(٥) هيكل بنيامين. ولم يبق منهم غير الأول والأخير
ولأهميته فسنتناوله لذلك بشىء من التفصيل.

هيكل بنيامين: تبلغ مساحته ثمانية أمتار فى ثمانية الا ثلثا. وبناء قبته من أبدع وأتقن ما بنى من نوعها فى وادى النطرون، بناه الرهبان فى عهد البطريرك بنيامين الثامن والثلاثين فى عداد البطاركة الذين تولوا رياسة الكرسى المرقسى. وقد حضر الأنبا بنيامين بنفسه وقام بتكريس هذا الهيكل، وفيما هو يباشر عملية التكريس روى أنه شاهد شخصا نورانيا واقفا بزاوية الهيكل فتمنى لو تتاح له الفرصة لأن يعينه أسقفا على احدى الأبروشيات، ولكنه سمع صوتا يقول «هذا مكاريوس قد حضر اليوم بفرح مع أولاده».

وهذا الهيكل له منزلة سامية وروعة رهيبة واحترام عظيم ويتحتم على كل بطريرك أن يصلى فيه بعد رسامته، وكذلك حفلة تقديس الميرون تكون بهذا الهيكل ومن القوانين التى وضعها له الأنبا بنيامين أنه غير مصرح لأى كاهن أن يصلى فيه الا من رسم عليه...

ثانيا ــ كنيسة أبى أبسخيرون: وتتسع من بحرى الى قبلى بحوالى ١٧ مترا ومن الشرق الى الغرة ١٨ مترا. وتقع قبلى غربى كنيسة الأنبا مقار، وكانت قديما متصلة بها.

ثالثا ــ كنيسة الشيوخ: وهم التسعة والأربعون راهبا من شيوخ برية شيهات الذين استشهدوا وقتلهم البربر فى احدى غزواتهم على وادى النطرون.

ومن حول دير القديس مقار[1] الكبير توجد آثار عديدة لا حصر لها من القلالى بعضها كان كبير الاتساع وذات أسوار وداخلها حجرات كثيرة وتحوطها أسوار كأنها أديرة صغيرة، وهذه كلها كانت عامرة بالنساك. وقد أمكن حصر أسماء عديدة لأصحاب رهبانها الذين كانوا يتعبدون فيها والبلدان التى وفدوا منها.

رابعا ـ **المكتبة**؛ولو أن ما تبقى بها من الكتب والمخطوطات قليل لا يتناسب مع ما كان عليه دير الأنبا مقار من شهرة عظيمة فى العلوم والفنون الا أن فى مكتبته طائفة من الكتب القديمة والخطية منها كتاب تكريس هيكل بنيامين وتاريخ نساخته ترجع الى عام ١٠٤٦ للشهداء ويوافق ١٣٣٠ للميلاد وهو باللغتين القبطية والعربية وبعض كتب صلوات الأكاليل والمعمودية قديمة أيضا ومدونة بالقبطية والعربية. وكذلك ميامر عن أخبار القديسين الرهبان والشهداء. وهى موجودة بكثرة ونظرا لقدمها فقد تكون أصح من غيرها مما نشر عن أخبار القديسين فى جهات أخرى.

وقد اشتهر هذا الدير منذ القدم بما كان يحويه من طائفة من النساخ المهرة فى نساخة الخط القبطى والعربى. وكانوا يرسمون الحروف القبطية على أشكال طيور جميلة جذابة المنظر، كما كانوا يتفننون فى صنع الوان الحبر الذى يصورون به الحروف والرسوم حتى أنه فى عهد البطريرك الأنبا «غبريال بن تريك» البطريرك السبعين، طرد راهب من البرية لسوء سلوكه، فذهب ووشى الى الحافظ أن الرهبان يعملون الكمياء فأوفد معه أستاذين وحضروا الى دير أبو مقار. فوجدوا رهبانا نساخا وعندهم كتب الأبقطى وصنعة الأصباغ، فقال له أن هذه كتب الكيمياء فقبضوا عليهم ومن جملتهم مرقس الناسخ وقمص أبو يحنس وقمص أبو مقار ونهبوا أوانى دير أنبا بشوى وأحضروهم الى الوزير. ولما تحقق أن هذه صبغة صنع الالوان التى يستعملونها فى النساخة أخلى سبيلهم وأعطى لهم كتاب الأمان وأرسلهم الى أديرتهم مكرمين.

---

(١) عانى، القديس من اضطهاد الأمبراطور «فالنس» الأريوسى المبدأ شدائد عنيفة دفاعا عن الايمان والثبات على المبدأ حتى أنه نفى الى أسوان فى جزيرة أنس الوجود فى فيلة حيث شفى ابنة حاكمها الوثنى المذهب من مرضها التى كانت تعانى منه فاعتنق أبوها مذهبه، وهكذا تحول سكان الجزيرة الى الديانة المسيحية على يده حتى اضطر الأمبراطور الى اطلاق سراحه، فلما عاد من منفاه قضى بقية عمره مرشدا ومعلما للرهبان. وقيل أنه ترك ٥٠ موعظة بعد أن رحل الى سيده الأعظم عن تسعين عاما.

بعض أديرة أشتهرت بالوجه البحرى

* دير مار مينا بمريوط
* دير تل الهر شمال قناة السويس.
* دير تل اتريب بالقرب من بنها.
* دير ابى هور بشبين الكوم.
* دير الشهيدة دميانة ببلدة بلقاس.
* دير سقارة ـ دير القصير / اديرة حلوان.
* صفحة ناصعة عن آداب وتقاليد الرهبان.
* الرهبنة عند النساء.
* منطقة سيناء وأهميتها فى النسك.

بقايا دير سقارة بالمتحف القبطى

سبق أن تكلمنا عن الأعداد الهائلة من الأديرة والقلالى التى امتلأت. بها البلاد المصرية فى جميع أطراف وادى النيل وصحاريه الشرقية والغربية وتناثرت فى كافة البقاع القريب منها والبعيد وكانت خلايا عامرة تنبض بالحياة النورانية السامية المليئة بالرحمة والايمان وأشبه بمنارات لامعة تهدى الضالين من الرحالة أو المسافرين من متاعب الأسفار وأخطار الطريق فى الأزمنة البدائية، فكانت خير ملجأ وملاذ هادئ أمين لكل ضال أو مريض أوملهوف أو فقير فيجد كل عابر اليها ضالته المنشودة فى سماحة رهبانها الأفاضل، وما اشتهروا به من الكرم وحب الضيافة والمحبة وانكار الذات العجيب.

هذه الشرايين النابضة التى أفادت الانسانية كثيراً، وارتوت منها النفوس العطشى فى البرارى والقفار، بل وفى البقاع الأخرى من الحضر انهالت عليها جحافل الشر وأبادت معظمها، والبعض منها ما زالت آثاره باقية، والغالبية أبيدت عن أخرها ولم يبق منها شيئاً الا الأسماء التى كانت ترددها بعض المراجع القديمة الباقية والتى حفظت تلك الأسماء وما كان لها من أهمية.

ومنها نذكر على سبيل المثال لا الحصر، ما حاق ببعض الأديرة من خراب ذلك ما ورد فى

كتاب تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع من القرن العاشر الميلادى، «أنه فى أيام الأنبا أندرونيكوس» البطريرك السابع والثلاثون «٦٢٢/٦١٦م» جاءكسرى ملك الفرس بقوة عظيمة واخذ مصر وتسلط عليها: «جعل اهتمامه أن يفتح المدينة العظمى اسكندريه، وكان هناك ستمايه دير عامره بهاناتون مثل أبراج الحمام (...) وكان جيش الفرس قد أحاط بها من غرب الديارات ولم يبق للرهبان ملجأ، فقتلوا جميعاً بالسيف الا قليلا منهم اختفوا فخلصوا. وجميع ما كان هناك من المال والأوانى نهبه الفرس وأخربوا الديارات».

دير القديس مينا بمريوط[١]:

يعتبر هذا القديس وديره وبيعته من أروع ما كتب فى تاريخ الكنيسة القبطية وأثرها الخالد، أما ما عرفناه عن مولد هذا القديس وتاريخ حياته أو استشهاده، فقد كان عن طريق الرواة والقصص والأساطير. وقد حدث اختلاف بين الكتاب والرواة وصدرت أقاويل عديدة عن ذلك القديس وتاريخه حتى ذكر البعض أنه كان يوجد أثنان بهذا الاسم أحدهما مصرى الجنس والاخر أجنبى من فريجيا بآسيا الصغرى، الا أن الدكتور «الفريد بتلر» المؤرخ الانجليزى ينوه بما يؤكد مصريته فى الاسم نفسه لأنه اسم أول ملوك الفراعنة، وهو الملك مينا موحد الوجهين ومؤسس مدينة منف عاصمة مصر القديمة.

وورد عن مينا هذا أنه ولد من أبوين ورعين كريمين فى مدينة «نيقيوس» فى مصر واسمها بلغة المصريين «ابشادى»، وكان والده «أودوكسيوس» أخا «أبسطاس» الوالى فى ذلك الزمن ـ وكان والدهما معروفا بشجاعته ومهابته وحسن سيرته،واستقامته ومحبة الناس وتقديرهم له ـ وحدث أن ولى حاكما على كورة أفريقيا ـ فلما ترك نيقيو س حزن أهلها على رحيله لأنهم خسروا رجلا فاضلا تقيا عفيفا ـ فاستقبله أهل أفريقيا بالبشر والترحاب لما سمعوا عن حسن سيرته وطهارته. وكانت زوجته عاقراً وكثيراً ما كانت تقضى أياما فى الصوم والصلاة واعطاء الصدقات متوسلة الى الله لكى يرزقها نسلا. وفعلا استجاب الله دعاءها ورزقت بطفل أسمته

(١) ذكر المؤرخ أبو العباس أحمد المعروف باسم اليعقوبى الذى عاش فى القرن التاسع وأوائل العاشر الميلادى فى مؤلفه «كتاب البلدان» ديرين فى مصر وهما دير أبو مينا «غرب الأسكندرية» ودير أبو شنودة «عند أخميم» ربما لعظم شهرتهما بعهده.

مينا، ففرح والداه وسلماه الى أحد الكهنة لتعليمه. فأظهر منذ نعومة اظفاره ورعاً وتقوى وميلا طبيعيا الى مداومة الصوم والصلاة.

وعندما أكمل الحادية عشرة من عمره توفى والده ثم لحقت به والدته «أوفوميه» بعد ثلاث سنوات، وتركا له ثروة طائلة، ولما شب الصبى ظهر شغفه للعبادة والميل للصوم والتصدق. وفى سن الخامس عشة أختير فى سلك الجندية، وكانت تظهر عليه دلائل القوة والشجاعة والأقدام ودلائل النعمة بادية على محياه، وكان محبوبا من الجنود لتواضعه وزهده وتقواه، حريصا على طهارة جسده وبتوليته.

وفى عصر الامبراطور دقلديانوس بدأت ترسل منشوراته الى كل الممالك والكور يأمرهم بألايخرجوا على عبادة الامبراطورية الوثنية والسجود للالهه وتقديم الذبائح ورفع البخور لها وتوعد بالعذاب والتنكيل الشديد لكل من يخالف الاوامر فترك الجندية وخرج الى البرية فى مكان مقفر وظل متوحدا يتعبد لله بعيدا عن مشاهدة معبوداتهم النجسة وقضى زمانا طويلا وهو فى هذا الهدؤ حتى أراد الله أن يصطفيه للشهادة والجهاد الصالح ونيل أكليل الخلود ـ وحدث أن كان عيد الملوك فى المدينة التى فيها القديس مينا فخرج بين جموع غفيره من الناس وامتلأ بالروح القدس وبشر بالانجيل فى وسطهم وأرتا ع الشعب من ذلك وطرأ عليهم ثبات عجيب وحتى والى المدينة ذهل عندما رآه فى ملابس الرهبان القديسين وهو يندد بعبادة الاوثان ويبشر باسم سيده المسيح ورفع أسمه أمام الجمع الحاشد احتفاء بعيد الملوك المذكور. فأمر الحاكم بالقبض عليه وأودعه السجن ثم أمره بالسجود الى الآلهة فرد عليه القديس بكلام لاذع وسخر بأصنامه فحنق عليه الوالى وأذاقة من صنوف القسوة والعذاب ما تقشعر منه الابدان ليثنيه عن عزمه حتى تقدم اليه واحد من الواقفين متوسلا الى القديس ليرحم شبابه ويسجد للالهه كى لا يهلك. ولم يزده ذلك الا أستمساكا بسيده واظهارا لتفاهة اصنامهم الفاسدة النجسة المائتة التى يسجدون اليها. فزاد عليه العذاب حتى جرى دمه وتقطع لحمه ثم وضعوا المشاعل تحته والجموه وطوقوا عنقه بالحديد وكرروا عليه العذاب ثم القوه فى السجن، ويروى ان الوالى لما أشتد حنقه عليه أمر بعض الجنود بنشره فكان المنشار يذوب كالشمع اذا اقترب من جسمه فافضح الملوك وآلهتهم. ولما تحير الوالى فى أمره وعناده ألف مجلسا وكتب قضيته ثم أمر بقطع رأسة بالسيف وكانت شهادتة فى يوم ١٥ من شهر هاتور. وقد أراد عباد

الاوثان أحراقة ولكن تمكنت أختة من أخذ جسده كما أوصاها بعد أن دفعت ما كان معها من المال الى الجند ثم لفته ونزلت به الى الاسكندرية ولما وصلت به هناك تلقوه بأكبار واحترام عظيم وكفنوه فى أكفان نقية طاهرة.

ولما أنقضى زمان الاضطهاد نقلت رفاة القديس من الاسكندرية الى المكان الذى يحمل اسمه الان وذلك على أثر رؤيا ظهرت للبطريرك فى ذلك الوقت. فيروى أنه بعد وضع رفاته فى تابوت حملوه على ظهر جمل وتركره خارج الاسكندرية وهم يتتبعونه حتى وصل الى مكان «بحيرة بياض» ويقال أن هذه هى الجهة التى نشأت فيها أمه. وفى المكان المذكور توقف الجمل الذى يحمل التابوت فجأة فى الصحراء الغربية وعبثا حاولوا أجباره على السير فاضطر مرافقو الجمل الى استبدال الجمل بأخر ولكنه توقف الثانى عن المسير وظل فى مكانه لا يتحرك كما فعل الحيوان الاول وعلى ذلك قرر الاتباع دفن رفاة القديس فى ذلك المكان بمنطقة مريوط، حيث شيدوا فيها ديره وبيعته التى ظهرت فيها آيات وعجائب وشفاءات عظيمة للمرض وذاعت شهرة تلك المنطقة فى جميع انحاء العالم القديم فأصبحت كعبة يفد اليها الحجاج من كل صوب فى كل عام لزيارة قبر القديس لنوال بركته وطلباً للاستشفاء من أسقامهم. وكان يوجد بالقرب من قبره بئر يأخذ الحجاج من مائها فى أوانى خاصة وكانت تصنع من الفخار فى مصانع بالمنطقة وعليها صورة القديس بارزة على سطحها وكانوا يعتقدون أن تلك المياه تشفى أمراض العيون.

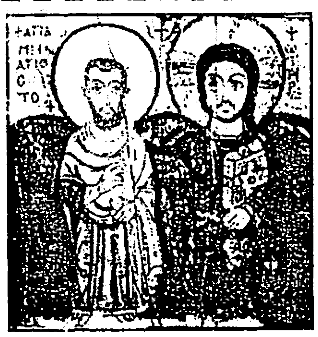
وقد أقيمت حول ضريحه فى منطقة مريوط مدينة عظيمة يرجع تاريخها الى القرن الثالث الميلادى، كما أن الامبراطور أركاديوس بنى بجوارها كنيسة فاخرة من الرخام، وكانت تعتبر من أروع ما أنتجته يد الانسان فى الفخامة والجمال وعدت من أعظم كنائس القطر. وقد بناها الامبراطور المذكور وفاء لنذر كان قد تعهد به بمناسبة شفاء أحد أبنائه من مرض خطير. ومن طريف ما يذكر وصفا عن ذلك المكان ما رواه الرحالة العربى البكرى سنة ١٠٨٦ للميلاد فى مخطوط فى المكتبة الاهلية فى باريس حيث يقول «وفيه بنى كنيسة عظيمة تحوى عجائب الصور والنقوش وتوقد قناديلها ليلاً ونهاراً وفيها قبو عظيم وفى أحدى مبانيها صور جميلة من الرخام عليه صورة أنسان قائم على رجليه فوق جملين وأحدى يديه مبسوطة والاخرى مقبوضة، ويقال أنها صورة أبى مينا، وكل ذلك مبنى من الرخام. وفى هذه الكنيسة صور

الانبياء كلهم عليهم السلام، وصورة زكريا ويحيا وعيسى فى عامود رخام عظيم، وعلى يمين الداخل باب يغلق عليها، وصورة مريم قد اسدلت عليها ستائر وصور جميع الحيوانات وأهل الصناعات، ومن جملتها صورة تاجر رقيق ومعه خريطة أى «كيس نقود» بيده مفتوحة لا سفل «أعنى أن تاجر الرقيق لا ربح له» وفى وسط الكنيسة قبة فيها ثمانى صور يزعمون أنها صورا لملائكة، وفى جهة من الكنيسة مسجد محرابة الى القبلة ويصلى فيه المسلمون وحول الكنيسة ثمار كثيرة، ويقولون أن سبب بناء هذه الكنيسة أن قبرا كان موضعها وكان بالقرب منه قرية وأن رجلا من أهلها كان مقعدا فر منه حماره فزحف وأمسكه وركبه وأنصرف الى بلدتة صحيحا فتسامع الناس ذلك فلم يبق عليل الا وقصد ذلك القبر فيجلس عليه فيبرا فبنيت عليه هذه الكنيسة وقصدها أولو الاسقام ليستشفوا. وظل ذلك بعد أعادة بنائها. ويدفع لها من القسطنطينية كل عام ١٠٠٠ دينار

وقد تهدمت تلك الكنيسة وكذلك اندثرت بلدة الحجاج التى كانت قائمة وظلت أطلالها شاخصة بين الرمال. وأول من بدأ بالحفائر فى تلك المنطقة العالم الالمانى «كاوفمان» فى عام ١٩٠٧م.

ثم شرع المتحف القبطى بالاشتراك مع المعهد الالمانى فى مواصلة الحفائر العلمية بالمنطقة ، كما شرعت البطريركية القبطية بهمة وارشاد غبطة البابا الراحل الانباكيراس السادس فى العمل على أعادة تلك البقعة الى سابق عهدها الزاهر وشيد فيها دير كبير وكنيسة فاخرة على أسم القديس مينا أيضا، ووالى قداسته الاهتمام المتواصل بهذه المنطقة وزيادة أعمال التعمير والبناء فيها وغرس الحدائق كما كانت عليه من قبل أذ أنها أشتهرت بالزراعة وعلى الاخص الفاكهة كالكروم والتين والزيتون وكذلك الشعير. ومن طريف ما عثرت عليه الحفائر مجموعة من الحمامات التى كان يؤمها الحجاج، وكانت تصل المياه اليها عن طريق الابار التى أنتشرت كثيرا بتلك البقعة. وقد كشف منها أكثر من ثمانين بئرا، وتنقل المياه الى الحمامات بطريق السواقى والقنوات التى كانت تربط بين الابار والحمامات.

وقد كانت تلك المنطقة أيضا تتمتع فى غابر الزمان بشعبية هائلة وأتخذها عظماء البطالسة والرومان مكانا للمتعة والاستجمام، وذاعت شهرته وأمتدت الى ممالك أوروبا عامة وأصبح كعبة يؤمها الحجاج من كل جهات المسكونة ويكنون لها الولاء والتقديس منذ أقدم العصور. ولا تزال فى روما حتى الان كنيسة قديمة تحمل أسم القديس المذكور وقد بدأت تجتذب اليها العديد من الزائرين اليوم. وقد نقلت اليها رفاة البطريرك الراحل الانبا كيرلس السادس بناء على وصية منه قبل وفاته.



أيقونه قبطية فريدة للسيد المسيح واضعاً يده على كتف القديس مينا. من القرن ٧م نقلت من باويط إلى اللوفر بباريس

ومازال يعثر الى اليوم على بقايا من الاوانى الفخارية التى تعرف بقنانى القديس مينا الفخارية من أحجام مختلفة بين أنقاض ديرة فى الصحراء الغربية غرب مدينة الاسكندرية. ويوجد فى المتحف البريطانى وغيره من المتاحف الاوروبية مجموعات عديدة من هذه الاوانى التى كان يحملها الحجاج مملؤة بالماء عند زيارة ضريحة ويشاهد على سطحها صورة مطبوعة بارزة للقديس مينا وهو قائم يرفع بكلتا يدية للصلاة بين جملين جاثمين وأحيانا نراهما منحيين أجلالا له عند قدمية وكأنهما يقبلانهما، وأحيانا عليها صلبان صغيرة وبعض الاحرف البونانية أو القبطية ويقصدون بها أختصار لاسم القديس مينا. وهذه الاوانى لا يمكن أن تقوم واقفة بل يجب حملها بواسطة خيوط تربط بين العنق والاذنين للاناء. ومن الاثار النادرة التى يجدها الاثريون أحيانا مطمورة بين الرمال فى المنطقة أو فى اركان مبانيها القديمة قطع الموزاييك الرخامية الرائعة بألوانها الجميلة البراقة ومنها الاخضر والارجوانى والاصفر والابيض والاسود والتى كانت تغطى بعض أرضيات ذلك الدير وصحن الكنيسة، وهى تشهد على مدى ما كانت عليه مبانى تلك المنطقة من الفخامة والعظمة والجمال.

ويظهر أن الشهرة العظيمة التى ذاعت فى أغلب الاقطار عن عظمة مبانى ذلك الدير وبيعتة حتى كانوا يطلقون عليها أسم مدينة الرخام مما شجع الملوك وبعض الخلفاء على أقتناء بعض أعمدتها وقطعها الرخامية النادرة وقد روى عن الخليفة المأمون أنه أرسل بعض عماله الذين أظهروا أعجابهم الشديد بمبانى منطقة أبى مينا فعملوا على أنتزاع الكثير من أعمدتها وقطعها الرخامية الفاخرة ومنها ما كان بألوان جذابة جميلة وقيل أنها أستخدمت فى تزيين بعض قصر

المأمون فى مدينة بغداد. ويغلب على الظن أن هذه المنطقة هجرت وتحولت الى أنقاض فى القرن الثالث عشر الميلادى ثم أخذ البدو فى السطو عليها والشروع فى النبش بين أنقاضها واقتطاع بعض رخامها وقطع الموزاييك فيها وبيعها الى تجارم الاثار بالاسكندرية.

دير تل الهر:

ويقع هذا الدير فى سهل الطينة عند الطرف الشمالى لقناة السويس من الجهة الشرقية وفى نصف ساعة بين تل الفرما «التى سميت فى العصور الوسطى بمدينة الفرما، ثم وردت «الفرماء» أو تل الفرما وكان أسمها بالقبطية Peremoun وباليونانية Pelousion» والقنطرة الشرقية . وكانت قديما طريق القوافل بين مصر والشام التى تمر على مسافة قليلة جنوبا منه . وكان الدير تابعا لا سقفية الفرما وهى أقدم أسقفيات مصر وقد ترهب فى الدير المذكور الناسك القديس العالم أيسيذروس الفرمى وهو من مواليد الاسكندرية، وأصبح رئيسا للدير وتنيح فيه عام ٤٤٩ ميلادية. ومن نفس الدير أرسل منه الاف من رسائلة المشهورة الى ملوك وبطاركة وأساقفة وولاه وعظماء وأغنياء عصره تارة يذكرهم فيها بمبادئ الاداب القومية وتارة مؤنبا أياهم ومقوما أعوجاجهم وحينا مرشدا ومعزيا ولذلك كانوا يطلقون عليه «معلم المسكونة».

ومع أنه كان راهبا بسيطا فى دير بسيط بعيدا عن مراكز السلطة الدينية والزمنية لكن كان صوته مسموعا جداً لاعند أكابر مصر فحسب بل فى أنحاء العالم الاخرى من المسكونة وهو قاطن فى قلايته فى ذلك الدير لا يخشى من أن يقرع فى رسائلة عند الضرورة بطريركى عصره وهما الانبا توفيلس والانبا كيرلس لعيوبهما وسوء تصرفهما رغما من صلة القرابة التى كان تربطه بهما ويذكر أنه عندما انتشر خبر وفاة الانبا انطونيوس الكبير فى عام ٣٥٦ ميلادية وبلغ النبأ الى تلميذه القديس هلاريون مؤسس الرهبنة فى الشام قام من ديره بجوار مدينة غزة بصحبة أر بعين راهب وساروا الى جبل القلزم ليقوموا بواجب العزاء نحو ذلك الراحل العظيم معلمهم وكوكب البرية. فمروا فى طريقهم على مدينة الفرما واستراحوا فى ذلك الدير ثم استانفوا السير الى جبل القلزم. وليس هناك من المصادر ما يدلنا على مصير الدير المذكور بعد نياح مؤسسة القديس أيسيذروس وكم من الزمان ظل قائما، الا أنه مما لا يدعو مجالا الى الشك فى زوال هذا الدير بعد عام ١١١٨ للميلاد حيث أستولى «بودين الاول» ملك الفرنجة

على الفرما وأحرقها جنودة كما جاء فيما ورد بكتاب أبى المكارم «ورقة ٥٨» ولم تقم للمدينة قائمة بعد ذلك. وقد كان بالفرما أدير ة أخرى عديدة وبيع وكان مصيرها الخراب على يد الفرس والعرب.

دير اتريب:

كان قديما ديرا بمدينة أتريب عاصمة القليوبية وكانت هذه المدينة تقع على الضفة الشرقية للنيل «الفرع الدمياطى» بالقرب من بنها العسل حاليا وشمال شرقى منها وقد أشتهر هذه الدير فى التاريخ المسيحى لمصر بسبب أعجوبة كانت تحدث فى كنيسة الدير من كل عام خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين. وعرفت هذه الاعجوبة بأعجوبة السيدة العذراء بكنيسة مدينة أتريب فى أيام خلافة المأمون «٨١٣ /٨٣٣ ميلادية» ومن هذه الاعجوبة ان حمامة بيضاء كانت تنزل من مكان مجهول وتأتى فى ذلك الدير بكنيستة فى يوم ٢١ بؤونة وهذا اليوم يوافق عيد العذراء ثم تدخل المذبح ثم تغيب عن النظر الى مثل هذا اليوم من السنة التالية . وتدرجت هذه الاعجوبة من العجائب المعروفة باسم «مجموعة الاثنين والسبعين أعجوبة للعذراء مريم» وهى محفوظة باللغة العربية والحبشية وكثير من اللغات الاخرى فى مخطوطات عديدة ونشرت فى مؤلفين «ميامر وعجائب السيدة العذراء مريم لمجموعة من أقوال آباء الكنيسة القبطية الارثوكسية طبع على نفقة جرجس حنين «مصر ١٦١٩ للشهداء يوافق ١٩٠٢ ميلادية».

وقد نوة المؤرخون الشابوشتى فى «كتاب الديارات » وياقوت الحموى فى كتابة «معجم البلدان» والقزوينى فى مؤلفه «آثار البلدان» وكذلك أبو المكارم فى كتاب «كنائس وديارات مصر» الى الدير المذكور كما ذكره المقريزى فى كتابة «المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والاثار» ٦٢ فيقول «أن الدير قد تلاشى فى أيامه حتى لم يبق به الاثلاثة من الرهبان لكن الشعب والزائرين يجتمعون فى عيده ولا يمكننا تحديد تاريخ تأسيس هذا الدير أنما يرجح أن يكون قديم العهد أذ أن أتريب كانت أسقفية قبل سنة ٣٢٥ وقد قامت البطريركية القبطية مع بعض المهتمين بالاثار القبطية بأجراء مجسات وحفائر فى تلك المنطقة وكشفت عن بقايا من قطع الفخار وبعض التيجان الرخامية وربما اذا توسعت اللجنة الاثرية فى حفائرها قد تصل الى أشياء هامة تميط اللثام عن غوامض الدير المذكور وتاريخة وخصوصاً أن ما ذكر حسب

الوصف الوارد في ميمر أعجوبة كنيسة أتريب أنها كانت عظيمة الاتساع ومزدانة بكثير من أعمدة الرخام الابيض وبأبدع الزخارف.

دير سيرياقوس أو دير أبي هور:

سمي بدير سرياقوس لوقوعة بجوار بلدة سرياقوس الواقعة على بعد ١٧ كيلو متر شمال شرق القاهرة بمركز شبين القناطر بمحافظة القليوبية وسمى بدير أبى هور لانه شيد على أسم القديس أبا هور من سرياقوس وأستشهد فى أيام دقلديانوس بمدينة «أنصنا» فى اليوم الثانى عشر من شهر أبيب . وقد تناول خمسة من المؤرخين الكلام عن الدير المذكور ووصفوه وبمقارنة وصف الشابوشتى لهذا الدير مع وصف المقريزى يتبين أنه كان فى أوج عمرانه فى القرن العاشر الميلادى وأضمحل فى القرن الخامس عشر. وكانت لهذا الدير شهره عجيبة فى نوعها ـ وجدير بنا أن نذكر هنا وصف الشابوشتى له. «وهذه البيعة بسرياقوس من أعمال مصر، عامرة كثيرة الرهبان لها أعياد يقصدها الناس. وفيها على ما يذكر من أهلها أعجوبة وهى أن من كانت بها خنازير [1] يقصد هذا الموضع ليعالج به، فيأخذه رئيس الموضع ويأتيه بخنزير فيرسله على موضع الوجع فيأكل الخنزير الذى فية لايتعدى ذلك الموضع، فاذا تنظف الموضع زر علية من رماد خنزير فعل مثل هذا الفعل من قبل ومن زيت قنديل البيعة فيبرأ ثم يأخذ الخنزير فيذبح ويحرق ويعد رمادا لمثل هذا الحال.

ولا يختلف ياقوت والمقريزى فى وصفهما هذا الدير من حيث المعانى وختم المقريزى وصفه بهذه الملاحظة : وهو «أعنى الدير الى الان كذلك كما ذكروه» ثم قال : «ولهذه البيعة دخل عظيم لمن يبرأ من هذه العلة، وفيها خلق من النصارى» أما أبن فضل الله العمرى فى كتابة «مسالك الابصار فى ممالك الامصار» فتكلم عن مظاهر هذا الدير كقوله «بيعة أبى هور ـ وهى سرياقوس عامرة برهبانها مثرية بفضة قناديلها وذهب صلبانها كثيرة القلالى، مذهبة بالوقود جنح الليالى ولها أعياد مقصودة الاوقات منتظر الميقات». ولا نعرف متى أندثر هذا الدير وموقعه تماماً بالنسبة الى موقع القرية سرياقوس حاليا . وليست له بقايا.

---

(١) مرض من الامراض الخطيرة وهو عبارة عن عقد تظهر فى الرقبة أو فى الابط الحفر الاوروبية «خلف الورك» وهو مرض درنى تلتهب فيه العقد وتتضخم وتتجبس وتتقيح وهو معد عندما يتقيح وهو سل. وهذا من تشخيص المرحوم العالم الدكتور جورجى بك صبحى.

دير جميانه المشهور بدير أو كنيسة الست جميانة «أو دميانة»:

يقع فى وادى الزعفران فى منطقة البرارى على مسيرة ساعتين بحرى بلدة بلقاس وقد ذكرة المقريزى ص ٦٥ بقوله وهو على اسم بوجرج قريب من دير العسكر على ثلاثة ساعات منه، وكل ما وصل اليه علمنا يشهد بأن الدير أو الكنيسة المقامة بوادى السبسبان بالزعفرانة كانت على أسم تلك الشهيدة وقائمة بقرب المكان الذى عاشت فيه واستشهدت فية وتوجد بين المخطوطات العربية المسيحية سيرة «ميمر» باسم القديسة جميانة باللغة العربية تحتوى على خبر حياتها واستشهادها برفقة أربعين عذراء بوادى السيسبان بالزعفرانة فى البرارى فى عهد دقلاديانوس الكافر فى أواخر القرن الثالث الميلادى ووضع هذه السيرة الانبا يؤانس أسقف البرلس عما وجده بقلم «خرستودولس» تلميذ القديس يوليوس الاقفهصى كاتب الشهداء فى القرن السادس للميلاد.

أما القديسة دميانة فكانت الابنة الوحيدة لمرقس والى منطقة البرلس بأقليم الغربية. كانت شابة فاتنة الجمال ولما بلغت الخامسة عشر من عمرها رغبت فى حياة التبتل فشيد لها والدها قصرا خاصا اعتزلت فيه وأعزل معها أربعون من العذارى القبطيات من بنات أعيان الولاية ليمارسن حياة النسك معها. وحدث أن والدها عملا بأوامر دقلديانوس أنه أرغم أن يبخر للاوثان. فلما سمعت أبنته بذلك هالها الامر وأظهرت له خطأة وشجعته على التوبة فتاب وأعترف بأيمانة بالمسيح أمام الامبراطور فكان جزاؤه القتل. أما هى فأرسل اليها القيصر قائدا ومعه فرقة من الجنود ليحملها على أنكار أيمانها والا أعدمها. فانتهرت القائد وسخرت بأمر القيصر وأحتملت كل صنوف القسوة والعذاب بصبر. وأنتهى الامر بقطع رأسها ورؤوس العذارى الاربعين اللائى آمن بسببها وذلك فى أوائل القرن الرابع الميلادى.

ثم جمع القديس يوليوس الاقفهى (من أقفهى مركز الفشن) الاجساد ودفنها بالاكرام ودون سيرتهن. وأمر قسطنطين الكبير بتشييد كنيسة فوق القبر ودشنها البابا الكسندروس الاسكندرى فى ١٢ بشنس ورسم لها أسقفا وكهنة ولا يزال لها دير باسمها على مسافة ١٢ كيلو متر شمالى بلقاس ويؤمة القبط فى عيدها سنويا فى ١٢ بشنس.

دير سقارة[١]: ـ

لم تشتهر تلك المنطقة بما خلفتة من أروع الاثار التاريخية منذ فجر العصر المصرى القديم فحسب بل ظلت لها شهرتها أيضا منذ العصر المسيحى المبكر. فقد أنشأ فيها الرهبان المصريون ديرا كان يطلق عليه دير الانبا أرميا وهو في الغالب أسم المؤسس له ويرجع تاريخة الى القرن السادس الميلادى. وقد تناوله الدمار والخراب كما حدث لغيره من الاديرة حوالى منتصف القرن الثامن. وقام بالحفائر فيه العالم الاثرى «كويبل[٢] Quibeli» عام ١٩٠٧ حيث كشف عن أنقاض كنيسة رائعة برهن ما وجد من آثارها من أعمدة وتيجان وافاريز باهرة النقوش من الحجر الجيرى وبعض القبلات ذات الزخارف البالغة الدقة والكوات المزينة بصور الفرسكات بالألوان البديعة وتبرهن بجدارة على مقدار مابلغة فن المعمار والنحت الدقيق من المهارة والبراعةماينتزع الاعجاب. وقد نقلت هذه الاثار للاحتفاظ بها فى المتحف القبطى ومنعا من أن تمتد اليها الايدى العابثة وتزدان بها أهم قاعات فن النحت بالمتحف المذكور الان.

دير القصير بطرة:.

ويعرف بدير البغل. وقد تكلم عنه المؤرخ تقى الدين المقريزى صفحة ٥٠٢ فذكر أن الحاكم بأمر الله أمر بهدمه ونهب ما فيه . وفيه أقام القديس أرسانيوس الذى طلب منه الامبراطور أركاديوس تعليم أبنائه مدة . وهو مقام على أعلى الجبل وبه بئر منقورة فى الجبل وهو دير حسن محكم البناء. وفى هيكله صورة مريم فى لوح والناس يقصدون الموضع للنظر الى هذه الصورة.

---

(١) ذكر دير سقارة المؤرخ القبطى يوحنا أسقف نقيوس فى مؤلفة التاريخى:
H. Zotenberg. Chronique de Jean. eveque de Nikiou, P. 488;
J. Maspero et Gaston Wiet, Materiaux. P. 260
عندما تكلم عن «أنستاسيوس» الذى علم له فى هذا الدير أنه سيكون أمبراطور على بيزانس عام ٤٩١ /٥١٨م. وليس هناك معلومات أكثر من ذلك عن ذلك الدير ولا بقايا له.

(٢) أخرج كويبل من أنقاض حفائر دير سقارة هذا كثيرا من الاثار القيمة التى تكفى لتجهيز متحف كامل والمنطقة كانت عامرة بالإديرة والكنائس الفاخرة التى شيدها المسيحيون فيها منذ القرن السادس للميلاد.

وفى أعلاه غرفة بناها «أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون» ولها أربع طاقات الى أربع جهات وكان كثير التردد بهذا الدير معجبا بالصورة التى فيه يستحسنها ويشرب على النظر اليها. وهو مطل على القرية المعروفة باسم شهران وعلى الصحراء وعلى البحر [النيل]. وهى قرية كيرة عامرة وهو أيضا يعرف بدير شهران[1]. ودير القصير هذا هو أحد الديارات الهامة.

ويظهر أن التسمية بدير البغل لانه كان الدابة التى أستخدمها لنقل الماء من العين الى أعلى الدير المذكور.

أديرة حلوان:

حلوان من البلدان التى تحيط بها الصحراء والتلال فى أغلب جهاتها فكانت من المناطق التى تلجأ اليها النسك والرهبان لبعدها عن مباهج المدن وضجيج الحياة حيث يجدون الاماكن اللائقة لممارسة معيشة التقشف والزهد ولابد أن تكون قد عمرت كغيرها من البلاد المصرية الاخرى بقلالى الرهبان وبعض الاديرة المصرية منذ العصور المسيحية الاولى.

وقد أثبتت الحفائر التى قام بها الاستاذ زكى يوسف سعد فى حلوان عن وجود دير كبير والدليل على عظم أتساعة أنه كان يتكون من ست وستين حجرة موزعة على جوانبه. الاربعة. وفى الجهة القبلية منه كنيسة متوسطة الحجم. وقد قسم فناء الدير الى أقسام عدة. ففى الجهة البحرية منه أثار أشجار وهى غالبا كانت بمثابة الحديقة الخاصة بالدير. ومازالت بعض القنوات التى كانت تستعمل لريها باقية وهى مبنية بالطوب الاحمر. وفى الجهة القبلية مقبرة الدير لدفن الموتى من الرهبان. وقد عثر مع أحدى الجثث على خاتم من الفضة كتب على قاعدتة المستديرة اسم صاحبة ويدعى «قزمان». ويظهر أنه كان كبير رهبان الدير لانفراد مقبرته بالفخامة والاتساع. ويظهر ان تاريخ الدير يرجع إلى القرن السادس بسبب ما عثر عليه فيه من أوانى الفخار والقطع الزجاجية من العصر المذكور.

(١) يقال أن «الانبا برسوم العريان» أنفرد بدير شهران بالمعصرة فى أواخر حياتة حيث مارس فيه أعمال التقوى والبر حتى وفاتة ولذا دعى دير شهران بدير برسوم العريان اليوم ويقال أن جسدة أودع بكنيسة الدير المذكور.

وقد ذكر المؤرخان «الشابوشتى وأبو صالح» أن الوالى «عبد العزيز أبن مروان» أقام عند حضورة الى حلوان فى ذلك الدير ثم أمر بعد ذلك ببناء القصر للاقامة فى حلوان نهائيا. وقد ظل الدير زاهرا وعامرا الى ما بعد عام ١٥٢ هجرية بسبب العثور على قطع من العملة الذهبية والبرنزية يبدأ تاريخها من عام ٧٩ الى عام ١٥٧ هجرية.

وقد ورد فى تاريخ المؤرخ عبدالحكم أنه عندما تفشى الطاعون فى الفسطاط ترك الوالى عبدالعزيز بن مروان المدينة وأقام فى حلوان فى الصحراء عند مكان يدعى «أبو قرقورة[١]» حيث حفر عينا للماء ليروى منها أشجار النخيل التى غرسها فى حلوان.

كما يقول المؤرخ «الكندى» أنتشر وباء الطاعون فى مصر عام ٧٠هـ أى ٦٩٠ ميلادية. فترك الوالى عبدالعزيز بن مروان المدينة وسار الى الشرق وعندما وافقة المكان بقى فيه جندة هناك وكذلك الحرس والشرط. وبنى هناك مساجد وقصورا وعمر الاقليم بالناس وغرس النخيل والكروم الذى تغنى بها الشعراء. (ص ١٨/١٦ من كتاب الحفائر الملكية بحلوان تأليف سعد زكى يوسف).

هذا وقد وجد مدير الحفائر الملكية أيضا بجوار منطقة الحفائر التى ترجع مقابرها الى الاسرتين الاولى والثانية الفرعونية على أطلال دير قديم آخر وهو أصغر حجما من الدير السابق. وهذا دليل على أن المنطقة أجتذبت النساك للاقامة فيها.

صفحة ناصعة عن آداب وتقاليد الرهبان

للرهبان عادات وتقاليد تعد من الاداب النبيلة الفاضلة والتى تعبر عن صفاء النفس والقناعة فمنها على سبيل المثال أنه أذا رغب أحد الرهبان الدخول الى قلاية زميل له من الرهبان طرق بابه وهو يقول بالقبطية عبارة «أريد أغابى» بمعنى أصنع محبة أى تفضل وأفتح الباب. وهى تحية مصحوبة بالاستئذان. فأذا رد عليه «أغابى» دخل اليه. وأن لم يرد فينصرف الى حال سبيله. وكانت من عادة الراهب أن يتحتم عليه أن يمضى أيام حياتة داخل الدير

---

(١) «أبو» تحريف لكلمة الاب أو الانبا وهو الرئيس الروحى للرهبان وقرقورة تحريف لاسم صاحب الدير المذكور وهو جريجوريوس. وقد وجدت تلك الاسماء مذكورة مرارا بين كثير من الرهبان والقديسين.

حتى جاء عن لسان القديس أنطونيوس ومن عباراته المأثورة قوله «كما يموت السمك أذا خرج من الماء كذلك يموت الراهب اذا أبطاء خارج قلايتة» . وقد حدثنا تاريخ الرهبنة عن كثير من الاباء الرهبان الذين التحقو ا بالدير ظلوا بداخلة ولم يخرجوا منه حتى رحيلهم من هذه الدنيا. كما عرف عن بعضهم أنهم حتى مقابلة الاهل رفضوها بتاتا مثل تادريس تلميذ الانبا باخوميوس رفض أن يقابل أمة وكذلك أرشيليدس لم تقابلة أمه رغم الحاحها الشديد.

ومن قوانين الرهبنة أن يقيم الراهب فى ديرة ولا يبرحة الا اذا أنتدبة رئيسه ويحدث ذلك بعد ثلاث سنوات من رهبنتة . ويجب عدم تعيين الكهنة الرهبان خداما فى كنائس العالم.ويشترط فى الراهب أن يصرف جميع عمره فى الصوم والصلاة وكذلك فى الاشغال وتكرار لذكر الله وتلاوة لكتبة وتفهما لمعانيها وقراءة فى سير القديسين للتشبة بمحبية وتفكراً فى كمال صفاتة وعظائم مبدعاتة وحسن نظام مخلوقاتة . ومن الاعمال التى يشتغل بها الرهبان فى الدير هى الخدمات الكنيسة ـ العبادات النهارية والليلية. والقيام بتأدية ما يطلب منهم من خدمات للدير ويكلفون بها من رئيس الدير ـ والعناية بالمرضى من الرهبان.

ويجب أن يكون جماعة الاخوة مدمنين الصلوة والصوم وقراءة الكتب المقدسة كما يأمرهم رئيس الدير ويتناوبوا فى الخدمة جمعة بجمعة داخل الكنيسة وخارجها فى سائر الخدمات الكهنوتية والجسمانية. وأن يكونوا ذوى أخلاق جميلة بعضهم من بعض ومع كل واحد ولا يسعوا فى الاسواق والطرق سعياً بغير وقار ولا يناطق بعضهم البعض بالهزل والمرح ومتضاحكين متلاعبين بل يلزمون الصمت والوقار عند المخالفين لدينهم . أما تقدير الطعام والشراب فأن كان أكثر الدير فلاحين فليطعموا فى الاسبوع الاول آخر السادسة والاخرى آخر النهار وأن لم يكونوا فلاحين فليقنعوا بمرة واحدة أما فى التاسعة وأما فى آخر النهار.

وكما قال القديس باسيليوس فى نسكياتة على أخوة المجمع أن يكونوا كنفس واحدة ورأى واحد وأجسادهم وأن كانت كثيرة فقد صارت جملتها آلة واحدة مجتمعة لتلك النفس الواحدة المجتمعة برباط المحبة وكل واحد منهم لا يعيش لذاته وحده بلى بمرضاه الله. وأن يتجملوا بكل ما يزينة وأن لا يجاوروا النساء ولا يأكلوا اللحم فى أديرتهم ولا فى غيرها ولا يتزينوا ولا يتطيبوا ويشدون أوساطهم بمناطق من جلد غلاظ وأن تكون كسوتهم الصوف

الخشن لباس الزهد وكذلك شكلهم في جميع أمورهم ويتجنبون زى العلمانيين وعاداتهم كالاباء الذين أخذ عنهم أهل الفضل والخير وكانوا رهبانا بالحقيقة يقدرون فى أنفسهم أنهم موات. وكانت توقع عقوبات على كل من خالف من الرهبان قانون الرهبنة أو أرتكب ذنبا.

ومن النشرات القيمة التى نشرها الاستاذ «لفور Lefort» باللغات الاجنبية وترجمها البعض من الفرنسية على سبيل المثال ما يبين ما كانت علية الرهبنة وآدابها من حسن النظام ودقة التنفيذ فيما يلى:

«أى راهب ذم أخاه فليضرب مائة مطانوة فى كل يوم»

«أى راهب خلع منطقتة ونام بدونها يفرز من الكنيسة مدة ٤٠ يوما».

«أى راهب أكل سرا وشرب نبيذا فليفرز من الكنيسة ٥٠يوما».

أى راهب ضرب راهبا آخر فليعمل ٤١ مطانوة ويأكل خبزا جافا بدون آدام»

«أى راهب حلف ولا يكون كلامه نعم نعم لا لا فليخرج من الشركة وقتا ويضرب مائة مطانوة ويأكل الخبز الجاف خمسة أيام».

«أى راهب أخذ كتابا ولم يحافظ عليه واهمله فليضرب ٥٠ مطانوة»

ويحتم قانون الرهبنة أن لاينام الراهب وهو حاقد على أخيه بل قبل أن ينام يتوجه الى أخيه فى قلايتة ويضرب له مطانوة ويقول له «أخطأت فسامحنى» عملا يقول الرسول بولس أغضبوا ولا تخطئوا . لا تغرب الشمس على غضبكم ولا تجعلوا لا بليس موضعا. «أف ٤ : ٢٦/٢٧».

ولا تزال هذه العادة باقية للان. كذلك ذكر فى كتاب «المجموع الصفوى» المشار اليه بالباب العاشر أيضا ما يلزم على الراهب اتباعة ما ملخصة:

«ترك الزواج وترك الاقرباء بالجسد والقنايا والشهوات العالمية والمقام فى البرية ولباس

الصوف وشد الوسط بسير وترك المآكل اللحمية دائما وما لا تدعو الضرورة اليه من الخمر والاقتصاد فى الاغذية على ما لا تقوم الحياة الجسدانية بغيره».

«رئيس الدير يتحتم أن يكون قد نشأ فيه وعرف سننة وعلم منه جهاد فى الرهبنة وليس جاهل ولا خفيف الرأى ولم تعرف له هفوة فى ديره ولا خارجا عنه ويكون حسن الثناء ماهرا عالما بالقوانين الشرعية يفهم مايتنازع فيه ويقوم بالرئاسة باجتهاد وكان مرضيا من رئيسة فأذا شهدت له جماعة الرهبان بذلك من غير مراء يكون بينهم فى أمره فليجعل رئيسا» . وينبغى أن يدبر كل واحد بما يليق به مصنف الحاجة ومقدارها بالنسبة الى أختلاف إحوالهم بحسب التقدم والتأخر فى أعمارهم ، والزيادة والنقص فى شغالهم والتعب والراحة فى صنائعهم والعظمة والصغر فى هيئات ابدانهم والقرب والبعد من حالات عاداتهم والصحة والمرض فى أمزجتهم . وينبغى أن تكون سيرته كاملة فى جميع وصايا الله لكيلا يظن أحد أنه غير ممكن أن تقام وصايا الله وينبغى أن يكون شكله وعمله اذا كان ساكنا يقنعهم فى التعليم أكثر من كلامه» هذه لمحة لبعض الاداب والتقاليد والقوانين التى يتحتم على الرهبان الاقتداء بها والمحافظة عليها طوال حياتهم وأنها نماذج من المثل الانسانية النبيلة والخلق الفاضل القويم حقا.

الرهبنة عند النساء:

ليس من الانصاف أن نتكلم عن قيام الرهبنة عند الرجال دون أن نتناولها بالحديث عند النساء خصوصا وقد ورد فى أقوال كثير من كبار الرحالة من العلماء والمؤرخين ما يؤيد أن منهن من أظهر من ضرب المثل العليا الانسانية والبطولة فى الزهد والتبتل وأنكار الذات ما لم يقم به الا أشجع الافاضل من زعماء الرهبان.

وفى الواقع أن النساكة كانت معروفة لدى النساء فى العصور التى سبقت ظهور المسيحية فى مصر ويستدل على ذلك من وجود اللاجئات فى المعابد المصرية على غرار ما سمعناه عن وجدو لاجئات معبد سرابيس وغيرهن من لاجئات معابد آمون فى مدينة طيبة. غير أن البحث عن بدء الحياة النسكية بين النساء فى القرون الاولى للمسيحية مشوب بالابهام والغموض، وليس هناك من الادلة ما يشير اليه كتاب العهد الجديد عن قيام الكنيسة بالانفاق على الارامل

اللائى اشتهرن بحسن السيرة واللواتى طلب منهن أن يصبحن تحت أشراف الكنيسة فى بيوت خاصة بالعذارى . وكانت تلك البيوت تضم بلا شك عددا من العذارى اللواتى فضلن عيشة البتولية والقيام بخدمة الكرازة.

ويلاحظ أن أولئك العذارى لم يعشن فى بادئ الامر حياة رهبانية أنعزالية بل عشن فى بيوتهن ومن خالت فى نفسها القدرة على التبتل وممارسة حياة التنسك أعتزلت عن سائر زميلاتها فى نفس المنزل ثم أنتقلت بعد ذلك الى بيوت العذارى لممارسة حياة النسك. وفى أحدى تلك المنازل التى حوت العذارى اودع الانبا أنطونيوس مؤسس الرهبنة الكبير أخته قبل شروعة فى الانعزال فى الصحراء ومباشرتة للرهبنة. وفعل كذلك الانبا ديمتريوس الكرام وهو البابا الثانى عشر فى عداد البطاركة «١٨٨/ ٢٣٠م» أذ أودع زوجته فى تلك المنازل وكان قد تعهد معها عند زواجه على معيشة البتولية وحذأ حذوه أيضا الانبا آمون مؤسس الرهبنة فى نيتريا بوادى النطرون أذ الحق زوجته كذلك فى أحدى تلك المنازل ومن ذلك يمكننا أن نتبين أن بدء «الديرية النسائية» كانت على أغلب الاحتمالات أسبق الى «ديرية الرجال».

وقد أنتشرت بيوت العذارى فى البلاد المصرية خلال القرن الثالث الميلادى وكثر ظهور المبشرات والواعظات اللواتى تتلمذن على أيدى معلمى ذلك العصر، ومنهن من قاسى وتحمل الكثير من صنوف القسوة والعذاب والاضطهاد حتى وصل فى نهاية الامر الى الاعدام وعلى الاخص فى عهد الطغيان الرومانى وعلى سبيل المثال ما حدث للقديسة دميانة وتابعتها الشهيدة اربسيما وغير هن من العذارى كثيرات حتى رفعتهن الكنيسة الى مرتبة الشهداء ويذكر تاريخهن سنويا فى أعياء استشهادهن .

أما عن تاريخ القديسة بربارة مثلا وكانت من مشاهير الشهيدات فيروى أنها كانت فتاة عذراء رائعة الحسن والجمال وولدت فى أوائل القرن الثالث للميلاد فى أحدى مدن آسيا الصغرى من أب ثرى وغنى وقد تلقت علومها على يد العالم اللاهوتى العظيم «أوريجانوس» المصرى وأعتنقت الديانة المسيحية ورفضت الزواج ممن تقدم لها من أبناء الاسر العريقة وآثرت أن تكرس حياتها طاهرة لخدمة الله. وقد حاول والدها أن يقصيها عن عزمها وأستعمل معها من الوان القسوة والتعذيب ما لا يطاق لتقلع عن غيها فلم يزدها ذلك الا أستمساكا بما

قر عليه رأيها . واخيرا شكا والدها أمرها الى الوالى الرومانى وقتئذ وهو «مرقيان» واتفق معه على زيادة تعذيبها الا أنها احتملت كل أنواع العذاب بصبر عجيب واضطر الوالى فى النهاية الى التخلص منها بقتلها هى وتابعتها القديسة «يوليانا» وقد شيدت لها كنيسة كرست على أسمها بمصر القديمة منذ القرن السادس الميلادى غالباً وقد وصفها المؤرخ تقى الدين المقريزى فى عصره وقال أنها كانت أجمل كنائس القاهرة وقيل أيضا أنه كان بقربها دير للراهبات كانت تلجأ اليه العذارى اللائى رغبن فى تكريس حياتهن لله وخصصن أنفسهن لحياة الرهبنة.

أما عن تطور حياة النسك عند العذارى الى حياة الشركة الديرية فقد أستقرت وثبتت عندما أسس الانبا باخوميوس لاختة ديرا فى الصعيد على مقربة من مدينة اخميم وكان يضم أربعمائة من العذارى . ثم أتبعه بدير آخر عندما زادت الاعداد منهن . وقد سن لهذين الديرين قانونا سار علية العذارى اللائى التحقن بها ثم أنتشرت بعد ذلك أديرة النساء فى جميع أنحاء القطر ثم أنتقل هذا النظام أيضا الى الخارج وأنتشر فى كثير من ممالك أوروبا وكذلك أقام الانبا شنودة ديرا للنساء تحت رئاستة وكان به من الراهبات عددا هائلا بلغ نحو من ١٨٠٠ راهبة.

الرحالة بالاديوس ومشاهداته لا ديرة النساء:

وقد ذكر الاب «بلاديوس» فى اواخر القرن الرابع الميلادى وصفا طريفا لاحد اديرة النساء التى زارها فى منطقة «أتريب قرب سوهاج . وقد شيده أحد الاغنياء وكان يشرف عليه أحد شيوخ الرهبان الذى أقام فيه حجرة عالية لا تتصل بالراهبات فى داخل الدير وكان ينفتح بابها لخارج الدير. ويظهر أن مهمة ذلك الشيخ هى مراقبتهن أحيانا ثم تزويدهن بالتعاليم والمواعظ التى كان يلقيها عليهن من مكانه الرفيع ثم ذكر أيضا أنه كان هناك فى مدينة «أنتينوى» ببلدة بويط قرب مدينة ديروط وتسمى اليوم بلدة الشيخ عبادة قرب الروضة شمال ملوى حوالى أثنى عشر ديرا للراهبات . وكانت تشرف على أحدى هذه الاديرة الام «ناليس» التى قيل عنها أنها لم تجد ما يدعو للاحتفاظ بمفتاح الدير لديها لمنع الراهبات من الخروج. وهذا دليل على أن النظام الرهبانى لديها لم يستدع وجود أى نوع من التزمت فى معاملة الراهبات.

أما الرئيسة المذكورة وقد قضت في النسك ثمانين عاما وكانت محبوبة جدا بين الراهبات وقد قامت معها راهبة تدعى «تاؤور» مدة ثلاثين عاماً. ثم ذكر أحد الاثرياء ويدعى الياس أنه أقام ديرا للراهبات بجهة «أتريب» وتولى الانفاق عليه من مالة الخاص. وكذلك ذكر بعض المؤرخين وجود اديرة عديدة للراهبات في اقليم «أكسيرنكوس» أى « البهنسة» مما يؤيد أنتشار تلك الاديرة لكثرة أقبال النساء والعذارى على حياة الزهد والعبادة وقد تكلم بلاديوس عن الفضائل والزهد والتقشف الذى ظهر من كثير منهن. كذلك روى عن الاخت «أو لمبياس» وما قامت به من أعمال البر وتوزيع ثروتها على الفقراء ووهبت حللها الحريرية للمذبح ولبست الخرق البالية، وكانت تقضى معظم وقتها في الصلاة والتعبد وتقوم بعمل الخبز والقربان ولا تأكل اللحم بتاتا وتكتفى بالخبز الجاف المغموس فى الخل والخضر المطبوخة بالزيت أيام العيد.

أنتشار أديرة الراهبات غرب مدينة الاسكندرية

جاء فى تاريخ البطاركة ما يبين أنتشار الاديرة منذ النصف الثانى من القرن السادس الميلادى غرب الاسكندرية حتى وصلت الى ٦٠٠ دير عامرة بالرهبان والراهبات مثل خلايا النحل كما نوه كتاب السنكسار أيضا مراراً عن وجود أديرة النساء بظاهر الاسكندرية ولا سيما الجهة الغربية منها فيما بين القرن الخامس والثامن الميلادى، وروى أن الناسكة القديسة «مريم» دخلت الى أحدى أديرة العذارى بظاهر الاسكندرية ولبست الثوب المقدس ويقال أيضا أن الانبا بقطر رئيس دير الزجاج فى المنطقة أيضا سلم أم القديس تاوفيلس الراهب الى دير الراهبات هناك كما جاء فى «كتاب السنكسار تحت ١٣ طوبة».

شدة التقشف والميل للعزلة بين الراهبات

ويظهر أن النظام فى أديرة الراهبات لم يمنع من أعتزال الكثير منهن الى حياة الرهبنة الانفرادية . فقد تدرج بعض الراهبات فى حياة التقشف الشديد حتى أمكن بعضهن أن يمارسن عيشة الرهبان الخشنة القاسية ويلجأن الى سكنى البرارى والكهوف والقبور والصحارى وكن يتنكرن فى زى الرهبان ولم يعرف أنهن من الراهبات الابعد وفاتهن وعند تجهيز عملية

الدفن. وعلى سبيل ذلك الراهبة «أسكندرة» التى حبست نفسها خارج مدينة الاسكندرية عشر سنوات لا تكلم فيها أنسيا وتأخذ طعامها من فتحة صغيرة كما عثر الرهبان على راهبات منفردات على مقربة من صحراء نيتيريا فى وادى النطرون وكان من بينهن أوربيات رغبن فى حياة العزلة والتبتل مثل الراهبة «ميلانيا» التى جاءت الى وادى النطرون فى أواخر القرن الرابع الميلادى وقامت بمحادثات مع رهبانة ثم انتقلت الى فلسطين لتمارس حياة نسكية جديدة.

وقد حوى وادى النطرون أيضا راهبات مقنعات كن يلبسن زىّ الرجال مثل الراهبة «ليديا» التى يقال عنها أنها كانت من مشاهير الاديبات وجاءت من منطقة تسالونيكى ببلاد اليونان وتزيت بزى الرهبان وزارت مقار السكندرى واقامت مدة عام فى أحدى القلالى فى «سيليا» وكانت تقابل القديس المذكور كأحد الرهبان كل أسبوع. ومن الراهبات المنفردات الراهبة «أبوليناريا» أبنة الامبراطور «أنتيموس» الكبير وقد فضلت حياة التبتل ورفضت الزواج وسافرت فى قافلة للحج فى بيت المقدس ومنها الى ا لاسكندرية ولبست رداء الرهبان ثم ذهبت الى برية الاسقيط بوادى النطرون وتسمت باسم الراهبة «دورثيوس» فى زمن القديس مقار الكبير . وظلت تمارس النسك كأى راهب آخر ولم يعرف أمرها الا بعد وفاتها وتجهيزها للدفن. كما وجدت راهبات أخريات مقنعات أنتشرن بين رهبان وادى النطرون. بعضهن من تطورت معيشتهن الى نوع من الديرية ودخلن ديرا للنساء على مقربة من نيتريا أمثال الراهبتين بوتيوس وبوزبيت.

ومما يدل على تصميم الراهبات على التمسك بعيشة التبتل وعدم العودة الى الحياة العالمية ما ورد عن الراهبة «أفروسينا» التى سمت نفسها باسم «زبرجد» أنها رفضت الدخول لدير الراهبات الواقع بغرب الاسكندرية أذ قالت فى نفسها مارددته : « فان أنا ذهبت الى دير النساء جاء والدى وأخذنى فيؤدبنى الى شهوات نفسه ولكن أن أنا أمضى الى ديارات الرهبان الرجال وأتزىّ بزى الرجال وأجعل نفسى خصى». وكذلك ذكر أحد الاباء القديسين من الرهبان كان يسير مع بعض الاخوة فى البرية ذات يوم فسمعوا صوت أنين أنسان عند حافة الجبل فلما تتبعوه وعرفوا مصدره وجدوا مغارة بداخلها سيدة وقالت لهم عند سؤالهم أياها

أنها قاطنة فى ذلك المكان منذ مدة طويلة حوالى ثمانية وثلاثين عاماً - فكانت تعيش طوال تلك المدة على أكل العشب ولم تر أحداً حوالى الثمانية والثلاثين عاماً وأن الله أرسلهم ليدفنوها. وبعد ما فرغت من حديثها هذا أسلمت الروح، وهذا ما عرف صدفة عن بعض تلك الراهبات المقنعات. أما ما لم يعرف عن أمرهن من غيرهن من الراهبات فلابد وأن يكون عدداً كبيراً نظراً للغموض والتخفى الذى لازم حياتهن فى داخل تلك الصحارى الموحشة وقلاليها.

ومن ذلك يتضح أن النساء نافسن الرجال فى احتمال أقسى أنواع المعيشة النسكية كما ضربن من أمثلة البطولة والتضحية ما يقدم عليه أشجع الأبطال وجابهن كل ألوان التعذيب المرير وأهواله الوحشية بالفخر والترحاب وهانت عليهن أنفسهن وقدمنها فى النهاية كقرابين طاهرة فى سبيل التمسك بديانتهن رافضات كل الأمجاد الباطلة الزائفة فنلن أكاليل الطهر والخلود من رب المجد هناك فى أورشليم السمائية.

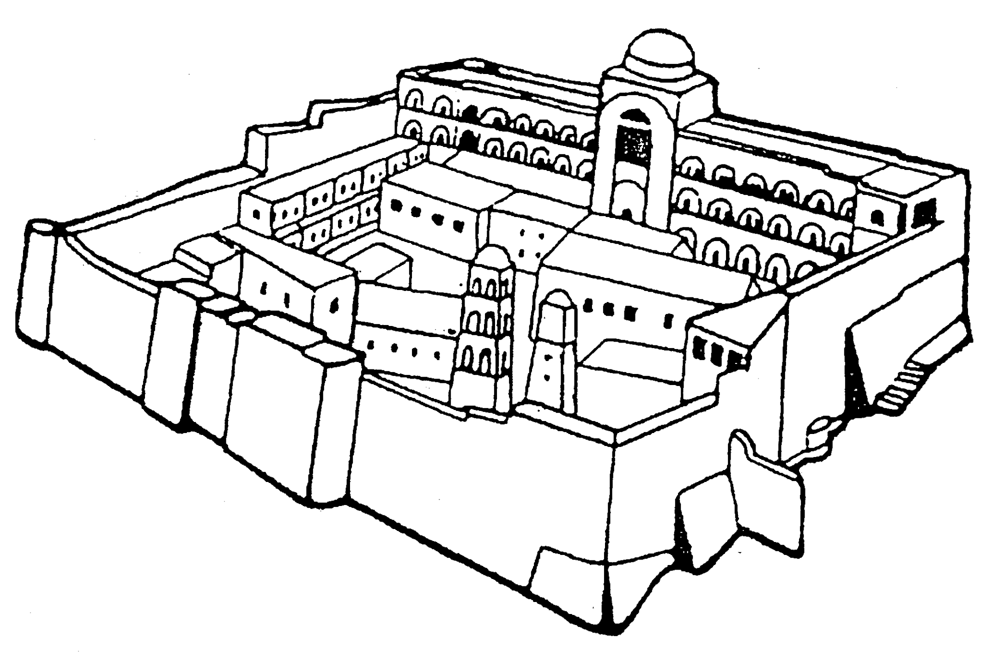
هذا وكان ازدهار أديرة العذارى منذ القرن الرابع وظلت زاهرة حتى القرن السابع أى بدأت فى نفس العصر الذى نشأت فيه وترعرعت فيه أديرة الرهبان وفى أماكن مجاورة لأديرتهم كلهم فرعان ثابتان من أصل شجرة واحدة سطعت أنوارها كاللآلئ وعمت البلاد جميعها، حتى أفاءت على المسكونة بأجمعها خلال الأجيال الغابرة مما فاض من غزير علومها وفنونها وتعاليمها وروحانياتها السامية فأخرجتها من الظلمات إلى النور. ثم انطفأت أديرة الراهبات مع نفس الزمن الذى انطوت وانمحت فيه أديرة الرهبان أيضاً وعفا عليها الزمن منذ العصور الوسطى.

منطقة سيناء [1] واهميتها فى النسك

فى قلب شبه جزيرة سيناء يقوم الدير المشهور المعروف باسم دير سانت كاترين شامخاً كالطود العظيم تحوطه هالة من المهابة والجلالة، قد أسبغت على المنطقة وديرها تلك الشهرة الفائقة، بل وامتاز بمكانة مرموقة فى البلاد المصرية وغيرها، وجعلت منه كعبة ذائعة الصيت

(١) «مفكات» هو الاسم المصرى القديم لمنطقة سيناء ومعناها الفيروز.

يؤمها الحجاج عامة من مشارق الارض ومغاربها ، ومن جميع الممالك على أختلاف اجناسها ومللها بقصد الزيارة ورؤية آثار المنطقة المقدسة وما تحملة من ذكريات دينية خالدة.



دير سانت كاترين

نساك مصر والتجاؤهم لمنطقة سيناء:.

أجمع المؤرخون على أن مصر تبوأت المكانة الاولى فى أعتناق الديانة المسيحية منذ ظهورها حوالى منتصف القرن الاول الميلادى تقريبا على يد الرسول مرقس، وقلما عانى شعب من شعوب الارض قاطبة من صنوف العذاب المرير والاضطهاد الوحشى مثلما قاسى قبط مصر فى أول الأمر على يد أباطرة الرومان لاعتناقهم تلك الديانة. وهذا دفعهم بطبيعة الحال الى التحول الى عيشه النسك والرهبنة منذ القرن الثانى والثالث للميلاد، وهرب الكثير منهم الى البرارى والقفار ومنهم الكثير من رحل الى منطقة شبة جزيرة سينا وسكنوا فى مغاورها قبل بناء الدير المذكور بأعوام عديدة ، وزخرت سيناء بالنساك من مصر وغيرها من ولايات

الامبراطورية الرومانية، وفضل كثير منهم البقاء حيث روى أن القديسة هيلانة والدة الامبراطور قسطنطين العظيم زارت ذلك المكان منذ عام ٣٣٦ للميلاد، وأمرت ببناء برجين فى المكان الذى بنى فيه الدير فيما بعد، بقصد حماية النساك من غارات البدو عليهم. ولم يمنع ذلك من تعرضهم لهجماتهم الوحشية المتكررة . ولم تكن زيارة القديسة هيلانة لهذا المكان المقدس هى الاولى من نوعها قبل أنشاد الدير المذكور ، بل روى أن القديسة «سيلفيا» أيضا ذهبت الى سيناء عام ٤٦٠ للميلاد ، وتركت وصفا طريفا لتلك الرحلة عند نزولها من الجبل حيث رأت كنيسة صغيرة وحولها قلالى النساك فى المنطقة المذكورة.

الامبراطور جوستينيان وتحصين أماكن النساك:

على أن حياة الرهبان لم تكن تخلو من الويلات والمصاعب اذا كثيرا ما كانوا يتعرضون لهجوم قبائل البدو ونهب أمتعتهم والتنكيل بهم وهدم مساكنهم وقلاليهم حتى بعد أن أصبحت المسيحية الدين الرسمى للامبراطورية الرومانية. وعلى ذلك قررالرهبان فيما بينهم على أنتداب وفد منهم للرحيل الى القسطنطينية لمقابلة الامبراطور جوستينيان حيث شكوا اليه حالهم وطلبوا منه أن يبنى لهم حصنا يضم شملهم ويحميهم من هجمات البدو فرق لحالهم وأستجاب الى ملتمسهم وبنى الدير الحالى عام ٥٤٥ للميلاد ثم بنى أيضا الكنيسة الكبرى على ذكرى وفاة الامبراطورة «تيودورا» زوجته. كما أرسل اليهم حامية من مائتى رجل بعائلاتهم. مائة من بلاد الروم ومثلها من مصر ثم أمر بمرتب من الحبوب يرسل اليهم سنويا من مصر لقوتهم وسكنوا بجوار الدير هذا. وقد تشتت أغلبهم على أثر الفتح العربى وزوال دولة الروم وسكنوا ا لبادية ودخلوا فى الاسلام من زمن بعيد. وقيل أن منهم مازالوا يقيمون بجوار الدير ويخدمون الرهبان بأجرهم والرهبان يحسنون اليهم ويأخذون بناصرهم حتى اليوم.

دير سانت كترين واصلة:

لم يكن يحمل الدير عند أنشائه أسم القديسة كترين بل كانت كنيسة وقتئذ تسمى «بكاتدرائية التجلى» ولم يطلق أسمها على الدير الذى أشتهر به الا فى القرن التاسع الميلادى حينما نقلت بقايا جسدها وحفظت فى داخل الكنيسة التى كرست على أسمها. ومنذ ذلك التاريخ عرف الدير باسم دير سانت كترين.

أهمية الدير وآثاره الخالدة:

أى جانب ما يمتاز به دير سانت كترين من ذكريات روحية فهو يحتفظ بآثار باقية قيمة وكنوز ثمينة لا تقدر جمعت منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر فالكاتدرائية الكبرى نفسها بالدير تعتبر متحفا حقيقيا من آثار الفنون المسيحية الجميلة وتبهر الناظر مما فيها من أغنى وأروع مجموعة من الصورة القديمة التى عرفها التاريخ. وناهيك عما يحوية هيكل تلك الكنيسة من نقوش رائعة تخلب ألباب الناظرين وتمثل مناظر للسيد المسيح بين الرسل والانبياء، ومؤسسى الكاتدرائية وكلها مصورة بقطع الفسيفساد ببراعة تامة وأتقان منقطع النظير كما يحوى هيكلها أيضا تابوتين من الفضة ورسم على غطاءت كل منهما صورة القديسة كاترين مصنوعة من الذهب الخالص المرصع بالاحجار الكريمة وهما من هبات قياصرة الروسيا بطرس الاكبر عام ١٦٨٨ وأسكندر الثانى عام ١٨٦٠م وقد أستخدما فى حفظ بعض الهدايا الثمينة التى كان يبعثها الملوك والملكات الى الدير خلال العصور المختلفة.

على أن أثمن هذه الكنوز ذلك التابوت المحفوظ تحت قبة المظلة على يمين المذبح وهو يحوى صندوقين من الفضة المزخرفة أحدهما يضم جمجمة القديسة كاترين يحوطها تاج ذهبى مرصع بالجواهر والاخرى يضم يدها اليسرى وتزينها الخواتم الذهبية المرصعة بالاحجار الكريمة أيضا. وهذه البقايا من رفاتها يعرض للرؤيا أمام رهبان الدير وحجاجة فى يوم ٥ نوفمبر من كل عام وهو يوافق عيد ذكراها السنوى. ومن الاثار التى تلفت الانظار تلك الابواب الخشبية وما تحوية من حشوات منقوشة ومنها باب مدخل الكنيسة الخشبى. وقد زين بنقوش دقيقة ترجع الى العصر الفاطمى. أما باب الصحن فترجع زخارفة الفنية الى القرن الخامس الميلادى وتمتاز رسوم حشواته بمناظر خلابة تمثل الحيوان والطير والنقوش النباتية والازهار أما هيكل كنيسة العليقة فيضم مجموعات هائلة قديمة وحديثه من الملابس الكهنوتية المطرزة بخيوط الذهب والفضة والرسوم الجميلة وتيجان الاساقفة الذهبية الرائعة والكؤوس والصوانى الدقيقة الصنع وكذلك كثير من الصلبان الذهبية والفضية على اختلاف أحجامها وأشكالها والاناجيل ذوات الاغطية من الذهب الخالص والفضة الا أن أهم من تلك الكنوز وأبعدها أثرا فى النفس هى تلك البقايا من أجساد القديسين الذى يحتفظ بها الدير المذكور مثل جمجمة القديس يوحنا فم الذهب. وذراع القديس باسيليوس والفك الاسفل للقديس جريجورى من نيسا الى جانب ذخيرة كاترين نفسها.

ويوجد بالدير مسجد اسلامى قائم بجوار الكاتدرائية داخل الدير وهو يعتبر من أعظم الاثار ذات المظاهر الهامة في دير سانت كاترين. و بناؤه بسيط مستطيل الشكل ومساحتة صغيرة حوالى عشرة أمتار فى الطول وسبعة أمتار فى العرض وبه عمودان قويان ترتكز عليهما العقود التى تحمل السقف. وقد تم أنشاؤه فى عهد الدولة الفاطمية بناء على رغبة الوزير «أبو جعفر أنوشتكين» عام ١١٠٦م أثناء حكم الخليفة «الامر بأحكام الله» كما و رد ذلك فى سجل النص المكتوب بالكوفيه على منبر الجامع. إما المئذنة فتوجد فى الشرق مواجهة للبناء الخاص بجرس الكنيسة. وهى عبارة عن برج منفصل يبلغ أرتفاعه حوالى عشرة أمتار تقريبا. وأهم الاثار الباقية فى داخل الجامع هما المقرأة الخشبية والمنبر الخشبى ويرجع تاريخهما الى عام ١١٠٦ للميلاد . أما المنبر ففريد فى نوعة ولا يوجد ما يماثل هذا الاثر فى العالم الاسلامى عامة سوى منبرين آخرين باقيين أحدهما يوجد فى مدينة قوص بالوجه القبلى وثانيهما محفوظ فى بلدة حبرون فى فلسطين وكلاهما من العصر الفاطمى أيضا والنقوش فى حشواتها من طراز العصر المذكور وتحتوى على الزخارف التلقيدية من أشكال النبات والمناظر الهندسية.

أما المسجد المذكور فقد ورد مرارا فى أوصاف حجاج الغرب الذين كانوا يحجون الى الدير فى العصور الوسطى وكانت كتاباتهم بطريقة تدعو الى الاستغراب والعجب. فمنهم مثلا ما يدعى «يعقوب من مدينة فيرونا» «الذى زار الدير فى عام ١٣٣٥م» وكذلك «ليوناردو فرسكوبالدى» الذى جاء عام ١٣٨٤م قد سجلا وجود هذا المسجد بنفحة تملاها الدهشة والروعة التى يتمثل فيها عظم التسامح الدينى. وهذا الامر أن دل على شئ فإنه يوضح حقيقة أن الغرب لم يكن قد أعتاد أن ينظر بتلك النظرة السمحة الى موضوعات تتعلق بالعقيدة أو الدين فى بلادهم مثلما كان مألوفا لدينا فى مصر وهذا مما لا يدعو مجالا الى الشك على أن مصر كانت أكثر تسامحا من أقطار أوروبا فى تلك العصور. والمشرف على خدمة الجامع طائفة من أحدى القبائل تعرف بالجماليين. وهم يحتفظون بمفاتيح المسجد ويعنون بكل ما يتعلق به من شئون النظافة والخدمة يتوارثون هذا العمل فيما بينهم ولاينازعهم فيه أحد ويتقاضون ما يلزمهم من الجراية يوميا أو أسبوعياً من رهبان الدير.

عهد الامان لرهبان دير سانت كترين

ومن أثار الفتح الاسلامى التى يعتز بها نساك دير طور سينا ذلك العهد الذى قيل عنه ان

النبى عليه السلام منح رهبان الدير المذكور عهداً مكتوباً لحماية أرواحهم ومتاعهم تحت الحكم الاسلامي. كما قيل أن ذلك العهد الاصلى قد أستولى عليه السلطان سليم الاول عند فتح مصر عام ١٥١٧م. وأعطى الرهبان صورة منه مترجمة بنصوصة وممهرة بأمضائه ومهما يكن من شئ فسواء أكان العهد النبوى حقيقيا أو مزيفا فالواقع أنه جدد بطريقة من الطرق ، وأن أمتيازات الحماية والرعاية لنساك الدير ظلت قائمة.ومن طريف تقاليد بدو سينا ورهبانها أيضا أنهم يزعمون أن النبى عليه السلام زار طور سيناء على جمل وأن الجمل المذكور ترك أثر قدمه على قمة الجبل.

مكتبة الدير:

ويحتوى الدير على مكتبة من افخر وأروع مكتبات الدنيا وفيها من الكنوز العلمية والفنية والاثرية ما يفوق كل وصف وتزخر بمخطوطات لاحصر لها من جميع اللغات والاشكال والعصور ، وليست كلها خاصة بالدير أو اللاهوت، بل هى من جميع فروع العلم والمعرفة ، كما أنها تمتاز بمجموعة نادرة من الوثائق واللفائف المختلفة الاحجام والاطوال. وقد يصل بعضها الى عدة امتار فى أطوالها ، وهى عبارة عن مراسيم وفرمانات وعهود أصدرها خلفاء وسلاطين الاسلام توصية لصالح رهبان الدير والعمل على تأمينهم وراحتهم، وهى تزيد على الالفين من القطع، وأقدم تلك الوثائق عهدا والمحفوظة الآن فى مكتبة الدير يرجع تاريخها إلى اوائل القرن الثانى عشر الميلادى أى منذ العصر الذى أنشى فيه الجامع فى العصر الفاطمى.

وأعظم النفائس الخطية الذائعة الصيت التى كانت تضمها مكتبة الدير هو المخطوط النادر المعروف باسم «توراة سيناء Codex Sinaiticus»وقيل أنه يرجع الى القرن الرابع الميلادى، وقد اكتشفه فى مكتبة الدير العلامة الروسى «تيشندورف» عام ١٨٩٦م ، وحمله الى بطرسبورح وعرضه على قيصر الروسيا وقتئذ، فاشتراه بمبلغ من المال الى أن جاءت الثورة السوفيتية ، وتمكن المتحف البريطانى فى لندن من الحصول عليه بعد أن دفع مبلغا باهظا قدره مائة ألف من الجنيهات الذهبية. أما «التوراة السريانى Codex Syriacus» ، وهو من أندر الكنوز الدينية من القرن الخامس للميلاد، فلا يزال باقيا فى المكتبة، وهو الترجمة السريانية للتوراة ، ومأخوذ من نص يونانى يرجع تاريخه الى حوالى القرن الثانى، ولهذا يظن أنه أقدم ترجمة عرفت للكتاب المقدس.

موارد الدير من روائع الهبات والنذور

أذا رجعنا الى سجلات الدير لا دركنا العجب من كثرة الاعداد الوفيرة من المحسنين على الدير ورهبانه فشملت الاباطرة والملوك والباباوات والامراء والعظماء منذ أقدم العصور الوسطى، وكان البطاركة والاساقفة من جميع أنحاء العالم المسيحى ينظرون بالود والاحترام الكلى الى تلك المنطقة وكان «جريجورى» بابا روما العظيم فى القرن السادس من أعظم معضدى هذا الدير، كما كان الاخلاص والمحبة بين رهبانة وبين رجال الدين فى أوروبا باستمرار حتى أيام الخلافات والانفصال. وكانت الهدايا والنذور والعطاءات والتبرعات ترسل باستمرار الى الدير وكثير من الملوك والامراء والعظماء على اتصال دائم برهبانه،كما كانوا يمدونه بالهدايا والهبات السخية أمثال شارل السادس ولويس الحادى عشر ولويس الرابع عشر من ملوك فرنسا وايزابيل ملكة اسبانيا والامبراطور مكسيمليان الالمانى وغير ذلك من أمراء عديدين. على أن معظم المعضدين المخلصين لرهبان هذا الدير كانوا قياصرة الروسيا، وكانوا يمدون الدير بالهدايا والهبات الثمينة العديدة أيضا، وما زال الرهبان يحتفظون بآثارهم داخل الكنيسة ويعتزون بها.

زوار الدير وحجاجه:

أما عن الحجاج والسياح المختلفين الملل والاجناس الذين كانوا يؤمون الدير ومنطقته فلا يمكن حصر أعدادهم الوفير، وكثير منهم كانوا من شخصيات ورتب عالية. وقد كتب أحد الرحالة السويسريين المشهورين وهو« بورخارت» فى أوائل القرن التاسع عشر وصفا فى زمنه عن عدد السياح والزوار الذين وفداو لزيارة المنطقة من الاجناس المختلفة وكان وفيرا وعلى الاخص الارمن والمصريين والقبط المسلمين. وقيل أيضا أن أكثر الشعوب زيارة لهذا الدير كانوا من الروس، فيؤمه الرجال منهم والنساء فى أفواج عديدة ويمكثون فيه عدة أيام يزورون فيها أغلب مناطقه وضواحيه، وكثيراً ما كانوا يقدمون النذور والهدايا وما زالت تنهال على الدير ورهبانه حتى اليوم أذ حدث بعد نهاية الحفل التقليدى الذى تم فى المكان فى ذكرى مرور أربعة عشر قرنا من الزمان على أنشاء دير سانت كاترين فى شبه جزيرة سيناء، حيث أقيمت فيه الاحتفالات الدينية التقليدية، وكان ذلك يوافق يوم الاحد ١٨ سبتمبر من عام ١٩٦٦ بحضور جلالة ملك اليونان قسطنطين والرئيس القبرصى الأسقف مكاريوس وعدد كبير من المطارنة والاساقفة من ممثلى كنائس المسكونة، وفى هذه المناسبة فى ختام الاحتفال أهدى الملك

قسطنطين الى مطران الدير قلادة اليونان الكبرى وهى مرصعة بالماس، وكذلك قدم الرئيس القبرصى هدية تذكارية فاخرة عبارة عن صينية من الفضة الخالصة، ثم أهدى جميع المطارنة والاساقفة الحاضرين من الدول المختلفة أيضا هباتهم الثمينة من الذهب الخالص وبعضها محلى بالماس والاحجار الكريمة، الى جانب الهدايا الخاصة التى قدمت الى مطران الدير.

ومما يدعو الى الغرابة والدهشة والتساؤل أن يظل هذا الدير وما يحويه من أروع وأندر كنوز العالم الثمينة صامدا على البقاء طوال هذه الاعوام وسط تلك البادية الموحشة النائية عن العالم المتمدين بالرغم من اختلاف قبائلها فى الجنس والعادات والطباع الخشنة عن رهبان الدير. فلابد وأن تكون هناك من الأسباب والبواعث التى روضت أولئك القوم وجعلتهم يغيرون من أخلاقهم ويألفون الحياة الهادئة الشريفة الى جانب أولئك النساك الوادعين ودفعتهم الى السهر على حمايتهم وتأمين ديارهم فضخامة الدير ومتانة أسواره القوية جعلت منه قلعة حصينة بالنسبة الى البدو الساكنين حوله، كما أنه يقوم فوق جبل يقدسه اليهود والنصارى والمسلمون على السواء. كما لا ننسى أن النبى عليه السلام أعطى رهبان الدير كما ذكرنا آنفا عهدا يعتزون به لحمايتهم وصدق عليه سلاطين المسلمين من أقدم العصور حتى اليوم، وأن رهبانه بنوا جامعا يتعبد فيه المسلمون داخل اسواره قرب الكاتدرائية، فضربوا المثل الاعلى فى التسامح الدينى مما لم يعد هناك مجال للتعصب أو الاضطهاد، كما أنهم يعولون فقراء البدو ويحسنون معاملة الزائرين من كل جنس ودين، وأن وجود الدير نفسه مصدر رزق كبير للبدو لانتفاعهم من تأجير أبلهم للسائحين ومرافقة الحجاج الذين يزورونه هو والمناطق المقدسة التى تحيط به.

ثانيا: أهم أديرة الوجه القبلى

دير نهيا: يقع فى منطقة بالجيزة وقد وصفه المؤرخ العربى «عبدالرحمن الجبرتى» فى كتابه عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ص ٥٠٦ جزء ٢، فقال أنه من أحسن ديارات مصر وأنزهها وأطيبها موضعا وأجلها موقعا، عامر برهبانه وسكانه، وله فى أيام النيل منظر عجيب حيث الماء يحيط به من جميع جهاته، واذا انصرف الماء وزرعت الارض أظهرت أراضيه غرائب النواوير، وأصناف الزهر، وهو من المتنزهات الموصوفة والبقاع المستحسنة، وله خليج يجتمع

فيه سائر الطير فهو أيضا متصيد ممتع، وقد وصفه الشعراء وذكرت حسنه وطيبه. وقد خرب هذا الدير.

وظاهر من أوصافه أنه كان من الاديرة المشهورة المرموقة، وقد سطت عليه الايدى العابثة فى عصور الفوضى والاضطرابات، كما حصل للعديد من الاديرة الاخرى.

دير طموية: وطموية قرية بالجيزة، وقال «الشابوشتى» أن طموية فى الغرب أزاء حلوان، والدير راكب البحر، وحوله الكروم والبساتين والنخل والشجر، وهو نزه، عامر، آهل وله فى النيل منظر حسن... وهو أحد متنزهات أهل مصر، ومواضع لهوها المشهورة، وقد تغنى بحسن مناظره بعض الشعراء.

ويظهر من أوصاف أولئك المؤرخين العرب أن تلك الاديرة كانت تقصدها الناس فى العصور الوسطى كأماكن للترويح عن النفوس ولتفريج الكروب والهموم وخاصة بين بساتينها.

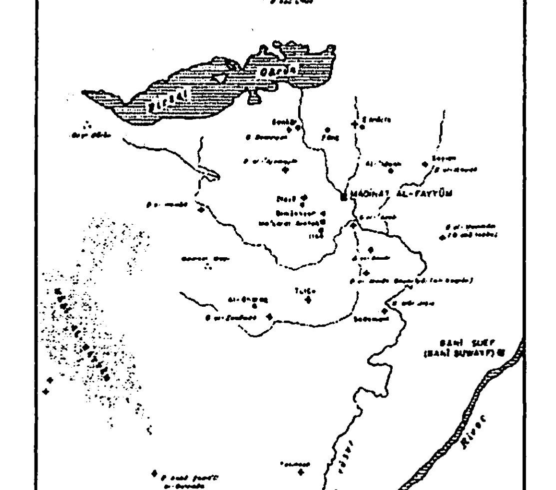
أديرة الفيوم

كانت الفيوم عامرة بكثير من الاديرة منذ أول ظهور الرهبنة فى مصر. وقد وصف كتاب تاريخ الفيوم القديم «لابن عثمان النابلسى الصفدى الشافعى» من أمراء الشام، وكان من أتباع نجم الدين السلطان الايوبى، وحينما ولاه على الفيوم، أمره السلطان أن يرفع اليه تقريرا مفصلا عن حالتها، فجاء ضمن كتابه ذكر ثلاثة عشر ديرا وخمسة وعشرين كنيسة موجودة فى ذاك الاقليم حوالى منتصف القرن الثالث عشر للميلاد.

ويقال أن أشهر أديرة الفيوم هو دير «النقلون» ويقال أيضا «دير القلمون» وربما كان أنشاؤه بعد أضمحلال دير النقلون وغالبا تم فى القرن السابع للميلاد.

أما أديرة الفيوم حسب ما ذكرها «أبو عثمان النابلسى الشافعى السابق» فهى:

١ـ دير أبى اسحق بجوار اللاهون وهو بحريها.



٢ـ دير سيلة قبليها.

٣ـ دير العامل قبلى العدوة.

٤ـ دير سدمنت على بحر الفيوم.

٥ـ دير النقلون فى الجبل قريب من قمبشا.

٦ـ دير دموشيه وهو قبليها.

٧ـ دير أبى شنودة قبلى منشأة أولاد عرفة.

٨ـ دير بموية وهو شرقيها.

٩ـ دير قانو وهو غربيها.

١٠ـ دير سنورس وهو غربيها.

١١ـ دير دسيا وهو بحريها.

١٢ـ دير ذات الصفا وهو قبليها.

١٣ـ دير القلمون وهو آخر الاعمال قريب من البهنسا.

دير الانبا صموئيل: ويسمى هذا الدير بدير القلمون[١] أيضا، وهو يقع فى منطقة وادى

(١) وتسمى بالقبطية Pounemou والقلمون بالعربية وقربها من جبل القلمون الواقع فى الجزء الجنوبى من الفيوم ومعنى الكلمة الغاب ومنها أشتقت الكلمة العربية قلم وسمى بذلك لوجود الدير بمنطقة يكثر فيها الغاب وقد ذكر أبو صالح الارمنى أنه كان لهذا الدير أطيان كثيرة بالصعيد وشنرا، وملاحات يستخرج منها سنويا بالعدد ١٠٠٠ أردب ملح ونخيل يدر حوالى ١٢ ألف أردب من البلح. وكان فيه حوالى عام ٨٩٤م للشهداء أكثر من مائة راهب ويؤمه كثير من الزائرين، والان به حوالى أربعة رهبان يعيشون من حسنات أهل البر أذ ليس له أملاك. وقد عمره القمس أسحق البرموسى عام ١٨٩٥م. والوصول اليه بالركائب من محطة مغاغة من قرية النزودة أو من الفيوم بعد مسيرة أربع ساعات. وقد تخرج من هذا=

الريان. وقد شيده القديس صموئيل القلمونى حوالى القرن السابع للميلاد. وقد أغار عليه البدو والبربر مرتين، وأسروا القديس المذكور وأخذوه معهم وأساءوا معاملته، ولكن الله خلصه من ظلمهم ثم عاد بعد ذلك الى ديره حيث اجتمع حوله بعض الرهبان، ثم أدركه الدمار، وهجره رهبانه حتى نهاية القرن التاسع عشر، حيث بدأ يعمره بعض الرهبان من دير براموس. وفى الدير كنيسة على اسم السيدة العذراء. وقد ذكر أبو المكارم فى مؤلفه بأنه كان فى دير الانبا صموئيل القلمونى أربعة[1] جواسق ويقصد بها الحصون مما يدل على عظم ما بذله الرهبان من عناية وتحصين لحمايته من سطو البرابرة واللصوص، وما كانوا يتعرضون له من هجماتهم الوحشية المريرة. وكان مدخل الجوسق من داخل الكنيسة بسقالة، وكانوا يدفنون موتاهم تحت الجوسق.

دير الطير: بمدينة سمالوط، وهو دير قديم يطل على النيل، وله سلالم منحوته فى الجبل أمام بلدة سمالوط وهو يقرب من الجبل المعروف بجبل الكهف. وفى يوم عيده يقصده جمع غفير للزيارة والتبرك. ويروى أن السيدة العذراء التجأت اليه أثناء رحليها فى أرض مصر.

دير أبو فانه: وكان من الاديرة المشهورة فى العصور المسيحية الاولى منذ القرن السادس للميلاد وكان عامرا بالرهبان وهو يقع جنوب غرب ألمنيا وغرب بلدة الشيخ عبادة. ومازالت به

=الدير بطريرك واحد وهو الانبا غبريال الثامن والثمانون حوالى عام ١٤٠١ ميلاديا.

ويقال أن هذا المكان كان يسكنة النساك منذ أواخر القرن الثالث والرابع للميلاد وتروى قصة الشابين «بانين وبناو Panine & Panau» اللذين رغبا فى ممارسة الزهد وقررا التوغل فى الصحراء وقابلهما الملاك ميخائيل فى زى رهبانى وأرشدهما الى القديسين «تيموثاوس وفيلوثاوس وكريستودورس» بجبل القلمون من أعمال مدينة الفيوم. ويذكر القديس أثناسيوس أن الانبا أنطونيوس زار منطقة أرسنوية وهى الفيوم اليوم، وكانت تسمى فى أيام المؤرخ اليونانى «هيرودوت» مدية التماسيح «Crocodileopolis» وعندما أضطر أنطونيوس الى عبور قناة «أرسنوية» لزيارة الاخوة وتفقد أحوالهم وتشجيعهم يقال أنه وجد القناة ملاى بالتماسيح. ويذكر السنكسار أن الانبا أنطونيوس شعر بحاجة ملحة لزيارة الاخوة هناك لتعزيتهم وتقوية عزيمتهم وأيمانهم وكان ذلك بعد عشرين عام من ممارسته أعمال الزهد والرهبنة.

ومن أهم الاثار العريقة فى تلك المنطقة حسب ما ورد من أقوال الاب متى وهو من أشهر الاباء الذين عمروا تلك المنطقة أخيرا، هو الكهف الذى كان يلجا اليه الانبا صموئيل للتعبد بجبل القلمون، وهو يقع على بعد أربعة أو خمسة كيلو مترات شرق الدير بجبل القلمون. والوصول اليه غاية فى الصعوبة، ولو أن كثيرا من الرهبان زاروه من قبل.

(١) ورد هذا الزعم أى دير القلمون فى الكتاب الخاص بتاريخ أبو المكارم «فى ورقة» «٧١ظ».

بقايا من آثاره كقطع من الفرسك التى كانت تزين بعض مبانيه أو هياكله مما يدل على أهميته. وقد شرع المتحف القبطى فى بناء استراحة فى الصحراء القريبة منه للبدء فى عمل الحفائر اللازمة فى أنقاضة لاستجلاء ما غمض من تاريخه.

أديرة باويط[1]: تقع باويط على الضفة اليسرى للنيل بقرب بلدة ديروط. وقد اشتهرت بما وجد فيها من آثار قبطية عظيمة من العصر المسيحى المبكر، وما كان فيها من أديرة وقد تولى الحفائر فى هذه المنطقة العالم الفرنسى «كليدا Clédat» منذ عام ١٩٠١م، وعثر على آثار كنيستين واحدة على اسم القديس «أبولو» والثانية على اسم القديس «رفائيل» ثم تبعه بعد ذلك فى مواصلة الحفائر فيها أيضا العالم الاثرى «شاسينا Chassinat» عام ١٩١١م حيث وجد حوالى ثلاثين من الهياكل فى جهات مختلفة كانت تكون جزءا من مبانى دير كبير.

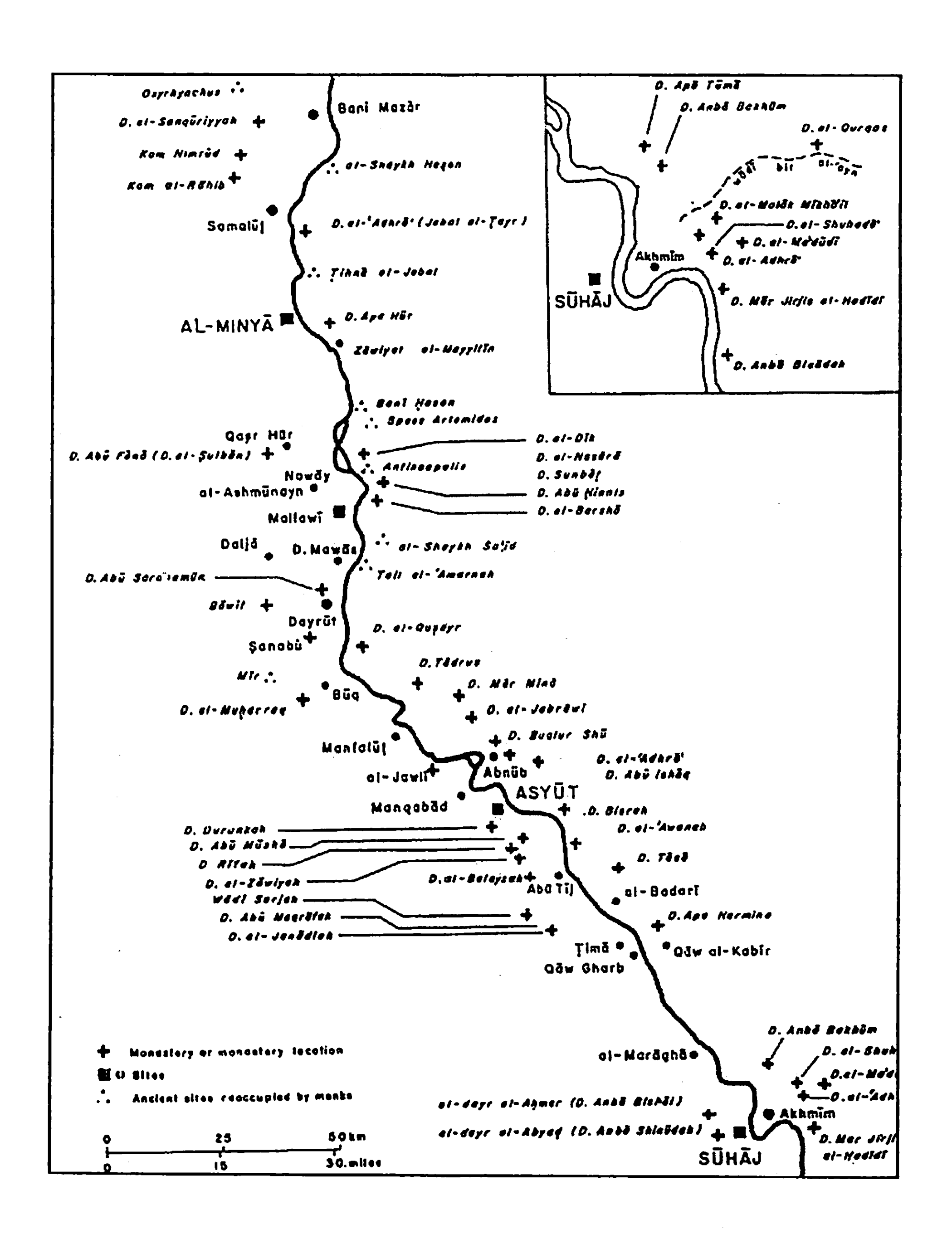
هذا وقد جمعت آثار قبطية فى غاية الاهمية والعظمة من تلك المنطقة ترجع الى القرن السادس للميلاد. وقد نسقت قاعة فسيحة بالمتحف القبطى من آثار تلك المنطقة وتحمل أسمها أيضا وجميع آثارها من الافاريز والاعمدة والتيجان والواجهات والبوابات من الحجر المنقوش بأتقان ومهارة فائقة وتعتبر كلها آية فى فن النحت فى الابداع والدقة والبراعة.

وكذلك توجد قاعة أخرى من آثار تلك المنطقة وتحمل اسم بلدة باويط أيضا. وتزين احدى قاعات متحف اللوفر بباريس بقسم الاثار المسيحية فيه وهذه كلها تعطينا فكرة جلية عن مدى ما بلغه فن المعمار والنحت الرفيع فى ذلك الزمن ومقدار ما وصلت اليه الاديرة من روعة فنية فى تلك البلدان.

الدير المحرق

يشتهر هذا الدير باسم دير السيدة العذراء المعروف بالمحرق. وقد أجمع كثير من الكتاب والمؤرخين على أنه ليس بين كافة الاديرة القبطية العديدة على ما فيها من عظمة روحية، وما حازت بعضها من شهرة عالمية ذائعة، ما لهذا الدير الذى تبوأ مركز الصدارة وشرف الامتياز الكلى بينها، بسبب تاريخه الفريد المجيد، لانه كان الموضع المقدس الذى طال مقام العائلة المقدسة فيه أكثر من غيره من الاماكن الاخرى أثناء رحلتها المباركة فى أرض مصر. كما

(١) باويط قرية تقع على الضفة اليسرى للنيل قرب بلدة دشلوط تبع مركز ديروط بالوجه القبلى.



Bani Mazār
Samalūṭ
AL-MINYĀ
Qaṣr Hūr
Nowāy
al-Ashmūnayn
Mallawī
Daljā
D. Mawās
Dayrūt
Ṣanabū
Būq
Manfalūṭ
al-Jawlī
Abnūb
ASYŪT
Manqabād
Abū Tīj
al-Badārī
Ṭimā
Qāw al-Kabīr
Qāw Gharb
al-Marāghā
Akhmīm
SŪHĀJ
Monastery or monastery location
Ancient sites reoccupied by monks
0
25
50 km
15
30 miles

أصبحت القاعة التى أقامت فيها مدتها هى نفس الهيكل الذى يقام فيه القداسات والصلوات بكنيسة العذراء فى الدير المحرق حيث أجرى فيها السيد له المجد، وهو طفل عجائب وآيات شفائية عديدة. وفى نفس المكان أيضا رأى يوسف البار خطيب العذراء حلمه عن موت هيرودس ملك اليهود واوعز اليه بالعودة الى أرض فلسطين.

موقع الدير المحرق ووصفه: يقع دير العذراء الشهير بالمحرق عند سفح الجبل الغربى المعروف بجبل قسقام. ويقع فى محافظة أسيوط بنحو ٤٨ كيلو مترا شمال المدينة المذكورة، ويبعد بحوالى ١٢ كم غرب بلدة القوصية وقد زار الرحالة الفرنسى الاب «فانسليب» مدينة قسقام وكانت خربة وقتئذ وأمضى بالدير المحرق شهرا عام ١٦٦٤م.

وتمتد الصحراء والتلال والكسبان الرملية غرب الدير بمسافات شاسعة حيث البرية الداخلية. والدير فى البرية الخارجية، أما شمال الدير وشرقه فتوجد المروج الخضراء بسبب الفيضان الذى يصل الى مقربة من الدير، وعلى مر الزمن أخصبت الأرض وأصبحت صالحة للزراعة. ويعتبر الدير المذكور أوسع وأكبر جميع الاديرة فى الصحراء المصرية بل وفى الشرق كله، آذ تبلغ مساحته حوالى عشرين فدانا، وله سمعة تاريخية عالية وأشتهر رهبانه بالعلم والتقوى وممارسة الكرازة فى خارج البلاد المصرية حيث وصل بعض الرهبان الى جنوب أوروبا ووسطها وشمالها حتى أيرلندا.

أسماء الدير: أطلق عليه عدة أسماء منها:

١ـ يسمى بدير العذراء نسبة الى السيدة العذراء حيث أقامت العائلة المقدسة فى القاعة التى صارت هيكل الكنيسة الاثرية التى يحيط بها الدير. ولذلك تعتبر شفيعة الدير ورهبانه والمنطقة المحيطة به ولذا تقدم النذور باسمها وتجرى العجائب فيه لجميع الزوار من جميع الملل والاجناس. ولهذا يعد الدير مقصدا لجيمع الحجاج وأصبح كمكان مقدس مثل القدس أو جبل الزيتون.

٢ـ دير قسقام: أو دير جبل قسقام لان الدير قائم بجوار مدينة تسمى بهذا الاسم، وقد عفا عليها الزمن ولم يبق منها سوى الدير الذى يحمل اسم المدينة التى زالت. والكلمة أصلها قبطية ومعناها «مدفن الحلفا» وذلك لان فقراء تلك المنطقة كانوا يكفنون موتاهم بالحلفا.

٣ـ دير المحرق ـ وعللوا هذه التسمية للاسباب الاتية؟

أ ـ كان الدير يظل فترة طويلة معظم أيام السنة بعيدا عن الماء كما كانت تنضب فية المياه قبل غيره من الحياض، وسميت الأرض التى من حوله بالمحرق فسمى الدير تبعا لذلك.

ب ـ كان الحوض الموجود فى وسط الدير موبؤا بكثرة نمو أعشاب الحشائش الجبلية فيه بغزارة فكانت حيلتهم الوحيدة للتخلص منها هى بأحراقها بالنار وعلى ذلك تسمى بالدير المحرق.

جـ ـ تعرض الدير لهجمات الاعراب واللصوص فهدموه وأحرقوه بالنار التى ظلت آثارها عليه فسمى بالمحرق، ثم أعيد بناؤه بعد ذلك.

د ـ كذلك روى أن حربا نشبت بين حاكم مقاطعة الاشمونين وحاكم قسقام أنتصر الأول وأحرق قسقام فصارت المنطقة كلها تعرف بالمحرقة، وأصبح هذا الدير يعرف بالمحرق على هذا الاساس.

وقد ذكر الاب الرحالة «جوليان Jullien» الذى زار الدير المحرق عام ١٨٨٣م أن رئيس الدير وقتئذ أبلغه أن دير العذراء هذا، هو من أديرة الانبا باخوميوس التى شيدها فى الصعيد، وأنه يمثل الخط الذى يحدها من الشمال ولذلك سمى «بالمقرر» ثم حرفت تلك الكلمة الى «المحرق».

كما يروى المؤرخ أبو المكارم رأيا آخر أذ يرجع سبب تلك التسمية الى آنه كان يسكن فى الجهة المجاورة رجل شرير أشتهر بالكفر والالحاد يسمى خرتبابن ماليك «فانزل الله عليه عاصفة أحرقتة ولم يبق له أثر فسميت تلك الجهة بالمحرقة.

كنائس الدير

١ـ كنيسة العذراء: وتوجد فى الجهة الغربية من الدير وهيكلها هو نفس الغرفة التى سكنتها العائلة المقدسة. وتعتبر فريدة فى نوعها، وهى الوحيدة فى مصر بل وفى العالم كله لان المسيح دشنها وباركها ولها من الذكريات السامية المجيدة ما يعجز عن وصفة اللسان، وهذه الكنيسة أقدم كثيرا من الدير فهى ترجع الى القرن الاول للميلاد بينما باخوميوس بنى الدير منذ القرن الرابع. والذى دفعه الى أنشاء هذا الدير واختياره هذه البقعة لتكون ديرا يحيط بتلك الكنيسة الاثرية ذات التاريخ المقدس المجيد وليضم من يلوذ حول تلك المنطقة من النساك والمتوحدين.

٢ـ كنيسة القديس تكلا هيمانوت الحبشي: وكانت فوق سطح كنيسة العذراء الاثرية فوق الجزء المسقوف منها وكان يصل اليها الرهبان الاحباش لاقامة الصلاة فيها. ولكنها ازيلت عام ١٩٣٦ خشية تأثيرها على تقويض الكنيسة الاثرية وتهديدها بالسقوط.

٣ـ كنيسة يوحنا المعمدان: وتقع فى الجهة البحرية من كنيسة العذراء وقد عرفت آثارها صدفة بين أنقاض الردم.

٤ـ كنيسة رئيس الملائكة ميخائيل: وتوجد عادة فى الطابق الاعلى من الحصن.

٥ـ كنيسة القديس مارجرجس: وتقع جنوب كنيسة العذراء الاثرية، وقد شيدت عام ١٨٠٠م فى عهد القمص ميخائيل الابوتيجى من «١٨٧٠/ ١٨٨٤م».

٦ـ كنيسة العذراء الجديدة: وقد أنشئت خارج أسوار الدير لاستقبال الاهالى لاقامة الصلوات فيها والعماد. وقد تم أنشاؤها عام ١٩٦٤م فى عهد الرئيس الحالى الايغومانس قزمان بشاى أما بقايا الاسوار القديمة فقد تعهد بناؤها الامبراطور «زينون» منذ القرن الخامس لحماية الرهبان من غارات البرابرة، أما الاسوار الحديثة فقد بنيت بالحجر الجيرى والاسمنت على النظام الحديث منذ عهد الانبا باخوميوس الأول أسقف الدير منذ عام ١٩٢٠ للميلاد. وظل العمل فيها مدة طويلة حتى أتم مبانية وغيرها من المبانى الاخرى بعهد القمص قزمان الحالى. ويحوط الدير بداخله حدائق واسعة بديعة تحوى كثيرا من أنواع المزروعات والأشجار والازهار والفاكهة.

أديرة أسيوط وقراها

أشتهرت المدينة بكثرة ما شيد فيها وما حولها من القرى من الاديرة والتى ذاع صيت رهبانها فى النسك والتقوى خلال العصور المسيحية. وأهمها فى منطقة أسيوط «دير العظام» أو دير السبعة جبال أو دير القديس يوحنا» الواقع فى صحراء أسيوط على مقربة من منطقتها الاثرية فى تلالها فى الغرب المسماة «أسطبل عنتر». ويظهر أنه كان عامرا بالرهبان. وبين الحفائر التى أجريت بين أنقاض الدير المذكور عثر على جرة على سطحها نص قبطى مدون بالمداد الاسود كتبة أحد الرهبان عام ٨٧٢ للشهداء ومضمون ما جاء فيه شرح عن حالة البؤس والقحط والاوبئة التى تفشت فى مصر فى ذلك الزمان والاضطهاد الذى حل بالبلاد وعلى الاخص فى مدينة أسيوط. والجرة المذكورة محفوظة فى قسم الفخار بالمتحف القبطى.

دير المطل: وهو على أسم السيدة مريم وهو على طرف الجبل تحت الدير السابق المعروف باسم دير السبعة جبال قبالة أسيوط.

دير الجبراوى: من المناطق الاثرية الهامة فى محافظة أسيوط وهو عند قرية المعابدة على شاطىء النيل الشرقى. وفى المنطقة قبور محفورة فى الصخر لطائفة من حكام الاقاليم بالمقاطعة الثانية عشرة من عصر الدولة المصرية القديمة وقد أنشىء هذا الدير فى هذه البقعة منذ العصور المسيحية الاولى، وسكنه كثير من الرهبان الذين أشتهروا بالتقوى والعلم بدليل ما تركوه من مخطوطات قبطية قيمة وأنبرى للعناية بها وحلها بعض العلماء الاجانب. ويبعد دير الجبراوى عن مدينة أسيوط بحوالى عشرين كيلو مترا بالجبل الشرقى عند منطقة عرب مطير مركز أبنوب.

دير درنكة أو أدرونكة: يقع على مقربة من أسيوط وقد أنشىء فوق جبل تلك القرية على أسم السيدة مريم وقد ورد أن السيدة العذراء كانت بها كآخر البقاع التى قد ألتجأت اليها أثناء رحلتها فى أرض مصر. ويسمى كذلك بدير الانبا «ساويرس»[١] ذلك أن أحد مشاهير رهبانه ويسمى ساويرس وقد وصل الى كرسى البطريركية، وقيل عنه أنه عند وفاته حدثت آية وكان قد أنذرهم بها قبل وفاته، فأخبرهم بأن عند موته سوف ينشق الجبل وتسقط منه كلتة عظيمة على الكنيسة ولا تضرها، فلما حدث ذلك فى بعض الايام وسقطت الكتلة الجبلية الضخمة علم الرهبان بذلك الدير بان الانبا ساويرس قد مات وحينئذ اطلقوا أسمه على هذا الدير.

دير تادرس: وهو تحت دير ساويرس. وتادرس هذا استشهد فى عهد الامبراطور دقلديانوس.

دير ريفا: ريفا من القرى القريبة من أسيوط وتبعد عنها بحوالى سبعة كيلو مترات. وفى المنطقة آثار لهياكل وقبور محفورة فى الصخور وعليها النقوش والنصوص المصرية القديمة

---

(١) ورد ذكر هذا الدير فى كتاب

Amélineau, E.L. histoire de l'Egypte Chrétienne. paris, 1895. P. 127:

حيث عين موقعة عند سفح جبل «أريا» جنوب مدينة أسيوط وقد حول مطران كرسى محافظة أسيوط الانبا ميخائيل منطقة هذا الدير بما أنشأه فيها من مبان رائعة تثير الاعجاب الى مزار مقدس يجتذب الزائرين والحجاج الذين يؤمونة باعداد هائلة من كل صوب وخاصة فى عيد السيدة العذراء فى شهر أغسطس من كل عام.

وهى غالبا جبانة لحكام أقليم الحادى عشر فى عصر الدولة المصرية القديمة. وظاهر أن النساك المصريين بنوا ديرهم فى تلك البقعة بدليل وجود آثار القلالى التى كان يتعبد فيها رهبانهم حول تلك الهياكل والبرابى المصرية القديمة وكان يوجد فى بلدة ريفا هذه دير خاص للراهبات العذارى وكان يسمى بدير «هناوة» وكذلك دير آخر يسمى بدير «قرقونة» ويقع فى بقعة ريفا وادرنكة.

دير موشا: وهى أحدى القرى القريبة كذلك من محافظة أسيوط. وقد بنى هذا الدير على اسم الرسول «توما رسول الهند». وهو يقع بين الغيطان ولا يمكن الوصول اليه فى وقت فيضان النيل الا فى قارب وله أعياد تقام لذكراه.

ويقول المؤرخ تقى الدين المقريزى بأن أغلب نصارى هذه الاديرة كانوا يجيدون معرفة اللغة القبطية كما ذكر أيضا أن نساء نصارى تلك الاقاليم وأولادهم لا يكادون يتكلمون الا اللغة القبطية الصعيدية ولهم معرفة تامة باللغة الرومية «أى اللغة اليونانية».

أديرة أخرى كانت منتشرة حول ضواحى أسيوط ومنها:

١- دير زبو السرى ببلدة شطب[١] بمركز أسيوط ويروى أن جسد الأمير تادرس مدفون فيه.

٢- دير التنادة باسم «بوفام» فى أبشاى أسيوط.

٣- دير الجنادلة بمركز أبى تيج بأسيوط وفية كنيسة مقروفيوس.

٤- دير أبو سادر «تيادر» ويجاوره جبل الطليمون.

٥- دير داخل البلد للارمن.

٦- دير سمالوط بالاشمونيين وبه بيعة بوفام.

٧- دير بقطر بناحية أبنوب ومنفلوط وكان به عدة بيع.

٨- دير العسل المجاور لمنية بنى خصيب وبه أربع عشرة بيعة.

---

(١) شطب معناها المحبوبة. وهى تبعد حوالى سبعة كيلو متر جنوبى أسيوط، وعلى الخط الحديدى الان أسمها مشتق من التسمية المصرية القديمة «شمس حتب». وقد ذكرت هذه البلدة فى نص أمير أسيوط القديم «خيتى» حيث يقول أن مقدمة أسطوله كانت عند بلدة شطب وتقع جبانة أمراء شطب على بعد ١٣ كيلو مترا من سطح الجبل الغربى عند قرية «دير ريفا» الحالية.

الأنبا باخوميوس[1] وأديرته
المؤسس لانظمة الشركة المقدسة من عام ٢٩٠/٣٤٨م

كلمة «باخوم» فى الاصل قبطية ومعناها «الباشق» وهو نوع من النسور وهو يعتبر المشرع الاول للحياة الرهبانية المشتركة، ويدين بفضله العظيم الشرق والغرب المسيحيان كما يدين له العالم غير المسيحى كذلك، وهو يسمى أبا الشركة للرهبنة وزعيمها البطولى الذى لا يبارى.

مولده ومسقط رأسه:

أختلف المؤرخون والكتاب فى السنة التى ولد فيها، وكذلك فى البلدة التى نشأ فيها، فقيل أنه ولد عام ٢٧٥ وذكر البعض عام ٢٩٠م فى مقاطعة طيبة جنوب بلدة اسنا وفى رواية أخرى قيل فى بلدة «كنوبوسكيون» التى يقال أن موقعها الآن «بلدة قصر الصياد» بمديرية قنا. وتحليلا لكلمة «كنوبوسكيون» عن اللاتينية والاغريقية يقصد بمعناها «الرهبنة أو بمجموعة الاديرة» ولذلك فأن تسمية تلك المنطقة به لم يطلق عليها الا بعد أن شيد بها الانبا باخوميوس أديرته.

وكان والداه وثنيين فقضى سنى حياته الاولى حسب الطقوس الوثنية فى العبادة، لم نعرف الكثير عن سيرة حياتة الاولى وتربيته، الا أنه عندما بلغ العشرين من العمر أنخرط فى سلك الجندية وأشترك فى المعارك التى نشبت بين قسطنطين والامبراطور مكسميانوس «عام ٣١٠م». وكانت خاتمتها أنتصار الاول وقتل الثانى، وحدث أن سار باخوميوس مع بعض رفاقه من الجنود حتى مدينة أسنا ولابد أنهم قاسوا من متاعب الطريق وأهوال الحرب كثيرا، وهناك مروا

(١) تاريخ حياة باخوميوس دونت بلغات مختلفة: الاولى هى باليونانية وكتبت بعد وفاة تلميذه «تادرس» بزمن وجيز عام ٣٦٨م. وقد ألفها أحد الرهبان الذى لم يعرف القديس وجمع أخباره من أفواه تلاميذه ومعاصريه، ويظهر من أمعان النظر فيها أنها صحيحة ويمكن الوثوق بما جاء فيها. والثانية هى باللغة القبطية الصعيدية نقلا عن الترجمة اليونانية لافادة الرهبان الذين جهلوا اليونانية، ويظهر فيها أن الكاتب وكان أحد رهبان باخوميوس قد أضاف الى الاصل تفاصيل غريبة وفقا لما كان يعهده فى القوم من الشغف فى عجائب الامور. ثم نقلت هذه السيرة الى اللغة القبطية البحيرية لمنفعة الرهبان فى أديرة أخرى. والثالثة هى السيرة بالعربية التى نقلت اليها بعد زمن طويل فى القرن الرابع عشر لميلاد.
وقد تولى العالم أميلينو طبع الترجمتين القبطية والعربية للقديس فى باريس عام ١٨٨٩ ولم ينصفه ثم جاء بعده المستشرق العالم الاب «لادوز Ladeuse» حيث أشاد باعمال باخوميوس وفضله العظيم والذى طبعة فى باريس أيضا عام ١٨٩٨ بعنوان:

Etudes sur le Cenobitisme pakhomien. Fontemoin, Paris 1898.

على القرى القبطية حيث وجد طائفة من المسيحيين أشفقوا عليهم وأحسنوا أستقباله هو وزملاؤه وأكرموهم وقضوا حاجياتهم، فتعجب باخوميوس من حميد خصالهم وأكرامهم دون معرفة سابقة بهم فسأل عنهم، فقيل لهم «أنهم النصارى» يطلبون فى ذلك وجه الله الكريم ممتثلين أوامر أنجيلهم. فرغب أن يقراء أنجيلهم ليقتدى بسيرنهم، فلما أطلق سراح الجند ورجعوا الى وطنهم عكف على دراسة الديانة المسيحية وتعمد وتفقه فى مبادىء تلك الديانة عام ٣١٤م.

ويجب الا ننسى ما كان للتربية العسكرية التى مارسها فى مستهل حياته وهو فى عنفوان شبابه من فضل وأثر عظيم فى تكوين شخصيته الفذة فى التاريخ القبطى بما درج عليه من حب النظام والطاعة والمقدرة على القيادة المنظمة.

بدء باخوميوس فى النسك:

قيل أن البلدة التى نزل بها باخوميوس كانت تعرف اليوم «قصر الصياد» على الضفة الشمالية للنيل بأزاء بلدة نجع حمادى. وقضى ثلاث سنوات متنقلا فيها بالقرى يواسى المساكين ويعزى الحزانى ويفتقد الفقراء والمعوزين فسمت نفسه وتملك الزهد مشاعرة، وقرر أن يترك العالم ويرحل الى البرية لممارسة الرهبنة.

ففى الرابعة والعشرين من عمره أنتقل اى مسافة قريبة من القرية حيث وجد شيخا جليلا وناسكا فاضلا يدعى «بليمون» فقصده باخوميوس ليتتلمذ عليه، فحاول القديس بليمون هذا أن يثنية عن عزمة كما هى الحال التى كان يتبعها شيوخ النساك والزعماء منهم مع الشبان البادئين والراغبين فى الرهبنة. فشرح له شدة ما يعانية الراهب فى البرية من قسوة وأذلال من أماتة الجسد وكبح جماحة والزهد التام فى حياة الدنيا ومباهجها وملاذها وبين له الحياة القشفة والصوم بدون أنقطاع والسهر وغير ذلك من الاعمال الشاقة التى يتحتم على الراهب القيام بها ولكن هذا العرض لم يزد باخوميوس إلا استمساكا بما عاهد به خالقه كما طلب من القديس بليمون هذا أن يصلى من أجله حتى يعينه الله ويثبت عزيمتة ويهبة الصبر والجلد، حتى يكون جديرا بخدمة المسيح ومحبته، عندئذ قبلة الراهب الشيخ بليمون معه وأخذ يدربه فى شئون الرهبنة بأعلاء الحواس وأنكار الذات والطاعة العمياء وممارسة الصوم والصلاة. ثم ألبسه ثوب الاسكيم الرهبانى وقد مكث معه سبع سنوات.

ولابد أن باخوميوس قاسى فى مستهل عهده بالنسك مثلما عانى ممن سبقوه الى التوحد، ويظهر أنه فطن بثاقب بصيرتة أن التقرب من الذات الالهية والبعد عن مظاهر الدنيا لا يتطلب ما يراود النساك أنفسهم عليه وقتئذ من تعذيب الجسد الى حد يفوق التصور والاقدام على أعمال أخرى خارقة فى داخل أجحار أو قبور بقصد الاذلال وأنكار الذات فى أعماق البرارى والقفار الموحشة، فكان هذا مما هداه الى التفكير فى وضع قوانينه التى ذاع صيتها فى جميع المسكونة والتى أصبحت هى الاساس التى يسير على مبادئة العالم المسيحى حتى عصرنا الحالى.

باخوميوس وتشييد ديره «تبانيسى»:

بعد أن مكث سبع سنوات مع الانبا بليمون كما أسلفنا، أنصرف الى البرية حتى وصل لبقعة مقفرة قرب قنا فى مواجهة دندره وتسمى «تبانيسى» وبعد قضاء مدة فى حياة التقشف وأنكار الذات. روى أنه أوحى اليه من ربه بأن يشيد ديرا حيث تجمع فية من بقى من أتباع القديس بليمون وغيرهم من راغبى النسك الذين يهيمون على وجوهم فى الصحراء والقفار، ولما تكاثرت جموعهم فكر بحسب خبرته العسكرية أن يبدأ بوضع نظام داخلى للدير، فرتب أعمال الرهبان المختلفة وضبط مواعيدها ونظم مناهج الصلاة وأوقات الصيام، وعهد الى أحد زعماء الرهبان فى الاشراف على الدير وعين مساعدا له وأمناء، وبث فيهم روح التضحية وخدمة الفرد للمجموع.

نظامة الديرى:

أتبع باخوميوس نظاما فى الدير هو أقرب الشبة الى النسق العسكرى وهو ما أقتبسة من الهيئة الوحيدة المنظمة أثناء التحاقه فى سلك الجندية فى الجيش الرومانى. وقد نظم الخدمة داخل الدير لكل راهب حسب مقدرته وطاقته الجسمية ولم يرهق صائما أو ضعيفا بعمل شاق، ويروى فى كتاب «بستان الرهبان» كثير من القصص والروايات التى تؤيد شدة تمسك الانبا باخوميوس بالطاعة والنظام وتنفيذ القوانين بدقة تامة فى مؤسساته. ومن أهم بنوده الاساسية أن يخضع جميع الرهبان لقانون واحد.

وقد ورد فى الأساطير الدينية أن باخوميوس قد جاءه الوحى من الروح القدس على يد

ملاك أنباءه بالوصايا التي يجب على الاخوة أن يسيروا بموجبها، ثم دفع اليه الملاك بلوح نقشت عليه الوصايا وقيل أنها ست ووضعت فى صيغة الامر وهي:

١ـ ليتناول الراهب من المأكل والمشرب ما يشاء وعلى قدر قوة هؤلاء الرهبان ما يأكلون ويشربون تلزمهم بالعمل. ولا تنهاهم لا عن الاكل ولا عن الصوم أما الضعفاء والصائمون فتطالبهم بالاعمال الخفيفة.

٢ـ وعليك أن تقيم لهم القلالى يسكنونها معا ثلاثة ثلاثة.

٣ـ وعليهم جميعا أن يتناولوا الطعام معا فى قاعة واحدة.

٤ـ وعليهم أن لا يناموا منبطحين على الارض ولكن عليك أن تصنع لهم المقاعد حتى اذا ما أستلقوا فوقها أمكنهم أن يسندوا رؤوسهم عليها.

٥ـ وعليهم أثناء الليل أن يلبسوا جلبابا بغير أكمام، وأن يشدوا أوساطهم بحزام، ويجب أن يعطى لكل منهم طاقية لغطاء الرأس. وعليهم أن يتناولوا العشاء الربانى فى يوم السبت وفى أول يوم من الاسبوع «يوم الاحد» وطواقيهم فوق رؤوسهم دون أن يكون عليها أغطية أخرى، وعلى صدر كل طاقية منها صليب مشغول من القرمز.

٦ـ وعليك أن تقسم الرهبان الى أربع وعشرين مرتبة أو درجة، وأن تميز كل مرتبة بحرف من الحروف الهجائية وهى الابجدية اليونانية من ألفا الى الاوميجا، لكل مرتبة منها حرف.

وهذه الوصايا هى التي ذكرها الرحالة الاب بلاديوس فى كتابه «بستان الرهبان». وقد نوه الرحالة المذكور على الوصية الاخيرة بما يفهم من منطوقة أن كل حرف يرمز به الى صفة من الصفات تشترك فيها طبائع جماعة الرهبان الذين يندرجون الى هذا الحرف أو القسم، فالبسطاء فى الروح يرمز لهم بحرف «أيتا» وصعاب الميراث والمعاندون يرمز لهم بحرف «أكسى» وهكذا بحيث يستطيع رئيس الدير أن يعرف من هذا الوضع صفة كل راهب وطبيعته دون عناء.

ثم يذكر بلاديوس أن ملاك الله أضاف شفويا الى ما جاء فى اللوح المكتوب أنه اذا جاء الى الدير راهب غريب يرتدى زى مخالف لزيهم لن يدخل معهم الى المائدة، وعلى من يبتغى دخوله راهبا فى الدير أن يكلف بالعمل اليدوى ثلاث سنين قبل أن يمنح زى الرهبان وحلقة

الرأس «التى تميز هؤلاء الرهبان، أى حلق ذوابة شعر الرأس فى المكان الذى يضعون عليه طواقيهم. وعلى الرهبان أثناء تناولهم الطعام أن يضعوا على رؤوسهم القلانس التى تحجب رؤوسهم ووجوهم حتى لا يرمقوا بعضهم بعضا وهم يأكلون، وعليهم الايتجاذبوا أطراف الحديث وهم على المائدة، والايتطلعوا من جانب لاخر. كذلك أمر الملاك باخوميوس أن يطلب الى رهبانة ترديد أثنتى عشر مزمورا كل يوم وأثنتى عشر كل مساء وأثنتى عشر ثالثة أبان الليل وعندما يتقدمون للطعام يرتمون المزمور الكبير».

وقد استخف باخوميوس من الاعباء المفروضة على الرهبان، فقال الملاك «أن الاجزاء التى عينتها للرهبان للقراءة قليلة جدا حقا، لكى يكون فى وسع الضعفاء من الرهبان تفنيذ القوانين دون أن يتقاعسوا عنها. أما الرهبان الذين بلغوا الكمال فأن أجتهادهم لا يحدده قانون» .

على أن رواية الاسطورة الدينية كان لها أثر تاريخى بالغ الاهمية، ذلك أن قصة اللوح المكتوب والوصايا الستة المنقوشة عليه وظهور الملاك للانبا باخوميوس تعيد البنا ذكرى أنبياء العهد القديم وقصصه المجيدة، كما جاء فى قصص موسى ولوحى الوصايا العشرة، ولكن منطوق القواعد الرهبانية الوارده فيها هو ما نسعى الى تسجيله، لان هذه النواة المبدئية هى الاساس الذى بنى عليه القديس باخوميوس قوانينه الهائلة التى أحدثت أنقلابا هائلا فى الاوضاع الرهبانية المألوفة فى ذلك الزمن، وأثرت أعظم تأثير فى توجيه الاجيال القادمة فى كل أقطار المسكونة، لانها أصبحت الاساس العظيم الذى أبتنى عليه الخلف الصالح تلك الانظمة الديرية .

باخوميوس والتعليم:

من مآثر باخوميوس الجليلة اهتمامه وعنايته بالتعليم بين الرهبان فقد كان القدامى من النساك يحتقرون القراءة والكتابة ويعرضون عن اقتناء الكتب ويتجنبون الدرس والتعليم، فصمم باخوميوس على القضاء على تلك الفكرة القديمة. وقضى على الامية قضاء مبرما وجعل معرفة القراءة شرطا من شروط الدخول فى الدير. ولابد على الراهب من تحصيلها فى سنى التجربة والاختبار الاولى. كما أنه نظم ثلاثة دروس يوميا، عند الساعات الاولى والثالثة والسادسة من النهار للمبتدئين، ثم دروسا أخرى عامة يعقدها رؤساء الاديرة بأنفسهم يومى

الصيام الاسبوعى أى الاربعاء والجمعة فى تفسير الكتب المقدسة والتعاليم المسيحية. وكان حضورها أجباريا على كل الاخوة. وكان المقصود من التعليم هو توفير ما يلزم للراهب لقراءة الكتب المقدسة وكتب الصلوات وتاريخ الرسل والتعاليم الدينية البحتة، فكان الغرض من التعليم دينيا قبل كل شىء وليس دنيويا. وكان للتعليم أكبر الاثر فى السمو بالاديرة الباخومية، وأصبحت المراكز الممتازة اللامعة فى عالم العلم والتعليم، والمعامل الحصينة التى حفظت فيها مؤلفات آباء الكنيسة والآداب القديمة ومحتويات مكتبات الاديرة العديدة من كتب المواعظ، وكتب الصلوات، والميامر وأقوال القديسين وحياتهم، والشروح ورسائل التأمل والتصوف وغيرها من الموضوعات العديدة التاريخية والادبية، وكانت كل هذه المكتبات وما تحويها من المؤلفات مفتوحة على مصراعيها لكل قارىء يريد الاستفادة بما فيها.

منشآت [١] الانبا باخوميوس من الاديرة الاخرى:

ولم يمض على القديس باخوميوس سوى بضع سنوات بعد تشييده لدير «تابينسى» حتى كثر حوله أعداد الاخوة من النساك واضطر الى انشاء دير آخر قال البعض أنه أقيم فى قرية، وقال غيرهم فى قفر ويقع شمال الدير الاول فى مكان يسمى «أفوا». وفى بعض المراجع دعوه «برو» وفى النصوص القبطية أطلقوا عليه «فبو» وفى العربية اسم «فاو».

دير فاو:

زاد هذا الدير ونما وعظمت أهميته حتى جعل القديس باخوميوس مقامه فيه وصار مركز بقية اديرته جميعها، ثم شيد فيه كنيسة بديعة فسيحة الارجاء بلغت ١٥٠ دراعا فى الطول و٧٥ دراعا فى العرض. وقد ذكرها أبو صالح الارمنى من مؤرخى القرن الثالث عشر. وقد تناول وصفها فى كتابه ومن قوله: «وجميع الصور فيها كانت فص زجاج مذهب وملون وعمدها رخام. هدمها الحاكم بأمر الله».

أما ما جاء فى وصف الدير: «كان للدير سور كبير مرتفع الجدران، ولا يدخل اليه الا من

---

(١) وصلت الاديرة الباخومية الى أقصى الشمال عند مدينة كانوب على مصب فرع الدلتا الكانوبى على ساحل الاسكندرية الشرقى حيث أقيم دير زاهر وهو معبد أبو صير القديم على مسيرة ١٠ كم على ساحل البحر غرب الاسكندرية فى منطقة مريوط. وقد حوله النساك الى دير فى العصر الرومانى ما زالت آثار قلاليه وصوامعه قائمة بجوار أسواره من الداخل. وأساس كنيسته فى رحبة المعبد الوسطى ما زالت تشاهد.

باب واحد. وكان الزائر اذا دخل الدير يجد أولا منزل الضيوف، ثم قريبا منه المعامل العمومية كالمطبخ والمطعم والخبز وغير ذلك من المصانع، ثم منتدى الرهبان، ومجلسهم العمومى ثم الكنيسة تفوق الابنية كلها علوا وأحكاما، ثم أخيرا مقام الرهبان، وهو عبارة عن بيوت شتى فيها قلالى متعددة يسكن كل راهب واحدة منها مع ردهة عظيمة يجتمعون فيها لاشغالهم العمومية، فتجد هذه الابنية العديدة أشبه بقرية تخطها الازقة والشوارع وتزينها البنايات المنظمة، بينها جنائن صغيرة يقوم الرهبان بفلاحتها».

ذكرنا أن القديس باخوميوس جعل مركز الرئاسة العمومية فى دير «فاو» المذكور. ثم وضع منذ ذلك الحين فى ترتيبه الذى سار عليه نظامه فى تدبير الاديرة فجعل رئيسا عاما على جميع الرهبانية ثم رؤساء خصوصيين يطيعون الرئيس العام، وكان بقرب الرئيس وكيل يتولى تدبير الرهبانية فى أحوالها الزمنية يسمى «ايكونومس» أى مدير المنزل. وهذه الهيئة النظامية سار عليها الغرب. ثم شاعت حتى صارت تعم كل الرهبانيات بعد ذلك.

وقد كان الانبا «ثاودروس رئيس دير تبانيسى» عندما ينتهى من عمل الدير ومهامه يسير كل يوم الى دير «فاو» ليواجه القديس باخوميوس ويسمع ارشاداته، ثم يعود ويكررها على رهبانه.

دير بليمون:

بعد أن أتم القديس باخوميوس ديرى «تبانيسى، فاو» قدم عليه من بلدة «شينسيت» عابد قديس يدعى «ابونه»، كان رئيسا على جماعة من الرهبان المتوحدين، وقد توسل ذلك القديس الى الانبا باخوميوس أن يقبله ورهبانه فى طاعته ويجعل مقامهم ديرا على طريقته المستحدثة، فأجابه الى طلبه، وذهب معهم الى «شينسيت»، وأقام هناك ديرا قانونيا، وأصبح بعد زمن قليل من أشهر أديرة القديس باخوميوس وأعظمها شأنا وأكثرها رهبانا، ويعرف الآن باسم دير بليمون على بعد ثلاث ساعات من بلدة «قصر الصياد».

ويوجد فى داخل الدير المذكور ثلاث كنائس: الاولى كرست على اسم الشهيد مرقوريوس المعروف بأبى السيفين، وهى أجمل الكنائس الثلاثة وأقدمها، وتعلوها القباب العديدة، ذات أسوار عالية وعقودها بيضاوية الشكل، وفيها خمسة هياكل، وهى مزينة بنقوش بديعة. والكنيسة الثانية شيدت تذكارا للقديس بليمون وهى على مثال الكنيسة الاولى ولو أن أسوارها أقل علوا وعقودها مقوسة. أما عن الكنيسة الثالث فهى عبارة عن هيكل أقيم فوق سطح الدير

على ذكر السيدة العذراء ويروى أن هذه الكنائس بنيت بعد تشييد الدير بزمن بعيد، ولم يصبح للرهبان مقام فى ذلك الدير اليوم أنما مازال مزارا يؤمة الناس فى كثير من المناسبات للتبرك.

دير العذارى:

يقع هذا الدير فى ناحية السليمات التابعة لمدينة دشنا. وقد ورد فى سيرة الانبا باخوميوس بشأن اقامة ذلك الدير، أن أخته «مريم» جاءت تزوره فى احدى السنين وهو يمارس النسك فى ديره «بتبابنا»، ولم يكن يرضى مقابلة النساء فأرسل اليها البواب يبلغها: «أن لا يسؤك يا أختى الا تشاهدى وجهى وكفاك أن تعرفى أنى حى سالم، فهيا أنظرى يا أخيه لعل الله يدعوك الى الزهد بالعالم والعيشة النسكية، فان رضيت بذلك أرسلت بعضا من رهبانى يبنون لك ديرا بعيدا من هنا».

فأذرفت مريم أخته الدموع عند سماعها ذلك الكلام ثم لبت دعوة أخيها. فبنى لها ديرا عبر النهر وسمى بدير العذارى. ثم تواردت اليه الفتيات بقصد التبتل، واتبعن قانون الانبا باخوميوس الذى عين لهن مرشدا من أحد شيوخ رهبانه يدعى «بطرس». وكان يقوم بفلاحة الدير بعض من الاخوة الذين يعودون الى ديرهم فى «تبابنا» فى المساء ولا يسمح لهم بتعاطى الطعام عند الراهبات.

أما العذارى الراهبات فكن ينسجن أثواب الرهبان ويخطنها من الصوف والكتان الذين يرسلهما اليهن الوكيل الاكبر «الايكونومس».

دير طيبيو:

كان يزداد الاقبال على الحياة الرهبانية بدرجة كبيرة، وانتشرت الرغبة فى العيشة النسكية على يد القديس باخوميوس كثيرا، وقد وصلت أخباره الى مسامع رجل أشتهر بالورع والتقوى ومن أصل شريف عريق يسمى «بترنيوس» وكان هو نفسه قد شيد ديرا يسمى «طيبيو» فى أحد أملاك أسرته الواسعة، فأرسل الى القديس برسالة رقيقة وهى: «فلتشملنا محبتك بنظرها ولتتفضل الى حقارتنا لكى نستظل نحن أيضا فى حمى هذه العيشة النسكية التى أوحى بها اليك السيد المسيح» فأجاب القديس باخوميوس سؤال بترنيوس ونظم ديره فى سلك أديرته.

وكان بترنيوس قد أوقف كل أرزاقه على هذا الدير. فتولى أمره مدة الى أن أقامه الانبا باخوميوس رئيسا على دير «تزمنت» بقرب مدينة أخميم وأقام «أبولونيوس» مقامه فى «طيبيو» التى تسمى اليوم بلدة «الطواوى».

دير توموشينس:

كان ذلك الدير يضم جماعة من النساك المنفردين، فاتفقوا مع رئيسهم ويدعى «يونان» على الانضواء تحت قانون القديس باخوميوس فكتبوا اليه بما قر عليه رأيهم، فأجاب ملتمسهم. وبذلك كانت تلك هى الجماعة الثالثة من النساك التى رغبت فى الانضمام الى رهبانية القديس باخوميوس.

ومما يروى من سيرة القديس باخوميوس المدونة بالقبطية ولها صلة بالدير المذكور، أنه فى أحد الايام وهو فى دير فاو جاءه عند المساء أحد السعاة يخبره بأن أحد الرهبان فى دير «توموشينس» هذا على وشك النزاع، وهو لم يعمد بعد بماء المعمودية. فسار الانبا باخوميوس من ساعته مع تلميذه الانبا تاؤدرسى، فمشى نصف ليلته حتى وصل الى دير توموشينس، وهى تبعد عن فاو حوالى ثلاثين كيلو مترا تقريبا، وبينهما النيل. فلما دخل الدير أبصر ملاكين نزلا من السماء ليعمدا الراهب المنازع وانتهى الأمر.

وأهم ما يشاهد فى الطريق من دير توموشينس حتى جهة أخميم آثار عديدة لكثير من الاديرة التى كانت تزخر بها تلك البقاع، ومنها ما كان يسمى بدير «طاسا» الذى يدعى بالقبطية "TSI" .

دير أخميم:

أراد أسقف مدينة أخميم وقتئذ ويدعى «آريوس» أن يقرب الرهبان من مدينته فأعطاهم أرضا قريبة من أسوار المدينة، فشيد فيها باخوميوس ديرا كبيرا يعرف باسم دير «أشمين أو أشميم» ثم عرب باسم دير أخميم، وهى المدينة التى سماها اليونان «بانوبوليس» أى مدينة الاله «بان». وقد واجه القديس مقاومة شديدة من بعض سكان تلك المدينة التى كانت معقلا من معاقل جماعة الفلسفات اليونانية الرومانية. وكان يسكن تلك المدينة كثير من الاقوام والشبان المتفلسفين، وكثيرا ما كانوا يتقدمون يتحدون الرهبان، ويجادلونهم ويعرضون عليهم

من أنواع المشاكل والحجج المتعددة بقصد وضع العراقيل أمامهم والازدراء بهم والعمل على تثبيط هممهم بكل الوسائل. الا أن القديس باخوميوس فطن الى خطورة المكان الذى يقع فيه دير أخميم، وأقام فيه من فطاحل الرهبان المتضلعين فى العلوم الدينية واللاهوت ليكسروا من شوكتهم وزهوهم.

واليك بعض المشاكل على سبيل المثال، والتى وردت فى سيرة الانبا باخوميوس المدونة باليونانية وهى: سأل بعض أهل أخميم المتفلسفين الانبا ثاودروس: من هو الانسان الذى مات ولم يلد: قال آدم. ثم سأل أيضا: وأى انسان ولد ولم يمت: قال أخنوخ. قال وأى حى مات ولم تفسد جيفته بالنتن؟ قال: امرأة لوط التى صارت نصب ملح.

دير مينه:

ثم ازدهر دير أخميم ونما عدد الرهبان بقرب تلك المدينة نموا هائلا حتى أضطر القديس باخوميوس الى تشييد دير ثالث سماه دير «مينه» وأقام عليه بترونيوس رئيسا. وهذا الدير كان موقعه بجوار دير «طاسى». ولما لاحظ زيادة عدد العذارى[1] الراغبات فى الزهد، أقام على مقربة من دير مينة هذا ديرا رابعا خصصه للعذارى المتزهدات، وسرعان ما أزهر وامتلأ بهن حتى بلغ من آوى آليه من الرهبات نحوا من أربعمائة راهبة.

دير أسنا:

بعد أن أتم القديس باخوميوس تلك الاديرة العديدة، وانتشرت بسببها الحياة النسكية فى مناطق الشمال، الهمه الله فى الرؤيا أن ينشيء له أديرة فى الجنوب، فسار الى منطقة «طيبة» ومنها الى «اسنا» حيث كان تنصيره فيها. وهناك شرع فى تشييد دير عند سفح جبلها فى منطقة تعرف عند اليونان باسم «بخنوم» وبالقبطية «تنوم».

وبعد فترة من الزمان اجتمع أساقفة تلك الناحية، وكهنتها للنظر فى أمور الدين وأستقدموا الانبا باخوميوس الى كنيسة اسنا وأمطروه بأسئلة عديدة ليتحققوا من صحة ما يذاع عنه من

(١) لما زاد عدد النساء اللانى تهافتن على معيشة النسك وضع باخوميوس الانظمة والقوانين لهن كما فعل للرهبان وجعل رئيسة الدير تشترك مع الرئيس فى شئون الراهبات. وكانت العادة عند وفاة أحدى الراهبات أن يوضع جسدها بجوار النهر، فيأتى الرهبان ويأخذونه فى قارب حيث يتولون مهمة دفنه.

المعجزات كمعجزة أسرار القلوب والانباء بأمور مستقبلة الى غير ذلك مما كان يتناقله القوم بصدده، فأجاب القديس بكل ما اتصف به من حكمة ووداعة على هذه الاسئلة.

وكان فضل القديس باخوميوس عظيما فيما بذله من جهود الجبابرة لا يواء جميع الرهبان الغفيرة التى تكاثر وفودها عليه فى تلك البقاع، فلم يكف عن تشييد الاديرة اللازمة لهم، حتى قيل أنها بلغت ما يقرب من العشرة أديرة، وتفرع منها غيرها بمرور الازمان، حتى بلغت شمالا فى أطراف مدينة كانوب عند مصب فرع الدلتا الكانوبى على ساحل الاسكندرية حيث بلغ تعداد رهبانها حينئذ سبعة آلاف من الرهبان.

ادارة القديس باخوميوس الرشيدة بأديرته

كان النظام الدقيق الذى ابتدعته عبقرية الانبا باخوميوس النادرة وجبروته الفائق فى تأسيس حكومة وطيدة الاركان ذات دستور محبوك الحلقات، لادارة شئون أديرته العديدة مضرب الأمثال. فقد قسم الادارة الى قسميها الطبيعيين وهما الادارة المحلية لكل دير والحكومة المركزية لكافة الأديرة. وفى كلا الادارتين كانت الطاعة المطلقة أساس الدستور، وقد روى المعاصرون أمثلة عجيبة تدل على روح الطاعة العمياء بين الرهبان، منها أن الرئيس اذا طلب واحدا من الاخوة وهو يكتب ترك القلم عند آخر حرف كان يكتبه، وسارع الى تلبية أمره، ثم يعود الى أكمال الكلمة التى لم يتم كتابتها. وهذا راجع الى التعاليم التى اكتسبها القديس وهو فى سلك الجندية الرومانية.

أما الادارة المحلية للدير فكانت توكل الى رئيسه، ولكل رئيس نائب يساعده فى الاشراف على الاعمال اليومية العادية التى يتطلبها الدير. ثم كان لكل دير أمين حتى اليوم يدعى «ربيتة». كما كان فى الاديرة القبطية، وللمكتبة أيضا خازن وكان عادة من النساخ، وهنالك المعلمون والخبازون والنجارون والبناؤون والحدادون والزراع والنساجون والجمالون وغيرهم من الفئات العديدة التى تتطلبها ظروف الحال فى كل دير حسب المنطقة التى يكون فيها، ولكل من هذه الفئات رئيس يشرف على عملها تحت رعاية رئيس الدير أو نائبه، ولما كثر الرهبان وتنوعوا فى الاديرة الباخومية قسموا الى أسر وكل أسرة منها تضم رهبان أمة معينة، ومن المعروف أن حياة الشركة فى تلك الاديرة اجتذبت الرهبان من أمم متباينة مثل السريان واليونان

واللاتيين والارمن والاحباش وغيرهم. وكان لكل أسرة معلم من جنسهم يمكنه التفاهم مع أبناء قطره ويرشدهم. ومن الجائز أن هذا النظام هو الذى ورثته الجامعات فى العصور الوسطى حيث انتشر فى رحباتها نظام الامم، وكان منها جامعة باريس تحوى خمس أمم تشمل الفرنسيين والانجليز والنرمانديين والبيكارديين والنرمان والبريطان، وربما أخذ عن هذا النظام أيضا نظام الاروقة الذى ساد الجامعة الازهرية الى عهد قريب مثل أروقة الصعايدة والبحاروة والمغاربة والشراقوة والاحباش وغيرهم.

وكان مما قرره الانبا باخوميوس هو أن الدير الذى يعتبر وحدة قائمة بذاتها لا ينبغى أن يكون فى معزل عن الاديرة الاخرى وهنا يبدأ نظام المركزية الدقيق ويتدرج الى أن يصل الى الادارة البيروقراطية العليا فى الدير الرئيسى الذى يقيم فى رياسته أب الشركة أو الرئيس الاعلى وهو خليفة باخوميوس. وكان كل ثلاثة أو أربعة أديرة متقاربة يكونون ما يسمى بالقبيلة، ويشترك رؤساؤها فى انتخاب واحد من بينهم فيكون زعيما فى تلك القبيلة، وهم يجتمعون من وقت لآخر للتشاور فيما يلاقونه من صعاب وفيما يهمهم من الأمور، وجميع الرؤساء وزعماء القبائل يخضعون خضوعا تاما مطلقا لا رجعة فيه ولا نقاش ولا استئناف للرئيس العام.

واشراف هذا الرئيس العام يأتى عن طريقين:

١ـ الطريق الاول هو الزيارة، وكان باخوميوس دائم الحركة والتنقل بين أديرته للتفتيش عليها والعلم بدقائق أعمالها، وكان بترونيوس الذى خلفه فى الرياسة بعد مماته ثم من تلاهما من الرؤساء كانوا ينسجون على منوالها وخصوصا الآب الروحى الكبير.

٢ـ والطريق الثانى مركزى يتلخص فى عقد اجتماعين كل عام، وكان جميع رهبان المؤسسات الباخومية يحضرون هذين الاجتماعين فى الدير الرئيسى فى «فاو أوبيو pbau» أو دير الرياسة العليا اذا انتقلت منه لغيره، وتحدد للاجتماع الاول موسم القيامة احتفالا بعيد الصعود وهو من أهم أعياد القبط. والاجتماع الثانى فى ٢٢ مسرى الموافق ١٣ أغسطس. والغرض من هذا الاجتماع الاخير هو بحث حالة الاديرة الداخلية والخارجية وتقديم التقارير الخاصة بكل دير منها، وبعد طرح مسائل الاديرة على بساط البحث ومحاسبة كل رئيس عما قدمت يداه فى أثناء العام المنصرم، يقرر المجلس السياسة العليا العامة التى يجب على الرؤساء

اتباعها لحسن سير العمل والنظام والعبادة فى جميع الاديرة، ثم يعلن الرئيس العام أسماء الرؤساء الفرعيين الجدد كما يعلن التنقلات بين رؤساء مختلف الاديرة. وأخيرا فى جلسة ختامية يحضرها الرهبان قاطبة، تعقد فيها صلاة جامعة وفى مشهد رهيب مؤثر يعلنون مغفرة الخطايا والصفح العام عن ذنوب المذنبين، ثم يبارك الرئيس الاعلى جميع الحاضرين.

ومن العجيب أن نظم وقوانين باخوميوس العظيم ظهرت أنظمته فى الديرية البندكتية التى أسسها القديس بندكت الذى أقتبس الكثير من أفكار القديس فى حياة الشركة اقتباسا يكاد يكون فى بعض الاحيان نقلا حرفيا. وأصبحت الصبغة الانسانية الروحية فى رهبنة الغرب مصرية المنبت. وقد ظلت قوانين باخوميوس وتعاليمه منتشرة تتداولها أيدى الرهبان الغربيين خلال العصور الوسطى.

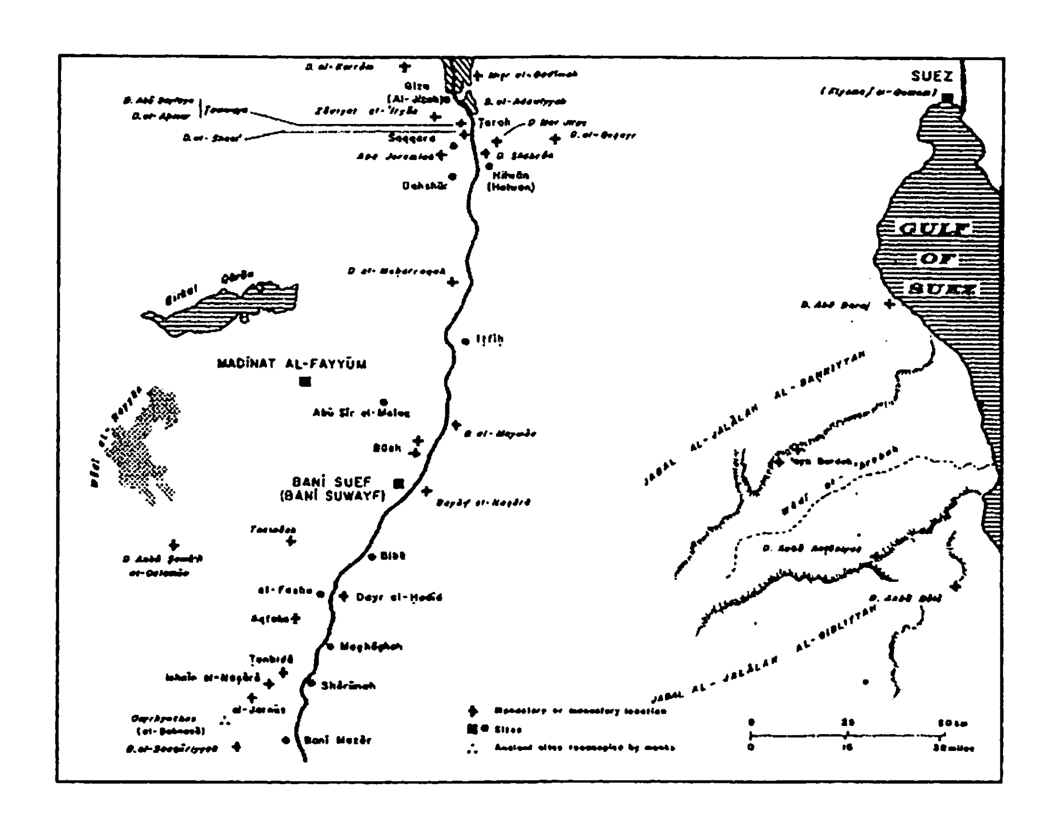
رحيل القديس باخوميوس:

كان المجهود الجبار الذى يقوم بأعبائه القديس باخوميوس من الاعمال العديدة وتنظيم الاديرة الكثيرية التى قاسى وعانى الكثير فى تشييدها حملا ثقيلا على كاهل الزعيم الاكبر كما لا يخفى ما كان يبذله دائما فى التنقل بين أديرته ومن مكان الى آخر واعظا ومرشدا ومنظما، وبهمة لا تعرف الكلل أو الملل، وحتى عندما وقع الطاعون فى أرض مصر عام ٣٤٨م، وأنتشر ذلك الوباء حتى امتد الى الاديرة الباخومية، وكان يحصد الكثير من الاخوة، فكان باخوميوس وهو مثل أعلى للزعماء يتنقل بين تلاميذه من المصابين عندما وقعت الكارثة بهم فى كل مكان، وكان يقوم بتمريضهم ويساهم فى دفن موتاهم، ويعمل على تقوية جمعهم بالايمان والصلاة غير مكترث بما يحفه من المخاطر حتى اذا ما فات عيد الصعود من تلك السنة الا وبدأ هو أيضا يشعر بأعراض المرض تهده هدأ حتى خارت قواه وعرف بقرب رحيله الى الرفيق الاعلى.

عندئذ جمع أبناءه حوله وأوصاهم أن يتمسكوا بأهداف النظام الذى وضعه، فلا يفتروا فى الصلاة أو العمل، وأنه متى جاءت الساعة فلهم أن ينتخبوا من يشاءون لرئاستهم، ولكنه يقترح عليهم مجرد اقتراح أن يكون خلفه «بترونيوس» ويظهر من ذلك أن القديس لم يكن مستبدا فى حكومته، بل ديمقراطيا أذ ترك لجماعته حرية الانتخاب من يرونة صالحا لزعامتهم.

وفى النهاية توفى باخوميوس يوم ١٥ مايو حسب التقويم اليونانى أو ٢٢ مايو حسب التقويم القبطى. وما زالت السنة التى حدثت فيها الوفاة غير مضبوطة تماما وقيل عام ٣٤٨م عن سبعة وخمسين من العمر.

وقد قام بجنازته تلميذه الانبا «تاودروس» ـ أو تادرس ودفنه فى الجبل المجاور بالدير. ثم نقله خفية الى مكان آخر وفى بقعة غير معلومة تنفيذا لوصيته حتى لا يكون جسده محلا للتبجيل أو العبادة، وكان تادرس يأتى ليلا عند قبره ويصلى دون أن يعلم به أحد من الاخوة. فكان رحيله يوما رهيبا عم فيه الحداد والحزن الشديد بين جموع وجحافل الناس والرهبان. وترك من الآثار الجليلة المباركة بين أرجاء المسكونة ما لا يقوى للدهر على محوها.



الأنبا شنودة[1] الاخميمى وأديرته ٣٤٣/٤٥١م

أصله ونشأته:

يرجح المؤرخون أنه ولد عام ٣٤٣م فى قرية تدعى شنلالا قرب مدينة أخميم[2] بالوجه القبلى من أبوين اشتهرا بالتقوى والفضيلة، ونشأ ابنهما محبا للصدق وعمل الخير ميالا للصوم والصلاة والتقشف منذ نعومة أظفاره، فأرسله والده وهو فى سن التاسعة الى خاله الانبا «بجول» الذى كان ناسكا ذائع الصيت فى ورعه بالقرب من مدينة سوهاج، فسر منه وتنبأ له بمستقبل ذى شأن فى تاريخ المسيحية. وقد تحققت نبوءته فيما بعد وحاز فعلا على شهرة فائقة فى شجاعته وبره وايمانه وقد ورد فى سيرته أن خاله الانبا «بجول» ألبسه رداء «أسكيم الرهبنة» وهو فى ذلك السن الصغير كما أوعز الله له فى رؤيا ثم انتظم فى سلك الرهبنة وبلغ من شدة تقشفه أنه كان لا يتناول طعام أفطاره الذى يحتوى على قليل من الخبز والملح والماء الا وقت الغروب يوميا. وفى الاربعين المقدسة كان يقتات بالنباتات فقط. كما ذكر عنه المؤرخ تقى الدين المقريزى، أنه كان مرارا يطوى فى الاربعين المقدسة. وحدث بعد ذلك أن أثرت عليه تلك المعيشة الصارمة التى كان يحياها اذ ضعف جسمه ونحل حتى لصق جلده بعظمه.

وكان كثير الصلاة والتضرع الى الله من أجل الخطاة ويقضى معظم الليل فى التعبد ولاينام الا فترة وجيزة. كما عرف عنه شدة الرغبة فى الانفراد خارج الدير ليتفرغ للعبادة ويوصى الرهبان بألا يقطعوا عليه صلاته بخالقه. ويروى أن أبليس كان لا ينفك عن محاربته وكثيرا ما كان يظهر له على هيئة ملاك محاولا أن يثنيه عن ورعه وتقواه وهجر حياة التقشف والنسك، ولكنه تغلب عليه بقوة صلاته وصومه المتواصل ودوام يقظته. ويقال أنه عمر طويلا ووصل الى الثامنة عشر بعد المائة، ونظرا لما امتاز به من حدة الذكاء والزهد والتقوى أجمع

---

(١) أصل اسمه مصرى قديم وذكرت بعض المراجع هو «سانتر» بمعنى «ابن الله» وكتب بالقبطية «شينوتى» ثم فى العربية «شنودة» ولكن جاء عن لسان أحد علماء القبط أن أسمه الحقيقى هو «خنودة» أو «عنخ نوده» وتترجم بالعربية باسم «حى هو الله».

(٢) كانت العاصمة الدينية للمقاطعة التاسعة فى العصر الفرعونى القديم «مين» واسمها بالمصرية القديمة هو «برمين» بمعنى بيت الاله مين. وبالقبطية «أومين» وسماها الاغارقة «بانوبلس Panopolis» أى مدينة الاله «بان» الذى يقابل الاله «مين Min» عند الفراعنة وهو المعبود الذى كان رمزا للخصوبة والنسل. وكان بالمدينة مدرسة لتعليم الغنوصية وكان يسكنها كثير من المتفلسفين.

الرهبان على اختياره خلفا لخاله الانبا «بجول» رئيسا للمتوحدين فى الدير الابيض الذى تولى ادارته منذ عام ٣٨٨م، ثم قام بعدة اصلاحات جديدة حوله، وعلى الاخص الكنيسة العظيمة التى شيدها.

وقد وجد حول ديره عدة أديرة أخرى بعضها للرهبان والبعض الآخر للراهبات وضع لها الانبا شنودة نظما جديدة وقواعد غاية فى الشدة والصرامة خصوصا فيما يتعلق بالاشرار والكهنة السيىء السيرة، وقد أصبح تأثيره على الاقاليم المجاورة عظيما وذاع صيته حتى هرعت اليه الالوف من الزائرين والحجاج من مشارق الارض، ومغاربها من سوريا والقسطنطينية واليونان وروما وبلاد الغال وأسبانيا وغيرها من الاقطار البعيدة اكبارا لشأنه واحتراما لمقامه، وممن كان معه من القديسين من الرهبان فى ذلك الوقت ومن معاصريه هم باخوميوس ومكاريوس الكبير ويوحنا وغيرهم. وكان الحجاج يحملون اليه الهدايا والنذور ويتلقون منه النصح والارشاد ويتهافتون على الالمام بما تركه من مواعظ وحكم سامية خالدة.

ولما زاد عدد الرهبان كثيرا فى عهده اضطر الى انشاء عدة أديرة ومنها ما خصص للعذارى[١] اللائى نذرن بتولتهن للرهبنة. وعلاوة على الاديرة العديدة التى أنتشرت فى زمنه وزيادة عدد الرهبان، الا أنه انتشر كثير من النساك المتوحدين بالمغائر والجبال المجاورة لديره. وقد فرض عليهم ضرورة الحضور الى الدير الكبير أربع مرات سنويا للتناول من الاسرار المقدسة. كما فرض على الرهبان فى الدير قوانين يسيرون تماما بمقتضاها. وكان يحتم على الحديثى العهد أن يمضوا أولا زمنا خارج الدير لاختبارهم. ثم يصرح لهم بعد ذلك بالدخول الى الشركة متى ثبت له مقدرتهم على معيشة النسك الطاهرة ويسمح للراهب منهم بالاقامة فى غرفة خاصة. وكان يتعهدهم بنفسه جميعا ويحتم عليهم التخلى عن كل ما يملكون. وكانت الطاعة والعفة من الشروط الاساسية الهامة التى اذا لم تتوفر للراهب يطرد من الشركة. كما أن جميعهم فى الزى والأكل سواء، فانعدمت فيما بينهم الفوارق الاجتماعية.

هذا ومن فضائله التى أدخلها على نظم الرهبنة أنه لم يجعل عمل الراهب قاصرا على الصوم والصلاة ومباشرة الطقوس الدينية فحسب بل حتم عليه استغلال أوقات الفراغ للعمل

(١) عندما كثرت أعداد العذارى الراغبات فى ممارسة الحياة النسكية أقام الانبا شنودة ديرا للنساء. وقد جعله تحت رئاسته، وقد وصل عدد الراهبات فيه الى الف وثمنمائة راهبة.

في أى مهنة تناسب استعداده بعد الانتهاء من واجباته الروحية. وعلى ذلك لم يعد الاعتماد على الرهبان على ما يحتاجون اليه من المأكل والملبس من الهبات والصدقات والنذور التى تأتى اليهم من سكان البلاد المجاورة وغيرها كما كان من قبل. وكان من نتيجة ذلك أنتشار كثير من المهن والصناعات المختلفة بين الرهبان كما أنشئت المصانع اللازمة لها، ومن أبرز الصفات التى أشتهر بها الانبا شنودة وأتباعه شدة تعصبهم الى عقيدتهم فكانوا مدافعين ممتلئين بالحماس الكلى للارثوذكسية فصارعوا صراعا عنيفا مع الاديان الاخرى والسلطات السياسية وضد البدعة الاريوسية، كما اشتهروا بمحاربتهم لمعابد المصريين وآثارهم وهدم هياكلهم وأصنامهم. وقد تم ذلك فى عصر الامبراطور «ثيودوسيوس Theodosius». وكان الانبا شنوده يعيش فى ديره كما كان يحيا النبى ايليا فى جبل الكرمل كرجل روحى قوى الشكيمة صارم العزيمة مقداما يستمد الوحى من ربه. فكانت تهابه وتخشاه حكام مدينة طيبة وحتى القبائل البربرية نفسها. وقد عرفه الامبراطور وقدره كذلك. كما رافق «الانبا كيرلس» البطريرك الرابع والعشرين كأسقف يمثل الكنيسة فى مجمع أفسس عام ٤٣١ للميلاد لمحاكمة «نسطورس» الملحد حيث أبدى شنودة من مواقفه الحماسية ما يشرف، وهو قبطى الاصل، وبالرغم من معرفته باللغة اليونانية الا أنه كان يكتب مواعظه وخطاباته بالقبطية اعتزازا بقوميته.

هذا وقد ترك الانبا شنودة عدة مؤلفات قيمة من مخطوطاته، وعثر فى القرن الماضى على مجموعة كبيرة منها فى الدير الابيض اقتسمها المتحف البريطانى والمكتبة الاهلية بباريس. وقام بنشر أغلب تلك المخطوطات بالفرنسية العالمين «اميلينو Amélneau» و «ريفيلو Revillou». ولايزال الاقباط يحتفلون سنويا الى يومنا هذا بعيد له فى ديره الشهير فى أخميم. ويؤمه عدد كبير من الزائرين والحجاج من جميع الملل والهيئات تبركا لذكراه واعتقادا منهم أنه يشفى أمراضهم. وقد بنيت على أسمه كنائس عديدة فى أنحاء كثيرة من القطر تخليدا لذكراه.

أوجه الخلاف بين شنوده وباخوميوس

يظهر من تتبع حياة الانبا شنوده وسيرته أنه وجد فى نظام الانبا باخوميوس ما اعتبره تساهلا زائدا ومع أنه أحتفظ بتعاليم الشركة، الا أنه أدخل عليها من القوانين والتعديلات ما

جعل حياة الاخوة فى رعايته أشد واقسى مما كانت عليه الاوضاع المقبولة عند باخوميوس. وكان الانبا شنوده يعادى كل شيء بيزنطى دخيل. وهذا يفسر لنا موقفه العنيف من نسطوروس وحركته فى القسطنطينية، كما يفسر لنا الفرق الهائل بين مؤسساته ومؤسسات باخوميوس من ناحية أخرى، أذ بينما كانت هذه الاخيرة دولية فى طابعها يقصدها جميع الاجناس كالمصرى والبيزنطى واللاتينى والفلسطينى والليبى والافريقى على السواء بينما الانبا شنوده أقتصر هو فى أديرتة على الاقباط فقط فأصبحت أديرته معاقل مصرية صميمة وبينما كنائس باخوميوس خاصة بالرهبان فقط الا ان شنوده فتح كنائس الدير للشعب كذلك يأتون اليه فى أيام الاحاد والاعياد فيعظهم ويرشدهم لحبه الشديد لشعبه ومقاسمته لاتعابهم كفلاحين يرزحون تحت نير الرومان فهاجم ظلم كبار الحكام والملاك ودعا للرفق بالفقراء. كما أمتاز شنوده بقوته فى الكتابة وبلاغته كما كانت فصاحته الخطابية من أظهر مواهبة.

ويغلب على الظن أن قصر أديرة الانبا شنوده على الاقباط فقط ذلك الوضع المحدد الضيق أدت الى قلة المعلومات التى كانت مثار النقد فى كتب الرحالة والحجاج الذين شغفوا بزيارة مؤسسات الاباء المصريين فى أقصى القفار والصحارى المصرية لاسيما الاب الرحالة «بلاديوس» الذى لم يورد فى كتاب «بستان الرهبان» أى أشارة للانبا شنوده أو جماعته الرهبانية، وغير معقول أن بلاديوس كان يجهل وجودها، ولكن من الجائز أنه لم ترق فى نظره المبادىء التى ساروا عليها وفضل الايتناول الكلام عنها وعن مؤسسها.

آثار الانبا شنوده

الدير الابيض: يبعد هذا الدير عن مدينة سوهاج بحوالى ثمانية كيلو مترات. والسبب فى تسميته بهذا الاسم ربما يرجع الى أنه مشيد أغلبه من الحجر الجيرى، وينسبون بناءه الى الانبا شنوده حوالى القرن الرابع الميلادى ويخيل الى من يشاهد ذلك الدير وهو مقبل اليه كأنه ينظر الى معبد عظيم من معابد الفراعنة التى أنشئت قبل الميلاد بمئات من السنين على طراز معابد مصر القديمة. وهذا النمط الذى اتخذه الرهبان فى تشييد هذا الدير جعله ينفرد على سائر الاديرة العديدة التى أقيمت فى وادى النيل فى نظام المبنى وخواصه.

على أن معظم الاحجار التى أستخدمت فى بنائه أن لم تكن جميعها قد أخذت من معابد

مصرية كانت قائمة على مقربة من الدير، بدليل ما يشاهد على سطوح تلك الاحجار من الرسوم والكتابات الهيروغليفية العديدة ـ وقد لجاء الاقباط الى أخفائها عن الاعين بتغطيتها بالملاط أو بطبقة من الجبس ولما سقطت القشرة التى كانت عالقة بتلك الاحجار ظهرت الرموز والرسوم المصرية القديمة واضحة تماما. ويلاحظ أنه يتخلل البناء أحيانا كتلا ضخمة من الجرانيت الاسود أو الوردى ومعظمها يحمل النقوش والكتابة الفرعونية. وهذه الكتل الصخرية ظاهرة بوضوح فى أكتاف وأعتاب الابواب الخارجية لهذا الدير. ولم يكتف مشيدو الدير بأخذ مواد البناء من المعابد المصرية فحسب بل طبقوا الطراز المصرى القديم تماما وأتخذ المعماريون أول ما وقع بصرهم عليه عندما شرعوا فى تشييده، فمنه أقتبسوا وعليه أعتمدوا، كما يجب الاننسى أنهم أحفاد المصريين القدماء. فورثوا عن معمارى أجدادهم القدماء كثيرا. ومهما طرأ على نظام المبنى من التغيير فى شكله فلابد من أن يصطبغ بالطراز المصرى القديم فى روحة وطابعة.

أما الأبواب الخارجية لهذا الدير فظاهر منها خمسة. أربعة منها مسدودة بكتل حجرية أما الباب الخامس منها فهو الباب الموصل الى داخل الدير ويعرف باسم باب البغل. وفى وسط العتبة العليا رسم بارز للصليب داخل اكليل دائرى. أما توزيع الابواب فهو كالاتى: بابان فى الجهة الغربية ومثلهما فى الجهة القبلية وآخر كبير يقع فى منتصف الجدار البحرى للدير.

ويتخلل الجدران الخارجية للدير فى الاجزاء العليا منها نوافذ ضيقة، ويظهر أنها كانت تستعمل كمغازل يراقب منها الرهبان حركات العدو من الاعراب الذين كثيرا ما كانوا يسطون على الدير لنهب مافيه. ويشاهد بعد الدخول من بابه العمومى صالة مستطيلة يتخللها على اليمين جدار ذو أقواس تعلوها كرانيش ذات نقوش وزخارف نباتية جميلة منحوتة على الحجر الجيرى. ثم يوجد على جدران تلك الساحة «قبلات أى شرقيات» عديدة بوسطها نقوش وزخارف متنوعة ـ فمنها مايتوسطها شكل القوقعة "Shell" ومنها ما بوسطه أغصان الكروم المورقة ويتدلى منها عناقيد العنب كما أن الاغصان تخرج من أوانى جميلة دقيقة الصنع. والبعض يتخلله نفوش وزخارف نباتية متداخلة بعضها فى بعض ويتوسطها صليب صغير داخل أكليل دائرى. والقبلتان اللتان لهما شكل القوقعة فى تلك الصالة تقومان كلا منهما على عمودين مستديرين من حجر الجرانيت الاسود.

وفى أحدى جوانب تلك القاعة «ناووس» يكاد يكون كاملا من حجر الجرانيت الاسود

وعليه النقوش والخراطيش والكتابة المصرية القديمة مما يدل على أن رهبان الدير كانوا قد حملوه الى الدير من أحد المعابد المصرية التى كانت مجاورة لهم للاحتفاظ به لديهم. وقد يفسر وجود هذا التابوت أن الدير أقيم محل المعبد المصرى القديم حيث أن فكرة نقل التابوت شبه مستحيلة ولا هدف منها.

ثم ننفذ بعد ذلك الى صالة أخرى مستطيلة الشكل. ويشاهد على جدرانها من حين لاخر القبلات. ومنها قبلة غربية الشكل وفى تجويفها الاعلى نسر باسط جناحيه ثم أشبة بتاج فوق رأسه وهو داخل اكليل، وخارج هذا الشكل طاؤوسان متعاكسان فى وضعهما وفوقهما أفرع نباتيه. وعلى الكورنيش الاعلى الخارجى للقبلة غز الان فى حالة عدو أو حركة بين فرع نباتى.

وفى وسط تلك الصالة لاتزال فيها بعض الاعمدة القائمة من الجرانيت الاحمر، ثم أعمده مبنية بالطوب الاحمر من الخارج. أما باطن تلك الاعمدة فيظهر أنها من الرخام أو الجرانيت، ثم نرى فوق بعض تلك الاعمدة تيجانا من الجرانيت على جانب كبير من دقة الصنع وجمال النقش، وأن عددا كبيرا من تلك التيجان الجرانيتية الضخمة ملقى على أرضية تلك الصالة الوسطى وعلى بعض التيجان شكل بارز لوجه آدمى وحول رأسه أشبة بأكيل ويتدلى من رقبته أشبة بعمود كالقصبة الهوائية. أما النقوش البارزة الاخرى التى تزين تلك التيجان فهى رسوم نباتية. وتحوى قبابها من الرسوم الملونة على طبقة من الجبس أشكالا زخرفية جميلة ولو أن معظمها قد زال من تأثير الدخان الذى طمس معالم الكثير من تلك الرسوم. على أن الصليب يشاهد فى وسط شكل أشبه بالسرة.

أما عن الكنيسة التى فى هذا الدير فهى غريبة فى نظامها وطرازها، كما تختلف عن النظام الملاحظ فى كنائس مصر القديمة التى تعاصر تقريبا لكنيسة هذا الدير، فمما يلاحظ عند الدخول اليها قبتان كاملتان فى الوسط الواحدة تلى الاخرى، ثم تليهما الهيكل وفوقه قبة نصفية الشكل مرسوم على أحد جدرانها صورة رائعة بالالوان من نوع الفرسكات وتمثل السيد المسيح جالس على العرش ويمسك بيده صليبا جميل الصنع بالألوان قوامها اللون الذهبى. وحول العرش صورة الاربعة حيوانات فى أشكال غريبة تخالف ما تعودنا رؤياه على صور الايقونات المرسومة على اللوحات الخشبية ثم حوله صور أخرى لعلها للرسل أو لبعض القديسين. وعلى الجانب الايمن من الهيكل جناح على شكل نصف دائرة وتعلوه أيضا قبة

نصفية تعلو هيكل الكنيسة الوحيد وفى داخل هذا الجناح ستة أعمدة متوسطة الحجم من الجرانيت ذات تيجان منقوشة وقواعد. وبين تلك الاعمدة وبعضها قبلات، وفى الجزء العلوى منها أشكال القواقع ورسوم أخرى. ثم تعلو الاعمدة كرانيش من الحجر مزينة بالنقوش والرسوم الزخرفية، ثم يعلوه أيضا أعمدة أخرى أصغر حجما من الاولى ذات تيجان ويتخللها أيضا أشكال القبلات الصغيرة ذات الزخارف والنقوش البديعة أما القبة النصفية لهذا الجناح فتزدان برسوم ملونة قوامها صليب كبير الحجم ويرتكز عليه أشبه برداء وحول الصليب أشبة بسيدات ربما المريمتان وأشخاص الرسل والقديسين. وهذا الجناح الايمن للهيكل مخصص لجلوس النساء أثناء الخدمة والصلاة.

أما الجانب الايسر للهيكل فيحوى جناحا أشبة بالجناح الايمن أذ تعلوه نصفية ثم توجد به خمسة أعمدة متوسطة الحجم من الجرانيت ذات تيجان ثم تعلوها كرانيش من الحجر الجيرى ويتخللها أشكال صلبان وقبلات وفى أعلاها نقوش لقواقع أو أفرع الكرم التى تخرج من فوهات أوانى بديعة الصنع ويتدلى من بين الافرع عناقيد العنب. وفى وسط أحدى القبلات توجد كتابة قبطية باللون الارجوانى ومعظم حروفها مفقوده. ثم يعلو الكورنيش أعمدة أصغر من الاخرى ذات تيجان صغيرة وفيما بينها نشاهد القبلات أيضا. أما القبة النصفية فى هذا الجناح فلا تحوى رسوما مثل ما لوحظ فى القباب النصفية الاخرى. وعلى غالب الاحتمالات أنها زالت أو طمست معالمها بعد طلاء القبة بالجبس أو الملاط.

ونشاهد فى داخل الهيكل ستة أعمدة من الجرانيت ذات تيجان مختلفة الاشكال والنقوش، وفوق تلك الاعمدة كورنيش من حجر الجرانيت الاسود يزدان بنقوش زخرفية نباتية ثم تعلو الكورنيش عادة أعمدة أخرى ذات تيجان أصغر من الاولى كما شوهد ذلك فى الجناحين المجاورين للهيكل. وفى وسط بعض الاعمدة يوجد رسم بارز للصليب. وللهيكل حجاب من الخشب المطعم بالعاج البسيط وتعلوه أيقونة تمثل الانبا شنوده وتلميذه ويصا. يرجع تاريخها الى عام ١٥٧٨ الشهداء.

ومن طريف ما يلاحظ أيضا فى أقصى الناحية الغربية القبلية من الدير الابيض وبالقرب من الساقية قبة كبيرة مبنية من الطوب الاحمر بترتيب دقيق، ولا تزال آثار الرسوم الملونة التى كانت تزينها باقية عليها الى الان. وهذه القبة فى حاجة ماسة الى الترميم السريع خوفا من سقوطها.

أما عن هذه الكنيسة فهى آخر المبانى الباقية من الدير الابيض وقد قام بتأسيسها الانبا شنودة نفسه حوال عام ٤٤١ للميلاد حينما كانت المؤسسة الديرية فى عز مجدها ولذلك لا غرابة فى أنها كانت أعظم مبانى الدير وأبقاها على الزمن واذ اندثرت جميع تلك المبانى بسبب ما طرأ عليها من أحداث الزمان. فقد ورثت هذه الكنيسة اسم المؤسسة كلها وأصبحت تعرف بالدير الابيض. وهى تعد من أعظم وأهم الكنائس القبطية الاثرية معماريا.

وتمتاز باتساعها الكبير ورحابة مبانيها اذ يبلغ طولها ٧٥ مترا وعرضها ٣٧ مترا وأرتفاع جدرانها ٢٠ مترا مما جعلها تبدو من الخارج كأنها أحد القلاع العظيمة أو أحد المعابد المصرية القديمة. هذا وقد عفت يد الزمن على كثير من مبانيها فلم يبق منها الان سوى هياكلها، وهى المستعملة الان كنيسة حيث لا تزال تقام الشعائر الدينية حتى الان.

ولم يحفظ لنا التاريخ عنها الا قليلا، أذ بعد عصرها الذهبى ايام شنوده لم يرد لها ذكر حتى القرن الثامن. وذكر أن فى القرن الثالث عشر حدث زلزال أدى الى تصدع مبانيها وسقوط سقف الهيكل وتطلب الامر أجراء بعض الترميمات التى غيرت شكل الكنيسة. وهناك نص من نفس هذا العصر فيه أشارة الى «النبى شنوده» ويحدثنا المؤرخ تقى الدين المقريزى فى القرن الخامس عشر عن خراب الدير فى عصره، وكيف كان يشغل مساحة قدرها أربعة أفدنة وثلاثة أرباع الفدان، فأذا به يشغل فدانا واحدا. وأخيرا جاء التخريب الواسع النطاق فى أواخر القرن الثامن عشر أثناء المعاركة الحربية التى دارت بين الفرنسيين والمماليك.

الدير الاحمر: يبعد هذا الدر عن الدير الابيض بحوالى أربعة كيلو مترات الى الشمال. وقدسمى بهذا الاسم لان أغلبه مبنى بالطوب الاحمر، كما أن جدرانه مغطاه فى أكثر أجزائها باللون الاحمر وينسب هذا الدير الى قديس مشهور وهو الانبا بشوى الذى يعزى إليه أيضا بناء الدير الشهير المعروف بهذا الاسم فى منطقة وادى النطرون. ومساحة هذا الدير تبلغ حوالى ثمانية قراريط أى حوالى نصف مساحة الدير الابيض.

أما حوش الكنيسة فالظاهر أنه كانت مقامة فيه عدة أعمدة من الجرانيت الاسود ومحفور فى الوسط الصليب داخل دائرة. وهناك آثار وبقايا عديدة لاعمدة من الجرانيت الاحمر. أما الطراز الذى أتبع فى تشييد هذا الدير وهو نفس التصميم الذى نراه فى نظام الدير الابيض أى طراز المعابد المصرية القديمة، والاختلاف عنها فى أن المواد التى أستعملت فى المبانى هو

الطوب الاحمر بدلا من الحجر. ولهذا الدير حوش واحد بخلاف الدير الابيض، ومن وسط الحوش المذكور ننفذ الى كنيسة الدير وهي وأن كانت صغيرة فى مساحتها الا أنها غنية فى رسومها ونقوشها واعمدتها وقبلاتها.

على أن مدخل الباب الموصل الى الكنيسة من الحجر الجيرى، وعلى عتبته السفلى نقوش وحروف مصرية قديمة مما يدل على أنها أخذت من المعابد المصرية القديمة التى كانت تجاور هذا الدير. وفوق العتبة العليا للباب ناووس فوقه صليب داخل دائرة. أما هيكل الكنيسة فهو شبية بهيكل الدير الابيض، ففى صحن الكنيسة قبة كاملة مرتفعة خالية الرسوم أو النقوش، ويغلب على الظن أنها كانت تحوى رسوما ملونة زالت معالمها إما بسبب ترميهما وتغطيتها بالملاط أو الجبس على أيدى عمال عديمى الخبرة واما أنها تساقطت لتعرضها للتأثيرات الجوية أو لتقادم العهد عليها. ثم يلى الصحن الهيكل وتعلوه قبة نصفية وفى وسطها رسوم بالالوان بعضها ظاهر مثل رسم السيد المسيح وحوله الرسل والبعض الاخر غير واضح.

وعلى كل جانب من الهيكل جناح تعلوه قبة نصفية فى وسطها آثار للرسوم الملونة التى كانت تزدان بها تلك القباب ونشاهد أيضا الاعمدة الجرانيتية ذات التيجان الدقيقة النقوش والرسوم البارزة، والكرانيش التى تلى تلك الاعمدة والتى تحوى نقوشا بديعة على الحجر، ثم تعلوها أيضا أعمدة أخرى من الحجر ويتخللها القبلات التى تزدان بالرسوم الملونة غير أن أغلبها غير ظاهر أو أدركه البلى والزوال. ويراعى أن تيجان الاعمدة التى تزين هيكل كنيسة الدير الاحمر أدق وأبدع فى نقوشها وأشكال أوراقها التى تمثل نبات الاكنتا البارزة من تيجان أعمدة الدير الابيض. وفى داخل الهيكل اربعة أعمدة متوسطة الحجم اثنان منها من الجرانيت الاحمر وأثنان من الرخام. ويتبين أن هذا الهيكل بالدير الاحمر تمتاز جدرانه وقبابة بكثرة الرسوم الملونة أكثر من الرسوم الموجودة فى كنيسة الدير الابيض.

ويشاهد كذلك على الجدران الوسطى للهيكل التى تلى الكرنيش الواقع فى أعلى الاعمدة رسوم عديدة ملونة تمثل حيوانات غريبة الشكل يظهر جزء منها وهو غاية فى الدقة والجمال والاتقان. وعلى جدران الهيكل آثار الحريق ظاهرة. ويعزوها البعض الى تكرار هجمات الاعراب على الدير وأضرام النار فية. ويوجد فيه بعض الابواب التى توصل الى المعمودية والى غرف جانبية لعلها استخدمت كمخازن للدير.

وللهيكل كالعادة حجاب من الخشب المطعم بالعاج البسيط، وعليه ايقونه قديمة للانبا بشوى ومما يلاحظ أيضا على الباب الخارجى للدير الذى يوصل الى حوش الكنيسة أنه من الحجر الجيرى الغنى بنقوشه الزخرفية الدقيقة وعتبته العليا من حجر الجرانيت وهى منقوشة بالزخارف المصرية القديمة. وظاهر على الباب المذكور آثار البلى وهو ف حاجة الى الاصلاح والترميم.

أديرة منطقة طيبه «الأقصر»

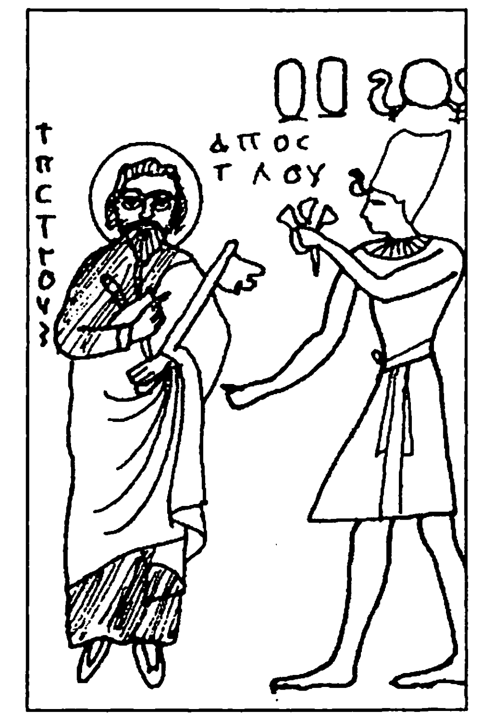
* الدير البحرى
* دير القديس تيودور بمعبد مدينة هابو
* دير القديس فيبامون بناحية مدينة أرمنت
* أديرة نقاده
* دير الأنبا سمعان باسوان

بنى الرهبان المصريون عدة أديرة فى منطقة طيبة وهى الاقصر الحالية الان ومنها:

الدير البحرى: وهو من الاديرة التى شيدها المسيحيون فى طيبة منذ القرن السابع للميلاد وذلك داخل المعبد الجنائزى للملكة المصرية حتشبسوت وأصبح اليوم علما عليه.

دير بمعبد مدينة هابو: فى معبد مدينة هابو فى طيبة أنشىء به دير على اسم القديس تيودر وبه كنيسة على أسمه أيضا وترجع الى القرن الثانى عشر.

دير القديس فيبامون بأرمنت: ومن الطريف أن يكشف الدكتور حشمت مسيحة المدير العام



احتلت الاديرة والكنائس العديد من المعابد الفرعونية كما استولت على اوقافها وممتلكاتها. وفى وادى السبوعة بالنوبة احتلت كنيسة معبد رمسيس الثانى ورسمت على احد جدرانه أمام نقش لرمسيس القديس بطرس

لمصلحة الاثار فى أبحاثه القيمة أخيرا عن طبوغرافية مدينة «ممنونيا أوجيمى» غرب الاقصر عن أماكن بأسماء عدة أديرة كانت منتشرة فى كافة نواحيها. ومنها على سبيل المثال دير قرنة مرعى «ودير أبيفانيوس» ويقع بين أطلال مبانى الاسرة الحادية عشرة بعلوة الشيخ عبد القرنة، «ودير فيبامون» فى معبد الدير البحرى ودير المحارب غرب ممنونيا ودير الانبا مينا ودير بيسنتيوس ودير الرسل ودير الرومى عند وادى الملكات وغيرها. كما ذكر سيادته بمؤلفة عما كانت تزخر بها المنطقة المذكورة بالعديد من الكنائس القبطية القديمة.

أديرة منطقة نقادة: أشتهرت تلك المنطقة منذ فجر التاريخ بعظمة آثارها وتاريخها القديم المجيد، وقد ظل صيتها التاريخى كذلك حتى فى العصور المسيحية المبكرة، وازدهرت فيها الاديرية ازدهارا عظميا كما كان عددها كبيرا بدليل ما بها للان من آثار لعدة أديرة ومازالت بها آثار للكنائس وقد رممت حديثا وتحمل أسماء الاديرة التى كانت منتشرة منذ عهود الرهبنة الاولى ومنها:

١ـ دير القديس فكتور أو بقطر.

٢ـ دير الصليب المقدس.

٣ـ دير الليف.

٤ـ دير المجمع بنقادة وفيه أربع كنائس وهى كنيسة العذراء، وأبو يحنس، وميخائيل، ومارجرجس.

٥ـ دير بسندة أو بسنتيوس.

٦ـ دير الملاك بنقادة بجهة بلدة قامولا.

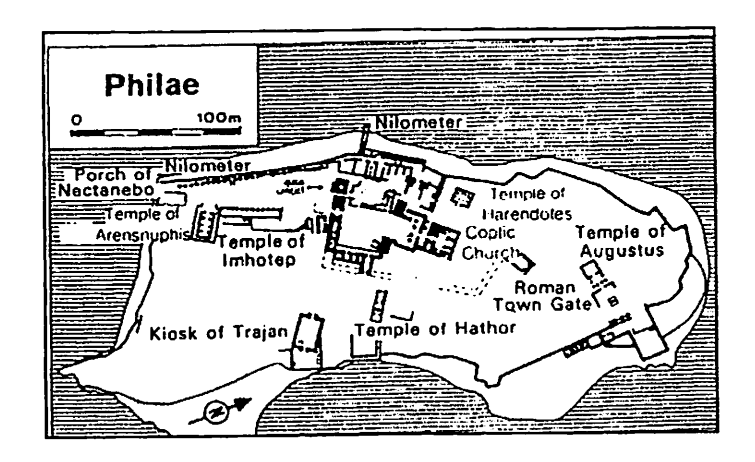
٧ـ دير القزاز أو «الزجاج». ويقع على بعد حوالى عشرة كيلو مترات غرب بلدة نقادة فى الصحراء.

وقد أجريت فى أنقاضه حفائر من بعثة فرنسية بالاشتراك مع المتحف القبطى منذ عام ١٩٤٨. ومازالت تجرى للان فى بعضها الشعائر الدينية فى المواسم والاعياد.

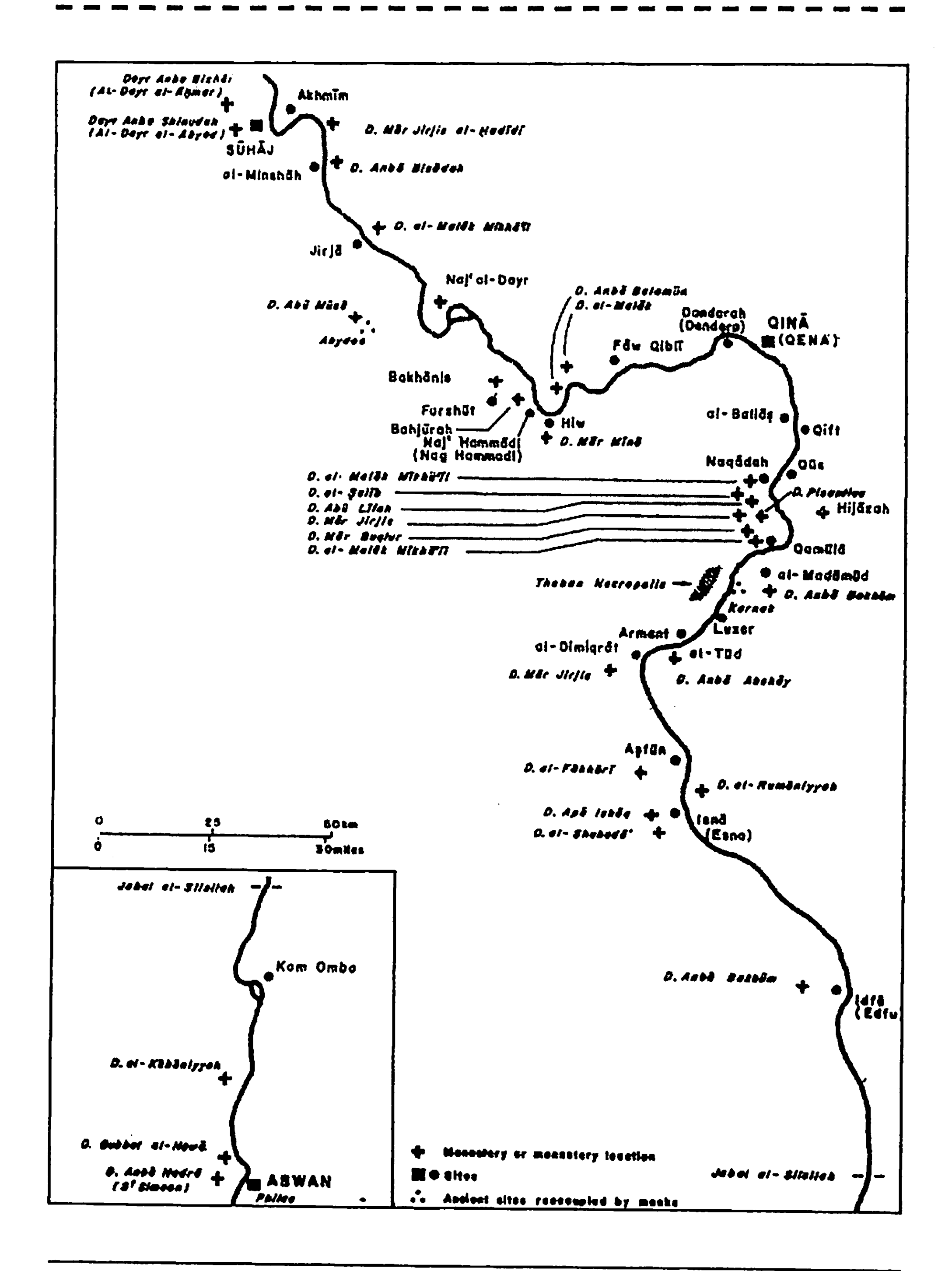
دير سمعان فى مدينة أسوان

أنتشرت الاديرة كذلك فى أقصى حدود القطر، وأهم ما بقى منها فى أسوان هو دير الانبا سمعان ويسمى أيضا بدير الانبا هيدرا. وقد بنى فى القرن السابع أو قبلها. وموقعة بالصحراء غرب أسوان. وقد ظل عامرا بالرهبان حتى القرن الثانى عشر للميلاد. وقد طرا عليه عدة تغييرات فى بنائه. ويتكون من طابقين ومازال محتفظا بأغلب مبانيه، ومنها الكنيسة الرئيسية فيه، وكذلك يحتوى على الكثير من البقايا الاثرية وشواهد القبور المحفورة عليها الكثير من النصوص القبطية، والقلالى وبقايا لعدد من الرسوم الجصية بالالوان ومصورة على بعض الجدران وهى تمثل غالبا أشكال الرسل والقديسين أو بعض الرهبان الذين سكنوا فترة فى أحدى قلالى الدير المذكور. ويلاحظ تشوية أغلب وجوه تلك الصور نتيجة العبث والتخريب خصوصا فى أيام الفوضى والاضطهادات والحروب.

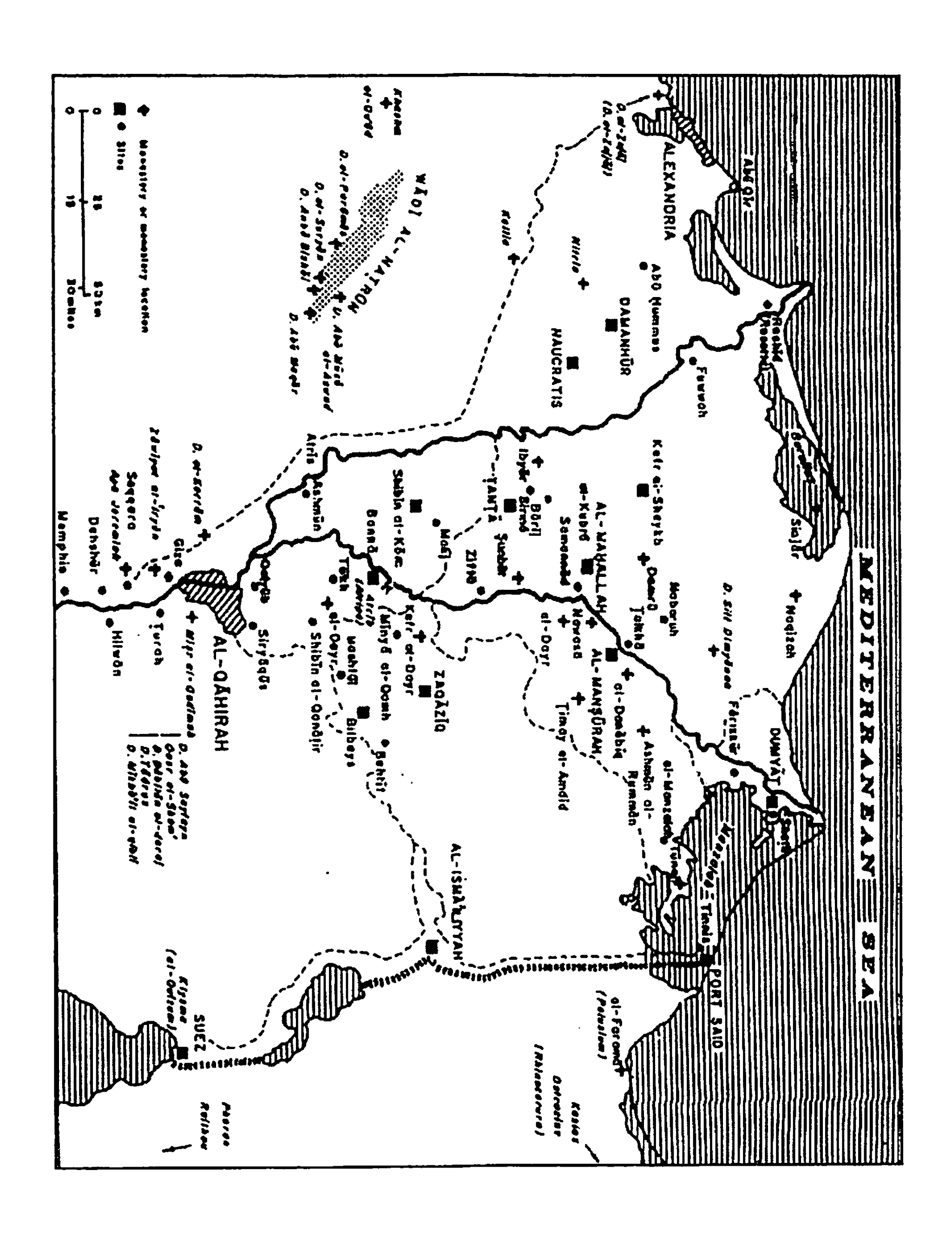
وكان هناك أديرة أخرى لها أهميتها التاريخية والفنية ولكن تناولتها يد الدمار والتخريب وزالت معظم معالمها. ومنها دير فى فيلة يقع شرق مدنية أسوان مقابل لدير سمعان بالغرب(*).



(*) انظر: تاريخ الرهبنة والديرية فى مصر. د. رءوف حبيب مدير المتحف القبطى سابقا، مكتبة المحبة.



Akhmīm
SŪHĀJ
al-Minshāh
D. Anbā Bisādah
Jirjā
Naj' al-Dayr
Abydos
Bakhānis
Farshūt
Bahjūrah
Naj' Hammādī
(Nag Hammadi)
Hiw
D. Mār Mīnā
Fāw Qiblī
Dandarah
QINĀ
(QENA)
al-Ballās
Qift
Naqādah
Qūs
Hijāzah
Qamūlā
al-Madāmūd
Thebes Necropolis
Karnak
Luxor
Armant
al-Dimiqrāt
al-Tūd
D. Mār Jirjis
Asfūn
Isnā
(Esna)
Idfū
(Edfu)
Jabal al-Silsilah
Kom Ombo
ASWAN
Philae
0 25 50km
0 15 30miles
Monastery or monastery location
Sites
Ancient sites reoccupied by monks


MEDITERRANEAN SEA
ALEXANDRIA
DAMANHŪR
NAUCRATIS
WĀDĪ AL-NAṬRŪN
ṬANṬĀ
AL-MAḤALLAH
AL-MANṢŪRAH
DUMYĀṬ
ZAQĀZĪQ
AL-QĀHIRAH
AL-ISMĀʿĪLIYYAH
PORT SAID
SUEZ

فهرس الجزء الثانى

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)
ت: 23904096 - 23952496